

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



پول سوسمان

Paul Sussman

مقاهمة أوزيريس

THE LABYRINTH OF OSIRIS

حادثة اختفاء شبه منسية وجريمة
قتل وحشية كانت مجرد بداية

علي مولا

مآهة أوزيريس

THE LABYRINTH
OF OSIRIS

مآهة أوزيريس

THE LABYRINTH
OF OSIRIS

رواية

تأليف

بول سوسمان

Paul Sussman

ترجمة

حسان البستاني

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

The Labyrinth of Osiris

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر

Atlantic Monthly Press

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © Paul Sussman 2012

All rights reserved

Arabic Copyright © 2012 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1434 هـ - 2013 م

ردمك 978-614-01-0639-0

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: (+961) 1-785107 - 785108 - 786233

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: (+961) 1-786230 - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل.

التنزييد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (+961)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (+961)

المحتويات

تمهيد

11.....	الأقصر، مصر، الضفة الغربية للنيل، 1931
19.....	1972
24.....	في الزمن الحاضر

القسم الأول

27.....	القدس، بعد تسعة أشهر
37.....	غوما، جمهورية الكونغو الديمقراطية
43.....	القدس
55.....	مصر، الصحراء الشرقية
62.....	القدس
71.....	مصر - الصحراء الشرقية
79.....	القدس
86.....	فانكوفر، كندا
91.....	القدس
99.....	الأقصر
107.....	القدس
118.....	الأقصر
122.....	القدس
127.....	باكينغهامشاير، إنكلترا
131.....	القدس
136.....	الأقصر
138.....	القدس
142.....	في مكان ما
159.....	هيوستن، تكساس
163.....	الأقصر
167.....	القدس
183.....	الأقصر

190	تل - أبيب
193	الأقصر
194	بيتاه تيكفاه، إسرائيل
209	الأقصر
218	تل - أبيب
229	هيوستن، تكساس
241	إسرائيل
258	الأقصر
260	القدس
264	الأقصر
271	القدس

القسم الثاني

277	بعد خمسة أيام
278	إسرائيل، صحراء النقب
284	مصر - بين الأقصر وقنا
290	إسرائيل - بين القدس وتل - أبيب
293	مصر
303	تل - أبيب، إسرائيل
316	مصر
329	إسرائيل - تل أبيب
336	إسرائيل - النقب
340	تل - أبيب
344	القاهرة
346	القدس
358	الأقصر
369	القدس
373	الأقصر
384	إسرائيل - النقب
385	القدس
388	الأقصر
396	القدس
400	هيوستن
402	إسرائيل
421	الأقصر
426	إسرائيل
440	مصر

453	رأس الشيطان، خليج العقبة.....
454	القدس.....
470	القدس.....
471	مصر.....
480	القدس.....
483	المتاهة.....
485	القدس.....
487	المتاهة.....
491	القدس.....
492	المتاهة.....
495	القدس.....
496	المتاهة.....
498	القدس.....
517	المتاهة.....
520	تل-أبيب.....
522	المتاهة.....
525	إسرائيل.....
527	مصر.....
528	القدس.....
529	مصر.....
530	القدس.....
537	الأقصر.....
542	القدس.....
546	الأقصر.....
550	القدس.....
553	الأقصر.....
553	القدس.....
556	الأقصر.....
563	إسرائيل.....
566	مصر.....
624	القدس.....
627	الأقصر.....

الخاتمة

633	بعد ثلاثة أشهر.....
647	نبرة عن المؤلف.....

تمهيد

الأقصر، مصر، الضفة الغربية للنيل، 1931

لو لم يقرر الفتى اختبار موقع جديد لاصطياد الأسماك لما سمع مطلقاً الفتاة الضريرة من القرية المجاورة أو رأى المسخ الذي هاجمها.

كان يصطاد في العادة عند لسان مائي صغير وراء حقل القصب العملاق، في مكان يقع في اتجاه مصب النهر حيث ترسو عبّارة النيل داخل الحوض. في هذه الليلة، وبناءً على معلومة من ابن عمه محمد الذي ادّعى رؤية أسراب من أسماك البلطي الكبيرة تنساق مع التيار في المياه الضحلة، قصد الفتى مكاناً يقع قرب منبع النهر، وممرّ بحقل القصب البعيد في بَعِيرات، وصولاً إلى منحدر رملي ضيق تحجبه غَيضة كثّة من أشجار نخيل الدوم عن الأنظار. لقد اعتراه شعور جيد حيال المكان، وشرع بالصيد على الفور. وما إن اصطدم حُطّاف صنّارته بالماء حتى سمع صوت الفتاة. كان خافئاً ولكنه مسموع. لا، من فضلك! لا، رجاء!

رفع رأسه مُصغياً، وسحب التيار خيوط الصنّارة.

"رجاء، لا"، سُمع الصوت مجدداً. "أنا خائفة".

ومن ثم سُمع صوت ضحك؛ ضحكة رجل.

ألقي الفتى صنّارة الصيد على الأرض، وتسَلّق المرتفع الطيني المحاذي للنهر، ودخل غَيضة النخيل. كان المكان مُظلماً، وأوراق الشجر الكثيفة تحجب نور القمر باستثناء بعض التسرّبات. كانت جذوع الأشجار غارقة في الظلّ. لقد صدر الصوت من الطرف الجنوبي للغَيضة، فجعل ذلك الاتجاه وجهته، وسلك درباً تريباً ضيقاً، ومشى بحذر كي لا يُصدر أي ضجيج ويُزعج الأفاعي السامة ذات القرون واللدغات المميّنة المتربّصة في المكان.

"لا"، سُمع الصوت مجدداً. "أستحلفك بالله. أتوسّل إليك!".

كان هناك مزيد من الضحك؛ ضحك مُعِظ وقاسٍ.

توقف الفتى والتقط حجراً، واستعد للدفاع عن نفسه عند الحاجة، ثم تابع سيره سالكاً الدرب التي تنعطف نحو وسط الغيضة، وتعود أدراجها نحو الضفة. التقط لمحات للنيل إلى يساره، وبُقع من الزئبق تتماوج وراء جذوع النخيل، ولكنه لم يتمكن من رؤية الفتاة أو مهاجمها. وعندما بلغ حافة الغيضة وأصبحت الأشجار متباعدة، تمكن أخيراً من رؤية الاعتداء بوضوح.

ارتسم أمامه درب واسع يمتد من حقل القصب إلى يمينه وصولاً إلى النهر. كانت هناك دراجة نارية، وتمكن من رؤية شخصين خلفها بوضوح، تحت ضوء القمر الفضّي. أحدهما، وهو الأضخم بنيةً، راکع وظهره باتجاه الفتى. كان يرتدي ملابس غريبة؛ سروالاً، ومعطفاً جلدياً تكسوه طبقة من الغبار بالرغم من دفء الليل، وينتعل حزمة، ويُمسك بفتاة أصغر منه حجماً إلى حدٍّ كبير، وترتدي جلابية سوداء. لم تكن تقاوم كما يبدو، بل تستلقي كما لو أنها متجمّدة، والجسم الضخم للمعتدي عليها يحجب وجهها.

"رجاء"، قالت متأوّمة، "رجاء، لا تؤذني".

أراد الفتى أن يصرخ، ولكنه كان خائفاً. فزحف إلى الأمام، وجلس القرفصاء خلف أجمة من الدّفل ممسكاً بالحجر. وتمكن من رؤية الفتاة بشكل ملائم وعرفها. إنها إيمان البدرى، الفتاة الضريرة من منطقة الشيخ عبد القرنة، تلك التي يسخر منها الجميع لأنها تمضي أيامها في المعابد القديمة، مستعينةً بعصاها وملامسةً الكتابات المنقوشة، بدلاً من القيام بما يتعيّن على الفتيات القيام به؛ أي الغسل والتنظيف والطهو. ويقول الناس إنها قادرة على الفهم باللمس، ويدعوها إيمان المشعوذة، إيمان الحمقاء.

وفي أثناء التحديق من بين أوراق الدّفل إلى الرجل الذي كان يُمسك بها بقوة يديه، أسف الفتى لما تتعرض له من مضايقة؛ علماً أن الجميع قاموا بذلك بمن فيهم أشقاؤها.

"أنا خائفة"، كررت. "رجاء، لا تؤذني".

"لن أوذيك إذا قمت بما أطلبه منك يا صغيرتي".

إنها الكلمات الأولى التي قالها الرجل، أو على الأقل، الأولى التي سمعها الفتى. كان صوته أجشّ ومبحوحاً وذا نبرة قاسية. وضحك مجدداً، وسحب غطاء رأسها، ومرّر يده على شعرها، فشرعت بالنحيب.

مذعوراً، أدرك الفتى أنه يتعين عليه القيام بأمر ما. فأعاد ذراعه إلى الوراء، مقدراً المسافة التي تفصله عن الشخصين أمامه، واستعدّ لرمي الحجر على رأس المعتدي.

وقبل أن يتمكن من القيام بذلك، وقف الرجل فجأةً واستدار، وغمر ضوء القمر وجهه.

فشهق الفتى. إنه وجه غول. لم تكن عيناه عيني إنسان، بل مجرد ثقابين صغيرين أسودين، وما من أثر لأنف أو شفيتين؛ فقط أسنان كبيرة على نحو غير طبيعي. كانت بشرته شاحبة على نحو شفاف، وخداه غائرتين كما لو أنهما منكمشان اثمئزازاً من الوجه القبيح الذي يشكلان جزءاً منه.

لقد عرفه الفتى لأنه سمع بالشائعات. إنه هاوِعا، أي أجنبي، وكان يعمل في القبور، ويوجد في وجهه فراغٌ. إنه روح شريرة - كما يقول الناس - تتجول في الليل خلسةً، وتشرب الدماء، وتختفي لأسابيع متتالية في الصحراء لمناجاة الأرواح الشريرة الأخرى. وتجهّم وجه الفتى، مقاوماً رغبته في الصياح. "احميني يا الله"، تتم. "يا أرحم الراحمين، أبّقه بعيداً".

خشي للحظات أن يكون صوته قد سُمع لأن المسخ تقدّم خطوة إلى الأمام، وحدّق إلى الأجمة مباشرةً، مُمِلاً رأسه إلى الأعلى كما لو أنه يُصغي. ومَرّت ثوانٍ قليلة؛ ثوانٍ من الاضطراب. وبعد ذلك، توجّه الرجل إلى الدراجة النارية مُطلقاً ضحكة خشنّة مكبوتة كصوت لهاث كلب. ووقفت الضحية على قدميها بمشقة، وكانت لا تزال تنتحب؛ وإن كانت تفعل ذلك بهدوء أكبر.

عندما وصل الرجل إلى الدراجة، أخرج قنينة من جيب معطفه، ونزع الفلينة بأسنانه، وتناول جرعة وتجنّساً، ثم تناول جرعة أخرى، ومن ثم أعاد القنينة إلى أحد الجيبين فيما كان يخرج شيئاً ما من الجيب الآخر. لقد تمكن الفتى من رؤية أحزمة وإبريمات، وافترض أن ما أخرجه غطاء الرأس الحامي. وبدلاً من وضعه على رأسه، هزّ الرجل هذا الشيء وضربه بكفّه، ورفعَه إلى وجهه، واضعاً يديه وراء رأسه لربط الأحزمة. كان قناعاً، قناعاً جلدياً غطى وجهه من الجبين وحتى الذقن، مع ثقب لعينيّه وفمه. لقد جعله ذلك القناع يبدو أكثر بشاعة من التشوهات التي صمّم لحجبها، وأطلق الفتى شهقة دُعر منخفضة أخرى. حدّق الرجل نحوه مجدداً

بعينين بيضاوين تتحركان بسرعة وراء القناع الجلدي، ملقيتين نظرات متفحصة كما لو أنهما تنظران من داخل كهف. وبعد ذلك، استدرا، وأمسك بمقود الدراجة ووضع قدمه على دواسة التشغيل.

"لا تُخبري أحداً عن هذا الأمر"، قال للفتاة منادياً، ومتحدثاً بالعربية. "هل فهمت؟ لا أحد. إنه سرنا".

ضغط على دواسة التشغيل بقدمه، فهدر المحرك. وبرم ذراع التشغيل عدة مرات زائداً سرعة دوران المحرك، ثم انحنى فوق الدراجة، وأدخل يده في إحدى السلتين المثبتتين في الناحية الخلفية للدراجة، وأخرج ما بدا أشبه بعلبة أو كتاب صغير - لم يكن الفتى متأكداً - وعاد إلى الفتاة، وأمسك بجلايتها ودسّ الغرض بين طيّات القماش الأسود. وبعد ذلك، وضع يده وراء رأسها ودفعه في اتجاه رأسه؛ وهو ما أثار اشمئزاز الفتى. حاولت الإفلات منه، محرّكةً رأسها إلى اليمين واليسار، ولهتت اشمئزازاً كما يبدو من ملامسة الجلد لبشرتها، وذلك قبل أن يدعها ويعود إلى دراجته. رفع السنادتين الأمامية والخلفية بركلة من قدمه، وسحب نظارة واقية، ومرّر ساقه فوق المقعد، وعشق ذراع جهاز نقل الحركة، وصرخ للمرة الأخيرة: "سرنا الصغير!"، وانطلقت دراجته على الدّرب هادرة قبل أن يتوارى عن الأنظار في سحابة من الغبار.

كان الفتى مروّعاً جداً لدرجة أنه لم يجرؤ على الحراك قبل مضيّ دقائق عدة. ولم يقف على قدميه إلا بعد أن خبا صوت المحرك تماماً وساد السكون الليل مجدداً. كانت الفتاة قد التقطت غطاء رأسها وأعادت ربط شعرها، متممة ومطلقة أصوات نواح غريبة كان بإمكان الفتى الاعتقاد بأنها ضحك لو لم يرَ ما حدث لها. أراد التوجّه إليها وطمأنتها بأن كل شيء على ما يُرام، وبأن محتتها قد انتهت، ولكنه شعر بأن خطوته هذه لن تؤدّي إلا إلى مضاعفة خجلها عندما تعلم أن هناك من شاهدتها. لذلك، لازم مكانه مراقباً إيّاها وهي تبحث عن عصاها على العشب، ثم تبدأ بتلمّس طريقها على الدّرب بعيداً عن النهر. ابتعدت خمسين متراً، ومن ثم توقفت فجأة واستدارت ناضرةً إليه مباشرةً.

أمسكت جلايتها بيدها وصاحت: "هل هناك أحد؟".

فحبس أنفاسه. نادى مجدداً، وكانت عيناها الكيفيتان مرهقتين، ثم تابعت السير. راقبها وهي تغادر حتى انعطفت وتوارت عن ناظريه وسط نبات القصب.

بعد ذلك، عاد أدراجه وسلك الدرب القائم على امتداد النيل، وركض بأقصى سرعة، ناسياً صنارة صيد السمك. كان يعرف تماماً ما يتعين عليه القيام به. محركها أحادي الأسطوانة الذي تبلغ سعته 488 سنتمترًا مكعبًا، وبعلبة ثروس ستورني أرشير ذات السرعات الثلاث، تتخطى سرعة الرويال إنفيلد موديل جيه ستين ميلًا في الساعة. لقد بلغت سرعتها سبعين ميلًا في الساعة عندما كان الرجل يقودها على الطرقات الإسفلتية في أوروبا. وهنا في مصر، لم يكن يقودها بسرعة تفوق ثلاثين كيلومترًا في الساعة. ولكن، هذه الليلة مختلفة ومميّزة. لقد جعله الشراب والنشوة متهوّرًا، فرفع السرعة على العدّاد إلى 45 كيلومترًا في الساعة، هادرًا في اتجاه الشمال عبر حقول القصب والذرة، سار والنيل إلى يمينه، والجبال الطيِّبة المتموّجة والعالية إلى يساره. كان يتناول جرعات من قنينة الشراب بشكل متكرر، ويغني لنفسه بنشاز الأغنية نفسها.

الطريق طويل إلى تيراري،

الطريق طويل جدًا.

الطريق طويل إلى تيراري،

إلى أجمل فتاة أعرفها!

وداعًا، يا ببيكاديللي،

وداعًا، يا ساحة ليستر!

الطريق طويل، طويل جدًا إلى تيراري،

ولكن قلبي هنا بالذات!

كانت معظم القرى في الضفة الغربية مُقفرة بسبب خلود سكانها الفلاحين إلى النوم منذ وقت طويل. وكانت منازلهم المصنوعة من آجر طيني مُظلمة وساكنة كالقبور. كانت هناك علامات حياة في إسبا فقط. لقد أحيى مَوْلِد في وقت مبكر من المساء، وتمهّل عدد قليل من الأشخاص في المغادرة حتى هذا الوقت المتأخر من الليل: عجوزان يجلسان على مقعد وهما يدخنان الشيشة، ومجموعة من الأطفال يرمون الحجارة على جمل، وبائع حلوى يكدّ في السير إلى منزله بعربته الفارغة. رفعوا أنظارهم إلى الدراجة النارية في أثناء مرورها بهم، وحدّقوا إلى راكبها بارتياح. وصاح بائع الحلوى في وجهه. ووضع أحد الأطفال سبّابته على جبينه.

فتجاهلهم الرجل - لقد اعتاد هذه الشتائم - وتابع سيره، وطارده قطيع من الكلاب إلى خارج القرية.
"كلاب جرباء!". صاح بعد أن التفت إلى الوراء، وانحنى مكشراً عن أسنانه.

وصل إلى تقاطع طرق وانعطف يساراً، ثم توجه إلى الغرب في اتجاه الجبال الطيية مباشرةً، والناحية الخلفية لجسمه الضخم تتوهج بلون قصديري تحت ضوء القمر. كانت دروبٌ صغيرة تتقاطع مقابله كأوردة بيضاء، ولا بد من أن يكون العمال القدماء في القبور قد استخدموها لعبور التلال في الألفيات الثلاث الماضية في أثناء توجيههم إلى وادي الملوك. لقد سبق له أن سلك تلك الدروب عدة مرات على مرّ السنين، مما أثار دهشة علماء الآثار وغربيين آخرين لم يتمكنوا من فهم سبب عدم امتطائه حملاً إذا أراد التمتع بالمناظر. كارتري هو الوحيد الذي كان يفهم السبب في الواقع، حتى إن المصالح التجارية بدأت تستحوذ عليه، ويأخذ منه التملق كل مأخذ، ويتظاهر بالتصرف بلباقة وبطرائق مُصطنعة. كان باستطاعة الرجل تحمّل العناد وسُورات الغضب، ولكن ليس التصرف بلباقة وبطرائق مُصطنعة. لم يكن سوى قبر، حباً بالله. كلهم أغبياء. سوف يُثبت لهم ذلك. لقد سبق له أن أثبت لهم ذلك، ولكنهم أغفلوا الأمر.

وصل إلى تماثيل أمنحوتب فأبطأ، ورفع قنيتته في اتجاه الوجوه التي أتلفتها العوامل الجوية ليشرب ساخراً، ثم انطلق مجدداً بسرعة، سالكاً الطريق المتعرجة شمالاً، قرب المعابد الخربة التي تحتضن المومياءات، والقائمة على امتداد أقدام الجبال الطيية. لقد استحال معظمها خليطاً طيفياً من الكتل المخطئة والآجر الطيني، ويكاد لا يكون بالإمكان تمييزها عن المنظر الطبيعي المحيط. فمعابد حتشبسوت، ورعمسيس الثاني، وسيي الأول، لا تزال تحتفظ دون سواها بعظمتها الأصلية، ولا تزال المحظيات المُسنّات يُعدن بالذاكرة إلى جماهنّ في سنّ الشباب. وهناك، بالطبع، مدينة هابو وراءه إلى الجنوب، حيث المعبد الكبير لرعمسيس الثالث المفضل لديه في كل مصر، وحيث لمح الفتاة الضريرة للمرة الأولى وتغيّر كل شيء.
"سأجعلها ملكاً لي"، كان قد قال في ذلك الوقت، متجسّساً عليها من وراء عمود. "سنكون معاً إلى الأبد".

وحان الوقت ليكونا معاً، وإلى الأبد. فصورة وجهها المحفورة في مخيلته،
والمنديل الصغير المعطر الذي أخذه معه، هما ما حمله على قضاء كل هذه الأشهر
الموحشة متخفياً. كان يدعوها جوهرتي الصغيرة الأكثر تألقاً من كل ذهب مصر،
والأكثر نفاسةً، وقد أصبحت مُلكاً له. يا لليوم السعيد!

كانت الطريق هنا جيدة وتنبسط صفحتها الترابية وتتراصّ مع حركة المرور
الناشطة التي نجحت عن اكتشاف توت عنخ آمون، وزاد سرعة الإنفيلد إلى 50
كيلومتراً في الساعة، فارتفع الغبار ورائه وتماوج. ولم يُبطئ ويتوقف إلا عندما
وصل إلى ذراع أبو النجا عند الطرف الشمالي للجبال الطيِّبة؛ مجموعة مبعثرة من
المنازل المبنية بالآجر الطيني، وحظائر حيوانات جاثمة على المنحدرات فوق الطريق.
كان هناك إلى يساره درب باهت اللون على صورة شريط، يتعرّج إلى داخل
التلال في اتجاه وادي الملوك. وفي الأمام مباشرةً، فيلا من طابق واحد، على أعلى
تلة منخفضة، مصاريعها مُغلقة وسطحها مقبَّب، وهي مُحاطة بأشجار النخيل
والتين متهدلة الأغصان. رفع نظارته الواقية وحَدّق بالفِلا، ومن ثم تابع سيره إلى
الأعلى، أوقف عمل المحرك عندما وصل إلى الناحية الأمامية للمبنى، ثم خلّص
النظارة، وأسند الدراجة النارية إلى جذع شجرة نخيل. وبعد أن نفّض الغبار عن
معطفه وجَزَمته، تناول جرعة طويلة أخرى من قنينة الشراب، وتوجّه إلى المدخل،
شاقاً طريقه بشكل متلوّ تحت تأثير الشراب.

"كارتر!"، صاح قارعاً الباب بقوة. "كارتر!".

لم يُجب أحد. قرع مجدداً وبقوة، وعاد بعد ذلك خطوتين إلى الوراء.
"لقد عثرتُ عليها يا كارتر! هل تسمعي؟ لقد عثرتُ عليها!"
كان المبنى ساكناً ومُظلماً، ولا يوجد ضوء وراء المصاريع المغلقة.
"قلتُ إنها غير موجودة، ولكنها موجودة. إنها تجعل قبرك الصغير يبدو
كمنزل دُمّية!".

كان هناك سكون تام. تناول ما تبقى من الشراب، ورمى القنينة في الظلام،
ومن ثم جاب في الناحية الخارجية للمبنى، متعثراً في مشيه وقارعاً المصاريع بقوة.
وعندما وصل إلى الواجهة الأمامية مجدداً، قرع الباب للمرة الأخيرة - "إنه منزل
دُمّية كبير جداً، يا كارتر! رافقني لأُريثُ مِراً ما مثيّرُ لإعجاب حقاً!" - قبل أن

يعود إلى دراجته النارية. وسحب نظارته الواقية، وضغط بقوة على دواسة التشغيل.

"كان مجرد فتى، يا كارتر!" صاح وسط هدير المحرك. "فتى صغير ثريّ وغنيّ. ممّر بطول ثلاثين قدماً... أربع غرف. لقد عثرتُ على أميال... لن تصدّق ذلك... أميال!"

ولوّح بيده، وقاد نزولاً عبر التلة، مُغفلاً الصياح المكتوم الصادر من داخل المنزل وراءه: "ابتعد أيها الشاذ، يا وسادة الدبابيس، أيها اليهودي اللعين الثمل!"

توجّه جنوباً سالكاً الطريق التي قدّم عليها. كان مُتعباً، فقاد ببطء أكبر من دون أن يغني. وتوقف قليلاً في دير المدينة للتحقق من كيفية قيام بروير والفرنسي بتدبّر أمورهما في قرية العمال التي تعود للعصور الغابرة - تثير هذه الأمور على الدوام حماسة أكبر مما تثيره القبور والفراغة - ومن ثم في مدينة هابو. لقد بدا المعبد رائعاً تحت ضوء القمر، وبدت المدينة فضيّة وساحرة وكأنها ليست من هذا العالم. إنه مكان للأحلام، قال في سره، ووقف قرب أول بوابة ضخمة متخيلاً الفتاة وكل الأمور التي سيقوم بها معها. لقد أضحكه واقع أن كارتر والآخرين يعلمون القليل عنه، ويعتقدون أنه من هو عليه، في حين أنه شخص مختلف تماماً. كم ستكون صدمتهم كبيرة عندما يعرفون الحقيقة!

"سأريكم"، صاح. "سأريكم كلّكم، أيها الأوغاد المتعجرفون!"

وأطلق ضحكة عالية أشبه بالتباح، ومن ثم عاد إلى دراجته النارية، وقاد المسافة القصيرة التي تفصله عن مسكنه في كوم لولاح، مستمتعاً بفكرة النوم للمرة الأولى في الليل بطريقة لائقة، منذ اثني عشر أسبوعاً. ركن الإنفيلد في الرُّقّاق الترابي وراء المسكن، وأحنى ظهره لفك حزام السلتين. في هذه الأثناء، دنا منه أحد ما من اليسار. وما إن شرع بالاستدارة حتى التفت ذراع حول عنقه وجذبه بعنف إلى الوراء، وأمسكت به أيديّ قوية، الكثير من الأيدي، أيدي ثلاثة رجال على الأقل؛ علماً أنه لم يتمكن من التحقق من عددهم بسبب الظلام والإرباك.

"ما الذي...!"

"أيها الكلب!" هسهس أحدهم. "أيها الكلب، نعرف ما الذي فعلته بشقيقتنا، وستدفع الثمن الآن."

وضُرب بشيء ثقيل على مؤخر رأسه، فانهار وتأرجح بشدة، وضُرب مجدداً، فأصبح في ظُلْمة دامسة. جرّه المهاجمون إلى خارج الزُّقاق، ووضعوه بجهد في عربة نقل يجرّها حمار، وغطّوه ببساط.

"كم يبعد المكان؟". سأل أحدهم.

"الطريق طويل"، أجاب آخر. "لنذهب".

صعدوا على متن العربة، وضربوا الحمار بالسَّوط، فانطلق مجلجلاً في جُحج الليل. تردد وراءهم ما بدا أنه أنين خافت منبعث من تحت البساط يكاد لا يكون مسموعاً بسبب الصخب الذي تُحدثه العجلات الخشبية.

1972

في اليوم الأخير من شهر عسلهما على ضفتي النيل، كرّم دوغلاس بويزر زوجته ألكسندرا بإعداده مفاجأة لها لن تنساها أبداً؛ وإن لم يكن بالطريقة التي خطط لها. كانا قد جالا طوال أسبوعين في المناطق الممتدة بين أسوان والأقصر نزولاً عند رغبة ألكسندرا في زيارة كل المعابد، والأطلال، وأكوام الآجر الطيني القديم الملوّث ببيوض الذباب، من دون أن تتسنى لها الفرصة تقريباً للقيام بما تريد القيام به كالاسترخاء تحت الشمس، وارتشاف الليموناضة، وقراءة رواية رومانسية جيدة. لقد ثبت أن الأيام الأربعة التي أمضيها في الأقصر كانت شاقة؛ بصفة خاصة مع إصرار دوغلاس على الانطلاق عند الفجر لتأمل المواقع قبل وصول مركبات تجرها الخيول محمّلة بمن وصفهم بأسف بالغوغائيين. لقد ثبت أن ألكسندرا وجدت قبر توت عنخ آمون مثيراً للاهتمام بشكل غامض لأنها سمعت بتوت عنخ آمون، ولكن أي شيء آخر كان شبيهاً بالموت بالنسبة إليها؛ فهو تتابع غير متناهٍ لمدفن تثير رُهاب الأماكن المغلقة، وجدران مكسوّة بحروف هيروغليفية كانت سُشعرها بالبرودة لو لم تكن حارّة على نحو خائق. ومع دنوّ نهاية شهر العسل، لم تستطع ألكسندرا عدم الشعور بقليل من الارتياح؛ علماً أنّها لم تكن لتكشف عن مكونات صدرها قط، لأنهما سيعودان قريباً إلى الحالة الطبيعية أحادية اللون للضواحي في جنوب لندن.

لكن، في ذلك الوقت، قام دوغلاس بأمر غير متوقع، أمر ذكر ألكسندرا بأي نوع من الرجال الذين يراعون مشاعر الآخرين هو، وبسبب زواجها به في المقام الأول.

حصل ذلك في صباحهما الأخير في مصر. وعملاً بتوجيهات دوغلاس، نهضا في وقت أبكر من المعتاد قبل أن يتحول الليل إلى فجر، وعبرا النيل. عند الضفة الغربية، كانت في انتظارهما سيارة أجرة أقلتتهما إلى موقف السيارات أمام معبد حتشبسوت حيث أمضى دوغلاس قبل يومين فترة بعد الظهر كاملة في أخذ قياسات بواسطة شريط قياس قابل للسحب كان يحمله معه باستمرار. فتخيلت ألكسندرا أن دوغلاس سيقوم بما اعتاد القيام به هناك، وغاص قلبها. لكن، بدلاً من دخول المعبد، اصطحبها إلى درب ضيق يتجه بشكل متعرج إلى الناحية الخلفية للمعلم الأثري التاريخي. كذا في السير، وتحولت السماء فوقهما إلى لون رمادي باهت، وازداد وادي النيل عمقاً تحتهما. في النهاية، وبعد أكثر من ساعة من السير صعوداً، وشروع ألكسندرا بالتفكير في أن مراقبتها زوجها وهو يقيس كتلاً من الصخور قد لا تكون أمراً سيئاً جداً بالرغم من كل شيء، تسلقا بصعوبة منحدرًا أخيراً في وادي الملوك. وهناك، كانت سلة طعام كبيرة تستخدم في النزهات في انتظارهما.

فسر دوغلاس سبب وجود سلة الطعام بقوله: "لقد أوصلها أحد العاملين في الفندق". ثم فتح السلة وأخرج منها قنية شراب باردة نوعاً ما وقال: "بصدق، أنا مندهش لأن أحداً لم يسرقها".

سكب كأسين، وأخرج وردة حمراء من السلة، وركع على إحدى ركبتيه أمامها. وأنشد: "فلتعيشي ملايين السنين، أنتِ يا من تحبين طيبة وتضعين وجهك في مواجهة ريح الشمال، ناظرة إلى السعادة". كان الجو رومانسياً رائعاً، ومختلفاً تماماً عن طبيعة دوغلاس، لدرجة أنها انفجرت بكاءً.

"لا تُقلقنك التكلفة، يا فتاة العصور الغابرة"، قال محذراً. "حصلتُ على شراب معفى من الضريبة. إنه منخفض الثمن بشكل لا يصدق".

جلسا على صخرة، وارتشفا الشراب، وراقبا شروق الشمس من فوق جبال الصحراء. كان كل شيء صامتاً وساكناً، والنيل يكتسي خُصرةً ضبابية في الأسفل البعيد كما لو أنه نموذج مصغر للعالم. وبعد تناولهما طعام الفطور، تبادلا القبلات،

ومن ثمَّ وضَّبا سلة الطعام استعداداً للمغادرة، وتركها في مكانها. قال دوغلاس: "سيأتي أحدهم لأخذها". وشرعوا في رحلة العودة على الدرب القائم على الحيد والممتد على الناحية الخلفية للجبل.

"وفقاً لذلك الشخص في الفندق - أنت تعرفينه، روبرت، أياً كان اسمه. أقصد ذلك الرجل المتفاخر ذا المنخرين الكبيرين - إذا بقينا على هذا الدرب، فيمكننا الالتفاف حول أعلى الهضبة، والانحدار قرب مدخل وادي الملوك".

حرَّك دوغلاس يده بشكل دائري واسع. "يتطلب الأمر ساعة واحدة تقريباً. وإذا حثثنا الخطى فسنصل بسهولة في الوقت المحدد لتناول الغداء".

لقد استعادت ألكسندرا نشاطها بعد الرحلة المُنهكة، وكانت تشعر بالرغبة في المغامرة - بفضل الشراب جزئياً - علماً أن السير مسافات طويلة على أرض وعرة لم يكن من هواياتها، فتبعت زوجها عن كثب. كان الدرب ضيقاً وصخرياً، وشاقاً في بعض الأماكن، ولكن دوغلاس دمث الأخلاق كان يمدُّ لها يد العون، ووجدت نفسها تمضي وقتاً ممتعاً، وهذا ما أدهشها.

فكرت: "إنها مغامرة حقيقية في الصحراء، أتشوق لأخبر أوليفيا وفلورا!". ابتعدا أكثر فأكثر في عمق التلال، وأصبح النيل وراءهما وغاب عن ناظرَيْهما. وكان المنظر الطبيعي عبارة عن صخور وغبار وسماء بيضاء شاحبة ليس إلا. ومرّت ساعة، ثم تسعون دقيقة، وبالرغم من إحضار دوغلاس كمية إضافية من الطعام والماء في حقيبة الظهر، بدأت ألكسندرا تشعر بالتعب بعد ساعتين من السير على الأقدام من دون أن يلوح في الأفق المكان المقصود. وبدأت قدمها تؤلمها، وأصبح الحر غير ملائم، والأسوأ من ذلك أنها كانت بحاجة إلى دخول المرحاض.

"سأدير ظهري"، اقترح دوغلاس عندما أعلمته بالوضع. "لن أقوم بذلك في الهواء الطلق"، قالت بغضب، وأصبحت عكيرة المزاج. "حباً بالله، لن يراك أحد!".

"لن أقوم بذلك في الهواء الطلق"، كررت، "أريد بعض الخصوصية". "سيكون علينا التحمّل أو الذهاب إلى هناك. وراء تلك الصخرة الكبيرة. إن هذا أفضل الخيارات المتوافرة، يا فتاة العصور نعبرة".

نظراً لوضعها اليائس، قامت بما اقترحه زوجها، وابتعدت مسافة ثلاثين متراً بخطى ثقيلة، وانعظفت وراء جلمود كبير ناتئ من التربة الصحراوية الحصوية، والذي بدا كحبة فطر ضخمة، حيث الأرض شديدة الانحدار في اتجاه وادٍ صغير على صورة قمع، وكانت هناك فسحة منبسطة وراء الصخرة مباشرة تكفيها لرفع فستانها وجلس القرفصاء.

"لا تُصغ"، صاحت.

عند ابتعاد دوغلاس، سُمع وقع خطواته على الأرض الحصوية، وتلا ذلك صوت الصقير. وضعت ألكسندرا يدها على الجلمود لتسند نفسها، وحدقت بالصخرة بوجه متجهّم، محاولة الاسترخاء. كان الحجر أصفر مُغبرّاً، وعليه عدد لا يُحصى ولا يُعدّ من الخربشات غير العادية، وأدركت بعد لحظات أنها لم تكن مجرد خربشات بل بقايا مضمحلّة لما بدا أنه نوع من أنواع الكتابة الهيروغليفية. عادت إلى الورا قليلاً بخطى قصيرة متمايلة للحصول على رؤية أفضل، وسرواها الداخلي ممطوط حول كاحليها. كان هناك ما بدا أشبه بأرنب برّي، وخط قصير متعرج، وذراعان، ورموز أخرى تمكنت من تمييزها بسبب الآثار التاريخية المتعددة التي رأتها في الأسبوعين الأخيرين.

"حببي"، نادت، مجرّدة خطاها إلى الورا بضع بوصات، وناسية للحظات إحراجها وحاجتها إلى التبول. "أعتقد أنني عثرت..."

ولم تُكمل كلامها، فقد زلّت قدمها فجأة، وهوت على المنحدر الحادّ وراء الصخرة، فتموّر الحصى والغبار من حولها، وتخبّط ساقاها بسبب الشريط المطاطي الضاغط لسرواها الداخلي، واصطدمت بأسفل المنحدر، واختبرت شعوراً وجيزاً وغريباً لدى اصطدامها بقوة بكتلة من العساليج والأغصان، ومن ثم سقطت مجدداً في الفراغ هذه المرة، وشعرت بأن دهرأ مرّاً على سقوطها قبل اصطدامها بشيء لّين وفقدائها الوعي.

في الأعلى، سمع دوغلاس زعيق زوجته، وأسرع إلى وراء الجلمود للتحقق.

"آه يا الله!". صاح نازلاً بصعوبة على المنحدر في اتجاه الهوة في الأسفل.

"ألكسندرا! ألكسندرا!".

انفتحت فجوة عميقة ومستطيلة الشكل تحت قدميه محفورة بشكل عمودي داخل الصخر الجيري الأبيض، جذراها ملساء ومزخرفة بإتقان، ومن الواضح أنها

من صنع الإنسان. في الأسفل، وعلى عمق عشرين قدماً تقريباً، رأى كتلة متشابكة من العساليج والأغصان؛ لا بد أنها كانت تسدّ الفجوة، ولم يَرَ أثراً لزوجته. وعندما تلاشى الغبار شيئاً فشيئاً، لمح طيف ذراع، ومن ثمّ حذاء، وبعد ذلك نقوش الأزهار المطبوعة على فستان زوجته.

"ألكسندرا! آه رجاء، هل تستطيعين سماعي؟ ألكسندرا!".
وساد صمت طويل ورهيب، أسوأ صمت خبره دوغلاس يوماً، ومن ثمّ سمع أنيناً خافتاً.

"آه، شكراً لله! حبيبتي، هل تستطيعين التنفّس؟ هل تشعرين بالألم؟".
وازداد الأنين.

"لا تقلق". وخرج صوت متهدّج من الأسفل. "أنا بخير".
"لا تتحركي! سأحضر من يساعدك".
"لا، انتظر، دعني...".

وسُمعت طقطقة العساليج.
"هناك... باب من نوع ما".
"ماذا؟".

"هنا في الأسفل. إنه أشبه...".
واشتد صوت الطقطقة.
"أنت مصابة بارتجاج في الدماغ يا ألكسندرا. لا تتحركي. سنُخرجك من هناك في الحال!".

"باستطاعتي رؤية غرفة صغيرة. هناك شخص جالس...".
"رجاء، يا حبيبتي، لقد صدمت رأسك، أنت تَهْذِين".
كان الأمر واقعياً جداً بالنسبة إليها، حتى ولو كانت تَهْذِي، لأن ألكسندرا بُورِز شرعت بالزعيق على نحو هستيري، ولم يكن بإمكان زوجها تهدئة رَوْعها مهما قال أو فعل.

"آه يا الله! أخرجني من هنا، أبعدني عنه. رجاء، أبعدني عنه قبل أن يؤذيني! آه يا الله، آه يا الله! آه يا الله!".

في الزمن الحاضر

في الواقع، لم يكن باستطاعة أحد الجُزم بالمكان الذي تبدأ منه السلسلة العَرَضِيَّة التي انتهت بحادثة اصطدام.

فمن المُحال أن يكون صَنْدَل النِيل قد ضلَّ طريقه، ولم يكن يُفترض بزورق التحذيف الصغير أن يكون في النهر بعد حلول الظلام مع وجود تسرّب فيه وتوافر مِجذاف واحد قابل للاستخدام.

هذه هي تفاصيل الحادث الأكثر وضوحاً، ولم يكن بالإمكان الجزم، فردياً أو جماعياً، بأنّ هذه هي الأسباب. فهناك العديد من العوامل العشوائية الأخرى التي تُحوّل وضعاً خطيراً إلى وضع مأساوي.

ولو لم يبدّل قارب الشرطة الكبير مساره ويأمر الزورق الصغير بالرسو، لَمَا انتهى الأمر بالزورق الصغير في طريق الصَنْدَل. ولو لم يشترِ الرّقيب المسؤول عن الجهة الأمامية من الصندل جهاز راديو جديداً، لَمَا استغرق في الاستماع إلى مباراة كرة القدم التي تجري في القاهرة، ولأُطلق جهاز الإنذار قبل وقوع الحادث. ولو لم يتم إرجاء عملية تزويد الصَنْدَل بالوقود من الصهريج الذي يحمل المازوت في بداية الرحلة، لكان قد ابتعد نحو الشمال عندما انطلق الزورق وركابه.

كانت هناك العديد من الحلقات المختلفة، والسلسلة مُبْهِمَةٌ ومعقّدة؛ لدرجة أنه كان من المستحيل الجزم بوجود سبب واحد، أو تحديد المسؤولية بشكل ثابت لا ريب فيه.

غير أن هناك أمرين يمكن تأكيدهما.

أولاً، قرابة الساعة التاسعة والربع من ليلة واضحة الرؤية وخالية من السُّحُب، وقع حادث مروّع في النيل على بُعد كيلومتر واحد تقريباً من جنوب الأقصر، على مرأى من طاقم قارب الشرطة وعائلة مصرية كانت تستمتع بنزهة تحت ضوء القمر على الضفة الشرقية للنهر.

ثانياً، لن تبقى حياة أولئك الذين تضرروا من جراء الحادث كما كانت قبل وقوعه.

القسم الأول

القدس، بعد تسعة أشهر

المكان مُظلم هنا كما لو أنني داخل كهف، وهذا أمر جيد. هذا يعني أنها لا تستطيع رؤيتي، ولكن ليس بالمعنى الصحيح للكلمة. أنا مجرد خط كفا في طيفي بالنسبة إليها، كما هو حالها بالنسبة إليّ.

عندما تبعثها عبر الباب، استدارت ونظرت إليّ مباشرةً. لقد ظننت للوهلة الأولى أنها ربما تعرف من أكون، حتى ولو كنا وسط ظلام دامس، وأنا أعتمر قلنسوتي التي تغطي جزءاً من وجهي. لم يبدُ من نظراتها أنها تعرفني؛ المزيد من الترقّب والأمل. التفتت إلى الأمام على الفور ولم تنظر إليّ مجدداً؛ فقد اعتقدت أنني متعبٌ في وقت متأخر من المساء.

ها أنا أراقبها. هناك نوافذ عالية في الجدران وفي القبة، ولكنها متسخة على كل حال، والمكان في الخارج مُظلم تقريباً. وكان ضوء خافت منبعث من أحد المصابيح النحاسية المدلاة من السقف في الطرف البعيد لدار العبادة الكبرى يخفف من وطأة الظلام في الجوار. إنها تقف تحت المصباح مباشرةً إلى حدّ ما، وأمام السياج الخشبي المنحوت الذي يفصل المنطقة المركزية عن بقية أنحاء دار العبادة. وأنا موجود قرب المدخل، على أحد المقاعد الطويلة القائمة على امتداد الجدران والمزودة بمساند. في الخارج، يصدر المطر أصواتاً لدى اصطدامه ببلاطات الباحة؛ ليس الطقس الذي توقّعتُه، ولكنه مفيد. هذا يعني أنه باستطاعتي البقاء متدّبّاً؛ فأنا لا أريد إظهار وجهي لأحد، ليس لها ولا لأي شخص آخر.

فجأة، تُرَفَع الستارة التي تغطي المدخل وتُسَدَل. فتتظر حولها، ظناً منها أن شخصاً ما قد دخل. وبعد أن تدرك أنه الهواء، تستدير إلى الأمام في اتجاه المزار الموجود وراء المنطقة المركزية والمغطى بأيقونة. هنالك حقيقة سفر على السجادة قرب قدميها. الحقيقة تُعتبر مشكلة، أم إن الرحمة تُشير الحقيقة إليها هي

المشكلة؛ إنها تحدُّ إطارَي الزمني. يبدو أنها تنتظر أحدهم، وهذه مشكلة أيضاً. باستطاعتي التعاطي مع مشكلة واحدة، ولكن التعاطي مع مشكلتين أمر أكثر تعقيداً. ربما عليّ الارتجال. عليّ القيام بذلك قبل الوقت المحدد وفقاً للمخطط. ها هي تتوجّه إلى أحد الأعمدة الأربعة العملاقة التي تحمل القبة. هناك لوحة تتدلى من العمود، لوحة ضخمة يُحيط بها إطار ثقيل مذهب. لا أستطيع رؤية الصورة، ولا أهتمّ بها. أنا أحدّق إليها وأفكر، وأخطط. هل يُفترض بي القيام بذلك قبل الوقت المحدد وفقاً للمخطط؟ باستطاعتي اشتمام البخور. تنظر إلى اللوحة، ومن ثم تعود إلى ستار المنطقة المركزية وترفع ذراعها، متفحّصةً ساعتها. باستطاعتي الشعور بمسّ الغلوك في جيب معطفي، ولكنني قلق لأن الصوت قد يُسمَع بالرغم من انهيار المطر، وقد يحمل الناس على الفرار. من الأفضل القيام بذلك بالطريقة الأخرى. لماذا لا أُنهي المسألة؟ متى أُنهي المسألة؟ يُفترض بي أن أكتشف ما تعرفه، ولكن بوجود الحقيقة وإمكانية لقائها شخصاً ما...

تجول في المكان مرة أخرى. هناك أبواب في الجدار الجانبى لدار العبادة الكبرى تؤدي إلى ما أعتقد أنها غرف للصلاة، علماً أن الظلام الخالك لا يسمح بالتأكد من ذلك. نظرتُ إلى كل منها بالتتابع، وعادت لتتأمل في اتجاهي. والناحية الخارجية لأقرب مُصلّى، حيث الأرض مكسوّة بالسجاد، مسيّجةٌ بفواصل خشبي منخفضة. تجلس على مقعد، وتكاد تكون غير مرئية. أُمسك بالسياج المكوّن من أسلاك معدنية، مفكراً بكل الأمور، ومقلّباً الخيارات في رأسي. ليتني لم أكن مضطراً لاستجوابها.

ها هي تعود مجدداً في اتجاهي، فأنكّس رأسي كما لو أنني أنعبد، مُخفياً وجهي بشكل جيد، ومحدّثاً بيديّ المغطاتين بزوج من القفازات. تمرّ بالقرب مني تماماً، وتستدير حول الجدران المكسوّة بالبلاط، ثم تعود إلى المذبح حيث تلقي نظرة أخرى على ساعتها. هل يُفترض بي الاستمرار بتتبّعها للتحقق من الأماكن التي تقصدها؟ أم أُنهي المسألة الآن بينما نحن بمفردين والفرصة متسنيّة لي؟ لا أستطيع اتخاذ القرار المناسب. وتمرّ دقائق قليلة أخرى، فتلتقط حقيبة السفر، وتستدير وتتوجه إلى الباب. وعندما تصبح بجانبى تتوقف.

"شالوم".

أبقيتُ نظرائي موجهة إلى الأرض.

"أنا مِدَايرُ إيفريت؟".

فلا أقول شيئاً. إذ لا أريد أن تسمع صوتي. وأشعر بالتوتر فجأةً.

"هل تتكلم الإنكليزية؟".

أستمر بالنظر إلى الأرض، بتوتر شديد.

"هل أنت أرميني؟ لا أريد أن أزعجك، ولكنني أبحث عن...".

فأخذ القرار، وأقف على قدمي، وأضربها بقوة على أسفل فكّها براحة يدي، فترتّج إلى الوراء. وحتى في الظلام، باستطاعتي رؤية الدماء تندفق من فمها؛ الكثير من الدماء، مما يحملني على الاعتقاد بأن الضربة ربما تكون قد جعلتها تقضم طرف لسانها. فأقف وراءها على الفور، وألفّ الزّراد حول عنقها، ثم أشبك معصمَيّ وأجذب بقوة الوصلات المفصليّة الموجودة في كل من طرفي السلك؛ مدركاً مدى إحكام الحِناك الذي توفره لي، والقوة التي يمكنني ممارستها على قصبته الهوائية. أركل ساقَيْها وأشدّ بأكبر قوة ممكنة، مُعيداً رأسي إلى الوراء، ومُمسكاً بها في أثناء لجوئها إلى المقاومة والחדش ومحاولة الإمساك بالسلك. يدوم الأمر أقل من ثلاثين ثانية، وتفقد قوتها. وأستمر بالشّد لأضمن موتها، مسترسلاً في عملي من دون التفكير في إمكانية دخول أحدهم ورؤيته إيانا، فيما السلك ينغرز في لحم عنقها. وأُرخي قبضتي عندما أتأكد من موتها تماماً، وأضعها على الأرض، شاعراً بفرح كبير.

أتوقف قليلاً لالتقاط أنفاسي - فقد كنت أتنفس بصعوبة - ومن ثم أَلْفُ السلك بشكل دائري مرتّب، وأُعيدُه إلى جيبي، وأُلقي نظرة على الباحة عبر الستارة المُسدّلة على الباب. المطر ينهمر بكثافة، والباحة مُقفرة. أفلت الستارة من يدي، وأُخرج مصباح الجيب، وأوجّه ضوءه على السجادة حول الجثة. هناك عدد قليل من البقع التي تكاد تكون غير ملحوظة، ولكن يبدو أن معطفها قد امتص معظم الدم الذي تدفق من فمها؛ وهذا أمر جيد. وها أنا أضغط على جانبي فكّها السفلي، فاتحاً فمها. لا يزال لسانها سليماً بالرغم من تعرّضه لإصابة كبيرة، وهذا أمر جيد. أبحث في جيبيها وأعثر على منديل. ولكنني أُعيدُه إلى مكانه لتجنّب المزيد

من الفوضى. بعد ذلك، أوجّه نور المصباح في أرجاء دار العبادة. أنا بحاجة إلى بعض الوقت، ولا يجب أن يعثر عليها أحد. أعرف أين تقيم، وسأتوجّه إلى هناك بعد ذلك، ولكنني الآن بحاجة إلى مكان سرّي. أكره الارتجال، ولكن كل شيء سينتهي بشكل جيد كما آمل.

* * *

ضيق التحري آري بن - روي، من شرطة القدس، عينيه وحّدق إلى الظلام، مراقباً بانتباه محيط الجسد الذي تتم الإشارة إليه لأجله. لقد بدا الأمر كما لو أنه ملتفّ داخل كرة، ولم يكن متأكداً للحظات مما يراه. شيئاً فشيئاً، اتّضح له الشكل: رأس، جذع، ذراعان، ساقان. فhez رأسه، وكاد لا يصدّق ما ينظر إليه، وابتسم بعد ذلك، وضغط على يد سارة.

"إنه وسيم."

"لا نعرف بعد إذا كان ذكراً."

"إنه جميل أيضاً."

ومدّ عنقه محدّقاً إلى الصورة غير الواضحة على شاشة الموجات فوق الصوتية. إنه المسح الثالث لسارة - مسحها الثالث - ولا يزال يناضل منذ 24 أسبوعاً لرؤية الشكل المحدّد للجنين (علماً أنه لم يكرر عويله كما حصل في أثناء المسح الذي جرى في الأسبوع الثاني عشر عندما أشار إلى ما افترض بفخر أنه عضو ذكورة كبير جداً، ولكن قيل له إنها في الواقع عظمة الفخذ للجنين).

"هل كل شيء بخير؟". سأل العاملة على جهاز المسح الصوتي. "هل كل شيء في مكانه؟".

"كل شيء يبدو بخير". أكدت الفتاة مزحلقةً جهاز المسح جيئةً وذهاباً فوق القطع المكافئ لبطن سارة الذي دُهن بالهلام. "ما أنا بحاجة إليه فحسب هو استدارة الجنين لأتمكن من قياس العمود الفقري".

وضعت المزيد من الهلام، ومرّرت الماسح أسفل الصرة، فتضخّمت الصورة على الشاشة وتشوّشت في أثناء بذلها جهداً للحصول على الزاوية التي تريدها.

"الجنين عنيد قليلاً اليوم."

"احزري من أين حصل على ذلك"، قالت سارة.

"أو حصلت"، اعترض بن - روي.

وواصلت الفتاة ما تقوم به، مُمسكةً الماسح بيد ومستخدمَةً لوحدة المفاتيح تحت الشاشة بمهارة؛ عازلةً صوراً غير متحركة لأعضاء مختلفة من الجنين، وحاصلةً على كتابات وقياسات.

"نبضات القلب جيدة، تدفق الدم في الرحم جيد، والأطراف ضمن النطاق الطبيعي للنمو...".

وقاطعها رنين موسيقي. إنها موسيقى هافا ناجيلا.

"نو بي - إِميت، يا آري!". قالت سارة بـهمهمات استنكار. "طلبتُ منك أن توقفه عن العمل في أثناء الفحص".

فهزَّ بن - روي كتفيه معتذراً، وفتح جعبة صغيرة مثبتة على حزامه، وأخرج هاتفه المحمول من طراز نو كيا.

"لا يستطيع أبداً فعل ما أطلبه منه"، قالت للفتاة متنهدةً، وساعيةً وراء دعم أخوي. "ولا حتى لأجل مسح يُجرى لجنينه. إنه منشغل على الدوام، ليلاً ونهاراً".

"أنا شرطي، حباً بالله".

"أنت والد حباً بالله!".

"حسناً، لن أُجيب. يمكنهم ترك رسالة".

ودلَّى بن - روي الهاتف بيده وتركه يرنّ، وتظاهر بالانحناء إلى الأمام والتحديث إلى الشاشة، فتأفّفت سارة. لقد سبق لها أن اختبرت كل ذلك.

"راقبي"، همست للفتاة.

جلس بن - روي هناك لحمس ثوانٍ، مستغرقاً كما يبدو في تأمل الصورة المتقطعة بالموجات فوق الصوتية. ومع استمرار دويّ موسيقى هافا ناجيلا بإصرار، شرع بالنقر على الأرض بقدمه، ومن ثم هز ذراعه، وتملل في مقعده بعد ذلك كما لو أنه يشعر برغبة في الحكاك. أخيراً، نظر إلى الهاتف، عاجزاً عن التحكم برد فعله، وتحقيق من الرقم الوارد، ووقف على قدميه على الفور.

"عليّ تلقي المكالمة. إنه المركز".

توجّه إلى زاوية الغرفة ووضع الهاتف على أذنه متلقياً الاتصال، فتأففت سارة. "عشر ثوانٍ"، قالت متنهّدةً، "أنا مندهشة لأنه تمالك نفسه طوال هذه المدة. إنه طفله بالرغم من كل شيء".

ربّت الفتاة على ذراع سارة لمواساتها، وواصلت الفحص. في الناحية البعيدة للغرفة، كان بن - روي يُصغي ويتكلم بصوت منخفض. وأنهى المكالمة بعد لحظات قليلة، وأعاد جهاز النوكيا إلى الجعبة الصغيرة في حزامه.

"آسف يا سارة، عليّ الذهاب. لقد طرأ أمر ما".
"ما الذي طرأ؟ أخبرني، يا آري. ما الأمر الهام إلى هذه الدرجة والذي لا يمكنه الانتظار خمس دقائق حتى تُنهي المسح؟".
"أمر ما".

"ماذا؟ أريد أن أعرف".
كان بن - روي يرتدي سترته.
"لن أدخل معك جدالاً، يا سارة. ليس معك...".
أوماً في اتجاه بطنها المكشوف، وبشرتها البرّاقة والزليقة بسبب الهلام الخاص بالموجات فوق الصوتية.

"أقدّر مراعاتك"، قالت بغضب، "ولكنني أكون أكثر سعادة لدخول جدال مماثل معك وأنا على هذه الحال. الآن رجاءً نورني، ما الأمر الهام إلى هذه الدرجة الذي توليه أهمية أكبر من صحة طفلك؟".
"البويو بخير، لقد قالت ذلك للتوّ".

وأشار بن - روي بيده إلى العاملة التي كانت تحدّق إلى الشاشة، محاولةً التركيز على عملها.

"ثلاثون دقيقة، يا آري. هذا كل ما أطلبه منك. أن تنسى أمر الشرطة لمسدة ثلاثين دقيقة، وتمنحنا اهتمامك غير المشتّت. هل ما نطلبه كثير؟".

شعر بن - روي بأنه يفقد رباطة جأشه لأنه يعلم أنه مُخطئ. ورفع يديه، فاتحاً راحتيهما، كما لو أنه يطلب من نفسه ومن سارة الهدوء.

"لن أدخل جدالاً معك"، كرر. "طرأ أمر ما، وهم بحاجة إليّ. انتهى الأمر. سأتصل بك".

انحنى وقبل رأسها، وألقى نظرة أخيرة على الشاشة ثم عبّر الباب. وعندما خرج إلى الممر، سمع صوت سارة وراءه.

"لا يستطيع تجاهل عمله. لهذا السبب عليّ وضع حدّ لذلك. ولا حتى لمدة ثلاثين دقيقة. لا يستطيع تجاهل عمله".

وسمع الفتاة تواسيها، وتُغلق الباب بعد ذلك.

لم يحمل له أي أمر في الحياة سعادة أكبر مما حملته له إمكانية أن يصبح والدًا، أو درجة مماثلة من الشعور بالذنب؛ فكّر في سره في أثناء ابتعاده.

يطل مستشفى هداسا على قمة جبل المشارف، وقسم مرحلة ما قبل الولادة موجود في أحد الطوابق العليا من المستشفى. وبينما كان بن - روي في انتظار المصعد الذي سيُقلّه إلى الطابق الأرضي في الأسفل، ألقى نظرة خارج النافذة إلى الشمال؛ عبر تلال الضفة الغربية. لقد تمكّن من تمييز المظهر الخارجي المنتظم لضواحي مستوطنتي بيسغات آمير وبيسغات زئيف بلونهما البني المائل إلى الرمادي. في مكان أقرب، تقع المساكن الفلسطينية في عناتا ومخيم شُعفاط للاجئين الفلسطينيين، والتي يبدو مظهرها الخارجي نفسه، ولكن بشكل غير منتظم. إنه منظر طبيعي ينم عن بؤس وإهمال في أفضل الأحوال: صفوف قبيحة من المساكن المتناثرة وسط رُفَع قبيحة من الصخور والقمامة على سفوح التلال. لقد بدا ذلك اليوم موحشاً بشكل إيجابي؛ بسبب ستائر المطر المنسكبة من سماء رمادية اللون.

نظر مجدداً إلى المصعد، ومن ثم إلى الخارج، متتبّعاً خط الجدار المتعرّج حول شُعفاط وعناتا، والذي يفصلهما عن بقية القدس الشرقية. إنه موضوع يحمل سارة بالتأكيد على إلقاء خُطبة صاحبة أكثر من ذاك الصخب الذي يرافق تحدّثها بقسوة عن عمله في قسم الشرطة. كانت تدعو ذلك "فُحشاً"، وتقول إنه عار على أمتنا. باستطاعتنا أيضاً أن نحملهم على ارتداء نجوم صفراء".

كان بن - روي يميل إلى موافقتها، وإن كان لا يستعمل مثل هذه التعابير المُلْهِية للمشاعر. لقد قلّص الجدارُ الفاصل عددَ الأعمال التفجيرية؛ إنه أمر مؤكد، ولكن بأي ثمن؟ إنه يعرف مالِك مرأب لتصليح السيارات؛ رجلاً معتدل السلوك يقيم في الرام، وقد دأب طوال عشرين عاماً على السير كل صباح مسافة خمسين متراً من منزله إلى مرأبه في الجانب الآخر من الطريق. والعودة كل مساء قاطعاً

المسافة نفسها. بُني الجدار بعد ذلك، وانتصبت هناك فجأة ستة أمتار من الإسمنت العمودي تفصله عن مكان عمله. وللوصول إلى مكان عمله الآن، بات عليه الالتفاف حول الجدار، والمرور بنقطة التفتيش في قلنديا؛ فتحول اجتياز الطريق الذي كان يتطلب ثلاثين ثانية إلى رحلة تدوم ساعتين. إنها قصة تكررت على امتداد الجدار الفاصل؛ مزارعون فصلوا عن حقولهم، وأطفال عن مدارسهم، وعائلات انقسمت. هاجموا من تصفوفهم بالإرهابيين بالوسائل كافة، اسحقوا الأوغاد. ولكن، أيعاقب شعب بكامله؟ كم ولد هذا الأمر من الغضب والكُره؟ ومن تحمّل كل ذلك الغضب والكُره؟

"أهلاً وسهلاً في أرض الميعاد"، تتمم، واستدار حين فتح باب المصعد.

في موقف السيارات، دخل سيارته من طراز تويوتا كورولا، وسلك طريق الجامعة العبرية، ماراً بدريك هاشالوم، في اتجاه المدينة القديمة. كانت حركة المرور في الصباح خفيفة، وبلغ باب يافا في غضون عشر دقائق. وما إن عبر الباب حتى وجد نفسه عالقاً في ازدحام يحول دون تحرك السيارات في الاتجاهين. كان المجلس البلدي يطور شبكة الطرقات حول برج هيرود، محوّلاً المسلكين إلى مسلك واحد، وقاطعاً ساحة عمر بن الخطاب والطرف الأبعد لشارع داوود. كانوا قد شرعوا بذلك منذ 18 شهراً، ولا يزال أمامهم عام آخر على الأقل. لقد تمكنت حركة المرور من تخطّي الأمر عادة؛ وإن ببطء شديد. وفي هذا اليوم، كانت هناك شاحنة تقطع الطريق، محاولة الخروج من شارع بطيركية الروم الكاثوليك.

"شار"، تتمم بن - روي. "تباً".

شرع بالتربيت على المقود، محدّقاً إلى لوحة إعلانات كبيرة تحمل تصوّر أحد الفنانين لما سيبدو عليه الطريق الجديد، إضافة إلى شعار: "مؤسسة بارين تفخر برعاية تاريخ القدس المستقبلي". كان يُطلق بوق سيارته من حين لآخر، مضيفاً المزيد من النشاز إلى النغمات المتنافرة للأبواق الساخطة التي تملأ الأجواء، وأنزل النافذة مرتين وصاح في وجه سائق الشاحنة: "هيا، تقدم أيها الغبي!". كان المطر ينهمر بغزارة؛ متسبباً بتدفق جداول من المياه الموحلة عبر الشارع.

لقد دام الأمر خمس دقائق، وفقد صبره بعد ذلك. فالتقط صفارة إنذار الشرطة الوامضة الموضوعة على أرضية السيارة أمام مقعد الركاب، ووضعها بقوة

على السطح، وأوصلها بالمقبس، وشغلها، فابتعدت الشاحنة عن الطريق، ووضع حد لزحمة المرور، وتمكن بن - روي من اجتياز مسافة مئة متر والالتفاف عند زاوية قسم شرطة داوود.

قسم الشرطة معروف بصورة عامة بالكيشل؛ وتعني هذه الكلمة السجن بالتركية. وكان القسم سجناً إبان الحكم العثماني. وهو مكوّن من مبنيين طويّلين يتألف كل منهما من طابقين، ويشغل الجانب الجنوبي للساحة، وتُضفي عليه نوافذه المشبّكة والمبّعة وجدرائه المبنية من كتل حجرية طابع الحِسة الشديدة. وهناك كيشل آخر في الناصرة، ويُعتبر على نطاق واسع أجمل قسم للشرطة في إسرائيل. لم يكن باستطاعة بن - روي استخدام هذا التّعت لوصف مكان عمله.

لقد عرفه الحارس الموجود في المركز الأمني وفتح البوابة الإلكترونية، ملوّحاً له للمرور. قاد عبر المدخل المقنطر، مروراً بنفق يبلغ طوله عشرين متراً يخترق وسط المبنى، ووصولاً إلى باحة كبيرة في الناحية الخلفية التي يشغل طرفها الأبعد إسطنبول ومنطقة لتدريب الخيول، ويقوم بجانبها مبنى يوحى بالأمان، ويبدو كما لو أنه مخزن، ولكنه يأوي في الواقع وحدة تفكيك المتفجرات في المدينة. وتشغل بقيّة المساحة سيارات وعربات نقل مُقفلة مركونة. كان عدد قليل من لوحات السيارات خاصاً بالشرطة - حمراء مع حرف "ميم" - لميشيرت - أمّا الغالبية العظمى فكانت صفراء مدنية. كانت لدى بن - روي مجموعة من النوعين، علماً أنه يستخدم اللوحات المدنية بصورة عامة حرصاً على عدم الكشف عن هويته كشرطي.

أبطأ سرعته، وانعطف إلى داخل فسحة قائمة بين دراجتين ناريتين رباعيتي الإطارات من طراز بولاريس رانجر. وفي أثناء ترجمه من السيارة، حمل أحدهم مظلة فوق رأسه.

"تود، بن - روي. لقد أكسبتني خمسين شيكلاً".

وسلّمه رجل مُلّتح ناتئ البطن كوب قهوة تركية. إنه تحرّ زميل يدعى يوري بينكاس.

"رآك فلدمان في زحمة المرور"، قال بصوت أحشّ. "لقد راهنا على مدى قدرتك على الاحتمال قبل أن تستخدم صفارة الإنذار. كان ظني صائباً. خمس دقائق. أنت تصبح صبوراً كلما تقدّمت في السن".

"سأُتقاسم القهوة معك"، قال بن - زوي، متناولاً الكوب ومُقَفِّلاً السيارة.
"ستقوم بذلك بالتأكيد".

عبرا الباحة، وحمل بينكاس المظلة فوقهما لتقيهما من المطر، في حين كان
بن - زوي يرتشف القهوة من كوب فليبي. إنه وغد متهكم، ولكن زميله أعدّ
قهوة جيدة بالتأكيد.

"إذاً، ماذا يحدث؟ قالوا إن هناك جثة".

"في دار العبادة الأرمنية الكبرى. إنهم جميعاً هناك الآن، والرئيس أيضاً".
رفع بن - زوي حاجبيه، فمن غير المعتاد أن يتدخل الرئيس في هذه المرحلة
المبكرة. "من المحقق؟".
"شاليف".

"أشكر الله على ذلك. في الواقع باستطاعتنا حلّ هذه الجريمة".
وصلاً إلى التّفق المؤدي إلى داخل المجمع حيث يوجد إلى يسارهما بناء مُلحَقٌ
على امتداد الناحية الخلفية للمبنى الرئيس، وهو عبارة عن مركز مراقبة يحتوي على
300 كاميرا أمنية غير عادية ترصد المدينة القديمة.

"أنا هنا في الداخل"، قال بينكاس. "أراك عندما تعود".

"هل باستطاعتي استعارة المظلة؟".

"لا".

"أنت ستكون في الداخل!".

"قد أخرج".

"بن زونا، يا لك من وغد".

"وغد موضوعي". وضحك بينكاس، وابتسم ابتسامة عريضة. "من الأفضل
لك الإسراع. إنهم في انتظارك".

توجّه إلى الأبواب الزجاجية للبناء المُلحَق، واستدار عندما وصل إليها.
وفجأةً، ارتسمت الجديّة على وجهه وهو يقول:

"قتلها بسلك معدني. لقد خنق الوغد المرأة المسكينة".

ورمق بن - زوي بنظرة باردة وقاسية، ولم يقل شيئاً. لم يكن بحاجة إلى ذلك
لأن نظراته واضحة تماماً: علينا إلقاء القبض على هذا الرجل. واستمرا بالنظر إلى

بعضهما، ومن ثمّ أوماً بينكاس برأسه، وفتح الباب الزجاجي، وتوارى داخل المبنى، فيما تناول بن - روي ما تبقى من القهوة في الكوب.

"أهلاً وسهلاً في أرض الميعاد". تتم قاضماً كوب الفلين، وقاذفاً إياه في اتجاه طارة كرة السلة القائمة عند الطرف البعيد للباحة. لقد سقط على مسافة بعيدة منها.

غوما، جمهورية الكونغو الديمقراطية

رقد جان - ميشال سامبلير على سريريه في الفندق، وفكر في العمل الذي قام به بشكل جيد.

كانا أسبوعين اختباريين. كان مطار غوما قد أُغلق لمدة قصيرة بعد وصوله إلى البلد بسبب نشاط متجدّد للثوار، مما حمله على الانتظار في كينشاسا لمدة أسبوع قبل أن يتمكن أخيراً من السفر جواً إلى الحدود مع رواندا في الشرق. وتأخر مجدداً لمدة أربعة أيام في أثناء قيام معاونين بوضع التفاصيل النهائية للاجتماع، وقد تطلّب منهم ذلك قسماً كبيراً من الأشهر الثلاثة التي تسبق اللقاء. أخيراً، حلّقت طائرة سيسنا في اتجاه مهبط في واليكالي، مما وضعه وجهاً لوجه مع جيزوس نغاندي؛ سفّاح كيفو الذي حوّل عناصر الميليشيا التابعة له أعمال الاغتصاب الجماعي إلى فنّ جميل، والأهم من ذلك أنهم سيطروا على نصف مناجم القصدير والكولتان في هذه الناحية من البلد.

بعد كل الاستعدادات، دام الاجتماع أكثر من ساعة بقليل. فسّلم سامبلير زعيم الميليشيا دفعة أولى بقيمة 500,000 دولار نقداً، تعبيراً عن حُسن النية، وجرت مناقشة مستطردة حول الحمولات وكيفية نقل المعدن الخام شمالاً عبر الحدود إلى داخل أوغاندا، وأخرج نغاندي بعد ذلك قتيّنة واقترح تناول نخب شراكتهما الجديدة في ميدان الأعمال.

"ما هذا؟". سأل سامبلير بالفرنسية متفحّصاً السائل أرجواني اللون المائل للحمرة في كأسه.

فابتسم نغاندي، وانتابته نوباتٌ من الضحك لا تخلو من مؤثرات تعاطي المخدرات.

"سانع"، جاء الجواب. "دماء".
وحافظ سامبلير على رباطة جأشه.
"في فرنسا، نفضّل المصافحة".

ضحك سامبلير لدى استعادته هذه الذكريات، وأشعل سيجارة جيتان، ونفخ حلقة من الدخان في اتجاه مروحة السقف، وتمدد مستمتعاً بلمس ملاءات القطن على جسده العاري. فبالرغم من تخطيه الخمسين من العمر هذا العام، كان يتمتع ببنية جسدية لرجل أصغر سنّاً بعشر سنوات، لا بل خمس عشرة سنة، وذلك بفضل نظام غذائي حريص وتمارين اليوغا المنتظمة. كان يشعر في الصميم بأنه بخير، وقوي، وذو لياقة بدنية، وواثق بنفسه؛ لا سيما بعد انتهاء الاجتماع وتوجّهه إلى وطنه.

كان من المفترض إيكال هذه المهمة إلى شخص أدنى مرتبة وفقاً لهرمية الشركة. لكن، في هذه الحالة، ومع حصول الصينيين على حصة أكبر من الثروة المعدنية في الكونغو، طلب منه مجلس الإدارة إتمام الصفقة بنفسه، على أن يدير الممثلون المحليون كل شيء من هنا؛ فنظراً إلى كونهم أكبر تجار للمعادن في العالم، لا يمكنهم التعاطي علناً مع قاتل متسلسل. وأرادت الشركة ترك انطباع جيد بدءاً بهذا الاتصال الأولي، وكان سامبلير سعيداً بالقيام بذلك؛ ليس لأن الأرباح المحتملة ضخمة جداً، بل لأنه يحب خوض القليل من المغامرة. شقة في الدائرة السابعة، فيلا في الأنتيب، زواج لمدة ثلاثين عاماً، ثلاث بنات؛ إن الحياة مريحة جداً بالنسبة إليه، غير أنه كان يقول في سره أحياناً إنه يحتاج إلى المتعة من حين لآخر. وبأي حال، بوجود الحراس الذين وفّرقهم الشركة - خمسة أفراد كانوا سابقاً من مشاة الوحدات الخاصة يعرضون أجسادهم لأشعة الشمس بجانب بركة السباحة بعد انتهاء الأعمال المجهدة - لن يكون في خطر.

من وراء باب الحمام المُقفّل، صدر صوت مياه الاستحمام. نفخ سامبلير حلقة أخرى من الدخان متذكراً متعات الليلة السابقة، ومعتبراً أنه ربما يتوافر له الوقت للحصول على المزيد من المرح واللهو قبل موعد الرحلة الجوية إلى كينشاسا. لم يقتنع قطّ بالمبادئ الأخلاقية، بل إنه لم يتكبّد مطلقاً عناء التفكير في ذلك؛ ولا سيما في أثناء عقده صفقات مع شخص غريب مثل جيزوس نغاندي. فوفقاً للأمم

المتحدة، إنه المسؤول عن إزهاق حياة ربع مليون شخص معظمهم من النساء والأطفال، وهي نسبة كبيرة. وقد يزداد المبلغ الذي يدفعونه له - 5 ملايين دولار في العام - مع سيطرة نغاندي على المناجم. وتلجأ شركات أخرى إلى اعتماد أسلوب تضليلي، فتحصل على الموارد من وسطاء يحصلون بدورهم على هذه المواد من وسطاء آخرين؛ وذلك لإبعاد الشبهات عنها والبقاء على مسافة آمنة من مصادر المعادن الخام. ويصل عدد التبادلات التجارية إلى عشرة بين المناجم المستغلة في شمال كينغ وأسواق أوروبا وآسيا والولايات المتحدة، ويرتفع سعر الكيلوغرام الواحد بشكل مطرد مع كل عملية. حصلوا على مواردكم مباشرة، كما يفعلون، وستوافر لكم بسعر زهيد. فلاغتصاب والتشويه والقتل أعمال غير مُستساغة، ولكن المال الذي تقتصده شركته - وبالتالي المال الذي تجنيه - مُستساغ إلى حد كبير. وبصدق، من يُبالي بما يرتكبه السود في حق بعضهم. فبالرغم من كل شيء، الكونغو بعيدة عن قاعات الاجتماع في باريس.

أنهى تدخين سيجارته، ونهض من السرير، وسدّ ضربة عنيفة وخاطفة وسريعة إلى باب الحمام في ما يشير إلى استعداده للبدء مجدداً. ومن ثم توجه إلى الأبواب الفرنسية، وفتح الستائر، ونظر إلى الخارج. ظهر من بعيد جزء كبير من بركان نييراغونغو الذي تنبسط تحته مروج مثلمة وصولاً إلى بركة السباحة في الفندق حيث تمكّن من تمييز حراسه برفقة شخصين آخرين؛ إهمما ينتميان إلى منظمات غير حكومية ربما، وليساً ممن يُمضون عطلة بالتأكد؛ لأن أولئك لا يأتون إلى هنا.

إن المنتمين إلى المنظمات غير الحكومية يُضحكونه، على غرار كل أولئك الأغبياء عديمي النفع، المناهضين للعولمة والشركات الكبيرة، والذين يُدمون القلب. فهم يتفخرون بأجهزتهم الحضرية وهواتفهم المحمولة، ويغضبون بسبب الاستغلال الغربي لموارد العالم الثالث. فمن دون الكولتان وحجر القصدير، لن تكون هناك أي أجهزة كمبيوتر حضرية أو هواتف محمولة، ومن دون مؤسسات كمؤسساته لن يكون هناك أي كولتان أو حجر قصدير. وكل بريد إلكتروني أو رسالة نصية يرسلونها للمطالبة بالعدل، وكل اتصال هاتفي يُجرونه لتنظيم تجمع آخر، وكل موقع على الإنترنت يُنشئونه للبكاء على انتهاكات حقوق الإنسان؛ كلها أصبحت

ممكنة بسبب البؤس والاستغلال اللذين يُدينونهما بشدة. الأمر مُضحك تماماً، أم إنه سيكون كذلك على الأقل إذا تكبد عناء التفكير فيه مجدداً.

تباطأ صوت المياه في الحمام ثم توقف، فاستدار سامبلير، وألقى نظرة على ساعته الروليكس للتحقق من الوقت المتبقي لديه. في تلك الأثناء، قُرع الباب. "تَبّاً"، تتمم، ومن ثم قال بصوت أعلى: "لحظة!".
والتقط عن الأرض رداء الاستحمام، وارتداه، وعبر الغرفة.
"مَن؟".

"خدمة الغرف"، أجاب الصوت.

إنه لم يطلب أي شيء، ولكنه ينزل في الفندق ذي التكلفة الأكثر ارتفاعاً، حيث تُرسل الإدارة باستمرار مشروبات وأزهاراً وحُلويات. لذلك، لم يتردد في فتح القفل ومن ثم الباب.

وُضع مسدس على صدره. همّ بالتكلم، ولكن المرأة المُسككة بالسلاح وضعت إصبعها على شفَتَيْها، أو بالأحرى على شفَتَي قناع مارلين مونرو المصنوع من اللاتكس، وأعادت سامبلير إلى داخل الغرفة، وتبعهما ثلاثة أشخاص - ذكران وأنثى - وأقفلت الأخيرة الباب وثبته بالرتاج. كان الجميع يضعون أفئدة: أرنولد شوارزنيغر، إلفيس بريسلي، وأنجلينا جولي. لم يكونوا أفارقة؛ هذا ما بدا له من لون أذرعهم وأعناقهم المكشوفة؛ هذا كل ما كشفوا عنه. ولو لم يكن هناك مسدس، لكانت النتيجة هزلية.

"ماذا تريدون؟". سأل محاولاً إبقاء صوته واثقاً. فلم تُجب المرأة التي تحمل المسدس، بل دفعت سامبلير إلى الورا في اتجاه السرير. وتوجّه ذاك الذي يضع قناع إلفيس بريسلي إلى الستائر المسدلة بشكل مُحكم، وفتحها. فيما ركعت أنجلينا جولي على الأرض وفتحت حقيبة السامسوناي التي كانت تحملها، وأخرجت منصّباً ثلاثي القوائم وكاميرا للتصوير الفيديوي. أما أرنولد شوارزنيغر، وهو رجل قصير القامة، وطويل ونحيف، وذو خُصل شعر رفيعة وزلقة تتأ من تحت حافة قناعه عند العُنق، فدنا من طاولة السرير حيث كان يتم شحن جهاز الكمبيوتر ماك بوك الخاص بسامبلير بالكهرباء، ورفع الغطاء وشغّله. وسُمع طنين، ثم تحوّلت الشاشة إلى لون رمادي.

"ماذا...".

ورُفَعَت يد وصفعت سامبلير على وجهه.

"اخرس".

بدت اللهجة أميركية تخالطها لهجة أخرى. أهى روسية؟ أم إسبانية؟ أم عبرية؟ لم يتمكن سامبلير من التأكد. وأمامه، ثَبَّتت أنجلينا جولي - وكانت بشرتها أكثر قتامة من صاحبة الاسم - المنصبَ ثلاثي القوائم، ووضعت وسط الغرفة. ومن ثم، شَعَلت الكاميرا، وفتحت مُعَيَّنَ المنظر، ووجهت العدسة نحو الأسفل لتكون مصوِّبة على وجه الفرنسي مباشرةً. وظهرت على شاشة الجهاز الحضي صورة سامبلير وعائلته، مشيرةً إلى أن الكمبيوتر صار جاهزاً للعمل.

"كلمة السر"، قال أرنولد شوارزنيغر، وأدار الماك بوك.

فتردد سامبلير. لقد ظنَّ للوهلة الأولى أنها عملية سرقة، ولكنهم لم يلمسوا محفظة جيبه الملقاة على طرف السرير، وأقنعتهم رغبتهم في ولوج جهازه بوجود أمر إجرامي أكبر من مجرد سرقة عادية. ففي الكمبيوتر الكثير من المعلومات التي لا يريد هو أو شركته...

"كلمة السر"، أمر الرجل مجدداً.

"الآن"، قالت مارلين مونرو بغضب، شاهرةً المسدس وضاعطةً إِيَّاه بقوة على صدغ سامبلير. متيقناً من عدم وجود أي خيار آخر أمامه، انحنى إلى الأمام وشرع بالعمل على لوحة المفاتيح. وأدار شوارزنيغر الماك بوك، وأدخل يو أس بي في أحد المقابس، وتحقق من محتويات السواعة الصلبة. لقد شعر سامبلير بخوف حقيقي. "اسمعوا لا أعرف ما الذي تريدونه مني...".

قوطع كلامه بقطعة مكتومة صادرة من الحمام، فشرع الدخلاء بالتوتر، وألقوا نظرات سريعة على بعضهم، وعَبَّرت تلك التي تحمل المسدس عن استهجانها، وهزَّت رأسها كما لو أنها تقول "كان يُفترض بنا التحقق". فوضع شوارزنيغر الكمبيوتر الحضي جانباً، واستلَّ مسدس غلوك من الناحية الخلفية لجينزهِ. وقامت مونرو وجولي بالمثل، متراجعَتين إلى الورا ومصوَّبَتين على الباب. ودنا الرَّجُل الذي يضع قناع إيفيس بريسلي من الحمام والتصق بالجدار بجانب الباب، وتوقف قليلاً، ووجَّه نظرهً خاطفةً إلى زملائه، ومدَّ يده، وأدار المقبض وفتح الباب.

"اه فيي"، تمت أنجلينا.

كانت هناك فتاة واقفة في الداخل، عارية، ولا تزال بشرتها السوداء كالأنبوس تتلألأ بقطرات الماء بعد انتهائها من الاستحمام. واستناداً إلى بنيتها الجسدية غير مكتملة النمو، لم تكن سنّها تتجاوز تسع سنوات أو عشرًا. كانت ترتجف، فاتحةً عينيها على وسعهما من فرط الخوف.

ساد صمت وجيز ملؤه الدهشة. بعد ذلك، عبرت مارلين مونرو الغرفة بسرعة، ممزقةً القناع، وكاشفةً عن وجه شاحب وشعر بتي مائل للحمرة. تلقفت منشفة من قضيب التعليق في الحمام ولفتها حول جسم الفتاة الصغيرة.

"لا عليك"، همست ممسكةً بها. "لا عليك. لقد انتهى الأمر".

بقيت على تلك الحال لمدة طويلة، مهدئة الفتاة ومطمئنةً إيّاها، من دون أن يتحرك أحد أو يقول أي كلمة. بعد ذلك، احمرّ خدّاها، وعادت إلى داخل الغرفة بخطى واسعة متوجهة نحو سامبلير، وجهت ضربة قوية إلى جانب وجهه بعقب مسدسها، فسقط على السرير. صاح ورفع يديه للدفاع عن نفسه، وقفزت المرأة الأخرى وأمسكت بذراع رفيقتها، محاولةً كبح جماحها.

"لو، يا ديناً!"

غير أن الأولى أفلتت ذراعها من قبضة رفيقتها، وضربت سامبلير مجدداً، ثم أمسكته من شعره، وجذبت رأسه إلى الوراء بعنف، وأقحمت فوهة الغلوك داخل فمه حتى كاد يختنق.

"سأقتلك"، صاحت بوجه أحمر قانٍ، وبخدين بللتهما الدموع. "سأقتلك، أيها الحيوان الخسيس. سأفجر رأسك اللعين".

لقد أصيبت بالمستيريا والجنون، ولم تهدأ إلا عندما دنا منها الرجل الذي يضع قناع إلفيس ووضع ذراعه حولها، مُبعداً إيّاها بلطف ولكن بحزم. وتحدث الاثنان بصوت منخفض بلغة لم يفهمها سامبلير؛ علماً أنه كان على يقين تقريباً أنها عبرية. وبعد ذلك، أعادت وضع المسدس في الناحية الخلفية لجينزها مرتجفة، وعادت إلى الحمام، وساعدت الفتاة على ارتداء فستانها الرّثّ زهريّ اللون الملقى على مقعد المرحاض. أمسكت الفتاة الصامتة والمذعنة بيدها، واقتادتها إلى الباب الرئيس.

أزالت رتاج الباب وفتحته، ثم أخرجت الفتاة قبل أن تعود إلى سامبلير. كان متكوماً على السرير وهو يئنّ، ورداء الاستحمام المصنوع من قماش المناشف متغصّن حول وسطه، وياقته ملطّخة بالدماء. حدّقت إليه للحظات بوجه عابس من فرط الكره والاشمئزاز، ومن ثم بصقت عليه.

"نحن عقوبتك المستحقّة"، قالت قبل أن تخرج من الغرفة وتقفّل الباب وراءها.

بعد مغادرتها، ألقي إلفيس بريسلي نظرة سريعة إلى أبواب الحديقة للتأكد من عدم تنبّه حراس سامبلير الشخصيين لحالة الاضطراب، ثم عاد إلى السرير، وأجلس الفرنسي الذي كان خدّه الأيسر متورماً ومنتفخاً.

"لقد كسرت تلك الكلبة فكّي"، تتمم سامبلير واضعاً يده على فكّه.

لم يُجب الرجل، بل عاد خطوتين إلى الوراء، وصوّب مسدسه إلى رأس سامبلير قائلاً:

"ستنظر إلى الكاميرا، وستذكر اسمك واسم شركتك، ومن ثم ستشرح بالتحديد ما الذي تفعله هنا في أفريقيا".

وأوماً لتشغيل الكاميرا.

"الآن، ابدأ بالكلام أيها الوغد".

القدس

تقع دار العبادة الكبرى لسانت جيمس في قلب الحيّ الأرمني في المدينة، على بُعد مئتي متر من الكيشل سيراً على الأقدام، وعلى امتداد طريق بطيركية الأرمن الأرثوذكس المحاطة بسور مرتفع. في منتصف الطريق إلى مجمع الأرمن، بدأ المطر ينهمر بغزارة، مما دفع بن - روي للاحتماء تحت مدخل الفندق الأرمني. فشم بينكاس لأنه حرمه من مظلته، وأخرج هاتفه المحمول مغتنماً الفرصة للاتصال بسارة والاعتذار منها.

غريب كيف تتخذ الحياة منحى مختلفاً، وكيف لا تجري الأمور كما يتوقّع المرء. فقبل أعوام قليلة كان مرتبطاً، ولكن خطيبته غالباً قُتلت، وسقط عالمه في

هاوية سحيقة. لقد اعتقد أنه دُفن هناك إلى الأبد، ولكن شخصين أنقذه بخلاف كل التوقعات، ومنهما سارة.

لقد مضت أربع سنوات جيدة ورائعة على وجودهما معاً، ولا سيما في البداية. كانت غالبا موجودة على الدوام بالطبع، ولكن حياته استمرت مع سارة. لقد شُفي، ولكن ليس على الصعيد الشخصي فقط، فقد عادت مهنته إلى مسارها، ورُقّي إلى منصب كبير التحرير، وحصل على تنويهات بفضل العمل الذي أنجزه في ثلاثة تحقيقات منفصلة، واستعاد حماسه الشديدة للمحافظة على النظام، واستحوذت هذه الفكرة على عقله مجدداً.

هذا ما سبب له المشاكل. فكما يحصل مع أي تحرّ في العالم، إن تحقيق التوازن بين فرض القانون والمحافظة على العلاقات أمر عسير. والأصعب بشكل مضاعف هو الجوُّ الضاغط في مدينة كالقدس.

لقد طلق كل زملائه، مع وجود استثناءين فقط، مرة واحدة على الأقل. فالعمل والنساء لا يمكن التوفيق بينهما. كيف يمكنك التخفيف من وطأة إخفاق محتوم لعملية مرتبطة بالمخدرات لأن شريكك تريد أن تنعم بليلة هائلة أمام التلفاز؟ كيف يمكنك تمثيل قصة حب مليئة بالشغف عندما تكون قد أمضيتَ يومك في إجراء مقابلات مع مغتصب متسلسل؟ كيف يمكنك عدم الرد على الاتصال الهاتفي الذي يطلب منك النظر في مسألة جثة عُثِر عليها في دار عبادة، والنظر بدلاً من ذلك إلى صور طفلك الذي لم يولد بعد؟ أين الحد الفاصل؟ كيف ترسم الحد الفاصل؟

مع غالبا، كانت هناك علاقة غرامية عابرة قبل أشهر قليلة فقط من طلب يدها، ولم تكن المدة كافية ليلحق ضغطُ العمل الضررَ بعلاقتهم. أما مع سارة فكانت المدة كافية. لقد بذلت قصارى جهدها لإنجاح علاقتهم، ولكن الأمر الوحيد الذي كان بالإمكان التعاطي معه هو العديد من حفلات العشاء المُلغاة، وقدر كبير من الانطوائية.

تكررت المواجهات، واتسعت المسافة بينهما أكثر فأكثر، وازداد الاستياء عمقاً. في النهاية، وضعت حداً لذلك، وتصالحا لمدة وجيزة - كانت خلالها أفضل علاقتهما الجنسية؛ وهذا أمر مثير للسخرية - ولكن عمله شكّل عائقاً للمرة الثانية. وبعد أسبوعين، طالبت بوقت مستقطع نهائي.

"أحبك يا آري"، كانت قد قالت له. "ولكن، لا يمكنني العيش مع جزء منك فقط. فأنت لا تكون موجوداً هنا أبداً. وحتى عندما تكون موجوداً، يكون عقلك في مكان آخر. لن ينجح الأمر. أريد المزيد".

انتقلت من شقتهما، وواصل عمله محاولاً إقناع نفسه بأن كل شيء يسير نحو الأفضل.

بعد خمسة أسابيع، اتصلت به لتُعلمه بأنها حامل.

"هل هو ابني؟". كان قد سأها.

"لا، إنه ابن مناحيم بيغن. لقد جمّدتُ عيّنة من سائله المُنوي قبل أن يموت. إنه ابنك بالطبع، يا دا - فوك! أبله!".

لقد خسِر حبيبة وكسب طفلاً. غريب كيف تتخذ الحياة منحى مختلفاً.

تحوّل هاتف سارة مباشرةً إلى صيغة البريد الصوتي. لقد ترك لها رسالة عبّر فيها عن أمله في أن يكون كل شيء قد جرى بشكل جيد، وعن أسفه بسبب مغادرته باكراً، وقال إنه سيتصل لاحقاً. وبعد الانتهاء من توجيه الرسالة الصوتية، انتظر توقف انهمار المطر.

تكون طريق بطيركية الروم الأرثوذكس هادئة عادة. وبإغلاق باب يافا أمام حركة المرور بسبب أشغال الطرقات التي يقوم بها المجلس البلدي، تعيّن على العربات التي تريد الخروج من المدينة القديمة سلوك هذا الطريق في اتجاه باب المغاربة. والنتيجة، دفق غير متناهٍ من السيارات، وسيارات الأجرة، والحافلات التي تحمل الرقم 38، تسدّ الطريق العام الضيق وتدفع المشاة في اتجاه الجدران على جانبي الشارع. ومرّ شخصان ممّن يُعرفون بالحارثم أمامه بسرعة، مطأطئين رأسيهما، وحقيبتاهما البلاستيكيتان ملفوفتان حول قبعتيهما من طراز هومبورغ لإبقائهما جافّتين. ومرّت بعد ذلك مجموعة من السيّاح الذين يرتدون سترات زرقاء واقية من المطر.

في النهاية، تباطأ انهمار وابل المطر، وأكمل بن - روي طريقه. مرّ أمام مشرب بولغورجي، وعبر نفقاً قصيراً بطول 50 متراً حيث التصق بالجدار قدر الإمكان ليتجنّب التعرّض للاصطدام من حافلة تحمل الرقم 38. وبعد خروجه من النفق ومروره بمركز ساندروني الفنّي الأرمني، وصل إلى مدخل مقبّب بطريقة

زُخْرُفِيَّة، وفوقه حجر نُقِشَتْ عليه حروف بالعربية، والأرمنية، واللاتينية: دير سانت جاك الأرمني؛ كما جاء في الجزء الوحيد الذي تمكّن بن - روي من فك رموزه. كان يقف تحته رجلا شرطة نظاميان، وشرطيّان من حرس الحدود يبذلتهما الرسميّتين الخضراوين.

أظهر بن - روي بطاقة التعريف الخاصة به ودخل، وهذه هي المرة الثانية التي يدخل فيها المكان خلال سنواته السبع التي أمضاها مع شرطة القدس. فالأرمن مجموعة صغيرة ومتعاذدة بشكل عام، ويواجهون متاعب أقل مقارنةً مع جيرانهم اليهود والمسلمين.

في الداخل، يمتد ممرٌ مقبَّب إلى يمينه، ويوجد إلى يساره مكتب البوّاب بواجهته الزجاجية حيث يتحلّق ثلاثة رجال يرتدون معاطف جلدية ويعتمرون قلنسوات مسطّحة حول مراقب سي سي تي في، وكانت نافا شوارتز، إحدى خبيرات التصوير في الكيشل، واقفة وراءهم ومنحنية في اتجاه الشاشة. وعندما رأت بن - روي، لوّحت له بيدها، مشيرةً إليه بوجوب سلوك الممر ودخول أول باب إلى اليسار، حيث وجد نفسه في باحة صغيرة مرصوفة بالحجارة ومُحاطة بجدران عالية، كما لو أنها باحة سجن. كان مدخل دار العبادة الكبرى في الجهة المقابلة، في الناحية الخلفية لرواق مسيّج وممتد، يطوّقه شريط أحمر وأبيض خاص بالشرطة.

كان هناك المزيد من العناصر المرتدين بذلات نظامية واقفين على جانبي الباب - كلهم نظاميون، ولا وجود لشرطة الحدود - وثلاثة أسلحة نارية مصفوفة على أرضية الرصيف الرخامية زهرية اللون: مسدسا جريكو من عيار 9 ملمترات، ومسدس أف أن بلجيكي. لقد لاحظت إحدى الشرطيات على الأرجح التعابير الساخرة على وجهه، لأنها ربّبت بعصاها على اللافتة الموجودة بجانب الباب التي تورد أنواع الأشياء والنشاطات كافة الممنوعة داخل دار العبادة. "لا مسدسات أو أسلحة نارية"، هذا هو الشرط الوحيد من بين الشروط الثمانية الذي أرفق بكلمة "أبداً".

لم يكن يُفترض بضباط الشرطة ترك أسلحتهم بعيداً عن أنظارهم، ولكن يبدو أن الدبلوماسية قد حققت انتصاراً في هذه الحالة. شك بن - روي بإمكانية اعتماد

الأسلوب اللطيف نفسه لو كانوا في مكان إسلامي. فالأمر من لم يعتادوا رمي الحجارة أو تسديد الرميات.

أخرج مسدسه الجريكو من قِرابه، ووضعه مع المسدسات الأخرى، وأوقف عمل هاتفه المحمول، وخطا فوق الشريط إلى داخل دار العبادة الكبرى. كانت الرؤية مُعْتَمَةً في الداخل ومُظْلِمَةً؛ رغم فتح الأبواب الخشبية وستائر المدخل. وفي الداخل، ترتفع أربعة أعمدة ضخمة بضخامة جذوع السُكُويَّة في اتجاه السقف المقبَّب العالي، وتتدلَّى من السقف في كل مكان عشرات المصابيح النحاسية بواسطة سلاسل معدنية طويلة، مألوفة المكان كما لو أنها أسطول حربي من سفن فضائية صغيرة. وهناك أيقونات ذهبية وفضيَّة، ولوحات زيتية كبيرة اسودَّت على مَرِّ الزمن، وسجادات سميكَّة، وبلاطات جدارية زرقاء وبيضاء مزخرفة بشكل معقَّد توحى بأن المكان مركز تجاري كبير يحتوي على تُحف أثرية مكْدَّسة أكثر من كونه مكاناً للعبادة. وقف للحظات لتحديد وُجهته، متنشِّقاً الهواء المفعم برائحة البخور، ومراقباً كلباً يقوده شرطي وهما يجوبان المصلَّيات الجانبية إلى يساره، ويتوجهان بعد ذلك إلى أحد المداخل إلى اليمين. انبعث من الغرفة الخلفية توهجٌ ومضات آلات التصوير الذي كان ممثالاً لتوهج الستروبوسكوب، وثرثرات تم إسكاتها.

"لطف منك أن تنضم إلينا يا آري".

كان هناك رجل بدين في طَور الصلح واقفاً قرب الباب تماماً، ويوجد على سترة الشرطة الزرقاء التي يرتديها رسم لورقة وتاجين متماثلين يشير إلى أنه ميتزاف ميشنه - القائد موشيه غال، رئيس مركز شرطة داوود. كان نائبه يقف إلى جانبه، الضابط المسؤول إسحق بوم، وكذلك الرقيب أول ليه شاليف؛ وهي امرأة عارمة الصدر، عريضة الرُدفَيْن، ترتدي بذلة نظامية زرقاء. أومأت شاليف مرحةً، ولكن بوم لم يَقُمْ بذلك.

"آسف يا سيدي"، قال بن - روي وهو يقف بجانب شاليف. "لقد أعاقني

حركة المرور في هداسا...".

لوَّح غال بيده، رافضاً الاستماع إلى الشرح لأنه غير ضروري.

"هل كل شيء بخير مع الطفل؟".

"يبدو في حال جيدة، شكراً لك يا سيدي".

"أما هي فلا"، قال بوم.

كانوا في غرفة طويلة مكسوّة بالسجاد، وأكثر بساطة وأقل زخرفة من القاعات الأخرى في دار العبادة الشبيهة بكهف علاء الدين. وكان سقفها المقبّب متشقّقاً وملطّخاً بالعفن. وفي أحد أطراف الغرفة كومة من الكراسي القابلة للطيّ، وفي الطرف الآخر طاولة عليها غطاء تُستخدم كمذبح. لقد تم رفع الناحية الأمامية للغطاء، ليكشف عن فسحة تحته. وهناك شخصان يرتديان قفازات معقّمة، وردائين أبيضين يجوبان المكان حاملين ملقطين صغيرين وأكياساً لالتقاط ما يتم العثور عليه، فيما يقوم شخصان آخران برفع البصمات. كان بيبي كلترمان، مصوّر صحيفة يارد الروسية، جالساً على ركبتيه ويتحرك بهمة ونشاط مع آلة تصوير من طراز نيكون دي 700، التي يضيء وميضها المؤخرة الكبيرة للطبيب أفرام شملينغ، الأخصائي في علم الأمراض الذي كان منحنياً تحت الطاولة.

لم يكن الهدف من كل هذا النشاط واضحاً بشكل مباشر. ولم يرَ بن - روي الجثة إلا بعد أن ركع واستند إلى مرفقيه، وانحنى جانباً قليلاً للحصول على رؤية أفضل. إنها أنثى، بدينة، ملقاة على ظهرها. لقد أُضيئت جثتها بمصباح هالوجين تابع للشرطة، وكانت تبدو مُسنّة، أو على الأقلّ كبيرة في السنّ نوعاً ما؛ في أواخر منتصف العمر وفقاً لشعرها الذي أصبح رمادياً، علماً أنه يصعب التأكد من ذلك لأن الجثة كانت على بُعد ستة أمتار، ويغطّيها جزئياً ظلّ شملينغ الكبير.

"عثرت عليها إحدى عاملات التنظيف هذا الصباح"، قالت ليه شاليف. "لقد رفعت الغطاء لتكنس الأرض..."

ومدّت يدها في اتجاه المنطقة الرئيسة من دار العبادة.

"لقد ملأت المكان الملطّخ بالدماء صراحاً كما يبدو. وفقاً لما أفادت به إحدى

فتيات الارتباط التي كانت عائدة إلى منزلها في المجمع".

أوماً بن - روي مراقباً الأخصائي في علم الأمراض وهو يجرّ خطاه في المساحة الضيّقة تحت الطاولة، متفحّصاً الجثة. بدا كدب يتفحّص عشاءه؛ هذه هي الصورة غير المستساغة التي تتبادر إلى الذهن عند رؤيته على تلك الحال.

"هل نعرف من تكون؟" سأل.

"لا فكرة لدينا"، أجابت شاليف. "لم نجد أي محفظة جيب أو بطاقة هوية معها".
"ليست بار ريفاليلي بالتأكيد"، قال بوم.
كانت دُعاة رديئة لم يضحك لها أحد. فلم يسبق لأحد أن ضحك لدُعابات بوم. إن الرجل أخرج.

"يعتقد أحد الرجال أنه رآها قادمة قرابة الساعة السابعة من مساء أمس"،
أضافت شاليف. "يتم استجوابه الآن. ووجدتها عاملة التنظيف عند الثامنة من صباح اليوم؛ إذاً لدينا إطار زمني تقريبي على الأقل".
"هل هناك أي شيء آخر أكثر تحديداً؟".
"ليس في هذه المرحلة. يتجنب شملينغ إعطاء جواب قاطع في شأن توقعاته".
"هناك مفاجأة"، تمت غال.

وألقي بن - روي نظرة للحظات إضافية، ومن ثم قال:
"رأيت السي سي تي عند دخولي".
"لديهم عيون في أنحاء المجمّع كافة"، أكدت شاليف. "إنهم يفرزون الآن المشاهد ذات الصلة بالموضوع، ويقوم بينكاس بتفحص كاميراتنا في الكيشل. سيظهر رجلنا في أحد الأفلام. سننال من الوغد".
"يذكرني الأمر بشيرات تل أيب"، قال بوم.
ونظروا كلهم إليه، منتظرين بيت القصيد.
"لم يحدث أي شيء منذ دهور، وها أنتم تحصلون على جريمتين في الوقت نفسه".

تشير الدُعاة إلى أنه بعد ثلاث سنوات من عدم وقوع أي جريمة قتل داخل أسوار المدينة القديمة، يجد رجال شرطة الكيشل أنفسهم فجأة، وفي غضون أسبوعين، أمام عمليتي قتل. فقبل عشرة أيام، طعن أحد طلاب اليشيفا في المعى في الناحية السفلية للواد في الحي المسلم. وها هي الجريمة الثانية.
"لدينا صلات واسعة النطاق"، قال بوم. "ربما علينا طلب مشورة بعض الأشخاص في اليارد الروسي".

"باستطاعتنا القيام بذلك"، زبحر الرئيس ناظراً إلى شاليف التي أومأت.
فالعلاقات طبيعية بين مراكز شرطة المدينة، ولا سيما بين الكيشل واليارد الروسي،

ولكن سيكون عليهم تشارك المصورّ الفوتوغرافي التابع ليارد. ولم يكن الرئيس غال يعترزم الاستعانة بمحققهم أيضاً.

"عليّ العودة"، قال الرئيس مُلقياً نظرة سريعة إلى ساعته. "لديّ لقاء في ساحة سافرا. كم أنا محظوظ!".

أغلق سحاب سترته حتى العنق. وعلى غرار الشارات المميزة التي يتقلّدها قائده، كان هناك دبّوس ذهبي على صورة مينورا على صدره الأيسر: المكافأة الرئاسية للخدمة المتميزة.

"أريد نتيجةً لهذا التحقيق، يا ليه. وبسرعة. إذ ستتناوله الصحافة. اتفقنا؟".
"اتفقنا"، قالت شاليف.

نظر إليها وإلى بن - روي من تحت حاجبين كثّين. وبعد إلقاء نظرة أخيرة في اتجاه الطاولة داخل المنطقة الرئيسة من دار العبادة الكبرى، لوّح ليوم لمتابعة القضية.
"أبقياي على اطلاع"، صاح من فوق كتفه.
"وأنا أيضاً"، صاح بوم.

ونظر بن - روي وشاليف إلى بعضهما.
"مانياك"، قال بصوت واحد.

ووفقاً لدقائق قليلة يراقبان عناصر جمع الأدلة وهم يقومون بمهمتهم بطريقة منهجية، وسأل بن - روي بعد ذلك عما إذا كان بإمكانه إلقاء نظرة على الجثة عن قرب.

"صندوق الملابس موجود هناك"، قالت شاليف مشيرةً إلى صندوق مفتوح وموضوع على الأرض في الطرف البعيد للغرفة بجانب كومة الكراسي. فتوجّه بن - روي نحوه، وانتعل زوجاً من أغلفة الأحذية، ولبس رداء أبيض وزوجاً من القفازات، وعبر الغرفة بعد ذلك، وركع بجانب الطاولة عند المنطقة المركزية من دار العبادة.

"أستأذن".

رفع شلينغ إبهامه لـ بن - روي بما معناه أنه باستطاعته الاقتراب. كان ينبغي لآري توخّي الحذر مع شلينغ، فلقد ذاع صيته بحماية مسارح الجرائم المسؤول عنها بشكل مستقبّح.

كان هناك مَتَسَعٌ للرأس تحت الطاولة يبلغ 70 سنتمترًا تقريباً، وبين - روي رجل ذو بنية جسدية ضخمة، وأطراف طويلة، ومنكبين عريضين، بخلاف شملينغ نذي كان عريض الخصر والرِّدْفَيْن. تحرك آري على أطرافه الأربعة، كاشطاً ظهره بالناحية السفلية للطاولة.

"كان عليهم الحصول على تحرُّ أصغر حجماً"، قال شملينغ.
"كان عليهم الحصول على قزم لعين"، أجاب بن - روي على الفور لاهثاً.
ووصل إلى الجثة التي كانت ملقاةً بمحاذاة الجدار، واستند إلى مِرْفَقِيهِ. فأبعد شملينغ قدميه ليوفر له مساحة إضافية. ولمع وميض آلة تصوير كلتزمان.

كانت الضحية ترتدي معطفًا واقياً من المطر مصنوعاً من قماش القنب لأخضر، وكنزة نسائية، وسروالاً فضفاضاً، وتنتعل حذاء مريحاً. وكانت أكبر حجماً مما بدت عليه عندما نظر إليها من المدخل. نهدان كبيران، بطن منتفخ، فخذان ضخمتان؛ لا بد أنها تزن أكثر من 100 كيلوغرام. كانت عيناها مفتوحتين جزئياً، وبياض عينيها ملوناً بلون بَنِي شاحب، ويتأ من فمها منديل تصلَّب بفعل ندماء الجافة؛ وهناك المزيد من الدماء المتكتلة على ذَقْنِها، وعُنُقِها، وياقة كنزتها الصوفية، ويوجد ثَلَمٌ مُصْفَرٌّ على الناحية السفلية لعُنُقِها.

قال شملينغ: "قتلت خنقاً بآلة معدنية، بواسطة سلك غالباً. لقد استنتجنا ذلك بسبب البراعة في الضغط على العُنُق. علينا نقلها إلى أبو كبير لإجراء فحص ملائم، ولكن يبدو الأمر كما لو أن من قتلها يُجيد القيام بعمله. انظر...".
وأشار إلى الخدش الذي أحدثه السلك.

"هناك بعض الكشوط الشبيهة بورق الرِّقّ، والقليل من الكشوط الخطيئة الطفيفة، ولكن معالم الاحتقان غير ظاهرة، وهناك نزيف محدود مع بُقَع حمراء صغيرة".

وأشار إلى نُقْطَ باهتة مائلة للحمرة تحت العينين مباشرةً.
"كل ذلك يخبرني أن أداة الخنق بقيت في المكان نفسه في أثناء عملية القتل من خلال ممارسة ضغط كبير وثابت. نظراً إلى حجم الضحية، وموتها خنقاً...".
أشار بإصبعه إلى سلسلة من الخدوش حول العُنُق، حيث أمسكت المرأة بأداة الخنق كما يرجَّح.

"... يتطلب ذلك قوة كبيرة والكثير من المهارة".

لقد ترك هذا الأمر انطباعاً في نفس بن - روي.

"تَبَّأ لي"، تتم بن - روي.

"لم يغتصبها، بأي حال".

"غفوا؟".

"ملابسها مرتبة ولا علامات واضحة تشير إلى حدوث اغتصاب".

أوماً في اتجاه منطقة الأريّة لدى الضحية.

"أياً يكن دافعه، فأنا أراهن أنه لم يكن جنسياً، أو على الأقل بطريقة مختلفة

عن طريقة قيامنا بذلك أنت وأنا".

أجفل بن - روي. لقد تسببت فكرة مشاركة شملينغ في التحقيق بكَرْب مماثل

للكَرْب الذي تسببت به الجثة.

"وماذا بشأن المنديل؟" سأل بن - روي.

"مرة أخرى، لا يمكنني قول أي شيء محدّد حتى أقوم بتفريغها، ولكن هناك

بعض الرضوض غير المحدّدة على الناحية الداخلية للذّقن، مما يحملني على الاعتقاد

بأن القاتل ربما يكون قد وجّه لها ضربة إلى هذا المكان وقضمت لسانها. هذا ما

حدث بالتحديد قبل الخنق".

ورفع بن - روي حاجبيه مستفهماً.

"لا وجود لكمية الدماء التي تشير إلى أن ذلك حدث بعد الخنق"، شرح

شملينغ. "كان لا يزال لديها ضغط في الجهاز".

لقد جعل الأمر يبدو كما لو أن الضحية قطارٌ بخاري من نوع ما.

"التقطت الكلاب البوليسية آثار دماء بين دار العبادة الكبرى وهنا"، أضاف.

"لذلك، إنني أجازف في هذه المرحلة بتخمين سلسلة الأحداث: ضربها، خنقها،

أقحم مندبلاً في فمها، جرّها إلى هنا وخبأها".

"لو كان باستطاعتك أن تكشف لنا عن هويّته لأقفلنا القضية وعدنا جميعنا

إلى منازلنا باكراً".

فضحك شملينغ.

"لقد وصفتُ الجريمة ليس إلا أيها المحقق. ومن واجبك أن تحلّها".

ومضت آلة تصوير كلتزمان مرة أخرى، فرفع بن - روي ذراعه ومررها على جبينه. إن الحرارة مرتفعة تحت مصباح الهالوجين، وبدأ بالتعرق.
"هل تمنع قيامي بتفتيشها بسرعة؟".
"تفضل".

جر بن - روي خطاه مسافة بضع بوصات إلى الأمام، وتفحص جيوب الضحية. كان هناك قلمان ورزمة من المناديل الورقية في المعطف، ولكن لا وجود لأي محفظة جيب، أو مفاتيح، أو بطاقة هوية، أو هاتف محمول؛ لا شيء من الأمور التي يتوقع العثور عليها. وثبت أن السروال الفضفاض كان أكثر نفعاً لأنه عثر في أحد جيوبه على ورقة متغضنة مستطيلة الشكل، وتبين له بعد فحص دقيق أنها قصاصة ورق لاستمارة مكتبة. "جنرال ريدينغ روم"، تمت بن - روي، مكرراً الكلمات المطبوعة بحبر أحمر على امتداد وسط الورقة. ورفعها في اتجاه شمليغ.
"هل تعني لك شيئاً؟".

ألقي الأخصائي في علم الأمراض نظرة سريعة على الورقة وهز رأسه. وقام بن - روي بتقليبها، ومن ثم تناول أحد أكياس العينات التابعة لشمليغ، وأسقط الاستمارة داخله. مسح جبينه مجدداً، وألقى نظرة أخرى على الجثة، ثم توجه بعد ذلك نحو الحقيبة الجلدية بنية اللون الشبيهة بالنقائق، والموجودة وراء قدمي الضحية.

"هل الحقيبة لها؟". صاح من دون أن يتوجه بسؤاله إلى شخص محدد.
"نفترض ذلك"، أجابت شاليف.

سأل بن - روي عما إذا كان كلتزمان وعناصر جمع الأدلة قد رفعوا البصمات عنها، وعندما حصل على ردّ بالإيجاب، أمسك المقبض وخرج من تحت الطاولة، زاحفاً وساحباً الحقيبة معه. وقف، ومدد ساقيه المتشنجتين، ووضع الحقيبة على الطاولة، وفتح السحاب. كانت مليئة بالملابس، ملابس نظيفة، ولكنها متغضنة كما لو أنها وُضبت على عجل، أم إن شخصاً آخر فعل ذلك في أثناء بحثه في الحقيبة. وخمن بن - روي أن الاحتمال الثاني هو الأقرب إلى الواقع. فقلب محتويات الحقيبة، وأخرج صدرية كبيرة بيضاء، كبيرة جداً.
"إنها حقيبتها بالتحديد"، صاح ورفعها عالياً.

"واو، باستطاعتك وضع خُصيتي فيل داخلها"، وضحك كلترمان، ملتقطاً صورة فوتوغرافية لها.

"رجاءً أيها السادة، أظهروا القليل من الاحترام لدار العبادة إن لم يكن للضحية".
وقف عند المدخل رجل قصير القامة، ممتلئ الجسم، لحيته بيضاء، مهنّدم، يرتدي رداءً أسود خاصاً برجال الدين، وينتعل خفّين، ويعتمر قُبعة مخملية دائرية. لقد عرفه بن - روي بشكل مُبهم من خلال زيارته السابقة للمجمّع قبل عامين. إنه صاحب الغبطة فلان.

"رئيس الأساقفة أرمين بتروسيان"، قال الرجل ببطء وبصوت أجشّ يكاد لا يكون مسموعاً، كما لو أنه يقرأ أفكاره. "مهنة مروّعة. مروّعة".

عبر الغرفة بمشية حيوية على نحو مفاجئ؛ لأنه في العقد السابع من عمره، هذا إن لم يكن أكبر سنّاً. وعندما وصل إلى المذبح، انحنى وألقى نظرة على ما يوجد تحته، ثمّ قوّم وقفته بعد ذلك، ووضع يديه على الطاولة، مطأطي الرأس.
"كيف تحدث هذه الأمور في مثل هذه الأماكن؟ إنه تدنيس للمكان وأمر لا يمكن فهمه، ويتخطى..."

وتوقف فجأةً عن متابعة كلامه، ووضع يده على جبينه. ساد الصمت، ومن ثم استدار نحو بن - روي. كانت نظراته حادّة على نحو غير عادي.
"سبق لنا أن التقينا، كما أعتقد".

كان بن - روي لا يزال يحمل الصُدرة بيده.
"قبل عامين"، قال مُعيداً اللباس الداخلي إلى الحقيبة.
"آه، أجل، بالطبع". وأوماً رئيس الأساقفة. "هذا الوقت ليس أفضل وقت بالنسبة إلى شرطة إسرائيل. أمل أن تتمكن في هذه القضية من إظهار المزيد من..."

وصمت قليلاً مختاراً كلماته بعناية قبل أن يتابع:
"... الاتزان".

ثم عاد أدراجه إلى المدخل.
"اعثر على من قام بذلك أيّاً يكن"، قال عندما وصل إلى الباب. "أتوسّل إليك، اعثر عليه، اعثر عليه بسرعة قبل أن يتسبب بمزيد من البؤس للعالم".

والتقت نظراته نظرات بن - روي مرة أخرى، ومن ثم استدار ودخل دار العبادة الكبرى.

"هل تعرف من تكون؟" صاح بن - روي.

كان رئيس الأساقفة قد ابتعد.

"لا أملك أي فكرة"، أجاب من بعيد. "ولكن، ثق بأنني سأدعو لها. سأدعو لها من كل قلبي".

مصر، الصحراء الشرقية

حدّق المفتش يوسف عز الدين خليفة من شرطة الأقصر بجاموس الماء الميت، وفمه يغصّ بالذباب، وعيناه تغطيهما طبقة مخاطية ويعوزهما البريق. أعرف كيف تشعر، قال في سره.

"تطلب مني الأمر ثلاثة أشهر لإعداد تلك الحفرة المائية"، قال مالك الجاموس. "ثلاثة أشهر من العمل بواسطة رفش فقط، وطورية (محفرة)، إضافةً إلى تعرقني. عشرون متراً في هذا الهراء...".
وركل الأرض الصخرية.

"والآن، الماء مسّم وعديم النفع. يا عفو الله!".

وخرّ على ركبتيه، رافعاً ذراعيه إلى السماء. إنها إيماءة مثيرة للشفقة لرجل محطّم. مجدداً، تبادرت الفكرة إلى ذهن خليفة: أعرف كيف تشعر. وأيضاً: ربما كان علينا أن نفور، ولكن الحياة لا تزال خداعة بالنسبة إلى معظمنا.

وقف محدّقاً إلى البركة الموجلة وإلى الجيفة المستلقية بجانبها، ولم يكن يُسمع سوى صوت طنين الذباب ونحيب المزارع. بعد ذلك، سحب علبه سجائر كليبواترا، وارتمى جالساً على ردفه، وعرض على المزارع تناول سيجارة من العلبه. فمسح هذا الأخير فمه بكم جلبابه، وتناول إحدى السجائر.
"شكراً"، تتم.

"عفواً"، أجاب خليفة، وأشعل سيجارة المزارع وسيجارته. تناول بحّة، ومن ثم مدّ يده ووضع علبه السجائر في جيب الرجل.

"احتفظ بها"، قال.

"ليس عليك أن..."

"رجاءً، احتفظ بها. ستُسدي خدمة لرئيّتي".

فارتسمت على وجه الرجل ابتسامة واهية.

"شكراً"، قال مجدداً.

"عفواً"، كرر خليفة.

دخنا بصمت والصحراء تتماوج من حولهما قاحلةً ومغطاةً بحجارة متناثرة. لم يكن الوقت قد تخطى منتصف الصباح بعد، ولكن الحر شديد، والمنظر الطبيعي يتلألأ كما لو أنه يلهث. إنه الحرّ في الأقصر، ولكن نسيم النيل يحمل القليل من البرودة. لم يكن هناك أحد، فقط شمس ورمال وحجارة، وأتون كبير في الهواء الطلق حيث الشجيرات الشائكة والأفاقيا تناضل لأجل البقاء.

"كم دام على وجودك هنا؟". سأل خليفة.

"ثمانية عشر شهراً"، أجاب الرجل متنشّقاً. "كان ابن عمي يقيم على بُعد

كيلومترات قليلة عندما أتيت..."

ولوح بيده في اتجاه الشمال.

"قال لنا إنه باستطاعتنا كسب رزقنا، وإن هناك ماء إذا حفرنا حتى عمق

كافٍ؛ إذ يخرج الماء من الجبال..."

ولوح بيده مجدداً؛ هذه المرة في اتجاه الشرق حيث الصحراء البعيدة والجبل العالي المُبهم الذي يلوح في الأفق خلف غشاء مائل بني اللون. وفي أثناء قيامه بذلك، لاحظ خليفة وشّم رمز النصارى الديني الأخضر الصغير والباهت جداً على الجانب الأعلى ليدّه، وتحت مفصل الإبهام مباشرة. كان الرجل قُبْطياً.

قال: "تحدث طوفانات سريعة ومدمّرة، وتسرّب المياه عبر الصخور وتشكل قنوات عميقة تحت الأرض على امتداد أميال. إذا تمكنتم من الوصول إليها، استطعتم زراعة بعض الدُّرة والبرسيم وتربية عدد قليل من الماشية. وهناك مرمر في التلال، وقد حفرتُ لاستخراجه أيضاً، وبعثته لشخص من الشَّعب. كان باستطاعتي كسب رزقي. ولكن الآن..."

نفث دخان سيجارته، وانتحب مرة أخرى. فمدّ خليفة يده وضغط على كتفه، ومن ثم وقف، حامياً عينيه من سطوع الشمس.

كانت المزرعة تقع قرب وادٍ واسع، وهناك منزل متداعٍ - مصنوع من آجر طينيّ وسقف من ورق النخيل - وحفرة ماء. وعلى مستوى أكثر انخفاضاً، مجموعة من الحقول التي ترويه قنوات متفرّعة من حفرة الماء: حقل ذرة نامية، حقل برسيم، وحقل ملوخية. كان معاون خليفة، الرقيب محمد ساريا، واقفاً هناك يتفحص المحاصيل الذابلة. وفي مكان أبعد، يوجد درب ترابيّ متعرّج عبر التلال في اتجاه وادي النيل القائم إلى الغرب على بُعد أربعين كيلومتراً، وهذا الدرب هو الحبل السريّ النحيل الذي يربط المزرعة بالحضارة.

"نحن من فرشوت بالأصل"، قال الرجل ساحباً نفساً عميقاً من سيجارته. "كان علينا الخروج بسبب العنف. إنهم يكرهون النصارى هناك. لم تتدخل الشرطة قط، إنما لا تتدخل إلا إذا كنت غنياً. أردت تأمين حياة أفضل لعائليّ، وأطفالي. قدّم ابن عمي إلى هنا منذ سنوات قليلة، وقال إنه لا بأس بالمكان، وإنه ليس هناك من يزعجه، لذلك قدّمنا أيضاً. لا يوجد الكثير هنا، ولكن المكان آمن على الأقل. والآن يريدون إبعادنا من هنا أيضاً. ليساعدنا الله! ماذا سنفعل؟ رجاء، يا الله، ساعدنا!".

علا صوت نحيبه، وسقط إلى الأمام، ضاعطاً جبينه على التراب. وعلى بُعد عشرين متراً، كان باستطاعة خليفة رؤية زوجة الرجل وثلاثة أولاد واقفين عند باب منزلهم، وهم يراقبون. كان لديه فتیان وفتاة. هذه العائلة مماثلة لعائلة خليفة. حدّق إليهم، وضاق فمه جزئياً كما لو أنه يحاول إعادة ابتلاع شيء ما. انحنى إلى الأسفل، وساعد الرجل على النهوض، ونفض الغبار عن شعره.

"هل يمكننا الحصول على بعض الشاي؟".

فأوما المزارع باذلاً قُصارى جهده لاستعادة أثرانه.

"بالطبع، سامحي. كان يُفترض بي تقديمه لك. أنا لا أفكر بشكل صحيح.

تعال".

سار في المقدمة نحو المنزل، وتحدّث إلى زوجته فتوات عن الأنظار داخل المنزل، وجلس الرجلان على مقعد بموازية الجدار في ضلال ظلة مصنوعة من

الحديد المجدول. وبقي الأولاد في مكافهم حفاة، ومتّسخي الوجوه، ومتيقظين. وسُمع صليل أوعية، ومن ثم صوت صنبور ماء مفتوح. أصغى خليفة للحظات إلى تحرير المياه، وقطّب جبينه بعد ذلك.

"أما زلت تستخدم البئر؟"

"لا، لا"، أجاب المزارع. "مياه البئر للرّي فقط وللجاموس. نضخّ مياهنا من

بئر هاشفا".

أشار إلى خرطوم مياه أزرق يخرج من الأرض في الجوار ويتجه إلى الناحية الخلفية للمنزل.

"للقرية أنبوب رئيس"، شرح. "لقد مدّوه من الأقصر، وأدفع لهم لأحصل على المياه منه".

"وهؤلاء هم الأشخاص الذين تظنّ أنهم قاموا بهذا الأمر؟"

وأشار إلى الجاموس الميت والمحاصيل المصفّرة.

"هم من قاموا بذلك بالتأكيد. نحن نصارى، وهم مسلمون. يريدون أن نغادر".

"يبدو لي أن هذا يتطلب الكثير من العناء"، قال خليفة مُبعداً ذبابة عن وجهه. "أقصد اجتياز كل هذه المسافة إلى هنا، وتسميم بترك وحقولك. باستطاعتهم قطع المياه عنك ليس إلا".

هز الرجل كتفيه.

"إنهم يكرهوننا. وعندما تكره، يزول كل العناء. وبأي حال، لو قطعوا الماء لعثرتُ على مكان آخر للاستسقاء منه، وقد أنقل الماء بالقناني إذا اضطررت لذلك. إنهم يعرفونني. أنا لست كسولاً".

أنهى خليفة سيجارته، وداس على عَقَبِها بحذائه.

"ألم ترَ أحداً؟ أو تسمع أي شيء؟"

فهزّ الرجل رأسه.

"لا بد أنهم قاموا بالأمر في الليل. لا يمكنك البقاء مستيقظاً طوال الوقت.

حدث ذلك منذ يومين أو ثلاثة أيام. حينذاك، اعتلّت صحة الجاموس".

"ولكن، سيتحسن حاله، أليس كذلك يا أبي؟"

صدر هذا السؤال عن الفتاة الصغيرة. فانحنى الرجل فوقها وحملها وأجلسها على ركبتيه. كانت جميلة، وتبلغ من العمر ثلاث سنوات أو أربعاً. عيناها كبيرتان خضراوان، وشعرها أسود متشابك. غمرها والدها بذراعيه وهددها إلى الأمام والوراء. وتقدم الفتى الأكبر سنّاً قائلاً:

"لن أدعهم يستولون على مزرعتنا يا أبي. سأقاتلهم".

ابتسم خليفة، وكان حزيناً أكثر من كونه مسروراً. لقد ذكره الفتى بابنه علي، ولكن ليس ببنيته الجسدية - إنه طويل جداً، وشعره قصير جداً - بل بتحديه وشجاعته الصببانية. ومدّ يده إلى سجائره، ولكنه تذكر أنه قدّمها للمزارع. لم يشأ أن يطلب سيجارة لأنه قدّمها له هدية، لذا ضمّ كفيه إلى بعضهما في حضنه، وأسند ظهره إلى جدار المنزل، مراقباً محمد ساريا وهو يكدّ في السير على الدرب في اتجاههم. كان يرتدي كنزة صوفية فوق قميصه بالرغم من الحر. باستطاعتكم وضع ساريا داخل فرن، وسيظل يشعر بالبرد. إنه محمد المُسنّ الصالح. فبعض الأمور لا تتغير أبداً، وبعض الأشخاص لا يتغيرون أبداً. هناك عزاء في ذلك.

سُمع صوت أوعية زجاجية، وخرجت زوجة الرجل من المنزل حاملةً صينية عليها ثلاثة أكواب من الشاي، وزُبديات تورشي وترمس، وطبق يحتوي على كعكة زهرية اللون. رحّب خليفة بالشاي، وتناول حفنة من الترمس، ولكنه رفض الكعكة. إنها عائلة فقيرة، ومن الأفضل الاحتفاظ بها للأطفال. وصل ساريا، وجلس بجانبها مرحباً بكوب الشاي، ومدّ يده لتناول الكعكة، ولكن خليفة رموه بنظراته، فحوّل يده في اتجاه زبدية التورشي. كانا يفهمان بعضهما. إنه حكيم ويمكن الاعتماد عليه، وعلى المستوى المطلوب؛ ولو لم يكن ساريا برفقته لما تمكّن من تدبّر أمره في تلك الأسابيع الأولى الكابوسية في العمل.

"لن تقوم بأي شيء، أليس كذلك؟". قال المزارع بعد دخول زوجته المنزل، مصطحبةً الأولاد معها. كانت لهجته أقرب إلى الإذعان منه إلى الاتهام؛ نهجة رجل اعتاد سوء المعاملة والتسليم بواقع الأمور لأنه المسار الطبيعي للأحداث. "لن توقفهم".

حرك خليفة السكر في كوب الشاي، وارتشف القليل منه متجنباً الإجابة عن

السؤال.

"قال ابن عمي إنه لا يُفترض بي إزعاج الشرطة. فهو لم يزعجها".
ورفع خليفة نظره نحوه مندهشاً.
"هل تحصل معه هذه الأمور أيضاً؟".

"قبل ثلاثة أشهر"، قال الرجل. "لقد عمل في تلك المزرعة طوال أربع سنوات، وحوّل الصحراء إلى فردوس. حقول، بئر، حديقة خضار أُتلفت كلها، كما نفق الماعز. فقلت له: اقصد الشرطة. إنها ليست فرشوت، سيصغون إليك. سيقومون بأمر ما. ولكنه لم يلجأ إلى الشرطة، وقال إن القيام بذلك إضاعة للوقت. فانتقل، واصطحب عائلته إلى أسوط. ذهبت أربع سنوات سُدَى".
بصق المزارع ولزم الصمت، فيما ارتشف خليفة وساريا الشاي. وصدر من ورائهم، من داخل المنزل، صوت غناء.

قال ساريا: "أحدهم ذو صوت جميل".
قال الرجل: "إنه ابني، كارم محمود جديد. ربما سيصبح ذات يوم مشهوراً ولن تعود لأي من هذه الأمور أهمية".
همهم خليفة وشرب كامل محتويات كوبه، ومن ثم ساد الصمت الذي سرعان ما كسره المزارع بقوله:

"لن أغادر. إنه منزلنا. لن يشتتونا. سأقاتل إذا اضطررت لذلك".
قال خليفة: "آمل ألا يبلغ الأمر هذا الحد".
نظر الرجل إليه، وسأله بنظرة حادة محدقة ومستقصية: "ألديك عائلة وزوجة وأبناء؟".

فأوما خليفة.
"هل ستحميهم إذا كانوا في خطر، وتقوم بكل ما يتعين عليك القيام به؟".

لم يُجب خليفة.
"هل ستفعل؟". أصرّ الرجل.
"بالتأكيد".

"إذاً، سأقاتل إذا اضطررت لذلك؛ لحماية عائلتي وأولادي. إن حماية العائلة أهم واجبات الرجل. ربما أكون فقيراً، ولكنني لا أزال رجلاً".

وقف، فنهض خليفة وساريا أيضاً، منهيين الشاي، ومُعيدَين الكويين إلى الصينية. ونادى الرجل، فخرجت زوجته مع الأولاد، ووقف خمستهم عند مدخل المنزل معاً، شاكين أذرعهم.

كرّر: "لن أدعهم يشّتونا".

قال خليفة: "لن يُكرهك أحد على المغادرة، سننزل إلى القرية ونحدث إلى العمدة. سنعالج هذه المسألة. سيكون كل شيء بخير".

هز الرجل كتفيه؛ غير مصدّق إياه كما يبدو.

قال خليفة: "ثق بي، سيكون كل شيء بخير".

نظر خليفة إليهم، مركّزاً على الابن البكر، وشكرهم بعد ذلك على الشاي، ثم غادر وساريا إلى جانبه إلى سيارتهما المتهالكة والمكسوة بالغبار من طراز ديوو. فتوجّه ساريا إلى باب السائق، وجلس خليفة على مقعد الراكب.

قال ساريا: "سأفعل". ودخل السيارة وضبط المرأة كي يتمكن من النظر إلى العائلة التي كانت لا تزال واقفةً عند المدخل.

"ماذا ستفعل؟".

"سأقوم بكل ما يتعيّن عليّ القيام به لحماية عائليّ، حتى إن خرقتُ القانون. يا لأولئك الأولاد المساكين!".

أقرّ خليفة: "الحياة صعبة".

أعاد ساريا ضبط المرأة، وشغل المحرّك.

"تركتُ جنيهاً قليلة في الحقل تحت صخرة. سيعثر أحد الأولاد عليها كما آمل".

نظر خليفة إليه.

"أنت! ربما ظنّوا أن شبحاً ما قام بذلك".

ابتسم خليفة.

"أنت تجعل العالم مكاناً أفضل، يا محمد".

فhez ساريا كتفيه، وعشق ثروس السيارة.

"على أحدهم القيام بذلك"، قال في أثناء ارتجاجهما على الطريق الوعرة. بجانبه، بحث خليفة عن علبة سحائر احتياطية في صندوق القفازات.

القدس

بعد انتهاء شملينغ من معاينته الأولية للحنة، وُضعت في كيس، ونُقلت بواسطة سيارة إسعاف هاشفلا إلى المركز الوطني للطب الشرعي في تل أبيب الذي كان يُعرَف شعبياً بأبو كبير. وعادت ليه شاليف وببسي كلتزمان إلى المركز، فيما بقي بن - روي في مسرح الجريمة لمدة عشرين دقيقة، متفحصاً ملابس المرأة وحقيبتها قبل أن يغادر بدوره، تاركاً عناصر جمع الأدلة في المكان ليواصلوا عملية رفع البصمات؛ وهي مهمة ستشغلهم على الأرجح طوال اليوم.

سأل في أثناء مغادرته الغرفة: "هل تريدون أن أرسل لكم بعض الشراب؟".
"حباً بالله يا رجل، إنه مسرح جريمة!".

ابتسم بن - روي. لقد عُرف عن عناصر جمع الأدلة أمران: اهتمامهم الهاجسي بالتفاصيل، وافتقارهم الكلي لأي روح دُعاة.
صاح: "فطائر بالجن، فلافل".
"اغرب عن وجوهنا!".

ضاحكاً، شق طريقه عبر دار العبادة الكبرى في اتجاه الرواق حيث التقط مسدسه الجريكو ووضعه في قِرابه. كان المطر قد توقف عن الهطول، وبدأت الغيوم بالانقشاع والسُّحُب بالتفرق، كاشفةً عن فُسحات زرقاء متفرقة كما لو أنها قنوات من مياه البحر في جليد القطب الشمالي. حدّق بن - روي إلى السماء، متنشّقاً هواء منعشاً. وبعد ذلك، بعد إلقاء نظرة سريعة على ساعته، عاد إلى غرفة المكتب ذات الواجهة الزجاجية عند مدخل المجمع. كان الرجال الثلاثة الذين يعتمرون قُنسوات مسطّحة لا يزالون جالسين في الداخل حول مراقب سي سي تي في، ونافا شوارتز منحنية وراءهم. فأدخل رأسه عبر الباب.
"ما جديد المشاهد المصوّرة؟".

"لا نزال نتفحصها"، قالت شوارتز. "لديهم أكثر من ثلاثين كاميرا في مختلف أنحاء المجمع، لذلك سيتطلب الأمر ساعتين إضافيتين".

دخل بن - روي المكتب، ونظر إلى الشاشة التي كانت تُعرَض عليها نحو عشرة مشاهد لأنحاء متنوعة من المجمع: باحات، مجازات، أبواب، أدراج، أنفاق؛

مدينة ضمن مدينة، عالم ضمن عالم. وفي أحد المشاهد المصوّرة ظهرت مجموعة من الشبان بأردية سوداء يعبرون ساحة ضخمة مرصوفة بالحجارة. غابوا عن الأنظار، ثم ظهروا بعد ذلك عند الممرّ المقبّب أمام المكتب. رفع بن - روي نظره في أثناء قدومهم في اتجاهه وخروجهم من البوّابة، متوجّهين على الأرجح إلى المدرسة الدينية القائمة وراء بطيركية الأرمن الأرثوذكس.

سأل بعد أن مرّ الجميع: "كم شخصاً يُقيم هنا؟".
"هناك ثلاثئة أو أربعئة شخص"، أجاب أحد أولئك الذين يعتمرون قلنسوات مسطحة؛ رجل ذو بنية جسدية ضخمة، وذقن غمت فيه شعيرات قاسية، وأطراف أصابع مبقّعة بسبب النيكوتين. "وهناك بضع مئات يُقيمون في الشوارع المحيطة".
"وهل هذا هو الطريق الوحيد للدخول والخروج؟".

هز الرجل رأسه.
"هناك خمس بوّابات، علماً أننا لا نستخدم سوى اثنتين منها. واحدة هناك...".
ولوّح بيده في اتجاه الناحية الجنوبية - الغربية.
"... لتلاميذ المدرسة. تكون مفتوحة بين السابعة والرابعة. وهذه البوّابة".
"التي تُقفّل...؟".

"عند العاشرة ليلاً بالتحديد. بعد ذلك، لا يستطيع أحد الدخول أو الخروج حتى الصباح".

ألقي بن - روي نظرة على الباب الخشبي الثقيل المدعّم بالحديد، ونظر مجدداً إلى الشاشة. عند مدخل دار العبادة الكبرى، كان أحد رجال الشرطة ذوي البذلات النظامية يتحدث إلى رجل دين يرتدي رداء أسود ويعتمر قلنسوة مستدقة الرأس. لقد بدا الأمر كما لو أنهما يتجادلان، فيما يشير رجل الدين بيده إلى الشريط الأحمر والأبيض الخاص بالشرطة. رجال دين من مختلف الأديان يُلامون بقسوة من الجميع. إنها إحدى مُتع المحافظة على الأمن والنظام في القدس.
سأل: "هل تُقفّل دار العبادة عند العاشرة أيضاً؟".

"عادة تفتح أبوابها لأداء الصلوات فقط. من السادسة والنصف وحتى السابعة والنصف صباحاً، ومن الثانية وخمس وأربعين دقيقة وحتى الثالثة وخمس وأربعين دقيقة بعد الظهر".

"عادة؟".

"في الشهر الماضي، وجّه سيادة الرئيس بتروسيان تعليماته بوجوب ترك الأبواب مفتوحة حتى التاسعة والنصف".

فقطّب بن - روي جبينه.

"لماذا؟".

فهز الرجل كتفيه.

"ليتوافر للراغبين المزيد من الوقت للتعبّد".

كانت لهجته خالية من أي تعبير، ولا توحى باستحسان أو استهجان توجيهات رئيس الأساقفة.

حدّق بن - روي إلى الشاشة، مراقباً ظهور رجل دين آخر يعتمر قلنسوة مستدقة الرأس ينضم إلى الجدل أمام باب دار العبادة. وتدخل المزيد من رجال الشرطة لدعم زميلهم، وبدا الأمر كما لو أن المواجهة تتّجه نحو التفاقم. وتساءل عما إذا كان يُفترض به العودة للمساعدة على التخفيف من حدة التوتر، ولكن انشغالاته العديدة حملته على التخلّي عن الأمر. فطلب من كلاين إحضار المشاهد المصوّرة إلى الكيشل بأقصى سرعة ممكنة، وغادر المجمع في اتجاه المركز، تاركاً عناصر جمع الأدلة يُنجزون عملهم بأفضل طريقة ممكنة. فهذا ما درّبوا على القيام به.

لقد خفّت زحمة حركة المرور في محيط بطريكية الأرمن الأرثوذكس كما يبدو بعد توقف هطول المطر، ولم يكد يجتاز مئة متر تقريباً حتى أرغمته شاحنة مقفلة تابعة لشركة بيزيك للاتصالات على الابتعاد عن الطريق وولوج مدخل الفندق الأرمني الذي كان قد احتسى تحت ظلته من قبل. كان بابه مُقفلاً آنذاك، ولكنه مفتوح الآن. مرّت شاحنة بيزيك أمامه فعاد إلى الشارع، ولكنه ألقى نظرة سريعة على ساعته، ثم استدار ودخل الفندق. كانت ليه شاليف قد دعت لاجتماع للوحدة عند الحادية عشرة وخمس عشرة دقيقة، مما يمنحه ثلاثين دقيقة يمكنه الاستفادة منها.

في الداخل، كان هناك درج يؤدي إلى مطعم في الطابق السفلي المقبّب تحت مستوى الشارع تماماً. كان مليئاً بزخرفات مبعثرة على غرار دار العبادة الكبرى، أرضه مبلّطة، وجدرانه مغطاة بالرموز الدينية، والمصابيح النحاسية مدلاة من سقفه.

وهناك خِزانات زجاجية مليئة بمجوهرات مكسوّة بالغبار - قِلادات، أساور، أقراط - ونابسي فيل زائفين. وعند أسفل الدرج مشرب صغير كُدّست على رفوفه صفوف من القناني العادية، إضافةً إلى قناني غير مألوفة على صورة فيلة وحياد وهررة. وعندما وصل إلى أسفل الدرج، خرج رجل يرتدي جينزاً وتي - شيرت ضيقة جداً من طراز تومي هيلفيغر، من باب المطبخ الدوّار عند زاوية المطعم.

"هيه، يا آري"، صاح.

"شالوم، يا جورج".

تصافحا، ورافق الرجل بن - روي إلى طاولة بجانب كوة الطلّبات التابعة للمطبخ.

"أتريد قهوة؟".

أوما بن - روي، فنقل الرجل الطلب عبر الكوة. أطلقت امرأة متقدّمة في السن - والدّة جورج - ابتسامة تشير إلى مزاجها السيئ وشرعت بغلي الماء. وجلس جورج على كرسي في الجهة المقابلة لبن - روي، واضعاً كل رجل على جانب، وأشعل سيجارة إمبيريال، متجاهلاً لافتة عدم التدخين على الجدار وراءه. إنه امتياز له منذ أن امتلكت عائلته المكان.

لقد احتلّ الفندق وجورج أسلانيان مكانة خاصة في قلب بن - روي. ففي السابق، تناول وغاليا الطعام هنا في أول موعد لهما. وواصل القدوم إلى الفندق مذاك الحين لشرب القهوة الأرمنية، ولتناول الطعام أيضاً أحياناً أخرى: السُّجُق والكُبة يسيلان اللُّعاب. وغالباً ما كان هو وسارة يتناولان العشاء هنا. وجد ذلك مُقلِّقاً في بادئ الأمر بسبب ارتباط المكان ببعض الذكريات، ولكن قلقه تبدد بعد زيارات قليلة. فالمدينة القديمة تنشّط ذكريات من نوع آخر، ولا يستطيع تجنّب تلك الأماكن. وبطريقة مثيرة للفضول، كان من الملائم له ولسارة أن يأتيا إلى هنا؛ فبالرغم من كل شيء، إنها المرأة الوحيدة التي أحبّها بمقدار حبّه لغاليا، كما أنه أدمن على تناول السُّجُق والكُبة.

سأله جورج: "أتريد أن تأكل شيئاً ما؟".

كان بن - روي قد تمكن من تناول فطور سريع فقط، وبدأت معدته تترقرق. ولكن إعداد السُّجُق يتطلّب خمس عشرة دقيقة على الأقل، ولا وقت لديه.

قال: "القهوة تكفي. هل سمعتَ بما حدث في دار العبادة؟".

"كل أرمني في القدس سمع بذلك"، قال جورج ساحباً نفساً عميقاً من سيجارته. "سمعنا بما حدث قبل أن تعرف الشرطة. نحن مجموعة متكاثفة جداً".

سأل بن - روي: "هل لديك أي معلومات؟".

"مثل: هل أعرف من قام بذلك؟".

"ستكون هذه معلومة مساعدة".

نفث جورج حلقة من الدخان.

"إذا عرفتُ أي شيء فسأعلمك يا آري. لا يوجد أرمني في القدس لن يخبرك إذا عرف شيئاً ما. بل في كل إسرائيل. إن تدنيس دار عبادتنا على هذا النحو...".

وتنهَّد وهز رأسه.

"نحن في حالة صدمة. كلنا".

سُمعت طقطقة على الدرج، ونزل رجل قويّ البنية حاملاً صندوقاً كرتونياً مليئاً بما بدا أنها حزم سيانخ. كلّمه جورج باللغة الأرمنية، فوضع الصندوق داخل المطبخ ثم غادر.

"في حالة صدمة"، كرر جورج بعد أن غادر الرجل. "في العام 1967، وفي أثناء المعركة، قُتل أشخاص عندما سقطت قذيفة على المجمع، ولكن هذا! بالنسبة إلينا، دار العبادة مكان مقدّس. إنها مركز عالمنا. إنها...".

ووضع يده على قلبه.

"كما لو أن الجريمة قد حدثت في منزلنا، لا بل أسوأ من ذلك. الأمر مروّع".

بالرغم من قسمات وجهه الصارمة والكثيية قليلاً، كان جورج بصورة عامة رجلاً طويل البال تقريباً، ولم يسبق لبن - روي أن رآه على هذه الحال.

"أنا في هذا المكان كمن يحاول الوقوف في مياه لا قرار لها. يا جورج الحارديم، والفلسطينيون لديّ خبرة معهم. ولكنني لم أتعامل مع الأرمن من قبل قط؛ باستثناء ذلك الأمر قبل عامين".

بدا مالك الفندق مُربكاً.

"أقصد طالبي المدرسة الدينية"، قال بن - روي حائثاً إيّاه على التذكر.

"آه أجل". وأخذ نفساً عميقاً آخر من سيجارته. "هذا الوقت ليس أفضل وقت بالنسبة إلى شرطة إسرائيل".

إنها العبارة نفسها التي استخدمها رئيس الأساقفة بتروسيان. ربما أصبح استخدامهما معيارياً، فكّر بن - روي في سرّه، فهي تُضاف إلى الحديث كلما ناقش أحد الأرمن في هذه القضية بالذات؛ حيث يلقي اللوم على السياسيين أكثر منه على رجال الشرطة، كما كان الحال على الدوام. ضعوا السياسيين جانباً فتستقيم الأمور بشكل أفضل.

فما حدث هو أن طالبين في المدرسة الدينية قادمين من أرمينيا دخلا عراكاً مع مجموعة من الحاردي المراهقين من الحيّ اليهودي. كان فتیان الحاردي قد دأبوا طوال أشهر على البصق على رجال الدين والطلاب الأرمن. وفي هذه الحالة، ردّ الطالبان على الإساءة بالمثل. وفي عالم يسود فيه الإدراك، يكفي توجيه كلام صارم لأولئك المتورّطين، وتسديد ركلة على مؤخراتهم لتنتهي المسألة. ولكن المدينة القديمة ليست عالماً يسود فيه الإدراك. لذا كُسر أنف أحد فتیان الحاردي، وطالب *النرايرز* بالثأر، فاستجاب وزير الداخلية. وكانت النتيجة أن طالباً في المدرسة الدينية اعتقلا، وسُجن، ورُحّل. كان ذلك رد فعل مُفرطاً ومثيراً للسخرة أثار نقمة كبيرة لدى زملاء الطالبين الأرمن؛ وهو أمر غير مفاجئ، لأن فتیان الحاردي أفلتوا من العقوبة.

كان يوم الضابط المسؤول عن الحادثة آنذاك؛ مما أدى إلى تفاقم الأزمة منذ البداية. ولم يلعب بن - روي سوى دور ثانوي، مُجرباً مقابلتين أوليّتين، ولكنه لا يزال يشعر بالعار لدى تذكّره هذه الحادثة. فهي، على غرار الجدار الفاصل، والمستوطنات، والعديد من الأمور في هذا البلد، وجداول الأعمال التي توضع في الوزارات ومعابد اليهود - وتتناول المساجد والكنائس - قد جعلت مهمة الشرطي بالغة الصعوبة أحياناً، وفي معظم الأحيان.

"القهوة".

ظهرت المرأة المُسنّة أمامه من كوة الطلّبات، حاملةً فنجاناً وصحناً بكل يد. فتناولا جورج، ووضعها على الطاولة، وأفرغ مغلف سكر صغيراً في فنجانه فيما فرغ بن - روي مغلف السكر الخاص به في فنجانه أيضاً.

"كما أقول، لم أتعامل كثيراً مع الأرمن"، أوجز مرتشفاً. "وأنا واثق أنك سمعتَ بأنّها...".

وأشار إلى عنقه للدلالة على أن المرأة قد خنقت.
"إنه رجل مجنون على الأرجح، ولكن علينا النظر في كل الاحتمالات".
لم يقل جورج شيئاً، بل حرّك قهوته ونفث دخان سيجارته.
"هل سمعتَ بأي... لا أعرف... نزاعات مستحكمة بين الأرمن؟".
لا جواب.

"نزاعات ثأرية؟"، حتّه بن - روي. "أي مشاكل بين رجال الدين والأشخاص الذين يرتادون دار العبادة بانتظام؟ أحقاد، مظالم. أي شيء... خارج عن المألوف".

كان يبذل قصارى جهده، محاولاً الإمساك بطرف خيط.
"أي شيء يمكنه توجيه مسارنا؟".

رفع جورج فنجان القهوة وارتشف منه، وأطفأ سيجارته في السائل الأسود الموجود في صحن الفنجان.

"اسمع يا آري، لدينا مشاجراتنا الصبانية على غرار الجميع، ولدينا تفاحاتنا السيئة؛ مشاغبونا. فرجال الدين لدينا يخوضون جدالات مع رجال الدين الروم الأرثوذكس، وهذا الشخص يكره ذلك الشخص، ويحتال أحدهم على الآخر. هذه الأمور تحدث، نحن بشر. ولكن، دعني أخبرك بما لا يقبل الجدل...".
ورفع نظره نحو بن - روي.

"... لا يوجد أرمني قد يقوم بأمر مماثل مع أرمني آخر، ولا سيما داخل دار عبادتنا. نحن عائلة. نحن نكثر لبعضنا، ونحمي بعضنا بعضاً. وأنا أضمن لك أن من ارتكبوا هذه الجريمة يا آري ليسوا من الأرمن. أضمن لك ذلك".
استدار وكلم والدته التي أجابته بكلمات غير واضحة قبل أن تخرج وجهها من كوة الطلبات قائلة:

"أي أرمني، أي أرمني لن يقوم بذلك".

قطّبت وجهها لبن - روي ليفهم المغزى، ومن ثمّ عادت لمتابعة طهوها،
وأهّى بن - روي قهوته.

"حسناً، على الأقل تُضَيِّق هذه المعلومة نطاق البحث".

سُمع ضحيج أصوات، ونزل بضعة أشخاص من الشارع على الدرج بخطى ثقيلة؛ إنهم سياح مُستَوْن أميركيون أو إنكليز يستوضحون عن وُجهتهم من خلال كتيبات إرشاد السياح. فانضمَّ جورج إليهم لإجلالهم وتزويدهم بلوائح الأطفعة. وانطلقت موسيقى هادئة من جهاز مكبِّر الصوت التابع للمطعم من دون أن يتمكن بن - روي من رؤية الشخص الذي شغله.

"ألم تسمع أي شيء عن هويّة الضحية؟". سأل بن - روي جورج لدى عودته. "شائعات مسرّبة؟".

فهز جورج رأسه.

"ليس أرمنياً، إنه أمر مؤكّد. أو على الأقل ليس شخصاً من القدس. الجميع هنا يعرفون بعضهم بعضاً".

"أهو من خارج القدس إذاً؟".

هز جورج كتفيه.

"هذا ممكن".

وأخرج سيجارة أخرى ووضعها في فمه، ومن ثم فكر في الأمر جيداً.

"الشخص الذي يُفترض بك التحدّث إليه هو رئيس الأساقفة بتروسيان. فهو يعرف الجميع هنا، ويعرف كل ما يدور بين أفراد جاليتنا. ليس في القدس فقط، بل في كل البلد".

"سبق لي أن قابلته"، قال بن - روي، "في دار العبادة الكبرى. قال إنه لا يعرف شيئاً".

"حسناً، إذاً هذا هو الجواب عن سؤالك. لدى بتروسيان معلومات تفوق المعلومات التي يملكها الأساقفة الآخرون مجتمعين، وجميع الأرمن. لا شيء يحدث في عالمنا من دون أن يعرف به".

نظر حوله كما لو أنه يريد التأكد من أن لا أحد يُصغي إليه، ومن ثم انحنى إلى الأمام قائلاً:

"ندعوه الأخطبوط. فلديه مِجسّات في كل مكان. إذا لم يكن باستطاعته أن يساعدك...".

رفع يديه إلى الأعلى في إشارة يُستعاض بها عن عبارة "فلا أحد يستطيع فعل ذلك". وفي الناحية الأخرى من المطعم، قال أحد السيّاح "مرحباً" ولوّح بلائحة الطعام، مشيراً إلى أنهم باتوا مستعدين لطلب الطعام.

"آسف يا آري، عليّ معالجة هذا الأمر".

"ليست هناك مشكلة. يُفترض بي العودة إلى المركز".

وقف بن - روي وأخرج محفظة جيبه، فأوماً له جورج كي ينسى أمر دفع الحساب.

"على حساب المطعم".

"سوف تُطلعي على كل ما يصل إلى مسميعك، أليس كذلك؟".

"بالتأكيد. أبلغ سلامي لسارة، وقل لها إننا نأمل أن يتم كل شيء بخير مع...".

رَبّت علي بطنه وغادر لتلقّي الطلب. وصعد بن - روي الدرج في اتجاه الشارع، مختبراً مزيجاً من الشعور بخيبة الأمل بسبب عدم تمكنه من الحصول على المزيد من المعلومات، والشعور بالذنب؛ وهو الشعور الأكثر وضوحاً لأن الآخرين يفكرون في سارة والطفل أكثر مما يفكر فيهما. فطفله لم يولد بعد، ولكنه يشعر بأنه أسوأ والد في العالم.

يمرّ الطريق نحو بطريكية الأرمن الأرثوذكس - عند منتصفه تقريباً - في نفق، وذلك قبل الوصول إلى مدخل سانت جيمس مباشرة. وفي الجدار القائم قرب ذلك النفق نافذة زجاجية مقنطرة مع قضبان حديدية تتقاطع مع مصوغات مخزّمة من النبات المتسلّق الذابل. من ذاك المكان المشرف، راقب آرمن بتروسيان بن - روي وهو يدخل الفندق الأرمني. واستمر بالمراقبة طوال عشرين دقيقة إلى أن خرج التحريّ وسلك الشارع في اتجاه مركز شرطة داوود.

ممسداً لحيته، تابع رئيس الأساقفة تحركات الرجل الطويل الملتحي نوعاً ما في أثناء عبوره الشارع بخطى واسعة، وانعطافه عند الناحية الأبعد لساحة عمر بن الخطاب. ولم يتعد رئيس الأساقفة عن النافذة إلا عندما غاب عن نظره تماماً، فتوجّه إلى البوابة الرئيسة للمجمّع، وأوماً برأسه للرجال الذين يعتمرون قلنسوات مسطّحة داخل مكتب البوّاب، وطلب من أحدهم الانضمام إليه. ابتعدا أمتاراً قليلة

في الممر المقنطر المؤدي إلى داخل الجمّع، وتوقفا بجانب لوحة إعلانات مصنوعة من لباد أخضر سميك؛ بمنأى عن مسامع الأشخاص الموجودين في المكتب ورجال الشرطة الإسرائيلية الخمسة الذين يحرسون المكان خارج البوابة. نظر رئيس الأساقفة حوله، ثم انحنى إلى الأمام، وهمس في أذن الرجل، فأومأ الرجل، وربّت على سترته الجلدية، وعبر قوس البوابة بخطى واسعة في اتجاه الشارع. "ليحمنا الله"، تتم رئيس الأساقفة رافعاً يده، ومقبلاً خاتمه المرصع بحجر الجَمْشْت الكريم. "وليسامحني الله".

مصر - الصحراء الشرقية

تقع قرية بير هاشفا على بُعد سبعة كيلومترات غرب المزرعة لجهة وادي النيل، وتتعقد منازلها حول تقاطع طريقين تراثيين: أحدهما يتجه من الجبال شرقاً إلى النهر غرباً، والآخر أعرض ويتجه من الشمال إلى الجنوب. بموازة النيل، رابطاً الطريقين العامين 29 و212. وفي أثناء دنوّهما من ذاك التقاطع تحقق خليفة من هاتفه المحمول وطلب من ساريا التوقف.

قال: "يوجد إرسال، عليّ الاتصال بزينب. لن يدوم الأمر سوى لحظات". خرج من السيارة ومشى على الحصى، متوقفاً على بُعد عشرة أمتار قرب برمیل نفط صديّ، وطلب الرقم. وفي أثناء انتظاره قيام زوجته بالرد على اتصاله، انحنى والتقط عبوّتي مشروبات غازية فارغتين مُلقائتين على الأرض، ووضعهما على البرميل. فابتسم ساريا الذي كان ينتظر داخل السيارة؛ إذ يُظهر هذا العمل مميزات رئيسه. إنه رجل يحب تنظيم الأمور وإبقائها مرتّبة وإن كان ذلك وسط الصحراء. لذلك، إنه تحرّج جيد، لا بل إنه الأفضل حتى بعد كل ما حدث.

مدّ ساريا يده في اتجاه علبة حبوب الحلوى المنكهة بالنعناع الموجودة على لوحة القيادة، وتناول حبة ووضعها في فمه، وأسند ظهره، مراقباً خليفة الذي كان يتحدث عبر الهاتف. لقد ازداد وزن خليفة بضعة كيلوغرامات مؤخراً، وها هو الآن يبدو هزياً بشكل إيجابي، وعظمتا خدّيه أقل تنوّاً من العادة. لقد تأثر ساريا بعينيّه اللتين فقدتا بريقهما، وأصبحتا اثنتان الثتان تحيطان بهما أكبر وأكثر

قتامة. كان قلقاً عليه، علماً أنه لم يُنح له بأي شيء. كان يفكر بالعالم الذي يعيش فيه رئيسه.

أمامه، كان خليفة يجوب المكان ذهاباً وإياباً، ملوّحاً بيده كما لو أنه يقول: "اهدئي، كل شيء بخير". بصق ساريا حبة النعناع، ووضع حبة ثانية في فمه، ومن ثم حبة ثالثة. كان يتناول الحبة الرابعة عندما أنهى خليفة المكالة الهاتفية أخيراً وعاد إلى السيارة.

سأله: "هل كل شيء بخير؟".

لم يُجب خليفة، بل دخل السيارة وأشعل سيجارة من العلبة التي كان قد عثر عليها بعد مغادرتها المزرعة. لم يشأ ساريا حثّ رئيسه على الكلام، فإذا أراد رئيسه التكلّم فسيتكلم، وإذا لم يرغب في ذلك فلن يتكلم. شغل المحرّك، وانطلقا إلى القرية التي تبعد مسافة أربعمئة متر خلف مجموعة مبعثرة من حقول الزيتون وحقول الذرة.

كان هناك نحو أربعين منزلاً مبنياً بآجر طيني، بالرغم من وجود مبنيين أكبر حجماً مُشادين بآجر أحمر؛ رمز الثراء والمكانة الاجتماعية.

توجّه ساريا إلى وسط القرية وتوقف قرب مسجد مطليّ بمحلول الكلس الأبيض. كانت صلاة الجمعة قد انتهت للتوّ، والرجال يخرجون من الجامع، ويتنعلون أحذيتهم، ناظرين شزراً بسبب سطوع الشمس. قال لهم خليفة السلام عليكم، وسأل عن كيفية العثور على العمدة. فسمع قمتمة، وكانت هناك بعض النظرات غير الودّية - في هذه الأماكن النائية، يعامل الغرباء على الدوام بدرجة معيّنة من الرّيبة، لا بل أيضاً بعدوانية تامة - وذلك قبل أن يُرشدوها بحقد إلى أحد المبنيين الكبيرين في الطرف الأبعد للكفر.

قال ساريا عندما انطلقا: "أنا مبتهج جداً، ربما يُفترض بي إرسال حماقي إلى هنا. وعندها، يمكن لكل هؤلاء أن يشعروا بالشقاء أيضاً".

"لا تقلل أبداً من احترام من هم أكبر سنّاً يا محمد".

"حتى أولئك السمينات المُحبّات لإصدار الأوامر؟".

"لا سيما السمينات المُحبّات لإصدار الأوامر".

نظر خليفة إليه، وعينه تلمعان، ثمّ وجّه نظره بعد ذلك إلى الأمام.

قال: "احذر، طائر إوز".

انحرف ساريا حول الطائر الذي وقف وسط الدرب من دون القيام بأي حركة، وترك السيارة تنطلق ببطء من دون تعشيق ثروس السرعة، وتوقف أمام المنزل المؤلف من طابقين، والمبني على نحو رديء بأحجار غير مستوية من الآجر المسنن، والذي تظهر القضبان الحديدية من زوايا سطحه، مما يشير إلى الرغبة في تشييد طابق إضافي قد لا تتوافر الفرص لبنائه. كان الجدار حول الباب مكسواً بالملاط ومطلياً بطريقة غير مثقنة - فقد رسمت عليه سيارة، وطائرة، وجمل، ورسم للكعبة في مكة - مما يشير إلى أن قاطني المبنى قد قاموا بفريضة الحج. إنه رمز آخر للثراء والمكانة الاجتماعية.

لقد انتشر الخبر بسرعة؛ لأن رجلاً مُسنناً كثير التجاعيد يرتدي جلباباً أبيض ويضع عمامة بيضاء كان في انتظارهما أمام الباب، وهو يحمل بيده شومه. كان يبدو كالجرذ بخدّيه المكسوتين بشعيرات قاسية، وبعينيه الصغيرتين وأنفه المستدق.

"لا يأتي إلى هنا الكثير من رجال الشرطة"، قال في أثناء خروج خليفة وساريا من السيارة، ونظرته المحدقة تبلغ حدّ العدائية، ولهجته الصعيدية غير واضحة لدرجة أنها تكاد لا تكون مفهومة. "لا يأتي إلى هنا أي شرطي البتة".

لم يكونا قد عرفّا بنفسيهما بعد، غير أنهما ليسا بحاجة إلى ذلك. فعلى غرار كل مواطني الدول التي على شاكله مصر، يكشف المصريون عن رادار فطري يستهدف أولئك المسؤولين عن تطبيق القانون؛ رادار فطري، وكره فطري أيضاً. "فنحن نعتني بأنفسنا"، أضاف الرجل، ناظراً إليهما شزراً.

شهر التحريّان شارتيهما كما يفرض عليهما الواجب. وساد صمت غير مريح، بينما كان العمدة واقفاً هناك ينظر إلى خليفة وساريا مُداورة. بعد ذلك، تنحّج بصوت مرتفع وبصق على التراب، وتقدّمهما إلى داخل المنزل، منادياً أحدهم لإحضار الشاي لهم.

كان المكان في الداخل بارداً، ومُظلماً. وكان الأثاث مبعثراً، والأرضية الإسمنتية عارية ومكسوة بالحصائر. تقدّمهما العمدة عبر ممر، ثم صعدوا عدة درجات، حتى وصلوا إلى سطح المبنى، وهناك شعر الشرطيان مجدداً بحجرٍ ما قبل الظهيرة. كانت حصيرة مصنوعة من ورقات سعف النخيل الجاف تغطي معظم

المساحة، وهناك ظُلة في الجانب البعيد مع طاولة وكراس، فتقدّمهما العمدة إليهما. بدت القرية بأكملها تحتهم مُحاطة بحقول الزيتون، ولكن ساريا اشتبه بأنه تمّ اقتيادهما إلى الأعلى ليس لرؤية المنظر بل لأن العمدة لم يشأ استضافة رجلي الشرطة داخل منزله. فجلسوا، وأشعل خليفة سيجارة، من دون أن يعرض على مُضيفهما العلبة.

"إذاً؟". سأل الرجل مباشرةً من دون أي تمهيد.

"أريد التحدث إليك عن عائلة عطية"، قال خليفة ملوّحاً بسيجارته في اتجاه الشرق حيث المزرعة في التلال. "أظن أنك تعرفها". فهمهم العمدة.

"النصارى؟! إنهم نصارى مثيرون للمتاعب".

"وكيف ذلك؟".

فهز الرجل كتفيه متجنباً الإجابة.

"بلغني أن مياهم غير صالحة للاستخدام. الله يعاقب الكافرين باستمرار". "يعتقد السيد عطية كما يبدو أن العقوبة تمّت على يدَي شخص ما قريب من المنزل".

"يمكن لعطية أن يعتقد ما يحلو له. عندما تفسد مياه بالغة الجودة فجأةً ومن دون أي سبب، يكون ذلك من صنع الله. هل لديك تفسير آخر؟".

تناول خليفة مجّة من سيجارته وانحنى قائلاً:

"أنت لا تحب النصارى، أليس كذلك؟".

"لا أحد يحب النصارى".

فتح خليفة فمه جزئياً كما لو أنه يريد مخالفته الرأي، ولكنه اعتقد أنه من الأفضل تناول مجّة أخرى.

سأل: "كيف علاقتك مع عائلة عطية؟".

"لا علاقة لنا مع عائلة عطية. إنما تعني بنفسها على غرارنا".

"إنهم يضخّون مياه الشرب من شبكتكم".

لم يُبدِ العمدة أي رد فعل حيال هذا الأمر. ولم يكن الأمر مثيراً للدهشة لأن هذا الإجراء أُتخذ من دون علم شركة مياه الأَقْصُر، لذا فهو غير قانوني.

سأل خليفة: "كم يدفعون لكم في المقابل؟".
"يدفعون مبلغاً كافياً".

"إنه أكثر من كافٍ، كما أتوقع".
وكشف العمدة عن سخطه.

"هم من أقاموا قربنا. وإذا لم يُعجبهم ذلك فبإمكانهم المغادرة إلى مكان آخر.
نحن نقدم لهم صنيعاً".

لم يقل خليفة شيئاً، بل رمق الرجل ببرودة، وتناول بجةً أخرى من سيجارة
كليبواترا. ظهرت شابة عند أعلى الدرج مع صينية شاي، وانتظرت مطأطئة
رأسها، حتى قام العمدة بالتلويح لها للقدوم، فوضعت الصينية على الطاولة
وغادرت مسرعة. كانت الكدمة حول عينها اليسرى ظاهرة بوضوح، بالرغم من
وضعها وشاح رأس مفكوكاً وإبقائها وجهها نحو الأسفل.
سأل ساريا: "أهي ابنتك؟".

أجاب العمدة: "إنها زوجتي. هل هناك أسئلة أخرى؟ هل تريدان أن تعرفا متى
تناولت الغائط في المرة الأخيرة؟".

تبادل التحريّان نظرات سريعة، وأشار خليفة إلى ساريا بجزءٍ من رأسه تكاد
تكون غير مرئية كي لا يُيدي أي رد فعل حيال الشتيمة. وسُمع رغاء الجمل في
مكان ما في الأسفل.

"من الواضح أن ابن عم السيد عطية عانى من مشاكل في الماء أيضاً"، أضاف
خليفة. "منذ شهرين".

"هذا ما بلغني".

"هل تواجه أي مشاكل في مياهك؟".

"ليس في السنوات الأربعين الماضية".

"وقبل ذلك؟".

"قبل ذلك، لم تكن القرية موجودة أصلاً".

أوما خليفة، وتناول كوب الشاي من الصينية، ثم توجه إلى حافة السطح،
ونظر إلى الحقول. كانت المياه تتدفق على بُعد خمسين متراً من أنبوب إلى خزان
إسمتي كبير، ومنه تجري داخل شبكة من قنوات الرّي. وبالإضافة إلى حقول الذرة

والزيتون والبرتقال والبرسيم، كانت هناك حقول الملوخية، والتوت، والبطيخ أصفر، والتبغ، وما بدا أنه جُوافة؛ فبدا المكان كجزيرة خضراء وسط محيط أصفر شاسع.

قال: "ثبلي بلاءً حسناً هنا".

"نحب أن نعتقد ذلك".

"يوجد الكثير من الماء".

وتتم العمدة شيئاً ما غير مسموع.

"أخبرني السيد عطية أنه ينبع من الجبال".

"هذا ما يقوله الخبراء. نحن نستخدمه فقط. نحن مزارعون، ولسنا...".

وقطّب جبينه باحثاً عن الكلمة الصحيحة.

قال ساريا: "جيولوجيين".

قال العمدة: "أياً يكن. إنها مياه جيدة، وهناك مخزون ثابت. عليك أن تنزل

إلى عمق كبير للحصول عليها، ولكنها موجودة. هذا كل ما يهمنا".

سأل خليفة: "ألا تواجه أي مشاكل؟".

"البتّة. لقد سبق لي أن أخبرتك ذلك".

ألقي خليفة نظرة على الحقول لمدة أطول، مرتشفاً الشاي، واستدار بعد ذلك.

"إذاً، لماذا أصبحت مياه السيد عطية غير صالحة للاستخدام برأيك؟".

"لقد أجبتك عن هذا السؤال للتوّ. إنها إرادة الله".

"وهل تظن أن أشخاصاً في القرية فعلوا ذلك؟".

همهم العمدة وأعاد رأسه إلى الوراء، مُطلقاً كتلة كثيفة من البُصاق من

السطح إلى الشارع في الأسفل. وكشفت شفتاه عن صفين من الأسنان البنية غير

المستوية كما لو أنها عساليح منقصة.

قال العمدة موجّهاً نظره إلى خليفة: "لماذا لا تتوقف عن المراوغة وتقول هذا

فحسب؟ أنت تتهمنا بتسميم بئرهم".

"هل قمتم بذلك؟".

"لا، لم نَقم بذلك. لو أردنا إبعادهم عن هذا المكان، فلماذا سنزوّدهم

بمياه الشرب؟".

إنها وجهة النظر نفسها التي أبدأها خليفة في المزرعة.
"ربما كنت تسعى من خلال ذلك إلى زيادة مواردك"، اقترح خليفة متناولاً
آخر بحجة من سيجارته، وناقراً الجذمة في الاتجاه نفسه الذي سلكه البصاق. "ربما
تضغط عليهم للحصول على المزيد من المال منهم".
أطلق العمدة نحيراً، رافضاً الإصغاء.
"أو إن أحدهم قد قام بذلك من دون معرفتك؟".

"أنا العمدة. لا أحد يقوم بأي شيء في هذه القرية من دون إعلامي. مهما
حدث لأولئك الناس، فلا علاقة لنا به. لهم حياتهم ولنا حياتنا. ليست مشكلتهم
مشكلتنا. هل هناك أي شيء آخر؟".

في الواقع، لم يكن لديهما ما يضيفانه. طرح خليفة بضعة أسئلة إضافية،
اعتبرها ساريا كثيرة، ليظهرها للزعيم أنهما جاذبان في أداء مهمتهما، أكثر من
رغبتهما في الحصول على معلومات مفيدة منه. لقد اتضح أن ابن عم السيد عطية
تشاجر مع أحد القرويين منذ عامين بسبب ملكية بعض طيور الحمام، ولكن
المسألة حُلّت برضى الفريقين. وإمام القرية قادم من فرشوت أيضاً؛ على غرار عائلة
عطية، ولم يكن العمدة يعلم أن علاقة ما تربط الإمام بالعائلة. هذا كل شيء.
وبعد تيقنهما من أن الحديث لن يوصلهما إلى أي نتيجة، ارتشفا ما تبقى من
الشاي وأكھيا اللقاء.

"سأراقب كل ما يحصل عن كثب"، قال خليفة بعد أن أصبحوا في الشارع،
ملتفتاً إلى العمدة ورامقاً إياه بنظرة قاسية. "مراقبة حثيثة. إذا واجهت عائلة عطية
مشاكل إضافية، أي مشكلة، فسأعود".
قال العمدة: "خيراً تفعل".

دخلوا السيارة، وشغل ساريا المحرك.
قال خليفة وهو ينزل زجاج النافذة: "الأمر غير جدير بالعناء، يعلمنا القرآن
الكریم بصفة خاصة احترام أهل الكتاب".
هز العمدة كتفيه وبصق ثم قال: "متى احتجنا إلى إمام جديد فسأحرص على
الاتصال بك".

نظر إليه خليفة مطولاً، ومن ثم أوماً برأسه للرفيق، وغادرا.

"هل تعتقد أنه يقول الحقيقة؟". سأل ساريا عندما ابتعدا عن القرية، وسلكا الدرب الوعرة في طريق العودة إلى الأقصر. فهز خليفة كتفيه.

"الله أعلم. بالنسبة إلى أولئك الأشخاص، يكون الكذب أسلوب حياة في الغالب، وعندما يقولون الحقيقة فهم لا يدركون ذلك". سحب علبة السجائر، وفكر ملياً، ومن ثم أعادها إلى جيبه وتناول عوضاً عن ذلك حبة نعناع من العلبة الموضوعة على لوحة القيادة. "إنه مُسنّ ماكر صعب العريكة، هذا أمر مؤكّد. لم يكن ليعترف بالحقيقة سواء أكان هناك ما يعترف به أم لا...". وشبك ذراعيه أمام صدره، ثم أسند ظهره محمّداً إلى المنظر الطبيعي المُقفر.

"هناك من يفتعل كل هذه الأمور"، تتمم لنفسه. "أحدهم يريد إخراجهم من هناك".

لم يتمالك ساريا نفسه عن الابتسام. إنها مجرد عائلة فقيرة من المزارعين تعاني من مشاكل في الحصول على الماء النظيف وسط الصحراء؛ في منطقة نائية جداً لدرجة أنه لا يمكن معرفة السلطة القضائية التي تملك حق الفصل في شؤونها. لكان أي تحرّج آخر في الأقصر قد أرجأ النظر في هذه القضية، هذا إذا لم يرمها مباشرةً في سلة المهملات. فقط خليفة هو من نظر فيها بجديّة، مانحاً إيّاها كل اهتمامه كما لو أنها قضية كبرى. إنه أفضل شرطي في الأقصر، ولا أحد يستطيع تغيير رأي ساريا.

"أتعرف ما الذي أشعر بالرغبة به"، قال ضاغطاً على المكابح في أثناء اقترابهما من أحدود عميق في الطريق، "كوب كبير من الكاركاداي المثلج". نظر خليفة إليه، ومن ثم أشاح بنظره قائلاً:

"إنه شراب علي المفضّل".

لم يكن ساريا واثقاً من كيفية الإجابة، لذا ركّز على القيادة متخطّياً الأحدود، ومنطلقاً بسرعة بعد ذلك في اتجاه الغرب.

القدس

مكتب الرقيب أول ليه شاليف عبارة عن غرفة ضيقة، لا نوافذ فيها، تقع في الطابق الأرضي لمركز شرطة داوود. وهذه الغرفة هي إحدى الغرف الست المتماثلة في ممرٍ متفرّع من نفقٍ مدخل المركز. عند الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة، كان يوجد في المكتب ستة من عناصر الشرطة لإيجاز القضية الأساسية، بمن فيهم ليه شاليف الجالسة وراء مكتبها بصفتها المحققة الموكلة بمهمة النظر في القضية، والتي تترأس الاجتماع.

كانت شرطة إسرائيل متفرّدة في تعيين المحققين وفقاً للمعلومات بن - روي. ففي قوات عسكرية أخرى، يتولّى رجال التحري مسؤولية التحقيق الفعلي إضافة إلى الهراء البيروقراطي المستهلك للوقت والمواكب للأعمال الميدانية: الميزانيات، ملء الاستثمارات، وضع التقارير، التنسيق بين الأقسام. ولكن، لقد فصل الدوران في إسرائيل. ففي حين يتولى رجال التحري مهام طرح الأسئلة، وإجراء المقابلات، ونشر المُخبرين، تتمثل مهمة المحقق في الإشراف على الأمر برمته وتنسيقه. فالحقق يكون أول الحاضرين إلى مسرح أي جريمة، ويدير ملف القضية، ويوزّع المهام، ويتحمل عبء الأعمال الكتابية، ويُطلع مكتب النائب العام على كل المستجدات، وعلى المصاعب التي تواجه التحقيق بصفة أساسية. إنه دور هام ولكنه غير محبّب، ويُعرف لابعوه بالمحققين المُدرّكين للهرمية، الذين لا يفوقون رجال التحري في الرتبة. كان بعضهم زملاء لبن - روي، ورجال تحرّ أكثر افتقاراً للنّضج، يملكون حسّاً مُفرطاً بأهميتهم، ويظنون أنه يُفترض بهم أن يكونوا أعلى رتبة، ولكن بن - روي لم يكن منزعجاً. كان سعيداً فحسب بالقيام بعمله من دون التعرّض للعرقلة من قِبَل الإداريين المُملّين. فالحقق هو من يدير التحقيق، ولكن التحري هو من يحل الجرائم في الواقع.

"حسناً، يا رجال"، قالت شاليف ضاربةً بيدها على الطاولة للحصول على انتباه الجميع. "التابع".

لقد استخدمت كلمة رجال لأنها المرأة الوحيدة في الغرفة. فبالإضافة إلى بن - روي، كان هناك يوري بينكاس، وآموس نامير - سيفاردي رمادي الشعر لا

يمتاز فقط بكونه من قضى أطول مدة في الخدمة بين تحرّي الفريق، بل أيضاً الأكثر تدمراً - والرقيب موشيه بيريز الذي ينسّق أي دعم مطلوب من قِبَل العناصر النظاميين.

كل هؤلاء يعرفون بعضهم بعضاً، وقد عملوا معاً عدة مرات. والشخص الإضافي صبياني المظهر ونحيل، يضع نظارة ذات عدستين مستديرتين، ويعتمر قبعة زرقاء مُحَاكَة خاصة بالرجال اليهود، ويجلس في زاوية الغرفة بعيداً عن الآخرين. كان يصغر أعضاء الفريق الآخرين بعشر سنوات، ويدعى دوف زيسكي، ولم يتعرّف إليه بن - روي إلا عندما قدّمته له للمجموعة. لقد أصبح مؤهلاً في الفترة الأخيرة كما يبدو، لشغل منصب تحرّ، علماً أن سنّه توحى بأنه خرّيج حديث العهد لم يبدأ بحلاقة لحيته إلا مؤخراً.

"أفترض أن الجميع مؤهلون للعمل بسرعة على المعطيات الأساسية"، قالت شاليف، "أنثى غير محدّدة الهوية خنقت في دار العبادة الكبرى الأرمنية".

وأومات الرؤوس حولها. كان زيسكي قد أخرج من جيّبه دفتر مدوّنة مزركشاً، صنّع غلافه من فرو الخلد، وشرع بالكتابة عليه.

"سبق للعاملين في ميدان الأدلة الجنائية أن أرسلوا العينات الأولى إلى جبل سكوبس، لذلك سنحصل على شيء ما اليوم كما آمل. والأمر مماثل بالنسبة إلى تشريح الجثة، فقد طلبت من أبو كبير تتبّع الأدلة المتوافرة بسرعة".
تمتم أموس نامير: "لا يستطيع أفرام شملينغ تتبّع تبوّله بسرعة".
تجاهلت شاليف التعليق.

"نحن بحاجة إلى معلومات شخصية عن الضحية. إنها أولوية. ونحن بحاجة أيضاً إلى التفكير في حافز القاتل. يبدو أن محفظة جيّب الضحية ومقتنياتها الشخصية مفقودة، فهل هذه جريمة سرقة في المقام الأول؟ هل هناك من يحقد عليها؟ هل صودف أنها تلقت تبعات غضب الجرم بسبب تواجدها في المكان الخاطئ، والوقت الخاطئ؟".
"أهو حافز ديني؟" سأل بن - روي. "فقد كانت وسط دار عبادة كبيرة بالرغم من كل شيء؟".

"هذا ممكن"، أجابت شاليف، "ممكناً تماماً. في هذه المرحلة كل شيء ممكن. آياً يكن رجلنا...".

"أو امرأتنا".

كان ذاك صوتَ زيسكي الهادئ، والمهذب، والمخنث. إنه صوتُ شخص غير سوي يصيح، فكَرَّ بن - روي في سره. لفت الرجل الأنظار؛ لقد تشاطر زملاؤه هذا التخمين.

"قد يكون القاتل امرأة"، أضاف زيسكي رافعاً نظره عن دفتر المدونات. "لا نعرف بعد إذا كان رجلاً. ليس بعد".

وأطلق بينكاس وبيريز ابتسامة رضى عن النفس، وبدأ آموس نامير كما لو أنه على وشك الانفجار غضباً.

"ما الذي تحدث عنه؟ انطلاقاً مما سمعته، يفوق وزن الضحية مئتي كيلوغرام. كيف يمكن لامرأة...".

"هذه وجهة نظر جيدة"، قالت شاليف طالبةً من نامير التزام الهدوء. "في هذه المرحلة، علينا طرح كل الخيارات. إذاً، أيّاً يكن رجلنا أو امرأتنا، فهناك إمكانية قوية لارتكاب جريمة أخرى. علينا التحرك بسرعة أيها السادة. ليس الأمر سهلاً مع اهتمام نصف الفريق بقضية مقتل الطالب، ولكن علينا إنجاح الأمر".

لم يقل أحد أي شيء. فالموارد في الكيشل تتم الاستفادة منها على الدوام إلى أقصى حدّ. إنه واقع الحياة، وقد اعتادوا الأمر.

"هل من جديد بالنسبة إلى الكاميرات الأمنية؟". سأل موشيه بيريز.

كانت هناك أكثر من 300 كاميرا مثبتة في مختلف أنحاء المدينة القديمة؛ ممكناً الشرطة من مراقبة كل شيء يحدث في المدينة التي تبلغ مساحتها كيلومترين مربعين. وكلما ارتكبت جريمة، أي نوع من الجرائم، تكون الملائد الأول لأي تحقيق.

"صوّرت الكاميرا الموجودة فوق نفق بطيركية الأرمن الأرثوذكس الضحية قبل الساعة السابعة"، أجاب بينكاس. "كان هناك شخص وراءها، ولكن الصورة بدت غير واضحة بسبب المطر، ولا يمكنكم رؤية أي شيء حتى بعد تكبيرها. ربما يكون ذاك الشخص هو القاتل، وربما لا".

"ماذا عن الكاميرات المثبتة عند زاوية البطيركية وباب صهيون؟". قال بيريز.

"يفترض أن تغطي مدخل الجمع".

"إنها بعيدة جداً"، أجاب بينكاس. "لا يمكنك رؤية أي شيء، ولا سيما مع هطول المطر. نحن نحاول معرفة وقت دخول الضحية المدينة القديمة، والمكان الذي دخلت منه، ولكن ذلك يتطلب وقتاً".

سألت شاليف: "ماذا عن كاميرات المجمع؟".

"كانوا لا يزالون يعاينون المشاهد المصورة عندما غادرت"، قال بن - روي. "تعتقد نافا أن الأمر يتطلب ساعتين أخريين".

فأومأت شاليف برأسها، متلهيةً بشريط الشارات على كنزتها الصوفية الزرقاء.

"حسناً، لتتقاسم المهام. يوري، عُد إلى شاشاتنا وجد ما يمكنك العثور عليه. أريد معرفة كل شيء متوافر عن تحركات الضحية منذ لحظة دخولها المدينة القديمة. وعندما تصل المشاهد المصورة للمجمع، باستطاعتك وشوارتز تفحصها أيضاً. من الرقيب المسؤول عن مهمة المراقبة؟".

قال بينكاس: "تالمون".

"اطلب منه أن يزودك باثنين من رجاله. علينا الإسراع في التحقيق".

"لقد طلبتُ منه ذلك فقال لي إنه ليس لديه عناصر احتياط".

"حسناً، اطلب منه العثور على بعض عناصر الاحتياط؛ وإلا فسيكون عليه القدوم إلى هنا للإجابة عن أسئلتِي".

فابتسم بن - روي. لقد ابتسموا جميعاً. لم تكن ليه شاليف بمستوى ييغال دورفمان بالتأكيد، وهو المحقق في قضية مقتل أحد طلاب اليشيفا، والذي يحتل المرتبة الأولى في التدخل في شؤون الآخرين. ولكن، عندما تكون في مزاج ملائم، باستطاعتها دس أنفها في شؤون أفضلهم.

"أنا بحاجة إلى عناصر نظاميين يتنقلون من منزل إلى منزل في المجمع وفي كل الحيّ الأرمني"، أضافت. "الكثير من العناصر النظاميين. موشيه؟".

قال بيريز: "سأنطلق".

"كلترمان يطبع صوراً الآن لتتمكن من اصطحابها معك. يوري، إذا كان باستطاعتك الحصول على صور جيدة من الكاميرات، فستكون مفيدة أيضاً".

فأومأ بينكاس.

"أموس، أنت تنظر في قضايا قديمة ومُثبِطة للعزيمة. لذا، ربما كان بإمكانك العثور على أوجه شبه بينها وبين قضيتنا الحالية، واطلب من مخبريك القيام بذلك أيضاً".

أوماً نامير برأسه.

"هل لديك علاقة مع أي أرمني؟".

"مع اثنين".

"تحدّث إليهما أيضاً. لا تعرف أبداً، ربما بلغ مسمع أحدهما شيء ما".

"لقد تحدّثت للتوّ إلى أرمني أعرفه"، قال بن - روي، واقترب إلى الأمام. "إنه يملك فندقاً وتبلغ مسمعيه كل الأخبار. قال إنه من المستحيل أن يكون أحد أفراد جاليتة قد قام بأمر مماثل".

فكرت شاليف مليّاً للحظات، ثم قالت أخيراً: "لا نزال بحاجة إلى تغطية كل الجوانب، حتى لو لم يكن حيّهم الأرمني على صلة مباشرة بالقضية، فلا بد من أن يكون أحدهم على علم بشيء ما. ولكنك مُحِقٌّ، علينا الاحتفاظ بعقل منفتح".

رفعت الكوب عن طاولتها، وارتشفت القليل من القهوة، وترك أحمر الشفاه لطحخة حمراء على حافة كوب الفلين. في العادة، لم يكن أحمر شفاه ليه شاليف يعني أي شيء لبن - روي، ولكنه لم يتمالك نفسه هذا الصباح، وتذكّر الدماء المتكتلة حول فم المرأة.

قال هازراً رأسه لإزالة الصورة من ذهنه: "أظن أنني سأتولى أمر الضحية".

قالت شاليف: "وهو كذلك. أريد أن أعرف من تكون؟ ومن أين هي؟ وما الذي كانت تفعله في دار العبادة الكبرى؟ كل شيء. وأريد هذه المعلومات في أقرب وقت ممكن".

تناولت رشفة أخرى، ملقية نظرةً في أنحاء الغرفة. كان الجميع صامتين ومستعدين للمباشرة بمهامهم.

"ماذا عني؟". سأل زيسكي. كان جالساً على كرسيه وقد انحنى إلى الأمام ككلب ينتظر اصطحابه في نزهة، ويدها - الناعمتان والممائلتان ليدي فتاة - ممسكتان بدفتر المدونات.

"أنا؟". تتمم بينكاس مقلداً الصوت المخنث للشباب، فرمقته شاليف بنظرة تحذيرية.

"في الوقت الحاضر، اقصدِ المجمع واطرح بعض الأسئلة. يمكنك التحدّث إلى بعض رجال الدين أيضاً. وعرج على الرجل الذي كان في بيت الحارس ليلة أمس. لقد تقدّم بإفادة، ولكنها غامضة تماماً. عندما تُنهي ذلك، يمكنك العودة إلى هنا ومشاركة آري مهامه".

تتمم بينكاس: "بدون قبّلات".

قال بن - روي: "تبّاً لك".

فوقفت شاليف.

"حسناً أيها السادة، لنباشر العمل. ستبالغ الصحافة في هذه القضية، لذلك أريد نتائج، وبسرعة".

وصفقت يديها، فوقفوا جميعاً، واحتكّت قوائم الكراسي بالأرض المشمّعة باللينوليوم. وفي أثناء خروجهم إلى الممر، طلبت من بن - روي العودة، مشيرةً إليه لإغلاق الباب.

قال: "شكراً للصديقة". وجلس مجدداً.

كانت لديه شاليف طريقة خاصة في تكوير قبضة يدها عندما يتم الاستهزاء

بها.

"لا تُضيف أي شيء يا آري. أتوقع هذا النوع من الأمور من أشخاص نياندرتاليين مثل بينكاس ونامير، ولكنني كنت آمل أن يكون رد فعلك أفضل".

"ما بالك يا ليه؟ الرجل مخنث. ماذا يفعل في مركز أمامي كالكيشل؟".

قالت شاليف مرتمةً على كرسيها: "يذكرني هذا الأمر بعدد قليل من

الأشخاص الذين طرحوا السؤال نفسه عني عندما قدمتُ إلى هنا للمرة الأولى".

صحيح. لقد أدى تعيين محققة في الكيشل - المحققة الوحيدة في كل

الكيشل - إلى رفع عدد كبير من الحواجب، ومن بينها حاجبا بن - روي الذي

اعتبر تعيينها "تجميلاً للواجهة، واسترضاءً للفريق المؤيد للفرص المتساوية".

قال: "الأمر مختلف".

"آه، حقاً؟".

"إنه مكان قاسٍ يتعامل مع أشخاص قساة. باستطاعتك التعاطي مع ذلك".

"وهو، ألا يستطيع؟".

"انظري إليه، حباً بالله! إنه...".

وضعت شاليف قبضتها على الطاولة قائلة:

"لا تُضِف أي شيء!". كررت. "لديّ امرأة متوفاة وسط دار عبادة، ويحب مريض عقلي الشوارع، ولا نملك عدداً كافياً من العناصر، ويقضّ الرئيس غال مضجعي باستمرار. إن التعاطي مع هذا الواقع يكفي، ولست بحاجة إلى وجود دعوى قضائية على طاولتي بسبب تعرّض أحدهم للمضايقة لأنكم تكرهون... حتى إننا لا نعرف إذا كان...".

"نوشيه كاريوت؟".

"تبّاً لك يا آري. ما يقوم به أو لا يقوم به خارج المركز ليس من شأننا. نحن بحاجة الآن إلى أشخاص يعملون معاً على حلّ هذه القضية. كلّكم".

وتمتم بن - روي شيئاً ما.

"ماذا؟".

"لقد عبّرتُ عن وجهة نظري".

"أمل ذلك يا آري. أمل ذلك حقاً لأن الأعباء كثيرة هنا".

وقاوم بن - روي رغبته في توجيه ملاحظة ساخرة مماثلة للملاحظة زيسكي.

"إنه يحمل شهادات جيدة من لود"، أضافت شاليف، "ومن أكاديمية الشرطة. إنها إحدى أفضل الشهادات التي قرأتها يوماً. وهو متحمّس. وقد تقدّم بطلب خاص لتحويله إلى هنا ليتمكن من العمل على قضايا شائكة. وبما أن الكيشل لا يشتهر بانفتاحه الفكري، فهذا يدلّ على شجاعته".

ورثبت شعرها بعناية، دائرةً حول كرسيها.

"وطلب أيضاً أن تتسّى له فرصة العمل معك".

رفع بن - روي نظره نحوها متسائلاً:

"ماذا يجري؟".

"ما بالك يا آري؟ لقد قرأ عن قضية شامير، وعن حريق مورستان عندما أنقذت تلك الفتاة العربية. إنه يحترمك. الله وحده يعرف السبب، ولكنه يحترمك. امنح الفتى فرصة، هلاً فعلت. امنحه قليلاً من التشجيع".

"حسناً، حسناً"، قال بن - روي رافعاً يديه. "نحن صديقان حميمان".

وتوقف قليلاً، ثم أضاف:

"ولكن، ليس بذلك المعنى".

فابتسمت شاليف رُغماً عنها.

"اخرج من هنا، وأحضر لي بعض النتائج".

وقف بن - روي ثم خرج من المكتب.

"ولمعلوماتك"، صاحت، "وفقاً للأكاديمية، كان أحد أفضل طلاب كراف ماغا على الإطلاق. إنه فتى صلب العود. واحرص على الاتصال بسارة! باستطاعتك تخصيص دقيقتين من وقتك لها حتى وإن كانت هناك قضية قتل".

ولكنه كان قد ابتعد عابراً الممر بخطى واسعة، وما كان يُظهر أي اهتمام حتى لو سمعها.

فانكوفر، كندا

كلما ثمل دوي ماكابي كان يفكر بدنيز ساندروز في قسم الموارد البشرية. وكلما فكر بدنيز ساندروز كان يحزن ويحزن عليها بسبب عدم رغبتها في الخروج معه. وكلما حزن وغضب شعر بحاجة غير منطقية للانتقام.

في هذا الوقت - عند الساعة الثانية من بعد منتصف الليل - كان ثملاً جداً، وحزيناً وغاضباً جداً، وتماهى الرغبة في الانتقام بصفة خاصة. لهذا السبب، فيما كان يشق طريقة متلوياً على امتداد شارع بورارد بعد سبع ساعات من احتساء الشراب في دونينز آيريش في شارع نلسون، قرر التوقف عند مكتب دنيز ساندروز والتغوط على مكتبها.

بدا المخطط مشوشاً منذ البداية. فبعد وصوله إلى البرج الإسماعي لمبنى دييول غاز إند بتروليوم، دفع الأبواب الدوارة ولكنها كانت موصدة؛ كان يُفترض به أن

يُدرِك ذلك لأن الساعة هي الثانية من بعد منتصف الليل. هذا يعني أنه يتعيّن عليه إلقاء التحية على الحراس الليليين لإدخاله، ولكن الحارس ارتاب في أمر دوي بالرغم من امتلاك هذا الأخير ترخيصَ مرورٍ أمنياً؛ كان يُفترض به أيضاً أن يتوقع ذلك بسبب رائيحه الكريهة. فكر دوي للحظات في إنقاذ الموقف من خلال التعبير للحارس عن حاجته الشديدة لتوجيه رسالة مُلحّة عبر البريد الإلكتروني. ولكن، عندما قرر الحارس مرافقة دوي إلى داخل المصعد، سلّم هذا الأخير بأن طاولة دنيز ساندرز ستُفقد من العقاب في هذه المناسبة الخاصة.

ورغبةً منه في الحفاظ على ماء الوجه، استقلّ المصعد إلى قسم تكنولوجيا المعلومات في الطابق السادس، وتوجّه مباشرةً إلى مكتبه بسبب ملازمة الحارس له، وشغّل جهاز الكمبيوتر.

قال الحارس: "لا بد أن تكون رسالة مُلحّة هذه التي تريد إرسالها عبر البريد الإلكتروني". وكان أكثر بدانة من دوي.

"أون - هوه"، أجاب دوي، وقد حرص على إبقاء المحادثة في حُدّها الأدنى لأنه كان يدمج الحروف على نحو سيئ.

حدث توقف قصير قبل أن تصبح الشاشة زرقاء وتظهر نافذة الولوج. أدخل اسم المستخدم وكلمة المرور - deweysbigcock69 - محاولاً التفكير بشخص ما يمكن أن يوجّه له رسالة عبر البريد الإلكتروني. ولسبب ما، رفض الجهاز التفاصيل التي أدخلها، فحاول مجدداً، مفترضاً أنه أدخل معلومات غير صحيحة، ولكنه واجه النتيجة نفسها.

سأل الحارس الذي كان يقف بمحاذاة بطريقة مزعجة: "هل من مشكلة يا سيدي؟".

"لا مشكلة"، تتم دوي محاولاً الولوج للمرة الثالثة من دون جدوى. فكر ملياً، ومن ثم أزاح كرسيه وانحنى إلى الأمام كي يحجب أكبر قدر ممكن من الشاشة عن نظر الحارس، وأدخل بسرعة اسم المستخدم وكلمة المرور الخاصين بدنيز ساندرز لأنه أحد الأشخاص الثلاثة في المكتب الذين يحقّ لهم معرفة هذه المعلومات، وهو يلج بريدها الإلكتروني كل يوم ليتحقق مما إذا كانت تراسل كفين سبزنك ذاك.

كان دوي قد بدأ يصحو، بعد أن حاول دخول بريدها الإلكتروني من دون جدوى، ثم حاول مجدداً ولوج بريده من دون أن يُفلح في ذلك. عندها، أدخل المعلومات المرتبطة بكفين سبزيك، والتي كان يعرفها أيضاً. ولكنه أخفق في ولوج بريد سبزيك الإلكتروني أيضاً؛ مما أثار دهشته لأن سبزيك أحد المديرين الثلاثة. "هل يمكنك الرجوع إلى الوراء قليلاً؟". قال ملوْحاً بيده للحارس الذي كانت تفوح منه رائحة توابل كريهة بدأت تثير غيظه. "يحدث أمر ما هنا وأحتاج إلى...".

حكّ رأسه، وحدّق إلى صف الساعات المعلقة على الجدار المقابل، والتي تشير كل منها إلى الوقت في أحد مكاتب الشركة البالغ عددها 16 والموزعة في مختلف أنحاء العالم. إنها الثانية واثنان وعشرون دقيقة في سان دييغو، والرابعة واثنان وعشرون دقيقة في هيوستن، والخامسة واثنان وعشرون دقيقة في نيويورك. الوقت لا يزال مبكراً، أو متأخراً، ليكون الموظفون متواجدين في مكاتبهم؛ يعتمد ذلك على طريقة نظركم للأمر. ولكنها العاشرة واثنان وعشرون دقيقة في لندن، لحسن الحظ. توقف قليلاً، ومن ثم التقط الهاتف وطلب رقماً، وطلب من مقسّم هاتف لندن أن يصله بريشي تافرني في قسم تكنولوجيا المعلومات، فحصل على بريد صوتي.

"هل تواجه أي مشكلة يا سيدي؟". كرر الحارس، وكان لا يزال بإمكان دوي اشتمام رائحة التوابل الكريهة التي تفوح منه بالرغم من تراجع خطوات قليلة إلى الوراء. فلم يُجب دوي، واتصل برانكفورت، وحصل أيضاً على بريد صوتي. ومن ثم اتصل بمكتبهم في تل أبيب في الشرق، وكان المدير هناك يتناول الغداء. "ألم يعد أحد يعمل؟". تتم متفحّصاً لائحة خطوط الهاتف الفرعية، ثم اتصل بدلهي حيث تمكّن من التحدث إلى شخص يدعى بارفيند ويتكلم كأحد أولئك الممثلين في الأفلام القديمة بالأسود والأبيض، وقد أخبره أنهم يعانون أيضاً من مشاكل إدارية. وثبّت له أن المكاتب في كوالا لامبور، وهونغ كونغ، وأديلايد تواجه المشاكل نفسها. كان دوي قد بدأ برؤية الأمور بشكل واضح، فأخرج هاتفه المحمول، وبحث في لائحة أرقام الهاتف عن رقم محدّد، وطلبه. إنه الرقم الأرضي لرئيسه دايل سبرينغر. وبعد إحدى عشرة رتبة رفع سبرينغر السماعة.

"آلو".

كان الصوت أجش وغير واضح كما لو أنه صادر من تحت الماء.

"دايل، دوي يتكلم. مُنعتُ من ولوج النظام".

"أونه. ماذا؟".

"مُنعتُ من ولوج النظام".

وحدث انقطاع مُربك عن الكلام:

"حسناً، ما الذي يتعيّن عليّ القيام به حيال ذلك؟ اذهب ونم على مقعد في

الحديقة العامة. يا الله! ماذا...".

"مُنعتُ من ولوج النظام"، قال دوي مقاطعاً إيّاه، "أنا في المكتب، وقد مُنعتُ

من ولوج النظام على غرار سبزيك والمديرين في مكاتبنا الأخرى. ولكن ولوج

المواقع العادية للموظفين يجري بشكل عادي، كما يبدو. فمواقع المسؤولين

الإداريين هي التي لا يمكن ولوجها".

ساد الصمت في الطرف الآخر، ومن ثم سُمع صوت حفيف ملاءات كما لو

أن أحدهم ينهض من فراشه. وعندما تكلم سبرينغر مجدداً بدا مستيقظاً أكثر من

ذي قبل.

"تشخيص".

لقد اعتاد رئيسه على الدوام استخدام كلمات أساسية مماثلة. كان يشاهد

ستار تريك بكثرة.

قال سبرينغر بصوت أعلى: "تشخيص". وقبل أن يتمكن دوي من الإجابة

تابع سبرينغر كلامه: "تمّ التسلل إلى ملفاتنا".

"يبدو الأمر كذلك بالتأكيد".

"آه! تبّاً".

بعد ذلك، بدأ كل شيء يتحرك بسرعة، بسرعة كبيرة. فقد حضر سبرينغر

إلى مكتبه بعد عشرين دقيقة - وأزرار بيجامته بادية من تحت سروال الجينز -

يتبعه دفق متواصل من المديرين، بمن فيهم آلن كومينز، المدير التنفيذي الأول في

ديبول. يعمل دوي في الشركة منذ ثماني سنوات، ولم يسبق له أن دخل غرفة بطول

غرفة كومينز. وها هو يجده منحنيّاً فوق كتفه مباشرةً، وبشكل مفاجئ.

"أخرجهم"، صاح بغضب، "أخرجهم الآن".
"ليس الأمر بهذه السهولة يا سيدي"، قال سبرينغر. "يبدو أنهم يتمتعون بحقوق إدارية حصرية".

"ما الذي يعنيه ذلك؟".
"إنهم عباقرة بشكل أساسي"، قال دوي الذي ذهل بصفاته الذهني بعد احتسائه الكثير من الشراب. "إنهم يسيطرون على النظام بأكمله. باستطاعتهم القيام بما يحلو لهم، والذهاب حيثما يشاءون، والاطّلاع على كل ما يريدون".
"مواقع خاصة؟ يريد إلكتروني؟".

"كل شيء".
"أيمكنهم الاطّلاع على بريدي الإلكتروني؟".
فأوماً دوي برأسه.
"يا الله!".

"لا بد من أن يكونوا قد تسللوا إلى ملف سام المركزي من خلال أحد أجهزة الوصل"، قال سبرينغر الذي بدا شديد التأثر. "وكل ما يتبقى عليهم القيام به هو نسخه، وتسيير برنامج للحصول على كلمة المرور...".

بدأ آلن كومينز يتنفس بصعوبة شديدة.
"هجوم قاموسي، خوارزمية، جدول قوس قزح...".
ضرب كومينز الطاولة بقبضته، مُخطئاً بالكاد لوحة مفاتيح دوي.
"اصمّت! اصمّت وأخرجهم".

"لا يمكننا إخراجهم يا سيدي"، قال دوي الذي كان يستمتع بما يحدث كما لو أنه مشارك في فيلم سينمائي يعالج قصة خيالية علمية، أو ما شابه. وهو يلعب دور البطل. بروس ويليس، لا بل ستيفن سيغال. "إنهم يسيطرون على النظام. كل ما يمكننا القيام به هو إغلاق النظام بأكمله".

"قُم بذلك إذا!". صاح كومينز. "إذا حصلوا على جزء من...".
وكفّ عن الكلام، مُطبقاً قبضته وفتحاً إيّاه.

"سيدي، بإغلاق النظام سيتوقف كل موظف في كل مكتب من مكاتب الشركة في كل مدينة عن العمل"، قال سبرينغر. "أي إنه فعلياً ستتوقف الشركة عن العمل".

فشّد كومينز شعره قائلاً وهو يتأوّه:
"سوف نخسر الملايين... الملايين".

أصبح هناك عدد كبير من الأشخاص في المكتب، والذين تجمعوا حول طاولة
دوي، بمن فيهم حارس الأمن الذي تفوح منه رائحة التوابل الكريهة، والذي لازم
مكانه من دون أي سبب واضح، ووقف وراء كومينز مباشرةً، واضعاً يده على
سلاحه الجانبي. ولزم الجميع الصمت.
"سيدي، ماذا أفعل؟". سأل دوي.
كان كومينز لا يزال يشّد شعره.
"سيدي؟".

مرّت ثوانٍ قليلة أخرى، ومن ثم أطلق المدير التنفيذي الأول في ديپول للغاز
والنفط تنهيدة استياء، وأنزل يديه قائلاً:
"قم بذلك. أغلق النظام بأكمله".

مدّ دوي يده في اتجاه الهاتف. وفي أثناء قيامه بذلك، تحوّل لون الشاشة
الموجودة أمامه من الأزرق الباهت إلى الأحمر البراق. وحدث توقّف مؤقت، ثم ظهر
بعد ذلك دَفَق من الحروف البيضاء المتحرّكة كأوراق في مهبّ الريح قبل أن تشكّل
خمس كلمات ملأت الشاشة بأكملها: أهلاً وسهلاً بكم في جدول أعمال نيميسيس.
فابتسم دوي ماكابي رغماً عنه. أيّاً يكن الأمر الذي يحدث هنا، فهو أسوأ
مما كان ينوي القيام به.

القدس

كان تحرّو الكيشل يشغلون مجموعة قدرّة من الغرف في الطابق الأرضي؛ في
الجهة المقابلة للمركز ولمكتب ليه شاليف. لقد اعتادوا شغل الطابق الأول، ولكن
مركز أعيد تنظيمه قبل عامين ووُضعوا هنا، وقد حملهم ذلك على الشعور
بانزعاج كبير.

يتم ولوج القسم عبر باب منخفض في الناحية الخلفية للمبنى. توقف بن -
روي هناك قليلاً لإجراء اتصال هاتفي آخر بسارة. وتمكّن هذه المرة من التحدّث

إليها. كانت لا تزال مستاءة منه بسبب عدم بقائه في أثناء المسح بالموجات فوق الصوتية؛ علماً أنهما كانت تشعر باستياء أقل مما كانت عليه في السابق، وتمكنا من إجراء حديث منطقي وهادئ أحدث فرقاً، وعلم نتيجة لذلك الحديث أن كل شيء يسير بشكل جيد مع الطفل - البوبو كما أسمياه - وحدد موعد آخر لإجراء المسح قبل مرحلة الولادة؛ بعد ستة أسابيع. ولم يتكبد بن - روي عناء تدوين التاريخ والوقت؛ فسوف نذكره سارة بهما مرة واحدة في الأسبوع على الأقل حتى حلول الموعد.

قالت: "ورجاء، لا تنسَ ما نحن في صدد القيام به غداً".
كان الغد يوم سبت، يوم إجازته، وكان قد وعدنا بالقيام برحلة إلى شقتها في ريهافيا - شقتها - لتزيين غرفة الطفل.
أجاب: "بالطبع، لن أنسى".
"لا أتق كثيراً بكلمة بالطبع خاصتك بطريقة ما".

فهمهم بن - روي، مُقراً بأنه لا يمكن التعويل عليه. وساد الصمت، ثم ما لبثت سارة أن كسرتة حين تكلمت مجدداً؛ ولكن بصوت أكثر رقة وحميمية.
"هناك الكثير من الحركة اليوم. يبدو الأمر كما لو أن البوبو يقوم بشقلبات جانبية".

فابتسم بن - روي، مُسنداً ظهره إلى إحدى وحدات تكييف الهواء المثبتة في الجدار بجانب باب قسم رجال التحري.
قالت: "كانت ملامح الوجه شديدة الوضوح في أثناء عملية المسح: الأنف، العينان. أعتقد أنه سيكون وسيماً جداً، أو إنها ستكون جميلة جداً".
"مهما كان جنس المولود فسيشبه والدته، والشكر لله".

سُمت هممة سعيدة في الجانب الآخر، وظن للحظات أنها ستقول شيئاً لطيفاً. ولو قامت بذلك، لبادها بشيء لطيف. لقد مرت مدة على قيامهما بذلك للمرة الأخيرة. غير أنها طلبت منه الانتباه لنفسه، وعدم نسيان عملية التزيين والاتصال بها. فحدق إلى الهاتف وتنهّد. وبالرغم من تظاهره بالصرامة - سابرا نموذجي، كما تذكره شقيقته باستمرار - تبقى الحقيقة أنه يفقد سارة؛ ليس لأنها تحمل طفله فقط، بل لأنه يتساءل أحياناً عما إذا كان يُفترض بهما المحاولة مرة

أخرى. وخطرت له لفترة قصيرة فكرة مجنونة وعابرة حول شراء بعض الأزهار، ودخول السيارة، والتوجه إليها، ومفاجأتها. ولكن هذه الفكرة لم تدم سوى ثانيّتين. بعد ذلك، وضع هاتفه في الجعبة الصغيرة، هازئاً رأسه كما لو أنه يقول: "لا تكن سخيفاً لعيناً". وتوجّه إلى المكتب.

عندما وصل بن - روي إلى مكتبه وشغل جهاز الكمبيوتر، كان المصورّ الفوتوغرافي بيبي كلنزمان قد أنزل صوراً للمرأة المتوفّاة على النظام، وهناك العشرات منها مُلتقطة من زوايا متنوعة، والكثير من الصور للوجه. لم تكن جميلة بالتحديد، ولكنها لم تكن مباراة في فن التصوير الفوتوغرافي. فاختار من بينها صورة واحدة نسخها، ثم وضعها في ملف مستقلّ.

كان هناك شيان مرتبطان بالقضية على لوحة المفاتيح بدلاً من وجودهما على الشاشة لإهاج المشاهد، أحدهما رسالة قصيرة من دوف زيسكي تحمل رقم هاتفه المحمول - "إذا كنت بحاجة إليه" - والآخر كيس من النايلون لحفظ الأدلة يحتوي على قصاصة ورق استمارة المكتبة التي عثر عليها في جيب بنطال الضحية في دار العبادة الكبرى. وأضعاً رسالة زيسكي جانباً، ركز بن - روي انتباهه على الورقة.

لكان أمراً رائعاً لو أنّها تحمل معلومات كالتاريخ، والعنوان، واسم الكاتب، واسم القارئ. كانت الاستمارة فارغة، ولا يمكن استخدامها كطرف خيط في القضية. إنّما الشيء الوحيد تقريباً الذي حصلوا عليه في هذه المرحلة، قلبها بن - روي في يده، فيما كان صوت مرشده الأمين، القائد لفي يتردد في رأسه، كما هو الحال في بداية كل تحقيق. "بناء القضية، يا آري، أشبه بإعداد سلسلة معدنية. تبدأ بجريمة وإلماعة، ومن هناك تجمع الحلقات؛ حلقة بجانب الأخرى، وإلماعة بجانب الأخرى، وتزداد السلسلة طويلاً حتى توصلك إلى مرتكب الجريمة الذي تبحث عنه. أعدّ سلسلة جيدة فتعدّ قضية جيدة".

كانت قصاصة ورق استمارة المكتبة هي الحلقة الأولى في السلسلة. وتساءل بن - روي عما ستؤدي إليه.

سأل حاملاً الورقة: "هل لدى أحدكم أي فكرة عن المكتبة التي تعود لها هذه الاستمارة؟".

كان هناك تحريّان في الغرفة: يوي زلبا وشيمون لوتزيتش، وكلاهما يعملان على قضية طالب اليشيفا المطعون. لم يسبق للوتزيتش أن قارب مكتبة في حياته. أما زلبا فكان مولعاً بالقراءة، لذا دنا من بن - روي وتناول الورقة منه. "المكتبة الوطنية"، قال من دون تردد. "في جيفات رام".

فأوما بن - روي برأسه، واستعاد قصاصة الورق، وبحث عن المكتبة في محرّك البحث غوغل، وحصل على رقم الهاتف. وبعد أن تمكن من التحدث إلى شخص ما في قسم خدمة القراء، شرح له الوضع وأرسل له عبر البريد الإلكتروني صوراً للمرأة المتوقّاة، محدّراً الرجل في الجانب الآخر من الخط بأن المنظر مريع. وبعد دقيقتين، ورده بريد إلكتروني يتضمن الاسم: ريفكا كلينبرغ. إنها إسرائيلية يهودية كما يبدو وليست أميركية بالتأكيد. فدوّن بن - روي الاسم على عَجَل. لقد حصل على الحلقة الثانية.

"إنها صحافية"، قال أمين المكتبة المدعوّ آشّر بلوم والذي بدا مصدوماً بصفة خاصة؛ ولم يكن ذلك أمراً مفاجئاً نظراً لحالة الجثة. "لقد استخدمت المكتبة عدة مرات. أظن أنها تعمل لصالح هآرتس".

لم يعن له الاسم شيئاً لأن بن - روي كان من قراء صحيفة ידיעות أحرونوت. ودوّن معلومة أخرى. الحلقة الثالثة.

"هل تملك تفاصيل عن هويّتها؟".

تمكن أمين المكتبة من إعطائه عنوان كلينبرغ، وبريدها الإلكتروني، ورقم هاتف منزلها، وتاريخ ولادتها؛ كانت في السابعة والخمسين من عمرها. ولم يكن لديهم رقم هاتفها المحمول؛ "علماً أنها كانت تحمل هاتفاً محمولاً. كنا نجد أنفسنا على الدوام مضطرين إلى الطلب منها أن تتوقف عن استخدامه في قاعة المطالعة". ولا تفاصيل عن أقرب الأنساب.

سأل بن - روي: "هل تعرف متى زارت المكتبة للمرة الأخيرة؟".

"كانت هنا في الأسبوع الماضي بالتحديد"، قال الرجل. "رأيتها في قاعة المطالعة العامة قرب الأجهزة التي تقرأ الميكروفيلم. لا أعرف إن كان أي من زملائي قد رآها بعد ذلك. يمكنني السؤال إن أردت".
قال بن - روي: "قُم بذلك رجاءً".

حريش للحظات، ومن ثم قال: "هل لديك أي فكرة عما كانت تبحث عنه على الأجهزة التي تقرأ الميكرو فيلم؟".

أخبره الرجل أنها كانت تقرأ شيئاً ما من أرشيف الصحف المتوافرة في المكتبة كما يبدو، وهو ما لم يتمكن الرجل من تحديده. إنه أمر مؤسف. فأمور صغيرة مماثلة تؤدي إلى ذهنة أي شيء آخر، ثم شكره وأنهى المكالمة. في الممر، كان آموس نامير واقفاً عند جهاز ترديد الماء. فدوّن بن - روي اسم الضحية والتفاصيل الأخرى على ورقة منفصلة، ثم لوّح له للاقتراب، وسلّمه المعلومات. وفي أثناء قيام نامير بنقل المعلومات إلى بقية أعضاء الفريق، اتصل بن - روي بناتان تيرات، وهو صحافي صديق في هارتس. كانا قد أدّيا خدمتهما العسكرية معاً وبقيا على اتصال، متبادلين المعلومات؛ فيمرّر بن - روي القصة غير المألوفة لتيرات، فيما يزود تيرات بن - روي بمعلومات سرّية كلما توافرت له، وكان يقوم بذلك مرة واحدة على الأقل في الأسبوع. "نحن تحرّون إلا أننا أفضل في قواعد اللغة". اعتاد تيرات أن يمازح بن - روي.

"بالتأكيد أعرفها"، قال تيرات عندما نقل له بن - روي اسم ريفكا كLINBERG. "كانت تعمل هنا. لماذا تسأل عنها؟".

تردد بن - روي، فقد كان يعلم أن ليه شاليف والرئيس غال يأملان بمروور القليل من الوقت قبل أن تنشر الصحافة القصة. فالصحافة ستنتشر هذه القصة بالتأكيد، وتُصوّر بن - روي أنه من الأفضل له نقل المعلومات لشخص حساس حيال متطلبات التحقيق. لذا زوّد صديقه برؤوس أقلام تكفي لوضعه في الصورة. قال تيرات: "كان الأمر محتمل الحدوث على الدوام كما أفترض، إذ لم تكن ريفكا محبوبة بالتحديد".

"ماذا تعني؟".

"حسناً، كانت صحافية تحقيقية جدّية. وأعني أنها كانت جدّية فعلاً. فقد كشفت النقاب عن الكثير من الأمور التي لم يشأ الكثير من الناس كشف النقاب عنها، وبات لديها عدد كبير من الأعداء. أعداء يتمتعون بالنفوذ".
انحنى بن - روي إلى الأمام وقد أثّر فضوله.

"هل لديك أي أسماء؟"

فأطلق تيرات ضحكة ساخرة وهو يجيب:

"من أين تريدني أن أبدأ؟ هل تذكر فضيحة العمولات الخفية المرتبطة بـ...؟"

كيف لين - روي أن ينسى؟ لقد هيمنت هذه الفضيحة على العناوين الرئيسية قبل سنوات قليلة. فقد كانت لجنة تخطيط تابعة للكنيست تختلس عشرات الملايين من الشيكولات من ائتلاف شركات بناء تدعمه روسيا. ووفقاً لمعلوماته، كان رؤساء العصابة يمحضون الوقت في ماسياهو.

"أهي من كشفت عن ذلك؟"

"إنها هي بالتأكيد. وأطلقت قوات الجيش النار على القصة. وسرقت حماس شرائط الفيديو. وموّل الليكود الفضيحة. كما كشفت عن طعام الأطفال المسمّم ذاك في العام... متى حدث ذلك... 2003. واللائحة طويلة. فلسطينيون، مستوطنون، يمينيون، يساريون، أجهزة أمنية، سياسيون... كانت تثير الفضائح كلما تسنّت لها الفرصة. صدقاً، يذهلني بقاؤها على قيد الحياة طوال هذه المدة."

"هل تعلم بأي تهديدات قتل محدّدة؟"

أطلق تيرات مجدداً تلك الضحكة الساخرة.

"قبل يومين فقط. لقد سجّلها مقسّم الهاتف. اعتقد أنها سجّلت رقماً قياسياً في تلقّي التهديدات بعد التهديد العشرين الذي وردها إثر افتضاح أمر تزايديك ماكر في ميا شاريم."

نقر بن - روي على الطاولة بقلمه. كان يأمل في تضيق نطاق التحقيق.

فانطلقاً مما يقوله تيرات، يبدو أن نصف إسرائيل والأراضي المحتلة تملك الحافز لقتلها.

"قلت إنها كانت تعمل في هآرتس."

"أجل، لقد فصلوها منذ عامين، أو ربما ثلاثة أعوام."

"السبب؟"

"حسناً، كانت بادئ ذي بدء كابوساً مزعجاً ولا يمكن العمل معها. فقد كانت فظة، ومولعة بالجدال، وتثور ثائرها إذا بدّلوا كلمة واحدة مما تكتبه. نحن

نتحدث عن الصراخ هنا. ولم تكن هناك مشكلة ما دامت تخدم مصالحهم. ولكن في أواخر أيامها..."

"لم تعد تخدم مصالحهم؟"

"في حالتها، بات الأمر أشبه... بإسعاد المتآمرين."

تردد صدى إشعال قذاحة في الجهة الأخرى، تلاه صوت استنشاق عميق؛ لا بد أن تيرات قد أشعل إحدى سجائره الجديدة.

"ابتكرنا هذه العبارة في مهنتنا"، وأضاف بعد توقف قليل. "متعقب الظل. في الأساس، يبدأ الصحافي بالكشف عن مؤامرات وإخفاء الحقائق في كل مكان. والقصة ليست مجرد قصة، فهناك أمر ما وراءها على الدوام، مؤامرة ما، بعض المكر. من الواضح أنك بحاجة إلى القليل من ذلك إذا أردت أن تكون صحافياً جيداً. وصدقي، كانت ريفكا جيدة تماماً عندما كانت أصغر سنّاً بالتأكيد. ولكن، في حين يميل معظمنا إلى استهلال الاستقصاء لرؤية ما الذي سيوصلنا إليه، كانت ريفكا تبدأ استقصاءها من الافتراض بأنها ستكشف النقاب عن مكيدة مزيلة، ومن ثمّ تعتمد إلى البحث عن الوقائع التي تدعم افتراضها. كانت تبدأ بطرح أفكار غامضة، وتنشر قصصاً مهمة. أعني، كلنا نعرف مدى حُرق ليرمان، ولكنني لا أستطيع أن أتخيله مترئساً مؤامرة لتفجير الحرم الشريف."

انطلاقاً من خبرته مع اليمين الإسرائيلي المتطرف، لم يكن بن - روي واثقاً من هذا الأمر، ولكنه احتفظ برأيه لنفسه.

"على كل حال، قررت القوى أنها أصبحت عائقاً فطردتها. لقد شعرتُ بالأسف لرحيلها. شعر الكثيرون منا بذلك. ربما كانت صعبة المراس، ولكنها عندما تزاول عملها تكون كصاروخ إكزوسيت. لا أحد يعالج قصة في العمق على غرار ريفكا كلينبرغ. لم تكن تعرف الخوف قط. قد يقول بعضهم إنها شجاعة انتحارية."

كان بن - روي يدوّن الملاحظات.

سأل: "أين ذهبت بعد مغادرتها؟ هل ذهبت إلى صحيفة أخرى؟"

قال تيرات: "لم يوظّفها أحد. لم تذهب إلى إحدى الصحف الوطنية الكبرى بالتأكيد. إنها عبء كبير. آخر ما سمعته عنها هو أنها تعمل لصالح مجلة في يافا تُعنى

بإدارة الحملات. تعرف هذا النوع من الأمور؛ فهي مجلة جديرة بالعناء، اليسار،
آلاف النسخات المباعة".

"هل لديك اسم؟"

"انتظر قليلاً".

سُمت ثرثرة في أثناء قيام تيرات بطرح السؤال في مختلف أنحاء المكتب.
ومرّت أكثر من دقيقة قبل أن يعود إلى متابعة كلامه.

"تدعى ضمير آمة، مما يحملني على الظن بأن تقديري الشخصي لما يتعلق
بالنسخات المباعة تفاؤليّ قليلاً. يقع مكتب المجلة في ريهوف أولي تريون".

زوّد بن - روي بعنوان ورقم هاتف، وباسم محرر المجلة أيضاً: موردخاي

يارون.

"وإذا كنت تبحث عن أقرب أنسبائها، فأنا على ثقة تامة بأن هذا النسب
غير موجود. فقد انتحر والداها بتسمم بالغاز؛ وهذا أمر محزن يدعو للسخرية قليلاً
نظراً إلى أنهما نجّوا من الحرب العالمية الثانية. لقد نُشرت مقالة عن ذلك، ولهذا
السبب ربما كانت شديدة التمسك بالوقائع".

"هل لديها أشقاء أو شقيقات؟ شريك؟"

"لم أسمع بوجود أيّ منهم. أتذكّر أنه كانت لديها هرّة".

وطلب منه بن - روي إطلاق بعض بالونات الاختبار علّه يتمكن من
الحصول على معلومات إضافية. وبعد أن اعتبر أنه بات لديه مقدار كافٍ من
المعلومات التي تمكّنه من متابعة التحقيق، قرّر إنهاء المكالمات الهاتفية.

قال: "أعلمني بأي شيء آخر قد تتوصل إليه".

"وأنت أيضاً أعلمني بأي تطورات مثيرة للاهتمام".

فشكره بن - روي وأنهى المكالمات. وبعد دقيقة، اتصل به تيرات مجدداً.

"هناك أمر واحد قد يكون أو لا يكون على صلة بالموضوع"، قال. "بعد

مغادرة ريفكا بوقت قصير، أتذكّر أنني كنت أبادل أطراف الحديث مع يوسي
بلمان، نائب المحرر، فقال لي إنه من بين كل تهديدات القتل التي تلقتّها، كان هناك
تهديدان فقط يُقلّقانها في الواقع. تلقت هذين التهديدين قبل سنوات قليلة، لذلك قد
لا تكون هناك على الأرجح أي صلة، ولكن...".

قال بن - روي: "تابع".

"أحدهما موجه من قبل مستوطني الخليل. كانت قد نشرت مقالاً عن مجموعة تابعة لهم من الشرطة الأهلية تقوم بإطلاق النار على سيقان أطفال عرب في الليل. فحصلوا على عنوان منزلها، وشرعوا بإرسال حقائب مليئة بطلقات نارية ولحم متعفن إليها. إنها موطن باروش غولدشتاين، لذلك عليك أخذ هذا النوع من الأمور بجديّة".

كان بن - روي يدوّن بعض الملاحظات.
"والآخر؟".

"وجه إليها بعد فضيحة ملتزر مباشرة. كان هناك بعض الروس الذين دفعوا الملايين كرشى لقاء حصولهم على مجموعة كبيرة من تعهدات البناء، ولكن ذلك لم يتحقق قط بسبب مقالة ريفكا. إنهم الروسكاي مافيا، كما يدو. وانتشر خبر قيامهم بالتخطيط للتخلص منها، وقد أحافها هذا الأمر كثيراً. حدث ذلك قبل أربع سنوات، فلماذا انتظروا حتى الآن؟ كما قلت، قد لا تكون هناك أي صلة، ولكنني أعتقد أن الإشارة إلى ذلك قد تكون جديرة بالعناء بأي حال".
أنهى تيرات المكالمات الهاتفية تاركاً بن - روي محققاً إلى الأوراق أمامه. كانت سلسلة الحلقات تزداد طولاً، وبدأ الأمر أكثر تعقيداً.

الأقصر

بعد وقت الغداء، عاد خليفة وساريا إلى الأقصر ودخلا المدينة من الشرق عبر طريق المطار. وفي أثناء انتظارهما أمام إشارات المرور عند ملتقى شارعي الكرّك والمطهري، فتح خليفة بابه فجأة وخرج.

قال: "أراك في المركز، هناك من أريد التحدث إليه".

أغلق الباب بقوة، وعبر شارع الكرّك. وبعد خمسين متراً، استدار ودخل ما بدا لساريا أشبه بمتجر حلوى صغير، وخرج بعد دقائق قليلة حاملاً كيساً ورقياً.
كان محمد ساريا قد غادر منذ مدة، وتحولت إشارات المرور من الضوء الأحمر إلى الأخضر، ومن ثم إلى الأحمر.

تغيّر كل شيء. هذا ما كان خليفة يفكر فيه كلما توجه إلى وسط المدينة في هذه الأيام. لم يبقَ أي شيء على حاله.

لقد تغيّرت مصر بالطبع مع رحيل مبارك وقدم حكومة جديدة. ولكن الأقصر كانت قد بدأت تحولّها الخاص قبل مدة طويلة من قيام ثورة كانون الثاني/يناير بتحويل مظهر السياسة الوطنية. فالمدينة التي كانت ذات مرة خليطاً عشوائياً من مباني مكسوّة بالغبار وشوارع تغصّ بحركة المرور بسبب سوء التخطيط المدني - أو بالأحرى غياب التخطيط - شهد مظهرها الخارجي إصلاحات راديكالية في السنوات القليلة الماضية. لقد أراد محافظ المنطقة إضفاء طابع عصري عليها، وهذا ما حصل عليه من دون اللجوء إلى عصر النفقات. فوسّعت الطرقات، وثبّتت أنظمة متطورة لتنظيم حركة المرور، وسوّيت مباني قديمة بالأرض وأنشئت مباني جديدة مكافئها. لقد هُدم القصر الشتوي الجديد الضخم زهري اللون والمؤلّف من ثماني طبقات، ورُصف ميدان أبو الحجاج، وأعيد تصميم متنزه الكرنك الرّحب، وخُفض كورنيش النيل بأكمله إلى مستوى النهر وحُوّل إلى منطقة للمشاة.

والأكثر إثارة من كل شيء إزالة مباني من رقعة مستديرة وواسعة من المدينة بين الكرنك في الشمال ومعبد الأقصر في الجنوب - على امتداد ثلاثة كيلومترات تقريباً - ممّا كشف عن الجادة الاحتفالية التي تقوم على جانبيها تماثيل أبو الهول، والتي كانت تصل المعابد ببعضها في الأزمنة الغابرة. ومن المباني العديدة التي تمّت التضحية بها لإفراغ هذه الرقعة الواسعة مبان يحملان لخليفة معاني خاصة: المركز القديم للشرطة بجانب معبد الأقصر، والمجمّع السكني الإسمنتي أغبر اللون حيث كانت عائلته تقيم.

لم يكن فقدان المركز ذا أهمية كبيرة بالنسبة إليه. فبالرغم من كل شيء، لقد قام ببعض الأعمال غير السارة هناك. ومن جهة ثانية، كان فقدان منزله مدعاة لتعاسة غامرة. ستة عشر عاماً من الذكريات والزمالات، والضحك والدموع، والفرح والألم هُدمت كلها كي تتمكن مجموعة من الغربيين مفرطي الوزن من التقاط صور فوتوغرافية لمشهد جميل. لقد أحب خليفة على الدوام آثار بلده، ولو لم تحمله الحاجة إلى المال على دخول سلك الشرطة لانتهى به الأمر بالتأكيد بالعمل

في مصلحة الآثار الفنية القديمة. وها هو يشعر، وللمرة الأولى في حياته، بالاستياء من تلك الآثار. آلاف الأشخاص أُجبروا على مغادرة موطنهم، وقلبت آلاف الحيوانات رأساً على عقب، ولكن لأي سبب؟ بسبب صف من تماثيل أبو الهول المستخرجة بطريقة غير ملائمة، ونصفها نسخ إسمنتية طبق الأصل. إنه جنون؛ جنون السلطة. وكما هو الحال على الدوام في مصر - وفي كل مكان - أولئك الذين لا يتمتعون بأي نفوذ يدفعون الثمن.

استدار سالكاً شارع توت عنخ آمون الضيق الذي تقوم على جانبه دار عبادة سانت مريم للأقباط الأرثوذكس، والذي ينتهي عند مساحة ترابية واسعة مليئة بقمامة مبعثرة. وتمتد جادة أبو الهول مسافة طويلة إلى اليمين واليسار كما لو أنها جرح بعمق ستة أمتار يخترق قلب المدينة، أو حفرة خلفها تحطم طائرة ضخمة. والمساحة الترابية إحدى النقاط العديدة على امتداد الجادة التي لم يتم تنقيتها بعد، مما يجعل منها جسراً أرضياً لعبور الأخدود. توجه خليفة إلى شارع أهمس، وممر بجانب مبنى متداع ذي طلاء متقشر، ومصاريع محطمة، ورمز نصاري قبضي فوق بابه. وهناك لافتة على الجدار كُتبت عليها: "جمعية السامري الصالح للأطفال المعوقين". فصعد الدرجات الأمامية ودخل المبنى.

في الداخل، كان هناك فتى يجلس في الردهة على دراجة نارية من طراز دايون. ساقاه طويلتان نحيلتان، وظهره محدودب، وهو يتأرجح إلى الأمام والوراء مُزجراً كصوت المحرك. فمدّ خليفة يده إلى داخل كيسه الورقي، وأخرج لوح شو كولاته، وسلّمه إياه.

"أبحث عن دميانا"، قال. "دميانا بركات".

تأمل الفتى لوح الشوكولاته، ومن ثم انزلق عن الدراجة النارية من دون أن يقول أي كلمة، وأمسك بيد خليفة واصطحبه عبر باب إلى داخل غرفة جلوس كبيرة. كان هناك المزيد من الأولاد؛ بعضهم يجلسون على كراسٍ مدوّلة، وبعضهم الآخر على الأرض، فيما تمدد آخرون بفتور همّة على الأرائك وهم يشاهدون رسوماً متحركة على شاشة تلفاز قديم بالأسود والأبيض. وهناك شاب جالس إلى طاولة يُطعم طفلاً لم تكن لديه ذراعان.

"هل يمكنني أن أساعدك؟".

"أبحث عن دميانا".

"إنها هناك في الداخل". وأوماً الشاب في اتجاه باب في الجانب البعيد

للغرفة.

أعطاه خليفة الكيس الورقي، وطلب منه توزيع محتوياته على الأولاد، ثم توجه إلى الباب، وكان الفتى محدودب الظهر لا يزال ممسكاً بيده. دفع خليفة الباب المفتوح جزئياً بعد أن قرعه. وكانت هناك امرأة نحيلة، رمادية الشعر، تضع حول عنقها قلادة ذهبية يتدلى منها رمز النصراري الديني، وتجلس مُسندةً مرفقيها إلى طاولة كبيرة عليها أغراض مبعثرة، ورأسها بين يديها. رفعت نظرها، وبدت عيناها حمراوين وراء نظارتها ذات الإطار الذهبي.

"يوسف"، قالت مُرغمةً نفسها على الابتسام. "يا لهذه المفاجأة الجميلة!".

"هل هذا وقت سيئ؟".

"في الوقت الحاضر، الوقت سيئ على الدوام. ادخل، ادخل".

رفعت نظارتها، ومسحت عينيها، وتوجهت نحو خليفة. ودخل الفتى معه.

"حلمي، لماذا لا تخرج وتلعب على دراجتك النارية".

تشبّث الفتى بيد خليفه، وأرغمت المرأة على الالتفاف وراء الطاولة لفصل يده

عن يد خليفة بلطف.

"هيا أيها الفتى الصالح. اذهب وقم بمغامرة ما".

وقبّلت يده واصططحبته إلى غرفة الجلوس، ثم أغلقت الباب وراءه.

"ماذا أعطيتَه؟". سألت فيما كانت تعود لتجلس وراء الطاولة.

"لوح شوكلاته".

فابتسمت.

"إنه يجب الأشخاص الذين يعطونه أشياء، ويتعلّق بهم. رجاءً، اجلس. هل

تُحضر لك شايًا؟ قهوة؟".

"أنا بخير، شكرًا"، قال خليفة، واضعاً الكرسي أمام الطاولة. "آسف على

تطفلي".

"لا تكن سخيًّا. تُسعدني رؤيتك. تُسعدني رؤيتك على الدوام. مرّ وقت

طويل".

تعود معرفة خليفة بدميانا إلى زمن بعيد. فإحدى أولى قضاياه بعد تعيينه في الأقصر وانتقاله من مسقط رأسه الجيزة، تناولت المجموعة القبطية في المدينة، وتمّ اختيار دميانا لتكون صلة الوصل بينهم. فبالإضافة إلى إدارتها شؤون جمعية السامري الصالح وست منظمات خيرية أخرى، ترأست المجلس البلدي، وحررت صحيفة صغيرة متعلقة بالمجموعة. ولو كانت لدى أيّ شخص آخر معرفة مستفيضة ومعتمّة بالعالم القبطي أكثر من دميانا بركات، لالتقاه خليفة.

"كيف حال زينب؟". سألت.

"بخير"، أجاب. "أفضل بكثير. إنها...".

وتردد غير واثق مما إذا كان باستطاعته إضافة أي شيء آخر. لم يكن يفكر بأي شيء آخر كما يبدو، فاكتفى بالإيماء برأسه وغيّر الموضوع.

"هل من جديد عن دار العبادة؟".

"ما زلنا نناضل، علماً أن النتيجة محتمة. السؤال هو متى، وليس إذا".

فعلى غرار منزل خليفة القديم، ومركز الشرطة القديم، والعديد من المباني الأخرى، حُدّد موعد لهدم دار عبادة سانت مريم من أجل جادة أبو الهول.

"على الأقل، هذا المكان آمن"، قال.

"ليس لمدة طويلة".

ورفعت ورقة.

"رسالة من مكتب المحافظ. إنهم يخفّضون التمويل إلى النصف، ويمكن القول إنهم يقفلون مؤسستنا. باستطاعتهم العثور على المال لإحداث حفرة في الأرض بطول ثلاثة كيلومترات، ولكن لأجل الأطفال العاجزين...".

رفعت نظارتها، ومسحت عينيها مجدداً.

"ذلك الفتى الذي أحضرك إلى هنا، حلمي، أمضى حياته هنا. لقد عثر عليه بعض المتطوّعين عندما كان لا يزال طفلاً. تركه والداه قرب مكب للنفايات، هل تصدّق ذلك. ماذا سيفعل؟ أين سيذهب؟".

وبدأ صوتهما يتهدّج.

"يا له من عالم قاس!"، تمتمت. "يا له من عالم قاس لا يرحم! ولكنك تُدرك ذلك، أليس كذلك يا يوسف؟".

قال خليفة: "أجل، أدرك ذلك".

ونظرا إلى بعضهما للحظات. وبعد ذلك، تنهّدت بعمق، ووضعت الرسالة جانبا، ثم بسطت راحتي يديها على الطاولة، وبدت جدية فجأة. "على كل حال، أنا واثقة أنك لم تأتِ إلى هنا لتُصغي إليّ مِحي. بماذا يمكنني أن أخدمك؟".

بدّل خليفة جلسته على نحو غير مريح. فبعد ما أخرجه به للتوّ، بدا له من غير الملائم أن يطلب منها المساعدة وسط هذه الضائقة التي تمر بها. غير أنها قرأت ما يفكر فيه وابتسمت. "ما بالك يا يوسف؟ يعرف أحدنا الآخر منذ مدة طويلة. أفصح عما يجول في خاطرك".

"ليس الأمر بتلك الأهمية"، تتم. "باستطاعة ذلك...".

"يوسف!".

"حسناً، حسناً. أردت أن أسألك عن شيء له علاقة بالأقباط".

وضربت الطاولة بيديها.

"هاتِ ما لديك".

"تصل كل الأخبار إلى مسمييك. هل سمعتِ مؤخراً بأي نشاط معادٍ لهم؟ هجمات؟ تخريب؟".

"يتعرّض الأقباط للهجمات على الدوام. تعرف ذلك على غراري. في الأسبوع الماضي، تعرّض شخص في ناغ حمادي...".

"ليس في مصر الوسطى"، قال مقاطعاً إيّاها، "بل في هذه الأرجاء. في منطقة الأقصر".

فضاقت عيناها.

"لماذا؟ هل حدث شيء ما؟".

فأخبرها خليفة عن المزارع ومياه البئر المسمّمة.

قال: "لقد سُمّمت مياه ابن عمه أيضاً، يعتقد المزارع أن الفاعل شخص ما من القرية المجاورة، ولكن العمدة أنكر أي معرفة له بالأمر. كنت أتساءل فقط عما إذا كانت مشكلة محلية أم جزءاً من مخطط أوسع".

أسندت ظهرها لاهيةً برمز النصارى الديني الصغير المتدلي على صدرها. وكانت مروحة قديمة مدلاة من السقف تدور بتكاسل فوقهما، مبعثرة الحرارة في الغرفة ليس إلا.

"لم أسمع بأي شيء"، قالت بعد فترة طويلة من الصمت، "هناك الكثير من التوتّر في الشمال كما تعلم. ولكن، طالما كانت الأمور هنا هادئة تماماً، والحمد لله. كان هناك ذلك الشيخ الذي اعتاد إلقاء العظات في القرى، عمر أياً كان اسمه..."

قال خليفة: "... عبد الكريم".

"هو نفسه. لقد اعتاد إثارة المشاكل باستمرار، علماً أن معظم عظاته مناهضة للسامية وليس للنصرانية، كما أذكر. وقد وقع حادث منذ شهرين، فقد رُمي ماسح أحذية في النيل. كان قُبْطياً، ولكنني أعتقد أن للأمر علاقة بالمال أكثر منه بالدين".

وبعد ذلك، لزمت الصمت متحسّسةً رمز النصارى الديني بأصابعها. وشرع فتى بالبكاء في الخارج، منتجياً بصوت أجش بدا كما لو أنه يهزّ المسبني بكامله.

قالت أخيراً: "في الواقع، لا أستطيع التفكير في أي شيء. نحن أقلية، ولذلك نكون متيقّظين باستمرار، ولا سيما بعد تفجير الإسكندرية، وأعمال الشغب في إيمبابا. ولكن، حتى الآن لم نواجه أي مشاكل مماثلة لتلك التي حدثت في أماكن مثل فرشوت. ولم نواجه أعمال عنف بالتأكيد. هناك مسلمون لا يريدون الاختلاط بنا، وأشخاص من مجتمعي لا يريدون الاختلاط بالمسلمين، ولكن الجميع، بصورة عامة، يتعايشون بشكل جيد. وتبادل النظرات غير الودية من حين لآخر هو أسوأ ما يحدث. صحيح أن دار عبادتنا ستُهدم، ولكنهم يجرفون مساجد أيضاً، لذلك لا يمكننا إلقاء اللوم على عدم التساهل الديني".

قال خليفة: "من يديرون شؤون مدينتنا هم الأغبياء دون سواهم".

"وهناك أمر آخر".

قُرّع الباب، وأقحم الشاب الذي كان خليفة قد رآه من قبل رأسه داخل الغرفة، وقال لدميانا إنه يتوقّع حضور موظفين من بنك مصر خلال دقائق.

قالت شارحة: "نحن نتقدّم بطلب للحصول على قرض. وأنا أشك في أن نحصل عليه، فلقد خذلنا كل المصارف الأخرى. ولكن علينا المحاولة. آسفة، عليّ اختصار هذا اللقاء".

فلوّح خليفة بيده قائلاً: "عليّ العودة إلى المركز".
وقفاً وخرجاً إلى قاعة الجلوس. كان النحيب صادراً عن الطفل الذي لم يكن يملك ذراعين، والذي أُسند إلى إحدى الأرائك كما لو أنه دمية كبيرة فقدت أطرافها. إنها فتاة، فكر خليفة في سرّه؛ علماً أنه لم يكن باستطاعته التأكد من ذلك. توجهت دميانا إليها، وحملتها من صدرها، وتحوّل البكاء على الفور إلى نشيج مكتوم. فهدهدت الطفلة، ثم سلّمتها إلى الشاب، وواكبت خليفة إلى بيت السلم في الخارج. كان الفتى محدودب الظهر قد اعتلى الدراجة النارية مرة أخرى، وفمه الأكبر حجماً من المعتاد ملطّخ بالشوكولاته. وعندما رآهما، نزل عن الدراجة وأمسك بيد خليفة مجدداً.

"هل تمنعين إن طلبت منك طرح بعض الأسئلة في الحوار؟". سألتها خليفة
خلال عبورهما الرّدهة إلى الباب الأمامي. "ربما سمع أحدهم بأي شيء".
"بالطبع لا. سأعلمك بما أتوصل إليه".

توقفاً عند المدخل. في الخارج، هبّت ريح فجائية ملأت الجوّ بالغبار والرمال.
"سررتُ برؤيتك يا دميانا. وآسف بشأن تمويلك".
قالت أخيراً: "لا تقلق علينا، سنتخطى الخنة. نحن في رعاية الله".
قال: "سأوجّه رسائل بالبريد الإلكتروني إلى عدد قليل من الأشخاص، وربما أتمكن من مساعدتك".

"شكراً لك. ورجاءً، أبلغ زينب أننا نفكر فيها".
وتردّدت، ومن ثم تقدّمت خطوة في اتجاهه قائلة:
"يوسف، أردتُك أن تعلم...".
غير أنه رفع يده لإسكاتها، وأفلت يده الأخرى من قبضة الفتى، وأنزلهما إلى كفّليه، ثم وضعهما مجدداً على كتفي الفتى المشوهتين قائلاً:
"هل تحب ألعاب الخفة يا حلمي؟".
لم تردّ أي إجابة.

"هل أريك بعضاً منها؟".

أوما الفتى بوهن. فألهى خليفة الفتى بنظراته، ثم أخرج بهدوء لوح شوكلاته مارس كان قد وضعه في جيبه ليتناوله في طريق العودة إلى المركز، ورفعته وراء الظهر المحدودب.

"أبرا - كادابرا!"، همس متظاهراً بسحب لوح الشوكولاته من أذن حلمي. فضحك الفتى من شدة السرور. وكان لا يزال يضحك عندما خطا خليفة نحو الخارج، وانطلق في الشارع سيراً على الأقدام.

القدس

أجرى بن - روي ثلاثة اتصالات هاتفية إضافية قبل التوجه إلى شقة ريفكا كلينبرغ.

لقد اتصل أولاً بماتريون - أعام، وهي المجلة التي عملت لصالحها في يافا. وتلقى المجيب الآلي الاتصال، فترك رسالة إضافةً إلى رقم هاتفه المحمول، وطلب منهم الاتصال به في أقرب وقت ممكن.

واتصل بعد ذلك بشركة طيران العال. فحقيبة السفر التي عثروا عليها في دار العبادة توحى بأن الضحية كانت في طريقها إلى مكان ما، أو عائدة من مكان ما؛ غير أنه لم يكن بالإمكان تحديد وجهتها لأن الملابس الموجودة في الحقيبة نظيفة. وكان قد عثر بين ثيابها على زوج من الجوارب الجديدة الطويلة والضاغطة؛ مما يجعل من المنطقي على الأقل المراهنة بأنها تسافر جواً. إذ ما كانت والدته بن - روي لتحلم بالسفر جواً من دون جواربها المانعة للانسداد الوريدي. وطُرحت أمامه عشرات شركات الخطوط الجوية المحتملة، وكان يتعين عليه التحقق منها كلها إذا لم يُسفر اتصاله بشركة العال عن أي نتيجة؛ ولكن من البديهي بدء التحقيق انطلاقاً منها نظراً إلى كونها شركة النقل الوطنية في إسرائيل. وتمكّن من التحدث إلى شخص ما في المكتب الرئيس لشركة الطيران، ومن شرح الوضع له، والطلب منه التحقق من قوائم الرحلات الجوية بحثاً عن معلومات مرتبطة بريفكا كلينبرغ.

واتصل أخيراً بدوف زيسكي، وحصل على بريد صوتي.
"زيسكي، بن - روي يتكلم. عرفنا هوية ضحيتنا، وأنا بحاجة إليك لتعقب
بريدها الإلكتروني، وخطها الهاتفني الأرضي، وخطها الهاتفني المحمول. تركت كل
التفاصيل على طاولتك".

تردد، متسائلاً عما إذا كان يُفترض به قول أي شيء آخر، ومنح الرجل
بعض التشجيع كما طلبت منه ليه شاليف. غير أن ذاك لم يكن أسلوبه في التعاطي
مع الآخرين، وشرع بإلقاء المكاملة بعبارة "أراك لاحقاً" المقتضبة، ولكنه أعاد الهاتف
إلى أذنه مجدداً وأضاف:

"إضافةً إلى ذلك، عندما تكون في المجمع، قدّم لي صنيعاً وقم بزيارة
بتروسيان، آرمن بتروسيان. لقد تحدّثُ إليه في وقت سابق، وهو يقول إنه لا
يعرف شيئاً، ولكن القيام بمحاولة أخرى يكون على الدوام جديراً بالعناء. كُلّي
رغبة في رؤية ما يمكنك الحصول عليه منه".

تردد مجدداً، ثم أنهى المكاملة بعد أن تتم عبارة "حظاً سعيداً"، والتقط سترته
وغادر.

كانت شقة كلينبرغ تقع في مجمع سكني عند زاوية شارعَيها - إشكول
وها - أمونيم. قامت دورية تابعة للشرطة كانت متوجهة في ذلك الاتجاه بإقلاقه.
ترجل بن - روي قبل الوصول إلى السوق، وشقّ طريقه في اتجاه قناطر مسقوفة.
إنه يوم الجمعة والمكان مزدحم، والكل مندفع لتخزين المؤن قبل حلول يوم السبت:
فاكهة، خضار، لحوم، أسماك، أجبان، حلاوة طحينية. كان كل كشك مُحاطاً
بجُمهرة من المتسوّقين، من بينهم أفراد من الحاردي ببذلاتهم السوداء. لقد فُجر
المكان ثلاث مرات على مرّ السنين، ولا تزال الحشود تَؤمّه. لِمَ لا؟ ففيه أفضل
المنتجات الطازجة في القدس.

دخل مخبزاً، واشترى جبتي بوريكاس وحبّة سوفغانايوت، ومن ثم شقّ
طريقه عبر السوق وخرج من الجانب الآخر. وعندما وصل إلى المجمع السكني
عند أسفلها - إشكول - مبنى غير متميّز من ثلاث طبقات ذات شرفات
تغطيها النباتات، ومقهى في الطابق الأرضي - كان الطعام قد نفذ وتوقفت
معدته عن القرقرة.

كانت هناك لوحة هاتف داخلي على الجدار بجانب الباب الفولاذي والزجاجي للمجمّع، وتحت ميزوزاه بحجم سيجار هافاني. وبعد أن مسح يديه بسرّوالة الجينز، صعد بن - روي الدرج. كانت هناك أسماء قرب بعض الأجراس، فيما بعضها الآخر لا يحمل أي اسم. ولم يكن هناك وجود لاسم ريفكا كليبرغ. ضغط على الزر الذي يحمل اسم "دافيدوفيتش - البواب".

"كين".

كان الصوت صوت رجل كبير في السنّ كما يبدو.

"سيد دافيدوفيتش؟".

"كين".

"شالوم. أنا التحرّي آري بن - روي من مركز شرطة القدس...".

"أخيراً وصلت إلى هنا!".

"عفواً؟".

"لقد أجريتُ اتصالاً هاتفياً منذ أربعة أيام. شِعِلوهيم ياعا زورا؛ ليحمنا الله. إذا كانت الشرطة تعمل على هذا النحو فلا عجب أن ينزلق البلد إلى حفرة مليئة بالغائط".

لم يكن بن - روي يملك أي فكرة عما يتحدّث عنه الرجل.

"أنا هنا من أجل السيدة ريفكا كليبرغ".

"أعرف من تكون، ليس عليك أن تخبرني!". وبدا الرجل مغتاضاً. "انتظر، سأدخلك".

سُمع صوت طقطقة صادر من لوحة الهاتف الداخلي، ثم فُتح الباب، وكان هناك صوت جرّ قدمين في المدخل تلاه صليل الأقفال. وحين فُتح الباب الأمامي، وجد بن - روي نفسه ينظر إلى رجل قصير القامة، في طور الصلح، ينتعل خُفّين صوفيّين، ويعتمر قبعة خاصة بالرجال اليهود. ولسبب ما، كان يضع شارة "انتخبوا شاس"، علماً أنه لم تكن هناك انتخابات وشيكة.

سأل بغضب: "إذاً، ما الذي أحرّك؟".

"أعتقد أن هناك خطأ ما"، قال بن - روي. "أنا هنا بسبب...".

"التهديدات. أعرف. أنا من اتصلت بك، تذكر. أو في!".

كان بن - روي يتعرّض للمقاطعة.
"هل هدّد أحدهم السيدة كلينبرغ؟".
"ماذا؟".

"هل اتصلت بالشرطة لأن أحدهم هدّد السيدة كلينبرغ؟".
"ما الذي تتكلم عنه؟ دا فوك! كلينبرغ هي التي هدّدتني! قالت إنها ستقتلني،
تلك الساقطة المجنونة! أنا البواب، وعليّ المحافظة على نظافة هذا المكان. هرّها
يتغوّط على فسحة الدرج، ولديّ كل الحق بالتذمّر. حدث ذلك في الوسط تماماً،
وكان روثه بحجم قبضة يدي! لو كنت أملك مسدساً...".
قال بن - روي: "قُتلت السيدة كلينبرغ ليلة أمس".
فأسكتته هذا النبأ.

"اكتشفت جثتها هذا الصباح. لقد عثرنا على عنوانها للتوّ".
وقف الرجل هناك وهو يطرف عينيّه، ويحرّك قدماً تلو الأخرى بشكل متناقل.
"بحجم قبضتي"، كان ذلك كل ما تمكّن من قوله. "وسط فسحة الدرج تماماً".
شرح بن - روي عن حاجته إلى إلقاء نظرة على شقة الضحية. متمتماً، جرّ
البواب قدميه لإحضار المفاتيح العمومية. وعندما حصل عليها، ضغط على زرّ
خاص بجهاز توقيتٍ للضوء موجود على الجدار، وواكب بن - روي إلى الطوابق
العلوية.

قال في أثناء صعودهما: "كانت امرأة صعبة المراس، لا أقصد التقليل من
احترامها، وآسف لما حدث لها، ولكنها كانت امرأة صعبة المراس. لم يكن يُفترض
بالسكان إيواء حيوانات أليفة، فهذا الأمر مناقض لعقد الإيجار. ولكنني غضضت
الطرف. أبقيه في شقتك، قلتُ لها. أبقيه في الداخل ولن أقول شيئاً. ولكنها لم
تفعل وتغوّط على فسحة الدرج. وعندما احتججت انفجرت غاضبة! ويا له من
غضب! يا للسان تلك المرأة! افعل هذا، افعل ذاك! لا تتدخل في شؤومي! عار
عليها. كانت امرأة مقبحة، ومثيرة للاشمئزاز. لا أقصد التقليل من احترامها".
بلغا الطابق العلوي الأخير. وضغط دافيدوفيتش على زر المصباح، وتوجّه إلى
باب في الطرف البعيد عن الدرج؛ مبطناً خطواته في أثناء تقدّمه ليشير لبن - روي
إلى المكان الذي تغوّط فيه هر كلينبرغ بالتحديد.

همهم: "كان بحجم قبضة يدي".

كان للبواب منظار وقفلان من طراز مورتيس، أحدهما في الوسط والآخر في مكان أعلى. تلمّس البواب القفل العلوي وأدخل فيه مفتاحاً، ولكنه أدرك أنه المفتاح الخاطئ وجرب مفتاحاً آخر، وشرع بإدارته. "تمهل".

أمسك بن - روي يد البواب وأعادته خطوة إلى الوراء. لقد لفت أمر ما على الأرض انتباهه. كسرة عود ثقاب، بطول يقلّ عن سنتيمتر واحد، ملقاة على البلاط عند أسفل الباب. بمحاذاة الإطار، فانحنى والتقطها. قد لا تكون ذات أهمية. ولكن، استناداً إلى ما أخبره به ناتان تيرات، كانت كلينبرغ تملك سبباً لكي تصاب بالذهان الارتيابي. فخدعة عود الثقاب عند الباب حيلة كلاسيكية يعتمدها المصابون بالذهان الارتيابي. تبتوا كسرة صغيرة من عود ثقاب بين الباب والإطار عندما تخرجون، وإذا فتح الباب فسيقع عود الثقاب، وستعلمون بوجود أحدهم في الداخل.

"هل فتحت هذا الباب في الساعات الأربع والعشرين الماضية؟".
صاح البواب: "هل أنت مجنون؟ بعد تكلمها معي بتلك الطريقة؟ لم أقرب من تلك المرأة اللعينة!".

"هل يملك أي شخص آخر مفاتيح لهذه الشقة؟".
"أشك في ذلك. لقد عانيتُ ما يكفي من المشاكل لمنعها من الحصول على هذه المفاتيح. يا سيّدة كلينبرغ، قلت لها، أنا البواب، الأمر مذكور في العقد، يجب أن تكون لديّ مجموعة احتياطية من المفاتيح في حال حدوث حريق، أو تسرب في الغاز، أو...".

لم يكن بن - روي يُصغي. فهو لم يعثر على أي مفاتيح بين أغراض الضحية، مما يعني أنه إذا قام أحدهم بدخول الشقة فهناك احتمال قوي...

سحب هاتفه المحمول واتصل بليه شاليف، وطلب منها إرسال خبراء جنائيين إلى الشقة بأسرع ما يمكن، وبعض العناصر النظاميين لأخذ إفادات سكان المجمع. وعندما أنهى المكالمة، أخذ المفاتيح من البواب وفتح الباب بنفسه، محتسباً من عدم لمس أي شيء. وفاحت رائحة ثياب متسخة وغير مغسولة. ورائحة روث حررة من الشقة.

"أه في"، تتمم السيد دافيدوفيتش.

ظهر أمامهما ممر مُظلم مكسو بالفلين مع أبواب مفتوحة جزئياً من الجانبين، وما بدا أنها غرفة جلوس في آخر الممر. كان هناك هرّ مُفرط الوزن ومرقش جالس وسط الممر، ويوجد جرس حول عنقه. حدّق إليهما، ومن ثم توارى داخل غرفة الجلوس مُحدثاً رنيناً مرتفعاً.

قال السيد دافيدوفيتش بوجه متجهّم: "يا لهذه القذارة!".

كان هناك مفتاح كهربائي على الجدار، فسحب بن - روي منديلاً من جيّبه وضغط عليه. ألقى نظرة في أرجاء المكان، ومن ثم شكر البواب لمساعدته، ودخل وأغلق الباب. في الخارج، كان بالإمكان سماع السيد دافيدوفيتش وهو يتأفّف من الهرة وعقود الإيجار، ومن كيفية انزلاق البلد إلى حفرة مليئة بالغائط.

ما صدم بن - روي على الفور هو مستوى الأمن في الشقة. فبالإضافة إلى منظار الباب والقفلين من طراز مورتيس، كانت هناك في الجانب الداخلي من الباب سلسلة معدنية ومزلاجان - علوي وسفلي - وقارورة رذاذ جّوز الطيب على رف قرب الباب. من الواضح أن كلينبرغ كانت امرأة مذعورة.

عبر الممرّ دافعاً الأبواب المفتوحة برفق بواسطة قدمه. كان المكان في حالة من الفوضى؛ زريبة حقيقية. إنها حالة عدم ترتيب تسببت بها المالكة، قال في سرّه، وليست فوضى أحدثها شخص ما في أثناء بحثه عن شيء ما في الشقة؛ علماً أنه لم يكن واثقاً من ذلك. وفي المطبخ، وجد أطباقاً تحتوي على طعام هررة لم يتم تناولها بأكملها، وهناك روث هررة في الحّمّام، وملابس مبعثرة على أرض إحدى غرفتي النوم، وأكداس من اللعب الكرتونية في الأخرى.

كانت غرفة الجلوس - التي يتضاعف حجمها بعد أن تفتح على مساحة إضافية؛ حيث يوجد المكتب - في حالة من الفوضى بصفة خاصة، وتكاد لا تتوافر فيها بوصة واحدة غير مليئة بأكداس صغيرة من الورق والكتب والمجلات والصحف. "كصاروخ إكزوسيت لا يرحم" هذا هو التعبير الذي اعتمده ناتان تيرات لوصف مهارات الصحافية. ويمكن قول الشيء نفسه، كما يبدو، على طريقتهما في تدبير شؤون المنزل. سيتطلب منه تدقيق النظر في كل شيء أياماً، لا بل أسابيع من عمل فريق كامل.

"رزين"، تتم في أثناء معاينته حالة الشقة. "تباً".

كان هناك باب زجاجي - مع فتحة للهررة - يؤدي إلى شرفة حيث استلقى الهرّ وقد التفّ حول نفسه على كرسي منحني الظهر إلى الوراء. وتوجد طاولة بجانب الباب عليها أكداش من النسخات المصورة، وقصاصات الصحف، ونشافة جلدية الظهر، ورولودكس، وقاموسان، ومُعجم، وكوب من الخزف مليء بأقلام البيرو، إضافةً إلى طابعة ومودم. لم يكن هناك أي جهاز كمبيوتر. جلس بن - روي القرفصاء وألقى نظرة تحت الطاولة. لم يتمكن من رؤية أي تمديدات سلكية تكون مُرفقة عادة مع جهاز كمبيوتر مكتبي، مما يوحي بأن كلينبرغ كانت تستخدم جهازاً حضنياً. أخرى بحثاً سريعاً في أنحاء الشقة، ولكنه لم يعثر على أي جهاز حضني. ربما كان مدسوساً في مكان ما وأغفله، وربما كان يخضع للتصليح، أو ربما أخذه القاتل من هنا، أو من حقيبة كلينبرغ في دار العبادة. إنه يعتقد أنه أخذ؛ علماً أنه لم يكن بالإمكان التأكد من صحّة ذلك.

أخرج قلمه، وبحث بواسطة عَقِبِه بين الأوراق الموجودة على الطاولة كي لا يلمس أي شيء. كانت هناك نسخات مطبوعة وقليلة عن الأرمن ودار عبادة سانت جيمس؛ وهي أمور متعلقة بموضوع البحث علماً أن المعلومات بدت عامة، إضافةً إلى مواد مرتبطة بالبغياء وصناعة الجنس الإسرائيلية، بما في ذلك عدة كتيّبات عن هذا الموضوع بعنوان الخط الساخن للعمال المهاجرين. وهناك نسخات عن الماتزبون - أعام، وهي المجلة التي كانت كلينبرغ تعمل لصالحها، بالإضافة إلى أطلس وُضعت مؤشّرتة عند خارطة لرومانيا، وخرائط منفصلة مفتوحة عن إسرائيل ومصر، وقصاصات عشوائية عديدة عن كل ما يتعلق بالتسلل إلى ملفات الكمبيوتر، مروراً بالأوسمة العسكرية البريطانية، ووصولاً إلى علم النفس المرتبط بالإساءة إلى الأطفال وصهر الذهب (هناك ثلاث نسخات متعلقة بهذا الموضوع). لقد بدت عشوائية تماماً وخالية من أي مغزى أو رابط. وإذا كانت هناك إلماعات، فلا فكرة لديه البتّة عن ماهيّتها أو عن كيفية تفسيرها. فالأمر أشبه بالبحث عن إبرة في كومة قشّ، لا بل إنه أسوأ من ذلك: الأمر أشبه بالبحث عن إبرة في كومة قشّ في حين أنكم لا تعرفون في الواقع كيف تبدو الإبرة.

أمضى ثلاثين دقيقة باحثاً في أنحاء الغرفة بين رفوف الكتب الممتدة من الأرض إلى السقف، وفي خزانات الملفات المحشوة بكاملها بمزيد من الأوراق والقصاصات. ومن ثم، وبعد بحث بواسطة عقِب القلم، انتقل إلى غرفة النوم: سرير غير مرتّب، ملابس مبعثرة على الأرض، ست قناني حبوب على خزانة تحتوي على أدراج، لوحة غير احترافية لامرأة شقراء الشعر رُسمت بالألوان المائية على ورقة زرقاء باهتة وثُبَّت إلى الجدار بشريط لاصق.

على الطاولة بجانب السرير، كانت هناك ثلاث صور فوتوغرافية موضوعة في أطرٍ بربليكس، وهي الصور الوحيدة التي رآها في الشقة. فاختى لإلقاء نظرة عن قُرب. في إحدى الصور مجموعة من عشرين شابة يُطلقن ابتسامات عريضة أمام آلة التصوير، مُرتديات بذلات عسكرية، ومعتمرات قُبَعات مزوَّدة بأغصان للتمويه؛ كنّ على الأرجح يؤدين خدمتهنّ العسكرية. كانت ريفكا كلينبرغ واقفة إلى يسار المجموعة، باسطة ذراعها على كتف امرأة جذابة تضع نظارة شمسية؛ نسخة أصغر سنّاً من كلينبرغ بينيتها الجسدية المثلثة وشعرها المتجعّد. وفي الناحية الخلفية إهداء: "إلى ريفكا العزيزة. أياماً سعيدة!".

في الصورة التالية رجل وامرأة بالأسود والأبيض واقفين وظهراهما إلى البحر، وأحدهما ممسك بيد الآخر. كانا أشبه بالأشباح، وكانت تبدو على وجه كلّ منهما نظرة سبق له أن رآها على وجوه عدد كبير من الناجين. إنهما والدا كلينبرغ، كما افترض.

في الصورة الثالثة تظهر فتاة صغيرة في السن في الثامنة أو التاسعة من عمرها تقريباً، تُطلق ابتسامة عريضة. شعرها خروبيّ اللون مصفور، والصفيرة متدلّية من مؤخر رأسها، ووجهها الشاحب مغطى بالنّمش. وفي الناحية الخلفية كلمات مسجّعة أو ما يشبه الشّعْر المكتوب بالإنكليزية أكثر منه بالعبرية ويخط طفولي مُتقن:

سالي، كاري، ماري - جاين،

ليزي، أنا، ما اسم الأخرى؟

هانا، أمير، ستيل، لي،

خبّئني ولا تدعن أحداً يرى،

جني، بني، آليس، سو،

وراشيل فقط هي الصادقة.

ألقى بن - روي نظرة سريعة على اللوحة المعلقة على الجدار، وحول نظره مجدداً في اتجاه الصورة. هناك أمر ما في شأن الصورتين يحمله على الاعتقاد بأنهما لا تنتميان إلى الشقة لأنهما لا تتسحمان مع ما سمعه عن ريفكا كلينبرغ. ربما يكون من الأجدى النظر إليهما من منظور معين، ومحاولة اكتشاف هوية الفتاة؛ لم تكونا تبدوان على علاقة مباشرة بالتحقيق. وبعد التحديق إلى الصورة لبرهة من الزمن، واصل مسح الشقة.

حصل على استراحته الأولى في المطبخ، في وعاء القمامة. لقد توقع أن يجد فيه شيئاً مفيداً، فداس على القطعة البلاستيكية أسفل مقدمة حذائه الرياضي ففتح الغطاء. كان مليئاً بالقمامة حتى ثلاثة أرباعه: عبوات مشروبات غازية، مرطبان قهوة إليت، كيس مشتريات متغصن من طراز مستر زيرو، علب تنكية فارغة من طعام الحررة، إضافة إلى تذكرة حافلة. كان قد حرص حتى الآن على عدم لمس أي شيء كي لا يترك بصمات أو أثاراً مادية قبل وصول الخبراء الجنائيين. ولكن الفضول أخذ منه كل مأخذ، فسحب التذكرة وفتحها. يعود تاريخها إلى خمسة أيام مضت، وقبل مقتل كلينبرغ. وهي تخص رحلة عودة من مitezبي رامون، وهي بلدة في وسط الثقب ذات طريق مسدود لا يؤدي إلى أي مكان آخر. هل من مغزى؟ لم يكن يملك أي فكرة، علماً أن هناك ما أوحى له بوجود مغزى. فحدّق إلى التذكرة، ومن ثم طواها ودسّها في جيبيه.

أخيراً، دخل الغرفة الاحتياطية التي منحتة الإجابة عن أمر ما كان يخيّره منذ شروعه بالبحث في غرفة الجلوس؛ غياب دفاتر المدونات.

فكل صحافي التقاه يملك دفاتر مدونات؛ ليس للاستخدام الفوري فحسب، بل دفاتر قديمة أيضاً. فعلى غرار رجال التحري، هناك على الدوام حاجة إلى إعادة التحقق من معلومات معينة كانت قد جُمعت في تاريخ سابق. كان تيرات يملك شقة مليئة بهذه الأشياء. وعاد بن - روي في الذاكرة إلى الوراء؛ إلى انفصال تيرات عن زوجته بعد أن رمت كمية كبيرة من دفاتر المدونات تلك في أثناء عملية التنظيف الربيعية.

لكنه لم يرَ أي دفتر في منطقة عمل كلينبرغ. وثبت له في النهاية أنها موضوعة في علب كرتونية داخل الغرفة الاحتياطية على صورة ملفات مرتبة بخلاف الفوضى

التي كانت تعمّ بقيّة أنحاء الشقة. إنها نتاج عمل ثلاثة عقود من ممارسة المهنة. كانت هناك مئات دفاتر المدوّنات، مزوّدة بتواريخ - بالعبرية والإنكليزية، لسبب ما - وموضوعة بحسب الترتيب الزمني للأحداث، عاماً بعد عام، حيث إنكم إذا أردتم العثور، مثلاً، على مدوّنات مرتبطة بمقالة وُضعت في نيسان/أبريل 1999، يمكنكم الوصول إليها على الفور. لقد استخدمت في مرحلة مبكرة أنواع قياسات الورق كافة: أيه4، أيه5، مزوّدة بسطور، أو غير مزوّدة بسطور، مقطّبة أو مجموعة بسلك لولبي. لقد آثرت في العقدَين الأخيرين استخدام دفاتر أيه4 السوداء نفسها المزوّدة بغلاف صلب وبسطور تفصل بينها مسافة واسعة.

من المحتمل أن تتضمن معلومات مفيدة؛ إنه أمر مفروغ منه، ولكن استخراجها سيتطلب قدراً كبيراً من الجهد؛ ليس بسبب وجود الكثير من الأمور فحسب، بل لأنّها مكتوبة بصيغة الاختزال أيضاً. لا بد من القيام بذلك، ولكن المعلومات غير المتوافرة هي التي أقلقت بن - روي أكثر من تلك المتوافرة. فبعد قيامه بعملية البحث، لم يتمكن من العثور على أي دفاتر مدوّنات أو كتب تغطّي الأشهر الثلاثة الأخيرة. فقلّب محتويات كل علبة، وأعاد تفحص غرفتي الجلوس والنوم من دون جدوى. لقد بدا الأمر كما لو أن الحياة الصحافية قد توقفت على نحو مفاجئ قبل اثني عشر أسبوعاً.

كان مرشده الأمين، القائد لفي المتمرس الذي زوّده بمعادلة التسلسل المنطقي لبناء التحقيق، قد منح بن - روي جوهرة أخرى من حكّمه تتناول كيفية سير الأمور في مهمة الحفاظ على الأمن: "آلام المعدة". فالآلام المعدة هي ما تشعر به عندما لا يسير أمر ما بشكل جيد خلال التحقيق في قضية ما، ولا يتلاءم مع تفاصيل الجريمة ككل. لم يكن وجود جثة ضحية مخنوقة وسط دار العبادة الكبرى أمراً ملائماً بالطبع، ولكن آلام المعدة لم تكن بسبب الجريمة بحد ذاتها بل بسبب المفارقات فيها؛ وغياب دفاتر المدوّنات مفارقة.

أما بالنسبة إلى الجهاز الحضي المفقود، فهناك تفسيرات محتملة. وقد أنبأته فطرته بأن قاتل كلينبرغ قد أخذ دفاتر المدوّنات؛ وهذا أمر يتسبب بألم جدّي في المعدة، لأن القاتل الذي يسرق معلومات مختزلة يختلف تماماً عن القاتل الذي يخنق امرأة ويسرق محفظة جيّها، ومفاتيحها، وهاتفها المحمول، وجهازها الحضي. إنه

انقطاع في التسلسل المنطقي للأحداث. انحنى في اتجاه إطار النافذة وحدّق إلى الخارج فوق السطوح مفكراً. وأمضى خمس عشرة دقيقة إضافية هناك قبل وصول فريق الخبراء الجنائيين.

لازم المكان نصف ساعة إضافية، متنقلاً في أرجاء الشقة في أثناء انكباب جامعي الأدلة ورافعي البصمات على عملهم في غرفة الجلوس. ولكنه لم يعثر على أي شيء مفيد، فتركهم في النهاية ليؤدوا عملهم، وتوجّه إلى الباب الأمامي. وعندما خرج إلى فسحة الدَّرَج، نادته فتاة من الفريق: "لا أعرف إذا كان هذا الأمر هاماً".

فعاد أدراجه. كانت واقفة أمام طاولة كلينبرغ، مشيرةً إلى النشافة جلدية الظهر. عندما وقف بن - روي أمام الطاولة قبل فترة وجيزة، كانت النشافة تحت الأوراق، ولكنه وجد الآن الأوراق جانباً.

في بادئ الأمر، لم يرَ ما كانت تشير إليه. كانت النشافة بيضاء باستثناء علامتين أحدثهما قلم ييرو وبقعة حبر أسود. وبعد أن انحنى وتفحص النشافة عن قُرب، رأى آثار كتابة على جانب التشيف اللين لا بدّ أن تكون كلينبرغ قد أحدثتها في أثناء قيامها بالكتابة على ورقة منفصلة. كانت معظم الكلمات غير واضحة ومكتوبة فوق بعضها، باستثناء كلمة واحدة تكرّرت مراراً وتكراراً، وظهرت في ثمانية أماكن مختلفة على الأقل من النشافة: فوسغي. "كانت تضغط على القلم في أثناء الكتابة كما يبدو"، قالت الفتاة. "وكما تعلم، يحصل هذا عندما تفكّر بأمر ما يزعجك حقاً".

فوسغي.

"هل تعني لك شيئاً؟". سأل بن - روي.

فهزت رأسها.

"وأنت؟".

هز بن - روي رأسه أيضاً. ليست كلمة بالعبرية بالتأكيد. وأخرج دفتر مدوّناته، وكتب الكلمة، وحدّق إليها للحظات، ومن ثم هز كتفيه، ووضع الدفتر في جيّبه، وتوجّه إلى الباب الأمامي. نادى من فوق كتفه: "حاولي العثور على منزل للهرة".

الأقصر

كان خليفة يعرف ثلاثة أثرياء فقط.

أحد هؤلاء هو صديق طفولته، وقد حقق نجاحاً في صناعة المواقع على الوب. والأخرى روائية أميركية من أصحاب الملايين أقام معها علاقة عابرة في أثناء زيارتها الأقصر بحثاً عن سلسلة بوليسية متعلقة بشرطة الأقصر (فكرة مثيرة للسخرة!)، وصديقه الثالث هو صهره حسني.

في طريق عودته إلى المركز بعد لقائه دميانا بركات، مرّ في وسط المدينة فتوقف عند مقهى للإنترنت، وكتب رسالتين للصديقين الأولين، شارحاً لهما المشاكل المالية التي تعاني منها صديقه، وسائلاً إياهما إن كان بإمكانهما تقديم المساعدة. لم يشعر بالارتياح في أثناء قيامه بذلك، فقد كان رجلاً معتدلاً بنفسه، ولم يعتد طلب المساعدة من أحد؛ ولا سيما المساعدة المالية. غير أنه لم يستطع إخراج صورة الفتى محدودب الظهر من مخيلته، وشعر بأنه يتعين عليه القيام بأمر ما. لم يتكبد عناء الاتصال بحسني. فصهره نائب رئيس أكبر شركة زيوت صالحة للأكل في مصر، ويُعرف عنه على نطاق واسع بأنه أكثر بُخلاً من واضعي المِلَاط بين أحجار الهرم الكبير.

أرسل الرسالتين عبر البريد الإلكتروني، ثم غادر المقهى، وجاب كورنيش النيل، محاولاً اتخاذ قرار في شأن التوجّه إلى مركز الشرطة الجديد في العوامية - وهو مبنى حديث نُقلوا إليه جميعاً بعد هدم المركز القديم - أو العودة إلى المنزل ببساطة.

في النهاية، لم يَقم بأي من الأمرين. كان من المتوقع لرئيسه، كبير المفتشين عبدول بن الحسني، أن يُلقِي إحدى محاضراته الطويلة والمملة عن العصرية بعد الظهر - "مصر الجديدة، الأقصر الجديدة، مركز جديد، قوة شرطة جديدة!" - ولكن بإمكانه غضّ الطُرف عنها. وإذا عاد إلى المنزل، فسيضطر للإصغاء إلى ثرثرة شقيقة زينب وزوجة حسني التي وصلت من القاهرة لتمضية اليوم عن التبرّج والتسوّق وأحدث الشائعات التي تتناول المجتمع الراقي؛ وتبقى مواعظ الرئيس أفضل في هذه الحالة.

لذلك، صعد بدلاً من ذلك على متن زورق مزوّد بمحرك وعبر النيل، واستقلّ سيارة أجرة إلى دير المدينة، وتسَلّق الجُرف الصخري، ماراً أمام مقدّم القرن وصولاً إلى مقعد التفكير.

كان يقصد ذلك المكان على الدوام عندما يريد أن يكون بمفرده مع أفكاره، وبعيداً عن كل شخص وشيء. إنها حافة صخرية ناتئة عند أسفل فلق قليل العمق تقع عند منتصف الطريق إلى أعلى القمة، وتُشرف على مناظر مذهشة في وادي الملوك، وفي اتجاه الشمال بعيداً؛ حيث يتوارى النيل والأراضي الزراعية والصحراء تدريجياً عن الأنظار وراء ضباب شاحب خال من أي ملامح. لقد اكتشف ذلك قبل سنوات عندما وصل إلى الأقصر، ودأب مذاك الحين على تسلّق القمة ونزولها، ولا سيما في الأشهر الثلاثة الأخيرة عندما كان يشعر بحاجة خاصة إلى الهدوء والوحدة.

كان التسَلّق شاقاً ويتطلب جهداً مضاعفاً في حرّ بعد الظهر، فوصل إلى المقعد لاهثاً. وبعد أن تسلّق المنحدر المكسوّ بالغبار بصعوبة، توجه إلى الحافة متأرجحاً، وجلس في ظل الفلق، شابكاً ذراعيه أمام صدره ومحدّقاً بالمناظر الطبيعية بقلب خافق. عندما انتقلوا إلى مدينة الأقصر، كانت الأمور تتبدّل في هذا الجانب من النيل أيضاً؛ ربما ليس بالسرعة نفسها، أو بالطريقة المثيرة نفسها، ولكنها تتبدل بالرغم من ذلك. فلقد جُرّفت في القرنه القديمة كل المساكن المتداعية المبنية بأجر طيني، والتي كانت متعنقدة كالفطر حول التلال الواقعة عند سفح الكتلة الجبلية الطيبيّة، فانتقل سكانها إلى منطقة سكنية خالية من أي ميزات في الطريف شمالاً (تمكّن من تمييزها بعيداً؛ صفوف مجمّعات سكنية منظّمة تماماً أشبه بثكنات عسكرية منها بالمنازل). وأصبحت الكتلة الجبلية نفسها، غير الطويلة جداً والتي تحتفظ بمظهرها المعهود كما في الأزمنة الفرعونية، منقّطة بمجموعة من مراكز الحراسة الإسمتية القبيحة المزوّدة بمولدات كهرباء، وصواري هوائيات للإرسال، وأنوار كشّافة. وفي الأسفل، في وسط وادي الملوك تماماً، توضع اللمسات الأخيرة على متحف جديد وضخم، وعلى مركز للزائرين دام بناؤهما عامين بتمويل من شركة أميركية متعددة الجنسيات، ومن المنتظر أن يتم افتتاحهما بعد أسبوعين، وهو ما أثار حفيظة الرئيس حسن؛ إذ ستحضر نصف الحكومة للاحتفال بالافتتاح كما يبدو.

لقد تحوّلت كل الأماكن والمناظر والنقاط المرجعية المألوفة التي يعرفها خليفة إلى شيء مختلف، وكان يتحوّل معها أيضاً؛ باستطاعته الشعور بذلك. فيوسف خليفة الذي ضحك منذ ستة عشر عاماً بسرور بالغ عندما اكتشف المقعد للمرة الأولى لم يُعد يوسف خليفة الجالس هنا الآن.

الكل يتغيّر مع الوقت بالطبع، ولكن الجوهر لا يتغيّر: المبادئ. لقد شعر خليفة بأن مبادئه قد تغيّرت وتصدّعت. ففي هذه الأيام، يكاد لا يعرف نفسه في بعض الأوقات؛ فمزاجه متقلب، وتنتابه سورات غضب لا يمكن تفسيرها، ويشعر غالباً بالعجز والإحباط والذنب.

لم يسبق له قط أن كان على هذه الحال. ففي الماضي، كان يتدبّر أموره على الدوام آيماً تكن الأعباء التي تضعها الحياة في طريقه - وهناك الكثير منها - ويأبى السماح لجور العالم بأن يُفقدّه اتزانه. ولكن، في هذه الأيام... هناك منازلهم المهذّمة، وبثر عطية المسّمة، وتمويل دميانا، والفتى الصغير على الدراجة النارية؛ تُحدِث مصاعب الحياة اليومية التي تعامل معها ذات يوم بشكل عاطفي شقوقاً أكثر عمقاً في أساساته المتصدّعة كما يبدو. فكل شيء يتداعى. لقد تساءل أكثر من مرة عما إذا كان هذا الأمر هو سبب شروعه بالقدوم إلى هنا على نحو متكرر. لم يكن حضوره لأجل السلام والسكون، بل لأجل الارتياح البسيط النابع من الشعور بالتواجد وسط الصلابة والرسوخ.

فتح غطاء قنينة مياه البركة التي اشتراها في أثناء قدومه، وتناول جرعة، ومن ثم أشعل سيجارة ورجع إلى الورا في اتجاه الناحية الداخلية للفلق طلباً لمزيد من الظل. وإلى يساره، كان باستطاعته رؤية بقايا الآجر الطيني على أعلى تلة تحوت، وإلى يمينه الأطلال المبعثرة للمحطة التي كان عمال المدافن القدماء يتوقفون عندها في أثناء سيرهم اليومي من وادي الملوك وإليه. وكانت الجوانب الخارجية للصخور من حوله مغطاة بكتابات للعمال، وبعشرات النقوش التي تشير إلى لحظات وجيزة منقضية في الحياة كان كل جزء منها حقيقياً على غرار اللحظات التي يعيشها ولا تلبث أن تضع في التاريخ.

إحدى هذه الكتابات موجودة بجانب رأسه تماماً: الثلاثي حور محب، ورعمسيس الأول، وسي تي الأول، كانت هذه الكلمات منقوشة على الحجر الجيري

الأصفر من قِبَل شخص أطلق على نفسه اسم كاتب آمون، بِي، ابن إيؤ. وهناك رقم موضوع داخل دائرة - 817 أيه - خلفه وراءه عالم الآثار المصرية التشيكي ياروسلاف سيرني الذي اكتشف الكتابات في خمسينيات القرن الماضي.

كان خليفة يتساءل على الدوام عن ابن إيؤ. من هو؟ أي نوع من الأشخاص كان؟ هل كان لديه أشقاء وشقيقات؟ وزوجة وأطفال؟ هل كان سعيداً أم حزيناً؟ قوياً أم ضعيفاً؟ صحيح الجسم أم مريضاً؟ هل عاش طويلاً أم مات في سن مبكرة؟ أسئلة عديدة. لقد ضاع الكثير، وتحولت حياة بأكملها إلى خربشات قليلة على الناحية الخارجية للصخور الجيرية.

لقد صدمته في الآونة الأخيرة حقيقة سرعة زوال الأشياء. إنه الخلوّ من أي معنى. كان بِي ذات مرة كائناً بشرياً حياً يتنفس على غرار، وحياته قصة مليئة بالمواقف المثيرة، والأحاسيس، والعلاقات، والتغيرات. كان طفلاً، وغداً فتى، ومن ثم رجلاً، وربما أصبح بعد ذلك زوجاً ووالداً. لقد عاش حياة كاملة، وفجأة انتهت القصة وكل ما تبقى هو هذا النقش الصغير على الصخر. مجرد أجزاء، هذا كل ما تبقى. وأياً يكن عدد الأجزاء التي تجمعونها، وأياً يكن عدد الكلمات والجمال والمقاطع، لن تتمكنوا أبداً من معرفة القصة. لن تعرفوا أبداً ذلك الشخص تماماً، ولن تتمكنوا من إعادة التاريخ إلى الوراء. لقد زال كل شيء.

أخذ نفساً عميقاً من سيجارته، وأخرج محفظة جيبه. كان هناك جيب بلاستيكي داخلها، وداخل الجيب صورة فوتوغرافية يظهر فيها خليفة، وزوجته زينب، وأبناؤهما الثلاثة: بطّاح، علي، يوسف الصغير؛ إنهم فريق خليفة كما كانوا يدعون أنفسهم على سبيل المزاح. لقد التقطت الصورة في هذا المكان بالذات قبل عامين، حين تجمعوا بجانب بعضهم وحمل خليفة آلة التصوير أمامهم، مما يفسّر انحراف الزاوية قليلاً. كانوا يضحكون جميعاً، ولا سيما خليفة الذي كان يضع "علي" في حضنه ويبدل جهداً للمحافظة على توازنه. وبعد التقاط الصورة مباشرة، انزلق مع علي على المنحدر تحت المقعد مما جعلهم يضحكون أكثر فأكثر. لقد ضحكوا كثيراً حينها.

حدّق إلى الصورة، ومن ثم لامستها شفتاه ووضعها جانباً، وأسند ظهره وحدّق إلى المناظر الطبيعية الفاحلة من حوله.

القدس

عندما عاد بن - روي إلى الكيشل، كان دوف زيسكي جالساً في غرفة المكتب، ومنحنياً فوق الطاولة كما لو أنه تلميذ حانحام من نوع ما. كان يوني زلبا وشيمون لوتزيتش قد خرجا، لذلك كانا بمفردهما.

رمى سترته وجلس قرب الطاولة وسأله: "هل هناك أي تقدم؟".

أجاب زيسكي: "ليس تقدماً بكل معنى الكلمة، ستة أفقي، شخص شاذ".

ففتح بن - روي فمه، كان على وشك أن يسأله عن سبب قيامه بممارسة لعبة الكلمات المتقاطعة، في حين أن هناك جريمة قتل يتعين حلّها. وبعد إدراكه أن الأمر مجرد مُزاح، همهم بطريقة تنم عن التسلية. ربما يبدو الفتى مثل دانا إنترناشونال، ولكنه يملك على الأقل روح الدُّعابة. إنهم بحاجة إلى ذلك في شرطة إسرائيل. فمن دون روح الدُّعابة، سينتهي بهم الأمر متأففين وسئمين ومنغصين مثل آموس نامير. ومراكز الشرطة ليست المكان المناسب لذلك.

"إذاً، إلى أين وصلنا؟".

دار زيسكي حول كرسيه، وفتح دفتر مدوّناته المجلّد بفرو الخلد.

"تتبعُ الاتصالات الهاتفية التي أجرتها الضحية بواسطة هاتفها المحمول. لقد حصلتُ على خطها من بيليفون. يقومون بتحليل الاتصالات التي أجرتها في الأشهر الستة الأخيرة، ويجري الأمر نفسه بالنسبة إلى خطها الأرضي بيزيك واتصالاتها على البريد الإلكتروني. يبذل الجميع قصارى جهدهم قبل حلول الشّت، لذلك لن يبقى أي شيء معلقاً حتى يوم الأحد".

تأفّف بن - روي، ولكنه لم يُلحّ للحصول على نتائج مبكّرة. هكذا تجري الأمور في هذا الجزء من العالم؛ حتى التحقيقات المتعلقة بجرائم القتل تُعلّق يوماً واحداً للاستراحة.

"ماذا عن المجمّع؟". سأل ممرّاً نظره على العناوين الرئيسة الموجودة في صحيفة ידיעות /أحرونوت التي اشتراها في أثناء عودته من شقة كلينبرغ: فضيحة فساد حكومي، توقف تام لمخادّثات السلام، هابو - إل محاولات متكررة لتل أبيب في دّوري الأبطال، عنوان قديم، عنوان قديم. "هل وردت معلومات مفيدة؟".

قال زيسكي: "ليس الكثير، لم يتمكن البواب المناوب ليلة أمس من إضافة أي شيء في الواقع إلى الإفادة التي تقدّم بها. عبرت الضحية البوابة قرابة الساعة السابعة مساءً. يظنّ أن أحدهم قد دخل وراءها، ولكنه لم يكن منتبهاً في الواقع لأنه كان يتكلم مع زوجته عبر الهاتف. لا يستطيع بالتأكيد إعطاء أي نوع من الأوصاف. نأمل أن نحصل على المزيد من التفاصيل من كاميرات المجمع. لقد ذكر بالفعل أنه سبق له أن رآها قبل ذلك".

فنظر بن - روي إلى الأعلى.

"على غرار العديد من الأشخاص الآخرين. يبدو أنها كانت تزور المجمع مراراً في الأسبوعين الأخيرين أو الأسابيع الثلاثة الأخيرة".

طوى بن - روي الصحيفة وجلس بعد أن أثّر اهتمامه.

"أخبرني بالمزيد".

"حسناً، يظنّ الرجل الذي كان موجوداً ليلة أمس أنها زارت المجمع مسرّتين على الأقل. ويقول بواب آخر إنه رآها تدخل المجمع أربع أو خمس مرات. وهناك أيضاً رجل دين يدعى...".

وتحقق من دفتر مدوّناته محاولاً العثور على الاسم. فلوح بن - روي بيده بما معناه أنه ليس للأمر أهمية.

"بأي حال، قال إنها شاركت في القليل من العبادات، صباحاً ومساءً. ظنّ أنها ربما تكون في انتظار شخص ما، ولكن أياً من الأشخاص الذين تحدثت إليهم لا يتذكرون رؤيتها مع أحد. لا يزال العناصر النظاميون يتنقلون من منزل إلى منزل، وربما يتوصلون إلى نتيجة ما".

فأوما بن - روي برأسه، ناقرأ على الطاولة بأصابعه.

قال زيسكي: "تحدثت أيضاً إلى بتروسيان".

"وماذا بعد؟".

"منحني خمس عشرة دقيقة فقط، لذلك لم تكن مقابلة مفيدة. قال إنه لا يستطيع التصديق أن شخصاً ما من جماعته قد يقوم بأمر مماثل، ولكن لم يكن لديه أي شيء ليُطلعني عليه".

"هل صدّقته؟".

فهز زيسكي كتفيه.

"كان مستاءً من الأمر برمته. باستطاعتك رؤية ذلك في عينيه. لذي شعور...".

"بأنه يكذب؟".

"بل ما هو أكثر من ذلك... إنه يواجه أمراً ما. هناك شيء ما لم يقله. ليس أمراً محدداً. إنه مجرد حدس".

حس سيدة، فكر بن - روي في سرّه، وأبقى هذا الأمر لنفسه.

"هل لديه عُذر غياب؟".

"قال إنه كان في مكتبه الخاص طوال المساء. لم نعثر بعد على أحد يؤكد هذا الأمر".

ومدّ يده، ولها بأحد المشابك التي تُبقي اليارمولك الخاص به في مكانه. "بإمكانني القيام بالمزيد من البحث إذا أردت. بإمكانني الحصول على القليل من المعلومات عن خلفيّة رئيس الأساقفة".

"افعل ذلك، وفي تلك الأثناء ربما يكون باستطاعتك التأكد من عُذر غيابه".
بحث بن - روي في جيبه، وأخرج تذكرة الحافلة التي عثر عليها في شقة كلينبرغ، ورماها على الطاولة. فدنا زيسكي من الطاولة والتقطها، حاملاً معه رائحة عطر غامضة.

"استعملتها كلينبرغ قبل خمسة أيام"، قال بن - روي، "للذهاب إلى ميتزبي رامون. أريد أن أعرف ما الذي كانت الضحية تفعله وسط صحراء التّقب".

عاين زيسكي التذكرة.

"إضافةً إلى ذلك"، قال بن - روي مستمتعاً بوجود شخص ما يمكن الاستعانة به. "هل يمكنك أن تعرف معنى هذه الكلمة؟".

وفتح دفتر مدوّنته، وأداره، ووضعها على الطاولة وأداره في اتجاه الأمام، مشيراً إلى الكلمة التي عثروا عليها على نشافة كلينبرغ: فوسغي. فالحني زيسكي لينظر إليها، وكاد خدّه يلامس خدّ بن - روي. لقد ازدادت رائحة عطر ما بعد الحلاقة قوة.

"أسف يا فتيان. أنا لا أقاطع أي شيء، أليس كذلك؟".

وظهر يوري بينكاس عند المدخل، فأسند بن - روي ظهره بسرعة.

"ألا تقرر الباب أبداً يا بينكاس؟".

فأطلق زميله ابتسامة رضى عن النفس، وغضّ شفتيه كما لو أنه يوجّه قُبلة،
فعبس بن - روي.
"ماذا تريد؟".

"جئتُ فقط لأُعلمك بأن صور الكاميرات جاهزة. سنشاهدها بعد خمس دقائق. آمل أن يمنحكما ذلك الوقت الكافي لـ... كما تعلمان، الانتعاش."
"شكلي بتاحات، يا بينكاس! قبل مؤخرتي".
"سأنضم إلى الفريق. أراكما في البناء المُلحق".
وغمز، ثم وجّه قُبلة أخرى في الهواء، وتوارى عن الأنظار في الممر.
"وإذا انتهيت من الأسطوانة المدمجة الخاصة بي ياهوناثان غاترو، فأنا أرغب في استعادتها"، نادى.

"زايين!" صاح بن - روي.

لم يظهر على زيسكي ما يشير إلى أنه فهم أيّاً من هذه الأمور، علماً أنه من المستحيل ألا يكون قد فهم. بل دوّن كلمة فوسغي على دفتره، وعاد إلى طاولته بهدوء. فتساءل بن - روي عما إذا كان يُفترض به قول شيء ما، ولكن زيسكي رفع هاتفه وطلب رقماً. فخرج بن - روي بدلاً من ذلك وتوجّه إلى المرحاض، ومن ثمّ سكّب لنفسه كوب ماء من المبرّد في الممر، وملاً كوباً آخر لزيسكي، ثم عاد إلى الغرفة.

"الذهب".

"عفواً؟".

"فوسغي تعني الذهب باللغة الأرمنية. ذهب، ذهبي".

لقد تصرّف الفتى بسرعة، فقد غادر بن - روي الغرفة لبضع دقائق فقط.

"تماماً"، قال بن - روي. "شكراً لك".

أوماً زيسكي برأسه وتناول كوب الماء ثم سأل:

"هل تمانع إن غادرتُ قبل انتهاء دوام العمل بقليل؟ أحتاج إلى شراء بعض الأغراض قبل يوم الشّبت".

"بالتأكيد"، قال بن - روي. "لا مشكلة".

وانتظر للحظات، ومن ثمّ توجه إلى الباب.
"آه، ويا سيدي".

فاستدار بن - روي.

"إذا كنتَ من هواة ياهوناثان غاترو فلديّ كل ألبوماته، ويُسعدني أن أُعدّ لك بعض النسخات. لديّ الكثير لإيفري لدير وجودي غارلاند أيضاً".
أطلق زيسكي ابتسامة، فابتسم بن - روي رغماً عنه أيضاً. لقد بدأ يشعر بالموودة حيال الشاب.

كان بينكاس ونافا شوارتز قد أعدّا أسطوانة دي في دي تحتوي على 17 دقيقة من المشاهد العائدة لليلة مقتل كلينبرغ، مستعينين بكاميرات الشرطة وتلك التابعة للمجمّع.

لقد شاهدوا الأسطوانة في غرفة جانبية زجاجية على مقربة من مركز المراقبة حيث توجد الكاميرا الرئيسة للمركز. كان كل الحاضرين في اجتماع الصباح مع شاليف موجودين هناك باستثناء زيسكي الذي حلّ مكانه الضابط المسؤول إسحق بوم. إذ يتابع بوم على الدوام المشاهد التي تلتقطها الكاميرات، وغالباً ما تُطلق هذه المشاهد المصوّرة إماعة تساعد التحقيق. وكان بوم يحب أضواء الشهرة. ولكن أمله خاب اليوم؛ على غرار الجميع.

لقد تمكنت كاميرات الشرطة من تتبّع كلينبرغ منذ لحظة ترحّلها من الحافلة خارج باب يافا، وعبورها النفق وسط طريق بطيركية الأرمن الأرثوذكس. ومن ثم التقطها مراقب سي سي في التابع للمجمّع الأرمني وهي تعبر بوابته الأمامية، وتبعها إلى مدخل دار العبادة الكبرى.

كان الشخص نفسه يتبعها طوال الوقت على بُعد 30 متراً. لقد دخل دار العبادة الكبرى بعدها تماماً، وخرج بعد ست وثلاثين دقيقة، وعبر المدينة القديمة وتوارى عن الأنظار على طريق يافا.

إنه القاتل؛ كان الجميع واثقين من ذلك. ولكن لسوء الحظ، كان مغطى بكامله بمعطف مزوّد بقلنسوة تقيه من المطر، وبقي وجهه محبباً بالرغم من توضيح الصورة وتقريبها. كان متوسط القامة، ورافق كلينبرغ في الحافلة، وتبعها عمداً في المدينة القديمة وإلى داخل دار العبادة الكبرى؛ هذا كل ما حصلوا عليه.

لقد أعادوا المشاهد ثلاث مرات، وتعكّر المزاج في الغرفة، وكانوا في أثناء الإعادة الرابعة للمشاهد المصوّرة عندما رنّ هاتف بن - روي المحمول. كان الاتصال من العال. لقد بحثوا في سجلاتهم ووجدوا تطابقاً. ليلة وفاتها، حجزت ريفكا كلينبرغ على متن الرحلة الجوية التي تنطلق عند الساعة الحادية عشرة إلى الإسكندرية في مصر.

باكينغهامشاير، إنكلترا

"شخصياً، سأستهدف الحفرة 5".

وأطلق السير تشارلز مونتغمري ابتسامة مأكرة ومفضّلة؛ ليست عريضة بما فيه الكفاية لتبدو قاسية، ولكنها أكثر من كافية لتُظهر أنه لا يخالفه الرأي فحسب، بل إنه مُحقّق في مخالفته الرأي. وتناول جرعة من قنينته التي تحتوي على شراب الورد البرّي، ثم سحب من حقيبة الغولف مَضرباً من طراز كولواوي غرافيست 6 آيرن.

"من الصعب جداً الحكم بطريقة صائبة"، قال بلهجة تشير إلى أن اعتقاده معاكس تماماً. "في الواقع، لن تعرف أبداً حتى تقذف الكرة".

وقام مرتين بمحاكاة كيفية قذف الكرة استعداداً لتنفيذ الرمية، ناظراً إلى المساحة الخضراء التي تبعد 140 ياردة، وسهولة حركته تنفي أنه في الثامنة والستين من عمره. ثم وضع الكرة البيضاء والسمراء من طراز فوتجوي كلاسيكس على بُعد متر واحد، وقذفها، حاجباً الشمس عن عينيه في أثناء تتبّعه مسار الكرة. لقد بدا الأمر كما لو أنها علقت في الهواء زمناً طويلاً قبل أن تقبض في النهاية على السطح المائل في مؤخر المساحة الخضراء. فلازمت مكانها للحظات، وتدحرجت بعد ذلك ببطء في اتجاه الراية، متوقفةً على بُعد مترين منها. فأوماً مونتغمري برأسه تعبيراً عن رضاه، وأعاد المضرب إلى مكانه، معبراً عن امتنانه لزملائه اللاعبين الذين أطلقوا صيحات: "أحسنّت".

"لا بد أن الريح الخفيفة قد منحتها قوة دفع إضافية"، قال بتواضع زائف على نحو فاضح.

إنه يؤدي جولة جيدة، لا بل ممتازة، كما يستمتع بتقاعد جيد، لا بل ممتاز. قبل عامين، لم تكن الأمور تبدو وردية تماماً في أجواء شبه القارة غير المستساغة. صمام صدئ لا يعمل كما ينبغي، نظام مراقبة معيوب، سحابة كبريتيد الهيدروجين، آلاف ناقلي العدوى المتقرّحين. لقد بدا الأمر كما لو أن ذلك سيتسبب باحتجاجات عنيفة على غرار الاحتجاجات التي نجمت عن بوبال وترفيفورا، وهو أمر لا يخدم أبداً مصلحة الشركة، أو على الأقل مصلحته الشخصية نظراً إلى أنه هو من اتخذ قرار إرجاء تركيب أنظمة أمان حديثة أثبتت كفاءة عالية لمدة طويلة من الزمن في منشآتهم في أوروبا والولايات المتحدة؛ وذلك بوصفه مديراً تنفيذياً أول.

لا، لم يبدُ الأمر جيداً البتة. كان قد تعرّق طوال أشهر قليلة، ولا سيما عندما بدأت التقارير تَرده عن حالات إجهاض وعيوب في الولادة، وأطفال يُولدون عمياناً ومشوّهين ومَعوقين. وستكون لتناول الصحافة ولادة أطفال عميان ومَعوقين، ولا سيما في دول العالم الثالث، انعكاسات سيئة على الشركة. لحسن الحظ، حُلّ الوضع بما يرضي الجميع، ولُطِّفَت الأجواء في الجانب الهندي بعد تلقّي أشخاص بالغى الأهمية مبالغ مالية ضخمة من الحكومة، في حين اعتمدت شركة محاماة رائعة في المدينة مختلف أنواع الخُدَع القانونية الذكية كي لا تقوم الصحف البريطانية بإلقاء الضوء على تلك المسألة. حتى إنهم لم يُضطروا للتعويض على الضحايا؛ علماً أنهم قدّموا هبات متواضعة لبعض الجمعيات الخيرية حفاظاً على ماء الوجه؛ هبات متواضعة جداً.

وعندما تقاعد في العام السابق، اعتمد تشارلز مونتغمري الأسلوب نفسه لإدارة رواتب تقاعدية تعود عليه بأرباح طائلة، ولتقديم الخدمات للصناعة من خلال برنامج فُروسية المملكة. وبعد تحويله حصته إلى أموال نقدية، أُدرج في قائمة الأثرياء التابعة لصانداي تايمز، علماً أنه احتل المركز الأخير في الشراء. كانت الحياة جيدة بالنسبة إليه. وعندما تكون الحياة جيدة، تكون ممارسته لعبة الغولف جيدة أيضاً. لقد تحسّن إلى حد كبير عدد ضرباته التي تفوق الحدّ المتوسط في الأشهر القليلة السابقة، من دون أن يكون بالإمكان القول إن أوضاع الأطفال الهنود قد تحسنت.

قذف عضو البرلمان المنتمي إلى حزب المحافظين، تريستان بيك، كرتة فسقطت قبل خمسة أمتار من المساحة الخضراء؛ مُحدثةً حفرة في الرمال. بعد ذلك، بدأت المجموعة الرباعية من اللاعبين رحلتها على ممر الملعب، وقد جرّ كل منهم وراءه عربته الصغيرة. فبالإضافة إلى مونتغمري وبيك، كان هناك السير هاري شور؛ وهو العضو الأعلى مقاماً في السلطة القضائية، وبراين كاهيل؛ وهو مدير أسترالي فظٌّ ولكنه فاحش الثراء. فسواء أكان هناك تسرّب للغاز أم لا، يتواصل نشاط السير تشارلز مونتغمري في الأوساط العليا.

تقدّموا مسافة ثلاثين متراً، ومن ثم أبطأ شور الذي كان يسبقهما قليلاً خطواته ورفع ذراعه.

"ماذا يفعل ذلك الغبي؟". سأل مشيراً إلى أحدهم.

كانت هناك أرض حرجية بمحاذاة المساحة الخضراء. لقد خرج شخص - من هذه المسافة، يصعب تمييزه إن كان رجلاً أو امرأة - من قرب الجدار الذي تشكّله الأشجار وخمائل العَصَل، ووقف على المساحة الخضراء بجانب الراية. لقد بدا أنه يحمل لافتة من نوع ما.

"ارحل"، صاح شور. "وخذ معك ما تحمله. هذه الحفرة مُدرّجة ضمن اللعبة!".

لم يتحرك الشخص، بل رفع عالياً اللافتة أو أياً يكن ما يحمله. كان هناك شيء مكتوب عليها، علماً أنها بعيدة جداً فلم يكن بالإمكان قراءة ما كتب بالتحديد. وخرج شخص آخر، يبدو أنها امرأة. بدا الأمر كما لو أنها تحمل لافتة أيضاً.

"أخليا المكان!". صاح مونتغمري، ملوّحاً بذراعه. "إنه مكان خاص...".

ورنّ هاتفه المحمول، فأخرج الهاتف من سروال الغولف المصنوع من قماش يحمل نقوشاً مربّعة، مستمراً بالتلويح بذراعه، ووضع على أذنه من دون أن يتحقق من الرقم.

"أجل"، قال بغضب.

"تشارلز مونتغمري؟".

كان الصوت صوت رجل، وهو غير مألوف.

"أجل".

"السير تشارلز مونتغمري؟".

"أجل، أجل. من المتكلم؟".

وخرج شخصان آخران إلى المساحة الخضراء، وكان هناك المزيد من الوافدين كما يبدو؛ جماعة كبيرة من الناس.

"ابتعدوا!". صاح عضو البرلمان تريستان بيك. "ستلحقون الضرر بالعشب".

"هل يمكنك ولوج الإنترنت يا سير تشارلز؟".

"ماذا؟ من المتكلم؟ كيف حصلت على هذا...".

"لأنك إذا ولجت الإنترنت، فسيتعين عليك التحقق من موقع ما. إنه

www.thenemesisagenda.org".

لقد أعطاه الرجل العنوان ببطء، مهجئاً إيّاه.

"هناك بعض الصور الجميلة لك"، أضاف، "والكثير من التفاصيل عن عمل شركتك في غوجارات".

كان وجه مونتغمري قد اكتسب لوناً مائلاً إلى الحمرة، ولكنه ازداد قتامة وأصبح أرجوانياً.

"من المتكلم بحق الجحيم؟". صاح. "ماذا تريد؟ أنا وسط ملعب غولف".

"أعرف ذلك"، قال الصوت. "أنا أنظر إليك مباشرة. إنه سروال جميل يا قاتل الأطفال اللعين".

وأقفل الخط. في الوقت نفسه، شرع الحشد الموجود على المساحة الخضراء، والذي فاق عدده عشرين شخصاً مع توافد المزيد منهم - رجال ونساء، مُسنّون وشبان - بالإنشاد، وملأت أصواتهم المساحة الواسعة والهادئة لنادي الغولف الخاص بأعضاء وترديان غرانج:

"غوجارات! غوجارات! غوجارات!".

وبدأوا بالتقدم في اتجاه لاعبي الغولف الأربعة، وازداد وضوح الشعارات الموجودة على اللافتات شيئاً فشيئاً: "قاتل الأطفال"، "العدالة للأطفال"، www.thenemesisagenda.org، "تقاعداً سعيداً يا سير تشارلز".

فتردد مونتغمري، وارتسمت على وجهه المكتنز والعريض أمارات غضب شديد ودُعر متزايد. فاستدار وعاد إلى مقرّ النادي مُسرّعاً قدر الإمكان، وتبعه زملاؤه.

"غوجارات! غوجارات! غوجارات!".
فجأةً، بدا استمرار تقاعده المريح غير مضمون.

القدس

مع مشاركة فترة بعد ظهر يوم الجمعة على الانتهاء ودنوَّ يوم السَّبت، بدأت شوارع القدس تفرغ من المارة بشكل مضطرد. وفي وقت متأخر من بعد الظهر، أصبح وسط المدينة مُقْفِراً تقريباً.

وحدث الشيء نفسه في مركز شرطة داوود. فعندما دخل بن - روي مكتب له شاليف بعد الساعة الخامسة والنصف، كانا الشخصين الوحيدين المتبقين في قسم التحقيقات في الكيشل.

فأعدت شاليف القهوة لكليهما، وعرض عليها بن - روي التطورات التي حدثت خلال اليوم: التهديدات التي وردت إلى هآرتس، ودفاتر المدونات المفقودة، وزيارات كلينبرغ إلى المجمع الأرمني، ورحلة العال الجوية إلى مصر، وكلمة فوسغي التي كان يشعر بأهميتها بدون سبب وجيه كلما أشار إليها.

أصغت إليه شاليف بصمت في أثناء ارتشافها من الكوب الخاص بها الذي يحمل شعار فريق ماكابسي تل أبيب لكرة السلة، وترك أحمر الشفاه كالعادة لطخة شاحبة على حافة الكوب. لم يكن يُفترض بعناصر الشرطة من الفتيات المناوبات التبرّج، ولكن له شاليف تخطّت القواعد: أحمر شفاه، طلاء للأظفار، ظلال العيون. لم يتمكن بن - روي قط من معرفة ما إذا كانت تقوم بذلك لتبدو في مظهر حسن ببساطة، أم لتبهر أمثال بوم ودورفمان الذين يعتقدون أنه لا مكان للنساء في التحقيقات. فإذا كانت تقوم بذلك للسبب الأول، فهي لم تحقق أي نجاح. وإذا كانت تريد إبهار الأنظار، فقد حصلت على أكثر مما ترغب فيه.

"هل لديك أي أفكار؟". سألت عندما أنهى عرضه.

فhez بن - روي كتفيه.

"سرقة غير مُتقنة، مريض نفسيّ يشعر بالوحدة، عملية مافيا، حقد شخصي، مزيج منها كلها. اختر. كلها احتمالات ممكنة".

"أيّ احتمال تؤيدين؟".

كانا يمارسان هذه اللعبة غالباً في بداية كل تحقيق، فترغمه شاليف على مدّ عنقه والاختيار. كان عادةً يُسعد بهذا الإرغام. ولكنه في هذه المرحلة المبكرة من القضية تردد بالاختيار بسبب تعدّد الاحتمالات والتناقضات.

"هيا، يا آري"، قالت شاعرةً بتحفظه. "فلتختر".

"الأمر مرتبط بكونها صحافية"، قال بعد فترة قليلة من الصمت؛ غير مجيب مباشرة عن السؤال. "أراهن على ذلك. نظراً إلى فقدان دفاتر مدوّنها العائدة للأشهر الثلاثة الأخيرة. أعتقد أنه أمر مرتبط بمقالة كانت تعمل عليها مؤخراً".

"ما لم يكن رجلنا يحاول ذرّ الرماد في العيون"، قالت شاليف، "لمنعنا من تعقبه".

فأقرّ بن - روي بأنها وجهة نظر صائبة.

"ماذا عن محرّرها؟". سألت شاليف.

"لم يتصل بي بعد. تركتُ له أربع رسائل".

"أربع رسائل فقط؟ لست أنت من يتمالك نفسه إلى هذا الحد".

"لست أنت من تُعدّ قهوة جيدة إلى هذا الحد".

وابتسما. فبالرغم من ارتياحه بما منذ البداية، بات يميل إلى ليه شاليف إلى حد كبير؛ ليس لأنهما تُجيد عملها فحسب، بل لأنهما من الأشخاص القلائل في الشرطة الذين يفكر ملياً في اعتبارهم أصدقاء له.

"هل هناك أي جديد عن تشريح الجثة؟". سأل.

فهزت رأسها.

"تحدّثتُ إلى شملينغ قبل قدومك مباشرةً. لقد عثروا على شعرة على ملابس الضحية وأرسلوها لتخضع لتحليل الذي أن أيه، وللتحقق مما إذا كان متطابقاً مع أي حمض نووي موجود في قاعدة بياناتنا. ومن الواضح أنه لم يحدث أي اعتداء جنسي. وباستثناء تحديد تاريخ حدوث الوفاة بين السابعة والتاسعة مساءً - والذي سبق لنا أن عرفناه من خلال المشاهد التي التقطتها الكاميرا - فلا شيء جديد. آه، أجل. تعاني من البواسير. إنها أسوأ حالة شهدتها شملينغ يوماً، كما يبدو".

"أمر لطيف. ماذا عن الخبراء الجنائيين؟".

رفعت يديها عالياً في إشارة إلى "لا شيء".
والجيران؟".

"حتى الآن، تمكنا من مقابلة خمسة من سكان الشقق، أما الآخرون ففي الخارج".

"وماذا أيضاً؟".

وارتفعت يداها مجدداً.

"نحن في متاهة"، قالت. "نحن في متاهة حقيقية بلا ريب".

على غرار آلام معدة بن - روي، تملك ليه شاليف تعبيرها الاصطلاحي الفريد والخاص بها للتعبير عن كيفية سير الأمور. فألقت نظرة سريعة على ساعتها، ثم شربت ما تبقى من قهوة في كوبها، ووقفت.

"عليّ مواصلة الحياة. سواء أكنّا في متاهة أم لا، لا تزال أسرة شاليف بحاجة إلى الطعام".

وشرعت بجمع أغراضها.

"هل أولادك بخير؟". سأل بن - روي، ووقف.

"إنهم بخير، بالرغم من أن ديورا لا تتكلم معي. مشادة كلامية بسيطة حول طريقة اختيارها صديقها".

فابتسم بن - روي. إنه يتطلع لذلك أيضاً.

"بني؟".

"بخير. شارك في معرض في عين كارم، ويتم التباحث في شأن إشراكه في معرض في الولايات المتحدة".

بخلاف النشاط الأساسي لزوجته في الحياة، كان بني شاليف فناناً؛ فناناً محترماً. وزواجهما من بين الزيجات القليلة التي شهدها بن - روي يوماً - ويكون فيها أحد الزوجين من أفراد الشرطة - والتي استمرت بالرغم من الظروف العسيرة. كانت ليه وبني شاليف يواجهان مصاعب الحياة معاً بحكمة. وبالرغم من أنه لم يُقرّ بذلك قط، ولا حتى لنفسه، يشعر بن - روي بتوق ما كلما رآهما معاً، وبأسف على ما كان يمكن لحياته أن تكون عليه. إنه يفتقد سارة أحياناً، بل في كثير من الأحيان، لا بل في معظم الأحيان.

"هل ستقضي يوم الشَّبِّ مع سارة؟". سألت شاليف كما لو أنها تقرأ أفكاره.

"ستقضيه مع أهلها".

"هل تريد الانضمام إلينا؟ أنت مرحَّب بك".

"شكراً يا ليه، ولكنني مدعوٌّ إلى مكان آخر".

"هل أنت متأكد؟".

"أنا متأكد".

غادرا المكتب، وخرجا إلى الباحة في الناحية الخلفية للمركز. كانت سيارة شاليف من طراز سكودا أوكتافيا مركونة في الطرف البعيد بجانب المنطقة المسيَّجة والمخصصة لتدريب الجياد، فرافقها بن - روي إلى سيارتها.

"أريد من نامير أن يستمر بما يقوم به"، قالت في أثناء سيرهما، متطرِّقةً إلى القضية مجدداً. "إضافةً إلى الناحية الأرمنية للقضية، باستطاعة بينكاس متابعة تهديدات المستوطنين الروس ومستوطني الخليل للتحقق مما إذا كان هناك أي رابط. فهو يُجيد الروسية، وأعرف أن لديه مُحبِراً واحداً على الأقل من بين المستوطنين".

"ماذا عني؟". سأل بن - روي.

لقد تحدّث بصوت مخبَّث مقلِّداً صوت دوف زيسكي عندما طرح السؤال نفسه في اجتماع الصباح. فرمقته شاليف بنظرة مُدِلَّة.

"تابع مسألة كلينبرغ. أريد أن أعرف ما الذي كانت تكتب عنه، ومن كانت تُغيظ، ولماذا كانت في طريقها إلى مصر، وسبب زيارتها المتكررة للمجمّع".

وصلا إلى السيارة، ففتحتها شاليف.

"بالمناسبة كيف يجري العمل مع زيسكي؟". سألت.

"عظيم. سننشط في حقننا الخاص في الأسبوع القادم".

"مازالَتوف".

وألقت حقيبتها على المقعد الخلفي، ثم دخلت السيارة وأغلقت الباب بقوة. في تلك الأثناء، دخلت دراجة نارية رباعية الدفع من طراز بولاريس رانجر الباحة،

وهي الدراجة الوحيدة التي تستطيع التغلب على العقبات في الشوارع المدرّجة
وشديدة الانحدار في المدينة القديمة. فانتظرت شاليف حتى ركن السائق دراجته،
ومن ثم أدارت المحرك.

"أنت في إجازة غداً، صحيح؟".

فأوماً بن - روي برأسه.

"سنزّين غرفة المولود الجديد في منزل سارة"، قال. "إذا أردتِ،
يمكنني...".

"أريد منك أن تقوم بعملية التزيين. ولكن، إذا كان تزيينك ماثلاً لعملك في
مركز الشرطة، فأنا أحشى التفكير في ما ستكون عليه حال الغرفة. أراك يوم
الأحد".

وجّهت له تحية عسكرية، ثم عَشَقَتْ ثُروس السيارة، وتوجهت ببطء إلى
مدخل المركز. ولكنها توقفت في منتصف الطريق، وأنزلت الزجاج، فدنا منها
بن - روي. كانت تحدّق إلى الأمام، ممسكةً المقودَ بيديها.

"لا أستطيع شرح الأمر يا آري"، قالت بلهجة جدّية، وهي غارقة في التفكير.
"ولكن شعوراً سيئاً يمتدّني حيال هذه القضية منذ البداية".
"هذا لأن امرأة خُنقت وسط دار العبادة الكبرى".

فلم تبسم.

"أشعر بأن هذه القضية ستقودنا إلى مكان ما...".

"سيّء؟".

نظرت إليه.

"احترس، يا آري. احترس وأبقني على اطلاع. اتفقنا؟".

طوال خمس سنوات من العمل معاً، لم يسبق لليه شاليف أن تحدّثت إليه بهذه
الطريقة، فوجد بن - روي الأمر مُقْلِقاً.

"هل اتفقنا؟". كررت.

"بالتأكيد. اتفقنا".

وأومات برأسها، وتمنت له غات شاباس، وانطلقت إلى خارج المركز، فيما
بدأ المطر ينهمر مرة أخرى.

الأقصر

"أبي، نحن نشاهد ميري بوبينغز!".

لم يكد خليفة يفتح باب الشقة الأمامي حتى اندفع ابنه الأصغر يوسف خارج غرفة الجلوس، وقفز بين ذراعيه، وعانقه بقوة، وقبله، ومن ثم تلوى بين ذراعي والده وأفلت منه، وانطلق عائداً عبر الممر. فابتسم خليفة، وهز رأسه، ثم أغلق الباب. وقف هناك للحظات، وتدلت من يده باقة الزنبق التي كان قد اشتراها في طريق عودته من القرن، ألقي نظرةً على أرجاء المنزل كما لو أنه يُطمئن نفسه بأنه المكان الذي يقيم فيه. بعد ذلك، تبع الفتى متنهداً.

كان قد مضى على وجودهم في الشقة ستة أشهر. فعندما هُدم مجتمعهم السكني، نُقل كل السكان الآخرين إلى منطقة مليئة بمبانٍ إسمنتية على بُعد عشرة كيلومترات خارج البلدة، قرب جسر طريق النيل. كان رئيسه الحسني قد أظهر رغبته في المساعدة، فحصل على بعض الموارد المالية، وأمن له مسكناً في العوامية، عند زاوية المركز الجديد للشرطة.

كانت الشقة أكبر حجماً من شقتهم القديمة وأكثر ملاءمة للعمل، ويوجد مسجد ومدرسة على مقربة منها تماماً. حتى إنها كانت مزودة بمكيف هواء؛ وهو مصدر افتتان غير متناه ليوسف الذي دأب على تشغيله بطاقته القصوى، ومن ثم بناء مخيمات يَحتمي فيها من البرد.

وبالرغم من المزايا المُضافة، لم يشعر خليفة قطّ بالسعادة فيه؛ ليس بسبب الاختبارات التي يُجريها يوسف بواسطة مكيف الهواء فقط، بل لأنه كان لا يزال يشعر بأنه غريب في منزله الخاص بعد كل هذه الأشهر.

يعود سبب ذلك جزئياً إلى الجيران؛ علماً أن سيدة مُسنّة ولطيفة تقيم في الطابق الأرضي، والعائلة المقيمة في الشقة المحاذية لهم حسنة السمعة؛ بالرغم من إصرارها على تشغيل التلفاز بأعلى صوته ليلاً ونهاراً طوال أيام الأسبوع. ولكن المنزل الجديد يفتقر إلى الحميمية التي اعتادها في المجمع السكني القديم، وإلى حسّ الجماعة المتأني من الإقامة في مكان واحد طوال ستة عشر عاماً. كانوا في الشقة القديمة يشعرون بالانتماء، بخلاف حالهم هنا. وكلما عاد خليفة إلى

المنزل، صدمه الشعور بالعُزلة نفسه، وبأنه ترجّل من الحافلة في الموقف الخاطئ.

والأسوأ من ذلك، عدم ارتباط المكان بمشاعر إنسانية. فلا ذكريات أو علاقات هنا، ولا أحاسيس، ولا شيء يربطهم بالمكان. لقد كان فقدانهم شقتهم القديمة أشبه بفقدانهم جزءاً من ماضيهم. وبالرغم من وجود كل أغراضهم في الشقة الجديدة، فهي تبدو... فارغة.

كان بالإمكان اصطحاب الأثاث إلى المسكن الجديد، ولكنه اكتشف أنه من غير الممكن البتة نقل الصداقات.

أقحم رأسه داخل غرفة ابنه البكر علي كالمعتاد؛ إذ كان يفعل ذلك كلما عاد إلى المنزل، ثم تابع سيره إلى المطبخ حيث كانت ابنته بطّاح تُعدّ العشاء. "أكان يومك جيداً؟". سأل مُطوّقاً إياها بذراعيه، ومقبلاً جبينها. "رائع"، أجابت معانقةً إيّاه. "كانت الخالة ساما هنا". "لا بدّ أن الأمر كان مشوّقاً".

"كان كذلك بالتأكيد. لقد أخبرتنا عن اصطحاب العم حُسني لها في رحلة تسوّق في دُبي. وهذه الرحلة هي كل ما أخبرتنا عنه".

لم يكن بالإمكان عدم ملاحظة المنحى التهكمي بسهولة، فهو واضح تماماً. ابتسم خفيفة، ونقر أنفها بإصبعه. إنها في السابعة عشرة من عمرها، وتشبه زينب بجمال طلعتها عندما كانت أصغر سنّاً - فهي هيفاء القدّ، شعرها طويل قاتم اللون، وعيناها كبيرتان - وبحس الدُعابة أيضاً.

"كيف حالها؟". سأل.

"إنها بخير. تشاهد...".

وأشارت بطّاح برأسها في اتجاه الطرف البعيد للشقة. فأوماً خليفة برأسه، وقبلها مجدداً، ثم سلك الممر ودخل غرفة الجلوس حيث كانت زينب تجلس على الأريكة ويوسف بين ذراعيها. كانا يشاهدان فيلم دي في دي ماري بوبينز الخاص بعلي، مدندنين النغمات المثيرة لنذهب ونطير طائرة ورقية، أو كما توردتها الترجمات المصرية: سنرسل طائرنا الورقية إلى السماء.

وضع خليفة الأزهار بجانب زوجته، وبسط ذراعيه على كتفيها، وقبل رأسها.

"هل كل شيء على ما يرام؟".

فمدّت يدها ولمست يده، ولكنها أبقّت عينيها على الشاشة.

"أنا في إجازة غداً. ما رأيك بقضاء بعض الوقت معاً؟".

فضغطت على يده مجدداً، ولكنها لم تنظر إليه. لازم مكانه للحظات، متنشّقاً عطر شعرها. وبعد أن همس لها كلمة "أحبك"، عاد إلى المطبخ لمساعدة بطّاح على إعداد العشاء.

"لست مُضطراً لذلك"، قالت في أثناء قيامه بسحب سكين من الدُرج، ووقوفه بجانبها.

"تعرفين مدى حبّي للتقطيع. اسمحي لي على الأقل بالاستمتاع بهذا الأمر قليلاً".
فلكرته بمرفقها ممزحةً، وشرع بتقطيع البطاطا. ثبتت خليفه نظره للحظات على جَزلة الإسمنت التي كانت بحجم قبضة اليد الموجودة على عتبة النافذة، والمكسوّة ببلاطات بالغة الصُّغر؛ إنها جزء من النافورة التي بناها في مدخل شقتهم القديمة. إنها التذكار الوحيد من الأوقات السعيدة. واستعاد تركيزه بعد ذلك، وشرع بتقطيع البصل. في غرفة الجلوس، كان فيلم ماري بوبينز قد وصل إلى نهايته، ثم تكرر بمفرده.

القدس

كان بن - روي قد كذب على ليه شاليف. فهو لم يكن مدعوّاً إلى أي مكان لتناول العشاء ليلة الجمعة. وعندما انتهى يوم العمل، دخل سيارته، وتوجّه بمفرده إلى المنزل. هناك أماكن، الكثير من الأماكن التي يمكنه الذهاب إليها؛ فبالرغم من عدم كونه فُروم بصفة خاصة، إلّا أنه نادراً ما يُغفل يوم الشبّت. غير أنه متعب هذه الليلة وليس في مزاج ملائم للعلاقات الاجتماعية. ربما سيقراً قليلاً، ويشاهد إيريتز نهديريت، وينام باكراً. فأرأسه يضجّ بأمور كثيرة، وهو لا يشعر بالرغبة في رفقة أشخاص آخرين.

وفي أثناء خروجه بالسيارة من المركز وتوجهه إلى باب صهيون - كانت سيارته هي الوحيدة في الشوارع في ذلك الوقت - اتصل بسارة.

"هل أنت بخير؟". سأل.
"أفضل بكثير مما كنت عليه عندما تحدثنا في المرة الأخيرة".
"والبويو؟".
"ابقَ على الخط".
وسمع همساً في خلفية الجانب الآخر من الخط.
"عظيم"، أجابت. "أعدّ العدة للقيام ببعض التمارين الرياضية".
ابتسم، فهذه الأمور السخيفة هي التي جعلته يقع في غرامها ويُتيم بحبها.
"هل أهلك بخير؟". سأل.
"إنهم بخير. وأهلك؟".
"أنا على وشك الاتصال بهم".
"أبلغهم حبي. ولا تنسَ...".
"التزيين غداً. لا تقلقي، لقد طبعتُ الموعد على جيبني. وسأتذكّره حتماً حين
أحلق في الصباح".
فأطلقت ضحكة مُعديّة أشبه بضحكات البنات؛ ضحكة شخص شعر بسرور
صادق. كان صوت ضحكها رائعاً.
"شابات شالوم، يا سارة".
"أتمنى لك الأمر نفسه يا آري. شابات شالوم. أراك غداً".
وساد الصمت كما لو أن كلاهما ينتظر الآخر ليقول شيئاً ما. ومن ثم،
أفقلا الخط معاً بعد أن كررا عبارة شابات شالوم.
بلغ باب صهيون، فحرّك السيارة بعناية لعبوره، مقدراً مدى سهولة تجاوز
الباب الضيق وغير المستقيم. لقد اشترى سيارته التويوتا منذ شهرين بعد أن أسلمت
البي أم دبليو الحبيبة الروح، وكان لا يزال يحاول الاعتياد على قيادة سيارة تقوم
فيها أجهزة التحكم بما يُفترض بها القيام به. كانت البي أم دبليو صعبة العريكة
بالرغم من كل مميزاتهما. فقد كانت محبوبة ولكنها مُجهدة؛ على غرارهِ تماماً، كما
أحب أن يعتقد طوال عدة سنوات. وها هو الآن يقود سيارة تويوتا كورولا.
بعد أن عبر الباب، انعطف نحو معالي هاشالوم، وتوجه نزولاً حول جبل
صهيون. كان سقف وجرس برج دير دورميتون يظهران تارةً ويختفيان طَوَراً وراء

أشجار السرو. وفيما كان يقود، اتصل بوالديه اللذين عادا إلى مزرعة العائلة ليتمنى لهما غات شاباس، ومن ثم اتصل بجده في دار العجزة - "هل تأكل يا آري؟ أرجوك يا الله، قل لي إنك تأكل؟" - وبشقيقته شافا التي تحدت طيلة الوقت عن مدى غيابه بسبب انفصاله عن سارة؛ فقد كان أول لقاء له بسارة في شقتها.

أخيراً، في أثناء توجهه صعوداً إلى كيرين ها - يسود وانعطافه إلى داخل ريهافيا بجانب النساء اللواتي يرتدين الملابس السوداء واللواتي يقفن على الدوام عند الزاوية معصمات اتصل بغيلدا ميلان، حماته السابقة تقريباً. لقد قتلت ابنتها غالياً قبل أن تتمكن وين - روي من المرور تحت هوباه.

"إذاً، ألم تعد إلى سارة بعد؟". سألت ما إن سمعت صوته.

"شابات شالوم لك أيضاً غيلدا".

"هل أنت بخير؟".

"لم أكن كذلك عندما تحققت من نفسي في المرة الأخيرة".

"غبي".

فابتسم بن - روي بسأم.

"إنها المرة الثانية التي أوصف فيها بالغباء في الدقائق الخمس الأخيرة".

"لِمَ لا؟ إنها الحقيقة".

كانت غيلدا ميلان صريحة وشجاعة. فهي لم تفقد ابنتها الوحيدة فحسب في تفجير إرهابي، بل فقدت زوجها أيضاً قبل أربع سنوات، وبالطريقة نفسها، في أثناء إلقاء خطاب في تجمع لأجل السلام خارج باب دمشق. قلّة هم الأشخاص الذين لا ينهارون لدى تعرضهم لإحدى هذه المآسي. أما غيلدا ميلان التي فقدت الشخصين اللذين أحبتهم أكثر من أي شخص آخر في العالم، فقد حافظت على رباطة جأشها بتحدٍ. فهي الآن تجوب العالم برفقة ياسمين مرسودي، زوجة السياسي الفلسطيني الذي قُتل مع يهودا، ترويجاً لقضية السلام. فخارج إسرائيل والأراضي المحتلة يتم الاحتفاء بالمرأتين، ولكن مناشدتهما لا تلقى آذاناً صاغية هنا. فما يكثر له الناس في هذه الأيام هو كيفية دفع الإيجار، ووجود طعام على موائدهم؛ أكثر من اكتراثهم بالوضع الفلسطيني. لقد انقضت أيام الأمل كما يبدو، وحلت أيام التسليم. ومع ذلك، ترفض غيلدا ميلان الانحناء. بالنسبة إلى بن -

روي، إنما تمثّل الوجه الجيد لبلده؛ بالرغم من قيامها بتوجيه الانتقادات إليه بسبب سارة.

واستمرّا بتبادل أطراف الحديث إلى أن توقف أمام مجمّع السكّني، فقالا لبعضهما غات شاباس مرة أخرى، وأتمى المكالمة الهاتفية، ثم أقفل السيارة وتوجه إلى الداخل. بعد انفصالي عن سارة، كان قد نام طوال شهر على أريكة أحد الأصدقاء في جيفات شاؤول. غير أن ذلك لم يكن تدبيراً مريحاً لأن الأريكة أقصر من قامته بقدم واحدة، ولأن شمويل وصديقه عاشقان مثيران للصخب. وبعد أربعة أسابيع من المهمة والصراخ، وبلوغ بن - روي مرحلة عدم تمكنه من المحافظة على سلامة الصداقة القائمة بينهما وسلامة عقله، وضّب حقيقته وانتقل إلى شقة رثّة مكوّنة من غرفة واحدة في مجمّع سكّني في ها - رامبان. كانت تلك الشقة الصغيرة تستهلك 12,000 شيكل من راتبه الشهري، ولكنه تمكن على الأقل من الحصول على نوم لائق في الليل. والأهم من ذلك أنهما على بُعد شارع من منزل سارة في ابن - إيزرا، وفي الجهة المقابلة تماماً للملعب الأطفال حيث كان من المفترض بهما الذهاب في نزهة مع طفلتهما - أو طفليتهما - عندما يولد. وقد منحّه ذلك بعض العزاء بسبب عدم إقامته معهما.

عندما دخل، استحمّ، ثم سحب ملابس نظيفة ارتداها، وفتح الأبواب المنزلفة والتي تؤدي إلى مساحة إسمنتية مستطيلة الشكل، ضيّقة العرض، مكسوّة بالغبار، يدّعي أنها شرفة. ففي الدقائق العشرين التي تلت مغادرته المركز، كان المطر قد توقف عن الهطول، وتبدّدت الغيوم ليحلّ مكانها لون أزرق سماوي قاتم مع القليل من اللوّن الزهري والأخضر. إنها أمسية جميلة في القدس، إحدى تلك الأمسيات التي تُنسبك كل ذلك الهراء الذي يحدث في المدينة. أحضر زجاجة شراب من الثلاثجة - لم يعد يشرب الكثير منه، ولكن اليوم كان طويلاً وعليه التعويض - وسحب كرسياً بذراعين إلى مدخل الشرفة، ومدّ قدميه على الدرابزين. جلس هناك لفترة وجيزة وهو يُصغي إلى السكون، ويتنشّق روائح الياسمين والأوراق المبلّلة، ويحدّق إلى طاحونة ريهافيا الهوائية. وبعد ذلك، مدّ يده والتقط الكتاب الموضوع على السجادة بجانب الأبواب المنزلفة. "شالوم، الأطفال: مئة معلومة ومعلومة لتكون والدًا صالحًا".

فتحه وشرع بالقراءة محتسباً الشراب من القنينة. كان شارد الذهن. وبعد دقائق قليلة، وضع الكتاب من يده مفكراً. جثت امرأة مخنوقة؛ رحلة جوية إلى مصر، دفاتر مدونات مفقودة، فوسغي. لقد أخلت أفكاره عن الأبوة الوشيكة المكان للقضية مرة أخرى.

في مكان ما

العائلة في المقام الأول على الدوام؛ هذا ما أنشئنا على تصديقه. خدمة العائلة أيّاً تكن التضحيات، وفي أي زمان ومكان، ومن دون طرح أي أسئلة أو إضمار أي شكوك. أنتم تدعمونها وهي تدعمكم. العائلة كل شيء. لقد أدت واجبي على مرّ السنين، هنا وهناك وفي كل مكان، وقمت بالعديد من الأسفار، وعالجت الكثير من حالات الفوضى. هكذا أدعو الأمر، إنه معالجة حالات الفوضى. طالما كنت شخصاً مرتباً نوعاً ما.

وللعائلة موارد أخرى بالطبع؛ موارد وافرة. ولكن بعض حالات الفوضى تقتضي اهتماماً خاصاً، اهتماماً شخصياً؛ اهتمام شخص ينتمي إلى العائلة، فرد من العائلة يرغب في الحفاظ على سعادتها، شخص يمكن الوثوق به فوق كل شيء.

إنها مسؤولية كبيرة؛ ثقة. إنها عبء ثقيل أحمله عادة بابتهاج ولا أتخلّى عنه ولو لثانية. لقد كبرت مع ذاك العبء، بالرغم من كل شيء، وحُفر داخلي منذ سنواتي الأولى، وها أنا أقوم بما يُطلب مني القيام به ليس إلا.

لا أشعر بذاك العبء إلا حين يُطلب مني القيام بأمر ما. وبعد ذلك، أعود إلى نمط حياتي الآمن؛ بعد أن يكون كل شيء قد أصبح مرتباً وفي مكانه؛ ولكن من دون الكفّ عن التفكير بدار العبادة الكبرى. هل تصرفت بسرعة كبيرة؟ هل تركتُ خيوطاً؟ هل كان يُفترض بي الانتظار؟

كان ينبغي أن تكون العملية مُتقنة على غرار كل العمليات الأخرى. أذهب إلى شقتها، وأكتشف ما تعرفه، وأعالج ما تمثله من حالة فوضى، وأزيل الأدلة، ثم أغادر ببساطة على غرار كل العمليات الأخرى.

ولكن، عندما وصلتُ إلى شقتها، كانت تخرج من الباب الأمامي وهي تحمل حقيبة السفر، وهناك أشخاص في كل مكان؛ ممّا يعني وجود شهود. لذلك، كان خيارى الوحيد تتبّعها، فأستقلّ الحافلة متى تستقلّها، وأترجّل منها متى تترجّل منها، وأتبعها في المدينة القديمة، وإلى داخل دار العبادة الكبرى؛ مفكراً طوال الوقت بحقيبة السفر، وإن كان يُفترض بى إتمام العملية متى تتسنى لي الفرصة من دون الالتزام بالمخطّط، محاولاً اتخاذ القرار.

والآن، أخشى أن أكون قد اتخذتُ القرار الخاطئ. لقد عاجلتُ حالة الفوضى، إنه أمر مؤكّد، كما عاجلتُ مسألة جهاز الكمبيوتر الحضي ودفاتر المدوّنات. ويقوم آخرون بالتعاطي مع المسائل التقنية. ولكن هناك خيوطاً، العديد منها، كالصورة الفوتوغرافية مثلاً. هل كان يُفترض بى أخذها؟ هل كان يُفترض بى تفجير الشقة بأكملها؟ هل كان يُفترض بى مواصلة تتبّعها؟ هل، هل، هل؟ لم أبح لأحد بهذه المخاوف. فالعائلة لا تسأل، وأنا لا أقول شيئاً. ولكنها موجودة، وتقضّ مضجعي، وتقلقني. إن كل المهام الأخرى لا تقلقني، حتى إنني لا أفكر فيها. ولكن القدس، دار العبادة الكبرى...

أخشى أن أكون قد خذلت العائلة لأنني لم أقم بما يُفترض بى القيام به، وأن تكون هناك متاعب في انتظاري تسببتُ بها بنفسى. أرجوك يا الله، لا تدعني أتسبب بالمتاعب لعائلي. فالعائلة كل شيء بالنسبة إليّ، وبدون العائلة لستُ شيئاً. وهكذا أملتُ، وانتظرتُ، وأديتُ مهامي بأفضل طريقة ممكنة.

يبقى هناك أمر واحد يثير فضولي: كانت تفوح من شعرها رائحة اللوز؛ تماماً كوالدي.

* * *

عندما رنّ هاتفه المحمول في منتصف الفترة الصباحية، كان بن - روي لا يزال مستغرقاً في نوم عميق، متمدداً على سريره ووجهه إلى الأسفل؛ كنجمة بحر من نوع ما ذات حجم أكبر من المعتاد.

كان قد لجأ إلى السرير عند الثانية من بعد منتصف الليل، بعد إمضائه معظم فترة المساء في البحث عن مقالات لريفكا كلينبرغ على الإنترنت. كان هناك العديد منها،

وأكدت جميعها ما سبق لئان تيرات أن أخبره به. كانت كلينبرغ تلقى قدراً كبيراً من الإعجاب، ولا سيما في المرحلة الأولى من ممارستها المهنة، وتلقّت سلسلة من الجوائز بسبب عملها الاستقصائي؛ بما في ذلك ميداليتان نظراً إلى كونها صحافية العام، حصلت على إحداها عن مقالة تتناول الجرف الإسرائيلي لعيضات زيتون تابعة للفلسطينيين، وعلى الأخرى عن مقالة حول تسييس الموارد المائية في الضفة الغربية.

كانت تلقى الكثير من الإعجاب، ولكنها في الوقت نفسه تعرّضت للشتم على نطاق واسع. لقد أشار تيرات إلى عدد قليل من المجموعات التي أثارت غضبها على مرّ السنين، ووجد بن - روي على الإنترنت المزيد من تلك المجموعات: مناصرو الحركات النسائية، مزارعون، موساد، حماس، الشرطة الإسرائيلية، الشرطة الفلسطينية، الصناعات الكبيرة... وتطول القائمة. كان الجميع كما يبدو ممتعضين من ريفكا كلينبرغ. وعندما استلقى على سريريه في النهاية كان يشعر بالصداع، واستغرق في نوم مضطرب؛ حالماً بطفل آذته الحررة في دار عبادة مليئة بخيوط العنكبوت، ولسبب ما، بجثة لفظها البحر على الشاطئ.

استلقى على سريريه داساً وجهه في الوسادة، ومترنحاً ومتأففاً، وهاتفه الموضوع على الطاولة بجانب السرير يُطلق بصوت مرتفع موسيقى هافا ناجيلا. لقد رغب في تحويل الهاتف إلى صيغة البريد الصوتي، ولكنه خشي أن تكون سارة هي المتصلة وأنها تواجه خطباً ما. لذا، مدّ يده والتقط سماعة الهاتف متأوهاً. لم يكن الرقم رقم هاتف سارة. وتردّد راجباً مرة أخرى في تركه يرن. بعد ذلك، تمدّد على ظهره وأجاب على الاتصال، مسلماً بأنه لن يتمكن من النوم مجدداً، ولذلك سيحجب على الاتصال أيّاً يكن المتصل.

"شالوم".

"التحري بن - روي؟".

"كين".

"موردخاي يارون".

لم يستطع تذكر الاسم إلا بعد مرور وقت قليل. إنه محرر ريفكا كلينبرغ. انحرف إلى جانب السرير، وصفا ذهنه بسرعة. "كنت أحاول الاتصال بك".

"أعرف. آسف، فأنا خارج المدينة. لقد قرأتُ رسائلِك للتوّ".
كان الصوت منخفضاً وأجشّ، وتصعب معرفة عمر المتصل. ربما يكون في العقد السابع من العمر.

"أنا في حيفا"، أضاف. "لقد أنجبت ابنتنا للتوّ. سنبقى هنا حتى اليريس".
"مازالتوف"، قال بن - روي.

وشعر بحاجة غير عادية للفصل بين نبأ ولادة طفل والجريمة، وشرح له بعد ذلك ما حدث. أصغى يارون إليه قائلاً عبارتي "إلوهيم أديرين" و"زيخرونا ليفراخا" فقط في أثناء الحديث.

"سأستقلّ أول قطار"، قال عندما أنهى بن - روي كلامه. "سنعود إلى المنزل غداً بأي حال، ولكن لا أستطيع اختصار الرحلة".
فطلب منه بن - روي عدم إزعاج نفسه قائلاً:
"سيكون لقاؤنا غداً جيداً. أنا مرتبط اليوم بأي حال. متى ستعود؟".
"في أواسط الفترة الصباحية".

واتفقا على الالتقاء في مكتب ماتزبون - أعام عند الساعة الثانية عشرة.
"لديّ سؤال سريع بما أننا نُجري اتصالاً هاتفياً"، قال بن - روي بعد أن وقف وتوجّه إلى المطبخ كما لو أنه يمشي في مياه ضحلة. "هل يمكنك أن تُطلعني على ما كانت السيدة كلينبرغ تعمل عليه مؤخراً؟".

"مؤخراً؟ كانت تعمل على مقالة تتناول الاتجار بالجنس"، أجاب يارون.
"فكما تعلم، تُهرّب الفتيات إلى إسرائيل، ويُرغمن على العمل كمومسات، ويُعاملن كعبدات بصفة رئيسة. إنه أمر مُحزن جداً. بدأتُ بالعمل على المقالة قبل شهر".
وتذكّر بن - روي الطاولة الموجودة في شقة ريفكا كلينبرغ، وكل قصاصات الورق التي وجدها عليها والتي تتناول البغاء وصناعة الجنس. لقد اتّضح الأمر. مدّ يده إلى مرتبان يحتوي على قهوة إليت، وأنزله من الخزانة الموجودة فوق رأسه، وأشعل النار تحت المغلاة.
"وقبل ذلك؟". سأل.

"كُتبت مقالة مهمة عن انهيار اليسار الإسرائيلي، وعن أمر ما يتناول التمويل الأميركي للمستوطنين المتطرفين. وقبل ذلك... دُعني أتذكر... آه، أجل، عرضت

للعنف المحلي في الأراضي الفلسطينية المحتلة. لقد أمضت شهرين في كتابة تلك المقالة. لم تكن ريفكا تبخل قط على بحثها".

سكب بن - روي القهوة في الكوب، وألقى نظرة سريعة على ساعته. إنها العاشرة. كان قد وعد سارة بأن يكون في شقتها عند الحادية عشرة لتزيين غرفة الطفل، ولم يشأ التأخر. لقد حصل على كل ما يحتاج إليه في الوقت الحاضر، لذلك شكر يارون، وأكد له موعد اللقاء، ثم أنهى المكالمة، وتناول فطوراً سريعاً، وحلق لحيته، وارتدى ملابسه، ثم خرج من الشقة تاركاً كل الأفكار المرتبطة بالقضية وراءه. إنه يوم إجازة؛ يوم مخصص لسارة والطفل.

في الخارج، كان مطر اليوم السابق ذكرى بعيدة. فقد كانت السماء صافية، والشمس مشرقة، والجو دافئاً ورطباً. وقف للحظات لتستشق الهواء، ثم انطلق بعد ذلك في نزهة سيراً على الأقدام دامت خمس دقائق متوجهاً إلى منزل سارة، وهو يصفر بنشاز. كان يشعر بأنه في حال جيدة، وبأنه سيصل باكراً للمرة الأولى. يُنْفَخ في الأبواق!

ودوّت موسيقى هافا ناجيلا مرة أخرى.

"شالوم".

"التحري بن - روي؟".

"كين".

"آسف لإزعاجك في يوم الشابات. أشرك بلوم يتكلم".

للمرة الثانية في ذلك الصباح بدا الاسم مألوفاً. وللمرة الثانية في ذلك الصباح، تطّلب الأمر من بن - روي بضع لحظات لتذكر الاسم. إنه أمين المكتبة الوطنية الذي تعرّف إلى جثة ريفكا كلينبرغ من خلال الصور. لقد عثروا على شيء ما، قال له بلوم، شيء قد يكون على درجة من الأهمية. وسأله إن كان يستطيع القدوم.

وقف بن - روي للحظات، ناظراً بعينين ترمشان إلى الطريق التي تفصل بين سيارته التويوتا ونقطة التقائها بابن - إيزرا حيث تقيم سارة. "سأصل على الفور"، قال وعاد إلى سيارته مهزولاً.

* * *

يرأس البطيريركية الأرمنية في القدس أربعة رؤساء أساقفة، ويُعتبر أحدهم البطيريرك الأعلى في حين يكون لكل من الثلاثة الآخرين نطاق عمل خاص به. كان رئيس الأساقفة آرمين بتروسيان مسؤولاً عن إدارة دار العبادة، وقد وفر له هذا المنصب إمكانية مراقبة جميع الأرمن - أو مراقبة عائلته كما يفضل القول - بعد اعتلال صحة غبطة البطيريرك.

لم تكن العائلة موسّعة كما كانت ذات مرة، ولم يتجاوز عدد أفرادها 25,000 في أوج مجدها. أما الآن، فقد تناقص العدد إلى بضعة آلاف بسبب الحروب العربية - الإسرائيلية والوضع الاقتصادي. كان الشبان يرون مستقبلهم في أستراليا، وأميركا، وأوروبا، وليس في إسرائيل.

ولكن الأعداد المتناقصة لا تُعفي غبطته من واجباته، وهو لا يساوي شيئاً إن لم يُقم بواجباته. كلهم أبناءه، وإذا حال نذر التبتّل دون إنجابه ذرية خاصة به، فإنه يعتبر نفسه والداً لهم جميعاً، ويتعيّن عليه إغاثتهم، ورعايتهم، وحمايتهم؛ تلك مسؤوليات الآباء. لقد غادر الجُمع هذا الصباح واضعاً هذه المسؤوليات نُصب عينيه، ومُلقياً نظرات سريعة ومتعددة من فوق كتفه للتحقق من عدم قيام أحدهم بتتبّعه، وشاقاً طريقه إلى داخل المدينة القديمة.

يشكّل الجُمع الجزء الأكبر من الحي الأرميني، ولكن الشوارع الضيقة والمتشابكة القائمة وراء جدرانها تشكل النواحي الخارجية للحي؛ فاصلة إياه عن القطاع اليهودي الذي يقع إلى الشرق. طاف رئيس الأساقفة في هذه المتاهة بسهولة نسبية، متوقفاً بعد كل خمسين متراً، وملتفتاً إلى الوراء قبل أن يتابع سيره. فالجدران الحجرية العالية والشاحبة للقدس ترتفع من الجانبين مشكّلة ما يشبه ودياناً ضيقة، وكان يرى من حين لآخر باباً فولاذياً رمادياً علّقت عليه لوحة معدنية تحمل اسم العائلة المقيمة في المنزل: هاغوبيان، نالبانديان، بليان، بديفيان، ساندروني. وهناك رايات وملصقات أرمنية تحيي ذكرى الإبادة الجماعية التي حدثت عام 1915؛ لم يكن اليهود وحدهم من يحتكرون المعاناة، ولا أي شعب آخر. فمن بين أحياء المدينة القديمة قاطبة، يبقى الحيّ الأرميني الأكثر هدوءاً.

تابع السير حتى وصل إلى أسفل شارع أرارات، حيث انسلّ داخل زقاق ضيق بعد الالتفات للمرة الأخيرة ورائه. وفي الطرف البعيد، كان هناك بابٌ

عُلِّقَت لوحة معدنية أعلاه تحمل اسم ساهاركيان. ضغط على زر الهاتف الفيديوي الداخلي. وبعد قليل، سُمِع صوت عدد كبير من المزاليج تُسَحَب، ثم فُتِح الباب. كان هناك رجل يقف في الداخل حاملاً مسدساً بيده، ويوجد وراءه رجلان آخران يحملان بندقيتين رشاشيتين. فأوماً رئيس الأساقفة برأسه للدلالة على رضاه. "آمن؟".

"آمن"، أجاب الرجال بصوت واحد. رفع بتروسيان يده مبارِكاً، ثم استدار، وأسرع في العودة إلى الزقاق. وسُمع وراءه صوت إغلاق باب وطقطقة مزاليج. كانت المكتبة الوطنية في إسرائيل بهندستها الحديثة تبدو كشطيرة مستطيلة من الإسمنت على أرض جيفات رام في الجامعة العربية.

ويبدو آشر بلوم، رئيس خدمات القراء، كرسم كاريكاتوري. فهو طويل ونحيل، شعره مقصوص على صورة زبدية بودنغ، ويرتدي سروالاً من الجينز تنقصه بوصة من الأسفل ليكون مناسباً لطول قامته، كما يضع نظارة سمكة الإطار. كان يجمع في شخصه كل الشخصيات النمطية لأنحاء المكتبة الذين يمكنكم التفكير فيهم.

"نقفل يوم السبت"، شرح في أثناء إدخال بن - روي إلى المبنى. "قدمنا اليوم فقط لإنجاز عمل متأخر ووضع بعض أكדاس الكتب في مكائها. أخبرت راشيل بما حدث، فذكرت المقالات. لم تكن هنا يوم أمس، لذلك لم أتصل بك من قَبْل".

ورافق بن - روي عبر الأبواب الزجاجية وأقفلهما، ثم تقدّمه إلى الطابق العلوي حيث يوجد طابق بدون جدران فاصلة، وعلى امتداد الجدار المقابل لأعلى الدرج نوافذ زجاجية ملوّنة، وعلى جانبيه غرف للمطالعة. وبدت الألواح الملوّنة وكأنها تحترق تحت ضوء شمس الصباح، مُحدّثة بَرَكاً حمراء وخضراء وزرقاء على امتداد الأرض المكسوّة بالسجاد.

"نوافذ موردخاي أردون"، شرح بلوم. "إنها مصدر فخرنا وفرحنا". أوماً بن - روي برأسه إيماءة تقدير، وتحقق من ساعته. إنها العاشرة وست وخمسون دقيقة. سيصل متأخراً، ولكن سارة تتوقع ذلك وباستطاعته التأخر قليلاً.

عبراً الفسحة، ثم باباً كتبت عليه عبارة قاعة المطالعة العامة، ووصلاً إلى مساحة خفيفة الإضاءة، عالية السقف. تحتوي على طاولات، وكومات كتب، ونوافذ ذات أطُر من الألومنيوم تُشرف على باحة داخلية رتيبة. وبجانب الباب تماماً كانت هناك منضدة خشبية على صورة L تجلس وراءها أمينة مكتبة ثانية لا توحى بأي شخصية نمطية: فهي بنية الشعر، وجذابة، تضع على أنفها لؤلؤة، وترتدي تي - شيرت كينغز أوف ليون ضيقة.

"راشيل ألدِر"، قال بلوم معرّفاً بها. "كانت أمينة مكتبة مناوبة عندما حضرت السيدة كلينبرغ إلى هنا في المرة الأخيرة".

فصافحها بن - روي، محاولاً الإشاحة بنظره عن صدرها.

"لقد عثرت على شيء ما كما يبدو" قال.

فأومأت الفتاة برأسها، مائةً يدها تحت المنضدة، ومُخرجةً ورقةً أبيض 4 متغصنة.

"تركتها السيدة كلينبرغ بجانب قارئات الميكرو فيلم"، شرحت، مسلّمةً إياه

الورقة. "عرفتُ أنها لها لأنني تمكنتُ من التعرف إلى الخط. كانت تترك على الدوام أغراضاً في الأرجاء".

"متى حدث ذلك؟".

"يوم الجمعة الماضي صباحاً".

أي قبل أسبوع من مقتل كلينبرغ.

"سألت عما كانت تبحث عنه على القارئات"، قال آشر بلوم. "نعتقد أن

الأمر قد يكون على درجة من الأهمية".

تفحص بن - روي الورقة. فوفقاً لخبرته، هناك أجزاء أدلة تقفز أمام ناظرَيْك،

صارخة: "انظر إليّ! ساحل الجريمة!"، وهناك أجزاء أدلة لا تقوم بذلك على غرار هذه الورقة.

كانت الورقة تحمل قائمة بأسماء أربع صحف وتواريخ نشرها، إحداها

الجيروزاليم بوست عدد 2 تشرين الأول/أكتوبر 2010، والثلاث الأخرى عائدة

لتايمز بتاريخ 9 كانون الأول/ديسمبر 2005، و17 أيار/مايو 1972، و16

أيلول/سبتمبر 1931.

"هل كانت تتفحص هذه الأعداد؟" سأل بن - روي.

فأومأت الفتاة برأسها.

"هل تعلمين ما الذي كانت تتفحصه بالتحديد؟".

"كانت تقرأ شيئاً ما بلا ريب في صفحات الأعمال في التايمز. كنت أساعد أحدهم على تشغيل الجهاز بجانبها، وتمكنتُ من رؤية ذلك من فوق كتفها. أعتقد أنه ذلك العدد".

ووضعت إصبعها على جملة عدد 9 كانون الأول/ديسمبر.

"كانت تدوّن الملاحظات"، أضافت. "الكثير من الملاحظات".

"والصحف الثلاث الأخرى؟".

فهزت الفتاة رأسها.

نظر إلى القائمة، ومن ثم إلى ساعته. إنها الحادية عشرة ودقيقتان. كان ينبغي عليه الذهاب، وباستطاعته متابعة الأمر في وقت آخر. ولكن البقاء بضع دقائق إضافية لن يُحدث أي فرق. فتردد، محاولاً الاختيار بين واجبه المهني والتزاماته الشخصية. وانتصر الواجب المهني.

"هل يمكننا إلقاء نظرة؟".

"بالتأكيد".

خرجت أمينة المكتبة من وراء المنضدة ورافقته إلى صف من الخزائن المعدنية الموضوعة على امتداد الجدار وصولاً إلى طرف القاعة. وتركهما آشر بلوم للقيام بعملهما، شاغلاً نفسه بتكديس الكتب في عربة نقل صغيرة.

كانت الخزائن تحمل أسماء ست صحف، بعضها بالإنكليزية، وبعضها بالعبرية: هآرتس، معاريف، ידיעות أحرونوت، الجيروزاليم بوست، التايمز، النيويورك تايمز. وتناولت الفتاة القائمة من بن - روي، ونظرت في اتجاه الأعلى والأسفل، ومن ثم شرعت بفتح الأدراج. كان كل منها مليئاً بصفوف مرتبة من الصناديق الكرتونية، ويحمل كل صندوق لصاقة بتواريخ الأعداد المطبوعة الموجودة في الصندوق، والمتوافرة على ميكروفيلم مُرفق بها. فأخرجت الصناديق التي تحمل تلك التواريخ، وحملتها إلى أقرب قارئة، وجلست. ووقف بن - روي وراءها.

"من أين تريد أن تبدأ؟" سألت.

"أظن أنه يجب البدء بالصحيفة التي رأيتها وهي تتفحصها. هل تذكرين الصفحة؟".

"ليس تماماً. ربما أتذكرها عندما أنظر إليها مجدداً".

وشغلت الجهاز، وفتحت أحد الصناديق، وأخرجت لفافة الأفلام وثبتتها في مكانها، ولفتها وصولاً إلى الصفحة الأولى. وتأكدت من وجود الصورة في الوسط وعدلت العدسة لتوضيح الرؤية، ومن ثم جعلتها تدور إلى الأمام بسرعة. بدت الصفحات على شاشة الإسقاط لطّحات رمادية مُبهمّة، وتردد في أرجاء القاعة صدى الشريط الملتفّ. فحددت مكان العدد المطلوب - الجمعة 9 كانون الأول/ديسمبر 2005 - ومن ثم أبطأت البكرة، مرّرة الصفحات صفحة صفحة بحثاً عن المقطع الذي رأت ريفكا كلينبرغ تقرأه. ومرّت عناوين رئيسة وأجزاء من هذه العناوين - "قد تمتنع المستشفيات عن معالجة المدخنين والشمّلين"، "بلير يحاول عزل..."، "... فقدت ساقها ولم تعد تتمكن من السير بين صفوف المقاعد"، "... تموت بسلام في الـ 113" - قبل أن تتوقف أخيراً عند الصفحة 66. فحدّقت بها للحظات، ومن ثم أومأت برأسها.

"هذه هي"، قالت. "تعرفتُ إلى الصورة. كيف هي لغتك الإنكليزية؟".
"جيدة".

"في هذه الحالة، سأتركك للاطلاع عليها بينما أقوم بإعداد بكرات أخرى. نستفيد من الوقت".

وأشارت إلى زرّي التقديم والإعادة، ومن ثم انتقلت إلى الجهاز المجاور وشرعت بتركيب الفيلم التالي. فجلس بن - روي وحدّق بالصفحة أمامه.

كانت هناك صورة لرجل لم يسمع به من قَبْل يدعى جاك غرامان، وإعلان بحجم نصف صفحة لمجموعة من الكتب السمعية التي تتناول جرائم خيالية، وثلاث مقالات إحداها عن الاقتصاد الهندي، وأخرى عن نزاع لأحد المستثمرين في تكّتل مصري، والأخيرة عن استخراج الذهب.

ذهب، فوسغي.

وانحنى إلى الأمام وشرع بالقراءة.

رومانيا تُعطي بارين ضوءاً أخضر ذهبياً

بوخاريست، مُنحت شركة بارين، وهي العملاق الأميركي في المعادن والبتروكيمياويات، رخصة لمدة ثلاثين عاماً بهدف تطوير منجم الذهب دراجس في جبال أبوسيني الغربية. وتمتلك شركة بارين المسجلة باسم باربادوس 95 بالمئة من المنجم، وتعود الحصة المتبقية - 5 بالمئة - لشركة مينفست ديفا التي تمتلكها الدولة. ولا يزال احتياطي منجم دراجس المعروف منذ العصر الروماني يُقدَّر بما بين 30 و40 مليون أونصة من الذهب المقاوم للصهر الذي يتمتع بمعدل تركيز عالٍ على نحو فريد يبلغ 35 غراماً في الطن الواحد.

في نقلة للصناعة في اتجاه آفاق جديدة، لم تُمنح الرخصة إلا بعد أن قدمت بارين ضمانات قانونية مرتبطة بإدارة التلوث وحماية البيئة. وتؤدي عملية استخراج الذهب من المعادن الخام إلى مستويات عالية من النفايات السامة، والحكومة الرومانية حريصة على تجنب تكرار كارثة البايا ماري في العام 2000؛ عندما فجّرت بحيرة نفايات سداها ولوّثت قسماً كبيراً من الحوض العلوي للدانوب. وفي حين تسمح الشروط المرفقة بامتياز دراجس بتفكيك المادة السامة بسرعة والتخلص منها محلياً، أخذت بارين على عاتقها نقل كل الرواسب غير القابلة للتفكيك إلى منشآت في الولايات المتحدة لإبطال مفعولها وطمرها.

"تتولّى مسؤولياتنا البيئية بجدية تامة"، علق المدير التنفيذي الأول مارك روبرتس. "في دراجس، نحن مسرورون بمواكبة حقبة جديدة من التعاون بين صناعة التعدين والمصالح الخضراء".

من المتوقع أن يُنتج المنجم 1.5 مليون أونصة من الذهب سنوياً عندما يعمل بأقصى طاقته. يبلغ سعر أونصة الذهب الآن 525 دولاراً.

وصل بن - روي إلى نهاية الخبر وأسند ظهره مختاراً. هذا ما كانت تتفحصه كلينبرغ بالتأكيد، ليس بسبب رابط الذهب/فوسغي فحسب، بل أيضاً بسبب وجود عدة مقالات عن صهر الذهب، كما يتذكر، وسط كل ذلك الإهمام المحيط بالأوراق التي كانت على الطاولة في شقتها هناك، إضافةً إلى الأطلس الذي وُضعت مؤشّرتَه عند خارطة لرومانيا. لماذا تتفحص مقالات عن مسألة مختلفة؟ فوقاً محرّرها، كانت كلينبرغ تعمل على مقالة حول الاتجار بالجنس عندما توفيت. لم

يستطع بن - روي أن يتخيّل وجود صلة بين ذلك وعملية استخراج الذهب في أوروبا، علماً أن اسم بارين ليس غريباً عنه تماماً. فحكّ رأسه، محاولاً تذكّر المكان الذي سمع فيه بهذا الاسم من قبل، ولكن من دون جدوى. وبعد تدوين بضعة ملاحظات، قرر مواصلة البحث.

كانت الجيروزاليم بوست التالية بعد إعداد بكرتها.

عدد الجمعة، 2 تشرين الأول/أكتوبر 2010. كانت مقالات عن ما - ماتزاف، الوضع السياسي الراهن تملأ معظم الصفحة الأولى، إضافةً إلى مقالة صغيرة مصوّرة عن الشطرنج، وفي الزاوية السفلية اليمنى إعلان يمتدح الحاخام مئير كاهان؛ "القائد اليهودي الأكثر صدقاً وثباتاً في جيلنا". فهز بن - روي رأسه، شاعراً بالتسلية بسبب الغباوة البحتة لهذا الإعلان، وبالانزعاج من حصول كبير التحرين ذاك على تغطية في الصفحة الأمامية لصحيفة وطنية رئيسية. ومن ثم ضغط على زرّ التقديم، باحثاً عن مواضيع ذات صلة.

لقد تطلّبه الأمر أقل من دقيقة للعثور على أخبار موجزة عن بارين أيضاً في الصفحة 4.

اقتحام مكتب في تل - أبيب

تمّ اقتحام مكاتب رامات هاشايال التابعة لشركة بارين الأميركية متعددة الجنسيات ليلة الأربعاء. واحتجرت مجموعة مناهضة للرأسمالية تطلق على نفسها اسم ذي نميسيس أجنادا حراس الأمن، وبعثت الأوراق الإدارية، وتسلمت إلى الملفات في أجهزة الكمبيوتر التابعة للشركة. يُطلب ممن يملك أي معلومات الاتصال بشرطة إسرائيل على الرقم (03) 2211-555.

وتذكّر الآن متى شاهد اسم بارين. ففي اليوم السابق، عندما كان عالقاً في حركة المرور عند باب يافا، كانت هناك لوحة إعلانات كبيرة تحمل تصوّر أحد الفنانين لما ستبدو عليه المنطقة بعد انتهاء أشغال الطرقات. وجاء في شعارها: "مؤسسة بارين: تفخر برعاية تاريخ القدس المستقبلي".

لم يكن يملك أي فكرة عن سبب اهتمام ريفكسا كلينسبرغ بالشركة، أو بالاقتحام الذي تعرّضت له مكاتبها، وبمقالة استخراج الذهب أيضاً؛ إذ لم تكن

هناك صلة واضحة بالقصة التي كانت تعمل عليها. وتفحص الصحيفة بسرعة للتحقق مما إذا كانت هناك مقالات مرتبطة بالموضوع. ولكنه لم يجد أي شيء، فدوّن مجدداً بعض الملاحظات، ثم انتقل إلى الجهاز التالي الذي يحمل بكرة عدد صحيفة التايمز العائد لتاريخ 17 أيار/مايو 1972. كانت هناك في الصفحة الأمامية صورة رجل مكبّل اليدين مع عنوان رئيس: "السيد والاس الآن خارج قائمة النقاد ويتّجه لتحقيق انتصار كبير في الانتخابات الحزبية الأولية عن ماريلاند".

حتى الآن، جرت الأمور بسرعة وبشكل معقول. وبالرغم من صفحتها البالغ عددها 28، كانت الصحيفة محشوة من بدايتها إلى نهايتها بما يلي: قصص إخبارية، مقالات بارزة، افتتاحيات، رسائل القراء، مراجعات، ولادات، زيجات، وفيات، إعلانات مبوبة؛ كلها بحروف صغيرة تُصيب العينين بالدوار وتؤلم الرأس. لقد اعتقد للحظات أنه عثر على ما يريده في الصفحة 7 حيث توجد مقالة كبيرة عن افتتاح منشأة جديدة لتوليد الكهرباء بواسطة الماء في رومانيا. كان هناك بُعد إسرائيلي أيضاً: صورتان في النهاية تُظهران الرئيس الروماني تشاوشيسكو في لقاء مع غولدا مئير لمناقشة الوضع الفلسطيني. رومانيا وإسرائيل، صلات واضحة. لقد أنبأه حدسه بأن الحدثين تزامنا صدفة، وليس ما كانت ريفكا كلينبرغ تتفحصه. وقرأ المقالة مرتين، ومن ثم تابع البحث.

وفي النهاية، قضى الجزء الأكبر من الساعة وهو يجدد في مطالعة كل المقالات التي تتناول محاولة اغتيال حاكم ألاباما جورج والاس، وحرب فيتنام، والاضطراب الصناعي في المملكة المتحدة، والنمو السكاني في اليابان، وقيام امرأة في إيران بإنجاب ثمانية توأمين، وسقوط امرأة أخرى في حفرة في مصر. وكانت راشيل ألدر وأشر بلوم يجوبان القاعة، مُعيدَين الكتب إلى الرفوف، ومن ثم خرجا لإحضار الغداء، وعادا بعد ذلك وبين - روي لا يزال جالساً هناك؛ غافلاً عن مرور الوقت، وعن كل شيء باستثناء النص الموجود أمامه. كان قد سمع ذات مرة بأن القدس تملك أعلى نسبة في العالم لجهة المشاكل التي تعاني منها العيون، وذلك لأن كل ما يقوم به طلاب الإِشيفا هو الانكباب من الفجر وحتى الغسق على قراءة النصوص المقدسة اليهودية. وكلما قرأ المزيد، ازداد ارتياح بن - روي بأنه سيُضاف قريباً إلى هذا الإحصاء. ومع ذلك، لم

يتمكن من العثور على أي شيء قد يفسر سبب اهتمام ريفكا كلينبرغ بتلك المطبوعة بالتحديد.

في النهاية، وصل إلى آخر الصحيفة وكفّ عن البحث، مسلماً بأنه لن يجد ما كانت كلينبرغ تتفحصه. وانتقل إلى كرسي آخر، وركز على آخر الصحف في قائمة كلينبرغ: التايمز - عدد 16 أيلول/سبتمبر 1931.

كانت الصفحات مليئة بنصوص أكثر قرباً من بعضها، وأكثر صُغراً من عدد العام 1972، وهذا ما أثار دُعره. لم تكن الصفحات الثلاث الأولى تحمل أي مقالة بل مجرد قوائم صغيرة تُدمع العينين تحتوي على ولادات، وزيجات، ووفيات، وإعلانات مَبوَّبة. وبدلاً من قراءتها كلها كما فعل في الصحيفة السابقة، قرر تصفّح كل الصفحات بسرعة أملاً في ملاحظة خبر ما على صلة بالموضوع.

وهذا ما قام به. وفي الصفحة 12 التي تتناول الأخبار الاستعمارية والأجنبية، كانت هناك قصة قصيرة من ثلاثة سطور مدسوسة بين مقالتين عن فيضانات في الصين وإعصار في بليز. كانت قصيرة جداً لدرجة أنه مرّ عليها من دون التوقف عندها، ولكن أمراً ما استرعى انتباهه وعاد للتحقق منه.

رجل إنكليزي مفقود

(نقلاً عن مراسلنا)

القاهرة، 15 أيلول/سبتمبر

أبلغ عن فقدان السيد سامويل بينسكر، وهو مهندس في التعدين من سالفورد، مانشستر، في مدينة الأقصر. والبحث عنه مستمر.

لقد شعر بالإرهاق وبألم في الرأس، فارتاح للحظات محاولاً أن يتذكر المكان الذي رآه فيه من قبل. وبعد أن تذكر، وقف وعاد إلى الجهاز السابق وإلى صحيفة التايمز السابقة، عدد 17 أيار/مايو 1972. كانت الصفحة الأخيرة لا تزال معروضة على الشاشة، أعاد البكرة إلى الوراء إلى الصفحة 2، ومن ثم قدّمها إلى الأمام باحثاً. مرّ على الصفحات ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، وسبعة، وأعاد البكرة صفحتين إلى الوراء، وعثر على ضالته في أسفل الزاوية اليمنى للصفحة 5؛ إنها قصة المرأة التي سقطت في حفرة في مصر. فاحذوب إلى الأمام، وقرأ:

نِجاة مَحْظُوظَة

الأقْصَر، مِصر، 16 أيار/مايو. نَجَتْ امْرَأَة بَرِيطَانِيَة بَعْد سَقُوطِهَا دَاخِل فَتْحَة قَبْرِ نَاءٍ فِي أَثْنَاءِ إِقَامَتِهَا فِي الأَقْصَر لِقَضَاءِ شَهْرِ العِسل. وَقَعَ الحَادِثُ بَيْنَمَا كَانَتْ أَلَكْسَنْدَرَا بُورِز تَسِير مَعَ زَوْجِهَا عَلَي التَّلَالِ الحَيطَة بُوَادِي المَلُوك. وَبِالرَّغْمِ مِنْ سَقُوطِهَا عَنِ ارْتِفَاعِ 20 قَدَمًا، لَمْ تُصَبِّ بُورِز إِلَّا بِكَسَرٍ فِي رِسْغِهَا وَبِبَعْضِ الكَدَمَات. وَلَكِنْ شَخْصًا آخَر لَمْ يَكُن مَحْظُوظًا عَلَي غَرَارِهَا. فَبَيْنَمَا كَانَتْ فِي أَسْفَلِ الفَتْحَة، اكْتَشَفَتِ السَيِّدَة بُورِز حِثَّة رَجُلٍ مَحْظُوظَة تَمَامًا فِي المُنَاخِ الصَّحْرَاوِي الجَاف. وَتَشِيرُ المَعْلُومَاتُ الأُولِيَة إِلَى أَنَّ الحِثَّةَ عَائِدَة لِسَامُوِيل بِيَنسَكِر، وَهُوَ مِهْنَدِسٌ بَرِيطَانِي فَقَدْ قَبْلَ أَرْبَعَة عَشَرَ عَامًا، وَيُعتَقَد أَنَّهُ سَقَطَ فِي المِوَةِ فِي أَثْنَاءِ اسْتِكْشَافِهِ التَّلَالِ الطَّبِيعِيَّة. وَعَادَ السَيِّدُ وَالسَيِّدَة بُورِز إِلَى المَمْلَكَةِ المِتَّحِدَة.

لَقَدْ أَعَادَ قِرَاءَةَ القِصَّةِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَقَرَأَ القِصَّةَ السَّابِقَةَ تَكَرَّرًا، وَمِنْ ثَمَّ جَلَسَ، فَارَكَا عَيْنَيْهِ. مِهْنَدِسٌ فِي التَّعْدِينَ يَخْتَفِي فِي مِصر، وَتَفْتَحُ شَرَكَة أَمِيرِكِيَّة مُتَعَدِّدَة الجِنْسِيَّاتِ مَنجَمٌ ذَهَبٌ فِي رُومَانِيَا، وَتُقْتَحَمُ مَكَاتِبُهَا فِي إِسْرَائِيلَ، وَتَهْتَمُ رِيْفَكَا كَلِينْبِرْغُ بِكُلِّ هَذِهِ الأُمُورِ، وَتَمُوتُ رِيْفَكَا كَلِينْبِرْغُ خَنْقًا. هُنَاكَ ثَلَاثَةُ خِيُوطٍ، خِيُوطٌ وَصِلَاتٌ جَدِيرَةٌ بِتَشْكِيلِ نَسِيْجٍ عَنَكَبُوتٍ. فَكُلُّهَا مُرْتَبِطَةٌ بِطَرِيقَةٍ مَا وَتَوَلَّفَ شَكْلًا مُخْطِئًا. اكْتَشَفَ الصَّلَاتُ، وَافْهَمَ الشَّكْلَ النَّمْطِيَّ، وَعِنْدَهَا سَتَحْلُ الجَرِيْمَة. أَمْرٌ بَسِيطٌ. إِنَّهُ أَشْبَهَ بِأَحْجِيَةِ الصُّورَةِ المَقْطُوعَةِ، عَدَا عَنِ أَنَّ هَذِهِ الأُحْجِيَّةَ الاسْتِثْنَائِيَّةُ مُكوَّنَةٌ مِنْ أَلْفِ قِطْعَةٍ مُخْتَلِفَةٍ كَمَا يَبْدُو، وَمِنْ دُونِ وَجُودِ أَيِّ إِلمَاعَةٍ لِمَا سَتَكُونُ عَلَيْهِ الصُّورَةُ النِّهَائِيَّةُ كَكُلِّ. إِنَّهَا بِحَاجَةٍ إِلَى مُتَعَقِّبٍ ظَلَالٍ، وَفَقًّا لِتَعْبِيرِ لِيهِ شَالِيْفٍ، لَا بَلْ إِلَى مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْ مُتَعَقِّبٍ لِلظَّلَالِ. وَكَلِمَا فَكَّرَ بِالأَمْرِ بَدَأَ أَكْثَرَ تَشَوُّشًا وَازْدَادَ الأَلَمُ فِي رَأْسِهِ.

فَتَأَوَّهَ وَمَدَّ سَاقِيَهُ، مُحَدِّقًا بِذَهْنٍ شَارِدٍ بِالسَّاعَةِ الجِدَارِيَّةِ عَلَي الجَانِبِ البَعِيدِ لِقَاعَةِ المِطَالَعَةِ. إِنَّهَا الوَاحِدَة وَعِشْرُونَ دَقِيقَةً.

وَبَعْدَ لِحْظَاتٍ، رَفَعَ أَشْرَ بُلُومٍ وَرَاشِيلَ أَدْلِرَ أَنْظَارَهُمَا، مُجْفَلَيْنِ، بَعْدَ أَنْ اخْتَرَقَتْ صَرِخَةٌ "آه تَبًّا!" جِدَارَ الصَّمْتِ.

عِنْدَمَا وَصَلَ بِنٌ - رُويَ إِلَى مَوْقِفِ سِيَارَاتِ حَرَمِ الجَامِعَةِ، كَانَ عَلَي عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِهِ لِدُخُولِ سِيَارَتِهِ التَّوَيُوتَا وَالتَّوَجُّهُ إِلَى مَنْزِلِ سَارَةِ لِدَرَجَةِ أَنَّهُ لَمْ يَلَاظِ

مضمار الألعاب الرياضية التابع للجامعة على بُعد 200 متر، ولم يتكبّد عناء النظر إليه. فلو نظر لرأى شخصاً واحداً يهرول على مضمار السباق. ولو انتظر وصول ذلك الشخص إلى أقرب نقطة منه لتمكّن من معرفة زميله التحري دوف زيسكي. غالباً ما يقصد زيسكي المكان بعد الشول في صباح يوم السبت. بعض الحاحامات يقولون إنه لا يُفترض بكم الركض يوم الشّبّت لأنه يوم استراحة، والقيام بتمارين رياضية أمر مخالف للدين. ولكن، طالما كان لزيسكي تصوّره الخاص عن الإيمان، وعن معظم الأمور. إنه مطيع ولكن ليس إلى درجة الاستعباد. بأي حال، يمنحه الحفاظُ على لياقته البدنية السرور. إذًا، لا بأس بذلك، وكان يتصوّر أن ها - شيم ربما يُضْمِر له أموراً أكبر.

زاد سرعته، وركض بأقصى سرعة مسافة مئة متر، وأبطأ بعد ذلك، وسدّد بعض اللكمات، مُرخياً ذراعَيْه. كان يعرف ما يراه الناس وما يفكرون فيه عندما ينظرون إليه: إنه ضعيف، وفاقد الحيوية؛ شخص يسهل التغلّب عليه. غير أنه يمكن للمظاهر أن تكون مُضلّلة. ومع ذلك، فهو لم يُعر الأمر اهتماماً، وكان يحاول على الدوام تجنّب المواجهات. ولكن، عندما يتفاقم الوضع فباستطاعته الاهتمام بنفسه تماماً. لقد لاحظ الناس، أشخاصٌ مثل غرشمان في أكاديمية الشرطة، هذا الأمر على مرّ السنين. في العادة، لا يُبالي زيسكي بتعابير الاستهزاء التي تصفه بأنه غير سويّ - فقد اعتاد سماعها منذ مدة طويلة - ولكنه يلجأ أحياناً إلى شنّ هجوم مضاد عندما يُضطر لذلك. ويبدو أن غرشمان قد تعرّض لهذا الهجوم وكفّ عن مضايقة زيسكي، ولديه الآن أنف مُعَوّج لبقية حياته.

ركض بأقصى سرعته مرة أخرى، وارتمى على العشب بجانب مضمار السباق، وشرع بتمارين الضغط مستمتعاً بانتفاخ عضلات ذراعَيْه وصدره. وفي أثناء ارتفاعه وانخفاضه، اندفع بَدول فضّي يحمل عبارة ماغن دافيد خارج الناحية العلوية من كنزته الرياضية، فأرغم على التوقف لإعادته إلى مكانه تحت الكنزة. كان لوالدته ولم يشأ أن يتضرر، فتحقق من وضعه بشكل آمن، ثم أنهى التمارين. واستلقى على ظهره للقيام بتمارين للمعدة، وبعد ذلك عاد إلى المضمار مجدداً.

توفيت والدته قبل عامين، علماً أن وفاتها تبدو كما لو أنّها حدثت في اليوم السابق. لقد أُصيب بمرض السرطان في السائل اللّمفوي، ونزبتين. والمعدة؛ في كل

شيء أساسي. وقبل أسبوع من وفاتها، وبعد أن أصابها الهزال وفقدت كل شعرها الذهبي الجميل بسبب العلاج الكيميائي، أصرّت على مغادرة المستشفى لحضور تخرّجه من أكاديمية الشرطة. كان شقيقها شرطياً ومات في أثناء الخدمة، وها هو ابنها يحمل شارته أيضاً. لقد بكت فحراً، وبكى زيسكي أيضاً ولكن ليس أمامها، بل في وقت لاحق بعد عودته إلى مبنى الأكاديمية. حينذاك، صادفه غرثمان وشرع بمناداته قائلاً إنه غير سويّ. وبالرغم من طول قامته البالغة اثنتين وستين قدماً ووزنه البالغ 90 كيلوغراماً، ألحق به زيسكي الهزيمة. يا له من جاهل!

وزاد سرعته من دون بلوغ السرعة القصوى، وكان حذاؤه الرياضي يرتطم بأرض المضمار على نحو إيقاعي، والبندول البارد العائد لوالدته ماغن دافيد ينزلق جيئةً وذهاباً على امتداد عظم صدره المتعرق.

كان يفكر بوالدته كثيراً، ويعلم أنه تتم الإشارة إليه بالبنان على أنه الشاب غير السويّ الذي يحب والدته، ولكن هذا ما كان عليه الحال. فقد كانت امرأة صالحة وقوية، وحافظت على وحدة العائلة في بعض الأوقات العسيرة. وفي النهاية، وبينما كان جالساً بجانبها، ممسكاً بيدها وممرّراً يده بنعومة على رأسها الأضلع، حملته على إطلاق وعد لها بأن يكون ابناً صالحاً وشقيقاً صالحاً، وشرطياً صالحاً أيضاً، وأن يحاول على الدوام القيام بالأمر الصائب، وأن يتأكد من مثول فاعلي السوء أمام العدالة.

لهذا السبب، كان قد قرر التوجه إلى شقة ريفكا كلينبرغ لإلقاء نظرة عليها، وذلك بعد الاستحمام وتناول القليل من الطعام، لأنه يريد القيام بالأمر الصائب؛ ألا وهو تقديم فاعلي السوء للعدالة. لم يكن يُفترض أن يعمل أحد يوم السبت، أو يمارس رياضة الهرولة، أو تمارين المعدة، أو حركات كراف ماغنا، ولكن دوف زيسكي لم يتقيّد بالقواعد؛ إذ كانت لديه ممارسته الدينية الخاصة. إنه أمر ورثه من والدته.

* * *

كان بن - روي لا يزال يملك مفاتيح شقة سارة؛ إذ لم يكن انفصالهما تاماً لأنها طالبت بأن يعودا إلى بعضهما. وعندما لم يُجب أحد على قرع الباب، وانتقل هاتفه المحمول إلى صيغة البريد الصوتي، فتح الباب ودخل.

فبخلاف غالبا التي كانت تتمتع بمزاج ناريّ، لم تكن سارة سريعة الغضب. فهي تعبّر عن رأيها بصراحة، وإذا كانت منزعجة فهي تعلمه بذلك. بصورة عامة، إنها هادئة ومسترخية نوعاً ما بالرغم من تصرفاته على مرّ السنين. إن هذا أحد تلك الأمور العديدة التي جعلته ينجذب إليها في المقام الأول ويفتقدها. كانت غاضبة منه في هذا اليوم، غاضبة جداً لدرجة أنها لم تكن موجودة عندما دخل الشقة، حتى إنها تركت كومة من لوازم التزيين على أرض الرّدهة: أوعية الطلاء، الفراشي، صندوق العدة، بعض الرفوف، مع رسالة مقتضبة وجافية موضوعة عليها. ذهبتُ إلى منزل ديورا. قُم بالعمل بنفسك. وهذا ما قام به بقية اليوم، وتلاشى شعوره بالفرح لإعداده غرفة مولوده الأول لأنه على ثقة تامة بأن والدته هذا المولود الجديد تعتقد أنه غبيّ تماماً.

هيوستن، تكساس

حدّق وليام بارين بطاولة قاعة الاجتماعات - قطعة واحدة على صورة مدرّج طائرات من القَيْقَب الأحمر المصقول - وتمنّى لو أنه لم يتعاطَ هذا الكمّ من الكوكايين قبل القدوم إلى الاجتماع. كان قد خصص لنفسه قطعة صغيرة فقط؛ شظيّة رفيعة بطول بوصة واحدة من أفضل الأنواع البوليفية قطعها بترتيب بواسطة نَصْل الأَمِكْس بلاك لاستجماع القليل من النشاط بعد ليلة شاقة. لماذا يعتقدون على الدوام اجتماعات مجلس الإدارة يوم السبت؟

فبعد تعاطيه الكوكايين وجلسه هناك إلى طاولة مكتبه كدودة خَيْطِيّة هزيلة، بدا الأمر خيالياً وغير ملائم البتّة لساعة الملل التي تنتظره في الشركة. أعاد فتح اللُّفافة، وأخرج كمية صغيرة أخرى من المسحوق الشفّاف، وسحقها براويزة الأَمِكْس، وأضافها إلى ما كان موجوداً هناك. ولكن ذلك بدا غير كافٍ، وانتهى به الأمر مُفرِغاً كل المحتويات المتبقية في اللُّفافة - الجزء الأكبر من ثلث غرام - وجامعاً إيّاها على صورة إصبع صغيرة. لقد تشقّقها بنخرة واحدة متمرّسة، مستخدماً أنبوب الكوكايين الفضي الذي أفرده خصيصاً لهذا الغرض. وبعد تمريره

لسانه على اللّفاة لالتقاط الذرّات المتبقية، ومسحه الطاولة بذراعه لإزالة أي دليل، استقلّ المصعد إلى قاعة الاجتماعات مع شعور جيد بمعنويات مرتفعة.

وندم على ذلك بعد عشرين دقيقة. فقد كان قلبه يخفق بقوة، ولم يتمكن من الكفّ عن صرف أسنانه، وكانت الأفكار تتألى في رأسه بسرعة هائجة لدرجة أنه كاد ألاّ يتحكم بها. فجلس هناك إلى رأس الطاولة، هازأً ساقه بتوتر وناظراً بسخف إلى الأعضاء الآخرين في مجلس الإدارة الذين يتبادلون أطراف الحديث عن الشركاء الجدد المتمتعين بالنفوذ، وعن إعادة بناء الثقة بالشركة في الخارج، وعرض الأسعار في شأن حقل الغاز في مصر. فإذا لم يفوزوا بالعقد ستراجع أعمال شركتهم ومرتبته في قائمة فوربس للشركات الخاصة.

كان يُدرك أن الجميع يحتقره، ولا سيما مارك روبرتس المدير التنفيذي الأول، ويشعر بأنه عائق، وقليل الشأن، وليس واحداً منهم. فهو لم ينضم إلى مجلس الإدارة إلا لأنه حفيد الحفيد لجو بارين المحترم الذي انبثقت إمبراطوريته - شركة بارين - المقدرة ببلايين الدولارات من الامتياز الذي حصل عليه للتغيب عن الذهب في سيرافينا. كان شخصاً متواضعاً يخاف الله، وُلد في كوخ مؤلّف من غرفة واحدة - وفقاً لأسطورة العائلة - ولم يكن جو ليتخيل قط أن تنمو مغامرته الصغيرة ويصبح عملاقاً في التعدين والبتروكيميايات بعد ثلاثة أجيال، ولديه أعمال في القارّات الست واتصال مباشر بالبيت الأبيض. ولم يكن ليتخيل أيضاً أن يكون حفيد حفيده جالساً مع أعضاء مجلس إدارة الشركة منتشياً بعد قضائه الليلة لاهياً مع مومس!

أجل، إنهم يحتقرونه: مارك روبرتس، جيم سلاين، هيلاري ريكهام، أندي رودجرسون. وألقى وليام نظرة حوله، وشعر بالاستهجان يكوي كلاً من أعضاء مجلس الإدارة الاثني عشر. لقد شعر بهذا الاستهجان بصفة خاصة ينبعث من شاشة الاجتماع الفيديوي القائمة على الطرف الأبعد للطاولة، حيث كان وجه والده المتورّم والأشيب يحوم عبر الأثير كما لو أنه نحلة طنانة هائلة من نوع ما.

وإذا كان جو بارين هو من أسس الشركة، وقام ابنه جورج بتوسيعها، فإن ناتانيل بارين - حفيد جو المُسنّ، ووالد وليام - هو من حوّلها إلى ما هي عليه اليوم من كيان ضخم؛ فهو من نوع خدماتها لتشمل النفط والغاز، وهو من وسّع

أعمالها في أنحاء العالم من خلال شركات فرعية تمتد من روسيا إلى إسرائيل، ومن الصين إلى البرازيل، وهو من أقام الصلات السياسية، وحاك خيوط الالتزام التي أوقعت حكومات في شتى أنحاء العالم في أشراك بارين العنكبوتية.

فنانايل يجسّد شركة بارين، وبالرغم من تقدّمه في السن وسوء حالته الصحية اللذين أرغماه على التنحّي عن رئاسة الشركة قبل أربعة عقود تقريباً، فهو لا يزال يسترعي اهتمام الآخرين كرئيس مجلس إدارة غير تنفيذي.

ولكن، ليس لمدة طويلة. فالرجل المُسنّ مريض ويفقد لمسته، ووليام على أهبة الاستعداد لتسلّم زمام الأمور. ربما كان يميل إلى الكوكابين والسيارات والمومسات ولكن ذلك لا يعني أنه غبي، بل بالعكس تماماً. كان يحوك بعض المؤامرات في الأيام الأخيرة، مؤامرات دقيقة ومُحكّمة بالتعاون مع أشخاص يشغلون مناصب عالية ومفيدة. وبعد إلقاء نظرة حوله، كان على يقين بأن سبعة على الأقل من الأعضاء الاثني عشر سيتخذون جانبه عندما يحين الوقت. إنهم يحتقرونه ولكنهم يخشونه. فعلى غرار مايكل كورليون في الفيلم السينمائي "عُراب"، سيتولى وليام بارين قريباً أعمال العائلة، كل أعمال العائلة، والويل لمن سيقف في طريقه.

"هل هناك ما يُبهجك يا بيلي - بوي؟".

لقد صدرت زمجرة شبيهة بزمجرة دب من الشاشة التي يجري من خلالها لاجتماع الفيديو، وملأت القاعة، موقظةً وليام من حلم اليقظة. وكما يرونيه على الشاشة، كان ناتانيل يراهم أيضاً من خلال كاميرا صغيرة مثبتة في أعلى شاشة لأنه نادراً ما يغادر منزل العائلة الفخم على ضفة نهر أوكس في هذه الأيام. كان يحدّق مباشرةً بابه.

"هل هناك ما يُبهجك؟" كرّر، وشعّ وجهه المنتفخ والمماثل لكرة السلة ستهجاناً.

"لا، يا سيدي"، أجاب وليام متلعثماً، واندفعت الكلمات من فمه بسرعة تُرد على طاولة الكراؤس؛ "لا شيء".

"ولكنك تبسم ابتسامة عريضة، يا بيلي - بوي. الناس لا يتسمون ما لم يكونوا مبتهجين. رجاءً، شاطرنا بهجتك".

لم يكن وليام مُدركاً أنه يبتسم. فزَمَ فمه بتوتر، وبدَلَ جلسته على نحو غير مريح مع تحديق ثلاثة عشر زوجاً من العيون به. لقد شعر بأنه معتوه؛ تماماً كما حدث له عندما أذله الرجل المُسنّ أمام الخدم ونعته بالفاشل. ولكنه لم يكن معتوهاً، ولم يكن فاشلاً بالتأكيد. كان فائزاً، وعمّاً قريب سيُثبت...
"بيلي - بوي؟".

كان الصوت أجشّ ومهدّداً. إنه صوت أورسن ولز الخالي من أي طيبة قلب. إنه صوت كوابيس وليام المزعجة.

"لا بد أنني كنت أفكر بعرض الأسعار المصري"، تتمم؛ باذلاً قصارى جهده لكبح جماح تأثيرات الكوكايين وللمحافظة على هدوء لهجته واتزانهِ، وأصبح مثل فوريسْت غامب. "إذا حصلنا على العقد... فسينقلنا إلى مستوى آخر. وفي الواقع سيضع بارين على الخارطة".

فحدّق به والده عبر شاشة الفيديو كثنبان كوبرا متربّص براكون، أو بالأحرى ككر كدن متربّص... أيّاً يكن ما تتربّص به حيوانات الكركدن. إنها اللحظة المحورية، لحظة العذاب، اللحظة التي تجعل وليام يتغوّط في سرواله، وليام البالغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاماً ويشغل منصب نائب رئيس مجلس إدارة شركة متعددة الجنسيات تبلغ دورة رأس مالها 50 بليون دولار. هل سيهاجمه الرجل المُسنّ ويعتفه كما كان يفعل على الدوام؟ أم سيهدأ وينسى الأمر؟ كانت ساق وليام تتحرك صعوداً ونزولاً، فيما الأعضاء الآخرون لمجلس الإدارة مسرّون في أماكنهم بصمت، والتوتر ينطلق كشعاع ليزر بين طرفي الطاولة. كان باستطاعته سماع تكتكة الثواني.

"بارين موجودة على الخارطة منذ زمن"، قال والده أخيراً عندما كان وليام على وشك البدء بالصراخ. "في كل مكان من الخارطة".

ومنحه الرجل المُسنّ لحظة أخرى، رافعاً من حدة التوتر ومن ألم الانتظار. وبعد ذلك، أسند ظهره إلى الكرسي، ناخراً على نحو ينمّ عن الرضى.
"تبّاً، نحن نملك الخارطة اللعينة!".

وتماوج الضحك في أنحاء الغرفة، وتبدد التوتر. وأطلق وليام أعلى الضحكات. "صحيح، تماماً!". صاح مصفّقاً بيديه. "إنها خارطتنا اللعينة! نحن متواجدون في كل مكان كالذباب على الغائط!".

كان تعليقه غيباً بعد أن أخذ منه الكوكابين وشعوره بالارتياح كل مأخذ. وأسف لذلك على الفور، وحلّ سعال مُحرّج مكان الابتسامات. لحسن الحظ، لم يلاحظ والده ما قاله كما يبدو. ورفع قناع الأكسجين البلاستيكي إلى وجهه، وأخذ نفساً عميقاً وخشناً - يا الله! كم أحب وليام ملء ذلك القناع بغاز السارين ومشاهدة الوغد العجوز وهو يختنق! - ولوّح لمتابعة الاجتماع. وشرع جيم سلاين، المدير التنفيذي الأول، بالعرض للعمليات الحسابية المعقّدة، وملاً صوته الطنّان الصادر من أنفه القاعة، مُفرغاً إيّاها من الحياة والألوان.

وأُسند وليام مرفقيه إلى الطاولة، وشبك يديه، جالساً بأكثر قدر من الثبات، محاولاً أن يبدو شديد الاهتمام والتركيز، وغائصاً مجدداً في أفكاره. كانوا يعتقدون خطأً أنه لم يفهم أيّاً من ذلك. فهو مُلمّ بجوانب الأعمال كافّة: الأرقام، التلميحات، الصفقات، الصفقات الثانوية؛ كل شيء، لا بل أيضاً الأمور التي يظنّ والده أنه لا يعرفها. فهم من لم يفهموه، هم من لم يفهموا مدى ذكائه، وعزمه، وقساوته؛ على غرار مايكل كوليون تماماً. سيهتم بأعمال العائلة قريباً. لديه خطط، وأصدقاء، ودعم. سيكون هناك سفك دماء، وعندما ينتهي ذلك سيسيطر على زمام الأمور تماماً.

الأقصر

بواجهته المهيبة ذات القضبان المشبّكة وردهته الكهفية المكسوّة بالمرمر، كان مركز الشرطة الجديد في العوامية مبنى شديد القبح يوحي بمهابة هندسية مضلّلة. ويشير السكان المحليون إليه بالبندَر.

وأولئك الذين يعملون هناك يطلقون عليه أسماء متنوّعة: القلعة، كعكة الزفاف، ومبنى الحسني الفخم الذي لا طائل منه.

إثر وصوله في صباح يوم الأحد بعد يوم إجازته، اندفع خليفة عبر بابي المدخل الزجاجيين المكسوّين بالغبار، وأوماً برأسه تحيياً الرقيب الجالس إلى الطاولة، وكذّب في السير صعوداً على الدرج لبلوغ مكتبه في الطابق الرابع. في المركز القديم، كان يُصرّ على الوصول إلى مكتبه عند الثامنة صباحاً على الأكثر، ولم يكن يصل

إلى العمل في الوقت المحدد. ومنذ انتقاله إلى المركز الجديد، سمح لنفسه بعدم التقيد ببعض الأمور، ونادراً ما كان يصل قبل التاسعة. وفي هذا الصباح، كان الوقت يقارب العاشرة عندما وصل إلى أعلى الدرج ودخل مكتبه.

"مساء الخير"، قال إبراهيم فتحي، وهو التحري الذي يشاطره المكتب. كان الجميع يطلقون عليه لقب الحمار.

فتجاهل خليفة الملاحظة الساخرة، وارتمى وراء طاولته، وشغل جهاز الكمبيوتر، وأشعل سيجارة كليوباترا.

"هل هناك أي رسائل؟".

"لم أتلّق أي رسالة"، أجاب فتحي، ساحباً مشطاً وممرّاً إياه على شعره المنتقع بالزيت بوفرة.

"هل وصل ساريا؟".

"حضر وغادر. لقد تم سحب الوقود من زورق آلي آخر. إنه الحادث الثالث من نوعه هذا الأسبوع. إنه على الكورنيش يتحدث إلى المالك".

سحب خليفة نفساً عميقاً من سيجارته. لم يكن يعتزم النزول إلى النهر؛ إذ يملك ساريا القدرة التامة على التعاطي مع الأمور بمفرده. لذلك، أجرى اتصالاً سريعاً بالمنزل - كان قد غادر قبل عشرين دقيقة فقط، ولكنه يحب البقاء على اتصال بزينب للاطمئنان عليها - وشرع بتقليب الملفات الموجودة على طاولته. فبعد أسبوعين، سينظر القضاء في قضية الطعن التي حدثت في توثيتيل. ولكن سبق له أن تقدّم بتقريره، وكل ما تبقى لديه للقيام به هو المثول أمام القاضي في قاعة المحكمة وتقديم دليله. ولا يزال يتعين عليه النظر في قضية الاتجار بالمنشّطات في السوق، ويُفترض به ربما الذهاب إلى الكرّك في مرحلة ما والتحقق من التقارير التي بلغته في شأن سرقات تعرّض لها مخزن ثلاثيات. لو عاد به الزمن إلى السوراء لقصد المكان على الفور، ولكنه ارتأى هذا الصباح أنه باستطاعة ذلك الانتظار؛ وباستطاعة السوق الانتظار أيضاً. وكما هو الحال في هذه الأيام، لم يكن في مزاج ملائم. وفكر في إجراء اتصال هاتفي بدميانا بركات، ومتابعة حديثهما الذي جرى قبل يومين، ولكنها كانت ستصل به لو بلغها أي شيء، فقرر مرة أخرى عدم الاتصال بها. وواصل تقليب المذوّنات بإيمانه في أثناء ولوجه الإنترنت باليد

الأخرى، ودخوله إحدى غرف التحادث التي كان قد زارها مؤخراً ليس لتبادل أطراف الحديث - كان شديد الخجل حتى باعتماد اسم مفترَض - بل لقراءة ما يقوله أشخاص آخرون يعانون مما يعاني منه؛ كان يشعر بالراحة لوجود أشخاص مثله.

ولج الموقع وانحنى إلى الأمام مستعداً للقراءة. في هذه الأثناء، رن هاتفه المحمول. جيد، جيد. إنها دميانا.

"صباح الخير يا صديقي"، قال وعيناه مسمرتان على الشاشة. "كنت أفكر للتو في الاتصال بك. هل كل شيء بخير؟".

"بخير"، أجابت. "اسمع، أنا على وشك دخول دار العبادة، لذلك سيكون الاتصال سريعاً. أردت تقديم بعض المعلومات التي قد تكون على صلة بما ناقشناه يوم أمس".

حدّق خليفة بالصفحة للحظات أطول - رسالة أخرى من جمال في الإسماعيلية الذي لا يزال يناضل للتأقلم مع فقدانه زوجته قبل عامين - ومن ثم أشاح بنظره عنها، مولياً صديقه انتباهه الكامل. "أنا أصغي"، قال.

"بعد أن تحدّثنا، طلبتُ التحقق مما إذا كان أحدهم قد بلغ مسمعيه أي حدث مماثل لتلك الأحداث التي وصفناها"، أضافت، "كما تعلم، تسميم الآبار وطرد الناس من مزارعهم. لم يسمع أحدهم بأي أمر مماثل، على الأقل في المنطقة التي حدّدناها. ولكن، هذا الصباح، كنت أتحدّث إلى مرقس الذي يدير مكتبة هنا، وذكر حدوث أمر مماثل. حدث ذلك منذ زمن بعيد، وفي مكان مختلف تماماً، لذلك قد لا يكون الحدثان مرتبطين، ولكنني فكرتُ بإعلامك بأي حال".

"تابعي".

"هل سمعتَ يوماً بدير الزيتون؟".

لم يسبق لخليفة أن سمع به.

"إنه دير صغير، في وسط الصحراء الشرقية. يكاد الموقع يكون خالياً من أي شيء باستثناء مبنيين، وبئر ارتوازية، وغيضة زيتون قديمة دُعي الدّير تيمناً بها. ويُقال إن سانت باشوميوس هو من زرعها، وهو قول معلّل بالأمال ربما نظراً إلى

أن باشوميوس عاش في القرن الرابع. ولكن الأشجار قديمة بالتأكيد ويعود تاريخها إلى بضع مئات من السنين على الأقل. بأي حال، لقد ييست كلها فجأة قبل ثلاثة أعوام أو أربعة، إضافةً إلى حديقة الخُضار التي تغصّنت وذُبلت".

وسُمع صوت مَضغ في الجانب الآخر من الغرفة في أثناء تناول فتحي حفنة من التورشي من الكيس الموجود باستمرار على طاولته كما يبدو. وأدار خليفة ظهره، محاولاً حجب الصوت.

"هل تم ريّ الغيضة بماء من البئر؟" سأل.

فقال "أن - هو" إيجابية.

"والحديقة أيضاً"، قالت. "يشرب رجال الدين مياهاً يتم نقلها بصهريج، ولذلك لم يُصابوا بالتسمم. لقد تسممت الأشجار والخُضار فقط".

فكر خليفة ملياً، ومن ثم وقف وتوجّه إلى الخارطة الكبيرة المعلقة على الجدار وراء طاولة إبراهيم فتحي. فالصحراء الشرقية التي تبدو كمساحة واسعة حاوية بلون أصفر باهت قائمة بين البحر الأحمر والقوس الأخضر النحيل الذي يمثّل وادي النيل. وتتقاطع الطرق العامة الممتدة من الغرب إلى الشرق كدرجات سلّم، ولا وجود لأي شيء آخر سواها؛ رمال، وصخور، وجبال، لا غير.

"أين يوجد هذا الدير بالتحديد؟" سأل.

"في منتصف الطريق تقريباً بين الأقصر وأبو الدَّهَب على الساحل، غرب جبل الشلول".

تتبّع خليفة الخارطة بإصبعه، محدداً مكان الجبل. لم يكن الدير ظاهراً، ولكن أتى له أن يظهر إذا كان صغيراً. وحرك إصبعه في اتجاه الغرب، محدداً مكان بير هاشفا، القرية القائمة قرب مزرعة عطية. إنها على بُعد أربعين كيلومتراً تقريباً، وهي بعيدة جداً كما يبدو ليكون هناك أي رابط جليّ بين الحادثتين. ومع ذلك، ومع ذلك...

"هل لا يزال رجال الدين هناك؟" سأل.

"لقد غادروا. هناك أسطورة كما يبدو تقول إن الدير ينحو ما دامت أشجار الزيتون التابعة له حيّة. وعندما ييست الغيضة، جمعوا أمتعتهم وأخلوا المكان. بأي حال، كان هناك عدد قليل منهم فقط".

"هل واجهوا أي متاعب قبل ذلك؟".
 لا، وفقاً لمعلوماتها.
 "هل تعرّضوا للتهديد بأي طريقة؟".
 "الدير قائم في منطقة نائية ويكاد المرء لا يعرف بوجودهم؛ حتى إن القمر لا يعرف بوجودهم ربما".
 "ألم يبلغك حدوث أي أمر آخر في المنطقة؟".
 "لا أعتقد أن أمراً آخر قد حدث في المنطقة. كما قلتُ، إنه مكان ناءٍ".
 وسمِع صوت همس في الخلفية.
 "أسفة يا يوسف، عليّ الذهاب".
 "بالطبع. شكراً لإعلامي. إذا بلغك أي شيء آخر...".
 وأتمت المكالمات الهاتفية. فحدّق خليفة بالحارطة، متمعناً بالصحراء مستطيلة الشكل بين الطريقتين العامين 29 و212، ومن ثم عاد إلى طاولته. بئر عطية، ابن عم السيد عطية، والآن دير الزيتون. ثلاثة موارد ماء مسمّمة، كلها قبطية. يمكن اعتبار تسمم مورد واحد، لا بل موردَين، خطأً عاثراً، ولكن ثلاثة؛ يوحي ذلك بوجود شكل نمطي بالرغم من وجود مسافة كبيرة بينها. أشعل سيجارة أخرى وحدّق بشاشة جهاز الكمبيوتر. كان عبد الحسن 43، وهو زائر منتظم آخر لغرفة المحادثة، قد أنزل سلسلة من آيات القرآن الكريم، إضافةً إلى قصيدة لا تعتبر البكاء أمراً مُحجلاً. فقرأ نصفها، ومن ثم أقفل الموقع، ورفع سماعة خطه الأرضي وطلب رقم الهاتف الفرعي للرئيس الحسني.
 وفي الناحية البعيدة للغرفة، سمِع صوت مَضغ في أثناء قيام إبراهيم فتححي بتناول حفنة أخرى من التورشي.

القدس

عندما تحدّثنا في صباح اليوم السابق، اقترح موردخاي يارون القدوم إلى القدس للتحدث إلى بن - روي، وتجنّبه عناء قيادة سيارته في زحمة السّير في تل - أبيب طوال ساعة. فأبلغه بن - روي أن لا مشكلة لديه على الإطلاق. يمكن

للقدر أن تؤثر فيك أحياناً على غرار والدته متسلطة، وتكون أحياناً بحاجة للفرار لمدة وجيزة لتصفية ذهنك.

وهذا ما كان يقوم به هذا الصباح، متوجّهاً بسيارته نحو السهل الساحلي خارج المدينة على امتداد الخط المتعرج للطريق 1 بين تلال اليهودية، فيما قبة السماء فوقه تكتسي لوناً أزرق لا تشوبه أي شائبة، ويداعب الهواء الساخن الداخل من النافذة المفتوحة ذراعاً. منذ مدة غير طويلة، كانت ضواحي المدينة تنتهي فجأة وراء روميم، ولكنها تمتد إلى أبعد من ذلك كما يبدو، زاحفة بلا رحمة في اتجاه المنظر الطبيعي كطحالب دائمة التمدد، خانقة العالم بالإسمنت. مبانٍ كثيرة؛ الكثير من المباني على الدوام. وإذا استمرّ التمدد بهذا المعدل، فلن تبقى هناك أي أرض.

لم يتراجع زحف المنازل والمجمعات السكنية أيضاً، ولم تعد التلال إلى وضعها الطبيعي إلا عندما مرّ بميفاسيريت تسيون على بعد عشرة كيلومترات من وسط المدينة. كانت المنحدرات الصخرية ذات الأشجار المبعثرة تعلو وتستوي كما لو أنها تُطلق تنهيدة ارتياح، وكان بن - روي يتنفس بسهولة أيضاً. فزاد سرعته وانعطف عند كول ها - ديريك، أي صوت الطريق، فيما مكبرات الصوت تضجّ بأغنية أليشا كيز، إمباير ستايت أوف مايند. فابتسم؛ إنها إحدى أغاني سارة المفضّلة.

كانا على وشك العودة إلى بعضهما بشكل دائم، لولا عودته إلى منزل سارة في وقت متأخر من اليوم السابق، علماً أن الأمر تطلّب منه بذل قدر كبير من الجهد لترضى عنه؛ أو على الأقل لإرغام نفسها على ذلك. لقد انتهى به الأمر ماكثاً في شقتها حتى ما بعد منتصف الليل وهو يزيّن غرفة الطفل، وعاد في صباح هذا اليوم لإنهاء المهمة. والنتيجة أن الغرفة بدت في أبهى حلّة، وحملته على تناول فطوره بشهية - وفي ذلك دلالة أكيدة على تحسّن سلوكه وذوبان الجليد عن علاقتهما - والامتناع عن قراءة المقالات في الصحيفة التي عثر عليها في المكتبة.

لقد شعر بالانزعاج؛ لأنه كلما فكر في الأمر شعر أكثر فأكثر - ولأسباب يجهلها - بأن المقالات أساسية لفهم سبب مقتل ريفكا كLINBERG. وقد منحه إحدى عشرة ساعة من استخدام ورق الصّقل، والطلاء، وتثبيت الرفوف، الكثير

من الوقت للتفكير. ذهب، مصر، تعدين، مؤسسة بارين. لقد واصلت هذه المعطيات الثقل في رأسه كلسان قفل خزانة معدنية. حصل على السلسلة الصحيحة، تفتح القضية على الفور. أخفق في ذلك، تبقىها مقفلة بإحكام مهما حاولت.

حدث تطوّر واحد فقط مثير للاهتمام جداً. فعندما عاد إلى القدس وانتظر طويلاً في زحمة السير التي بدت غير متناهية وراء أضواء إشارة المرور في شارع شديروت بن تسفي، تلقى اتصالاً من دوف زيسكي. لقد أعاده الخط الأرضي لكليبرغ، وهاتفها المحمول، ورسائل بريدها الإلكتروني، إلى المربع الأول كما يبدو؛ إلى القصة نفسها. لم يتمكنوا كما يبدو من الحصول على اتصالات الضحية ورسائل بريدها الإلكتروني في الأشهر الستة الأخيرة لأن سجلاتها كانت فارغة. وقبل هذه الفترة، كان كل شيء مسجلاً ومفنداً كالعادة. ولكن، منذ بداية العام، أُزيلت كل التفاصيل المرتبطة باتصالاتها كما يبدو. كانوا يراقبونها، ولكن التفسيرات الوحيدة التي تمكنوا من تقديمها في هذه المرحلة هي أن خطأ ما حدث في أجهزة الكمبيوتر التابعة لهم. إن خطأ ثلاثة أجهزة منفصلة، ومحو المعلومات المتعلقة بريفكا كليبرغ دون سواها، أبعد ما يكونان عن الصدفة. أم إن شخصاً ما تسلل إلى شبكاتهم - وهو التفسير الأكثر احتمالاً - وعبث ببياناتها.

"لقد تحدثتُ إلى صديق لي"، كان زيسكي قد قال، "يعمل في أمن شبكات الكمبيوتر. وهو يقول إن شركات الاتصالات متنبّهة جداً في العادة عندما يتعلق الأمر بحماية الشبكات، وليس من السهل التسلل إليها. وهو شخص على علم بما يقومون به".

في هذه الحالة، يُطرح احتمالان فوراً. جريمة كمبيوترية في إسرائيل؛ على غرار أي جريمة منظّمة أخرى، بإشراف الروسكايا مافيا نفسها التي هدّدت كليبرغ بشكل مباشر قبل سنوات قليلة، وفقاً لصديقه الصحفي ناتان تيرات، والمقالة التي نشرتها المجموعة المناهضة للرأسمالية، ذي نميسيس أجندا، في الجيروزاليم بوست، والتي قرأها في اليوم السابق. ويبدو أن هذه المجموعة متورطة أيضاً في تسلل إلى شبكات الإنترنت. أهى مصادفة؟ أم إن هناك صلة؟

هناك بحث يتعين عليه القيام به، الكثير من البحث، ولكن باستطاعته الانتظار. لقد أراد هذا الصباح التركيز على كتابات كلينبرغ الصحافية. صحيح أنه لم يمرّ يومان بعد على بداية التحقيق، ولكنه يشعر بأنه يتخبط في مأزق معلومات غير مترابطة، وبأن الوقت قد حان للتركيز على التفاصيل، والشروع بعزل الخيوط عن بعضها. ورفع عداد السرعة إلى 120 كيلومتراً في الساعة بعد انتهاء أغنية إمباير ستايت أوف مايند وبدء أغنية ستونز سيمباتي فور ذي ديفل ذات الإيقاع الموسيقي الأكثر إلحاحاً واندفاعاً؛ إنها إحدى أغنياته المفضّلة. وأصبحت القدس وراءه، وظهرت أمامه الملائة الخضراء المسطّحة للساحل الساحلي. لقد شعر بالارتياح بسبب توجهه غرباً.

يشغل الميناء الفلسطيني القديم في يافا - عروس البحر - أرضاً مرتفعة وناتئة في البحر على صورة فاصلة تمتد من الطرف الجنوبي لخط تل - أييب الساحلي. لقد ابتلعت المنطقة الحضرية الأوسع في شمال الميناء المدينة التي كانت قائمة ذات مرة إلى يمين الميناء، وأُخرج سكانها العرب إلى ضواحي العجّمي وجباليا، وشغل مالكون يهود جدد مبانيها العائدة لمرحلة الاحتلال العثماني وحقبة الانتداب. كان مكتب ماتزيبون - أعام موجوداً في أحد هذه المباني. وهو مبنى رثّ من طابقيّن في شارع ريهوف أولي تسيون وسط سوق البرغوث شكوك ها - بيشيشيم.

بعد وصوله قبل الظهر بقليل، ركن بن - روي سيارته في الزاوية، ووضع لوحتي رقم تسجيل السيارة الحمراءين التابعتين للشرطة للحؤول دون تحرير محضر ضبط بالتويوتا. ومن ثم، شق طريقه عبر الرّحام الملّون لأكشاك بيع التحف الأثرية، والأقمشة، والفلافل، وصولاً إلى مدخل المبنى. وطلب منه موردخاي يارون الدخول. "هل واجهتكَ أي مصاعب؟" نادى من فسحة الطابق الأول في أثناء صعود

بن - روي الدرج.

"لا مصاعب. كنت أقيم في تل - أييب، وكثيراً ما أتردّد إليها. لم تتبدّل." "ثق بي، لقد تبدّلت الإيجارات. فما فعلته منظمة إيرغون بالعرب، يفعله أصحاب الملك الآن بنا نحن المستأجرين. ارتفاع آخر للإيجارات وسنرغم على الخروج."

بلغ بن - روي الفسحة، وتصافح الرجلان. كان المحرر يشبه دافيد بن - غوريون بقصره وبدانته وصلعه، وبأذنيه الكبيرتين وجبينه العريض المحاط بِخُصَل شعر بيضاء، أم إنه يكاد يكون مشابهاً له لولا ملابسه: حذاء، سروال قصير فضفاض، وقي - شيرت غوش شالوم. إنه أشبه بهيبيّ مُسنّ أكثر منه بأب مؤسس.

"أتريد قهوة؟" سأل وهو يرافق بن - روي إلى داخل المكتب. "أم شرباً؟".

"لا بأس بالقهوة".

لوّح له يارون للجلوس على كرسيّ بذراعين، وشغل نفسه بالمغلاة. كانت الغرفة ضيّقة وملئقة بأشياء غير مرتّبة، وتفوح منها رائحة قديمة لدخان غليون: أرضية خشبية عارية، طاولة، خزانة كتب، آلة قديمة لتصوير المستندات في إحدى الزوايا. وتُشرف النوافذ المفتوحة على إستاد بلومفيلد فوتبول ستادיום في الشمال، وعلى ناطحات السحاب وسط تل - أبيب. وعلى الجدران مُلصقات إعلانية كبيرة موضوعة في أطر، ومنها سباق هادشر للسيارات، وليلة موردخاي فانونو، وعرض لمسرحية هامتر لشمول هاسفاري.

"لقد ذكرت كل الصحف حادثة مقتلها"، تتم يارون في أثناء سكبهِ القهوة في كوب، مديراً ظهره لبن - روي. "الصفحات الداخلية. يحدوك الظن بأن العناوين الرئيسة ستتناول حادثة مقتل إحدى أفضل الصحافيات في هذا البلد، ولكن الحياة الجنسية لرئيس البلدية أكثر أهمية كما يبدو".

لم يكن بن - روي يطالع الصحف. لقد ثبت أنه لا أساس لمخاوفه من هياج يغذي وسائل الإعلام، على الأقل في الوقت الحاضر.

"لقد تحدثت عنها صحيفة هآرتس بشكل جيد"، أضاف الرجل المُسنّ. "هذا أقلّ ما يمكنها القيام به نظراً لعدد المقالات الحصرية التي زوّدها بها. يا لريفكا المسكينّة! يا لميتتها الرهيبة! لا أزال غير مصدّق لما جرى لها".

وتنهّد وهز رأسه.

"كانت امرأة جيدة. صعبة المراس، ولكنها امرأة جيدة، وصحافية جيدة لا ترحم. زيخرونا ليفراخا".

ووصلت محتويات المغلاة إلى درجة الغليان - لا بد أنها كانت ساخنة لأنها بقيت على النار أقل من دقيقة - فملاً يارون الكوب.

"أخشى ألا يكون لديّ حليب".

"هل لديك سكر؟".

"لديّ سكر".

"أريد ملعقتين من فضلك".

وضع يارون ملعقتين من السكر، وسلّم القهوة لبِن - روي مع نسخة
لماتزبون - أعام.

"إنه إصدار هذا الشهر"، قال. "لإعطائك فكرة فقط عما نحن بصددّه. هناك
مقالة لريفكا تتناول انهيار اليسار الإسرائيلي. لن تقرأ تحليلاً أفضل عن الهراء
السياسي في هذا البلد".

وتوجّه إلى طاولته وجلس. حدّق بن - روي بالغلاف الخارجي للمجلة الذي
يحمل صورة كفاية لخارطة إسرائيل مرسومة بطريقة تجعل البلد يبدو شبيهاً بقمع
مع فتحة في أقصى الجنوب، وينزلق خليط من الكلمات - عمّال، ميريتز، السلام
الآن، تعددية، تساهل، ديمقراطية، صحة الرأي - عبر القمع ويخرج من الأسفل إلى
صندوق قمامة كبير. وجاء في العنوان: "الأمل يتجه جنوباً".

"رسم توضيحي جيد، ألا تظن ذلك؟ لقد صمّمته بنفسي".

"إنه مثير... بالتأكيد".

"هل أنت مهتمّ بالسياسة؟".

فهزّ بن - روي كتفيه. يكون مهتمّاً أحياناً وغير مهتمّ أحياناً أخرى، ولكن
ليس اليوم بالتأكيد. وقرأ المحرر سيماءه ولم يُصِرّ.

"اليسار انتهى"، هذا كل ما قاله، "منذ أن دعّونا مليون روسي لعين لتشكيل
إليا. لقد دفعوا هذا البلد في اتجاه أقصى اليمين لدرجة أنه يتعيّن على زئيف
جابهوتينسكي دخول قبره".

وتأفّف، ثم التقط غليوناً وشرع بحشوه بتبغ موجود في جراب جلدي مثنيّ.

"بأي حال، الشيء بالشيء يُذكر. رجاءً، أخبرني كيف أستطيع

مساعدتك".

ارتشف بن - روي قهوته التي بدت كما لو أنها ماءٌ جليّ أطباقٍ ولكنها
محلاة، وسحب كرسيّه ليجلس قبالة يارون مباشرةً.

"أريد التحدث عن كتابات كلينبرغ الصحافية". وشرع في الكلام، واضعاً
المجلة على الأرض وفتحاً دفتر مدوناته. "عندما تحدثنا يوم أمس، قلت إنها كانت
تكتب مقالة عن البغاء".

"بغاء بالإكراه"، صحّح يارون. "التجار بالجنس. هناك فرق. البغاء بالإكراه؛
إذ يتم استغلال الوضع الاقتصادي بالتأكيد، علماً أنني أعرف الكثير من الناس
الذين قد يجادلوني في ذلك".

"هل تعرف أي تفاصيل؟" سأل بن - روي. "ما الذي كانت تكتبه بالتحديد؟".
"حسناً، كانت الفكرة في الأصل استخدام الاتجار بالجنس لوضع مقالة
جذلية على نطاق أوسع"، قال يارون، ضاعطاً مزيداً من التبغ داخل الغليون وراضاً
إياه بإهمامه. "شيء ما عن حالة الأمة، على أن تستخدم الرّق الجنسي مجازاً للدلالة
على انحطاط المجتمع الإسرائيلي أخلاقياً. ولكن ريفكا هي ريفكا، وسرعان ما
تخرج عن الموضوع".

وأخرج قدّاحة ومرّرها فوق مقدّمة الغليون، وأحدثت شفتاه صوت فرقة في
أثناء اشتعال التبغ، وتشوّشت قسّات وجهه آنياً وراء خمار من دخان رمادي
مائل للزُرقة.

"في بادئ الأمر، قررت التركيز على ما يهمّ القارئ في الخير"، قال. "أي
غضّ الطرف عن السياق الاجتماعي - السياسي الأوسع والتركيز على الفتيات
أنفسهنّ، وتمكينهنّ من التعبير عن آرائهنّ، والسماح لهنّ بإخبار قصصهنّ. وبعد
ذلك، دخلت أمراً استقصائياً كبيراً عن الآليات الفعلية للاتجار بالجنس: كيفية
تنظيمه، كيفية تنقل الفتيات، من يدبر الصناعة. كان من المفترض بالمقالة أن تكون
مكوّنة من ألف كلمة، ولكن حجمها استمر بالازدياد، واستمر الحد الزمني
الأقصى بالانقضاء".

وهز رأسه، ملوّحاً بيده لتبديد الدخان.

"ريفكا النموذجية. أتذكرها تماماً في بداية مهنتها، عندما كنا نعمل معاً لصالح
مجالات فنية صغيرة في حيفا - هكذا التقينا عرضاً، في السبعينيات - لقد طُلب منها
وضع مقالة عن حائكي الأقمشة الدروز، وانتهى بها الأمر مع مقالة من أربعة آلاف
كلمة عن غولدا مثير وخيانة الحركة النسائية اليهودية".

ابتسم، وسحب نفساً عميقاً آخر من غليونيه.
"هذا ما كانت عليه؛ فقد كانت غالباً تبتعد عن موضوع البحث. وكلما ازدادت سناً، ابتعدت أكثر فأكثر عن موضوع البحث. ففكرة تؤدّي إلى أخرى، وينتهي بك الأمر مع مقالة تأخر موعدها نشرها أسابيع ولا تشبه بشيء الملخص المُسبق. لهذا السبب طردت من هآرتس".
"بلغني من أحد مصادرّي للمعلومات بأن سبب طردها يعود إلى إصابتها بـ...".

وراجع بن - روي مدوّناته، باحثاً عن الكلمة الدقيقة لتيرات.
"... الذهان الارتياحي".

وهمهم يارون.
"كانت مُحِقّة في شأن كيفية سير هذا البلد. وفقاً لخبرتي، عندما ترى ريفكاً دخاناً، يكون هناك حريق في العادة في مكان ما ليس بعيداً".
وأعاد رأسه إلى الوراء، وغضّ شفتيه ونفث حلقة غير منتظمة من الدخان. في الخارج، كان أحدهم يصرخ: "شكاديم! لوز!"; إنه بائع متجول يحاول لفت انتباه الزبائن.

"كانت صعبة المراس"، قال يارون بعد توقف قصير. "وازدادت صعوبة مراسها مع تقدّمها في السن، وأصبحت مزعجة من حين لآخر، ولا سيما إذا كنت تحاول تنقيح مواضيعها. ولكنها صحافية جيدة. عليك التعاطي معها بالطريقة المناسبة فحسب، وهذا يعني في الأساس السماح لها باعتماد أسلوبها أملاً في أن تقوم بتسليمك شيئاً ما في النهاية، وهذا ما كانت تقوم به على الدوام".
"وأنت لا تعرف التفاصيل"، قال بن - روي، مكرراً السؤال الذي طرحه قبل لحظات، ومعيداً الحديث إلى مقالة كلينبرغ. "ما الذي كانت تكتبه بالتحديد؟ من الذين كانت تتحدث إليهم؟".

"أعرف أنها أجرت بعض المقابلات في شأن بيتاه تيكفاه. يوجد هناك ملجأ للفتيات اللواتي يتم استغلالهن. إنه الوحيد من نوعه في البلد كما يبدو. سوى ذلك...".
وهزّ كتفيه.

"كما قلتُ، كنت أميل إلى تركها تقوم بعملها وفقاً لأسلوبها".

"هل تعرف اسم الملجأ؟".

"هوفيش، كما أعتقد. أجل، هوفيش. ملجأ الحرية".

ودون بن - روي المعلومة.

"هل أبلغت السيدة كلينبرغ عن تلقي أي تهديدات بسبب هذه المقالة؟ وعن

كونها في خطر؟".

"لم تُخبرني بذلك قط"، قال يارون. "ولكنها لم تكن تخبرني بالكثير. كانت

تميل إلى الاحتفاظ بأسرارها".

"هل تلقت يوماً تهديدات؟".

وهمهم بطريقة تخلو من حس الفكاهة.

"ربما، إذا كان هناك من يتكبد عناء قراءة المجلة. قبل مقتل راين، كنا نبيع

180,000 نسخة في الشهر. والآن نبيع 2,000 نسخة. لا يمكننا إهداؤها. لم يعد

أحد يهتم. ليرقد اليسار بسلام. ليرقد البلد اللعين كله بسلام".

سحب يارون نفساً عميقاً آخر من غليونته، مُرسلاً خطوطاً زخرفية متعرجة

وحزينة من الدخان من زاويتي فمه. في الخارج، انضمت إلى صيحات بائع اللوز

صيحات شخص يبيع العنب والبَلَح: "أناقيم! تامار!". وارتشف بن - روي شايه

الذي كان مذاقه يبدو أقل سوءاً كلما شرب المزيد.

"متى رأيت السيدة كلينبرغ لآخر مرة؟" سأل.

"رأيتها قبل ستة أسابيع تقريباً. نزلت إلى تل - أبيب وتناولنا الغداء في

مطعم صغير يملكه فلسطيني في داكار. إنه مكان جميل. تحدثتُ إليها للمرة الأخيرة

قبل ثمانية أيام عندما اتصلت لتطلب تمديداً آخر للحد الزمني الأقصى، وقالت إنها

ستسَلِّم شيئاً ما مثيراً للاهتمام وتحتاج إلى القليل من الوقت الإضافي لإنهاء النظر

فيه".

وضاقت عينا بن - روي.

"هل قالت ما هو هذا الشيء؟".

"حسناً، عندما تقول ريفكا إنها ستسَلِّم شيئاً مثيراً للاهتمام، فإنه اختزال

لعبرة أنا على وشك وضع المقالة في اتجاه مختلف تماماً. لقد أردت الاستعلام عن

الأمر ولكن ابتنا كانت قد شعرت للتو بالآلام المخاض، وهناك أمور أخرى تشغل بالنا. لو علمتُ أنها ستكون المرة الأخيرة التي سنتحدث فيها لمنحُتها المزيد من الاهتمام".

وتنهَّد، ورفع القدّاحة وشرع بتمرير الشعلة فوق مقدمة الغليون مجدداً. ونظر بن - روي إلى مدوّناته مفكراً في المقالات التي كانت كلينبرغ تبحث عنها في الصحف قبل ستة أيام من مقتلها. إنها تتخذ منحى مختلفاً.

"هل تعني كلمة فوسغي أي شيء لك؟" سأل. "إنها كلمة أرمنية تعني ذهب". ففكر يارون مليّاً، ومن ثم هز رأسه. "مؤسسة بارين؟".

"لقد سمعتُ بالاسم. إنها مؤسسة أميركية متعددة الجنسيات، أليس كذلك؟". "كانت السيدة كلينبرغ مهتمة بها كما يبدو. كانت هذه الشركة تعمل في منجم ذهب في رومانيا".

ورفع يارون حاجبَيْه. من الواضح أنها معلومة جديدة بالنسبة إليه. "هل ذكرتُ أي شيء عن الذهب أو استخراج الذهب؟". "لا أذكر".

"ماذا عن مصر؟ ليلة مقتلها، كانت قد حجزت مقعداً على متن رحلة جوية ذاهبة إلى الإسكندرية". رُفِع حاجبا المخرر استغراباً مرة أخرى.

"لم تقل أي شيء لي بالتأكيد. لقد وضعت منذ مدة وجيزة مقالة عن أنفاق المهرّبين؛ فكما تعلم، يخرق الفلسطينيون حصار غزة، مُدخلين إمدادات من سنياء خلسةً. ولكن الأمر انتهى قبل عام".

"هل من الممكن أن تكون ذاهبة إلى هناك في إجازة؟".

"ريفكا؟! إلى مصر؟ أشك في ذلك تماماً. لم تكن من النوع الذي يجبّد الإجازات. وبأي حال، لم تطلب أي مبلغ من المال".

نقر بن - روي بقلمه على الدفتر نقرأ خفيفاً.

"ماذا عن سامويل بينسكر؟" حاول. "هل سمعتَ به يوماً؟".

"سمعتُ بليون بينسكر. الصهيوني في القرن التاسع عشر؟".

"سامويل بينسكر. مهندس تعدين بريطاني".

"لم أسمع به".

"ماذا عن الأرمن؟ هل ناقشت أمرهم يوماً؟".

"لا".

"المجمع الأرمني. دار العبادة الكبرى لسانت جيمس؟".

لا ولا.

"ماذا عن الحركة المناهضة للرأسمالية؟ هل كان هذا الأمر يثير اهتمامها؟".

رمقه يارون بنظرة كما لو أنه يسأله إن كان سؤاله جدياً.

"بالطبع كان يثير اهتمامها. إنه يثير اهتمامنا كلها. فالرأسمالية قد أفسدت

العالم. كيف يمكنك ألا تكون مناهضاً لنظام تسبب بعيش بليونيين ونصف من

الناس بأقل من دولارين في اليوم، فيما يملك 85 بالمئة من الثروة العالمية...".

"نمسيس أجنذا؟" قاطعه بن - روي، غير راغب في الانجرار إلى محاضرة

سياسية. "هل بلغ هذا الاسم مسمعيك؟ إنها مجموعة مناهضة للرأسمالية تقوم

باقتحام المكاتب، والتسلل إلى ملفات...".

"أجهزة الكمبيوتر"، قال يارون، مقاطعاً بن - روي بدوره. "أجل، أعرفها".

توقف قليلاً متفحّصاً غليونته، ثم أضاف:

"وأجل، بلغ هذا الاسم مسمعي".

فانحنى بن - روي إلى الأمام. أخيراً، معلومة جديدة.

"مؤخراً؟".

هز يارون رأسه.

"منذ عامين أو ثلاثة، عندما شرعت ريفكا بالكتابة لنا للمرة الأولى. لقد

اقترحت إعداد مقالة عن هذه المجموعة، قالت إنها على صلة بها، وربما تمكنت

من إجراء مقابلة مع أحد الأشخاص المنتمين إليها، وعندها، سيعتبر ذلك سبقاً

صحفياً لأنه لم يسبق لهذه المجموعة أن تحدثت إلى الصحافة يوماً وفقاً

لمعلوماتي".

لزم الصمت للحظات، وانحنى بعد ذلك، وأدخل معلومة ما على جهازه

الحضني من طراز توشيبا الموضوع على الطاولة بجانبه، وأحدثت أصابعه السمينة

والمتعضنة قرقة على لوحة المفاتيح وهو ينقر عليها بسرعة ومهارة مثيرتين للدهشة. وعندما أُنهي ما يقوم به، أدار الشاشة وأوماً لِن - روي لإلقاء نظرة. "حشد مثير للدهشة"، قال فيما كان التحري يقف ويعبر الغرفة. "شكل متطرف تقريباً من تلك المواقع التي تستدعي الصفير. ويكيليكس مع تهديدات. كان لها وقع كبير بالتأكيد. فالشركات متعددة الجنسيات تعبر عن انزعاجها كما يبدو".

وضع بن - روي راحتي يديه على الطاولة، وانحنى إلى الأمام ناظراً إلى الشاشة التي تعرض الصفحة الرئيسة للموقع www.thenemesisagenda.org. كانت عملية أكثر من كونها أنيقة، وفي أعلاها العنوان الرئيس: ذي نِمِيسيس أجندا؛ تعمل على فضح جرائم الرأسمالية العالمية. لقد أعدّ الحرف A في كلمة أجندا ليشبه جمجمة. وهناك عنوان بريد إلكتروني - tellus@nemesisagenda - ولائحة خيارات تحتوي على كلمات مثل أهداف، أرشيف، فيديو، أخبار، اتخاذ إجراء؛ إضافة إلى من نحن وصور متنوعة بالأسود والأبيض لمناظر طبيعية مدمرة، وأطفال نحلي، وأجساد تحمل ندوباً، ونساء باقيات. وتوجد في وسط الصفحة نافذة لتشغيل الفيديو يظهر فيها وجه منتفخ على نحو سيئ لرجل يرتدي رداء استحمام مضرباً بالدماء مصنوعاً من قماش المناشف. وجاء في العنوان المرافق: اعتراف السيد سامبلير في الكونغو.

ألقي بن - روي نظرة سريعة على الصفحة، ومن ثم وضع السهم على خانة من نحن وضغط على زرّ الفأرة. فظهرت صفحة جديدة مع ست كلمات: ألا ترغب في معرفة بعض الأمور. ولم يكّد يُنهي قراءتها حتى اشتعلت الحروف فجأة، وسُمع صوت فرقة حادة، وأصبحت الشاشة حمراء قبل عودة الصفحة الرئيسة بشكل مفاجئ. فنظر إلى الأعلى. كانت عينا يارون ترمشان كما لو أنه يحاول حمايتهما من الأذى.

ضحك قائلاً: "الأزمة تتبدل بالتأكيد. في أيامي، كنت إذا أردت الاعتراض تشارك في مسيرة، أو توزّع بعض النشرات الإعلامية، وربما تقسوم بالاعتصام أو تكتب بعض الشعارات بواسطة الطلاء الرذاذي إذا كنت تشعر بالغضب حقاً. أمّا هؤلاء الأشخاص فأشبه بالموساد. فهم ينزلون بواسطة الحبال إلى داخل المكاتب، ويتسللون إلى الملفات في أجهزة الكمبيوتر، ويستجوبون مديريين تنفيذيين تحت

تهديد السلاح، وبصوّروهم، ومن ثم ينقلون المشاهد على الإنترنت. إنه تطرّف القرن الحادي والعشرين".

وضع غليونه في منفضة سحائر، وأسند ظهره.

"خيراً فعلوا. فالشركات متعددة الجنسيات تلك تُفلت من العقاب على ما ترتكبه من جرائم. وأفرادها يسرقون، ويستغلون، ويتخلصون من نفاياتهم في كل مكان، ويلوثون، ويعشّون، ويتهربون من دفع الضرائب، وينعمون بغطاء من بعض الأنظمة الأكثر غرابة على وجه الأرض. ليس هناك ما لا يستطيعون القيام به لتحقيق الأرباح. وهم لا يعتبرون الظلمَ منافياً للأخلاق، وكذلك عمليات الخداعِ القدرة. وبما أن معظم هذه الأمور تحدث في بلدان ضعيفة جداً، أو فقيرة، أو فاسدة، لا يمكنها مواجهتهم، فهم لا يتعرضون لأي محاسبة. ولكن، حان الأوان لافتضاح أسرارهم الصغيرة القدرة على الإنترنت..."

ولوّح بيده في اتجاه الجهاز الحضي.

"شبكة الإنترنت ليست الوسيلة الكبرى لإحلال الديمقراطية في زمننا فحسب، بل إنها محكمة العدل العظمى. إذ يطلع الرأي العام على المعلومات التي تصبح... ما هي الكلمة... مؤذية؟".

"فيروسية".

"تماماً. فجأة، يعرف كل العالم ما تقوم به تلك الشركات، وتنكشف الزلاّت. فتُفتح مكاتبها، ويتعرض مديروها التنفيذيون للمضايقة، وتُستهدف أجهزتهم الكمبيوترية من قبل متسللين آخرين، فتتشوّه سمعتهم بسرعة، وتنهار أسعار أسهم الشركات..."

أوماً إيماءة رضى.

"لم أكن يوماً مؤيداً للأعمال الغوغائية. ولكن، لا يمكنك تمالك نفسك عن الشعور ببعض الشادن فرويد عندما ترى الأوغاد يقعون في شر أعمالهم. فالاسم يفسّر كل شيء؛ نِمسيس، أي سيدة الانتقام الإغريقية. ألقي نظرة على الموقع. هو ينضح بما فيه".

استعاد غليونه، وأشعله مجدداً. كان بن - روي يحذق إلى وجه الرجل المنتفخ، متسائلاً عما إذا كان هذا الأمر يتلاءم مع مقتل ريفكا كلينبرغ.

سأل: "هل هذه المجموعة إسرائيلية؟".

"وفقاً لمعلوماتي، لديها خلايا مختلفة في دول مختلفة. فهذه الطريقة يميل هذا النوع من المنظمات إلى العمل؛ عمل جماعي يتمتع بحرية نسبية في الحركة بدلاً من كيان واحد متجانس. صديقاً، لا معلومات وافرة لدي عنها. لا أعتقد أن أي شخص آخر يملك هذه المعلومات. لهذا السبب يُعتبر إجراء مقابلة مع أحد هؤلاء الأشخاص سبقاً صحافياً، ولا تُعتبر الأمر كذلك لو أُجريت المقابلة في الواقع".

"ألم تُجرها؟".

"في الدقيقة الأخيرة، تراجع الشخص الذي كان من المتوقع أن تُجري ريفكا مقابلة معه. كان كل شيء مهياً كما يبدو، ولكن عندما قصدته..."

حرّك يده بما معناه أن المقابلة قد أُلغيت.

"عليّ الاعتراف بأنني لطالما تساءلت عما إذا كانت على صلة بهذه المجموعة في الواقع. أعني، لم يتحدث أي من أعضاء نميسيس إلى أي شخص مطلقاً، فلماذا يقررون فجأة الانفتاح على مجلة لا تلقى رواجاً كمجلتنا؟".

نفخ حلقة من الدخان وشبك ذراعيه.

"ما كانت لتعترف بذلك، ولكن طردها من هآرتس ألمها كثيراً وزعزع ثقتها بنفسها. لقد تبادرت إلى ذهني فكرة أنها ربما تحاول... كما تعلم... إثبات قدرتها على الحصول على قصص كبيرة. لم يكن يتعين عليها إثبات أي شيء لي، ولكنها ربما كانت بحاجة إلى حمل نفسها على الاعتقاد..."

هزّ كتفيه وتابع قائلاً:

"من يعلم؟ ربما لست مُنصفاً. فهي لم تتباه بذلك. لقد قالت فقط إنها على صلة بالمجموعة، وربما يكون باستطاعتها حمل أحدهم على الكلام، ولكن عندما قصدت ميتزبي رامون لإجراء المقابلة..."

كان انتباه بن - روي قد بدأ بالتشتت. وعندما ذكر يارون ميتزبي رامون، انتفض بن - روي؛ إنها وجهة كلينبرغ قبل أربعة أيام من مقتلها، وفقاً لبطاقة الحافلة. لقد شعر للمرة الأولى منذ بدء المقابلة بتدفق الأدرينالين في دمه، وهذا ما يشعر به عندما يعتقد أنه سيكشف النقاب عن أمر ما.

سأله منحنيًا إلى الأمام فوق الطاولة: "هل تعرف هوية الشخص الذي كانت على صلة به؟".

"أتذكر ريفكا حين قالت إنه صديق قديم"، أجاب يارون، وبدت الدهشة في عينيه بسبب الإلحاح الفجائي في صوت بن - روي. "باستثناء ذلك..." وهزّ كتفيه مُعبّرًا عن شعوره بالعجز، ثم تابع:

"ذاع صيت ريفكا بحمايتها مصادرها. كل ما أعرفه هو أنها تكبّدت عناء دخول صحراء الثقب لا لشيء إلا ليقول لها مصدرها إنهم لا يريدون إجراء المقابلة. وهكذا انتهى الأمر".

كان عقل بن - روي يتكّنك كمقسّم هاتف يحاول إقامة صلات.

"هل ذكرت السيدة كلينبرغ هذا الشخص مؤخرًا؟".

"لم تذكره لي. لماذا؟".

فأخبره بن - روي عن تذكرة الحافلة. لم يتمكن يارون من تقديم أي تفسير.

"هل لديك أي فكرة عن سبب رغبتها في الاتصال بهم؟".

"لا فكرة لديّ البتة".

"هل كانت تعرف شخصًا آخر في ميتربي رامون؟".

"العَلَم عند الله. لا أعتقد ذلك. ولكنها لم تكن تُخبرني بأي شيء".

"ماذا عن نيسيس أحنذا؟ هل تمّ التطرّق إلى هذه المجموعة مجددًا؟".

فهز يارون رأسه.

"هل قالت أي شيء عن قيام أفراد هذه المجموعة باقتحام مكتب في تل -

أبيب؟".

فهز رأسه مجددًا.

"ماذا عن مؤسسة بارين؟".

هزّ رأسه مرة أخرى.

حاول بن - روي معرفة المزيد، ودار حول الموضوع، محاولاً الإلمام بتفاصيله

كافة. ولكن المحرر لم يتمكن من إضافة أي شيء إلى ما أخبره به. وفي النهاية،

أرغم بن - روي على الكفّ عن طرح الأسئلة. فالتثور على عناصر أخرى باللغة

الأهمية لفك شيفرة لغز مقتل ريفكا كلينبرغ أمر هام بالنسبة إليه، وكان باستطاعته

الشعور بذلك. ولكن، لسوء الحظ، وعلى غرار كل العناصر الأخرى بالغة الأهمية التي كشف النقاب عنها، إنما لم تعزز قدرته على فهم ما حدث، فكيف ستساعده على حل القضية. لقد بدا الأمر كما لو أنه يضيف طبقة إضافية من التعقيد إلى حوارزمية صعبة الحل. فقبل ثلاثة أعوام، كانت ريفكا كLINER غ مهمة بنميسيس أجندا. ومن ثم، وقبل أيام قليلة من مقتلها، ظهرت المجموعة فجأة على رادارها مرة أخرى. هذا كل ما باستطاعته قوله، ولا يمكن اعتبار ما توصل إليه كافياً.

تحدث الرجلان لمدة ثلاثين دقيقة أخرى، ولكن لم ينجم عن ذلك أي شيء مفيد، فأخفى بن - روي المقابلة، وعاد يارون إلى الإنترنت، وتتبع رقم هاتف ملجأ هوفيش. وبعد ذلك، وضع ست نسخات من مجلته داخل كيس وسلمه لبن - روي، ورافق التحري إلى الطابق السفلي في اتجاه الشارع.

قال في أثناء نزولهما الدرج: "غريب، لقد جعلني التحدث إليك أدرك مدى محدودية معرفتي بريفكا. كنا صديقين طوال أربعين عاماً، ومع ذلك هناك حقبات كاملة من حياتها لا أعرف عنها شيئاً. كانت تصنف المواضيع وتضع عالمها في صناديق مختلفة، وتحفظ بكل الصناديق بشكل منفصل. لقد اطلعتُ على صندوق الكتابات الصحافية والشؤون السياسية. إذا كنت تريد معرفة رأيها باتفاقات أوسلو، وكادينا، وبيريز، وناتانياهو فيإمكاني إخبارك. ولكن هناك جانباً كاملاً آخر من شخصيتها لم أكن أعرفه البتة. فكما تعلم، طوال مدة معرفتي بها لم أرَ قطّ الناحية الداخلية لمنزلها".

وهز كتفيه.

"ربما لم أكن صديقاً مقرباً منها بقدر ما ظننتُ".

وصلا إلى الطابق الأرضي، وفتح يارون الباب الأمامي.

قال: "إذا كنتَ مهتماً بالاشتراك في الحملة فسأعقد معك صفقة جيدة".

قال بن - روي: "سأعاود الاتصال بك عندما أريد الحصول على معلومات

أخرى...".

"بالطبع، بالطبع. أنا لا أحاول تحويلك إلى متتبع للشؤون السياسية. أردت فقط لفت انتباهك إلى ما يجري. لم يعد أحد في هذا البلد ينتبه إلى ما يجري كما يبدو، وكأننا فقدنا الرغبة في التفكير".

تصافحا، وخرج بن - روي إلى الشارع. كان يهَمُّ بالرحيل عندما مدَّ يارون يده وأمسكه من ذراعه.

"كانت ريفكا امرأةً صالحة، أيها التحري. ربما كانت تتصرف بغرابة عندما تكون في مزاج غير ملائم، ولكنها امرأة صالحة في جوهرها. كان تحقيق العدالة يعني لها الكثير، لذا كانت تناصر المستضعف، وتساعد من يواجه المتاعب. قد تنعتك بكل اسم موجود على سطح الأرض إذا غيّرت كلمة واحدة من مقالاتها، ومن ثم تُفرغ حقبة يدها لأجل متسوّل تصادفه في الشارع. كانت تشعر بتعاطف فطري حيال الأشخاص المتألمين، ويعود سبب ذلك ربما إلى ما تشعر به من ألم. كانت تهتم. كانت تهتم حقاً. رجاءً، ابذل ما بوسعك لأجلها".

نظر إلى عيني بن - روي للحظات، ومن ثم أفلت ذراعه، وأومأ برأسه، وتوارى داخل المبنى. وشرع بن - روي بالسير. اجتاز مسافة مئة متر، ثم رمى المجلات في صندوق قمامة. يتعيّن على مسألة تتبّع الشؤون السياسية الانتظار. هناك جريمة ينبغي عليه كشف النقاب عنها.

الأقصر

"آه تبا يا خليفة، جنبني نظرية أخرى من نظرياتك المجنونة عن المؤامرة! أنت حالم. طالما كنت كذلك، وستبقى حالماً لعيناً!".

هذا ما كان رئيس المفتشين عبدول بن - حسني سيقوله لخليفة لو جاءه هذا الأخير بأخبار عن مؤامرة لإخراج الأقباط من الصحراء الشرقية.

فهما لم ينسجما قط منذ تعيين خليفة في مركز الأقصر. فالرئيس المتنمّر الذي يفتقد إلى التفكير واسع الأفق، لم يثق قطّ بأسلوب مرؤوسه في ممارسة عمل الشرطة بانفتاح أكبر، وباستعداده لتتبّع فطرته بدلاً من التقيّد بحرفية كتاب القانون. من جهته، طالما كان خليفة منزعجاً من افتراض رئيسه أن قيامه بترهيب رجاله وصياحه في وجوههم يعزز أداءهم، ومن تمسّكه بمنهاج العمل، وفوق كل شيء من تشديده على أن أولوية العمل على حل القضايا بطريقة مطابقة لكتيب المحافظة على الأمن المصري تتقدّم الحلّ الفعلي للقضايا.

لم يكن ذلك تخميناً مُصنفاً تماماً. فبالرغم من ضيق أفق تفكيره، كان الحسني يعرف التحريّ الجيد عندما يراه، لكنه اعتبر خليفة - وإن بتردد - متراحياً على مرّ السنين. لم تكن علاقتهما مريحة، ومع ذلك، كان الحسني مضطراً غالباً للإصغاء إلى قصص مرؤوسه عن المؤامرات والمكائد بعيدة الاحتمال، ويكون رد فعله المعتاد توبيخاً صارماً، وموعظة عن الحاجة إلى التمسك بالوقائع وكبح جماح المخيلة، وصولاً إلى سورة غضب إذا رفض خليفة التحليّ عن نظرية المؤامرة.

هذا ما حدث آنذاك. ففي تلك الأيام، ومنذ عودته من إجازة ممتدة، لاحظ خليفة نُضجاً واضحاً في سلوك الحسني. فقد كبح جماح سورات غضبه، وقَلَّ من استخدام كلام الحشو - الذي يشكل على الدوام جزءاً رئيساً من أي مواجهة كلامية بينهما - حتى إنه عوّد نفسه على مناداته باسمه يوسف، وهي طريقة للمخاطبة تُرْفَع فيها الشكليات، وتكون مخصّصة تقليدياً لمجموعة المقرّبين إلى الرئيس. لكن هذه الطريقة التي تنمّ عن حسن نية لم تؤدّ إلا إلى زيادة شعور خليفة بالارتباك وبأن الأمور ليست كما ينبغي أن تكون. فعلى غرار شقيقه القديمة، ومدينة الأقصر العزيزة قبل إحداث خندق فيها على امتداد ثلاثة كيلومترات، وضحك زوجته زينب، كانت العدوانية العاصفة للرئيس الحسني من الثوابت في حياته. وها هي تلك الثوابت تتبخر كما يبدو - لا سيما وأنه بحاجة الآن إلى تأثيراتها المهدئة - متخلية عنه وتاركة إياه في حالة من التخبّط.

في أثناء جلوسه في مكتب الحسني بعد ظهر هذا اليوم، عارضاً قصة الآبار المسمّمة، كان جزء منه يتوق إلى عودة رئيسه إلى سابق عهده، لينعته بخليفة اللعين الحالم. ولكن الحسني أصغى بصبر - وإن كان قد فعل ذلك بشيء من عصبية المزاج - إلى خليفة وهو يوجز الوضع. ومن ثم، وبدلاً من ضرب الطاولة بقبضة يده والتعبير له عن مدى غبائه، أسند ظهره، ونقر حافة الطاولة بأصابعه السميكة، ودفع فكه السفلي إلى الخارج، وهو أمر دأب على القيام به عندما يحاول نقل الانطباع بأنه مستغرق في التفكير.

قال: "هذا أمر مشوّق، مشوّق جداً".

"أعلم أن المسافة بعيدة جداً لتكون الأحداث مفتعلة"، قال خليفة، "والدّير بعيد جداً عن المزرعتين".

"مسافة أربعين كيلومتراً، أليس كذلك؟".

"ربما تقارب المسافة ثلاثين كيلومتراً".

"وأشجار الزيتون ليست...؟".

"منذ ثلاث سنوات أو أربع. أعلم أن كل شيء يبدو غامضاً قليلاً. ولكن، بالرغم من ذلك... سُمِّت ثلاث آبار تابعة للأقباط تقع تقريباً في المكان نفسه. يوحي ذلك كما يبدو... بوجود...".

انتظر قيام الحسني بالتعليق، ولكن الأخير لم يفعل، بل جلس هناك بصمت، وأصابعه تنقر على الطاولة، وفكّه إلى الأمام، وحاجباه السميكان متلاقيان كقطارين مصطدمين ببعضهما في غُيُوس متأمل. في ما مضى، كان انتقاد الرئيس آراء خليفة يؤكد لهذا الأخير أن تلك الآراء ربما تكون صائبة. وبطريقة معاكسة، جعله صمت الحسني يتساءل بقلق عما إذا كان يفكر ملياً بالوضع.

"يبدو ذلك غريباً فحسب"، قال بصوت يوحي بالتشكك. "إن تسمّى الآبار القبطية الثلاث فقط وليس مخزون المياه في بير هاشفا - القرية قرب مزرعة عطية - يبدو أكثر من مصادفة".

شبك الحسني يديه أمام صدره، وأمال رأسه جانباً، وحول وجهه نحو الجدار وراءه حيث كانت صورة لحسني مبارك معلقة ذات مرة. لقد أنزلها عندما اتضح أفول نجم الرئيس. فبالرغم من ضخامة جسمه، يميل الحسني دائماً مع رياح الاتجاه السائد.

قال بعد فترة من الصمت: "بالطبع، أيّ من هذه الأماكن لا يقع ضمن منطقة نفوذنا، ودير الليمون أيضاً بالتأكيد".

"الزيتون"، صحح له خليفة.

"أصبت. ولكن، لندع هذا الأمر للحظات".

حرك يده بطريقة مسرحية كما لو أنه يضع شيئاً ما جانباً.

"ولنضع جانباً أيضاً واقع أن الآبار تفسد مياهها أحياناً تلقائياً. هذا ما يحدث، أليس كذلك؟ تفسد مياهها تلقائياً؟".

أقر خليفة أن هذا الأمر يحدث كما هو معلوم.

"ما نظّنه هو أن شخصاً ما قصد الصحراء الشرقية وسمّم عمداً آباراً قبطية".

أوماً خليفة برأسه.
"أو إنهم سَمُّوا برأً واحدة قبل أربع سنوات، وقاموا بتسميم البثرين الآخرين
في الشهرين الأخيرين".

أوماً خليفة برأسه مجدداً، ولكن بما يعبر عن اقتناعه بدرجة أقل.
"أعلم أن كل ذلك يبدو غامضاً قليلاً"، كرر خليفة.
فابتسم الحسني وهز رأسه كما لو أنه يقول: "كلياً". لقد ظهر ذلك واضحاً
على قسمات وجهه، وفضحت عيناه ما يجول في خاطره، وكأثما تقولان: "أنت
مُحقّ تماماً بقولك إن الأمر غامض".
"إذاً، من هم برأيك مسمّمو الآبار المبهمون؟". سأل، وارتفعت نبرة صوته
نصف درجة في أثناء محاولته المحافظة على نبرة معقولة.

أخرج خليفة علبة سجائره من دون فتحها، واكتفى بتقليبها بين يديه.
"في بادئ الأمر، ظننت أن من فعل ذلك شخص ما من بير هاشفا"، قال.
"إنه اعتقاد السيد عطية أيضاً. ولكن، بوجود الدير على هذه المسافة البعيدة...".
أدار العلبة عدة مرات.

"ربما كان الأخوان المسلمون من فعلوا ذلك".
"في وسط الصحراء الشرقية!".

ارتفع صوت الحسني، ثم انخفض مجدداً بعد أن استطاع التحكم به.
"ما بالك يا خليفة؟ يوسف... الأخوان يُقيمون في المدن. إنهم يقيمون في
الأحياء الفقيرة".

"السلفيون إذاً. إنهم يُقيمون خارج البلدات".
بدا الحسني غير مقتنع.

قال خليفة: "حسناً، هناك شخص ما يريد شحذ فأس دينية. لا أرى تفسيراً
آخر. لو أن السيد عطية وابن عمه هما المتضرران فقط، لكان الأمر ربما ناجماً عن
ضعينة محلية أو عداء عائلي مستحكم. ولكن، عند التفكير في حادثة الدير؛ لماذا
يسافر أحدهم مئات الكيلومترات إلى وسط الصحراء لإفساد مصدر مياه لا
يستخدمه إلا بضعة رجال دين؟ عند التفكير في ذلك ستستنتج أن التعصّب هو
السبب؛ لا بد أنه السبب. فإما أن يكون السبب، أو إن هناك شخصاً غريب

الأطوار يستمتع بالتسلل إلى أنحاء الصحراء ليسمَّ آباراً عشوائية لا شيء إلا للتسلية".

"أو إنّ الآبار قد فسدت مأوها تلقائياً، وصودف أن مالكيها أقباط".
قلّب خليفة العلبة مرات قليلة بين يديه، ومن ثم أعادها إلى جيبه من دون أن يخرج منها أي سيجارة. لقد شعر بالإرباك فجأةً، ولم يعد واثقاً بما يفكر فيه.
"انتابني للتو شعور بوجود خطب ما"، تتم. "هناك أمر ما يحدث وينبغي علينا تفحصه".

كانت هناك عدة أمور تزعج الحسني أكثر من قول أحدهم له إن لديه شعوراً
حيال أمر ما. "النساء لديهمّ المشاعر والحدس، ورجال الشرطة لديهمّ الدليل"، إن
هذه إحدى المقولات الأكثر انتشاراً المنسوبة إليه. ولكنه لم يستخدمها علماً أن
انقباض فمه يوحي بأنه يؤدّ القيام بذلك، بل نهض وسار نحو النافذة.

كانت غرفة مكتبه - وهي حجرة فوق السطح، كما يدعوها - موجودة في
الطابق العلوي للمركز، وهي كناية عن مساحة رحيبة، رخامية الأرض، تبدو كما
لو أنها تجعل كل شخص وكل شيء يبدو صغيراً داخلها. فلدى انتقالهم إلى هنا قبل
سنة أشهر، كانت نوافذها تُشرف على مناظر مدهشة تمتد من المدينة إلى النيل
والجبال الطيية البعيدة. كان ذلك قبل اتخاذ وزارة الداخلية قراراً بإضافة طابقين إلى
مبناها القائم وراء المركز. والآن، عندما ينظر الرئيس الحسني إلى الخارج، يواجهه
بجدار إسمنتي غير مزين بُنيت عليه مجموعة متناثرة من وحدات تكييف الهواء. ولو
كان الناظر متذوّقاً للجمال لحُيِّبَ أمله، ولكن الحسني بدا غير مهتمّ، ولم تُثر المناظر
الطبيعية الجميلة اهتمامه قطّ.

حدّق إلى الخارج وظهره إلى خليفة، ودرزة سترته تبدو كما لو أنها تقاوم
ضغط منكبّيه العريضين المماثلين لمنكبّي مقاتل. واستدار بعد ذلك، مطلقاً
برجُمات أصابعه.

"سأكون صادقاً يا خليفة... يوسف... لا أستسيغ كثيراً ما تحملته إليّ من
أخبار. أنا لا أقول إنك مخطئ بنقلها إليّ، وإنّ مخاوفك غير منطقية، ولكن لدينا
الكثير من الأمور لمعالجتها في الوقت الحاضر، ولا يمكننا أن نضيف إلى حسائنا هذا
احتمال وجود متعصّب ديني يُغيّر على الآبار".

شعر بعينيه تتقلبان ورأسه يهوي خلال محاولته التحقق مما إذا كان تعبير الحساء المجازي مناسباً أم لا. وتقدّم خطوة في اتجاهه، ثم أشار من فوق كتفه بواسطة إبهامه إلى النافذة وراءه.

"إنّ المتحف الجديد في وادي الملوك الذي سيجري الاحتفال بافتتاحه بعد أسبوعين يستنفد الكثير من الموارد؛ الكثير من الموارد. سيحضر الوزير، فاراغ، والسفير الأميركي، ورئيس الشركة الممولة إلى ذلك المكان اللعين. عليّ الاهتمام بنقل تسعة وأربعين شخصاً من أصحاب المراكز من المطار إلى الضفة الغربية - من دون احتساب حوأس وكل غوغائييه - ومن ثم ضمان سلامتهم عندما يصبحون هناك. هل تعرف كم رجلاً يتطلب إغلاق الوادي بأكمله وضرب طوق أمّني حوله؟ المئات؛ من رُماة مهرة، وقوات خاصة، وشرطة، وجيش..."

بدأ وريدٌ أخضر صغير ينبض تحت عينه اليمنى، وفي ذلك دلالة أكيدة على مشاعره المثارة. وتمكن من السيطرة على نفسه بعد بذل جهد كبير، رافعاً يديه ومُنزلاً إياهما كما لو أنه يدفع نحو الأسفل موجة مرتفعة من الدُعر والغضب.

"ما أقوله هو أننا الآن نواجه ضغطاً كبيراً، وربما هذا ليس الوقت الأفضل لإطلاق تحقيق على نطاق واسع حول إمكانية تسميم بئرين، لا يمكننا الجزم إن كانتا ضمن منطقة نفوذنا أم لا، من قِبَل شخص ما ربما كان أصولياً أو لا. هل تفهم ما أقصده؟ سأكون سعيداً بالنظر في قضيتك في أي وقت آخر. ولكن الآن..."

كفّ عن الكلام، ورفع يده ودلّك الوريد النابض، فيما حدّق خليفة بالأرض. في الأيام الخوالي، كان يثبّت على موقفه إذا كانت لديه أي شبهة، ويجادل الحسني حتى يحصل على ما يريد. واليوم، ليس باستطاعته استجماع الحيوية التي كان يتمتع بها في السابق لإقناع رئيسه أن لديه وجهة نظر في الواقع. ربما كان الرئيس مُحِقّاً. ربما فسدت مياه البئرين لأسباب طبيعية، ومن باب الصُدْف أن تكونا تابعتين لأقباط. ربما سمح لشفقته على السيد عطية بالتأثير على حكمه. لقد اعتاد الثقة بفطرته، وها هو الآن غير واثق من أي شيء. وليست هذه هي المرة الأولى التي تتبادر فيها إلى ذهنه فكرة فقدانه نصف مهارته السابقة كتحرر، لا بل ثلاثة أرباع مهارته.

"هل يمكننا وضع شرطين نظاميين على الأقل في مزرعة عطية؟". سأل ساحباً
علبة سجائره ومقلّباً إياها بيده مجدداً. "فقط لمراقبة الأمور".

لقد بدا الحسني متفاجئاً بذلك؛ كما لو أنه كان يتوقع من مرؤوسه إبداء
مقاومة. فحدّق إلى خليفة، منتظراً التحقق مما إذا كان سيطلب منه أمراً آخر.
وعندما لم يطلب أي شيء آخر، أوماً برأسه موافقاً، وعاد إلى طاولته بخطى ثقيلة.
"لِمَ لا"، قال، ثم جلس وشبك يديه، وبدا أكثر استرخاءً مما كان عليه منذ
بدء الحديث. "سأقول لك ما سيحدث، لنوكل هذه المهمة إلى ثلاثة رجال شرطة
نظاميين احتراساً".

"أعتقد أن اثنين سيكونان كافيين".

"لا، لا"، أصرّ الحسني مبتهجاً لأنه بات من الواضح أنه لن يكون مضطراً
للقيام بأي شيء. "لديك مخاوف وأنا أصغي إلى هذه المخاوف. سوف نرسل ثلاثة
رجال إلى المزرعة للمراقبة، وعندما تنتهي مهمتنا تلك في وادي الملوك، سنعيد
النظر بالوضع إذا كان هناك وضع غير طبيعي، وإذا كنت لا تزال تعتقد بوجود
حاجة لإعادة النظر. اتفقنا؟".

"اتفقنا"، تمتم خليفة. "شكراً لك".

"بل العكس تماماً، شكراً لك. أنت مُحقّق تماماً بلفت نظري إلى هذا الأمر".

ابتسم، وارتسمت على وجهه نظرة معبرة بدت مصطنعة وغير جديّة.

سأل: "هل هناك أي شيء آخر؟".

"لا، يا سيدي".

"هل أنت متأكد؟".

"أنا متأكد".

"حسناً، شكراً لقدومك، وواصل عملك الجيد".

كان ذلك صرّفاً أكثر منه إطراء. فوقف خليفة وسار إلى الباب، وبدا وقع
خطاه منخفضاً على نحو غير طبيعي على الأرض الرخامية. وفي أثناء خروجه إلى
الممر، ناداه الحسني.

"بلغ زبيدة تحياتي".

"زينب".

"تماماً. قُلْ لها إننا نفكر فيها".

احتفظ الرئيس بابتسامته لثوانٍ قليلة إضافية، ومن ثم أزالها عن وجهه ونظر إلى طاولته. وبينما كان خليفة يُغلق الباب، سمع الحسني يتمتم لنفسه.
"حالم أخرق لعين".
على غرار الأيام الخوالي، ولكن ذلك لم يحمل له شعوراً أفضل.

تل - أبيب

حالما عاد بن - روي إلى سيارته، اتصل بملجأ هوفيش، وتحدث إلى مديرته، وتدبّر أمر الذهاب إليها على الفور لإجراء مقابلة معها. كانت بيتاه تيكفاه، وهي البلدة الوادعة حيث يوجد الملجأ، على بُعد عشرة كيلومترات فقط شمال - شرق تل - أبيب، ويُفترض بلوغها في غضون خمس عشرة دقيقة على الأكثر بالسيارة، وبعدة مضاعفة مع وجود حركة مرور. اليوم، كانت الطريق شديدة الازدحام بالعربات، وقد يتطلب الأمر ساعة تقريباً لبلوغ المكان؛ حتى رغم وضع صفارة إنذار الشرطة الوامضة على السطح.

لكن هذا الوضع منحه فرصة الاتصال بدوف زيسكي للتحقق مما إذا كان هناك أي تقدّم في شأن تذكرة الحافلة التي عُثر عليها في شقة ريفكا كلينبرغ. لم يكن هناك أي جديد.

"أرسلتُ صورتها إلى المركز في ميتزبي رامون"، قال زيسكي. "وهم يتناقضون الآن، ولكنهم لم يتوصلوا إلى أي شيء بعد. وقصدتُ إيعاد أيضاً بسبب وجود احتمال بسيط بقيام أحد السائقين بتذكّرها. كان هناك أربعة منهم فقط ممن يسلكون تلك الطريق، ولكن السائق الذي كنا بحاجة إلى التحدث إليه في إجازة. وهم يحاولون الاتصال به من دون جدوى".

قال بن - روي: "استمر بالمحاولة، هلاًّ فعلت، الأمر هام، وربما يكون شديد الأهمية".

أطلع زيسكي على مضمون حديثه مع موردخاي يارون، وعلى مقالات كلينبرغ التي كانت تقرأها في المكتبة.

"أتريد مني أن أبحث عن معلومات حول مجموعة نميسيس؟" سأل زيسكي عندما أنهى بن - روي كلامه. "ربما يعرف صديقي شيئاً، ذاك الذي يعمل في أمن شبكات الكمبيوتر والذي ذكرته لك هذا الصباح".

"لَمْ لا. في أثناء ذلك، حاولَ التوصل إلى معلومات عن خلفية شركة بارين، ولا سيما أي شيء يمكنك العثور عليه عن منجم ذهب تديره في رومانيا. لديّ مصدر معلومات في هارتس، ويمكنك الاتصال به إذا شئت. إنه يغطي الشؤون الاقتصادية، وقد يكون بإمكانه توجيه مسارك".

مرّر له تفاصيل عن ناتان تيرات، فدوّنها زيسكي.

سأل بن - روي: "هل هناك أي جديد؟".

"جاء الخبراء الجنائيون منذ ساعة، ورفعوا شعرة عن ملابس الضحية. هم أكيدون أنها شعرة امرأة بسبب طولها، ولكنهم لم يعثروا على تطابق بواسطة الذي أن أيه".

لم يتفاجأ بن - روي. من المؤكد أن الشعرة عائدة لقاتل كلينبرغ. وإذا صدق حدسه، فهم لا يزالون بعيدين عن معرفة القاتل. لقد شعر - كان قد شعر بذلك منذ البداية - بأن قاتلهم لن يكون شخصاً يعرفونه. ولا يبدو أن كون الشعرة عائدة لامرأة أمراً مشوقاً. ولم توصلهم هذه الحقيقة إلى أي مكان، فاكتمت بالاحتفاظ بهذه المعلومة في ذاكرته وواصل الحديث.

سأل: "هل هناك أي شيء يبعث على السرور مع جيران كلينبرغ؟".

"لا يزال هناك شخصان لم تتمكن من التحدث إليهما. والآخران لم يروا أو يسمعا شيئاً".

وتوقف قليلاً، ثم أضاف: "ذكرتُ سيّدةً أنها شمّت رائحة".

"رائحة؟".

"رائحة صابون أو عطر أو ما شابه. رائحة مسكية؛ أعتقد أنها الكلمة التي استخدمتها. قالت إنها تقيم في المجمع السكني منذ ثلاثين عاماً، ولم تشمّ تلك الرائحة من قبل إلا ليلة مقتل كلينبرغ. جاء التحري بينكاس وأطلعني على ذلك، وقال إنني قد أكون راغباً في متابعة الأمر".

تغصّن فم بن - روي، لقد عرف تماماً ما الذي يشير إليه بينكاس ضمناً. وكان واثقاً من أن زيسكي أدرك ذلك أيضاً: صابون، عطر، أشياء متعلقة بغير

الأسوياء. فقبل ثمانٍ وأربعين ساعة، كان هو نفسه يوجّه الملاحظات عينها. ولكنه وجد الدُّعابة أقلَّ إمتاعاً بسبب ازدياد معرفته بالفتى.

"أبلغ التحري بينكاس عن لساني بأنه يتعيّن عليه التعاطي مع هذا الغائط بنفسه"، زجر. "هل فهمت؟".

"فهمت".

لم يكن بن - روي واثقاً، ولكنه ظنّ أنه التقط نبرة امتنان في صوت زيسكي. "هل هناك أي شيء آخر؟".

لم يكن هناك أي شيء آخر في الواقع. فبينكاس وآموس نامير كانا لا يزالان ينتظران معلومات من مُخبريهما؛ ولم يحقق نامير أي تقدّم في ما يتعلق بالقضايا القديمة والقضايا المُثبّطة للعزيمة.

"علماً أنني أكتشفتُ شيئاً ما عن رئيس الأساقفة بتروسيان".

كان هناك الكثير من الخيوط المتباينة الأخرى في رأس بن - روي لدرجة أنه نسي أمر بتروسيان.

قال: "أدهشني".

"ثبّت أن لجناحه باباً خاصاً يؤدي إلى الشارع، ويفتح على طريق سانت جيمس. مما يعني أنه يستطيع الدخول والخروج من المجمع...".

"من دون أن يراه أحد".

لقد أنهى بن - روي الحملة، وأخرج ذراعه من النافذة، ونقر على باب التويوتا بأصابعه. كان يعلم أنه لا وجود لأي كاميرات تابعة للشرطة في طريق سانت جيمس. وفضلاً عن محيط كوتيل، لم تكن هناك أي كاميرات مراقبة في الحيّ اليهودي حيث ينتهي طريق سانت جيمس (دُعابة فلسطينية: حصل اليهود على الأرض والماء والحدود والفضاء، ولكننا حصلنا على الكاميرات على الأقل). لذلك، يستطيع بتروسيان الخروج من المجمع، في المبدأ، وعبور الحيّ اليهودي والوصول إلى المدينة القديمة من دون أن يعلم أحد بما يجري.

سأل: "أقول إنه لا يملك عذر غياب ليلة الجريمة؟".

"لا، إذ لم يكن بإمكانه دعم ذلك بالأدلة. يدّعي أنه كان في جناحه طوال الليل، ولكننا لم نعثر على أحد يمكنه تأكيد ذلك".

فكر بن - روي للحظات، وكان هيكل التويوتا المعدني يُرجع صدى نقر رؤوس أصابعه عليه.

قال في النهاية: "قدم لي صنيعاً وانقل هذه المعلومة لليه شاليف. إنها بحاجة إلى متابعة، وأنت لديك الكثير من المهام. في الوقت الحاضر، أريد منك التركيز على الموضوع الذي ناقشناه للتوّ: ميثزبي رامون، نيميسس، بارين. يُفترض بـبي العودة في وقت متأخر من فترة بعد الظهر. ابذل ما بوسعك حتى ذلك الحين".

أُهمي المكالمة محدّقاً إلى صفوف السيارات غير المتحركة في اتجاه أبراج رامات غان البعيدة المتألّثة. ومرت ثلاثون ثانية، ومن ثم أخرج هاتفه المحمول وكتب عبارة: "عمل جيد يا زيسكي".

وتردّد، ثم أدخل كلمة دوف بدلاً من زيسكي، وأرسل الرسالة النصّية، ثم شغل صفارة إنذار الشرطة؛ ليس بهدف تسريع حركة المرور بقدر رغبته في أن يُظهر للعالم أنه لا يزال شرطياً لا يلين، ولم يجعله سنّه المتقدمة ليّن العريكة.

الأقصر

بعد اجتماعه بالحسني، حاول خليفة إخراج مسألة تسميم الآبار من ذهنه. ربما كان هناك أمر ما يحدث وربما لا؛ وفي كلتا الحالتين، لم يكن بإمكانه القيام بأكثر مما قام به. عاد إلى مكتبه، وقام بالإجراءات الضرورية لوضع شرطيّين نظاميّين في مزرعة عطية. وبعد ذلك، حان وقت استراحة الغداء، فقصّد حقل الرماية لتمضية ساعة من الزمن في ما يدعوه العريف أحمد مهتي بعبارة ملطّفة - وهو العملاق ذو الشارب الذي أجرى تدريبات على الرماية في الحقل أكثر من أي شخص آخر - تأمل بالطلقات.

عندما يريد خليفة التفكير بالأمر حقاً، يتوجه إلى الضفة الغربية، ويتسلق حتى يصل إلى مقعد التفكير الخاص به عند أسفل القرن. وعندما لا يرغب في التفكير بالأمر حقاً، يذهب إلى حقل الرماية. كان رامياً ماهراً في العام الذي أمضاه في كلية شرطة القاهرة التي دأب على زيارتها. وفي الفترة الأخيرة، ازدادت زيارته لحقل الرماية، مرحّباً بالقدرة على التركيز التي يمنحه إيّاها، وبالفرصة التي

يوفرها له لوضع كل مشاكله جانباً، ولو للحظات قليلة، ولتضييق عالمه بما يوازي الشقّ الطولي الرفيع لمنظار التصوير الخاص ببندقية لي - إنفيلد 303.

كان المرمى عبارة عن قاعة إسمنتية شديدة الحرارة تقع عند أطراف الصحراء وراء الحافة الشرقية للمدينة. لقد اتصل في وقت سابق ليقول إنه قادم، كي يُعدّ العريف مِهتي كل شيء؛ ليحضّر له واقبي الأذنين اللذين يحمياهما من دويّ إطلاق النار، وهدفاً ورقياً على صورة جندي مهاجم، وعلبة تحتوي على أمشاط ذخيرة لخمس جولات، لا بل أيضاً كوب شاي. كان خليفة هو الشخص الوحيد هناك في ذلك الوقت، ويروق له أن يكون بمفرده. وبعد أن وقع على استلامه ببندقيته، توجه إلى الحقل وشرع بالرماية. لقد حادت الطلقة الأولى عن الهدف قليلاً، وكانت الطلقة الثانية عالية جداً، ولكن طلقاته النارية الأخرى أصابت الهدف، وتردد في أرجاء القاعة الصوت الإيقاعي لزناد البندقية، والفرقة الحادة للكورديت المنفجر. واخترقت الرصاصات وجه الهدف وجذعه، وكانت كل طلقة تبعده عن ذاته أكثر فأكثر. كان عليه هز رأسه مرتين لإبعاد صورة زينب المنهارة في وحدة الطوارئ في المستشفى، ومرة واحدة لإبعاد صوت السيد عطية في مزرعته في الصحراء الشرقية: سأقاتل إذا اضطررت لذلك؛ لحماية عائلتي وأولادي. إن هذا أعظم واجبات الرجل.

عدا عن ذلك، لم يكن يفكر في أي شيء آخر. وعندما غادر بعد 40 دقيقة، كان قد أفرغ عشرين مشط ذخيرة في عشر جولات، وحول خمسة أهداف إلى حريق مزقة، وشعر بهدوء أكبر. إنه تأمل بالطلقات حقاً.

بيتاه تيكفاه، إسرائيل

كانت مايا هليل، مديرة ملجأ هوفيش للنساء اللواتي يتم استغلالهن، جذابة على نحو يُفقد التوازن. فهي في أواخر العقد الثالث من العمر، هيفاء القد، عيناها كبيرتان كئيبتان، وشعرها الأسود الجامح منسدل على كتفيها كشلال مياه أسود. وكانت تبدو أشبه بعارضة أزياء أكثر من كونها عاملة اجتماعية. ونظراً لطبيعة عملها، علم بن - روي أنه من غير اللائق النظر إليها من هذا المنظار، ولكنه لم

يستطيع تمالك نفسه. إنه رجل، وهذه هي طريقة الرجال في مقاربتهم للجمال. جذابة تعني جذابة. انتهى.

لقد التفته خارج الملجأ - مبنى أبيض يُشعر بالاطمئنان في أحد شوارع شيكونيم المغبرة، ويقع على بُعد خمس دقائق من وسط المدينة - ورافقه عبر بوابة فولاذية ثقيلة إلى داخل باحة مرصوفة.

"علينا الاحتراس"، شرحت مشيرةً إلى البوابة التي يحرسها رجل يرتدي بذلة نظامية، وإلى سياج أمني مُحيط بالمبنى. "يأتي إلى هنا عدد كبير من القوادين الذين يحاولون إغواء الفتيات. هناك واحد في الجانب الآخر من الشارع الآن". ألقى بن - روي نظرة سريعة من فوق كتفها، ولكن البوابة كانت قد أُغلقت.

"هل تريدني مني أن أصرفه؟".

"الأمر غير جدير بالمحاولة؛ إذ سينصرف الآن ولكنه سيعود مجدداً حالما تذهب. فهو يعتبر أننا نضع يدنا على من هي مُلك له ويريد استعادتها. ولكن، شكراً على العرض".

انعطفوا عند زاوية المبنى، وعبرا باباً مفتوحاً، ودخلا ردهة مبلطة، وانفتح أمامهما مطبخ فارغ إلى اليسار. عُُلِّقت على الجدران مجموعة مُلصقات إعلانية تحذّر من مساوئ الاتجار بالنساء، بما فيها مُلصق يحمل صورة اثنتي عشرة امرأة عارية موضّبات على صنيّة من البوليستيرين كصف من الطيور المطبوخة. لحّم طازج، جاء في العنوان. حدّق بن - روي إليه، ومن ثم تبع هيلل خلال شوارعها بصعود الدرج.

"كم فتاة لديكم هنا؟" سأل محاولاً الإشاحة بنظره عن مؤخرتها.

"أربع عشرة فتاة"، أجابت. "معظمهنّ في الخارج يعملن في الوقت الحاضر؛ مما يفسّر سبب هدوء المكان. نحن نتدبّر لهنّ وظائف؛ كنادلات، أو عاملات تنظيف، ذلك النوع من الأمور. المكان هنا يتّسع لخمس وثلاثين فتاة، ولكن الإحالات انخفضت في العامين الأخيرين. عندما فتحنا الملجأ عام 2004، كان لدينا أكثر من مئة فتاة. في هذا العام، هناك عشرون فتاة فقط".

"أنا سعيد بتحسّن الأمور".

"إنها إحدى القراءات لوضعنا، كما أفترض. شخصياً، أُعيد السبب إلى موقف الشرطة التي لم تُعد تعتبر المشكلة من أولوياتها، لذلك يتم إنقاذ عدد أقل من الفتيات".

وصلت إلى فسحة الطابق الأول، فالتفتت إليه، ونظرت إلى عينيّه للحظات قبل أن تواصل الصعود إلى الطابق العلوي.

"الأمور أفضل مما كانت عليه قبل عقد من الزمن"، أضافت. "في التسعينيات، كان يتم الاتجار بنحو ألفين إلى ثلاثة آلاف فتاة في العام، ويتم إدخالهن إلى البلد. ويقتصر العدد الآن على بضعة مئات، ولكن المشكلة لا تزال موجودة. وأنتم أيها الرجال لا توفرّون الموارد التي كنتم توفرّونها قبل سنوات قليلة، ويعود سبب ذلك بصفة رئيسة - لنكون مُنصفين - إلى أن السياسيين لا يوفرّون الموارد. ووزارة الداخلية لا تُعطي شيئاً. فإنقاذ البغايا ليس عامل فوز بالتحديد للذين يخوضون معارك انتحائية".

بلغا فسحة الطابق الثاني. كانت الممرات ممتدة إلى اليسار واليمين، وتقوم على جانبيها أبواب مُغلقة. وفي الغرفة التي تقع أمامهما مباشرةً، كانت هناك فتاة ببذلة تمرين مخملية فضفاضة واقفة على ميزان، في حين تقوم امرأة متوسطة الوزن وممتلئة الجسم بتسجيل وزنها على لوح مشبكي. فأومأت المرأة برأسها مُحييةً، فيما حدّقت الفتاة بوجه خالٍ من أي تعبير؛ كانت تبدو كنانجية من معسكر الموت بسبب نحوها المؤلم، وخدّعيها الغائرين، وشعرها الطويل المُسدّل، وبشرتها المائلة للصفرة.

نادت هليل: "هل كل شيء بخير، يا أنجاء؟".

فهزت الفتاة كتفيها بوهن.

"إنها تُبلي بلاءً حسناً"، قالت المرأة مبتهجة وممازحة: "لقد ازداد وزنها نصف رطل".

قالت هليل: "رائع، رائع حقاً".

حوّلت وجهتها إلى داخل الغرفة، وفركت ظهر الفتاة مُطمئنةً إيّاها، واصطحبت بن - روي بعد ذلك إلى الطابق العلوي مروراً بآخر مجموعة من الأدراج.

"إنها مولدوفية"، شرحت مُخَفِضَةً صَوْتَهَا. "اعتقلتُها الشرطة في أثناء غارة في إيلات قبل أسابيع قليلة. لقد رأيتُ بعض الحالات السيئة، ولكنها كانت...".
توقفت، وألقت نظرة إلى الوراء في اتجاه أسفل الدرج.
"مصابة بسِلِّ رئوي، وبالتهاب الكبد، وبكل الأمراض المنقولة جنسياً التي يمكنك أن تتخيلها باستثناء نقص المناعة المكتسبة. ولا يُقَارَن ذلك بالضرر اللاحق بها".

رَبَّتْ على جانب رأسها.
"لقد مُنَحْتُ إذنَ عمل كي تتمكن من البقاء في البلد لمدة عام لتأهيلها، ولكنها ترفض الإلقاء بشهادتها، ولذلك سيتم ترحيلها بعد انتهاء المدة. وعندما ستعود إلى مولدوفا، سيستهدفها في المقام الأول أولئك الأشخاص الذين نقلوها إلى هنا، وسيُعيدون الاتجار بها. هكذا تسير الأمور. وهذا مدعاة لتعاسة غامرة، فهي لا تزال في التاسعة عشرة من عمرها فقط".

ارتفع حاجبا بن - روي. كان قد افترض أن عمر الفتاة يناهز ثلاثين عاماً.
"ألا تستطيع الحصول على إقامة رَحِيمة؟".

"أنت تمزح! متى يُمنَح شخص غير يهودي إقامة لأسباب إنسانية في هذا البلد؟ لا، أفضل ما يمكنها أن تأمله هو العثور على شخص يرغب في الزواج بها. ولن يجعل هذا النوعُ من الرجال المنجذبين إلى بغايا سابقات حياتها أفضل".

تنهَّدت، واستدارت، ثم واصلت الصعود إلى أعلى الدرج، حيث وصلت إلى مساحة مكتبية واسعة ومفتوحة. كانت هناك ثلاث نساء أخريات جالسات وراء طاولاتهنّ، وعرف بن - روي من أعمارهنّ ومظهرهنّ أنّهنّ موظفات إداريات. وفضلاً عن الحارس الأمني الذي كان يقف عند البوابة الأمامية، كان هناك رجل آخر في المكان. لم يفاجئه ذلك بعد كل ما سمعه.

طلبت هيلل من إحدى النساء أن تُحضِر لهما القهوة، واصطحبته إلى داخل مكتب خاص أصغر حجماً ذي سقف منحدر ونافذة مُطلّة على أسطح بيتهاه تيكفاه. أوامات له بيدها ليجلس على الكرسي، ثم جلست على الطاولة أمامه، مؤرجحة ساقها.

قالت: "إذا، ريفكا كلينبرغ. ماذا يمكنني أن أخبرك؟".
تَبَّتْ بن - روي نظره للحظات على الصور المؤطرة المعلقة فوق الطاولة -
هيلل تصافح هيلاري كلينتون، هيلل تتلقى جائزة من نوع ما من شيمون بيريز،
هيلل مع من افترض أنهما زوجها وابنتها؛ وهو ما أثار دهشته - لسبب ما، لم يكن
يعتقد أن لديها عائلة. ومن ثم أخرج دفتر مدوناته وشرع بالعمل.
"أخبرني محررها أن السيدة كلينبرغ قد زارت الملجأ"، شرع بالكلام مقلّباً
صفحة فارغة.

فأومأت هيلل برأسها.
"اتصلتُ قبل أربعة أسابيع، وقالت إنها تُعدّ مقالة عن الاتجار بالجنس،
وسألت عما إذا كان باستطاعتها القدوم وإلقاء نظرة على المكان".
ونقرت الطاولة بإصبعها وهي تُضيف: "أعتقد أنها قُتلت لهذا السبب؟ بسبب
المقالة؟".

فهزّ بن - روي كتفيه بما معناه أنه ليس لديه تعليق.
"في هذه المرحلة نحن لا نستنتج أي شيء".
"لو كان الأمر كذلك لما شعرت بالدهشة". قالت. "الاتجار بالجنس تجارة
كبيرة، وأنا واثقة من إدراكك هذا الأمر. والأشخاص الذين يقومون بذلك لا
يحبون المتطفّلين، ولا سيما الروس الذين يسيطرون على ثمانين بالمئة من هذه
التجارة، وليسوا ممّن يتساهلون مع من يتدخل في شؤونهم".
حدّق بن - روي إلى إضمامة الورق. الروسكاي مافيا مجدداً. يبدو أنهم
بارزون جداً في هذه القضية. ودوّن ملاحظة ليمرّرها في وقت لاحق لينكاس
الذي يُجري تحقيقات حول الروس.
"وهكذا، زارت الملجأ"، أضاف، "وتحدّثت إليك".

"صحيح".

"عم؟".

"عن أمور كثيرة: المكان الذي قدمتِ الفتيات منه، وكيف أُدخلنَ إلى
إسرائيل، وما يحدث هنّ عندما يَكُنّ هنا، وما يتم القيام به حيال ذلك. لقد أمضت
يوماً كاملاً معنا، ومن ثم تحدّثنا مجدداً عبر الهاتف قبل أسبوع. لم تكن الشخص

الأكثر عملاً لأجل الإصلاح الاجتماعي من بين من التقيتهم يوماً، ولكنها كانت
تتم بوضوح بما نقوم به، وكانت رائعة مع الفتيات. لقد أبدت تعاطفاً صادقا".
تذكر بن - روي كلمات موردخاي يارون: كانت تشعر بتعاطف فطري
حيال الأشخاص المتألمين، ويعود سبب ذلك ربما إلى ما تشعر به من ألم.

"هل أرادت مناقشة أي أمر بصفة خاصة؟".

"تحدثنا كثيراً عما تفعله الحكومة للتعاطي مع المشكلة"، قالت مُخرجةً عُصبة
شعر مطاطية من جيب قميصها، وماطةً إياها بأصابعها. "أو بالأحرى عما لا
تفعله. فنحن لم نلتزم إلا مؤخراً بالحد الأدنى لمعيار وزارة الخارجية الأميركية حول
مكافحة الاتجار بالجنس. يبدو لي أن معظم سياسيينا لا يزالون يعيشون في العصور
المظلمة، ومعظم رجال الشرطة أيضاً؛ بصراحة. يبدو أنهم يعتقدون أن احتجاز
إحدهن في بيت دعارة وإرغامها على ممارسة الجنس مع عشرين رجلاً في اليوم
خيار مهني واع".

بدل بن - روي وضعته على نحو غير مريح. كان قد انغمس في الرذيلة لمدة
وجيزة قبل دخوله أكاديمية الشرطة، وأدرك تماماً ما الذي تصفه. لذا، عاد إلى
الموضوع الرئيس، قاطعاً الطريق على أي استطرادات غير مرغوب فيها.
سأل: "هل هناك أي شيء آخر؟ أي مواضيع أخرى بدت السيدة كلينبرغ
مهمة بما بصفة خاصة؟".

"أمضينا الكثير من الوقت في مناقشة ديموغرافيات الاتجار بالجنس"، قالت
مستمرّةً باللهو بعصبة شعرها، "وفي الحديث عن الأماكن التي قدمت منها الفتيات،
وواقع أننا نرى مزيداً من الفتيات الإسرائيليات يُرغمْنَ على ممارسة البغاء بسبب
قلة عدد الفتيات الأجنبية. وأردت أن تعرف كل شيء عن الزبائن ولا سيما
أولئك الذين يدعون الإفراط في العمل بأحكام بني إسرائيل. إنهم يشكلون سوقاً
كبيرة. فبيوت الدعارة تكون مليئة بهم أيام الجمعة قبل حلول يوم السبت".
وارتعشت نفوراً.

"وطرحت أيضاً الكثير من الأسئلة حول قنوات الاتجار بالجنس"، أضافت
مُرجعةً شعرها إلى الوراء، ورابطةً إياه بعُصبتها. "ولا سيما قناة الاتجار بالجنس
عبر مصر".

انتفضت عينا بن - روي، مصر مجدداً. فعلى غرار الروسكايا مافيا، يبدو أنها ستتكرر في هذه القضية. وهم بطرح المزيد من الأسئلة للحصول على المزيد من المعلومات، ولكنه قوطع بقرع الباب. ودخلت إحدى النساء اللواتي رآهن في الخارج، حاملةً صينية قهوة وبسكويت. انتظر قيامها بوضع الصينية، وتسليمها هيلل رسالة، ومغادرتها قبل مواصلة الحديث.

قال: "قناة مصر هذه، أتأتي الكثير من الفتيات عبرها؟".

"ليس بالقدر عينه كما كان الحال منذ عقد من الزمن"، أجابت هيلل مرتشفةً قهوتها. "كانت آنذاك قناة التهريب الرئيسة. وبعد الإجراءات الصارمة في أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، تخلى المتجرون بالجنس عن هذه القناة لفترة، وعثروا على قوات أخرى لإدخال الفتيات؛ جوازات مرور زائفة، وثائق زواج زائفة، ذلك النوع من الأمور. إنهم أذكياء، ويتكيفون على الدوام، ويسبقونا خطوة إلى الأمام".

"ولكن، هل فتحت القناة مجدداً الآن؟".

"حسناً، يصعب الحصول على إحصائيات دقيقة. ولكن هناك دليلاً يوحي بأنه واقع الحال. كان قَوَّادٌ كبير من تل - أبيب يدعى غينادي كريمينكو يُدخل معظم الفتيات عبر تلك القناة".

وعرف بن - روي الاسم.

"أهو ذاك الذي اعتقل قبل شهرين؟".

"هو نفسه. كان أحدهم يتولى مهمة تنظيم جولات تعريفية، فيُخرج الإسرائيليات من مصر، ويتولى كريمينكو مهمة إحضار الفتيات. ليس رجلاً لطيفاً. أيّ منهما ليس كذلك".

وضع بن - روي سكرّاً في كوب القهوة الخاص به، وحرّكه.

"هل تعرفين إن كانوا يُقلعون من الإسكندرية؟" سأل، مفكراً بالرحلة الجوية

التي حجزت كلينبرغ على متنها ليلة مقتلها.

"إنهم يُقلعون عادة من القاهرة أو شرم الشيخ، ويصلون جواً إلى أحد هذين

المكانين من أوروبا الشرقية، أو روسيا، أو أوزبكستان، وينتقلون عبر سيناء ويعبرون الحدود بمواكبة البدو".

"وهل أرادت السيدة كلينبرغ معرفة كل هذه الأمور؟".

"لم تكن تريد معرفة هذا القدر من المعلومات عندما زارت الملجأ. لقد تطرّقنا إلى هذه الأمور على نحو عرّضي وبقليل من التفصيل. لم تبدأ بطرح الأسئلة إلا عندما اتصلت بي بعد أسبوع".

"وماذا أخبرتها؟".

"الكثير مما أخبرتك به. للقوّادين مجنّدون خارج البلد يستهدفون الفتيات، وينقلوهنّ جواً إلى مصر، ومن ثم تتولى شبكة من البدو مهمة نقلهنّ عبر سيناء إلى داخل الثّقب. هذا كل ما أعرفه تقريباً. أنا عاملة اجتماعية ولست شرطية".

نفخت فوق قهوتها ثم ارتشفت منها، مُمسكةً الكوب بكلتا يديها. وحدّق بن - روي إلى دفتر مدوّناته. مitezبي رامون في الثّقب، وعلى بُعد عشرين كيلومتراً فقط من الحدود المصرية. لقد استقلّت ريفكا كلينبرغ حافلة إلى مitezبي رامون قبل أربعة أيام من مقتلها، وقصدت المكان أيضاً قبل ثلاث سنوات بهدف إجراء مقابلة لم تتمّ مع نيمسيس أجندا. إذاً، هناك عنصر آخر في القضية يتكرر كما يبدو، ويومض له كمنارة. الروسكايا مافيا، مصر، الثّقب. ونقر بقلمه على ذراع الكرسي، مقلّباً في رأسه أجزاء الأحجية، ومحاولاً جمعها في صورة منطقية تقريباً. غير أنه لم يكن أي جزء منسجماً مع الأجزاء الأخرى كما يبدو، ولم تكن أي من الصّلات مترابطة. وبينما كانت هيلل تؤرّجح ساقها في انتظار السؤال التالي، دوّن معلومة وواصل حديثه.

"قلت إن السيدة كلينبرغ تحدّثت إلى بعض الفتيات؟".

أجابت: "إلى ثلاث منهن، لولا، صوفيا، وماريا".

"هل كنت حاضرة؟".

"كنت حاضرة مع لولا وصوفيا. إذ علينا توخّي الحذر مع الغرباء؛ فالكثير من الفتيات شديداً الهشاشة، ولا يشعرنّ بالارتياح مع أشخاص لا يعرفنهم. ولكن ريفكا كانت مذهشة معهن. كانت لطيفة حقاً ومهتمة. لقد تحدّثنا معها بانفتاح وراحة على نحو غير عادي".

تناولت رشفة أخرى من قهوتها، ومدّ بن - روي يده لتناول حبة بسكويت، ووضعها في فمه بطريقة أقرب ما تكون إلى تناول الغداء.

"ما الذي تحدّثَ عنه؟" سأل ماضغاً حبة البسكويت، وأصبح صوته أجشّ.
"خبراهما، بصفة أساسية. ما كنت أصفه لك تقريباً".
أوماً بيده بما معناه أنه يُفترض بما إخباره المزيد. فشبت ساقها، ووضعت
كوبها على ركبتيها بشكل متوازن.

"لولا أوزبكية"، قالت. "عندما كانت في وطنها، استجابت لإعلانٍ يطلب
شابة للعمل كنادلة، وانتهى بها الأمر مُباعةً لقَوادٍ في حيفا. إنها القصة نفسها؛ كل
شيء يبدو جيداً حتى يُصبحن في البلد، ومن ثم تؤخذ منهنّ جوازات سفرهنّ،
ويُغتصبنَ ليتمّ ترويضهنّ، ثم يشرعنّ بالعمل طوال ثماني عشرة ساعة في اليوم في
بيت دعارة. مضى على وجودها هنا خمس سنوات قبل أن يتمّ إنقاذها".
"هل جاءت إلى هنا عبر مصر؟".

هزّت هيلل رأسها.
"وصلت إلى بن - غوريون جواً بتأشيرة عمل؛ على غرار صوفيا. إنها
أوكرانية. قال لها صديقها إن باستطاعته تأمين عمل لها في إسرائيل، ولكنه لم يكن
صديقها فعلاً بل أحد المجنّدين الذين يستهدفون فتيات فقيراتٍ مثلها، عُرضة
للأذى، ذوات خلفية مُهينة، ولا يشعرنّ باعتداد بالنفس؛ إنها السيرة الذاتية
الكلاسيكية".

"هل تمّ تهريبها عبر سيناء؟".
فأومأت هيلل برأسها.
"لقد عانت من ظروف مروّعة في أثناء عبورها الصحراء، يا للفتاة المسكينة!
إنه حال جميع الفتيات هنا بالطبع، ولكن خبرات أولئك الثلاث كانت سيئة بصفة
خاصة. اغتصاب جماعي وشرجيّ. لقد رأت إحداهن فتاة تتعرّض لتحطيم عظمتي
ركبتيها بسبب محاولتها الفرار. حتى إنني لا أريد التفكير في ذلك".
كان بن - روي يمدّ يده لتناول حبة بسكويت أخرى، ولكنه سحب يده بعد
فقدانه شهيتّه فجأةً.

سأل: "هل هنّ موجودات هنا الآن، أولئك الفتيات؟".
أجابت هيلل: "إن معظم الفتيات في الخارج يعملنّ كما قلتُ. فنحن نتدبّر
لهنّ أعمالاً، وإن كانت متواضعة، ولكن العمل يبقى جزءاً هاماً من إعادة تأهيلهنّ

لمساعدتهنّ على استعادة احترامهنّ لأنفسهنّ، وللتفاعل مع الأشخاص بطريقة غير قائمة على إساءة المعاملة. صوفيا توضّيب السلع على الرفوف قبل الظهر وبعد الظهر، ولولا تقوم بأعمال التنظيف".

سأل بن - روي مُلقباً نظرة سريعة على دفتره بحثاً عن الاسم: "والفتاة الأخرى؟ ماريا".

كان هناك توقف. وعندما أجابت، كان صوت هيلل أكثر هدوءاً من ذي قبل.

"ماريا لم تُعد معنا".

"هل تمّ ترحيلها؟".

"لقد... اختفت".

فرّج بن - روي نظره.

"هل هربت؟".

"إنّما أن تكون قد هربت أو أن قوّادها قد أخذها. ندعو أن تكون قد هربت".

بالرغم من محافظتها على سلوكها العملي، كان من الواضح أنّها مستاءة من الوضع.

"كان تاريخ تأشيرة دخولها على وشك الانتهاء"، أضافت، "ورفضت الوزارة طلبها بتمديد المهلة. ربما حثّها ذلك على القيام بما قامت به. كانت مذعورة تماماً من فكرة إرسالها إلى وطنها، ومقتنعة بأنّه سيُعاد الاتّجار بها، أو ربما ستعرض لما هو أسوأ من ذلك".

لم تتوسّع في ما تعنيه بكلمة /أسوأ/. غير أنّها لم تكن بحاجة إلى ذلك.

سأل: "هل حدث ذلك مؤخراً؟".

"قبل أسابيع قليلة. بعد زيارة ريفكا إلى الملجأ مباشرةً. ذهبت ماريا إلى العمل ذات صباح ولم تُعدّ قطّ. هذا كل ما نعرفه. هناك أشخاص يبحثون عنها، وتمّ إبلاغ الشرطة بذلك، ولكن حتى الآن...".

تنهّدت وهزت رأسها. لقد لاحظ بن - روي للمرة الأولى أن جذور جزء من شعرها رمادية اللون.

"هل أجرت السيدة كلينبرغ مقابلة مع هذه الفتاة؟".
"لم تكن مقابلة شكلية. لقد تحدثنا مطوّلاً ورسمنا ولوّنتنا أيضاً".
تعضّن جبينه.
"رسمنا ولوّنتنا؟".

شرحت: "إنه أمر نشجّع الفتيات على القيام به. فالرسم والتلوين والنحت تساعد الفتيات على التعبير عن أنفسهنّ، وإخراج ما تختلج به صدورهنّ من أمور لا يرغبنّ في التحدث عنها. لدينا قاعة فنون صغيرة، ووجدنا ماريّا هناك عندما كنت أصطحب ريفكا في جولة في أنحاء الملجأ. لقد استُدعيتُ لمعالجة أمر ما وتركتُ ريفكا معها، وعندما عدتُ كانتا جالستين بجانب بعضهما، وهما ترسمان وتلوّنان".
التمعت في ذهن بن - روي الصورة التي عثر عليها في شقة كلينبرغ.
"شعر أشقر".
"عفواً؟".

"أكانت صورة امرأة ذات شعر أشقر على ورقة زرقاء".
فاتّسعت عيناها من فرط الدهشة.
"كيف...؟".

"كانت الصورة في شقة السيدة كلينبرغ".
قالت: "صحيح، حسناً، هذا يفسّر الأمر. لقد سألت ماريّا إذا كان باستطاعتها الاحتفاظ بها وأخذها معها".
كان بن - روي قد بدأ بنقر الأرض بجذء الرياضة الذي ينتعله ببطء وبطريقة إيقاعية، وهي حركة لا إرادية تظهر على الدوام عندما يشعر بأن الحديث قد يؤدي إلى أمر مشوّق.
"إذاً، عدتِ وكانتا ترسمان معاً...؟".

أومأت هيلل برأسها.
"وعندما اقترحتُ على ريفكا متابعة الجولة، سألتُ إن كان باستطاعة ماريّا اصطحابها في جولة. لقد وافقت ماريّا؛ وهذا ما أثار دهشتي لأنّها كانت متفوّقة على ذاتها إلى حدّ كبير، ونادراً ما تتحدث إلى أي شخص؛ حتى إلى مستشارينا الأخصائيين".

"ولكنها تحدّثت إلى السيدة كلينبرغ؟".

"هذا ما حدث كما يبدو. لقد رأيتهما من النافذة جالستين في الباحة، وممسكتين بأيدي بعضهما وهما تتحدّثان. لقد أمضتا أكثر من ساعة معاً".

أبعدت بإصبعها خصلة شعر عن عينيها.

"تحدّث أمور ماثلة أحياناً، وتُحلّ عقد من دون أن يكون هناك سبب واضح. فتاة تكاد لا تنطق بأي كلمة تُفضي فجأةً بمكنونات صدرها لشخص غريب كلياً. لا بد أنه كان هناك شيء ما في سلوك ريفكا ساعدها على الانفتاح على الآخرين".

مرةً أخرى، لمعت في ذاكرة بن - روي كلمات موردهاي يارون: كانت تشعر بتعاطفٍ فطري حيال الأشخاص المتألمين.

"ألا تملكين أي فكرة عما كانتا تتحدّثان؟".

"لا فكرة لديّ البتة. لم تقل ماريا أي شيء عن الحديث الذي جرى بينهما، ولم تكن مهمتيّ تشمل طرح هذا السؤال عليها. كان حديثهما خاصاً، ونحن نحترم هذا الأمر هنا. صدقاً، لقد شعرتُ بالسعادة لرؤيتها تتواصل مع شخص ما. فقد كانت مجروحة المشاعر على نحوٍ مروّع، ولا تعبّر عما يختلج في صدرها. كانت بحاجة إلى التحدّث إلى أحدهم عن بعض مكنونات صدرها".

"هل قالت السيدة كلينبرغ شيئاً؟".

"ليس حقاً. قالت فقط إن ماريا شاطرتهما بعض خبراتهما، وإن قلبها قد انفطر بسبب ما مرّت به تلك الشابة. لقد تركت ماريا بالتأكيد انطباعاً في نفسها. لهذا السبب اتصلت مرةً أخرى بعد أسبوعٍ لتسأل عما إذا كان بإمكانها القدوم والتحدّث إليها مجدداً، وطرح بعض الأسئلة عليها".

لزمت الصمت للحظات، ناقرةً بأطراف أصابعها على الطاولة، ورأسها يميل قليلاً كما لو أنّها تفكر، ومن ثم قالت:

"في الواقع، قالت إنّها بحاجة إلى التحدّث إليها بشكل عاجل. لم تُبح بموضوع الحديث، ولكنها قالت إنّها بحاجة حقاً إلى رؤيتها مجدداً. وقلقت جداً عندما أخبرتها أن ماريا قد فقدت".

وازدادت قليلاً سرعة نقر بن - روي بقدمه على الأرض.

"وهل بدأت حينئذ بطرح أسئلة عن قناة مصر؟".

سادت فترة صمت وجيزة خلال قيام هليل بالتفكير ملياً بالترتيب الزمني للأحداث، ومن ثم أوّمت برأسها.

"هل دخلت ماريا من مصر؟".

"لم نتحقق من ذلك"، قالت منزلقةً عن الطاولة، ومتوجّهةً للجلوس وراءها على الكرسي الدوّار. "رفضت التحدث عن الأمر على غرار الكثير من الفتيات اللواتي يُعانيّن من ضيق ما بعد الصدمة النفسية، ورفعت حاجزاً في عقلها بين الحاضر والماضي في مسعى لإيقاف ما يحدث لها. حصلنا على القليل من التفاصيل عن المراحل الأولى من حياتها، ولكن كل ما اكتشفناه عن معاناتها خلال مرحلة الاتجار بها هو إقامتها في شقة في نيفي شَعْنان، وأنها كانت في تركيا في مرحلة ما؛ مما يوحي بأنها دخلت البلد جوّاً، أو نُقلت بحراً من قبرص إلى حيفا أو أشدود".

أسندت ظهرها، ممرّةً إصبعها على حافة الطاولة جيئةً وذهاباً.

"بالمناسبة، تلك المرأة ذات الشعر الأشقر... كانت ترسمها باستمرار. إنها الوحيدة التي رسمتها، ولم ترسم أي شيء غيرها. ولم نكتشف هويّتها قط".

دوّن بن - روي ملاحظة ذهنية تقضي بإلقاء نظرة أخرى على الصورة في شقة كلينبرغ.

"ألم يتبادر إلى ذهنك قطّ أن تعرّفني من الذي اتّجر بها؟" سأل. "ومن هو قوّاها؟". هزت رأسها.

"كما قلتُ، نحن نتعاطى مع الضرر فقط وليس مع الأشخاص الذين تسببوا به".

"ألم يبلغكم أي شيء عنها؟ ألا تعرفون شيئاً عن المكان الذي ربما تكون قد قصدته؟".

"لا شيء البتة. نعتقد أنها عادت إلى نيفي شَعْنان. يحدث ذلك مع الهاربين، إذ يميلون للعودة إلى الأماكن التي يعرفونها؛ حتى وإن عني ذلك عودتهم إلى بيوت الدعارة. ولكن أحداً لم يرها هناك".

"هل لديك صورة فوتوغرافية لها؟".

"بالتأكيد".

مدّت يدها، وشعلت كمبيوترها.

"بالمناسبة، ماريا ليس اسمها الحقيقي. فالفتيات يتخذنَ على الدوامَ اسماً مختلفاً يساعدهنَّ على إبعاد أنفسهنَّ عما فرض عليهنَّ القيام به، ويسمح لهنَّ بالاعتقاد بأن شخصاً آخر، ولسنَ هنَّ، من كان يقوم بما قُمنَ به".

أسندت ظهرها في انتظار بدء الجهاز بالعمل. وشرب بن - روي ما تبقى من قهوته التي أصبحت باردة، ومن ثم وقف وتوجّه إلى النافذة.

في الخارج، كان كل شيء هادئاً وساكناً ومسالمًا ومغموراً بالتوهج العسلي اللطيف لشمس المساء الغاربة على بُعد مئات الأميال من العالم الذي يتحدثان عنه. حدّق إلى صفوف شيكونيم المغيرة، وحول نظره بعد ذلك إلى الرصيف المقابل في الأسفل، حيث كان رجل غاضب ذو شعر زيتيّ المظهر يقف هناك، متكئاً على جذع شجرة جُمّيز، ومحدّقاً عبر الشارع إلى الناحية الأمامية للملجأ. إنه القَوَاد الذي لاحظت هيلل وجوده في وقت سابق. ورغب بن - روي في فتح النافذة والصياح في وجهه ليغادر، ولكنه قرر أن الرسالة ستكون أكثر فعالية إذا سُلّمت وجهاً لوجه مع صفقة صغيرة. لم يحب القَوَادين يوماً، وازداد مقتته لهم بعد كل ما سمعه. حدّق إليه بوجه متجهّم، وألقى نظرة على الناحية الأمامية للملجأ. كان هناك مقعد نُزهات خشبي عليه منفضتا سحائر، مقعدٌ متأرجح، وحبلٌ ملابس، وفي الزاوية دراجة وجرّار بلاستيكي بدوّاستين. لم يسبق له أن لاحظ وجود هذه الأشياء عندما دخلا.

سأل متفاجئاً: "أليكم أطفال هنا؟".

"خمسة منهم"، صدر الصوت من ورائه. "إنهم في المدرسة".

"والأمهات..." كان على وشك أن يقول بغايا ولكنه تراجع عن ذلك، مُدركاً أن الكلمة غير ملائمة.

"... هل يُقمن هنا؟".

"بالتأكيد".

"والآباء؟".

"كانوا قَوَادين أو زبائن". كانت نبرتها عَفْوِيّة. "ليست العائلة المثالية ولكنه واقع الأمور. فعندما يتم إنقاذ الفتيات، يتم إنقاذ أطفالهنَّ أيضاً".

واصلت التفر على زر الفأرة بحثاً عن الصورة. وحدّق بن - روي إلى الألعاب. فالشرطي يطوّر آلية ترشيح تسمح له بمنع الأمور السيئة من التسرب، ولكن الأمور تتسرب من حين لآخر بالرغم من أفضل الجهود المبذولة. وها هو في مواجهة إحدى هذه الحالات. لقد حرّكت الألعاب مشاعره أكثر من أي أمر آخر في الملجأ وفي القضية برمتها. هناك أمر محزن على نحو يائس في شأنها، وفي شأن الحيات الصغيرة العاجزة والمتضررة التي دُمّرت حتى قبل أن تبدأ. شعر بغصة ترتفع إلى حلقه وبرغبة فجائية في الاتصال بسارة وإعلامها بمدى حبه لها وللطفل. في الواقع، لقد أخرج هاتفه المحمول، ولكن هيلل نادته فانتهت تلك اللحظات الغامرة. وجّه نظره إلى الأسفل للحظات إضافية محدّقا، ثم أبعد الفكرة عن رأسه، وأعاد الهاتف إلى جعبته، وتوجّه إلى الطاولة.

"هذه هي"، قالت هيلل مُميلة الشاشة في اتجاهه.

انحنى إلى الأمام ناظراً إلى الصورة. كانت صورة رأسية ملتقطة حتى مستوى الذقن تماماً، تُظهر فتاة ذات وجه شاحب وكثير، وشعر أسود طويل، وشفَتين مكتنزتين، وعَيْنَيْن بَنِيَتَيْن كبيرَتَيْن. إنها شابة - لا بل إنها صغيرة في السن - تحدّق إلى آلة التصوير مباشرةً بنظرات حادّة وخالية من أي تعبير في آن واحد.

سأل: "هل يمكنك إصدار نسخة مطبوعة؟".

"بالتأكيد. لدينا صورة أخرى لها. هل تريدها أيضاً؟".

"لِمَ لا؟".

وحرّكت الفأرة بشكل دائري، ثم ضغطت على الزر مرّتين. كان هناك توقف، ومن ثم ظهرت صورة رأسية ثانية ملتقطة تحت مستوى الذقن، ويبدو فيها عنق الفتاة وكنزتها.

في وقت مبكّر من ذلك اليوم، وفي أثناء طرحه أسئلة على موردخاي يارون في مكتبه في يافا، كان بن - روي قد شعر بتدفق الأدرينالين في دمه عندما أبلغ بزيارة ريفكا كLINBERG لMITZBI رامون لأجل مقابلة لم تتمّ عن تأسيس أجندا. لقد شعر الآن بتدفّق أكبر للأدرينالين. لا بل شعر برعشة تميز كهربائية حادة؛ ليس للمظهر الجسدي للفتاة بل لما كانت تضعه حول عنقها.

"هذه الفتاة"، قال ماداً يده ولا مساً بإصبعه رمز النصارى الديني على صدرها؛ إذ كان فضياً مسطحاً ذا ذراعين مزخرفتين بشكل معقد تنتهي كل منهما بطرف مزدوج مميّز. "هل تعرفين مسقط رأسها الأساسي؟".

وجاء الجواب من كليهما في آن واحد.

"أرمينيا".

إنه الأمر الذي أقلقه منذ البداية؛ الافتقار إلى أي رابط واضح بين مقتل كلينبرغ وأي طرف خيط آخر مرتبط بالقضية. لقد بات لديه رابط الآن كما يبدو، ولا تزال الدرب طويلة أمامه، ولكنه شعر للمرة الأولى بأنه يحقق تقدماً.

الأقصر

"... ويبقى فقط إزالة تلك المنازل الأخيرة لتستمتعوا بمنظر رائع من هنا حيث نقف الآن، ووصولاً إلى معبد الأقصر؛ وهي مسافة لا تقلّ عن ألفين وسبعمئة متر. ألف وثلاثمائة وخمسون تمثال سيفنكس! أنا لا أبالغ سيداتي وسادتي عندما أقول إن جادة السّفنكس هي حقاً العجينة الثانية للعالم القديم".

ووجه الدليل السياحي مظلمته بشكل مسرحي من تحت البرج العاشر لمعبد الكرنك في اتجاه الجنوب؛ حيث تتعرض مجموعة من المنازل المبنية بآجر طينيّ للاعتداء من قِبَل الآلات الوحشية؛ تلك المجموعة الكبيرة من المباني المتداعية التي تهاجم بعنف من قِبَل قوة مجتاحة كبرى. وسمعت طقطقات وصفرات خافتة في أثناء قيام مجموعته السياحية بالتقاط الصور.

"ماذا سيحصل للأشخاص المقيمين هناك؟". سألت امرأة ملفوحة بالشمس، وترتدي تي - شيرت كتبت عليها عبارة أحب الملك توت! "ماذا سيحلّ بهم؟".

"آه، الأمر جيد جداً بالنسبة إليهم"، ضحك الدليل. "لن يتلقوا تعويضاً فحسب، بل سيحصلون على شقق جديدة وجميلة مليئة بوسائل الرفاهية، وأفضل من منازلهم القديمة. أتمنى لو أن منزلي قد تعرض للهدم!".

ورفع ذراعيه نحو السماء داعياً:

"رجاءً يا الله، اهْدُم منزلي لأتمكن من الحصول على مطبخ جديد وحمّام مع دَفَق ماء!".

وقهقهه أعضاء المجموعة. كانوا يحبون دليلهم، فقد كان مثقفاً ومهذباً، ولكنه مُضحك قليلاً. إنه المصري المثالي.

"ولكن فعلاً"، أضاف، "باستطاعتي التأكيد أن هؤلاء الأشخاص سعداء بالانتقال كي تظهر إحدى عجائب العالم القديم. في مصر، نحن فخورون جداً بتاريخنا، وفخوروون جداً بمشاطرة تاريخنا. لهذا السبب حُفرت الجادة في وقت قياسي؛ كي نتمكن من تشاطرها مع العالم أجمع. فماضيها هو ماضيكم كما أن قلبي هو قلبكم!".

وغمز المرأة التي لفحتها أشعة الشمس، وضحكت المجموعة مجدداً. المزيد من التلميح المُضحك؛ كانوا يحبون ذلك أيضاً. وبدأ يشرح كيف أن الجادة يعود تاريخها إلى عهد الفرعون نكتانبو الأول، وأنها استُخدمت في أثناء مهرجان أوبيت، ولكن خليفة كفّ عن الإصغاء، وأشعل سيجارة، وخرج من حيث كان يقف في ظل البيلون (البرج) - حيث كان واقفاً عندما وصلت المجموعة - وعاد إلى وسط مجمع المعابد. كان جزء منه يتساءل إن كان يُفترض به قول شيء ما، وإخبارهم أن منزله قد تَهَدَّم لإفساح الطريق للجادة، وأنه لم يكن سعيداً بذلك بالتأكيد. ولكن، ما الذي سيحققه؟ لقد دفعوا مبلغاً كبيراً من المال للقدوم إلى هنا، ولم يشأ إزعاجهم بمشاكله. ربما كان ماضي مصر ماضيهم. ولكن، لا علاقة لهم بحاضرها. فراعنة وملكات ومدافن وحروف هيروغليفية؛ هذا ما كانوا يهتمون به، وهم لا يهتمون بتحرُّر آثاره عالمه من حوله. فالأمر... مُبِلٌّ فحسب ولا علاقة له بالواقع.

مرّ عبر البرج التاسع، والبرج الثامن، والبرج السابع، وصولاً إلى داخل ساحة كاشيت كورت الواسعة المرصوفة. كان يتم التقاط صور فوتوغرافية لحشد من الأطفال عند أقدم تماثيل المملكة الوسطى المقابلة للبرج السابع، ويقوم رجل متربّع على الأرض بوضع رسم تقريبي لبلاطة الفرعون مرنبتاح التي تحمل كلمة "إسرائيل"؛ فالكلمة على البلاطة هي الوحيدة التي عُثِر عليها في مصر والتي يرد فيها ذكر إسرائيل. وبالرغم من دنوّ المساء شيئاً فشيئاً وازدياد طول الظلال، كانت

درجة الحرارة لا تزال مرتفعة، وكان نسيم يهبّ من الشرق قبالة النيل يعمل على التخفيف من حدّتها.

لقد أمضى معظم فترة بعد الظهر هنا، بعد تمضيته ساعة الغداء في حقل الرماية التابع للشرطة. كانت بعض كُتل تالّات الحَجَرِيّة قد فُقدت من المستودع الآمن في الناحية الخلفية للمجمّع - اثنتان منها تحملان اسم الملك أختاتون ضمن إطار بِيضَوِي - وعمد إلى أخذ إفادات بعض أولئك الذين يمكنهم دخول المستودع. كان باستطاعته اختبار ردود الأفعال، والقيام بجولة على تجار التحف الفنية القديمة المعروفين، ولكنه لم يعلّق آمالاً كبيرة على استعادة الكُتل. ربما سُرقت منذ أشهر، لا بل منذ سنوات؛ إذ نادراً ما يتمّ تفقّد المستودع، ولم يُلاحظ غياب الكُتل إلا صدفة. إنْما تُثري الآن بالتأكيد مجموعة تُحفّ يمتلكها مليونير ما في الجانب الآخر من العالم. فكما قال الدليل السياحي: تاريخ مصر تاريخ للجميع؛ حتى إن تعيّن عليكم اللجوء إلى السرقة للحصول على جزء منه.

أخذاً بجهة من سيجارته، توجه إلى المدخل عند الزاوية الشمالية-الغربية للساحة، ودخل غابة الأعمدة الشائخة لقاعة هيبوستيل هول العظيمة. فقبل ساعات قليلة، كان المكان فارغاً تقريباً لأن حرّاً بعد الظهر الذي لا يُطاق حمل السيّاح على العودة إلى فنادقهم المبرّدة. ولكنهم عادوا الآن بأعداد كبيرة واكتظت بهم القاعة. مرّ بسلاسة بين حشد من السيّاح اليابانيين - أم إنهم صينيون؟ لم يكن بإمكانه معرفة ذلك بالتحديد - وشقّ طريقه في اتجاه البرج ومخرج المعبّد. وعندما وصل إلى منتصف المسافة التي تفصله عن المخرج، أبطأ خطواته فجأة، وتوقف كما لو أن فكرة ما تبادرت إلى ذهنه. فقطّب جبينه، وتحقّق من ساعته، وتمتم "داميت"، ثم استدار وعاد أدراجه عبر القاعة، وخرج هذه المرة من البيلون الثالث بجانب المسلة الخلفية لتحتّمس الأول، والبيلون الرابع، ومسلة حتشبسوت، ودخل منطقة البحيرة المبعلة الشاسعة والمسوّرة والتي تحتوي على أشجار النخيل. امتدّت أمامه بقعة مستطيلة من المياه الخضراء العكّرة المتماوجة برفق، وبجانبيها كشك لبيع المرطّبات مغطى بظلّة، وفي الطرف البعيد المدرّج الإسمنتي القبيح المسقوف؛ حيث كان السيّاح يشاهدون المسرحية الليلية صوت وضوء. كان هناك مركب تجذيف صغير في وسط البحيرة تماماً، وتكاد حافته تلامس سطح الماء مع وجود رجل بدين على

متنه، يضع نظارة، ويرتدي بذلة عمل زرقاء ضيقة جداً، ويعتمر قبعة صوفية، وكان منحنيًا فوق حافة المركب، ويُمسك بشيء ما في الماء.
"ظننتُ أنك ربما ستكون هنا"، تتم خليفة.

وانتظر قيام الرجل بسحب أنبوب اختبار كبير، وإغلاقه بإحكام، ووضعه في صندوق عند مقدمة المركب. وبعد أن أطفأ سيجارته على جذع شجرة نخيل، ورمى عقبها داخل وعاء قمامة، دنا خليفة من رصيف الميناء الصخري بجانب البحيرة.
"سلام!" نادى.

رفع الرجل نظره محدقًا من وراء عدستي نظارته السميكتين. لقد بدا مُربكًا للحظات، ولكن ابتسامة عريضة سرعان ما ارتسمت على وجهه.
"يوسف!"

"كيف حالك يا عمر؟".

"أنا وسط بحيرة، وأخذ عينة ماء ملوثة؛ لا يمكنني أن أكون أكثر سعادة! هل تريد الخروج في نزهة؟ إنه يوم جميل للتجذيف".

"ليس في هذا المركب، شكرًا. إنه يبدو غير مستقر مع وجود شخص واحد على متنه، فكيف سيكون الحال مع اثنين؟".

"هراء!". صاح الرجل وهو يقف ويحاول هزّ المركب من جانب إلى آخر.
"انظر، إنه آمن كعبارة النيل".

وهزّ بقوة أكبر للتأكيد على كلامه، ولكنه فقد توازنه وترنّح إلى الأمام، ومال المركب على نحو خطير إلى جهة واحدة، وتطاير رذاذ الماء فوق حافة المركب، مبللاً قدميه وكاحليه.
"تَبًّا!"

فابتسم خليفة.

"هل ترغب بزجاجة كوكا كولا؟".

"سيكون تبديل الملابس أكثر فائدة"، تتم الرجل ملامسًا بيده بذلة العمل المُشبعة بالماء. "إذا، اذهب وسألتقيك عند الدرجات".

وربّت على بذلة العمل بيده، ثم خلع قفّازيه، وتحرك بعناية إلى الورااء في اتجاه المقعد.

"في الواقع، لنكن سرايت"، نادى مُسَقِطاً المَحْذَافِينَ في الماء، وشارعاً بالتحذيف. "ولن أقول لا للوح شوكلاته سنكرز أيضاً. فقد دام وجودي في الماء ساعتين".

رفع خليفة ذراعه موافقاً، ودخل المقهى. وتناول من الشالاجه زجاجتي كوكا كولا وسرايت، إضافةً إلى لوح شوكلاته من نوع كيت - كات بسبب عدم وجود سنكرز، وانضمَّ بعد ذلك إلى مؤخَّر الصف وراء ثنائيٍّ مصريٍّ شاب. وعندما سدَّد الثمن وعاد إلى البحيرة، كان صديقه قد بلغ الطرف البعيد، وربط المركب، وصعد الدرجات إلى جانب الرصيف.

"اعذرني يا يوسف"، قال في أثناء دنوِّ خليفة، مادّاً يديه بطريقة اعتذارية. "ما حصل في المركب، لم أكن أعتقد كان أمراً غيباً..."

فرمى له خليفة زجاجة السرايت كما لو أنه يقول له إنه لم تحدث أي إساءة، ولا ضرورة للاعتذار. ورمى الكيت - كات بعد ذلك، وتعانق الاثنان، وطَبَعَ الرجل قبلة واحدة على كلٍّ من خَدَّي خليفة.

"كيف حال زَيْنَب؟". سأل في أثناء جلوسهما على جانب الرصيف، وسبقاهما متدلّية على جدار البحيرة المصنوع من كُتَل حجرية. "إنها بحال أفضل يوماً بعد يوم"، أجاب خليفة، وهو غير مقتنع تماماً بذلك. "ماذا عن رشا؟".

"بخير، علماً أنها تُفرط في العمل في الوقت الحاضر، إذ يفتقرون إلى الموظفين، ويتعيّن عليها العمل في مناوبتين. تكاد لا تستطيع إبقاء عينيها مفتوحتين، يا للفتاة المسكينة! في الليلة الماضية، لم تُعد إلى المنزل حتى ما بعد منتصف الليل".

كانت رشا الزّهوي - زوجة عمر - طبيبة أطفال في مستشفى الأقصر العام. ويعمل عمر محلّلاً ميدانياً لصالح شركة الأقصر للمياه ومياه الصّرف الصحي، ويتولى بصفة خاصة مسؤولية إدارة المياه في محيط الآثار التاريخية القديمة. وبهذه الطريقة، تقاطعت طريقه وطريق خليفة قبل ما يفوق عقد من الزمن. لقد اعتادا تبادل الزيارات تكراراً بخلاف العام السابق.

"كيف تبدو؟". سأل خليفة، فاتحاً زجاجة الكوكا كولا ومشيراً بيده إلى صفحة البحيرة.

"مليئة بالغائط"، أجاب عمر، "بكل معنى الكلمة، بسبب اهتزازات الأرض الناجمة عن الأعمال التي خضعت لها الجادة. لقد كُسر أنبوب الصَّرف الصحي الرئيس في آخر هذه البلدة، والآن تتسرَّب المياه القدرة إلى المياه الجوفية التي يتم ضخها إلى البحيرة. أراقب ما يجري منذ شهر، ويزداد الأمر سوءاً".
"لا يمكنني شمّ أي رائحة".

"ثق بي، سوف تشمّ الرائحة بعد أسبوعين. لن يكون بإمكان أحد الاقتراب منها بسبب الرائحة التّنة. سوف يتعيّن عليهم إفراغ البحيرة وإعادة ملئها من النيل. تَبّاً لذلك!".

فَارَّ محتوى زجاجة السرايت عندما فتحها، وانسكب على يديه وبذلة العمل، فأبعدها عنه وخلع القُبعة الصوفية عن رأسه.
"كنت لا أزال جافاً حتى قدِمتَ"، تأفّف مروراً القُبعة على بذلة العمل المبتلة.

فرمقه خليفة بنظرة اعتذارية ساخرة، وارتشف شرابه. وانطلقت الصفارات وراءهما، منبهة الزائرين إلى حلول وقت الإقفال، ووجوب البدء بالتحرك في اتجاه مخرج المعبد. وسُمع بعيداً إيقاع مدقات الأوتاد وضرباتها القوية؛ وهذه هي الدلالة الوحيدة على عودة الحياة إلى الأقصر في العامين الأخيرين.

"هل تأخذ عينات من المياه في الموقع؟". سأل خليفة بعد فترة قصيرة من الصمت؛ مُبعداً ذبابة عن وجهه، ومتناولاً جرعة أخرى من الكوكا كولا، فهزّ عمر رأسه.

"أرسلنا العينات إلى مختبر في أسيوط. كنا نتعامل مع مختبر المستشفى، ولكن منذ بدء أعمال البناء اللعينة هذه، تعددت الاختبارات التي يتعيّن إجراؤها، ولم يعد بإمكان المستشفى تلبية متطلباتنا".

أرجح خليفة ساقيه للحظات، ومن ثم قال:

"هل يمكنني أن أطلب منك خدمة؟".

"يمكنك ذلك".

"تلقيتُ تقارير عن آبار تفسد ماؤها في الصحراء الشرقية، وأنا بحاجة إلى نصيحة".

وعرض للوضع - السيد عطية، ابن عمه، دير الزيتون - الذي استمر بقض مضجعه بالرغم من بذله قصارى جهده لسيانته. كان هناك خطب ما؛ أمر ما يحدث. وبالرغم من عدم تمتعه بنصف القدرات التي كان يمتلكها كتحرر، فهو لا يزال ذلك الشخص الذي يريد الحصول على إجابات عندما يواجهه بنموذج أحداث لا يوجد شرح واضح له.

"هل يمكن أن يكون الأمر طبيعياً؟". سأل عندما أنهى سرد القصة. "أقصد أن تفسد مياه الآبار تلقائياً".

تناول عمر جرعة كبيرة من السيرات.

"أشك في ذلك كثيراً. الآبار تحفّ بالتأكيد، وتسوء حالها جداً أيضاً، وإذا بلغت هذه المرحلة فالسبب يرجع إلى تلوث صناعي كما هو الحال في غالب الأحيان، أو بسبب مياه الصّرف الصحي أحياناً؛ وهذا ما نواجهه هنا. ولكنك تقول إن هذه الآبار موجودة في الصحراء الشرقية".

فأوما خليفة برأسه.

"إذاً، يصعب تفسير ذلك. أفترض أنه لا وجود لصناعات ثقيلة قربها؛ معامل إسمنت، معامل ورق، ذلك النوع من الصناعات؟".

"ليس على حدّ علمي".

"هناك أمر مريب بالتأكيد. نادراً ما تفسد منابع المياه بسبب نشاطات تحت أرضية، ولكننا حين نتحدث عن نشاط تحت أرضي فنحن نقصد نشاطاً كبيراً بحجم زلزال، وهو أمر كنا سنسمع به لو حدث. وواقع أن الآبار يملكها أقباط...".

وتناول رشفة أخرى من السيرات، ووضع الزجاجاة من يده، وشرع بفضّ غلاف الكيت - كات الخارجي، ممّراً بشكل منهجي ظفر إبهامه على الغلاف الداخلي بين كل إصبع شوكلاته.

"أتريد مني النظر في الأمر؟". سأل فيما كان يقسم إصبعاً من الشوكلاته ويقدمها لخليفة. "أتريد أن آخذ بعض العينات وأجري تحليلاً للماء؟".

"هل تمنع؟".

"بالطبع لا. لقد أثرت فضولي الآن".

"باستطاعتي الذهاب والحصول على العيّات بنفسي إذا كان هذا الأمر يسهّل مهمتك".

"من الأسهل لي القيام بذلك بنفسي. فهذا يمنحني الفرصة لإلقاء نظرة على الأرض والتحقق مما إذا كان هناك أي تفسير جيولوجي. قد يتطلب الأمر بضعة أيام".

"مهما يكن، لسنا في عجلة من أمرنا. سأدفع ثمن الوقود".

فلوّح عمر بيده، رافضاً العرض.

"أدين لك بثمان الكيت - كات والسيرات"، قال. "لقد تعادلنا".

"لا يبدو ذلك مُنصفاً جداً".

"إنها مصر، لا إنصاف فيها. الأمر أشبه بحصولك على إصبع وحصولي على ثلاث أصابع".

وغمز خليفة، ثم حشا فمه بما تبقى من الكيت - كات.

"حتى مع رحيل مبارك، لا يزال هناك قدر كبير من المعاملة غير المُنصفة"، قال ماضعاً الشوكولاته بابتهاج. "ما يحدث يُدمي القلب".

ابتسم خليفة ولزما الصمت محدّقين بالبحيرة، وتواصل إطلاق الصفارات وراءهما؛ وإن بشكل غير متكرر بعد تلقي السيّاح الرسالة وخروجهم من المعبد إلى مركبات الخيول المنتظرة. أنهى خليفة الكوكا كولا، وأكل إصبع الكيت - كات، وأشعل سيجارة كليوباترا؛ ناظراً إلى السماء الفارغة وراء البيلون العاشر المستطيل الشامخ. في هذا الوقت من العام الماضي، كان هذا المنظر نفسه يحيط بمبناه السكني القديم القائم في صف من المستطيلات الإسمتية ذات اللون البني المائل للرمادي، والتي ترتفع فوق الطرف الشمالي للبلدة كسلسلة من بلاطات أضرحة تعرّضت لعوامل الطبيعة. وكلما زار الكرّك في الأيام الغابرة، كان يتحوّل خارج البيلون ويتصل بالمنزل بواسطة هاتفه المحمول، ويحمل من كان موجوداً هناك على التلويح له من نافذة غرفة الجلوس. إنها لعبة صيبانية لم يملّ منها أحد، ولا سيما "علي" الذي رفع في إحدى المناسبات التي لا تُنسى ورقة كبيرة خارج النافذة كتب عليها الكلمات "نخبك يا أبني". وتمتّى خليفة لو أنه التقط صورة فوتوغرافية لذلك المشهد. هناك أمور عديدة تمّت لو أنه التقط لها صوراً فوتوغرافية؛ ذكريات لن

تتكرر حدثت في أماكن استُبدلت بسماء فارغة وبأحدود مليء بتمائيل السّفنكس. أهذا هو التقدّم؟ لم يكن الأمر يبدو له كذلك.

"يفترض بي العودة إلى العمل"، قال عمر، محتسباً ما تبقى في زجاجة السرايت، وواقفاً على قدميه بمشقة. "لا يزال يتعين عليّ أخذ بعض العينات، ولا أعتقد أنهم يقدرّون عالياً تبليّ بالماء في أثناء عرض مسرحية صوت وضوء".
"لا أعلم"، قال خليفة، ووقف أيضاً. "ربما يظنون أنك جزء من العرض، آمون على متن مركب سيد الشمس رع".

"ببذلة العمل والقبعة الصغيرة؟ إنه تشبيه مشوّق".

وضحكا. والأصحّ أن "عمر" ضحك في حين أن خليفة ابتسم.
"سأحاول الذهاب إلى الآبار في الأيام القليلة القادمة"، قال عمر. "هل بإمكانك أن تُرسل لي التفاصيل؟".

"سأوجّه لك رسالة عبر البريد الإلكتروني حالما أعود إلى المكتب".
"سأقول للمختبر إن الأمر مُلحّ، لذلك يفترض أن يكون لدينا شيء ما في نهاية الأسبوع".

فشكره خليفة.

"هناك أمر آخر. أنا على ثقة تامة بأن المزرعة في بير هاشفا تضخّ مياه الشّفة بطريقة غير قانونية. إنهم أناس فقراء، لذا أسدني صنيعاً واحفظ السر".
"إنه سرّنا الصغير"، قال عمر، مربّباً على أنفه بطريقة تواطئية.
ثم عانق خليفة، وابتعد، ووضع يديه على كتفي خليفة وسأله:
"هل أنت بخير؟".

"لم يسبق لي أن كنت أفضل حالاً".

ضغط على كتفي عمر بيديه.

"هل أنت بخير؟" كرّر.

هذه المرة، تردد خليفة قبل الإجابة.

"سأحيا"، قال في النهاية.

"قم بذلك يا صديقي. عِش طويلاً وبصحة جيدة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى زينب والولدين".

ونظر إلى عيني خليفة، ومن ثم نفش شعره بمحبة، وخلع قبّعته الصوفية وعاد إلى مركبه.

"سأعلمك حالما أحصل على النتائج". نادى، ثم صعد على متن المركب بمشقة وفك الرباط. "أنا متشوق لرؤيتها بنفسي. لا يجب أن نكون جاهلين بما يجري". ثم دفع المركب، وجلس، وجذّف، دافعاً المركب الصغير عبر الماء. راقبه خليفة للحظات، ومن ثم نظر في اتجاه البيلون العاشر مجدداً؛ حيث كان مبناه السكني القديم. في كل مكان من الفلق التكتوني تجد أشخاصاً ينظرون بالطريقة نفسها، محدّقين في الفضاء ببؤس كما لو أنهم يرغبون في ظهور منازلهم القديمة على نحو عجائبي؛ إنهم أشبه بالمشيعين بجانب القبر. لقد بدا لخليفة أن نصف الأقصر في حداد بسبب ما آلت إليه الأمور. هز رأسه، والتقط الزجاجتين الفارغتين وتوجّه إلى المخرج. يصعب النسيان أحياناً.

تل - أبيب

خارج ملجأ هوفيش، عبر بن - روي الشارع ليكلّم القوّاد الواقف على الرصيف المقابل. وحين رآه الرجل قادماً ركض بسرعة مثيرة للدهشة بالرغم من بطنه الكبير. طارده بن - روي مسافة نصف مجمّع سكني، ومن ثم تخلّى عن ذلك. سيعود بالتأكيد كما قالت هيلل، ولكنه منحه على الأقل شيئاً ما يفكر فيه، وربما لا. فالأشخاص المماثلون له لا يفكرون حقاً، بل يقومون بما يقومون به من دون أن يعوّا النتائج، ومن دون وجود أي رابط عاطفي بالتأكيد. سوف يختبئ وراء الزاوية منتظراً مغادرة بن - روي، ثم سيواصل حراسته الليلية بحدوء كثعلب عائد إلى صندوق قمامة؛ ولا شيء يفعله بن - روي أو يقوله سيبدّل ذلك. إنها الرقصة الأزلية للمحافظين على القانون وخارقيه، وليست هذه هي المرة الأولى التي يتساءل فيها عن سبب تكبّده العناء.

بقي هناك لدقائق قليلة مؤكداً على وجوده، ومن ثم عاد إلى سيارته بعد أن صاح: "سأراقبك، أيها الفاشل!". ورمى الصور الفوتوغرافية التي طبعها له هيلل على مقعد الركاب، واتصل بزيسكي، وزوّده بما اكتشفه.

"هل تعتقد أن كلينبرغ كانت تزور المجمع الأرمني لهذا السبب؟". سأل زيسكي عندما أُمّي بن - روي حديثه. "لأنها كانت تبحث عن فتاة؟".
"أو لتلقيها"، قال بن - روي. "في الأحوال كافة، إن هذا أفضل طرف خيط لدينا. الملجأ يرسل الصور الآن عبر البريد الإلكتروني. أسدٍ إليّ صَنِعاً واحصل على بعض العناصر النظاميين ليحولوا في أنحاء المجمع ويتحققوا مما إذا كان أحدهم يعرفها. سأعود إلى نيفي شَعْنان علّ أحدهم يكون قد رأى الفتاة هناك. هل هناك أي معلومات تبعث على السرور في شأنِ نِمْسيس؟".
"تحدثتُ إلى صديقي، وسيزودني ببعض المعلومات عنها"، قال زيسكي. "كما حصلتُ أيضاً على بعض المعلومات عن شركة بارين ربما تكون ذات صلة. هل تريد التسكّع في مكان ما هذا المساء؟".
"لِمَ لا. هل تتناول شراباً بارداً؟".
"العصير فقط".

كان بن - روي يدرك روح الدُّعابة التي يتمتع بها زيسكي، فابتسم قائلاً:
"إذاً عليك تحمّل التكلفة. هناك مقهى في طرف المدينة القديمة يدعى بوتينز".
"أعرفه".

"ألقاك هناك عند التاسعة".
"إنه موعد".

أُمّي بن - روي المكالمة، وأجرى اتصالاً ثانياً بسارة هذه المرة. بالعودة إلى الملجأ، عندما حدّق بن - روي عبر النافذة بمجموعة الألعاب في الباحة، شعر بالانفعال، وبرغبة فجائية ومُلحّة في الإعراب لها عن مدى حبه لها. فهو يحبها حقاً - وعلى نحو يائس إذا كان صادقاً مع نفسه - ولكن مِيله للتعبير لها عن ذلك قد زال. وعندما أجابت على اتصاله، أوجز الحديث وأبقاه في إطار الاطمئنان على الجنين، مقترحاً أن يلتقيا على الغداء في اليوم التالي، ومتجنباً حملها على طرح أسئلة عليه حول ما كان يفعله في تل - أييب، ليس لأنها لا تستطيع التعاطي مع الأمر - كانت قوية وشديدة الاحتمال - بل لأنه لا يريد المزج بين بعض نواحي حياته. اغتصاب، عنف، إساءة معاملة؛ ليست هذه هي أنواع الأمور التي يرغب في

تشاطرها مع والدته طفله. تحدّثا لدقائق قليلة، واتفقا على مكان الغداء في اليوم التالي وزمانه، ثم أُنهيّا المكالمة.

جلس بن - روي صامتاً للحظات، ومن ثم التقط إحدى الصور - الصورة الرأسيّة - عن مقعد الركاب، ووضعها على عجلة القيادة. فحدّثت به عينا الفتاة الكبيرتان والممائلتان للوزنّين، والخاليتان من أيّ تعبير، والقويّتان على نحو غريب في الوقت نفسه، وفُرِحَتاهما بَنَيَتان داكنتان. لم يكن جمالها تقليدياً - أنفها صغير ومسطّح جداً، وحاجباها كثيفان جداً - ولكن هناك ما يلفت نظرك: تفاعل بين الضعف والصلابة، وبين تلك الفتاة المعرضة للأذى والقوية. لقد بدا الأمر كما لو أنهما وجهان مختلفان ومتراكبان يحملان تعبيرين مختلفين: وجه ضحية ووجه ناجية. إنها مفتاح القضية. لقد شعر بذلك عندما رآها للمرة الأولى. إنها النقطة التي

يتمحور حولها كل شيء؛ طرف الخيط الذي يربط كل شيء ببعضه.

حدّق بها لدقيقة من الزمن تقريباً. وبعد ذلك، وضع الصورة جانباً، وأدار المحرك، وعاد إلى كومة التبن في تل - أبيب، بحثاً عن إبرة تدعى ماريّا.

إذا كانت إسرائيل أرض الميعاد، فنيّفِي شَعْنان هي المكان الذي تُقَض فيه الوعد. إنّ هذه المنطقة من تل - أبيب أشبه بالإسفين. فهي قدرة، ومتقوّضة، ومدسوسة بين المدينة القديمة ومحطات الحافلات الجديدة، وتجتذب المهاجرين، والمدمنين على المخدرات، والعاملين في ميدان الجنس والمدمنين على الشراب منذ زمن بعيد. يعتبرها البعض نابضةً بالحياة ويدعوها بُوتقة، أما بالنسبة إلى بن - روي فهي تبدو كحفرة غائط.

كان الوقت قد تحطّى السادسة عندما وصل وركن سيارته في شارع سالومان بجانب المساحة المهجورة للمرأب القدم المكسوة بعشب ضارّ. جلس في السيارة للحظات وهو يحدّق عبر الطريق بمجموعة من الشواترزس المتجمّعين حول مدخل مطعم. ومن ثم التقط الصورة الرأسيّة، وترجّل من السيارة وأقفلها، وارتدى سترته وذهب في جولة.

كانت المنطقة قد بدأت باستعادة نبض الحياة، ويبدو هذا النبض في تسارع مع ازدياد الظلمة. في نيّفِي شَعْنان نفسها، وهي عبارة عن شارع تحوّل إلى منطقة للمشاة، ويحتوي على شقق سكنية متّسخة ومتعفّنة، ويشكّل العمود الفقري لتلك

الناحية، كان ضجيج الأصوات المتنافرة يملأ أجواء المساء: الموسيقى، أجهزة التلفاز، رنين وصفير في الممرات المسقوفة، ثرثرة النساء الشرقيات في أثناء احتشادهنّ حول أكشاك الفاكهة والخضار. وهناك أزقة مليئة بالقمامة، ومتاجر مضاعة بالتّيون، وخربشات دائرية تطالب بوضع حدّ للهجرة... ويربض مدمنو الشراب ومُدمنو الهيرويين في المداخل كما تربض الحيوانات في أوجرتها؛ وهناك رائحة قمامة وسمك، ووجبات طعام سريعة، إضافةً إلى شيء ما غير ملموس: فقر، عُسر، عنف على وشك الحدوث. من المؤكد أن هذه الأجواء لم تكن مذكورة في كتيّبات السيّاح. إنّها الناحية المُنتنة في إسرائيل؛ حيث يتم التخلص من كل النفايات.

سار بن - روي على امتداد الشارع، ماراً بجانب متاجر المشروبات والأكشاك التي تبيع ساعات زائفة، وعارضاً الصورة على المارّة، وآملاً أن يكون شخص ما قد رأى الفتاة. وزعم بائعان جوالان أنّهما ربما يكونان قد رأياها من دون أن يتذكرا المكان أو الزمان، ومن دون أن يكونا متأكدين إن كانت الشخص عينه. وكانت امرأة مُسنّة في متجر وضاء يبيع سلعاً دينية أكثر تحديداً في التأكيد على رؤيتها؛ ولكن قبل مدة طويلة بالتأكيد. وقال رجل ما إنه يرغب في رؤيتها وجعلها تقضي وقتاً ممتعاً. وشدّد رجل آخر، وهو من أتباع الحاردي مشوغاه، حشن الطباع، وذو عَيْنَيْن غاضبتَيْن وضمفائر شعر تصل حتى مستوى الصدر، على أن الفتاة شريرة. وبما أنه كان عاري القدمين، ويحمل لافتة كرتونية حول عُقه تُعلن أنّهم ذاهبون جميعاً إلى جهنّم، لم يأخذ بن - روي كلامه على محمل الجدّ. لم يتمكن أحد من توفير معلومات مؤكّدة.

واصل طريقه إلى أسفل الشارع، وتوقف عند الممر الضيّق المليء بالقمامة لمعبر ليفينسكي التحيّ. وبالرغم من كون بوابة النفق مُعلّقة، فقد تمكّن من رؤية أشكال طيفيّة لأشخاص مُبهمين يلوحون في الظلام. إذا كان أحدهم يائساً حقاً ويحتاج إلى ملجأ يقضي الليل فيه، فهذا المكان يفي بالغرض. ولو كان في وضح النهار، لفكّر ملياً بالقفز فوق البوابة وتمرير الصورة الفوتوغرافية، سائلاً عما إذا كان أحدهم يعرف الفتاة. ولكنه بالتأكيد ما كان ليقوم بذلك بعد حلول الظلام، وبوجود مسدسه من طراز جريكو في الصندوق مُحكم الإقفال تحت مقعد سيارته. كان متهوراً، ولكنه ليس ذلك النوع من المتهورين. بأي حال، ستكون هذه

الخطوة هدراً للوقت بما أن معظمهم لن يكونوا متمتعين بالوعي الكافي ليلاحظوا أن هناك صورة تُعرض عليهم، فكيف سيتمكنون من تذكر الفتاة. وبعد توجيه نظره إلى الأسفل للحظات، والتقاط منخريه رائحة القمامة والتبول اللاذعة، مرَّ مجدداً بشارع نيفي شَعَنان، ومن ثم انتقل إلى الشوارع الموازية: هاغدود هايفري، يسود هامالا، فين، وسالومان.

عندما تمَّ تعيينه في تل - أيبب قبل عقد من الزمن، كانت هناك مومسات على امتداد جدران هذه الشوارع. لقد انخفض عددهنَّ مذاك الحين، ولكنها ما زالت منطقة خطيرة بشكل محسوس. ففيها بيوت دعارة، وعروض تعزُّ، ونساء يرتدين تنانير قصيرة جداً ويقفن في الشوارع. وكان هناك قَوَّادون أيضاً متَّكئين على أعمدة المصابيح، أو واقفين وراء الزوايا، ويمكن رؤيتهم عن بُعد ميل بوجوههم المتيقظة وعيونهم الحُرْزِيَّة. إنهم حُثالة المجتمع. فكل ما يقومون به هو تلبية طلبات الزبائن الذين يشكلون جزءاً من المعادلة. وفي حين يسهل كسب الكره للقَوَّادين والمتَّحرين بالجنس، لا يمكن غَضُّ الطَّرْف عن الزبائن. فنصف أصدقائه، وكل زملائه في العمل ربما - باستثناء ليه شاليف - خرجوا مع مومسات في وقت من الأوقات. وهو أيضاً خرج مع مومسات، منذ سنوات، عندما كان يقوم بخدمته العسكرية على الحدود اللبنانية. وتناول ذات ليلة الشراب مع ناتان تيرات، وأنفقاً أموالاً طائلة على امرأة عارمة الصُّدر، جافية الطباع، تدعى... لم يستطع حتى تذكر اسمها. لقد مرَّحاً كثيراً آنذاك، رغم أنه شعر بقليل من الإحراج في ما بعد بسبب ذلك، وما كان ليخبر سارة بأي شيء بالتأكيد.

في هذه الليلة، كانت ذاكرته أكثر تشوشاً في أثناء تجواله. كان على ثقة تامة بأنه لم يتم الاتِّجار بالمرأة، أو لم يتم استقدامها من الخارج على الأقل - يبقى ذلك اتِّجاراً في كلا الحالين - ولم يستطع أن يتخيَّل أنها تعيش حياة سعيدة بصفة خاصة، وقد ازداد قلقاً من فكرة وجود أشخاص ينتظرون دسِّ الكوكايين في فمها. ألقى نظرة سريعة على الصورة في يده، متسائلاً عن الأمور التي أجبرت الفتاة على القيام بها - كان على عِلم بتلك الأمور - وشاعراً بالغثيان والذُّئْب أيضاً. لقد ساهم في صناعة الجنس بالرغم من كل شيء، واستفاد منها، وأطعم الوحش. فلو لم يكن هناك زبائن على غرارها لما كانت هناك صناعة، الأمر مماثل لوجود المعامل

الاستغلائية؛ إذ ما كانت لتتواجد لولا الرغبة في ارتداء ملابس منخفضة الثمن، وما كانت حروب المخدرات لتحدث لولا عطلات نهاية الأسبوع المميّزة المرفقة بتعاطي الكوكايين. فكل إنسان مستغلّ بطريقته الخاصة؛ المتعاطون ومُسيئو المعاملة. وإذا كان القوّادون والمتّجرون بالجنس الوجهة الجليّ للاستغلال، فإن دائرة المسؤولية تطال شريحة أكبر من الناس. ولم يُطل التفكير في الأمر. لقد قصد ميتولا منذ زمن بعيد، ولم يكن يعترزم تكرار الأمر. فما هو بحاجة إليه الآن هو العثور على الفتاة وحلّ الجريمة. لقد أرجأ التفكير بأخلاقيات العرض والطلب في صناعة الجنس إلى يوم آخر.

سلك هاغودود هايفري، ومرّ عند الزاوية بجزّار، ومومستين واقفتين على بُعد أبواب قليلة، إحدهما شقراء بسبب البيروكسيد وترتدي سروال جينز، وترتسم على وجهها كدّامات وملامح الإخفاق، وتظهر على ذراعيها علامات الإدمان على المخدرات. والأخرى أكبر سنّاً، متوسطة العمر، بنية الشعر، ترتدي فستاناً أسود ضيقاً وتتعلّ حذاء ذا كعب عال، وتبدو في صحة أفضل، علماً أن هذا الأمر لا يعني أي شيء. والاثنتان إسرائيليتان وفقاً لمظهرهما. فشهر شارته ورفع الصورة. "هل تعرفين هذه الفتاة؟" قال من دون أي مقدّمات. "كانت تعمل هنا؟".

فهزت الشقراء رأسها.

"حاولي النظر إلى الصورة".

فنظرت إلى الأسفل، ومن ثم إلى الأعلى.

"لا".

"هل أنت متأكدة؟".

"إذا كنت تسعى وراء شابات صغيرات في السنّ، فأنا أعرف المكان الذي يمكنك العثور فيه عليهنّ، ولكن ذلك سيكلّفك بعض المال. إنهنّ شابات حقاً إذا كنت مهتماً".

فتجاهل بن - روي التعليق، ووجّه الصورة للمرأة الأخرى.

"ماذا عنك؟ هل تعرفينها؟".

مدّت المرأة يدها وأخذت الصورة، وتناولت مجّة من سيجارة مارلبورو كانت تحملها. وبالرغم من بدانتها في محيط البطن، ووضعتها كمية كبيرة من مستحضرات

التجميل، باستطاعتكم التحقق من أنها كانت جذابة ذات يوم، وما زالت كذلك مع بعض أمارات الوهن. لا وجود لما يشير إلى تعاطيها المخدرات، مما حمّله على التساؤل عن كيفية انتهاء الأمر بها هنا؛ بسبب الدّين ربما، أو علاقة مُهينة، أو أحد مئات الأسباب. تَبَّاً، ربما تستمتع بذلك، علماً أنه السيناريو الأقل احتمالاً. فلكل منهنّ قصتها الخاصة ودَرجها الخاص في اتجاه عالم الرّذيلة.

"حسناً؟" سأل.

رفعت المرأة نظرها عن الصورة، ونظرت إليها مجدداً.

"لماذا تسأل؟"

"لسبب ما من شأن الشرطة. هيا، إما أتركك تعرفينها وإما لا".

تناولت بحمّة أخرى، ولاحظ أن يدها ترتجف. ربما تتعاطى المخدرات بالرغم من كل شيء.

"لا أستطيع مساعدتك"، قالت مُعيدة الصورة إليه.

"هل أنت متأكدة؟"

"لا أستطيع مساعدتك"، كرّرت بحزم أكبر.

تمعن بن - روي بوجهها، محاولاً اكتشاف ما إذا كانت تُخفي أمراً ما. لقد وقفت هناك تدخّن سيجارهما بيد مرتجفة من دون أن تنظر إليه، وبعد لحظات سلّم بأنه لن يحصل على أي شيء وغادر. وتردد الصوت المرتفع والمستفزّ للشقراء وراءه.

"إنهنّ شابات صغيرات في السنّ حقاً إذا كنت مهتماً يا عزيزي. من الشاحنة مباشرة! عُد في أي وقت، يا سيدي الشرطي!"

كان لا يزال يستطيع سماع صوت ضحكها عندما انعطف عند الزاوية في أسفل الشارع.

جال في المكان لمدة ساعة أخرى من الزمن، متوقفاً في حانات، وملاهي، ومتحدثاً إلى المومسات والقوّادين، وبعض الزبائن أيضاً؛ أشخاص مكرّين ينسلّون مع شعور بالذنب خارج الأبواب المؤدّية إلى الرصيف مباشرة، ويدخلون غرفاً على صورة زنزانة تحتوي كل منها على سرير وحوض غسيل. لقد تذكّرها أوروبيان شرقيان في شارع فين عندما كانت تعمل في المنطقة، من دون أن يتمكنوا من إخباره

بأي شيء عنها؛ ولا سيما المكان الذي يمكن أن تكون متواجدة فيه. وعرفها أيضاً حاجب في أي بيبي سيكس بار في شارع سالومان مع تفصيل إضافي بأنها ظهرت في مشهدين في فيلم إباحي عُرض على الإنترنت، ولم يكن لديه ما يُضيفه. ولم يتذكر أي شخص آخر الفتاة، ولم يعرف أحد أي شيء عنها، أو على الأقل لم يُقر أحد بذلك؛ والنتيجة واحدة. وعند الساعة الثامنة، وبعد أن جال في المنطقة ذهاباً وإياباً من أولها إلى آخرها، وأدرك أنه يتعين عليه التوجه إلى القدس للقاء دوف زيسكي، عاد إلى السيارة وأمل أن يحالفهما الحظ أكثر في الجمع الأرمني.

أزال لوحتي التويوتا الحمراء الخاصتين بالشرطة ووضعهما في صندوق السيارة، ومن ثم دخل إليها. جلس هناك للحظات مُرهقاً تماماً، ومتضيقاً من كل ما سمعه وراه طوال اليوم. ربما كان يتعين عليه إلغاء اللقاء، والعودة إلى المنزل فحسب، والحصول على قسط وافر من الراحة. لقد شعر بالفضول لمعرفة ما اكتشفه زيسكي عن بارين ونميسيس، وباستطاعته تناول الشراب بأي حال. منح نفسه ثواني قليلة، ومن ثم لوى عُنقه، وأدار المحرك، وكان على وشك تركيب تروس نقل الحركة عندما تلقت نافذته ضربة قوية. شعر بالتوتر، وأجفل، ثم استرخى بعد ذلك عندما لاح وجه بجانبه. إنها الفتاة ذات الشعر البني من هاغود هايفري. وحين أنزل زجاج النافذة، انحن نحوه متظاهراً بلفت انتباهه إلى مؤخرتها كما لو أنها تحاول إغواء زبون.

"لماذا تسأل عنها؟"

ربما كانت لغة جسدها مُغوية، ولكن صوتهما كان متماسكاً ومُليحاً.

"ماريا"، هسهست. "ماذا حلّ بها؟".

أزال بن - روي صيغة نقل الحركة في التروس، وأطفأ المحرك، وانحنى إلى الورا قليلاً، واستدار على مقعده ليكون وجهاً لوجه معها.

"اعتقدت أنك قلت إنك لا...".

"أعرف ما قلته". ورمقته بنظرة غاضبة من فوق كتفها. "أعتقد أنني سأدع العالم برمته يسمعي وأنا أتحادث إلى الشرطة؟ هذا النوع من الأمور لا ينجح في هذا الجزء من المدينة. الآن، ماذا حلّ بها؟ كنت أعتقد أنها أقلعت عن الأمر، وأنها موجودة في ملجأ".

"لقد هربت منذ أسبوعين. ظننا أنها ربما تكون قد جاءت..."

"هل ظننتم أنها عادت إلى هنا؟"

وأصدرت صوتاً أجشّ منخفضاً أقرب إلى كونه حشرجة احتناقٍ غير مصدقة منه إلى ضحكة.

"هل تمازحني؟ بعد أن ابتعدت عن المكان؟! ما كانت لتظهر هنا مجدداً ولو بعد مليون عام."

"أكنتما صديقتين؟"

حرّكت يدها بسرعة دلالةً على نفاد صبرها.

"لا أصدقاء لأحد في هذه المهنة! عليك بذل قصارى جهدك لإبقاء رأسك فوق الماء."

ونظرت حولها مجدداً، متأملة الشارع بقلق، ومن ثم دفعت رأسها داخل السيارة وأصبحت قريبة جداً من بن - روي لدرجة أنه كان باستطاعته شمّ راحة السجائر المنبعثة من أنفاسها، ورؤية التجاعيد حول عينيها.

"تقاطع طريقانا مرات قليلة"، قالت. "كانوا يُرغموننا على المشاركة في... كما تعلم..."

"ماذا؟"

"حُبّاً بالله! أفلام، عروض خاصة. هل أنت بحاجة إليّ لأهجنّها لك؟"

لم يكن بحاجة إلى ذلك، كان يعرف ما الذي تتحدث عنه بالتحديد. بالغون وشبان، والدات وبنات...

"لا تزال صغيرة في السنّ حباً بالله! الأمر سيّئ بما يكفي في سنّي، ولكن بالنسبة إلى شخص مثلها..."

عضّت شفتها، وأصابها المطليّة بطريقة مبهرجة تتحرك بشكل لولبي على إطار الباب، وعلى وجهها أمارات الإذلال.

"لم أشأ القيام بالأمر. أيّ منّا لم تشأ ذلك. ولكن، إذا كان هذا ما يطلبون منك القيام به... لا يقتصر الأمر فقط على القيام بعملك. هل تفهم ما أقوله؟"

مجدداً، كان يفهم ذلك تماماً. ليست هذه مهنة تشتهر باحترام حقوق الموظفين فيها.

"هل تعرفين قَوَّادها؟".

فهزت رأسها.

"لقد جرت العادة أن يتم اصطحابها إلى حيثما... نقوم بالأمر: في استوديوهات، ونوادٍ، ومنازل خاصة. كان هناك شخصان يرفقنها على الدوام. كانت تشعر بالخوف كثيراً. حاولتُ مساعدتها وتسهيل الأمر عليها، ولكن، كيف تجعل أمراً ممثالاً سهلاً؟".

وتحركت عيناها بسرعة نحو الأعلى والأسفل مجدداً، عاجزةً عن النظر إلى عينيّه. كانت يداها تُمسكان الباب بإحكام لدرجة أن بُرْجُماتها أصبحت بيضاء. "وبكت ذات مرة. لقد استلقت هناك وهي تبكي وكنت معها. كانت حفلة للرجال فقط، كانوا جنوداً. لقد أحبوا الأمر. الحيوانات!".

وتبادرت إلى ذهنِ بن - روي صور وأصوات من النوع الذي كان يشاهده على الإنترنت. فهز رأسه محاولاً التخلص منها. "هل لديك أي فكرة عن مكان وجودها الآن؟".

"أرجو أن تكون بعيدة جداً إذا كانت تعرف مصلحتها. اسمع، عليّ العودة، لقد تغيّبتُ لمدة طويلة. ظننتُ فقط أنك ربما تعرف شيئاً وأردت التحقق مما إذا كانت...".

"ماذا؟".

"ما رأيك؟ لقد انتشلوا فتاة من الياركون في الأسبوع الماضي. لقد بتروا أذنيها وربطوا أثقالاً بقدميها. هذا ما يحدث للفتيات الهاربات. قديمٌ صحافية إلى هنا منذ أسابيع قليلة وطرحت أسئلة، وخشيتُ أن يحدث لي ما حدث لماريا. الآن عليّ المغادرة".

وشرعت بتقويم وقفتها، ولكن بن - روي أمسك راسها.

"هذه الصحافية، أكانت بدينة، وشعرها يخالطه الشيب؟".

فترددت، ومن ثم أومأت جزئياً بحذر.

"كان اسمها ريفكا كليبرغ. لقد قُتلت منذ ثلاثة أيام في القدس، في دار العبادة الكبرى الأرمنية. نعتقد أنها كانت تبحث عن ماريا أو تسعى للقائها ربما. عليّ العثور على ماريا، إنه أمر مُلِحّ. إذا كان هناك ما يمكنك إخباري به، أي شيء...".

وقفت الفتاة هناك للحظات، محرّكة عينيها بسرعة كما لو أنها تفكر بما سمعته للتوّ، ومحاولة فهم ما يعنيه وتأثيراته عليها. وبعد ذلك، حررت رِسْعها وابتعدت عن السيارة خطوات إلى الوراء.

"لا أستطيع مساعدتك"، قالت. "لا أعرف أي شيء. الآن عليّ..."
"آيريس!"

فتسرّرت في مكانها عندما انطلق صوت عبر الشارع. ألقى بن - روي نظرة سريعة من خلال المرآة الجانبية. كان هناك رجل يقترب على امتداد الرصيف المقابل، كان قويّ البنية، يعتمر قبعة مسطحة، ويرتدي سترة جلدية، ويجرّ وراءه كلباً ضخماً وقويّاً من نوع ما.

"آه، يا الله!" همست، وتصلّب فكّها السفلي، ونبأت عيناها من شدة الخوف.
"اذهب رجاءً، اذهب الآن! إذا رأي مع شرطي..."

"ماذا يجري يا آيريس؟" صاح الرجل. "من الذي تتحدثين إليه؟"
"أحاول فقط تقديم بعض الخدمات"، صرخت محاولة إزالة الذعر من صوته، ومُخففة في ذلك. "كانت ليلة بطيئة".

"إذاً، ما سبب كل هذه الثرثرة؟ إما أنّه يريد ذلك أو لا؟".

"اذهب"، هسهست هامسة. "أستحلفك بالله، اذهب فحسب. سيقتلني!"
كان القوّاد يعبر الطريق على بُعد ثلاثين متراً، والكلب يزجر ومخالبه تحدش الطريق المعبّدة بغضب، متلهّفاً للوصول إليها. فتساءل بن - روي عما إذا كان يُفترض به التّرجل من السيارة وإشهار شارته، والطلب من الرجل التراجع أم لا. ولكنه كان يعلم أن من شأن ذلك التسبّب بالمتاعب للمرأة في وقت لاحق إن لم يكن الآن.

"أعطيني شيئاً ما على الأقل"، زجر وهو يشغل المحرك، وعيناه تتنقلان بين المرأة والمرآة. "لا بد أن تكوني على معرفةٍ بأمر ما".

"هل يحاول تخفيض أجرك يا آيريس؟". كان القوّاد قد حثّ خطاه وبات على بُعد أقل من عشرين متراً؛ قريباً بما يكفي ليرى بن - روي الشّعيرات القاسية على وجهه، والمسامير على ياقة الكلب الجلدية. "اللعنة، أخبريه أن السعر هو السعر! هل تسمعي؟ السعر هو السعر!"

"رجاء"، تأوّهت بصوت يملأه الرُعب، "أتوسّل إليك، اذهب..."
"ليس قبل أن تعطيني شيئاً!"

بقيت متسمّرة في مكانها لجزء من الثانية. ومن ثم، وبوجود القوّاد على مسافة عشرة أمتار فقط، تقدّمت من السيارة وانحنت، ثم همست بسرعة في أُذنِ بن - روي.

"اذهب من هنا الآن"، هسهست بهمس، وتراجعت إلى الوراء مجدداً قائلة بصوت مرتفع ليسمعها القوّاد:
"حسناً، تَبّاً لك، أيها الوغد!"

مفترضاً تعرّضها للإهانة، أطلق الرجل صرخة أشبه بخوار الثور، واندفع نحو السيارة. والتقت عينا بن - روي عيني المرأة للحظة، ومن ثم أوماً برأسه، وعشّق تروس التويوتا وانطلق، واهتزت السيارة بقوة في أثناء ارتماء الكلب على المصدّ الخلفي. زاد من سرعته، وألقى نظرة سريعة على مرآة الرؤية الخلفية. كان الكلب يركض ورائه بسرعة، جاراً ورائه الرّسن، والقوّاد يقف بجانب المرأة واضعاً ذراعه حول كتفها بطريقة وقائية، وهو يلکم الهواء بالثانية ويُطلق شتائم لم يتمكن بن - روي من سماعها بسبب هدير محرك السيارة. واصل بن - روي النظر بما يكفي للتأكد من أن المرأة بخير، وهذا ما كان عليه حالها كما يبدو - أو إنها بخير وفقاً للمعيار المعتمد في العالم الذي تعيش فيه - ثم نظر إلى الأمام. وبلغ آخر شارع سالومان، ثم انعطف إلى هاركيفيت وصولاً إلى الطريق الحرة أيالون، ثم عاد إلى القدس. كان يقود تلقائياً، غير ملاحظٍ ما يقوم به. فكل ما كان باستطاعته التفكير فيه هو الكلمات التي همستها المرأة في أُذنه:
اسمها الحقيقي فوسغي.

هيوستن، تكساس

انحرف وليام بارين بسيارته البورش كاريرا جي تي عبر البوابة التي تؤدي إلى ممتلكات العائلة، وأطلق العنان لسرعة سيارته على الطريق المعبّدة. ودفعه محرك بريك هورس باور 612، في 10، بسرعة 100 كيلومتر في الساعة في غضون ثوانٍ.

أبطأ على الفور، مخفضاً السرعة لدى انعطافه وسلوكه طريق الغرائبت المجهّزة بأبراج والمؤدية إلى منزل العائلة الفخم الذي يبدو مُظلماً بالرغم من أشعة شمس الصباح. لم يُطلق على المكان اسم داركلاندز عبثاً.

تحقق من الساعة على لوحة القيادة - لا يزال هناك القليل من الوقت لتبلغ الساعة العاشرة وعشرين دقيقة - وتوقف تحت إحدى أشجار السنديان العملاقة القائمة على امتداد الطريق. كان قد دُعي إلى اجتماع عند العاشرة والنصف، ولم يكن والده يحب وصول المدعوين في وقت مبكر أو في وقت متأخر، بل في الوقت المحدد لهم تماماً. فمنذ صِغره، بذل وليام قصارى جهده للتقيد بالموعد المحدد، وكبّل نفسه، محاولاً التعايش مع معايير والده المُجهدة بهدف الالتزام بالمواعيد؛ من دون أن يتمكن من الالتزام بها تماماً، وكان ينتهي به الأمر على الدوام مبكراً أو متأخراً لحظات قليلة، فيبكر أحياناً بسبب تلهّفه إلى إثبات نفسه، ويتأخر أحياناً أخرى بسبب ضغوطات العمل ودخوله حالة من الذُهل المرافق للإجهاد؛ مما يفقده الصلّة بما يقوم به. فيتلقى توبيخاً آخر، ومن ثم وعيداً آخر، وموعظة مُرفقة بهزّ الإصبع حول كيفية غدوّ فتى لا يلتزم بالوقت المحدد رجلاً بالغاً لا يستطيع الالتزام بأي شيء، وإن الفشل والذلّ وعدم النفع مصير البالغ الذي لا يستطيع الالتزام بأي شيء. ولا تزال تلك المواعظ تقضّ مضجعه حتى بعد أن أصبح رجلاً بالغاً. لست ما أملت أن تكونه، يا وليام. لا تملك المواصفات التي يتطلّبها الوضع. أخشى أن الآخرين يملكونها ولكن ليس أنت. حسناً، في الواقع هو يملك المواصفات المطلوبة، وسيكتشف الرجل العجوز ذلك بنفسه في وقت قريب. ربما لم يكن قطّ الشخص المفضل بعد أن انصبّ الحب والاهتمام على الآخرين، ولكن وليام هو الذي سيحتل المنصب الأعلى في النهاية، قريباً، قريباً جداً.

ولكن ليس اليوم. لقد أراد الحضور في الوقت المحدد فأعدّ لنفسه بعض المخدرات، ووضعها على علبة الأسطوانات المدججة؛ القليل فقط، لم يشأ أن يبدو غيباً مجدداً كما بدا في قاعة الاجتماعات في اليوم السابق. وبعد أن تنشّق المخدرات، فتح العلبة ووضع الأسطوانة في آلة تشغيل الأسطوانات. إنها إمينيم، بولي. وهو يحب إمينيم لأنه يعتبرها ماثلة له. فالحلفيات مختلفة بساطبع، ولكن الغضب هو الغضب أيّاً تكن خلفيتكم. رفع الصوت وأسند ظهره، متمتماً

الكلمات، وضارباً عَجَلَةَ القيادة بأسفل مِعصمه تماشياً مع الإيقاع وذلك بسبب تأثير جرعة الكوكايين التي أخذت منه كل مأخذ على نحو متناغم مع نبضات مشاعره. لن أنحني لأي بولي لعين. صحيح تماماً. سوف تنحني لي أيها العجوز. انحنِ على ركبتيك، ركبتي الفيل الغليظتين، السمينتين، المنتفختين. انحنِ، انحنِ، انحنِ. وضرب مِعصمه بقوة أكبر، واهتزت السيارة كلها على إيقاع كرهه. انحنِ، انحنِ، انحنِ. ألقى نظرة أخرى على الساعة.

اضطراب في الشخصية مسببٌ للأوهام، إن هذا أحد التشخيصات لحالة الانقباض التي يشعر بها. لقد أُجري له عدد قليل من هذه التشخيصات على مَرِّ السنين. وراه محللون نفسيون، ومستشارون، وأطباء رأس، وأصدروا تأويلات متنوعة، وتفوّهوا بمصطلحات أشبه بالجعجعة. فالطبيبة التي عاينته قبل أربع سنوات بعد وفاة والدته، والتي كانت لديها شفتا مومِس كبيرتان، خرجت وقالت له إنه مريض اجتماعي، علماً أنه تبعها إلى منزلها بعد إحدى جلسائهما، وسألها إن كان بإمكانه ممارسة الحب معها (قالت نعم، وهذا أمر مضحك؛ لأن الجنس الآخر ينحذب إليه ربما، ولأنه يتحدث من عائلة يملك أفرادها مليارات الدولارات في الواقع).

أجل، لقد خضع للكثير من العلاج الفيزيائي، وجلس كثيراً على كراسٍ في مكاتب مزينة على نحو ممتع، في حين طرح عليه هذا الطبيب وذاك أسئلة عن طفولته وعائلته، وعن المخدرات والمومِسات، وعن شعوره حيال والدته التي تفحّمت وتحوّلت إلى رماد.

كانوا يطرحون عليه الكثير من الأسئلة عنها.

وبالرغم من مرور عقدين من الزمن، والمزيد من الأسئلة والإجابات والتملّصات، وإصابته من حين لآخر بحالات هستيرية من الانتحاب والبكاء الجدير بالشفقة بسبب عجزه عن تلبية توقعات والده بأن يكون وريث الرجل العجوز المولع به - اثنا عشر محلاً نفسياً مختلفاً في اثني عشر مكتباً مختلفاً - لم يقل له أحد أي شيء جديد، أي إن والده سبب كل مشاكله، وإنه حفرة مياه الصّرف الصحي المسمومة التي نضحت منها كل متاعبه. كم كان يكرهه! وهو يحترمه أيضاً بالطبع،

كما تحترمون شخصاً ساخطاً يخيفكم، وفي الوقت نفسه، تتشوّقون كثيراً إلى إحسانه، ولكن كرهكم له أكبر. لقد أفسد والده حياته وكل حيواتكم (كان يُصغي في تلك الليلة من حيث كان مختبئاً في الخزانة، رجاءً لا تفعل، الأمر مؤلم، الأمر مؤلم) وما دام والده موجوداً ستتواصل عملية الإفساد. وعندما يرحل والده، سيكون كل شيء بخير؛ على غرار مسرحية شكسبير التي درسوها قبل أن يُطرد من المدرسة؛ تلك التي تتناول الأمير هال ووالده الملك. بقي الأمير فاشلاً تماماً إلى أن مرض الملك وتوفي. وحين جلس هال على العرش، ووضع كل أيامه الشاذة وراءه تحوّل إلى رجل عظيم. وهو سيتحول إلى رجل عظيم أيضاً إذا كفّ والده عن كونه عائقاً أمامه؛ ليس بعد، ولكنه سيدير أعمال العائلة قريباً. وبخلاف الأمير هال، لن يتظاهر هو بمصالحة والده قبل أن يتولى مقاليد الحكم في المملكة؛ بل بالعكس، عندما يُدفن والده على عمق ست أقدام، سينتعل حذاء النّقر ويرقص على قبره اللعين.

ألقي نظرة أخرى على الساعة، وأدرك أنها باتت العاشرة والنصف تقريباً. فلعن، وأوقف أسطوانة إمينيم، وأدار المحرك، وانطلق بأقصى سرعة، فبدت أشجار سنديان البور مُبهمة من كلا الجانبين في أثناء انعطافه، هادراً، ومتوجهاً إلى الناحية الأمامية للمنزل. وتوقف بعد انزلاق عجلات السيارة، وصعد الدرجات اثنتين اثنتين وصولاً إلى الباب، وتحقق من ساعته. إنها العاشرة والنصف تماماً. فأطلق ضحكة ظافرة، ومدّ يده وضغط على زرّ الجرس النحاسي اللّماع مدةً أطول من اللازم، وتردد صدى رنين الجرس بغضب في أنحاء المنزل، مما حدا بعمل الموجودين في الداخل يعتقدون جازمين أنه لم يحضر فحسب، بل في الوقت المحدّد أيضاً.

"لك هذا، أيها العجوز"، تتمم رافعاً إصبعه عن الجرس، ومن ثم ضاغطاً بقوة أكبر لدرجة ابتلاع التجويف للزر وابتضاخ إمامه من قرط الضغط، وبدا مسرح طفولته الفارغ الذي لا حياة فيه يهتزّ بقوة واستياء من طريقة الدخول هذه.

"صباح الخير، يا سيد وليام".

فتح ستيفن خادم والده الباب، ووقف أمامه مستقيماً ببذلته السوداء، تفوح منه رائحة مرهم عطري مُبهّم، وحذاؤه ملمّع كثيراً لدرجة ظهور انعكاسٍ غير

واضح للسقف عليه. فأوماً بطريقة محترمة وتنحّي جانباً، مرافقاً وليام إلى داخل المنزل.

"أرجو أن تكون في حال جيدة يا سيدي"، تكلم بصوت منخفض وصافر من دون أي إلماعة إلى السنّ أو الطبع، مُغلِقاً الباب وراءهما.
"أنا بخير، شكراً لك يا ستيفن، علماً أنني سأكون أفضل حالاً بكثير عندما أغادر المكان بعد عشرين دقيقة".

وارتسمت ابتسامة عريضة على وجه وليام لم تلقَ أي رد فعل مرئي. كان وجه رئيس الخدم الشاحب بشفتيه الرفيعتين شيئاً جديراً بالدراسة لجهة حياده. طالما كان على هذه الحال كما يذكر وليام. لقد أضمر في صِغَره فكرة خيالية عن الرجل، ظانّاً أنه روبوت يمكنه إزالة البراغي الموجودة وراء أُذنيه ورفع غطاء وجهه ليكشف عن لوحة دارات تحته، وباستطاعتكم إعادة برمجته وحمله على القيام بأمر مسليّة كالإساءة إلى والده مثلاً، أو جرّه إلى البحيرة المزخرفة القائمة في الناحية الخلفية للمنزل وإغراقه، وإراحتهم جميعاً من بؤسهم. لقد حاول القيام بذلك مرتين في الواقع، فتسلّق الكرسي وتلمّس أطراف ذلك القناع الشاحب الخالي من أي تعبير، ودسّ أصابعه تحت الشعر المكسو بمادة زيتية أملأ في العنور على زر أو مشبك أو مفتاح تحويل، أو وسيلة ما للدخول وتحقيق السيطرة. كان ستيفن يسمح له بالقيام بذلك، ويجاريه في اللعبة. وكان وليام ممتناً على الدوام لذلك الإذعان المستسلم لمخيّلة فتى صغير. فبالرغم من مظهره الخارجي الرسمي على نحو صارم، كان ستيفن أحد الأشخاص الصالحين، وكان يعرف قدراته التي تعمّد والده التعامي عنها. سيكافئه على ذلك ذات يوم. فالملك لا ينسى أبداً أولئك الذين أبدوا له الولاء في المنفى، كما أنه لن ينسى أبداً أولئك الذين أرسلوه إلى المنفى في المقام الأول.

"في المكتبة؟" سأل.

"في الواقع، إنه هناك يا سيدي. دعني أرافقك".

وتقدّمه الخادم عبر المدخل - جدران مكسوّة بألواح تزيينية داكنة من خشب السنديان، ونوافذ مصفّحة بالرصاص، وأبواب نحاسية ثقيلة؛ المكان أقرب إلى التّعش منه إلى المنزل - وصولاً إلى الدَرَج الطويل. وتتبّعتهما صور أشخاص في

أثناء صعودهما، أشخاص يحدّقون من الجدار بعدم تأثر مقصود، غير راغبين في الكشف عن أي شيء باستثناء مظهرهم الخارجي، حتى إنهم يقومون بذلك بتردد: والد الجد؛ سيد العائلة، نجيل كالمِعول وصلب كالحديد، وجده مطأطئ الرأس وذو الشارب الذي يجلس كلب صيد عند قدميه وفي يده سيجار، ثم والده الجسميم، الملتحي، الذي ينظر نظرات مختلِسة، والحدق يشعّ من عينيه؛ وهكذا بدا لوليام على الدوام. وهناك آخرون، أشخاص متجهّمو الوجوه يرافقونهما وصولاً إلى فسحة الطابق الأول؛ أعمام، أحفاد الأعمام، يتذكر بعضهم بشكل مُبهم، ومعظمهم غرباء تماماً بالنسبة إليه. عبرا الممر المكسوّ بألواح خشبية والمؤدي إلى الجناح الغربي للمنزل، وقد علّقت عليه صور نساء هذه المرة، سيدات عائلة بارين: زوجات وشقيقات، عمات وبنات، ترسم على وجوههن أمارات الملل وخيبة الأمل كما لو أنهنّ لم يحصلنَ على حياة سعيدة كما كن قد توقّعنَ أو أملنَ بالرغم من كل الحُلَيّ، والملابس النفيسة، والمكانة الاجتماعية المرموقة.

وفي نهاية الممر تماماً، وبجانب باب المكتبة، كانت اللوحة الأخيرة والمُضاءة دون سواها بمصباح؛ صورة والده وليام. امرأة شقراء الشعر، حزينة العينين، نخيلة بشكل مؤلم. كانت امرأة صالحة على طريقتها، وبذلت قُصارى جهدها لتقدم الحماية والوقاية، ولكن لم يكن أحد يجرؤ على عصيان دقّاقة الأوتاد الحقود ناتانيال بارين. لقد ذُبلت على غرار كل نساء بارين. ألقى وليام نظرة سريعة على الصورة من دون أن يسمح لعينيّه أو لأفكاره بالتركيز عليها. لا تستطيع والدته مساعدته الآن، كما أنّها لم تستطع مساعدته في أثناء نشأته. كان بمفرده.

"ها قد وصلنا، يا سيدي".

إنّه ليس بمفرده تماماً. فهناك ستيفن على الدوام.

"شكراً لك يا ستيفن. سأواصل السير بمفردي".

"كما ترغب يا سيدي".

أمال الخادم رأسه بتهذيب، واستدار، ثم عاد أدراجه من حيث قدما، وقدماه تتحركان من دون إصدار أي صوت على امتداد الممر المكسوّ بالسجاد كما لو أنّهما لا تلامسان الأرض. وراقبه وليام وهو يغادر - ستيفن رجل صالح، ويمكن التعويل عليه - ومن ثم وقف أمام باب المكتبة، مشدود المعدة كالعادة عندما يقف

هناك، وانزلقت يده بطريقة لاشعورية في جيبه ولها بلفافة الكوكابين. لقد قاوم إغراء العودة إلى الحمام لتناول جرعة؛ في ما بعد ربما، ولكنه أراد الآن البقاء حاضر الذهن متيقظاً. باستطاعته مقاومة إغراء المخدرات. كان يسيطر على نفسه، فهو قوي. لا تنسَ ذلك أبداً، قال لنفسه. أنت تسيطر على نفسك. أنت قوي.

تنفّس بعمق، ثم قرع الباب.

"ادخل".

لقد صدر الأمر كدويّ رعد بعيد. تردد وليام، مالتاً نفسه بالعزم - أنت تسيطر على نفسك. أنت قوي - ومن ثم فتح الباب.

كان والده جالساً وراء طاولته في الجانب الأبعد للمكتبة، منتفحاً، وثقيل الحركة، وأبيض الشعر، يرتدي بذلة تويد ثقيلة. وبالرغم من كون القاعة ضخمة، ومزدوجة الارتفاع مع سقف مقبّب ورواق على امتداد المستوى العلوي، كان حضور ناتانيل بارين مهيماً، وبنيته الجسدية الكبيرة تُعيق دخول الضوء من النوافذ وراء الطاولة، وكان وجوده يملأ كل زاوية في المكان كضباب حالك. كان باستطاعة وليام شمّ عطر ما بعد الخلاقة حتى من هذه المسافة - فهو حادّ ولاذع كآلة ازدادت حماوةً على نحو مُفرط - وسماع أنفاسه.

"أنت متأخر"، زجر والده بصوت جهير لا يلين، أشبه بالصوت الذي يُحدثه الصخر لو استطاع الكلام.

"لا أعتقد ذلك يا سيدي".

"لا تُكذّبي. أنت متأخر".

ووضع العجوز مِرْفقه على الطاولة، ونقر على ساعته. فكر وليام بالدفاع عن موقفه والإصرار على أنه وصل عند العاشرة والنصف تماماً، ولكن الأمر لم يكن جديراً بالعناء. فهو لم يسبق له أن فاز في أي جدال خاضه مع والده طوال حياته، ولن يفوز اليوم. ولم يسبق لأحد أن فاز في جدال خاضه مع والده. فإذا قال ناتانيل بارين إن الأرض مسطحة والقمر مصنوع من الجبن، فلا يمكن تكذيب الرجل. وقف وليام صامتاً، مُحاولاً التأكيد لنفسه مجدداً بأنه يسيطر على الوضع، وأنه قوي، منتظراً إيماء والده بإصبعه ليتقدّم. كان هناك كرسيان أمام الطاولة - كرسيان مزخرفان قديماً العهد، مع ظهرين مقوّسَيْن ومقعدين حريريين باليين -

انتظر الإشارة التي لم تصدر وبقي واقفاً. كانت هناك ساعة تتكتك على رف المدفأة، فيما رثنا والده تصفران. وبدا الصوتان كما لو أنهما يعكّران صفو الصمت الذي حاول عدم تعكيره، وشعر بوطأة المكان الخانق. فكلما قديم وليام إلى هنا، شعر بأنه يُدفن حياً.

"أنت تسيطر على نفسك. أنت قوي.

"كيف تشعر، يا والدي؟" سأل.

"أنا بخير، شكراً لك".

ولم يكن هناك استفهام متبادل عن حالة وليام الصحية، فجرّ قدميه، وحاول حجب الإهانة التي بدأت تؤثر في تماسكه. ربما كان يُفترض به تناول جرعة المخدرات تلك بالرغم من كل شيء. وحدث صمت مُربك، وبعد ذلك قال: "أظن أن اجتماع مجلس الإدارة جرى بشكل جيد".

"حقاً؟!"

"لقد أحسن جيم العمل في ما يتعلق بالموارد المالية".

رمقه والده بنظرة محدّقة مُدّلة تقول "وماذا تعرف عن الأمر بحق الجحيم؟".

كل شيء في الواقع أيها العجوز المقيت المتورّم.

ومن ثم أشاح بنظره، خالطاً الأوراق على طاولته. كانت الساعة تتكتك، ووالده يتنفس مُحدثاً صفيراً، والكتب مكدّسة في كل مكان: مئات فوق مئات من الكتب، لا بل الآلاف منها، موضوعة في صفوف مرتّبة ومتراصة بين طرفي الغرفة ومن الأرض إلى السقف. لقد أضفت على المكان طابعاً قاسياً كالجلد، وشعر وليام كما لو أنه داخل تجويف معوي ضخم ومتصلّب. ووفقاً لمعلومات وليام، لم يُفتح في الواقع أيّ من هذه الكتب. لقد اشتراها جدّه كمجموعات متفرّقة، وهي موجودة هناك للعرض فقط وإلحاث جوّ فكري. لم يتسنّ لأفراد عائلة بارين الكثير من الوقت للتحصيل العلمي أو الثقافي. فالمال هو ما كانوا يسعون وراءه: المال والسلطة. وكان وليام مهتماً بهذا الإرث العائلي أكثر من اهتمامه بأي عادات متوارثة.

"كنت أتحدث إلى هيلاري بعد الاجتماع"، استهلّ كلامه باذلاً قصارى جهده للمحافظة على مستوى صوته. "إنها تعتقد أنه يمكن لعرض أسعار مصر أن...".

فقاطعه والده بحركة أفقية براحة يده، والتقط مستنداً عن الطاولة، ورفعـه، وحركه أمام وليام جيئةً وذهاباً بطريقة اتهامية كما لو أنه محام يلوّح بدليل ما. "هل تريد أن تخبرني عن هذا؟".

إنه سبب الدعوة إلى الاجتماع. لم تكن هناك أي مقدمات؛ إلى صلب الموضوع مباشرةً. هذا أفضل ما كان يتوقعه منه. أنت تسيطر على نفسك. أنت قوي.

"إنها بعض الأفكار عن مستقبل الشركة يا أبي. إنها وسائل للمضي قدماً والانتقال إلى المستوى التالي. ظننتُ أن هذا الأمر ربما يثير اهتمامك واهتمام مجلس الإدارة. فقد سلّط الأضواء على بعض...". "هل تعتقد أن الشركة بحاجة إلى أفكار؟".

وعضّ وليام شفته. كان يعلم أن المستند سيؤدي إلى مواجهة، وقد استعدّ لها، ولكنه موجود في عين العاصفة...

"الأعمال بحاجة دائماً إلى أفكار جديدة يا أبي. ما هي الكلمة التي تستخدمها عائلة نيب؟ كايزن، تحسين متواصل".

بدّل والده جلسته، وبدا جسده كما لو أنه موجة على وشك التكسر على الشاطئ.

"أعتقد أن الشركة بحاجة إلى تحسينات؟".

تبّاً، إنها بحاجة إلى ذلك بالتأكيد، قال وليام في سرّه. نحن كبار بالتأكيد، ولكننا غير عمليين أيضاً. امتدادات عديدة، مشاريع عديدة، الكثير من الأثقال الموازنة. هناك شركات أخرى تحدّ من امتداداتها، وتنظّم أعمالها، وتستعيد مركزيتها، أما نحن فننام على أبحارنا. التيارات تتغيّر ونحن لا نجاريها. سيتم تجاوزنا بعد سنوات قليلة، كما سيتم دفعنا إلى الشاطئ. ارفع يدك عن الدقة، أيها العجوز. حان الوقت لحلول ربّان جديد مكانك؛ أنا مستقبل بارين. وبقي صامتاً.

"أفكار؟"، ترثّم والده مقلّباً صفحات المستند، وقال بصوت جهير أجشّ، "تحسينات!".

كان يهز رأسه، فيما السخرية تبدو واضحة في عينيّه المغمضتين جزئياً.

"إنها مجرد أفكار يا أبي"، قال وليام، باذلاً جهداً كبيراً للحفاظ على رباطة جأشه. "أنا قلق لأننا نعلق آمالاً كبيرة على عرض أسعار الغاز المصري. إذا لم ينجح الأمر..."

"سينجح".

"لقد تغير النظام هناك..."

"هل أنت خبير في العوامل السياسية والجغرافية الآن؟"

"كل ما أقوله..."

أطلق والده زجاجة ازدراء، ووضع ذراعه على صدره، ثم رمى المستند على رأس وليام. لم يُصب الهدف، فقد رفرف المستند بعيداً وراءه، وسقط على السجادة كطائر ميت.

"لم أضعك في مجلس الإدارة لتطرح أفكاراً أيها الفتى، لقد وضعتك هناك لتقوم بما أطلبه منك فقط. أعتقد أنك تعرف كيفية إدارة شؤون هذه الشركة أكثر مني؟ أتعرف أكثر مني صالح الشركة؟"

قاوم وليام إغراء يحثه على الصياح: "أجل، أعرف أكثر منك!"

"قمتُ بإدارة بارين طوال أربعين عاماً. أنا من عائلة بارين! أنا من جعلها ما هي عليه اليوم، وها هو ابني عديم النفع، المتجر بالمؤسسات، والذي يتعاطى المخدرات، يعتقد أنه باستطاعته إلقاء موعظة علي..."

وشرع الرجل العجوز بالسعال، مهتزاً إلى الأمام والوراء، ورثاه العليتان المليئتان بالثقوب تتلويان تحت ثقل غضبه، ويتحوّل وجهه إلى لون أرجواني داكن. ربما سيختنق حتى الموت هنا والآن، قال وليام في سرّه، وعندها سيجنّينا الكثير من المتاعب. ولكن لا، لن يفارق ناتانيل بارين هذه الحياة في وقت قريب، ولأسباب طبيعية. ربما كان جسده يتلف، وتنسدّ أحشاؤه نتيجة التعفن، ولكن، لا تزال أمامه سنوات قليلة إضافية يحياها. فعلى غرار كل رجال بارين، سيتحدى التوقعات الطبية... لا أحد يقف في طريق ناتانيل بارين.

"أنت شخص عديم النفع، متجر بالمؤسسات". قال الرجل العجوز مجدداً، رافعاً إصبعاً مرتجفة في وجه وليام، "أتحاول أن تُملّي عليّ ما يجب القيام به، وتجعل مجلس الإدارة ينقلب ضدي؟ أفكار! لم تكن تملك أي فكرة لعينة جديدة بالعناء..."

وضَعُف الانتقاد القاسي بسبب نوبة متجددة من السعال. فأخرج منديلاً من جيبه ووضعه على فمه، ومن ثم التقط القناع البلاستيكي عن الطاولة بجانبه وثبته على وجهه، متنشّقاً الأكسجين باضطراب من الأنبوب المتصل بخزان على الأرض، وعيناه تتوهّجان كحديد مصهور. أرغم وليام نفسه على النظر إلى والده المحدّق به من دون أن يتراجع؛ بالرغم من صعوبة الأمر الذي تطلّبه استجماع كل ذرّة متوافرة لديه من قوة الإرادة. لقد تمكّن من الثبات على موقفه لبضع ثوان، ومن ثم تظاهر - بعد الإعراب عن وجهة نظره - بأنه لا يشعر بالرّهبة (لم يكن يشعر بالرّهبة فحسب، بل بالتهديد أيضاً لدرجة أنه أراد التبول والتغوّط في سرواله). استدار وتوجّه إلى المستند الملقى على الأرض، وانحنى والتقطه، ثم ملّس الأوراق المتغصّنة، في حين كان تنفّس والده الأَجَشَّ يزداد بتصميم وراء ظهره كحيوان مفترس يتحفّز للانقضاض.

ذات مرة، منذ سنوات عندما كان لا يزال فتى ولا تزال والدته على قيد الحياة، رسم وليام شجرة عائلة. كانت شيئاً جميلاً ومتشابكاً مرسوماً على جذع إحدى أشجار سنديان البور القائمة على امتداد الطريق الأمامي للمنزل الفخم، وأسماء مختلف أفراد العائلة مدلاة من أغصانها الفارعة. لقد أمضى شهراً تقريباً في العمل عليها، حارصاً كل الحرص على عدم نسيان أيّ شخص، وأدرج فيها أسماء سلالة الأسلاف الذكور المباشرين في العائلة - والد جدّه، وجدّه، والده، وهو أيضاً - بلون ذهبي للتشديد على مكانتهم في قلب العائلة. لقد وضعها بيديّه ضمن إطار بمساعدة الحداثقي أرنولد الذي كان يجيد القيام بهذه الأشياء، وقَدّمها لوالده في ذكرى ميلاده الخمسين؛ واثقاً أن هذا الأمر سيجعل قلب الرجل العجوز ينفتح له، ويُقنعه بأن وليام فرد أصيل من عائلة بارين، وأن باستطاعته حمل اسم العائلة. غير أن والده لم يبادلّه إلا بنظرات عدم المبالاة قبل وضعها جانباً. "لست واثقاً من أن اسمك سيكون ذهبياً"، كان ذاك تعليقه الوحيد.

وها هو وليام يفكر بشجرة العائلة في أثناء نظره إلى المستند الذي يحملّه في يده. لقد سُحق قبل خمسة وعشرين عاماً بجُحود والده. واليوم، وبعد أن فقد منذ زمن بعيد أي أمل بالفوز برضى والده، أصبح أكثر وثوقاً برّد فعله. لم يكن يسعى وراء أي استحسان أو يتوقّعه، بل يريد تحديّ والده. لقد وضع يده فوق الجدار

المنخفض، منبهاً الرجل العجوز ومجلس الإدارة أيضاً عن استعداده للبدء بشئ عضلاته. كان والده يعرف ذلك، وهذا ما تسبب بغضبه الشديد. لقد صُدم وليام عندما علم أن والده يخشاه. فالفيل الذكر العجوز تثور ثائرته لدى ظهور خصم أصغر سنّاً يتمتع بصحة أفضل في قلب الدّغل.

استدار متمسكاً بالفكرة، ومستعداً للمرحلة الحاسمة.

"أريد المزيد من السلطة يا أبي"، قال غير قادر على إخفاء ارتجاف صوته. "لقد طلبتُ منك ذلك من قَبْل، وها أنا أطلبه منك مجدداً. لا يمكنك الاستمرار إلى الأبد. حان الوقت لتبدأ بالتخلي عن زمام الأمور، وأنا مستعد لتولي المسؤولية".
ظهر الغيظ في عيني والده أكثر فأكثر، وتغيّش قناع الأكسجين المطاطي الشفاف بسبب اللهاث.

"أبداً"، قال والده بصوت أجشّ.

"لقد حان الوقت يا أبي. لقد حان الوقت منذ مدة".

حملق به الرجل العجوز بغضب للحظات، وصدّره يتحرك بصعوبة صعوداً ونزولاً. ومن ثم، أنزل قناع الأكسجين ببطء، وبشكل متعمّد، مثبّتاً نظره على وليام، وجسده الضخم يبدو وراء الطاولة كجُلُمود على وشك السقوط. وبدأ صوت تكتكة الساعة كما لو أنه يزداد عمقاً، رافعاً حدة التوتر في القاعة ومضخّماً إياه.

"لن يحين الوقت أبداً!". صاح ناتانيل بارين مزججراً، ورافعاً يده التي كانت بحجم قفّار ببسبول، وضارباً بها الصفحة الجلدية للطاولة. "هل تفهمني يا فتى؟ لن تترأس شركة بارين أبداً. ليس الآن، ولا في أي وقت آخر. أنت لا تترأسها ولن تترأسها. وكلما سارعت في الاعتياد على هذه الفكرة كان الأمر أفضل".

وأعاد القناع إلى وجهه، متنفّساً بصعوبة. لزم وليام الصمت أمامه. كان يعلم على الدوام أن ما يقوم به إضاعة للوقت، وأن والده لن يستسلم أبداً، ولكنه كان بحاجة إلى بلوغ الأمر الدُّرّة، والتأكد من أن الطريق الذي يسلكه هو السبيل الوحيد المتوافر له. لقد أراد إرجاء الأمر لتسوية بعض الأمور، ولكن بعد أن أظهر نفسه بمظهر الغبي في الاجتماع السابق لمجلس الإدارة، شعر بالحاجة إلى إثبات وجوده من خلال المستند، وهذا الاجتماع الذي أراده أن يكون المرحلة النهائية من

سعيه إلى ترؤس الشركة. شعر بالدوار على نحو غريب. أنت قوي، أنت تسيطر على نفسك. ولزم مكانه للحظات إضافية، مُرغماً نفسه على صدّ نظرة والده المحدقة والغاضبة. بعد ذلك، أوماً برأسه واستدار، وسار إلى الباب وفتحه. وبينما كان يخطو إلى الممر، نظر إلى الوراء.

"لقد ماتت يا أبي"، قال. "ماتت، ذهبت ولن تعود. أنا الوحيد المتبقي الآن. أنا من عائلة بارين. ومن الأفضل لك البدء بالاعتیاد على هذه الفكرة".

ودوى صوت والده عبر القاعة في أثناء قيامه بإغلاق الباب.

لقد عبّرتُ عن أفكاري تماماً، تتمم وليام.

خارج الغرفة، اتكأ للحظات على الجدار متنفساً بصعوبة، ومستجمعاً قواه، ومن ثم عبر رواق المنزل الفخم، ونزل على الدرج الطويل، مروراً بالوجوه الكئيبة لأسلافه. كان ستيفن ينتظر في الأسفل.

"أرجو أن يكون اجتماعك قد سار بشكل جيد يا سيدي".

"أفضل بكثير مما كان متوقعاً يا ستيفن. أفضل بكثير مما كان متوقعاً".

لم يُبدِ رئيس الخدم أي رد فعل على ذلك، بل لزم مكانه ووجهه خالٍ من أي تعبير. ألقى وليام نظرة سريعة إلى أعلى الدرج، مفكراً باليوم الذي ستعلق فيه صورته هناك، وسيأخذ مكانه بين أشرف عائلة بارين، لا بل على رأس اللائحة. ومن ثم ربت على كتف ستيفن، وخرج إلى سيارته، وانطلق على الطريق بسرعة. لم يكن قد لمس الكوكابين بعد، لقد حدث كل ذلك بشكل طبيعي.

إسرائيل

في طريق عودته إلى القدس، منطلقاً بأقصى سرعة كي لا يتأخر على موعد لقائه دوف زيسكي، أجرى بن - روي اتصالاً عاجلاً بجورج أسلانيان. أجل، أكد جورج أنه بالإمكان استخدام كلمة فوسغي، وتعني ذهب بالأرمنية، كاسم علم، أو صفة.

"كما لو أننا نقول... ما هو الأمر المماثل في العبرية؟... شاييم أو إيلان. يمكن استخدامهما كاسمي علم، أو ككلمتين تعنيان حياة وشجرة. المبدأ نفسه".

لقد ترك هذا الأمرُ بن - روي في حيرة من أمره. إذا كانت الكلمة التي خلّفتها ريفكا كلينبرغ وراءها على النشافة الموجودة على الطاولة في شقتها اسم عَلم وليست كلمة تعني ذهباً، فقد تكون شركة بارين/منجم الذهب الروماني إذاً إشارة مضللة تماماً. وإذا كانت بارين إشارة مضللة، فقد تكون ذي نيمسيس أجناس إشارة مضللة أيضاً، وستكون نصف أطراف الخيوط التي يسعى وراءها ليست أطراف خيوط البتة ربما. وفي لحظة دُعر، رأى كل قضيته، أو القليل الذي حققه حتى ذلك الحين، ينحلّ أمام ناظره.

حدث ذلك بسهولة. وفيما كان يفكر ملياً بالدليل، وهو يمرّ ببطء أمام مجموعة تلال اليهودية الصخرية القائمة بعد انعطاف الطريق وصعودها، ارتأى أنه لا يزال يتعين عليه البحث عن المزيد من الصّلات - إضافةً إلى كلمة فوسغي - لملازمة المسار الصحيح؛ كنسخات عن المقالات التي تناول استخراج الذهب والتي عثر عليها على طاولة كلينبرغ، والأطلس الذي وُضعت مؤشّرتة عند خارطة لرومانيا، ومهندس التعدين البريطاني ذاك الذي سقط في حفرة في مصر (كيف يمكن الربط بينه وبين الأحداث الأخرى؟) لا يزال بحاجة إلى عدد من الصّلات ليطمئن.

كقاعدة عامة، يكره رجال التحريّ المصادفات. وفي هذه الحالة، استنتج بن - روي أنه يتعامل مع مصادفة غير محتملة بالتأكيد، ولكنها مصادفة بالرغم من كل شيء. لقد أثارت موميس أرمنية تمّ الاتجار بها، ويعني اسمها "ذهباً"، اهتمام ريفكا كلينبرغ. وفي الوقت نفسه، أثارت عملية استخراج الذهب التي تديرها شركة بارين اهتمامها؛ إما بسبب أمر ما أخبرتها به تلك الموميس، أو لسبب مختلف تماماً. والتفسير الآخر الوحيد هو أنه يتبع مساراً خاطئاً تماماً، والصّلات الأخرى محض صدفة. وإذا كان هناك ما يكرهه التحريّ أكثر من حصول مصادفة واحدة، فهو مجموعة من المصادفات.

عندما دخل بن - روي القدس وسلك الطريق المستديرة في اتجاه المدينة القديمة، كان قد أمّى قلب الأمور في رأسه، وتأكد من الأساس المتين الذي تقوم عليه تحقيقاته. لم يتقدّم كثيراً، ولكنه لم يتراجع إلى الوراء، وهذا ما حملته على الشعور بالارتياح.

هناك أمر واحد مؤكّد؛ إنه يستحق بالتأكيد احتساء شراب بارد.

كان مقهى بوتينز في الطرف الشرقي لشارع يافا، ويمكن رؤيته من داخل المدينة القديمة. فهذه المساحة الطويلة والضيقة والمقاعد الطويلة على امتداد الجانب المقابل، والغرفة الخلفية التي تحتوي على مرقص وشاشة إسقاط، كانت تُدعى حقول. وقبل أعوام قليلة، أضفى المالكون الجدد على المكان طابعاً روسياً؛ فحصل على اسم جديد، وديكور جديد، وتشكيلة جديدة من الشراب والمعنويات. وبالرغم من إصلاح المظهر الخارجي، لم يستطع المكان التخلص من سوء السمعة التي اكتسبها من قبل، ومن قلة الزبائن أيضاً. فطوال سنوات ارتياده هذا المقهى، لم يجد بن - روي المكان مليئاً بالكامل ولو لمرة واحدة، بل بشكل جزئي. وعندما دخله هذه الليلة - بعد خمس عشرة دقيقة - كان هناك فقط ستة أشخاص: امرأة جذابة متوسطة العمر جالسة على كرسي بدون ظهر وتبادل أطراف الحديث مع النادل، وامرأتان أصغر سناً على أحد المقاعد، ودوف زيسكي ورجل مفتول العضلات، أسمر البشرة، يرتدي تي - شيرت بيضاء ضيقة ويضع على أنفه حبة الماسية، يجلسان على مقعد آخر. اشترى بن - روي لنفسه زجاجة شراب وانزلق على المقعد بجانبهما.

"جويل ريغيف"، قال زيسكي، معرفاً برفيقه. "إنه صديقي الخبير في شؤون الكمبيوتر. أراد القدوم والتحدث إليك مباشرة".

صافح بن - روي الرجل الذي يبدو ملماً بكمال الأجسام وبعيداً جداً عن كونه شخصاً ملماً بالكمبيوتر. كان وزيسكي يحملان زجاجتي شراب، ويجلسان بجانب بعضهما متلاصقين تقريباً.

"أخبرني دوف أنك تعمل في أمن شبكات الكمبيوتر"، استهل بن - روي كلامه، متناولاً جرعة كبيرة من زجاجة الشراب.

فأوما جويل برأسه وارتشف القليل من زجاجته. كانت عضلته ذات الرأسين ضخمة، والعضلة على ذراعه اليسرى مزينة بوشم خنجر مع وردة ملتفة عليه.

"نحن نقدّم النصّح للشركات حول كيفية حماية شبكات الكمبيوتر لديهم من تطفّل غير مُدرّك، أو تسلّل؛ ذلك النوع من الأمور. ونقوم أيضاً ببعض الأعمال لأجل الخبراء الجنائيين. وفي الوقت الحاضر، نحن نقوم بتقديم النصّح لليارد الروسي في قضية احتيال عبر شبكات الكمبيوتر".

كان صوته منخفضاً وذكورياً، على عكس تشدق زيسكي المخنث. ووجد بن - روي نفسه يحدق بالاثنتين، متسائلاً عن طبيعة علاقتهما، هذا إذا كانت هناك صداقة بينهما فعلاً. ومن الجهة المقابلة للطاولة، أطلق زيسكي ابتسامة خفيفة يكاد المرء لا يلاحظها كما لو أنه يقرأ أفكاره ويبدو مسروراً بها. تناول بن - روي جرعة أخرى من زجاجة شرابه - ممتعة، باردة، ومنعشة - وتظاهر بأنه يركز انتباهه على ريغيف.

"قال دوف إنك تعرف أمراً ما عن مجموعة تدعى ذي نميسيس أجندا".
"القليل"، أجاب ريغيف. "ما عرفته عرفته من أشخاص يزودوني بمعلومات خاصة، ومن الإنترنت. ففي الواقع، نحن نقوم بتقديم بعض النصائح لأحد الذين وقعوا ضحية لأعمال هذه المجموعة منذ ستة أشهر، وهو مسؤول مهم في بئر سبع. لقد تسللت نميسيس إلى نظامهم، وزرعت فيه فيروساً أفسد كل سواقة صلبة في شبكتهم، وأوقفت أعمالهم معظم الشهر".

وألقى نظرة سريعة على زيسكي، ناقرأ فوهة الزجاجة بإبهامه.
"لا يفترض بي ربما قول ذلك، ولكنني لم أستطع تمالك نفسي في ما مضى عن تمني الحظ السعيد لهذه المجموعة. فوفقاً لموقع نميسيس على الإنترنت، ترتبط الشركة بأعمال مع بعض الأنظمة البغيضة، مزودة إياها بالغام أرضية، وأنظمة لإدارة الاستجواب...".

ورفع يديه ورسم في الهواء علامات اقتباس.
"... أي، أجهزة تعذيب. لا يمكنني القول إنني شعرت بالارتياح في أثناء مساعدتي إياها لاستعادة نظامها وملفاتها. ولكن، ما الذي أعرفه؟ لست سوى مهووس بالكمبيوتر".

وشعر بن - روي بحركة تحت الطاولة. ربما كان زيسكي يربّت على فخذه صديقه لطمأنته. لم يكن باستطاعته التأكد، ولم يحاول النظر؛ علماً أنه التقط ملامح لهُو على وجه زيسكي.

"أعددتُ نسخات عن بعض المواضيع على الإنترنت التي قد تكون مفيدة"، أضاف ريغيف، "هناك مقالتان، وأطراف خيوط قليلة من غرفة المحادثة...".
ووكز زيسكي الذي سلّم بن - روي مغلف مانيلا.

"... ولكن بصدق، معظم المعلومات مجرد افتراض. الوقائع التي لا سبيل لإنكارها المتعلقة بأجندا قليلة جداً على أرض الواقع. وهذا ما يجعل هذه المجموعة مثيرة للاهتمام جداً. فلا أحد يعرف في الواقع أي شيء عنها. فهي ليست مثل ويكيليكس مثلاً، من ناحية المعلومات العامة. فالأشخاص الذين يديرون نِمْسيس ظلال وغير مرئيين البتة".

فتح بن - روي المغلف، وقَلَب مجموعة الورق داخله بسرعة.
"إذاً، ما الذي نعرفه؟".

"حسناً، إنهم بارعون"، قال ريغيف. "باستطاعتك البدء من هنا. تحاول السلطات كشف النقاب عنهم منذ سنوات - نحن نتحدث عن أفضل المُبدعين في ميدان شبكات الكمبيوتر - ولكن أجندا تمكنت على الدوام من التقدّم على الآخرين خطوة إلى الأمام. وطرف الخيط الوحيد المتوافر هو موقعها على الإنترنت، وقد برهن أعضاؤها عن ذكاء خارق بإبقاء هذا الموقع بعيداً عن متناول الآخرين. إنهم يستخدمون أجهزة كمبيوتر مساعدة لا يمكن تحديد موقعها، ولم يتمكن أحد حتى الآن من الاقتراب منها. يبدو أنهم يستخدمون أيضاً تكنولوجيا متطورة جداً تساعد على إخفاء هويّتهم..."

ولاحظ النظرة المُربكة على وجه بن - روي فضحك قائلاً:

"تجاهل كل ذلك"، قال ملوّحاً بيده. "كل ما تحتاج إلى معرفته في الواقع هو أنه لم يتمكن أحد قطّ من إغلاق موقع نِمْسيس، ولم يتمكن أحد من الوصول إلى الأشخاص الداعمين للموقع الذين يسيّرونه في الواقع. فأولئك الأشخاص يُجيدون استخدام التكنولوجيا".

"وهل يستهدفون الشركات متعددة الجنسيات، والأعمال الكبيرة؟".
فأوماً ريغيف برأسه.

"ولا سيما الشركات متعددة الجنسيات المتورطة بصفقات مشبوهة"، قال.
"كاستغلال العالم الثالث، والتلويث غير القانوني، والإهمال العام، والمنظمات ذات الأهداف السريّة أساساً. تقوم نِمْسيس بالبحث عن الدليل ونشره على الإنترنت، فيجده الجمهور، والصحافة... ثِق بي، هذا الأمر يسبب مشاكل جمة للكثير من الشركات؛ مشاكل كبيرة".

إنه تصوّر مماثل إلى حدّ بعيد للتصوّر الذي قدّمه له موردخاي يارون في وقت مبكّر من ذلك اليوم.

"لديهم خلايا مختلفة في بلدان مختلفة كما يبدو"، قال بن - روي.
"إنها إحدى النظريات"، سلّم ريغيف، "علماً أن أحداً لم يتمكن حتى الآن من إثبات ذلك بشكل حاسم وفقاً لمعلوماتي. نحن على ثقة تامة بأنهم انطلقوا من الولايات المتحدة؛ فهناك مؤشرات تكنولوجية صغيرة ومعقّدة بعض الشيء توحى بأنه واقع الحال. لن أضجرك بكل التفاصيل، هناك بعض المعلومات عن ذلك هنا". وربّت على المغلف.

"ويبدو أن هناك صلة إسرائيلية"، تابع. "إذ يدّعي العديد من الأشخاص الذين استهدفهم المجموعة أن أفراد المجموعة يستخدمون كلمات عبريّة، ويبدو أن هناك عدداً غير متناسب من الأحداث على الأرض الإسرائيلية. الأمر ليس فحائياً، ولكنه يوحي بحضور لهم هنا سواء أكانوا خليّة، أم جماعة منشقة. أو إن المجموعة الأصلية قد انتقلت إلى مكان آخر ببساطة...".
وهز كتفيه.

"لا يمكننا معرفة ذلك، أو ما إذا كان هناك أشخاص متضامنون معهم في بلدان أخرى. هناك بريد إلكتروني في موقعهم على الإنترنت - ضمن العديد من العناوين الوهمية المختلفة على العديد من الأجهزة المساعِدة التي لا يمكن اقتفاء أثرها بشكل فعال - مما يوحي بأن بعض معلوماتهم على الأقل مبنية على تلميحات أشخاص مطّلعين على شؤون المؤسسات. ونشر كل شيء على موقع واحد على الإنترنت يوحي بوجود بنية مركزية منظّمة. ولكن، كيف يتم تنظيمها؟ ومن ينظّمها؟ وكم شخصاً ينتمي إليها؟ وأين يقع مقرّهم؟ كلّ ذلك غير معروف".

وهزّ كتفيه مجدداً، واحتسى ما تبقى من شراب. فسأله بن - روي عما إذا كان بإمكانه أن يطلب له زجاجة أخرى، ولكن ريغيف وضع يده على فوهة زجاجته، على غرار زيسكي. وفي الناحية الخلفية للغرفة، سُمعت الثرثرة المنخفضة لمعلّق رياضي على مباراة هامة في كرة القدم في حيفا بين فريقَي ماكابِي وهابويل. كان بن - روي من مناصري ماكابِي ويتمنى حضور المباراة، ولكنه غصّ الطّرف عن المباراة وركز على النقاش الجاري.

"كنت أتحدث إلى أحدهم هذا الصباح، وأقول إن أعضاء نِمسيس هؤلاء ليسوا متسللين إلى ملفات الكمبيوتر فقط. إذ يبدو أنهم يقتحمون مكاتب الشركات ويدخلونها، مستخدمين أسلحة وعنفاً جسدياً. يمكن وصفهم بأنهم أشبه بالموساد منهم بنافخي الصفارات".

وابتسم ريغيف.

"ربما هناك القليل من المبالغة. إذ لا يبدو الأمر كما لو أنهم يطوفون الأرجاء بحثاً عن أشخاص لاغتيالهم. على الأقل، لم أسمع بهذا الأمر مطلقاً. ولكن، أجل. إنهم عديمو الشفقة، وعنيفون أيضاً عندما يكونون في مزاج سيئ. ومن هذا المنطلق، رفعوا الرهان قطعاً في السنوات القليلة الماضية".

ضيق بن - روي عينيّه.

"ماذا تعني؟".

"حسناً، عندما ظهرُوا على مسرح الأحداث للمرة الأولى قبل ست سنوات أو سبع، كانوا يتسللون إلى ملفات الكمبيوتر فقط، ويشنون هجمات فيروسية من حين لآخر، مستهدفين شبكات الكمبيوتر في المقام الأول. ولكنهم أشعلوا النار بعد ذلك... قبل ثلاث أو أربع سنوات تقريباً كما أعتقد... في مكتب في تل - أبيب تابع لشركة كبيرة متعددة الجنسيات؛ وكانت تلك هي المرة الأولى التي يقومون فيها بأمر مماثل. في الواقع، لم يُصب أحد بأذى ولكنها انطلاقة كبيرة. ومذاك الحين، أصبحت تكتيكاتهم أكثر... مُجابهة: دخول بالقوة، أعمال تخريبية، خطف مديرين تنفيذيين وإرغامهم على القيام باعترافات مصوّرة. هناك مشهد مُريع على أحد مواقعهم على الإنترنت في الوقت الحاضر: رجل فرنسي تورّطت شركته في صفقات مشبوهة في الكونغو. لقد ظهر على الموقع قبل أربع وعشرين ساعة، وهناك احتجاج شعبي كما يبدو خارج المقر الرئيس للشركة في باريس، ولقد تعرّضت شبكة تلك الشركة الكمبيوترية إلى عدد من الهجمات. هذا هو نوع التأثير الذي تعتمده أجندها".

وأسند جويل ظهره، وشبك ذراعيه، مُلقياً نظرة سريعة على المقعد المجاور حيث كانت المرأتان قد انفجرتا ضحكاً. ولزم الصمت للحظات، ومن ثم نظر إلى بن - روي مجدداً وهو يقول:

"من المثير للدهشة أن يتصادف تغيّر التكتيكات مع ظهور خلية إسرائيلية؛ جماعة منشقة، فصيل، سمّتها ما شئت. يبدو أنّ هذه الجماعة وراء معظم الأحداث، هذا إذا لم تكن وراء كل أعمال العنف المباشرة، وأعضاء هذه الجماعة هم من غيّرُوا نِمْسِيس من كونها منظمة تستهدف شبكات الكمبيوتر فقط لتصبح شيئاً ما أشبه بمجموعة من المقاتلين الذين يشنون حرب عصابات، أو مقاتلين إرهابيين؛ استناداً إلى وجهة نظرك".

"هل لديك أي فكرة عن سبب التغيير؟".

كان ذلك السؤال أول إسهام لزيّسكي في النقاش.
"لا أحد يعرف بالتأكيد"، أجاب ريغيف، "علماً أنه يتم تبادل أطراف الحديث حول ذلك بشكل مكثّف على الإنترنت. هناك نسخات عن هذا الموضوع".
وربّت على المغلف مجدداً.

"معظم الآراء متّفقة كما يبدو على وجود أشخاص داخل نِمْسِيس يريدون اعتماد مقاربة أكثر تشدداً، فانتقلوا إلى إسرائيل لأسباب لا يعرفها أحد سواهم للقيام بذلك. لقد أخفوا نواياهم داخل نِمْسِيس، واستمروا بنشر مواد في موقعهم على الإنترنت، ولكنهم واصلوا - في الوقت نفسه - تنفيذ/جندكم التي تحمل طابعاً قتالياً أكبر. إنّها/جندا من نوع ما تنفّذ بالتزامن مع الأجنّدا الرئيسة، إذا شئت. يبدو هذا التفسير منطقياً بالتأكيد أكثر من فكرة كونها مؤامرة يعتبرها واضعو النظريات مكيدة مُتَقَنّة لتشويه سمعة نِمْسِيس حاكتها الأجهزة الأمنية مع شركات متآمرة متعددة الجنسيات، أو إن هذه الأخيرة قامت بهذا العمل بمفردها. في الواقع، لا أجد هذه الفرضية محتملة أبداً".

سمعوا نوبة ضحك أخرى صادرة من المقعد المجاور. وفي الناحية الخلفية للغرفة، ازداد نشاط المعلق الرياضي، وانطلقت صرخات ابتهاج فجائية بسبب تسجيل أحد الفريقين هدفاً كما هو مفترَض. فرّغ بن - روي رأسه، محاولاً معرفة الفريق المسجّل للهدف. إنه فريق هابويل. تبّاً. أصغى للحظات، ومن ثم حوّل انتباهه.

"هذه المجموعة الإسرائيلية"، قال مركزاً انتباهه على ريغيف "ألم تصادف ما يشير إلى ارتباطها بميتزبي رامون؟".
فهز ريغيف رأسه.

"قال لي دوف إنك تظن أن هناك رابطاً. لو كان هناك رابط ما لسمعتُ عنه بالتأكيد".

ونقر على فوّهة زجاجة الشراب.

"بالرغم من وجود رابط بالفعل مع شركة تدعى بارين. قال دوف إنك مهتمّ بها أيضاً".

بدّل بن - روي جلسته، وانحنى نحو الأمام.

"أي نوع من الروابط؟".

"حسناً، هناك كما يبدو ما يشير إلى وجود رابط ما بين نميس وبارين"، قال ريغيف، "أو رابط مُعادٍ. قمتُ بدراسة سريعة... انتظر...".

وفتح المغلف وقلّب محتوياته، وسحب ورقة آيه4.

"في هذه الورقة تظهر كل استهدافات نميس لبارين، أو على الأقل الاستهدافات المبلّغ عنها. كما ترى، هناك القليل منها، ولكنها استهدافات تعرّضت لها أكثر من أي شركة أخرى كما اكتشفتُ حتى الآن".

حدّق بن - روي بالورقة، وعدّ تسعة عشر استهدافاً منفصلاً على امتداد سبع سنوات.

"إنها أولى الشركات التي هاجمت نميس شبكاتِها الكمبيوترية"، أضاف ريغيف، "ويبدو أنها تستهدفها من حين لآخر مذاك الحين، ولا سيما في السنوات القليلة الماضية منذ ظهور المجموعة الإسرائيلية على مسرح الأحداث. ذلك التفجير الذي أخبرتك أنه حدث في تل - أبيب، كان المرة الأولى التي تلجأ فيها نميس إلى العنف...".

"أحصل ذلك مع شركة بارين؟".

فأوما ريغيف برأسه.

"لقد اقتحموا مكاتبها، وعطّلوا جهازين من أجهزتها... يبدو الأمر كما لو أن هناك عداءً مستحكماً بينهما؛ إنه أمر جليّ".

"هل لديك أي فكرة عن السبب؟" سأل زيسكي.

"بمجدد، تطرح غرف المحادّة تخميناً مؤاتياً حول الموضوع"، أجاب ريغيف.

"موظف ساخط ينقل لشركة منافسة متعددة الجنسيات معلومات عن حظه العاثر

مع بارين، فتستغله هذه الشركة لإضعاف بارين. أيُّ من ذلك لا يتطابق مع الواقع. وفقاً لظنيّ - وهو مجرد ظنّ - لم تتمكنِ نِمْسِيس من الاتفاق مع بارين، وأسوأ ما تمّ التوصل إليه عنها هو بعض الإخفاقات في أجهزة السلامة الصحية في إحدى عمليات الشركة في أستراليا. كان إخفاقاً غير ذي أهمية، ولكن بارين أفلتت من العقوبة كما يبدو، ولم تغفر لها نِمْسِيس مطلقاً. لقد اعتبر الأمر إهانة شخصية".

وهز كتفيه.

"مرة أخرى، ربما أنطق بالهراء تماماً. فكما قلتُ؛ في ما يتعلق بنِمْسِيس أجندا، هناك الكثير من النظريات، ولكن لا توجد أدلّة دامغة. وبالرغم مما نملكه من معلومات، قد ثبت في النهاية أن العملية برمتها تديرها مجموعة من المزيّحين".

ابتسم بن - روي، وأمال ريغيف رأسه وتمتم شيئاً ما لزيسكي لم يتمكن بن - روي من معرفته، ومن ثم ألقى نظرة سريعة على ساعته، وهي ساعة كبيرة فضية من طراز تاغ هورر تبدو أقرب إلى لوحة أجهزة قياس في طائرة منها إلى ساعة.

"يفترض بي الانصراف"، قال.

"هل أنت متأكد من أنك لا تريد زجاجة أخرى؟".

"من الأفضل لي عدم احتساء المزيد. يتعيّن عليّ الشروع بالعمل باكراً يوم غد".

وضغط على كتف زيسكي ووقف. انزلق بن - روي خارج المقعد ليسمح له بالمرور. وتصافح الاثنان.

"سأستعلم عن بعض الأمور"، قال ريغيف، "وسأبلغ دوف بالمستجدات".

"أقدّر لك ذلك"، قال بن - روي. "وشكراً للنسخات".

فلوَح ريغيف بيده، وهمّ بالاستدارة، ولكنه التفت مجدداً قائلاً:

"اسمع، الأمر لا يعني، ولكن دوف ذكر أن للأمر علاقة بالمرأة التي قتلت في

دار العبادة الكبرى. لا تقلق، لم يزودني بأي تفاصيل...".

فهزّ بن - روي رأسه ليُظهر له أنه لا يُبالِي في الواقع إذا كان زيسكي قد

ذكر له ذلك.

"بالرغم من كل شيء، لا يمكنني أن أتصور أنه بإمكان نمسيس التورط في أمر مماثل. أنا لا أتقاضى عن أساليبيها، ولكن أعضائها لم يستهدفوا أحداً حتى الآن لا...".
"يستحق ذلك؟".

فهز ريغيف كتفيه.

"أعتقد أن لديهم تاريخاً واضحاً في حلّ مشاكلهم بوسائل قانونية، وقتل الصحافيات لا يتلاءم مع سيرتهم المهنية. إنه مجرد رأي، فكما قلتُ، أنا خبير في شؤون الكمبيوتر، فما الذي أعرفه؟ فكرتُ بذكر الأمر ليس إلا. لا تُبقِه في الخارج حتى وقت متأخر جداً. فهو بحاجة إلى النوم".

وغمز زيسكي، ثم أوماً برأسه لبن - روي، وغادر.

اشترى بن - روي زجاجتي شراب له ولزيسكي.

"إنه شخص لطيف"، قال منزلقاً فوق المقعد، ومسّماً زيسكي زجاجة الشراب التي كان قد طلبها.

"إنه كذلك بالتأكيد"، أقرّ زيسكي وهو يأخذ زجاجة الشراب ويفسح المكان لبن - روي للجلوس.

"إنه لطيف حقاً".

لم يُبدِ زيسكي أي رد فعل حيال ذلك، بل ارتشف شرابه، وأطلق ابتسامة جزئية أخرى من ابتساماته المدركة. فكّر بن - روي بالتوسع في الحديث في محاولة لاكتشاف المزيد، ولكن في هذه الحالة، لم يبدُ الأمر مناسباً، وتناول عوضاً عن ذلك جرعة من الشراب، وزوّده بتفاصيل عن فوسغي، فاخفتت ابتسامة الشاب وهو يقول:
"آسف، كان يُفترض بي...".

فلوّح بن - روي بيده.

"إنه أمر يحدث. لو كنت أتقاضى شيكلاً كلما أمسكتُ بالطرف الخاطيء للعصا، لبات لديّ من الشيكالات ما يكفي...".
"لشراء عصا أفضل؟".

فابتسم بن - روي، وبسط ذراعه على أعلى المقعد. كان مُتعباً عندما وصل إلى المطعم، ولكن الشراب جدّد نشاطه.

"قلتُ إنك عثرت على بعض المعلومات المتعلقة بيارين؟".

قدّم له زيسكي مغلفاً ثانياً. كان منتفخاً بالأوراق. ليست هذه هي المرة الأولى التي يُضطر فيها بن - روي لرفع قَبْعته إجلالاً لفعالية هذا الشاب. "أخشى ألا يكون لديّ الوقت الكافي لتقديم تقرير كامل"، قال زيسكي ساجباً من المغلف مجموعة من أوراق التي سلّمه إياها وهو يتابع: "أجريتُ بعض الاستقصاءات التي ربما تكون مساعدة".

إنه إنجاز هام آخر. وألقى بن - روي نظرة سريعة على الورقة. "هل تريد تزويدي بأبرز النقاط؟".

"حسنًا، الشركة كبيرة. رأس مالها خمسون بليون دولار، لديها مكاتب في مختلف أنحاء العالم، وعدة عشرات من الشركات التابعة. تتراوح اهتماماتها بين التنقيب عن النفط، واستخراج الذهب، والوقود الحيوي. إنها متكتمة أيضاً ولا ترحّب بالصحافة. يدعى رئيسها ناتانيل بارين...".

ودسّ يده داخل المغلف وأخرج صورة لرجل متجهم، ومُلتَح، وجسيم، يرتدي بذلة تويد.

"إنه رئيس مجلس الإدارة منذ أربعين عاماً. وهو شخص غريب الأطوار قليلاً، ولكنه ليس بصحة جيدة الآن كما يبدو. من الواضح أن ابنه مُهمل".

وأخرج صورة أخرى لشاب أصغر سنًا، أشقر الشعر، وسيم، وفمه متغصّن كما لو أنه يتسم.

"واجه الابن بعض المتاعب مع القانون: مخدرات، تهجّم، ويُقال إنه حاول خنق مومس منذ سنوات قليلة. تعيّن على والده ممارسة نفوذه لإنقاذه من العقاب. كل شيء موجود هنا في الداخل".

لقد وضع زيسكي إصبعه على إحدى النقاط الهامة.

"هل هناك أي شيء عن المنجم الروماني ذاك؟".

"تديره شركة بارين من دون كتمان الأمر منذ العام 2005، ولم يحدث أي خلاف. ولديها علاقات جيدة مع الحكومة الرومانية، والمجتمع المحلي، وجماعة الضغط الخضراء؛ يبدو أنه تم التوصل إلى اتفاق مع الشركة لإعادة تدوير أسوأ النفايات في الولايات المتحدة، مما يعني أن بارين لم تواجه أي متاعب عادية مع المجموعات البيئية. الكل سعيد".

ارتشف بن - روي القليل من الشراب. مرةً أخرى، تبادلرت الفكرة إلى ذهنه: ربما فهمتُ الأمر خطأً. ربما يُراد بكل هذه المظاهر صرف الانتباه عن أمور مبيّنة. "لفتني أمران"، أضاف زيسكي. "تابع".

"الأمر الأول هو وجود صلة كبيرة بإسرائيل. لدى بارين مصالح في مختلف أنحاء البلد: أسهم في منجم بوتاس في البحر الميت، حقل غاز قبالة الشاطئ في حيفا، عملية كبيرة لتقطيع الألماس في تل - أبيب. ولديها نفوذ سياسي أيضاً. تحدثتُ إلى صديقك في هآريتس، وأخبرني بأن بارين متبرّعة رئيسة لكاديما، والليكود، وإسرائيل بيتنا؛ مما يمنحها نفوذاً كبيراً. لقد وصفها بقوله إنها إحدى الشركات التي لا يجوز المساس بها".

ألقي نظرة سريعة على مجموعة من الشبان الذين دخلوا المقهى، ضاحكين ومتبادلين أطراف الحديث. لقد انتشروا في المكان، وبدأوا بطلب الطعام. "هناك ناحية شخصية أيضاً"، أضاف ملتفتاً إلى بن - روي. "يبدو أن زوجة ناتانيل بارين كانت إسرائيلية. وقد توفيت قبل سنوات قليلة. لقد صدمتها سيارة. لم يتمكن من تخطي الأمر مطلقاً، كما يبدو".

ارتشف بن - روي القليل من الشراب وهو يفكر ملياً، محاولاً مرة أخرى اكتشاف رابط بين كل ذلك ومقتل كلينبرغ، ومُخفِقاً مجدداً في التوصل إلى أي تفسير جليّ. قريهما، كانت المرأة الجذابة متوسطة العمر قد استدارت قليلاً على كرسيّها، مقيّمة الوافدين الجدد؛ إنها تبحث عن فريسة محتملة. وابتسم لها أحد الرجال، وكان ذا وجه مبّع وشاحب، ورفع يده محيياً. راقب بن - روي للحظات، مسروراً بالمشهد، ومن ثم سأل: "ما كان الأمر الآخر؟".

"عفواً؟".

كان زيسكي أيضاً يراقب ما يحصل.

"قلت إن هناك أمرين لفتا انتباهك".

"صحيح، أجل. حسناً، إقامة بارين صلة بمصر أيضاً. فوفقاً لصديقك، لقد سعت الشركة على مدى السنوات إلى إقامة روابط عملية وسياسية وثيقة في مصر.

ولديها مكتب في القاهرة، ومصالح في عدة عمليات تعدين. يبدو أنها تسعى في الوقت الحاضر للحصول على حقوق في حقل غاز كبير في الصحراء. من الواضح أن هذه الصفقة ستكون من أكبر الصفقات التي أجرتها يوماً إذا نجحت مساعيها؛ إنها الصفقة الكبرى. يبدو أن ناتانيال بارين هذا يراهن على سمعته بهذه الصفقة".

كان الرجال قد حصلوا على مشروباتهم، وشرعوا بالتجمع في الناحية الخلفية للغرفة لمشاهدة مباراة كرة القدم بانتظار الطعام. وقال الرجل مبقع الوجه شيئاً ما للمرأة متوسطة العمر، ولكنها هزت كتفها وأدارت له ظهرها غير مهتمة. فشرع بن - روي بالأسف عليه. لقد مرّ بالوضع نفسه عندما كان في تلك السنّ.

"ألم تصادف أي معلومات حول الاتجار بالجنس؟ هل صادفتها؟" سأل.

"ماذا؟ أتقصد كما لو أن بارين متورّطة في ذلك؟".

لقد أجابت لهجة زيسكي عن السؤال إلى حد كبير. فأيّاً تكن المسائل التي تورطت فيها بارين، فمن غير المحتمل أن يكون البغاء غير المشروع إحدى هذه المسائل. وتناول بن - روي جرعة أخرى.

"ماذا عن رجل يدعى سامويل بينسكر؟".

فبدأ زيسكي كما لو أنه عرف الاسم.

"ذكرني به".

"إنه مهندس بريطاني في التعدين. سقط في حفرة في الأقصر. كانت كلينيرغ تقرأ عنه في إحدى تلك المقالات التي أخبرتك عنها".

"صحيح. لا، لم أصادف اسمه".

وحرّك نصف السنتيمتر الأخير من الشراب في أسفل زجاجته بشكل دائري.

"ولكن، صادفت ما له علاقة بالأقصر".

فبدّل بن - روي جلسته وانحنى نحو الأمام، وأوماً لزيسكي طالباً منه إخباره المزيد.

"حسناً، يبدو أن بارين كانت تضخّ الكثير من المال إلى البلد مؤخراً، ممولةً عدداً قليلاً من المشاريع الاجتماعية. كل ذلك مرتبط بعرض الأسعار المتعلق بحقل الغاز الصحراوي ذاك الذي ذكرته".

"أتقصد رشوة؟".

"وصف صديقك ناتان تيرات ذلك بقوله تعزيز السيرة المهنية، ولكنني أعتقد أننا سنصل إلى الاستنتاج نفسه. بأي حال، أحد المشاريع عبارة عن إنشاء متحف كبير في الأقصر، في وادي الملوك تحديداً، وتحملت بارين التكلفة الكاملة وأنفقت بضعة ملايين عليه. يبدو أن ناتانيل بارين سيحضر الافتتاح بنفسه. أعتقد أن هناك علاقة من نوع ما؛ علماً أنه لا يمكنني رؤية الصلة بالتحديد".

وهز كتفيه ثم حرك زجاجة الشراب بشكل دائري، وبعد ذلك تركها. وقام بن - روي بالأمر نفسه. في الناحية الخلفية من الغرفة، كان الرجال قد شرعوا بإنشاد نشيد مؤيدي الغرين إيبس بنشاز؛ ولكنهم يؤيدون الفريق الصحيح على الأقل. ووقفت الفتاتان اللتان كانتا تجلسان إلى الطاولة المحاورة وغادرن، وهنّ لا يزلن يقهقهن. وبعد لحظات، قامت المرأة الجذابة متوسطة العمر بالمثل، تاركة إياهما والنادل في الغرفة الأمامية.

"هل هناك أمر آخر؟" سأل زيسكي.

فألقي بن - روي نظرة سريعة على ساعته - العاشرة إلا بضع دقائق - وهز رأسه.

"أعتقد أن هذا يكفي لليلة واحدة. باستطاعتنا مواصلة الحديث غداً بمزيد من التفاصيل. فكما قال صديقك، شاب مثلك بحاجة إلى النوم".

رمقه زيسكي بنظرة ساخرة، ولكنه لم يجادله، ثم انزلق على المقعد، ونهض وارتدى سترته.

"جولة الشراب التالية على حسابي".

"سألزملك بذلك. وشكراً لك على المدونات. إنه عمل رائع".

فتألأت عينا زيسكي كما لو أنه سُرّ بالتعليق. ولكنه لم يقل شيئاً، بل أومأ برأسه فقط، وأدّى له التحية، وهمّ بالمغادرة.

"أبلغ جويل تحياتي"، نادى بن - روي.

فتلقي إشارة بالإصبع رداً على ذلك؛ مما جعله متجهّم الوجه. الشاب يُيلي بلائاً حسناً، وسيصبح فرداً من الفريق.

بعد مغادرته، غير بن - روي رأيه واشترى لنفسه شراباً يؤخذ قبل النوم مع مكعبات ثلج. ورفع رأسه في اتجاه الناحية الخلفية للغرفة للتحقق من نتيجة

الأهداف في مباراة كرة القدم، ثم أسند ظهره ووجه رسالة نصّية لسارة، متمنياً لها وللطفل ليلة سعيدة. فتلقي رسالة جوابية على الفور تمتّ له فيها زوجته الأمر نفسه، تلتها رسالة جوابية ثانية موجهة "لوالدي" وموقّعة بكلمة بوبوكس. فابتسم مُلقياً نظرة سريعة على النادل للتحقق من أنه لا يراقبه، ثم رفع الهاتف المحمول إلى شفّتيه وقبّله.

"وتعتقد أن زيسكي غير سوي؟!"، تتمم لنفسه وهو يعيد الهاتف إلى جيّبه ممدّداً ساقيه. "أضف كلمة واحدة في غير محلّها فتحوّل إلى مارش ملو لعينة!".

ضحك وهو يرتشف جرعة من شرابه ثم يحرك الكأس على أعلى الطاولة بشكل دائري، محدّفاً بشروء ذهن بصورة مؤطرة ومعلّقة على الجدار تعود للعهد السوفيّاتي وتروّج للسجائر. وانطلقت موسيقى معزوفة دير ستريتس، براذرز إين أرمس في الأرجاء. وشقّت المقدمة الموسيقية المعزوفة على الغيتار طريقها عبر الغرفة بشكل متلوّ كضباب خفيف منجرف. فأمسكت أفكاره بالإيقاع وانسأقت معه، طافية نحو سارة والطفل أولاً، ومن ثم نحو الرجل مبقّع الوجه الذي كان يحاول مسامرة المرأة، ونحو زيسكي وريغيف، وأخيراً نحو القضية؛ وهذا أمر حتمي.

كانت نهاية اليوم أفضل وقت للتفكير بالنسبة إليه؛ عندما يكفّ عن التنقل، ويُفرغ رأسه من أعباء النهار، ويسمح لعقله بالذهاب إلى حيث يشاء من دون التركيز على أمر محدّد، بل يدع أفكاره تنساب شاقّة طريقها بشكل عشوائي عبر كل ما اكتشفه هذه الليلة، وهذا اليوم، وفي اليومين الأخيرين، ليرى إلى أين ستوصله.

لقد أودت به مراراً وتكراراً إلى مظهرين خاصّين للتحقيق، كما لو أنه زائر منجذب على الدوام للصور نفسها.

الفتاة ماريا/فوسغي. هي التي تلتقي عندها كل أطراف الخيوط، ولا شك في ذلك البتة. ومصر أيضاً. إنها المكان الذي تلتقي عنده كل أطراف الخيوط، ولا شك في ذلك أيضاً. بارين، ونميسيس، وبينسكر، ورحلة كلينبرغ الجويّة إلى الإسكندرية، وطريق سيناء التي يستخدمها المتجرون بالجنس؛ كل أطراف الخيوط تبدو متقاطعة مع مصر في نقطة ما، وكل الطرق تؤدي إلى هناك كما يبدو. ففي مصر سنجد الإجابات، وربما الجواب.

احتسى جرعة أخرى من شرابه، ثم نقل بصره من الصورة إلى النادل، متبّعاً إياه في أثناء تنقله بين المناضد؛ ماسحاً البُقْعَ بخُفّة بواسطة رقعة جيهه - كلوث. التقت أنظارهما، فأشار له الرجل بيده سائلاً إياه إذا كان يريد المزيد من الشراب. فرفع بن - روي يده شاكراً، وهز رأسه. وصدرت من الناحية الخلفية صيحة عالية تلتها نوبة ضحك صاحب.

مصر، هناك بعض الأمور التي ينبغي له متابعتها بنفسه، وإلا كان سيوكل هذه المهمة إلى زيسكي. وهناك اتصالات يمكن إجراؤها، ومعلومات يمكن جمعها. ولكن باستطاعتكم القيام بالكثير من الأمور عبر الهاتف، وإرسال بريد إلكتروني عبر الإنترنت. ولكن ما تحتاج إليه القضية حقاً هو ملاحقة بعض الأمور على الأرض من خلال شخص يعرف البلد ولغته. هذا يعني التقدم بطلب في مقر قيادة الشرطة الوطنية في الشيخ جراح بهدف الحصول على ترخيص رسمي يسمح له بإجراء معاملات مع السلطات الأجنبية؛ ولا سيما مع السلطات العربية. قد يتطلب الحصول على ترخيص رسمي أياماً، لا بل الكثير من الأيام؛ مع الأخذ بعين الاعتبار بطء بيروقراطية الشرطة الوطنية. سيقصدهم في بادئ الأمر، ويدير عجلة الأمور. ولكن، بدا له في ذلك الحين أنه يتعين عليه إرجاء موضوع مصر بالرغم من أهميته الجليّة.

تنهّد فيما كان يرفع كأس الشراب لتناول ما تبقى فيها والتوجّه إلى المنزل قبل حلول اليوم التالي. وفي أثناء قيامه بذلك، خفقت عيناه كما لو أن فكرة ما تبادرت إلى ذهنه؛ هناك بالطبع خيار آخر، شخص موجود على الأرض، أحد معارفه السابقين، صديق قديم. لقد عملاً معاً منذ مدة في قضية هانا شليغل الاستثنائية تلك، وبقياً على اتصال، علماً أنهما لم يتحادثا منذ مدة، منذ اثني عشر شهراً أو أكثر، لذلك لم يفكر فيه على الفور. ألقى نظرة سريعة على ساعته - الوقت متأخر، ولكنه ليس متأخراً جداً - وأخرج هاتفه المحمول، غير مُدرك تقريباً ما يقوم به.

قبل أربع سنوات، وفي أثناء فتور همّته بعد وفاة خطيبته غاليا، واقتناعه بأنّه سيحيا بقية أيامه في الظلمة والأسى، صادف شخصين أعاداه إلى ضوء النهار. كانت سارة أحدهما، والآخر...

استعرض على الشاشة قائمة معارفه، باحثاً عن الأسماء التي تبدأ بالحرف خاء. كان هناك اسم واحد فقط، فابتسم عندما رآه. لقد مضى وقت طويل، ومن الجيد سماع صوته مرة أخرى. تحقق من ساعته للمرة الثانية، ومن ثم حرّك إبهامه وطلب الرقم.

الأقصر

كان خليفة على سطح مجمّعه السكني، جالساً على صندوق مقلوب رأساً على عقب، محدّقاً بالمنظر الليلي المتألّي للأقصر، عندما رنّ هاتفه المحمول. كان يصعد إلى هناك في معظم الليالي بعد أن يحمل زينب على النوم. كان يمسك بيدها، ويمسّ شعرها الطويل، ويغني لها بصوت ناشز حتى يستقرّ تنفّسها في النهاية، ويسترخي جسدها، ويلين فمها القلق ويتلوّى؛ تعبيراً عن ارتياحها - أكثر من كونه إطلاقاً لبسمة - لانتهاؤ فترة الاستيقاظ وتمكّنها مجدداً من الارتواء في أحضان النوم والنسيان. وفي وقت لاحق، تستيقظ الكوابيس المزعجة، وتخدش كسر مثلمة الأطراف من الذاكرة عقلها الباطن، محوّة النوم إلى أرق أشبه بالعذاب. ولكنها ترقّد بسلام لمدة ساعتين، مقمّطة في بطانية من النسيان الخالي من الكوابيس والأحلام؛ وعندها يتمكن من الصعود بمفرده إلى هنا طلباً للسلام، ومطمئنّ البال لوجود نافذة غرفة نومهما تحته مباشرة؛ فإذا نادته سيسمعها وينزل إليها في غضون ثوانٍ.

كان يحب السطح. إنه جزء من منزلهما الجديد الذي لا يحمل تجاهه أي شعور بالنفور، ولا سيما في الليل. ففي النهار، يمكن للأقصر أن تكون مكاناً مملاً بالأبيض والأسود، إذ يُزيل ضوء الشمس المزعج لون المدينة ويضخم خموها. ولكن المفارقة هنا تتمثل بعودة اللون مع عودة الظلام: الأخضر البراق والشفاف جزئياً لمئذنتي المسجد، واللون الأبيض للمصاييح الأنبوية للمقاهي والمتاجر، والنّيون الساطع لفنادق الدرجة الأولى، والأضواء البرتقالية والصفراء المنبعثة من النوافذ ومصاييح إنارة الشارع ومصاييح السيارات الأمامية.

يحوّل الليل المدينة إلى ألوان أوليّة؛ مُبطّلاً كل الهندسة الإسمنتية المتفتّحة؛ لتصبح المدينة صافية وبرّاقة وبسيطة. وجلس خليفة على صندوقه على السطح وتحديقَه

بعيداً يهدّثانه بالطريقة نفسها التي يهدّثه فيها تسلّقه القرن وإطلاق النار في حقل الرماية الخاص بالشرطة. ويوفّر له ذلك شعوراً أفضل حيال الأمور، أو على الأقل يكفّ عن النظر إليها بطريقة مؤلمة.

ولكن هاتفه المحمول رنّ، فانقطع سحر اللحظة.

وقف بسرعة وأخرج الهاتف من جيّبه، وسرت نبضة قلق من صدره وصولاً إلى أمعائه؛ كما يحصل معه الآن على الدوام عندما يتلقّى اتصالاً غير متوقّع، وفي وقت غير عادي. التمتعت في رأسه بعض السيناريوهات للحظات وجيزة، سيناريوهات مُرعبة: صفارات إنذار، مستشفى، وقع أقدام راكضة، نحيب يبعث على الشفقة. ومن ثم رأى اسم المتصل، فهدأت أنفاسه. جلس مجدداً وحدّق بالهاتف، فاركأ صدغه بالإبهام والسبابة. لقد مرّت عليه أوقات كان يشعر فيها بالفرح والسرور لدى تلقيه الاتصال. بالرغم من كل شيء، إنّه يدين لهذا الرجل بحياته، وقد احتازا الكثير من المضاعب معاً. هذه الليلة، كان رد فعله المباشر هو الانزعاج بسبب تلقي الاتصال في وقت متأخر جداً لدرجة أن الأمر أخافه؛ إنّه مزيج من الانزعاج والهلع المتعب والممل أيضاً بسبب اضطراره للمرور بكل ذلك مرة أخرى، وإخبار شخص آخر بما حدث وكيف سار كل شيء على نحو غير ملائم له ولعائلته، وعيش الأمر برمته مجدداً، ومن ثم يسود الصمت في الجانب الآخر من الخط، ويتمّ تلمّس الكلمات والنطق بدون تفكير بعبارة آسف، إذا كان هناك ما أستطيع القيام به. أدرك خليفة أنه أصبح مطبوعاً بالمأساة على نحو لا يُمحى، وأن كل ما قام به وسيقوم به في هذه الحياة يحدّد هويّته.

دلّى الهاتف الذي كان صدى اهتزازه يتردد عبر ليل الأقصّر الحار نحو الأسفل؛ عاجزاً عن حمل نفسه على الإجابة، ومفكراً بترك الهاتف يرنّ حتى ينتقل إلى صيغة البريد الصوتي. ولكنه بهذه الطريقة يُرجى الختوم. لن يتمكن من تجنّبه إلى الأبد، ويتعيّن عليه التحدث إليه في وقت ما. كان قد أنقذ حياته في تلك الليلة قبل أربع سنوات، في ألمانيا، عندما حمله إلى خارج المنجم المحترق. إنه يدين له بحياته، وأيّاً تكن مشاكله الشخصية، فإن خليفة يتعاطى مع دين الصداقة بجديّة. "تباً"، تمتم.

ترك هاتفه المحمول يرنّ للحظات إضافية محدّقاً بالمسجد الذي بدت مئذنته النحيلة كما لو أنّها تطعن القمر؛ كإبرة تنقب بيضة بطة. وبعد ذلك، عندما أوشك

الهاتف على الانتقال إلى صيغة الريد الصوتي، أخذ نفساً عميقاً، وضغط على زر الإجابة، ووضع الهاتف على أذنه.
"مرحباً يا صديقي"، قال بهدوء.

القدس

عندما سمع صوت خليفة، أطلق بن - روي ابتسامة عريضة، ورفع كأسه كما لو أنه يحياه.
"مرحباً بك أيضاً، أيها المسلم الوقح المحب للنساء!".
هكذا كانا يَحْيِيَان بعضهما؛ وهي إيماءة للقائهما الأول عندما تجادلا وكادا يتقاتلان، فيُجيبه خليفة داعياً إياه بالوعد اليهودي المتعجرف. وفي هذه المناسبة، اكتفى بإصدار صوت منخفض للتعبير عن شكره وامتنانه للدُّعابة، وسأل بن - روي عن حاله.

"عظيم، رائع. وأنت؟".

"بخير، شكراً لك".

"لم أوقظك، أليس كذلك؟".

فأكد له خليفة أنه لم يوقظه.

"متى كانت آخر مرة تكلمنا فيها؟ منذ عام؟".

"على الأقل"، أجاب خليفة.

"يمر الوقت بسرعة".

"بالتأكيد".

"الله يعلم إلى أين يذهب".

وقتم خليفة شيئاً ما لم يفهمه بن - روي. لم يكن بإمكانه التأكد، ولكن الانطباع الذي تكوّن لديه هو أن المصري منحرف المزاج قليلاً. فهو غالباً ما يكون معسول اللسان، ولكنه بدا في هذه الليلة عكس المزاج. فتساءل بن - روي عما إذا كان يُفترض به تأجيل الموضوع حتى صباح اليوم التالي.
"كيف حال زينب؟" سأل بعد أن قرر مواصلة الحديث الذي بدأه.

"إنها... بخير". كان الجواب متردداً، ومُتهرباً أيضاً. "ماذا عن سارة؟".
"لقد انفصلنا".

وكان هناك توقف قصير.

"آسف. متى؟".

"منذ أشهر قليلة".

"آسف".

"أنا أيضاً. إنه خطئي، بالطبع. أنا غبي".

ظنّ بن - روي أن خليفة قد يعلّق على الأمر، ويجب بسرعة بديةه، ولكنه لم يقل شيئاً. وكان هناك توقف آخر مُخرج، لقد بدا المصري عكِر المزاج بلا ريب. وإلى يمين بن - روي، كان الباب مفتوحاً، وعادت الشابتان اللتان غادرتا قبل خمس عشرة دقيقة، وإحدهما تضع ذراعهما على كتف الأخرى. فراقبهما وهما تتمايلان في أثناء توجههما لطلب كوكا كولا، ومن ثم قال:
"هيه، أحمل بعض الأخبار".

وسمع صوت قذّاحة في الجانب الآخر من الخط، تلاه صوت استنشاق.

"لا تقل لي إنك عقدت سلاماً مع الفلسطينيين؟".

هذا هو خليفة الذي يعرفه ويحبه!

"لا، بل أفضل من ذلك!" وضحك بن - روي. "إنه أمر لا يصدّق أبداً".

وتركه يفكر بالتعليق قليلاً لتأخذ الأمور سبيلها نحو الذروة، ومن ثم قال:

"سارة حامل. سأصبح والدًا!".

قال ذلك بصوت مرتفع، مستمتعاً بإعلان النبأ، رفع صوته كثيراً لدرجة أن

النادل والشابتين سمعوه. فرفع النادل إبهامه، وصفقت المرأتان وصاحتا/زلتوف. ولم

يصدر أي شيء عن خليفة.

"سأصبح والدًا"، كرر بن - روي ظاناً أن المصري لم يسمعه.

"مبروك"، قال خليفة. "أنا سعيد جداً لأجلك".

لم يتكلم بصوت مرتفع، وكانت لهجته رتيبة وخالية من أي تعبير، فتفاجأ

بن - روي واغتاظ؛ فخليفة هو أحد الأشخاص القلائل الذين لم يخبرهم بعد - بل

إنه الشخص الوحيد تقريباً - وكان يتطلّع إلى رد فعله، وقد قرر القيام بذلك منذ

لحظة اتصاله به. كان الافتقار إلى رد الفعل... مُهيئاً له تقريباً. حسناً، لقد مضى أكثر من عام على اتصالهما - وأربع سنوات على مقابلة أحدهما الآخر وجهاً لوجه - ومن الواضح أن خليفة لم يكن في مزاج ملائم، ولكنه كان يتوقع بالرغم من ذلك بعض الحماسة من قبله. فالأبوة أمر كبير بالرغم من كل شيء، أمر يُحتفى به، ولم يكن خليفة أبهاً بذلك. فتساءل بن - روي عما إذا كان خليفة لا يستحسن فكرة إنجاب طفل خارج إطار الزواج. أجل، لا بد من أن يكون هذا هو السبب. ثقافتان مختلفتان، وأساليب مختلفة للقيام بالأمر.

"من الواضح أن عدم كوني وسارة معاً يجعل الأمور أكثر تعقيداً"، أقر، "ولكننا لا نزال مقرّبين. وثق بي، مهما حدث سأكون هناك لأجلها ولأجل الطفل. ومن يعلم، عندما يصل... في الواقع، لا نعرف بعد إذا كان ذكراً، علماً أن شعوراً قوياً يتتبعني بأنه ذكر... بأي حال، الأطفال يبدلون الأمور، أنت تعرف ذلك، لذلك عندما يصل أو تصل ربما سنقوم أنا وسارة بمحاولة أخرى، للتحقق مما إذا كان باستطاعتنا ترقية الأمور، كما تعلم، والبدء مجدداً نحن الثلاثة معاً...".

كان يستطرد. لم يكن يُفترض به احتساء الشراب ومعدته فارغة. "لن أكون أحد الآباء الغائبين أولئك. سأكون موجوداً على المدى البعيد. وواقع أنني وسارة لا نعيش معاً لن يؤثر في أي شيء. فسوف يكون للطفل أفضل منزل في العالم، وأفضل والدين مُحيين. أنا شديد الاضطراب يا خليفة، شديد الاضطراب. سأصبح والدًا!".

كان بإمكانه الشعور بصوته يغدو أجشّ، وبعينه تغرورقان بالدموع. لم يكن يُفترض به تناول الشراب بلا ريب.

"مبروك"، كرر خليفة. "أنا سعيد جداً لأجلك، لأجلكما".
إنها اللهجة الرتيبة نفسها، وغياب الأحاسيس نفسه. فتصلّب فك بن - روي السفلي. وغد بائس، قال في سرّه. ها أنذا أبذل قصارى جهدي، ولا يمكنك حتى بذل جهد بسيط ليبدو الأمر كما لو أنك تعني ما تقوله. ربما كان ذلك ضد مبادئ المسلم، ولكن باستطاعتك على الأقل التظاهر لأجل صداقتنا. أحصل على رد فعل من نادل ومن عصفورتين أكثر بكثير مما أحصل عليه من شخص أنقذت حياته.

"اسمع، ربما لم يكن من المناسب الاتصال بك في هذا الوقت المتأخر"، قال عاجزاً عن إخفاء الانزعاج في صوته. "أردت أن أسألك عن أمر ما مرتبط بقضية أعمل عليها، ولكن من الواضح أنه ليس الوقت المناسب...".
"لا، لا، رجاءً، لا بأس. إذا كان هناك شيء ما يمكنني القيام به لأجلك...".
لقد بدا الرجل شاردًا، وغير متماسك كليًا، كما لو أنه يتعاطى المخدرات. ربما هو كذلك، فكر بن - روي في سره؛ ربما كان مريضاً أو ما شابه. هذا هو التفسير ربما.
"هل أنت بخير يا خليفة؟".

وساد الصمت.

"هل أنت بخير؟" كرر. "لا تبدو... أعني، لا أريد تعقيد الأمر، ولكنني على وشك أن أرزق بطفل وأشعر بأنك لست سعيداً لأجلي، ولا حتى مهتماً".
عندما تكلم خليفة مجدداً بدا اعتذاره صادقاً.
"سامحني يا صديقي. أنا مهتم بالتأكيد وسعيد لأجلك. سعيد حقاً. إنه لأمر رائع أن يُرزق المرء بطفل. ما يجري هو...".
وسُمع صوت أجش آخر، وزفير آخر. وتحول انزعاج بن - روي إلى قلق عارم.

"ماذا يجري؟".

في الناحية الخلفية للغرفة، ثار المعلق على مباراة كرة القدم مرة أخرى، ورافقت ذلك صيحات: "تابع يا قاطان!" و"تجاوزة!".
"ماذا يجري يا خليفة؟ هل هناك خطب ما؟".
ورثت الكؤوس، ورافق ذلك انفجار متجدد للقهقهة.
"خليفة؟".
"تجاوزة، تباً!".
"خليفة؟".

"في الواقع، أجل. هناك خطب ما. أمر...".

وتردد عبر الخط صدى غصّة مكتومة كان بن - روي سيعتبرها نشيجاً لولا الضوضاء المحيطة به، وتعاضم قلقه.
"ماذا حدث؟ أخبرني، يا خليفة".

وكان هناك توقف آخر - بدا الأمر كما لو أن صوت بن - روي يتأخر في بلوغ خليفة - ومن ثم بدأ المصري يشرح أمراً ما على علاقة بمركب، وحادث. وضاع صوته في فورة ابتهاج فجائية ومُصمّة للأذان صادرة من الناحية الخلفية للغرفة عندما سجّل فريق ماكابي حيفاً أخيراً هدفاً في مرمى الخصم، متقدماً عليه. فوضع بن - روي يده على أذنه، وأخفض رأسه حتى مستوى أعلى الطاولة تقريباً، محاولاً إبعاد الضجيج.

"آسف، لم أسمع ما قلته؟ ماذا...".

كان الكل يصيح ويصرخ، حتى الفتيات.

"آسف يا خليفة، لا يمكنني...".

وقفز أحد الشبان فوق الدرجات إلى الداخل، واجتاز الغرفة لاكماً الهواء بقبضتيه، وتلاه شخصان آخران، وأدّى الثلاثة رقصة كونغا ارتجالية، مما جعل الفتيات يصرخن مسرورات. فلوح بن - روي بيده، محاولاً تهدئتهم ولكن من دون جدوى. وباستمرار الاحتفالات على حالها، طلب من خليفة الانتظار على الخط، ثم خرج من المطعم مُغلقاً الباب وراءه. فجأةً، ساد الهدوء التام.

"هذا أفضل"، قال وهو يسير على الطريق المُقفرة. "الضجيج يملأ المكان في الداخل، لم أتمكن من سماع أي شيء. الآن، ماذا كنت تقول؟ ماذا حدث؟". هذه المرة، تكلم خليفة بصوت مرتفع وواضح، مما جعل بن - روي على التسمّر في مكانه.

"توفي ابني. وقع حادث في النيل وقتل ابني علي. فقدت ابني الصغير. آه، يا الله! لقد فقدت ابني الصغير يا بن - روي".

الأقصر

حتى الآن، وبعد عام تقريباً، لم يبلغ خليفة بعد حدّ التكيف مع ما حدث. لم يكن باستطاعته أن يتخيّل وصوله إلى وقت يتصالح فيه مع الواقع. لقد فقد ابنه البكر، ابنه الذهبي. كيف يمكنه الحصول على الراحة بوجود ذلك العبد الجاثم على قلبه؟

قبل أربعة أشهر من الحادث كما يبدو، عثر علي ومجموعة من أصدقائه ممن لا يُقهرُون ويبحثون عن المرح والمغامرة - وكانوا في الرابعة عشرة من عمرهم - على زورق صغير مُهمَل على الضفة بين نبات القصب، فأصلحوه قدر المستطاع، وسرقوا مجذافاً من باحة تحتوي على فلوكات بجانب الكرّك، وصنعوا مجذافاً آخر من خشبة قديمة مرمية، وبدأوا بإخراج الزورق إلى النيل. لم يجرؤوا على القيام بمجازفات كبيرة في بادئ الأمر، لذا كانوا يكتفون بالنزول إلى الماء لمدة وجيزة على خط الشاطئ الشرقي، أو بالقيام برحلة قصيرة عبر القناة الضيقة إلى جزيرة الموز حيث كانوا يبنون مخيماً، ويتناولون الحلوى، ويدخنون السجائر المسروقة. كان كل شيء مأمون الجانب.

مع مرور الوقت، أصبحوا أكثر جرأة. لقد أقنعوا ذات مرة مالك مركب مزوّد بمحركٍ بسحبهم إلى وسط النيل قرب الجسر ليتمكنوا من الانحراف مع التيار مسافة عشرة كيلومترات. وفي المرة التالية، جذفوا وصولاً إلى الجانب الأبعد لجزيرة الموز، والتفّوا حولها، متوجّهين إلى السدود الرملية للعوامة غرب الجزيرة.

في ليلة المأساة، انطلقوا هم الستة، بمن فيهم علي، في مغامرهم الكبرى المتمثلة بالقيام برحلة عبر النهر إلى الشاطئ البعيد والعودة إلى نقطة الانطلاق.

لقد تمّ التخطيط لها بدقة وتفصيل، وأدّخروا طوال أسابيع طعاماً وشراباً وسجائر لأجل رحلتهم الوشيكة. وفي الليلة المحدّدة، ادّعى كل فتى أنه ذاهب للنوم في منزل أحد الفتيان الآخرين كي لا يُثيروا شبهة الأهل. وتواعدوا على اللقاء بعد حلول الظلام في لسان مائي داخل البرّ جنوب الأقصر، وحملوا الزورق بالأغراض، وتعهدوا بالصدقة الأبدية في حال غرق الزورق أو التعرض لهجوم من قبل العدو؛ وهي بادرة غير جدّية ثبتت صحتها في ما بعد.

وانطلقوا بعد ذلك، شاعرين بأنهم مستكشفون عظماء لم يولد مثلهم قطّ. لم يكونوا يملكون سترات نجاة بالطبع، ولكن لماذا سيحتاجون إليها إذا كانوا جميعاً يُجيدون السباحة؟

لقد واجهوا عقبة في مرحلة مبكّرة من رحلتهم عندما بدأت الماء بالتسرب إلى داخل الزورق بعد لحظات من النزول إلى النهر. كان يُفترض بهم العودة على الفور، ولكنهم أعدّوا للمغامرة منذ مدة، وكانوا متحمّسين جداً للأمر برمّته

لدرجة أنهم تغاضوا عن هذه المشكلة، واندفعوا لخوض مغامرتهم بالرغم من كل شيء، وتولى فتیان مهمة إخراج الماء من الزورق بأوعية بلاستيكية، في حين قام الآخرون بدفع المركب بواسطة المجذافين إضافةً إلى لوحين خشبيين وضعوهما قيد الخدمة ليمنحاهم مزيداً من الزخم.

وبعد البداية غير الواعدة، عادت الأمور إلى مسارها، وأكملوا طريقهم إلى وسط النهر من دون التعرض لأي حادث بعد أن تمت السيطرة على التسرب، وبعد تباطؤ تدفق النيل وهدوئه.

ولكن سلسلة من الأمور حدثت بعد ذلك.

فقد وقعت بعض الأحداث العشوائية التي اجتمعت معاً لتحوّل وضعاً غير مؤذٍ إلى مأساة لا ترحم. فقد شاهد قارب شرطة كبير مزوّد بمحرك ويقوم بدورية جنوب منطقة عمله الزورق الصغير، فمرّ قربه، طالباً من الفتیان العودة إلى اليابسة. كان كل الفتیان الآخرين ينتظرون مغادرة قارب الشرطة لمتابعة مغامرتهم، بخلاف علي - ابن رجل الشرطة - الذي أصرّ على الإذعان للطلب (كم مرة أثب خليفة نفسه على عدم تعليمه ابنه قلة احترام السلطات).

وهكذا، عادوا من حيث أتوا - مع تأوهات الخيبة، مُمازحين السيد الصالح الذي يقوم بما يُطلب منه على الدوام - ولكنهم اكتشفوا أن التيار الذي كان مطوّعاً في طريق الذهاب أصبح أكثر عدوانية في الاتجاه المعاكس.

"بدا الأمر كما لو أن النهر لم يشأ أن يسمح لنا بالعودة إلى الشاطئ"، تذكر أحد الفتیان الذي نجح من المأساة، والذي جُمعت أجزاء القصة وفقاً لشهادته. "استمر التيار بسحبنا نحو الشمال ودُفعنا إلى الوراء في اتجاه الوسط. كان التقدّم بوصة واحدة بمثابة نضال".

انكسر المجذاف البديل إلى النصف، وسقط أحد المجذافين الخشبيين في الماء وجرفه الظلام. وازداد تسرب الماء إلى الزورق بسرعة، ولم تتمكن الأوعية البلاستيكية من إفراغ الماء المتسرب. وعندما تمكّنوا من بلوغ نصف المسافة التي تفصلهم عن الضفة الشرقية، كان الفتیان قد أرهقوا جميعاً، ولم يعد بإمكانهم السيطرة على الزورق بفعالية.

عندئذٍ، رأوا الصنّدل.

لم يشعروا بخطورة الموقف في بادئ الأمر. كانت تفصلهم عن ذلك الهيكل الأسود البعيد الذي يطفو على صفحة النهر التي يزينا القمر بلونه الفضّي مسافة تزيد عن كيلومتر واحد. وبالرغم من اتجاهه نحوهم مباشرةً كما يبدو خارج خط الملاحاة العادي بجانب الشاطئ الغربي، لم يشك أي منهم في أن الرقيب سيراهم في الوقت المناسب، وسيطلب تعديل المسار.

غير أن التعديل لم يحدث قط. وفي أثناء قيام التيار بجرفهم شمالاً، وملازمة الصنّدل خطه، ازداد قلق الفتیان، ودُعروا بعد ذلك. فشرعوا بالصياح والتلويح بأذرعهم، محاولين تنبيه الصنّدل للابتعاد، ومجذّفين في الوقت نفسه بأيديهم في مسعى منهم للابتعاد عن طريقه.

ولكن، بدون جدوى. فقد كان الزورق الصغير ينحرف في اتجاه أسفل النهر، فيما الصنّدل يندفع في اتجاهه. لقد بدا الأمر كما لو أن الزورق والصنّدل عالقان في مسار لا يمكن عكسه، والمسافة الفاصلة بينهما تضيق أكثر فأكثر.

"كقطارين يسير أحدهما في اتجاه الآخر على السكة نفسها"، هذه هي العبارة التي استخدمها أحد الشهود الذين كانوا على ضفة النهر لوصف المشهد.

"لقد تسمّنا في أماكننا"، قال الناجي. "كان باستطاعتنا رؤية الصنّدل وهو يدنو منا أكثر فأكثر، ولكن الأمر بدا كما لو أن كل شيء يحدث ببطء؛ كما لو أننا في حلم. أتذكر أنّ "علي" صاح قائلاً إنه يُفترض بنا جميعاً القفز من الزورق، ولكننا لم نستطع الحراك. لقد ظننا حتى الدقيقة الأخيرة أنهم سيروننا وسيغيّرون المسار".

في النهاية، رأى الرقيب الأمامي للصنّدل الزورق الصغير بعد أن سمع بوق التنبيه التابع لقارب الشرطة الذي عاد للتحقق من قيام الفتیان بما طُلب منهم القيام به. وصاح الرقيب لمدير الدفة الذي أدار دفة التوجيه باضطراب في مسعى منه لتجنّب الاصطدام، ولكن الأوان كان قد فات لأن مسافةً تُقلّ عن مئة متر كانت تفصل بين الزورق الصغير ومقدمة الصنّدل الحادة.

ووفقاً لأحد أفراد شرطة النهر، وقف الفتیان جميعاً في اللحظة الأخيرة، وشبكوا أذرعهم كما لو أنهم يستطيعون صدّ 1000 طنّ بواسطة القوة البَحّة لصادقتهم (سوف تقضّ صورة الفتیان الستة المروّعين تلك، والمتّحدين في عناق أخير ميؤوس منه، مضجع خليفة حتى يوم وفاته).

ومن ثم، ضرب الصنّدل الزورق كمطرقة كبيرة تسحق علبة ثقاب.
لقد قُتل أربعة فتیان على الفور، وسُحبوا إلى تحت الماء، وقُطِّعوا إرباً إرباً بواسطة
الدواسير الضخمة للصنّدل (عُثر على جثتين فقط تمّ التعرف عليهما). وتمكن الخامس
من شق طريقه بأعجوبة إلى خارج مسرح الاصطدام، وأنقذه قارب الشرطة. لقد شعر
بصدمة كبيرة لدرجة أنه لم ينطق بكلمة واحدة إلا بعد مرور أسبوع على الكارثة.
وعاش الفتى السادس أيضاً؛ علي. لقد شاهد قارب الشرطة جسده بعد ثلاثين
دقيقة من الحادث وهو يطفو على سطح الماء فاقداً وعيه. كان واقعاً في شرك
طوفٍ من ورد النيل، ووجهه إلى الأسفل. فسُحب من النهر، وتمّ حمله بسرعة إلى
الشاطئ، ونقله إلى مستشفى الأقصر العام حيث عرفتة رشا الزهوي، طبيبة
الأطفال وزوجة عمر صديق خليفة التي صادف أنها كانت تزاول عملها في مناوبة
متأخرة في قسم الطوارئ التابع للمستشفى. وكانت هي التي اتصلت بعائلة خليفة
لإطلاعها على ما جرى.

عندما وصلا إلى المستشفى ورأيا ابنيهما على الجهاز الداعم للحياة - رماديّ
الوجه، مغطى بالأنابيب، ويخرج أنبوب من فمه على غرار دودة عملاقة من نوع
ما - انهارت زينب، وساعدها خليفة على النهوض، ووضعها على كرسي عند
رأس السرير، مطمئناً إياها بأن ابنيهما سيكون بخير رغم أنه كان متيقناً من أنه لن
يكون كذلك. وبعد ذلك، جلس على السرير بجانب ابنه وحمله، غير مُبالٍ بما قد
يظنّه أي شخص به، وغافلاً عن الأطباء والمرضات الذين يجوبون المكان، وأعرب
له عن مدى حبه له، مناشداً إياه البقاء معهم، وملتمساً رحمة الله، ومهمهماً بأغنية
لنذهب ونطير الطائرة ورقية الخاصة بماري بوينز، وكانت تلك الأغنية من فيلم
علي المفضّل حتى ما بعد بلوغه الرابعة عشرة من عمره.

لقد بقيا بجانب سرير ابنيهما طوال ستة أيام وست ليال، ولم يغادرا المكان
مطلقاً. لم يكن هناك أي أمل؛ فقد بقي تحت الماء لمدة طويلة. ربما سيستمر قلبه
بالخفقان ولكن دماغه ميت، وفقاً للأطباء. لن يستعيد الوعي أبداً؛ ولقد اختار الله
بحكمته اللامتناهية عدم اجترّاح معجزة في هذه المناسبة. كانت الأيام الستة ببساطة
أشبه باستئذان طويل للمغادرة.

وفي اليوم السابع، اتفقا على أن يدعاه يرحل.

لقد أصّر خليفة على أنه يُفترض به أن يكون أول من يقوم بذلك؛ فهذا أمر شخصي جداً وحميم جداً لا يمكن أن يُعهد به إلى غريب. فقبلاً علي، وضمّاه إلى صدرَيْهما، وأخبراه مراراً وتكراراً عن مدى حبّهما له، ومقدار الفرح الذي حمله لهما، وأنه سيكون على الدوام جزءاً من حياتهما. ومن ثم، أمسك كل منهما بإحدى يديه، مُجهشَيْن بالبكاء، وقالوا له وداعاً للمرة الأخيرة، وانحنى خليفة وأطفأ الجهاز الداعم للحياة.

لقد راقب قبل أربعة عشر عاماً ابنه حين أتى إلى العالم؛ في غرفة النوم في الشقة التي تمّ هدمها بعد شهر ليتمكن السيّاح من التقاط صور فوتوغرافية لشيء ما مثير للاهتمام.

وها هو يراقبه وهو يغادر، ها هو يراقب حياته الجميلة والغالية التي لا تُعوّض وهي تحبو ببطء لتتحوّل إلى خط أفقي يُصدر صوتاً رتيباً على شاشة مراقب القلب في المستشفى.

كان العذاب المرافق لهذا الأمر لا يوصّف، والأسى الناجم عن ذلك يتخطى أي أسى كان قد اعتقد أنه قد يختبره ذات يوم.

ولم تتعافَ زينب من تلك الكارثة قطّ، وتكاد لا تنطق بكلمة واحدة مذكّ الحين، قاضية أيامها في النظر بلهفة إلى ألبومات الصور، ومشاهدة الدي في دي المفضّل لدى علي ماري بوبينز، وكانسة الغرفة التي خصّصتها له في شقتهم الجديدة. وحتى بعد تسعة أشهر على وفاته، لا تزال تستيقظ كل صباح وهي تكتف بألم: "أنا أفتقده!".

وكان خليفة قد حصل على مأذونية غياب طويلة للاعتناء بزوجته، وليكون أيضاً مع بطّاح ويوسف اللذين ائتمارت معنويّاتهما بسبب فقدانهما شقيقهما (علماً أنّهما اكتسبا بسرعة القدرة على تحمّل المصاعب بسبب الخسارة التي تكبّدها، ومضيا في حياتيهما). وبلياقته المعتادة، لم يقيم الرئيس الحسنيّ بنقلهم إلى شقة جديدة فحسب، بل أصّر أيضاً على تلقّي خليفة راتبه كاملاً عن تلك الفترة التي تخلّف فيها عن العمل؛ مما جعل الأمور أسهل على الأقل على المستوى العملي. ولا يزال خليفة غير قادر على تحديد مشاعره حيال تصرّف رئيسه ذاك؛ أهو شعور بالامتنان بسبب هذه البادرة، أم الامتناع من غدوّه شخصاً مثيراً للشفقة حتى في

نظر شخص قاس وغريب الأطوار كالرئيس.

في الأيام الأولى التي تلت فقدانه ابنه - أيام فارغة، رمادية، أشبه بكابوس بالأبيض والأسود لا يستطيع الاستيقاظ منه - كل ما كان باستطاعته التفكير فيه هو الأوقات التي كان يوبّخ فيها "علي" - المناسبات عديدة جداً ولا يمكن إحصائها - والتي لم يكن يلعب فيها دور الوالد الذي أحب أن يكونه.

ومع مرور الأيام والأسابيع والأشهر، بدأ يستعيد الذكريات السعيدة: مباريات كرة القدم التي اعتادا إقامتها، وأيام العُطَلات الطويلة على البحر في الغردقة، ويوم اصطحبه صديقه غينغر - وهو عالم في الآثار المصرية - مع ابنه علي في جولة خاصة على المدافن المُقفلة في وادي الملوك، والزيارات إلى مطاعم ماكدونالدز في الأقصر التي منحت الفتى سروراً أكبر من كل الآثار التاريخية في مصر مجتمعة؛ الكثير من الذكريات السعيدة الجديرة بعمر مديد.

وما زاد من عدم قدرة خليفة على التخلص من الشعور بالذنب والغفران لنفسه أن الكلمات الأخيرة التي وجهها لابنه كانت كلمات تحذير بسبب عدم إنجازه فرضه المنزلي.

ولم يتمكن من التخلص من الصورة التي تخيا معه ليل نهار؛ صورة ابنه المتخبّط في مياه النيل الهائجة؛ وحيداً، ومذعوراً، وعلى شفير الموت. وبالطبع، لم يكن باستطاعته قطّ استعادة علي. فبالرغم من كل حسنها، لا تملك الذكريات القدرة على إعادة الأموات.

لقد دُفن في قطعة أرض صغيرة أشبه بلسان داخل النيل، غير بعيدة عن اللسان المائي داخل البرّ حيث انطلق ورفاقه تلك الليلة في رحلتهم العظيمة. إنه موقع جميل يحتوي على أشجار برّاقة وشجيرات الخُطميّة، ويُشرف على مناظر رائعة من النهر وصولاً إلى الجبال الطيبية والصحراء القائمة وراءها. كان خليفة يحب الاعتقاد أنه باستطاعة ابنه إلقاء نظرة من مكان رُقاده الأخير، والحلم بالمغامرة بطريقته الخاصة. لم يُجرَ أي تحقيق رسمي بالحادث مطلقاً، ولم تُرفع أي دعوة قضائية ضد ربّان الصنّدل أو مالكيه. إذ إن أكبر شركة نقل في مصر هي التي تملك ذلك الصنّدل، وليس المالكون من الأشخاص الذين يمكن مقاومتهم. بعض الوقائع في الحياة لا يمكن حتى للثورة أن تغيّرها.

القدس

"آه! يا الله! آسف، يا خليفة".

ومشى بن - روي بخطوات بطيئة نحو مقعد وجلس، مُحدّوداً إلى الأمام.
"أنا شديد الأسف لخسارتك"، كرر، "ولما تمرّ به أيضاً... تعرف، سارة وأنا، والطفل...".

"لا حاجة لك للاعتذار يا صديقي. إذا كان هناك من يُفترض به الاعتذار فهو أنا بسبب... كيف تقول ذلك... إثباطي عزيمتك حيال خبرك الرائع. أنا سعيد لأجلك. سعيد حقاً".

حدّق بن - روي بحذائه الرياضي، محاولاً التفكير بشيء ملائم يمكن أن يقوله، وشاعراً بأنه أكبر غيٍّ في العالم بسبب إخطائه في فهم خليفة. لم يكن جيداً في مواجهة هذا النوع من الأوضاع، وكان ينطق على الدوام بأمور خاطئة. في النهاية، عبّر عن أسفه الشديد ليس إلا، وسأله عما إذا كان هناك ما يمكن القيام به للمساعدة.

"أنت شديد اللطف، ولكن لا، نحن بخير".

"أتريد أن أصعد على متن أول طائرة وأذهب إليكم".

"شكراً لك، ولكن ذلك غير ضروري".

انحنى بن - روي جانبياً وأسند مرفقه على ذراع المقعد، ووجد نفسه يفكر بخسارته عندما قُتلت غالبا في انفجار قبل خمسة أعوام، وكيف جعل اللطف والتعاطف وكلمات العزاء الأمرَ برمته أكثر سوءاً؛ إذ زادت تلك المواساة من فظاعة المأساة التي حلّت به. وهو يعرف من الخبرة أن لا شيء - لا الكلمات، ولا البطاقات، ولا الأدعية، ولا الأزهار - يمكنه المساعدة في التخفيف من الألم في هذه الظروف. أتم بمفردهم، وعليكم الخروج من الأزمة بأنفسكم. فالحزن العميق لا يشعر به إلا من ابتلي بمأساة، بالرغم من كل ما يُقال ويتم القيام به.

"أنا هنا إذا كنت بحاجة إليّ"، قال بشكل غير مُقنع.

"شكراً لك. أنت صديق مخلص".

ولزما الصمت، ولكنه ليس الصمت المُربك الذي خبراه قبل لحظات قليلة، بل صمت شخصين يجبان رفقة أحدهما الآخر، وصداقتهما متينة لدرجة أنهما لا

يحتاجان إلى التكلّم إذا لم يكن هناك شيء محدّد بقولانه. ومرّ حاردي متقدّم في السنّ قربه، وهو يجرّ خطاه، وعكازه يصدر صوتاً عند اصطدامه بالرصيف. بعد لحظات، سُمع صوت اندفاع سريع، وتماوّج أحد الترامات الجديدة في القدس في أسفل يافا، متّجهاً نحوه، وبدا هيكله الفضّي الزجاجي الصّقيل كما لو أنه في غير محله مقارنة مع مباني منطقة ماندريت المتهالكة. قديم وجديد، ماضٍ وحاضر، غابر وحديث؛ يبدو كل شيء في القدس متداخلاً مع بعضه.

"أردت أن تسألني أمراً ما"، قال خليفة في النهاية.

"عفواً؟".

"عن قضية كنتَ تعمل عليها".

"آه! صحيح، أجل".

لقد نسي بن - روي تماماً سبب اتصاله به. فبعد ما سمعه، بدأ الأمر غير ذي صلة بالكامل، ومن غير المناسب طلب المساعدة من المصري المُثقل بالهموم. باستطاعته المرور بقنوات رسمية ومحاولة استمالة شخص ما؛ من شأن ذلك أن يُبطئ مسار الأمور قليلاً، ولكنها ليست كارثة كبيرة. لقد أقرّ بأنه كان ينبغي عليه استمالة سارة والتخفيف من حدة الأمور (شعر بالخجل لأنه لم يُدرك ذلك عندما كان مع سارة).

"انسَ الأمر"، قال.

"هيا، يا بن - روي".

"لا، صدقاً، انسَ الأمر. ليست قضية ذات أهمية. إنه مجرد عذر للاتصال بك".

"هل أنت متأكد؟".

"متأكد".

وكان هناك توقّف آخر - كان صوت اندفاع الترام يزداد ارتفاعاً في أثناء مروره على السكة في اتجاه بن - روي - قال خليفة بعد ذلك إنه ينبغي عليه المغادرة.

"لا أحب ترك زينب لمدة طويلة"، شرح.

"بالطبع، أفهم ذلك. رجاءً، بلّغها أفضل أمنيّاتي. ومرة أخرى، أنا شديد

الأسف لما حصل مع علي".

"شكراً لك، يا صديقي".

"يفترض بنا محاولة عدم إهمال الأمور طويلاً".
"تماماً".

وكان هناك تردد، وأضاف خليفة بعد ذلك:
"يسعدني سماع صوتك أيها اليهودي الوجد المتعجرف".
فابتسم بن - روي.

"وأنا كذلك، أيها المسلم الوقح".

واتفقا على البقاء على تواصل، وألقيا تحية الوداع، وشرع بن - روي
بإحفاض هاتفه استعداداً لإنهاء المكالمة، ولكنه أعاده فجأة إلى أذنه قائلاً:
"خليفة!".

منذ أربع سنوات، وعندما كان لا يزال في هاوية سحيقة من الحزن والأسى
بسبب وفاة خطيبته، أشركه المصري في التحقيق الذي تناول هانا شليغل، ونتيجةً
لذلك، استعاد بن - روي نشاطه والغاية من حياته، وبدأ يتعافى تدريجياً. كانت
الأوضاع مختلفة بالطبع، ولكنه كان يسعى إلى ردّ الصنيع بالرغم من اعتقاده بأنه
لن يتمكن من القيام بالكثير لأجله - بفقدان ابن، يا الله الرحيم! كم تجدون الهاوية
التي تسقطون فيها سحيقة؟ - ولكنه قد يتمكن على الأقل من إلقاء خليفة لفترة
وجيزة، ولم يكن باستطاعته التفكير بأي طريقة عملية أخرى لمساعدة صديقه.
"هناك أمر ما ربما يكون باستطاعتك مساعدتي فيه"، قال.
"بالطبع. أي شيء".

بارين، نمسيس، طريق سيناء، رحلة كلينبرغ إلى الإسكندرية؛ يمكن متابعة
كل تلك الصّلات في مصر بطرائق أخرى. ولكن هناك طرف خيط واحد بدأ
كما لو أنه مُعدّ خصيصاً لخليفة.

"هل سمعتَ يوماً بشخص يدعى سامويل بينسكر؟" سأل.
لم يسبق لخليفة أن سمع به.

"كان مهندس تعدين بريطانياً. اختفى من الأُقصُر في أوائل القرن العشرين،
وتم اكتشاف جثته في مدفن عام 1972".
"لقد أثير اهتمامي".

"وأنا أيضاً. يبدو أنه مرتبط بقضية قتل أعمل عليها، ولكنني لا أعرف كيفية ارتباطه بها أو سبب ذلك. لقد قلت لنفسني إنه باستطاعتك ربما، بما أنك في الأقصر...".

"باستطاعتي التحري قليلاً".

"إذا كان لديك الكثير من العمل...".

"لا، لا، يُسعدني أن أساعد. هل يمكنك أن ترسل لي بعض التفاصيل؟".
"سأرسلها لك عبر البريد الإلكتروني على الفور. حباً بالله، لا تضيق الكثير من الوقت على الأمر، فقط ما يكفي لـ...".

وضحك بن - روي، ثم لزم الصمت لبضع ثوانٍ، محدّقاً بالمدينة القديمة، وبجدرانها الضخمة المبنية بكتل حجرية تتوهج بلون برتقالي تحت ضوء المصابيح الساطعة القائمة على امتدادها. ومن ثم قال بلهفة بعد أن اعترته مودّة فجائية حيال صديقه القديم:

"ما رأيك بذلك يا خليفة؟ أنت وأنا نعمل معاً مرة أخرى. الفريق الأول من نوعه، كما في الأيام الماضية!".

كان جواب المصري أقل حماسةً.

"لن يكون أي شيء شبيهاً بالأيام الماضية يا صديقي. لقد ذهبت إلى الأبد. سأعاود الاتصال بك حالما تتوافر لدي بعض المعلومات".
وأخفى المكالمة.

القسم الثاني

بعد خمسة أيام

اهتمّ بالأُمور الصغيرة والأُمور الكبيرة تهتم بنفسها.
هذا ما علّمني إياه والدائي، وما زلت أحيًا وفقاً للقاعدة نفسها وأهتم
بالأُمور - الأُمور الصغيرة والأعمال الروتينية اليومية - واثقاً من أن القضايا
المرتبطة بعملية التطهير التي جرت في دار العبادة الكبرى ستجد حلاً لنفسها
كالعادة. فلم تُجرَ أي اتصالات هاتفية، ولم تكن هناك أي زيارات غير متوقّعة
وأي اتصالات مزعجة من قِبَل غرباء. يبدو أن الغبار يستقر ويُخفي الوقائع. في
العادة، أكره الغبار المستقرّ، ولكنه أمر مرحّب به في هذه الحالة.

كان والدائي - ولا يزالان - يؤثّران فيّ إلى حد كبير؛ كل منهما بطريقته
الخاصة، سواء أكان ذلك لجهة الصلاح أو السوء. وأسمع صوتيهما في غالب
الأحيان، وأشتم رائحتيهما أيضاً. لقد امتلكتُ على الدوام حسّاً حادّاً للرائحة،
وتعيش الرائحة المميّزة العائدة للأكبر سنّاً منّي في ذاكرتي. لهذا السبب، بقيتُ مع
المرأة البدينة تحت الطاولة لمدة وجيزة في دار العبادة الكبرى بعد أن جرّرتها إلى
هناك؛ خلافاً لما أقوم به فعلاً. لقد أطفأتُ مصباح الجيب وجلستُ قريباً في الظلام،
ممسكاً بيدها، وضاعطاً وجهي على وجهها، ومنتشّقاً عبير اللوز على شعرها. بدا
الأمر كما لو أن والدتي قد عادت إليّ، ووجدتُ ذلك مطمئناً. وبالرغم من تحمّلي
مسؤولية العائلة بمفردي منذ زمن طويل، فأنا لا أزال بحاجة إلى الطمأنينة من حين
لآخر، ومعرفة أنني أبذل قصارى جهدي لخدمتها.

أنا بحاجة إلى ذلك الآن أكثر من أي وقت مضى، لا سيّما وأنه يتعيّن عليّ
اتخاذ القرار؛ القرار الكبير، فهو أكبر من ذلك الذي اتخذته في دار العبادة الكبرى
عندما أدّيت عملية التطهير قبل الوقت المحدّد وفقاً للخطة الموسوعة. إنه قرار
يتوقف عليه مستقبل العائلة برمّته.

أُنجز الأمر على النحو الصحيح يكن المستقبل مضموناً. أُنجزه على نحو خاطئ...

لقد سبق لي أن اتخذت القرار إلى حد ما بالطبع، ولكنني لا أزال أجد نفسي مضطرباً حيال تنفيذه، ومتسائلاً عما كان والدائي سيقومان به لو وجدا نفسيهما في وضع مماثل لوضعي. لقد وضعنا شؤون العائلة فوق كل الأمور الأخرى؛ على غراري، ولكن على أن يتم العمل ضمن الحدود المسموح بها: هذا أمر لم يُسمع به من قبل. هذه هي مُعضلات الواجب، ولا يتعلق الأمر بالطاعة فحسب، بل باتخاذ قرار حيال الشخص الذي ينبغي إطاعته، ولأي سبب.

لم يُحضّرني التقليد لمواجهة هذه التحديات، ولا وجود لسابقة نحدد فيها العزاء. لقد خاطبت أسلافي، ولكنهم لم يُحييوا. أنا بمفردي، وأعرف ما الذي يجب القيام به لخير السلالة، ولكنني لا أزال مضطرباً.

غير أنني ثابت على موقف في ما يتعلق بأمر واحد: إذا قمتُ بخطوتي - عندما أقوم بها - فلن أستخدم المِحَنَّة المعدنية. في هذه الحالة، يتطلب الأمر حذراً أكبر من المعتاد.

ولكن، عليّ المُضَيّ قُدماً الآن. يجب عليّ المُضَيّ قُدماً. هناك أمور يتعيّن عليّ الاهتمام بها، أمور روتينية، أمور صغيرة. والأمور الكبيرة قُتِمَ بنفسها.

إسرائيل، صحراء النقب

كان العداء يتنقل بسرعة، مجتازاً الصحراء المضاءة بنور القمر برشاقة فهد. وكان يتوقف من حين لآخر، ويُنعم النظر بالمنحدرات الصخرية مُصغياً. ومن ثم، يواصل السير في اتجاه التلة شديدة الانحدار ذات القمة المسطحة التي تُشرف على المنظر الطبيعي. وصل إلى أسفل التلة، وتوقف مجدداً - ولكن لمدة أطول هذه المرة - ملتقطاً أنفاسه. ومن ثم تسلّق بسرعة إلى القمة، وصوت هسيس حذائه الرياضي على الحصى الذي يكاد لا يكون مسموعاً هو الدلالة الوحيدة على تقدّمه. في الأعلى، أخرج مسدس غلوك 17 من حقيبة ظهره، وواصل السير إلى الطرف البعيد للقمة، شاهراً المسدس، وعيناه تلتفتان يميناً ويساراً.

هناك، كانت الأرض تنحدر بشكل مفاجئ وصولاً إلى الطريق 40 في الأسفل. كان هدفه هو الجلوس في الأعلى، ومراقبتها وهي تميل رأسها إلى الورا، وعيناها مُغمضتان، وعلى أذنيها سماعتا آي بود رأسيّتان.

حدّق الرجل بها، وكان أعلى رأسها على بُعد سنتمترات قليلة فقط من طرفي حذائه، ولم يكن صدى الموسيقى الضعيف يُسمَع إلا من خلال السماعتين الرأسيّتين. بعد ذلك، أطلق ابتسامة عريضة، وانحنى والتقط حفنة من الحصى بيده الثانية. وصوّب الغلوك نحوها وبسط ذراعه مستعداً للشروع بدرجة الحصى على شعرها.

تحرّكت المرأة بسرعة، لدرجة أن دماغه لم يكن يملك الوقت ليسجّل أنها تتحرك. كانت منذ لحظة جالسة هناك تحته، وفي اللحظة التالية انتصبت على قدميها ودارت في أثناء سحبها السماعتين الرأسيّتين عن أذنيها. لقد حاول الزحف إلى الورا كي لا تراه، ولكنها كانت قد قبضت على معصمه بإحكام كالملزمة، وأمسكت بيدها الثانية حذاء الرياضة وجذبت به بقوة إلى الأمام لتوقعه عن حافة القمة. بدا للحظة وجيزة سوربالية كما لو أنه يهوي في الهواء كبهلوان سيرك قبل أن يسقط على ظهره بقوة كانت كافية لجعله يتلوّى، ولكن من دون التسبب له بأي أذى حقيقي. فثبّتت بقدمها معصمه الأيمن، وظهر مسدس غلوك آخر من العدم وسُدّد على بُعد بوصة واحدة من قصبة أنفه. ومن السماعتين الرأسيّتين المتدليّتين كانت تصدر الخفقة المكتومة لموسيقى بينك فلويد: تنفّس.

"هل تريد شيئاً؟"

مرت ثوانٍ قليلة قبل أن يتمكن من القيام بما يطلبه منه المعني. وعندما تمكّن من إدخال كمية كافية من الهواء إلى رئتيه ليتمكن من الكلام، صدر صوته مخنوقاً وأجشّ.

"ظننتُ أنني قد أتمكن منك هذه المرة".

"لم تتمكن".

"هذا ما لاحظته".

وبقي مستلقياً للحظات، محدّقاً بوجهها الشاحب والانفعالي، وبالابتسامة الخفيفة التي ارتسمت على شفّتيها. ثم رفع يده الثانية، ومرّرها على خدّها وحول

مؤخّر عنقها. فسمحت له بالقيام بذلك لبضع ثوانٍ قبل أن تحرّر يده بلطف وتراجع.

"ألا تستسلم أبداً يا غيدي؟"

"ألا تعترفين بالهزيمة أبداً يا ديناً؟"

"ليس الليلة، أيها العاشق".

فسخر من هذا الكلام.

"يا الله! كم أنت مثيرة! لقد تكبّدتُ عناء القدوم من حيفا إلى هنا لأجلك".

تأففت بسأم. فمنذ تعرّفها إليه قبل أربع سنوات، يدأب جدعون على اختبار قدرتها على التحمّل، ويحاول الإيقاع بها كلما قدمت إلى هنا. لم يكن يقصد إلحاق الأذى بها، وهي لم تتعرض لأي أذى. فغيدي رجل صالح، لا بل إنه الأفضل. ولكن الرجال الصالحين لا يستهوونها.

أوقفت جهاز الآي بود عن العمل، وأعادته إلى حقيبة الظهر الموضوعة على الرف الصخري، وتلاه الغلوك بعد ذلك. رفع غيدي نفسه وجلس فاركاً معصمه.

"كيف عرفت أنني هنا؟"

"شممتُ عطر الحلاقة الخاص بك".

فهمهم.

"لقد هزمتني بسبب حاسة الشم القوية لديك".

وضعت حقيبة الظهر على كتفها ومدّت له يدها، فأمسك بها وجذبته بقوة، حاملةً إياه على الركوع.

"هل تريد التسابق في طريق العودة؟"

"أعتقد أنني سأجلس هنا قليلاً، وأدخّن بعض الأفيون، وأراقب النجوم، وأعالج مسألة رفضك لي. إنها ليلة جميلة".

كان لا يزال ممسكاً بيدها.

"ابقي معي يا ديناً. اجلسي معي فحسب كما لو أننا في دار العبادة الكبرى... على الأقل، اسمحي لي بأن أؤخّر مغادرتك قليلاً".

فوقفت أمامه وجهاً لوجه من دون القيام بأي شيء للتخلص من قبضة يده. لقد بدا الأمر كما لو أن ضوء القمر يزيد عظمتي خديها النحيفتين، وعينيها

الكبيرتين الحزینتین جمالاً. ومرت ثوانٍ قليلة. ومن ثم، ضغطت على يده، وانحنت إلى الأمام وقبلته على خده.
"أراك في المجمع".

وغادرت قافرةً على الدراجات الصخرية في اتجاه الطريق العام في الأسفل.
"من هنا إلى حيفا!". صرخ قائلاً.
"ضع صرةً تلج عليه!" أجابت.

عندما وصلت إلى الأرض المنبسطة، تجنبت التلة واختارت الدرب الذي يمر على مقربة من الطريق 40 في اتجاه الصحراء. لم تكن تسمع سوى صوت وقع قدميها، والواء الكتيب لأحد الضباع بعيداً. تمتد الدرب بشكل مستقيم مسافة بضع مئات من الأمتار، وتقوم على جانبيها جلاميد، وصبار متهدل من حين لآخر، ومن ثم تتجه نزولاً عبر فلق ضيق، مروراً بمنعطف حاد إلى اليمين. ارتسمت أمامها على بُعد أكثر من كيلومترين مجموعة من المباني البراقة تحت ضوء القمر: سطوح مقببة، جدران مطلية باللون الأبيض كما لو أنها مكعبات سكر مبعثرة، فحّت الحطى.

إنهم يقيمون هنا منذ ثلاث سنوات. ففي الأيام الأولى، عمل الأربعة انطلاقاً من شقتها في تل - أبيب. كانوا عرضة لأنظار عدد كبير من الناس، وكان احتمال لفت انتباه غير مرغوب فيه بسبب مغادرتهم وعودتهم يصبح أكثر وضوحاً؛ ولا سيما عندما أصبحت مهامهم أكثر جرأة، وتضافرت الجهود للإمساك بهم. كانوا قد هاموا على وجههم في فيلا فسيحة الأرجاء في ضواحي بئر سبع، ومن ثم انتقلوا إلى هنا رغبةً منهم بمزيد من الخصوصية.

بالعودة إلى الستينيات، كان المكان موشافاً مزدهراً (مزرعة) وإن كان بعيداً. لقد هُجر منذ زمن بعيد، واستولت العقارب وحيوانات السمندل على مبانيه، وضاعت قطع الأرض المخصصة لزراعة الخضار تحت غطاء من الغبار والأعشاب الضارة. لقد اختاروا هذا العقار، وجعلوه في حالة مناسبة، ونصبوا ألواحاً لتوليد الكهرباء من الطاقة الشمسية، وتزوّدوا بنظام الاتصالات الهاتفية عبر الأقمار الاصطناعية وعبر الإنترنت. ولكنهم لن يمكنوا هنا إلى الأبد. فالقاعدة الأولى في هذا العمل: لا تثبتوا أقدامكم أبداً، وكونوا على الدوام مستعدين للانتقال في أي لحظة. ولكن المكان ملائم تماماً لمتطلباتهم في الوقت الحاضر.

لقد سدّدت كل النفقات كما تسدد نفقات كل شيء. لم تُطلعهم على كيفية قيامها بذلك، لأنهم لم يسألوها. القاعدة الثانية: ممنوع طرح الأسئلة غير الضرورية. كان الأربعة مقرّبين من بعضهم كما لو أنهم عائلة، ولكن هناك نواحي من حياتها كانت بحاجة إلى الاحتفاظ بها لنفسها؛ حتى إنهم لم يكونوا يعرفون اسمها الحقيقي، وستستمر الأمور على هذا النحو. فالماضي قد مضى.

وصلت إلى المجمع بعد أقل من ثماني دقائق، قاطعة المسافة الأخيرة - أربع مئة متر - ركضاً. كانت غرفة تamar مظلمة؛ لا بد من أن تكون قد أوت إلى الفراش باكراً. وفاز في غرفة التكنولوجيا كما هو حاله على الدوام - يمكن التكهّن بذلك بسبب الوميض الرمادي المخيف المنبثق من نافذته - فقد كان يبدو منحنيّاً أمام إحدى الشاشات وسابراً أغوار المناطق السفلية للفضاء السيائيري. فاز هو الشخص السيي بين مجموعة من الأخيار؛ فهو عربي - إسرائيلي بالتأكيد، ولكنه انطوائي. إنه عبقر في التكنولوجيا وأحد أفضل المتسلّين إلى ملفات الكمبيوتر في هذا المجال، لذلك لا عجب إذا كان كلامه قليلاً - فالكل يخدم بطريقته الخاصة - وباستطاعته التسلل إلى ملفات الكمبيوتر، وزرع فيروس، واستخدام السلاح. هذا كل ما يهم. وفي نهاية النهار، لا يكون أحد في مزاج جيد لتبادل أطراف الحديث. أسندت ظهرها إلى الجدار بجانب إحدى سيارات الدّفع الرّباعي ومدّدت رِبتَي ساقَيْها، مُدخلة الهواء إلى رِئتَيْها، ثم توجهت إلى غرفة التكنولوجيا، ودست رأسها داخلها. كان فاز جالساً وظهره للباب، وعيناه مسمرتان على الشاشة، وحول رأسه هالة من دخان السجائر.

"هل هناك أي جديد؟".

فمدّ ذراعه ووجّه إبهامه نحو الأرض، محرّكاً إيّاه صعوداً ونزولاً كإمبراطور روماني يومئٍ لإنهاء حياة أحد المصارعين. لم يتبدل الأمر في الأيام الستة الأخيرة منذ انتشار نبأ الجريمة وتسللهم إلى الملفات الكمبيوترية التابعة لشرطة إسرائيل بهدف مراقبة مجريات التحقيق. فأيّما يكن ما يقومون به، لم يكن رجال التحري مملابسهم الزرقاء يقتربون من الإمساك بالقاتل.

"بارين؟".

ووجّه الإبهام نحو الأرض مرة أخرى.

"هل أنت متأكد؟".

"أجل".

هذا كل ما كان بالإمكان الحصول عليه من فاز. طلبت منه متابعة المسألة، ثم خرجت وعبرت الباحة إلى غرفتها الخاصة، حيث تعرّت ودخلت الحمام للاستحمام. وبعد أن أغلقت الستائر، فتحت صنوبري المياه ووقفت تحت الدش مباشرةً، غير منتظرة أن يسخن الماء قليلاً، ومُرّجةً رأسها إلى الوراء، وساحةً للمياه المتدفقة بالانسكاب على وجهها ونهديها. وبعد مرور دقيقة، شعرت بتوتر فجائي، واستدارت بينما كانت صورة شخص ما تلوح وراء الستائر غير الشفافة. وبشكل فطري، أطبقت قبضتي يديها استعداداً لمواجهته، ولكنها أفلعت عن ذلك عندما سمعت صوت تamar. "هذه أنا. كان الباب غير مُقفل".

فمدت يدها وفتحت الستارة من دون القيام بأي شيء لإخفاء جسدها العاري. كانت تamar واقفة في الجهة الأخرى: رشيقة، داكنة البشرة، ذات شعر قصير، بي - شيرت بيضاء فضفاضة تنسدل حتى ركبتيها. "هل أنت بخير؟". سألت تamar بلطف.

فأومأت دينا برأسها.

"أنا قلقة عليك".

"أنا بخير".

"حقاً؟".

"حقاً".

وقفنا وهما تنظران إلى بعضهما، واستمرت المياه بالتساقط كشلال على رأسها وظهرها، وبالتطايير كرهاذ على أرضية الحمام المبلّطة. ومن ثم، وقفت جانباً مبتسمة. ومدّت تamar يديها ورفعت التي - شيرت فوق رأسها، ثم انضمت إلى دينا تحت الدش.

"سنوقع بهم، يا دينا. أعدك، سنوقع بهم".

ولم تقل دينا شيئاً، بل أغلقت الستارة بيد ومّست شعر رفيقتها باليد الأخرى. لم تعتمد أيّ منهما إلى تفادي الكاميرا المثبتة في فتحة التهوية فوق الدش، وما كانتا لتقوموا بذلك حتى لو كانتا تنظران إليها مباشرةً؛ فهي مخبّأة جيداً، على غرار

كل الكاميرات الأخرى وما كانتا لتلاحظاها. وكان المراقب يراقب من دون أن تُدركا ذلك.

مصر - بين الأقصر وقنا

أخرج يوسف خليفة سيجارة كليوباترا وحدّق خارج النافذة في أثناء توجّهه القطار ببطء في اتجاه الشمال، ماراً بقرى مبنية بأجر طيني، وبحقول ذرة صفراء وقصب سُكّر، وبكشكش جزّار تتدلّى منه الذبائح ورؤوس الأغنام المقطوعة. وفي مرحلة من المراحل، توقف القطار مهتزّاً، ووجد خليفة نفسه يحدّق بمجموعة من الفتيان يلعبون على طوف مرتجل وسط قناة للرّي. فتسمّر في مكانه، مقاوماً رغبته في إخراج رأسه من النافذة والصراخ في وجوههم للابتعاد عن الماء. كان جهاداً مريراً - كل ما يذكره بابه كان جهاداً مريراً - وتنفس الصعداء عندما انطلق القطار وأصبح المشهد وراءه. أخذ نفساً أخيراً من سيجارته، ثم رمى عَقَب السيجارة تحت قدمه مع حرصه على عدم إزعاج الرجل المُسنّ الذي كان يؤدي صلاة الظهر على أرضية الحافلة أمامه.

لم تحدث أي تطورات في مزرعة عطية، وكان لا يزال ينتظر نتائج تحليل المياه التي سيجملها له صديقه عمر، ولكنه أصبح مقتنعاً أكثر فأكثر بأن الرئيس الحسني مُحِقٌّ، وأن المسألة برمتها لا تستحق العناء. كان قد أجرى بعض التحقيقات حول فقدان كتل تالئات الحجرية من الكرنك، وتابع روايات تتناول عصاة تتاجر بالمنشطات تعمل في سوق الأقصر، وتبيّن له أنها مجرد روايات. عدا عن ذلك، لم تكن لديه أي مهام أخرى، وباستحواذ افتتاح المتحف في وادي الملوك على عقول الرئيس وبقية أفراد المركز، وجد الفرصة مُتاحة له للقيام ببعض الاستقصاءات لصالح بن - روي من دون أن يلفت انتباه أحد.

وثبت في النهاية أن ذلك الاستقصاء مثير للاهتمام على نحو غير متوقّع. كان الإسرائيلي قد أرسل له المعلومات الأولية الأساسية عن القضية، بما في ذلك صلة محتملة بشركة تدعى بارين كوربوريشن؛ وهي الشركة نفسها المسؤولة عن إنشاء المتحف الجديد في وادي الملوك؛ إنما مصادفة مثيرة للفضول.

وسامويل بينسكر اسم جديد بالنسبة إليه. كان بن - روي قد أجرى بحثاً على الإنترنت، وتبين له أن بينسكر بريطاني انخرط في عمل آثاري في نكروبوليس الطيبة، وفقد عام 1931، وكان مُصاباً بنوع من أنواع التشويه الوجهي المُزمن. حتى إن الاكتشاف المسرحي لجثته عام 1972 في قعر مدفن ناء في الجبال الغربية لم يلقَ سوى اهتمام عابر، وتم التركيز على الافتراض المُربع بأنه عانى من موت بطيء وموحش. لقد عاش في مصر وعمل فيها، ولقي حتفه في التلال القائمة فوق وادي الملوك. لم يتمكن خليفة من إيجاد أي رابط واضح بينه وبين القضية التي قام بن - روي بإرسال تفاصيل له عنها.

وثبت أن سجلات الشرطة المصرية توفر المزيد من المعلومات؛ وهي أكثر إثارة للفضول.

كان توافر السجلات بمثابة مفاجأة بالنسبة إليه. فقد حدث كل ذلك منذ زمن بعيد - مرّت مدة طويلة جداً على قضية اختفاء بينسكر - ولم يكن خليفة يتوقع توافر مدونات عن القضية يُحتمل أن تكون قد فُقدت أو أُتلفت. لحسن الحظ، لم يكن هاجس الشرطة المصرية مقتصرًا على الأعمال الكتابية فحسب، بل على الاحتفاظ بها أيضاً - في العادة، كان ذلك أمراً مزعجاً تماماً بالنسبة إلى خليفة - ولكنه لصالحه في هذه الحالة. لقد تطلّبه الأمر مدة من الزمن لاقتفاء أثر ما يحتاج إليه، وانتهى الأمر بحصوله على معلومات هامة قبل يومين. فقد عثر على مجموعتين من المدونات - إحداها مرتبطة بالعثور على جثة بينسكر، والأخرى مرتبطة باختفائه - والاثنتان مضمومتان بسلك، وموضوعتان على رف في منشأة حكومية للتخزين في إسنا. تحرك خليفة بحذر كي لا يُزعج الرجل الذي يصلّي، ورفع الكيس الموجود عند قدميه وأخرج ملفّين.

فالملف العائد للعام 1972 هو الأكبر بين الملفّين، ويتكوّن من رزمة من الصور الفوتوغرافية بالأبيض والأسود: عن المدفن - ثقب عميق أسطواني الشكل ينتهي بغرفة بسيطة للدفن محفورة في الصخر - وعن جثة بينسكر المحنّطة، وعن الجثة لدى وصولها إلى المشرحة. وهناك تقريرٌ أخصائي في علم الأمراض، وتقريّر تحرّر، وإفاداتٌ ثنائيّة اكتشفا الجثة، لا بل أيضاً هناك تقرير الطبيب جوفري ريفز، وهو خبير في هندسة المدافن الطيبة، يحلل فيه قياسات المدفن ونفقته غير المسقوفة،

مستنتجاً أن تاريخه يعود لعصر المملكة الحديثة وبالتحديد للعائلة الثامنة عشرة الحاكمة. وفي أسفل كومة الورق رسالة من السيدة يهودية أصلا من اللجنة اليهودية للأعمال الخيرية في مصر. وفي الرسالة موافقة على تحمّل مسؤولية جثة بينسكر، بسبب عدم وجود أنسباء أحياء، ودفنها في مقبرة البساتين في القاهرة. "ولكن، لسوء الحظ، وبسبب معوقات مالية، لن تتمكن من توفير شاهدة لقيده".

كان الملف العائد للعام 1931 أقل كثافة؛ كان قطعة تاريخية حقيقية، إذ اصفرّت محتوياته البالغ عمرها 80 عاماً مع مرور الزمن. وبالرغم من ذلك، لفت انتباه خليفة على الفور.

وهناك إفادات عدد من الأشخاص الذين عرفوا بينسكر وعملوا معه، والإفادة الأطول والأكثر تفصيلاً تعود لامرأة تدعى أم سعيد غومصان، وهي مالكة الغرفة التي استأجرها بينسكر في كوم لولاح.

ليلة اختفائه، كان الإنكليزي قد عاد للتوّ من الأقصر بعد غياب دام ثلاثة أشهر تقريباً - غالباً ما كان يقوم بذلك - شرحت السيدة، إذ يختفي طوال أسابيع متتالية قبل أن يظهر مجدداً بشكل مفاجئ. لذلك، كانت تُصرّ على الدوام على قبض الإيجار مُسبقاً. لقد سمعت صوت دراجته النارية وهي تتوقف في الرقاق في الناحية الخلفية للمنزل في وقت ما من الساعات المبكرة. غير أنه لم يدخل المبنى، ولم يظهر له أثر في صباح اليوم التالي، علماً أن دراجته النارية بقيت هناك، والسلة الخلفية المثبتة إليها قد تم فك رباطها جزئياً. وبسبب تعوّدها على مجيئه وذهابه غير المنتظمين، لم تُعر الأمر اهتماماً. وفي هذا الصباح، ولأسباب لم تتمكن من شرحها، انتابها شعور مُسبق بوقوع مأساة. لقد تحدّثت إلى شقيقها الذي اتصل بالشرطة بدّوره. نهاية الإفادة.

كانت الشهادات الأخرى أكثر إيجازاً وتحتوي على معلومات أقل، علماً أن رجلاً ما - يدعى محمد البدري من الشيخ عبد القُرنه - ادّعى أنه رأى بينسكر يسير بين التلال محتسباً الشراب من قنينة، وهو يبدو ثملاً. وهناك صورة فوتوغرافية لدراجة الإنكليزي النارية، ونسخة مُلصق إعلاني يطلب من كل من يملك معلومات عنه الاتصال بالشرطة أو بعمدة القرية، كما توجد برقية من المفوض البريطاني الأعلى السير بيرسي لورين يحث فيها سلطات الأقصر على بذل قصارى جهدهم لتحديد مكان السيد بينسكر.

كل محتويات الملفين مثيرة للاهتمام تماماً. ولكن المستند الذي زاد من سرعة نبض خليفة إلى حد كبير كان محبباً في جيب في الناحية الخلفية للملف، فقد كان عبارة عن رسالة بخط اليد من صفحتين وجهها أحد زملاء بينسكر في علم الآثار، مُرفقة بوصف موجز للرجل المفقود - صورة بسيطة لشخص يرتدي معطفًا جلدياً، ووجهه محبباً وراء قناع من نوع ما - وموقعة باسم بدا مألوفاً جداً لخليفة، بخلاف بينسكر الذي لم يبدُ مألوفاً له: هوارد كارتر.

بعد فتح الملف، التقط الرسالة وقرأها للمرة العاشرة، مبعداً رجله بشكل جانبي في أثناء قيام الراكب المُسنّ بإهاء صلاته والعودة إلى مقعده بجانبه.

لوة الديان

الأقصر - 14 أيلول/سبتمبر 1931

عزيزي النقيب سليمان،

رداً على استعلاماتك المتعلقة بالسيد سامويل بينسكر، قد تُقدّم التذكيرات التالية بعض المساعدة.

قبل الساعة العاشرة بقليل، أيقظني صوت دراجة نارية مقتربة من ناحية ذراع أبو النجا. وبعد قليل، كان هناك قرع على بابي الأمامي مُرفق بصوت السيد بينسكر. لقد بدا ثملاً جداً، وكان يصرخ على نحو غير مترابط، منادياً بما معناه "لقد عثرتُ عليها، يا كارتر"، و"يلغ طولها أميالاً". واستمر الإزعاج لدقائق عدة، ومن ثم طلبتُ منه المغادرة والرحيل. لم نتواصل وجهاً لوجه.

لقد عرفتُ السيد بينسكر طوال ثلاثة أعوام. وفي العام الأخير، عملتُ لفترة مع السيد كالدندر على إعادة تدعيم مدخل مدفن توت عنخ آمون. أعتقد أنه قدّم النصح للسيد وينلوك أيضاً في دير البحري، وللسيد شوفريه في الكرنك.

بالرغم من أنني لم أستسغ عملية إيقاظي بتلك الطريقة، إلا أنني كنت على ثقة تامة بأنه سيتم العثور عليه بصحة جيدة.

أنا على أتم الاستعداد لتقديم أي مساعدة إضافية...

بإخلاص،

هوارد كارتر.

"التذكرة".

من دون أن يرفع نظره، سحب خليفة شارة الشرطة وشهرها. فنظر إليها مفتش التذاكر، ثم غادر مُهمَّماً، وتاركاً خليفة يحدّق بالمستند وغافلاً عن النظرات المحدّقة المرتابة للركاب المحيطين به.

فرسالة كارتر أصلية، ولا تصادفون مثلها كل يوم، لا سيّما وأنّها مُرفّقة بعرض موجز مكتوب بيد عالم الآثار العظيم. والإشارة إلى منقّبين معاصرين آخرين جعلت الأمر مثيراً للاهتمام بشكل مضاعف إذ قدّمت لمحة خاطفة عن العصر الذهبي لأعمال الاستكشاف المصرية. وعندما أبلغ خليفة القيم على منزل كارتر في الضفة الغربية بما وجدته، ألقي الرجل الهاتف من يده، وكان متلهّفاً لوضع يديه عليه.

وما أثار فضول خليفة حقاً أكثر من المعنى التاريخي للرسالة هو الكلمات التي قالها بينسكير في أثناء زيارته مسكن كارتر ليلة اختفائه. لقد عثرتُ عليها يا كارتر. يبلغ طولها أميالاً. ما معنى ذلك؟ ما هو هذا الشيء الذي يبلغ طوله أميالاً؟

والفكرة المباشرة التي تبادرت إلى ذهنه هي أن بينسكير ربما كان يشير إلى المدفن الذي لقي فيه حتفه؛ فالعثور على مدفن غير معروف يعود للعائلة الثامنة عشرة الحاكمة مصدر إثارة بالتأكيد. ربما عثر بينسكير على المدفن، وتوجّه إلى منزل كارتر للتفاخر باكتشافه، ومن ثم عاد إلى التلال وسقط في الحفرة لأنه كان ثملاً. ولكن الإنكليزي قال: "يبلغ طولها أميالاً"، ولا يتطابق هذا الوصف بالتأكيد مع مدفن متواضع مكوّن من غرفة واحدة وفقاً للصور الفوتوغرافية العائدة للشرطة. هل كان ثملاً بشكل مُفرط؟ ربما، ولكن كلامه يبدو غلوّاً غير ملائم. كان خليفة قد ناقش المسألة مع القيم على منزل كارتر، ولكن الرجل لم يتمكن من مساعدته. إذ لم يسبق له أن سمع بسامويل بينسكير. ولكن صديقه القديم وناصحه الأمين البروفيسور "محمد" الحبيبي الذي يعمل في متحف القاهرة سمع به من دون أن يتمكن من إلقاء المزيد من الضوء على اللغز. وكارتر نفسه توفي عام 1939، لذلك لن يتمكن من تقديم أي تفسير.

لقد عثرت عليها يا كارتر. يبلغ طولها أميالاً.

هل ما عثر عليه هو الصِّلَة في قضية بن - روي؟ وهل هذا هو سبب اهتمام الصحافية المتوفاة بسامويل بينسكرك؟ أم إنَّ هذا مجرد أوهام على غرار سيناريو تسميم بئر القبطي؟ لم يكن يملك أي فكرة. هناك أشخاص آخرون يحتاج إلى التحدث إليهم، ومنهم ماري دوفريس. فهي تعرف كل ما يجب معرفته عن تلك الفترة.

ولكن، يتعيّن على ذلك الانتظار. في الوقت الحاضر، هناك أمور أخرى في ذهنه. وبعد قراءته الرسالة للمرة الأخيرة، أعادها بحرص إلى جيبه، وأغلق ملف العام 1931 وربطه، وفتح ملف العام 1972.

لقد لفتت الرسالة التي تتناول مقبرة البساتين انتباهه. فإذا كان بينسكرك يهودياً، فإن ذلك يشير على الأقل إلى رابط مُبهم مع إسرائيل. ولكنه لم يكن منزعجاً من هذا الأمر. أخرج رزمة الصور الفوتوغرافية وقلبها حتى وصل إلى تلك الموجودة في الأسفل، والتي تحمل صورة المدفن. إنه مدفن مستطيل من حجارة ذات لون مائل إلى الرمادي، وهو مطمور جزئياً تحت مجموعة متشابكة من الأغصان والعساليج.

أغصان وعساليج. لا معنى لوجود الأغصان والعساليج.

لهذا السبب، كان في طريقه إلى قنا. فإذا كان كل المعنّين العائدين للعام 1931 متوفّين ومدفونين، فإن بعض أولئك العائدين للعام 1972 ربما لا يزالون على قيد الحياة، بمن فيهم إبراهيم صادق، الرئيس الأسبق لشرطة الأقصر، والرجل الذي ترأس التحقيق المرتبط بالعثور على جثة سامويل بينسكرك المحنّطة. ربما كان باستطاعة صادق إعطاؤه بعض الإجابات.

وحدّق بالصورة، ثم أعادها إلى الملف في أثناء مرور القطار بجانب مصنع الورق الكبير في قنا الذي يتصاعد منه الدخان. كان بائع غازاب زوكر يشق طريقه في المقطورة عبر حشد الركاب، رافعاً صينية كُدّست عليها مخروطات مليئة بسُكّر غير مكرّر، منادياً كما جرت العادة. فلوّح له رجل يرتدي بذلة، والتقط أحد المخروطات، وقدمه لفتى جالس بجانبه؛ إنه ابنه كما حَمَن خليفة من الطريقة السيّ وضع بها الرجل ذراعه حول كتفَي الفتى وجذبه نحوه. فاستكنّ الفتى وقد شعر بعاطفة والده، وقضم المخروط ورفعته في اتجاه الرجل ليتناول قضمة، وكان الاثنان

غير مُدرَكين أهمية هذه اللحظات الرائعة والعبارة. راقبهما خليفة للحظات، ثم مسح عينيه وأشاح بنظره عنهما. كان كل تذكير بمثابة صراع بالنسبة إليه.

إسرائيل - بين القدس وتل - أبيب

كان بن - روي يتحرك أيضاً، ولكن بواسطة السيارة، وفي اتجاه الغرب مجدداً على الطريق 1، وعبر تلال اليهودية نحو السهل الساحلي والبحر. كانت خمسة أيام محبطة.

والقول إن التحقيق قد توقّف أمر يحمل سلبية وتشاؤماً، ولكنه لم يكن يجري بسرعة أيضاً بل يتقدم رويداً رويداً. وبعد تشبُّث الصحافة بالقصة، تخطّى الضغط الذي تمارسه للتوصل إلى إدانة كلّ المقياس. كانت قلّة التداول الأساسية حول الجريمة قد تحوّلت إلى إرجاء للتداول بها؛ في ما يشبه الهدوء الذي يسبق العاصفة. وكانت ليه شاليف تُستدعى مرتين في اليوم لبحث آخر التطورات مع الرئيس غال والضابط المسؤول عن القضية بوم. ولم يكن الأمر مريحاً بالنسبة إليها بسبب قلّة المستجدات. وقبل يومين، كان بوم قد ذهب بعيداً جداً في ممارسته الضغوط عليها، فأوحى بأنها ليست على مستوى هذه القضية المصحوبة بدعاية كبيرة، وأنه ربما يفترض به متابعتها بنفسه. وحفاظاً على صدقيته، اتخذ غال جانب المحقّق المسؤول، علماً أن دعمه ترافق مع بعض التعديلات: "أحتاج إلى تحقيق تقدّم ما في هذه القضية يا ليه، وأنا بحاجة إليه قريباً. لديك أسبوع. إذا لم تقترب ولو قليلاً من تحقيق شيء ما حتى ذلك الوقت، فسيتعيّن علينا مراجعة الوضع".

وساعد كل ذلك على ظهور جوّ مشاكس يفوق ذاك الجوّ الذي ساد المدينة القديمة في أثناء قضية القتل الثانية؛ قضية طعن طالب اليشيفا. ففي السنوات التسع التي قضاها في المركز، لم يرَ بن - روي مطلقاً مستوى التوتر الذي يشهده الكيشيل حالياً. فالمكان أشبه بمِرْجل على وشك الانفجار. بصدق، كان سعيداً بالابتعاد عن هذا الجوّ لبقية اليوم.

أطلق بوق السيارة، وانحرف إلى وسط الطريق لتجاوز ناقلة آليات تابعة للجيش الإسرائيلي متوجهة إلى الساحل، وعلى متنها دبابتا ميركافا. وبعد أن تجاوزها، عاد إلى المسرب الأوسط، وأجرى اتصالاً سريعاً بسارة - لقد شعرت بتوَعك صحي في الليل، وأراد التأكد من أنها بخير - وتناول رشفة من القهوة الفاترة التي كان قد اشتراها من إحدى محطات باز قبل أميال قليلة. على محطة كول ها - ديريتك الإذاعية، حلّت مكانَ بالب مغنية أميركية تدعى سوزان تِسشي ضمن برنامج بعنوان نبحث عن إجابات. حتى الراديو اللعين يتناول قضيتّه.

كانوا لا يزالون يحققون على ثلاثة مسارات: يوري بينكاس يتابع عمله في المنحى الروسي والعبري، واتّسعت اهتماماته لتشمل كل التهديدات الأخرى بالموت التي تلقّتها كلينبرغ على مرّ السنين بسبب كونها صحافية. وآموس نامير يواصل كدّه على الجانب الأميركي للأمر، إضافةً إلى مسألة الفتاة فوسغي المرتبطة كما يبدو بالمنحى الأميركي. لم يكن أيّ منهما يُحرز تقدّماً سريعاً، ولم يكن أيّ منهما يحظى بفترة راحة.

من جهته، كان بن - روي لا يزال يتابع مجموعة أطراف الخيوط المتشابكة وأطراف الخيوط المعاكسة التي تمّ العثور عليها في كتابات كلينبرغ الصحافية: الاتّجار بالمخدرات، مصر، بارين، نيمسيس أجندا؛ كل هذه الأمور لا تزال قيد التدقيق، ولكنه لم يتمكن بعد من معرفة سبب وجودها على الطاولة في شقة كلينبرغ، ومدى ارتباطها ببعضها.

لأكون مُنصفاً، لقد حدث تقدّم ما - فكر بن - روي - فدوف زيسكي الذي يصبح أساسياً أكثر فأكثر مع مرور كل يوم، قدّم معلومتين صغيرتين قيمتين ومثيرتين للاهتمام.

تتعلّق المعلومة الأولى بالرحلة التي خططت ريفكا كلينبرغ للقيام بها إلى مصر. فهي لم تحجز لنفسها مقعداً على متن الرحلة المتوجهة إلى الإسكندرية ليلة مقتلها فحسب، بل تبيّن أيضاً أن لديها حجراً في فندق في روزيتا، وهي بلدة صغيرة على بُعد ستين كيلومتراً من ساحل الإسكندرية. ويبقى ما كانت تعزم القيام به هناك لغزاً. ولكن، أيّاً يكن الأمر، من الواضح أنها لم تكن تتوقع أن يدوم طويلاً. فالحجز لليلة واحدة فقط، ومن ثم ستعود على متن رحلة جوية متوجهة إلى تل - أبيب.

والمعلومة الأخرى تتناول شركة بارين. فقد أجرى زيسكي مزيداً من البحث عن خلفية الشركة، وتمكّن من اكتشاف صلة أرمنية وإن كانت قديمة العهد. ففي الثمانينيات، وعبر شركة تابعة تدعى واي جي إي - يريفان غولد إكسبلوريشن - حصلت بارين على حصّة مسيطرة في منجم ذهب كبير شرق البلاد على الحدود مع أذربيجان. وتسببت نزاعات حول الترخيص مع الحكومة الأرمنية بالتخلّص من الشركة عام 1991، ولكن هذا لا يزال رابطاً مثيراً للاهتمام وهاماً.

وحدث تطوّران آخران. أحدهما استهداف آخر لبارين من قبل نيميسيس أجندا التي تسللت إلى ملفات شبكة الكمبيوتر التابعة للشركة؛ فقد اكتشف زيسكي هذا الأمر على الإنترنت، وهو يستحق لذلك الخناءة احترام مرة أخرى. ولكن طرف الخيط الأكثر تشويقاً هو ذاك الذي اكتشفه بن - روي. وقد جعله ذلك يشعر بالارتياح بسبب قيام زيسكي بمعظم أعمال الجوّالة في الأيام القليلة الماضية.

ففي أثناء لقائه مايا هيلل في ملجأ هوفيش، كانت قد أشارت إلى قوّاد يدعى غينادي كريمينكو. فكرمينكو أوكراني المولد - مع زوجته وابنيه - يدير إحدى أكبر شبكات البغاء في تل - أبيب باستخدام فتيات تمّ الاتّجار بهنّ عن طريق مصر وعبر سيناء. ووفقاً لهيلل، أدت ريفكا كلينبرغ اهتماماً خاصاً بتلك الطريق. وبما أن كريمينكو قد احتكر هذه العملية في الواقع، قرر بن - روي إلقاء نظرة على الأمر عن كثب.

لقد اعتقل كريمينكو قبل شهرين وأوقف احتياطياً في أبو كبير، وهي منشأة احتجاز عند زاوية المركز الوطني للطب الشرعي جنوب تل - أبيب. كان بن - روي يعمل بالتعاون مع وحدة الجريمة المنظّمة المناهضة للاتّجار بالجنس، وقد أرسل له أفراد تلك الوحدة نسخات عن كل ما لديهم من معلومات عن الرجل الذي كان قوّاداً لثمة فتاة كما يدو، ومعظمهنّ أوروبيات شرقيات، علماً أنه وسّع دائرة اهتماماته في الآونة الأخيرة لتشمل فتيات شرقيات وأفريقيات أكثر فأكثر. كان كريمينكو يعمل في شقّتين أو ثلاث شقق موزّعة حول المدينة - ولا سيما في نيفي شَعْنان - ويُعلن عن خدماته عبر الإنترنت، ومن خلال بطاقات عمل يضعها في أكشاك الهاتف، وعلى الزجاج الأمامي للسيارات، وتقوم شبكة من المهتمّين

والفتيات ومساعدتي القَوَّادين بالمراقبة. هذا هو مستوى الخوف الذي كان يوحى به، علماً أن وحدة الجريمة المنظمة عجزت عن العثور على أي فتاة مستعدة للشهادة ضد كريمينكو بالرغم من عدد عملائها وما تقدّمه من ضمانات وحماية. لهذا السبب، وبالرغم من العدد الكبير للأدلة الظرفية، قرر مكتب المدّعي العام العمل في اتجاه إصدار إدانة تتعلق بالتهرب من دفع الضرائب وغسل الأموال بدلاً من التركيز على الاتّجار بالجنس والمكاسب المنافية للأخلاق.

وفي ما يتعلق بعملية سيناء التي قام بها كريمينكو وكان بن - روي شديد الاهتمام بها، فإن الملفات لا تحتوي على أي شيء تقريباً. لقد استُقطبت الفتيات من بلداهنّ الأم، وأُرسِلنَ إلى مصر، وتُقلنَ عبر الحدود بمواكبة البدو. الأمر مماثل تماماً لما أخبرته به هيلل.

لقد بدا الأمر كما لو أنه أمام طريق مسدود، ولكنه حظي بإحدى ضربات الحظ تلك التي تبدّل مسار قضية برمتها. كان لين - روي مصدر معلومات في أبو كبير، وهو سجان تعرّف إليه في كلّية الشرطة، وتمّ نقله إلى خدمة السجون. فالسّجانون يُصغون باستمرار، لذلك اتصل به بن - روي، وشرح له الوضع، وسأله إن كان يعرف أي شيء قد يكون مفيداً، فكان الأمر كذلك.

لقد ثبت أن غينادي كريمينكو قد قابل زائرة تدعى ريفكا كلينبرغ قبل ثمانية عشر يوماً.

لذا، ها هو بن - روي يتوجه إلى أبو كبير لتبادل أطراف الحديث مع الرجل الذي يدعونه مدرّساً للاستفهام عن سنّ بعض الفتيات اللواتي يعملنّ لحسابه. ملقياً نظرة سريعة على كومة أكياس توزيع أرّاز الموضوعة على مقعد الراكب، انعطف بن - روي لتجاوز ناقلة دبابات أخرى، وزاد من سرعته متخطياً 120 كيلومتراً في الساعة على عدّاد السرعة. فلديه ساعة واحدة فقط لمقابلة كريمينكو، ولم يشأ التأخر.

مصر

بخلاف الأقصر القائمة على بُعد ستين كيلومتراً إلى الجنوب، تُقدّم بلدة قنا - الجاثمة عند انعطافة النيل، وقد أُطلق عليها هذا الاسم تيمناً بهذه الانعطافة - القليل

من الامتيازات للزائرين الأجانب. فلا وجود للفنادق في سوقها، أو مطاعم تقدّم السمك وشرائح البطاطا المقلّية والفطور الإنكليزي، وكل اللافئات بالعربية. إنها بلدة تستقبل عدداً قليلاً من الزائرين، وأولئك الذين يقصدونها - لزيارة معبد هاتور في دَندرة على الضفة الأخرى للنيل - يكونون برفقة عناصر من الشرطة. لقد شتّت الجماعة الإسلامية في التسعينيات عدداً من الهجمات في المنطقة، وانخفض عدد الزائرين رغبةً منهم في عدم المجازفة.

كان إبراهيم صادق يُقيم في المجمع السكاني المقابل للنهر، والذي يعد مسافة خمس دقائق عن وسط البلدة. لم يكن من السهل إجراء مقابلة معه؛ إذ يحافظ الرئيس السابق للشرطة على خصوصيته، ولا يستقبل زائرين. ولكن طلب خليفة مناقشة قضية بينسكر أثار اهتمامه، فمنحه موعداً بعد أن اشترط عليه أن يكون الموعد لفترة قصيرة. اتصل به خليفة لحظة ترجله من القطار، ودخل المجمع السكاني بعد لحظات من الضغط على الهاتف الداخلي. كان صادق في انتظاره خارج باب شقته. إنه صعيدي طويل القامة، ذو شعر رمادي مقصوص، وعينين باردتين، وأسنان غير سليمة. تصافح الرجلان، وتبادلا المرح المعتاد، ثم دخل.

خدم صادق في سلك الشرطة قبل خليفة. كان قد التقاه مرتين، ولمدة وجيزة، في مهام رسمية، ولكنه لم يتحدث إليه قط. كان يعرفه من السُّمعة التي امتاز بها: فهو رجل قاسٍ، ولكنه ليس بقساوة الرئيس الحَسَنِي وإيهاب علي محفوظ، السِّلَف المباشر للحَسَنِي. فقساوتهما تكمن في جسديهما وفي قبضات أيديهما بالتحديد، ولكن "صادق" أكثر من مفكّر؛ إنه واضع خطط ومعالج للأمور. وفي حين يمتاز الحَسَنِي ومحفوظ برفع أكمامهما ومهاجمة المشتبه به، يفضل صادق البقاء في الظلال وشدّ الحبال بينما يقوم آخرون بالأعمال التنفيذية. كان الجميع يخشونه؛ رجال الشرطة والمديون على حد سواء. ففي ظل رئاسة صادق، تقول الشائعات إن المستخدمين الحكوميين لوسائل التعذيب لم يعودوا منههكين بعملهم.

رافق صادق خليفة إلى غرفة الجلوس - بسيطة، مرتّبة، عملية - حيث قدّمت لهما الشاي امرأة مهندمة افترض خليفة أنها زوجة صادق. وبعد مغادرتها، جلس الرئيس السابق على كرسيه وتربّع، واضعاً كوب الشاي على ركبته بشكل متوازن. كان الصوت المنخفض الصادر عن مكيف الهواء يتردد في أرجاء الغرفة.

وصدر من المطبخ صوت فرقة متقطعة لقاتلة ذباب كهربائية، فوجد خليفة الصوت مُربكاً. لقد بلغه أن الكهرباء إحدى وسائل الاستجواب المفضلة لدى صادق.

"إذاً، أيها المفتش، لقد جئت من أجل الرجل الذي لا وجه له". بدون مقدمات، وإلى صلب الموضوع مباشرةً، مع القليل من التركيز على كلمة مفتش لتذكير خليفة بمكانته الحقيقية في الهرمية، والتكلم معه بحذر. وحتى في أثناء تقاعده، لم يكن صادق الشخص الذي قد ترغبون في معارضته. "كنت مسؤولاً عن التحقيق"، استهل خليفة كلامه مُخرجاً الملف الثاني من الكيس الذي كان يضعه عند قدميه. "أردت فقط استيضاح أمرين". "بعد مرور أربعين عاماً على الحادثة؟".

"أشار أحد الأصدقاء إلى القضية، فأردتُ إلقاء نظرة. إنه مجرد اهتمام شخصي". لقد اعتبر أنه من الأفضل إبقاء بن - روي خارج المسألة. فقد بلغه أن الإسرائيليين سجنوا شقيق صادق في حرب رمضان عام 1973، ولم يستطع أن يتخيله ميلاً إلى المشاركة في أحد تحقيقاتهم؛ وإن بشكل غير مباشر. حدّق به الصعيدي، وكان في نظrote ما يذكر بالزواحف إلى حد ما لأن عينيه لم تكونا ترفّان. لقد بدا للحظات كما لو أنه يريد معرفة المزيد من التفاصيل، ولكنه وضع كوب الشاي جانباً ومدّ يده، مما أثار ارتياح خليفة.

"أرني".

فانحنى خليفة ومرّر له الملف. وضع صادق نظارته ثم فتح الملف. "لقد مرّت مدة من الزمن على رؤيتي هذه الأوراق"، تتمم وهو يقلّب محتويات الملف. "كانت قضيتي الأولى بعد أن رُقيتُ إلى منصب مفتش أعلى. مقدّمة لا تُنسى".

وسحب صورة فوتوغرافية ووضعها في اتجاه الضوء: جثة بينسكر مُسنّدة إلى الناحية الخلفية للمدفن، مَحْطَطة بفعل حرارة الصحراء الجافة، الرأس إلى الورا، والبشرة جافة ومشدودة بشكل غير طبيعي كما لو أن هيكله العظمي قد لُفّ بورق تغليف أبيض متسخ، ويحمل بيده قناعاً جليداً مزوّداً بأحزمة وإبريمات، فيه ثقبان صغيران جداً للعينين، وفتحة صغيرة للفم في الوسط، وثنية صغيرة للأنف.

"كان شاباً وسيماً"، قال صادق مهمهماً، وأعاد الصورة إلى الملف. "رأيت ميتات قبيحة عندما كنت لا أزال في الخدمة، ولكن هذه... أظن أنك اطلعت على تقرير تشريح الجثة".

في الواقع، لقد قام خليفة بذلك. إنه نص مريع. فبالإضافة إلى تعرضه لكسر في ساقه وذراعه اليمنى وثلاثة من أضلاعه في أثناء سقوطه في الثقب الأسطواني العميق، تعرّض بينسكر أيضاً لتمزّق في الطحال ولتصدّعات شديدة في الناحية الخلفية للجمجمة. لقد نجا من السقطة بالرغم من إصاباته، وخير دليل على ذلك جرّه نفسه إلى داخل الغرفة، وإعداده جبائر ارتجالية لأطرافه المهشّمة ورفادة لرأسه. وبالرغم من أن قدّم الجثة وحالتها جعلاً وضع تخمين نهائي أمراً مستحيلاً، قدّر الأخصائي في علم الأمراض أن الرجل الإنكليزي عاش ما بين يومين أو ثلاثة أيام على الأقل قبل أن يموت في النهاية بسبب مزيج من التحفّاف، وفقدان الدماء، والرضوض الداخلية. لم تكن نهاية خالية من الألم بالتأكيد.

أغلق صادق الملف وخلع نظارته.

"إذاً، ما الذي تريد استيضاحه؟".

"الأمر مرتبط بشكل رئيس بإفادة المرأة"، أجاب خليفة مادداً يده ومسترجعاً الملف. "الإنكليزية، السيدة...".

وقبّلت المعلومات للعثور على الاسم.

"... باورز. هناك أمر لم يبدُ منطقياً بالنسبة إليّ".

التقط صادق كوب الشاي، وارتشف القليل منه، وأوماً لخليفة للمتابعة.

"حسناً، وفقاً لروايتها، كانت تسير في التلال مع زوجها، وتوقفت لـ...".

وراجع المعلومات مجدداً، باحثاً عن الكلمة الدقيقة.

"... تقوم بما تقوم به أيّ سيدة، وأفترض أن ذلك يعني...".

"التبول".

"تماماً. لقد زلّت قدمها، وانزلقت، وتدحرجت إلى الورا في اتجاه أسفل

المنحدر ودخلت الحفرة الأسطوانية".

ورفع نظره في اتجاه صادق الذي هزّ رأسه قليلاً للدلالة على صوابية الترتيب

الزمني للأحداث.

"قالت أيضاً إنها لم تلاحظ الحفرة الأسطوانية من قبل لأنها كانت مغطاة بالأغصان".

هذه المرة، لم يومئ صادق برأسه، بل حدّق بخليفة، وارتفعت زاويتا شفتيه في ما يوحي بأنها ابتسامة خفيفة.

"أنت من أخذ إفادتها، أليس كذلك؟ يوم الحادثة، وبعد نقلها إلى مستشفى الأقفص العام".

"هذا ما أتذكره".

"أعرف أن زمناً طويلاً قد مرّ على هذه الحادثة، ولكنك تذكر كيف كانت تبدو، أليس كذلك؟ هل بدت مُصابة بارتجاج في الدماغ أو مُربكة؟".

"كانت هاوِعا، أي أجنبية. ووفقاً لخبرتي، كلهم مُربكون".

ابتسم خليفة للدُّعابة.

"ما أعنيه...".

"أعرف تماماً ما الذي تعنيه". وبدت البسمة على وجهه أكثر وضوحاً كما لو أنه يعرف ما الذي يرمي إليه خليفة ويستمتع بذلك. "لا، لم تبدُ المرأة مُربكة تماماً، بل بالعكس. فقد كانت صافية الذّهن بشكل ملحوظ بالرغم من سقوطها في حفرة يبلغ عمقها عشرين قدماً، وعثورها على رجل ميت في الأسفل".

"وهل كانت ثابتة على موقفها في شأن الأغصان؟ بأنها تغطّي الحفرة".

"آه، كانت ثابتة على موقفها تماماً، إلى أقصى حد".

"هذا ما لا أفهمه. إذا كانت الأغصان تغطي تلك الحفرة...".

ولم يُكمل كلامه، فقد رفع صادق يده مُشيراً إليه بالتزام الصمت. كان الرئيس السابق يطلق ابتسامة عريضة بالرغم من كون عينيّه فولاذيّتي النظرات؛ كما لو أن جزءاً منه يُجاري خليفة والجزء الآخر يحذّره. وصدرت من المطبخ فرقة مكتومة مع قيام ذبابة أخرى بشيّ نفسها. وكان هناك توقف قصير، ومن ثم قال صادق:

"قالوا إنك حادّ الذكاء".

"عفواً؟".

"الحسني، ومحفوظ، وآخرون تحدّثُ إليهم أيضاً. قيل لي إنك أحد الأشخاص الذين يتمتعون بذكاء حاد في الشرطة، كما يبدو. ترى أموراً لا يراها آخرون".

ثم وضع كوب الشاي جانباً، وألقى يديه على ذراعي الكرسي، لاوياً أصابعه حول طرفي الذراعين الخشبيتين المنحوتتين على صورة خُنفساء جعران. ولاحظ خليفة أن ظفري إهاميه أطول بكثير من أظفار أصابعه الأخرى؛ كما لو أنه يطيلهما عمداً.

"وأنت متمرّد أيضاً، كما قيل لي. لم تكن لتنجو من العقوبة لو كنت رئيسك. في أيامي، لم يكن أحد يجرؤ على التمرّد".

تصلّبت ابتسامته، وغدت عيناه أكثر برودة، فبدّل خليفة جلسته، غير واثق من نتيجة ذلك، ومتسائلاً عما إذا كان قد أخطأ بالقدوم إلى هنا. ربما تبدّل الأمور في مصر، ولكن يتعيّن عليك الاستمرار بالانتباه، ولا سيما عندما تكون مع عقرب مثل صادق. وساد صمت آخر غير مريح. ومن ثم، رفع الرئيس السابق يديه وصفق بهما ببطء.

"ملاحظة دقيقة، أيها المفتش. حتى إن البروفيسور الذي وضع الدراسة حول المدفن لم يتطرّق إلى الأغصان. ولكنني فعلت. وها أنت تفعل ذلك الآن. أنت فعلاً شديد الذكاء".

وأعاد وضع يديه على ذراعي الكرسي، ناقرأ بسبّابته اليسرى. وسُمع صوت تكّة مكتومة في ردهة المدخل مع فتح الباب الأمامي وإغلاقه، فافترض خليفة أن الزوجة قد غادرت المنزل.

"حالما أخبرتني الإنكليزية عن الأغصان، عرفتُ أن هناك خطباً ما. فأول ما تبادر إلى ذهني، على غرارك، هو أنها كانت مُربكة ولم تكن تتذكّر بطريقة صحيحة. ولكنها كانت مُصرّة على ذلك. كانت الأغصان تغطي الحفرة، مما يعني أنها وُضعت هناك بعد سقوط بينسكر فيها، وإلا لكانت قد احتفت في أثناء سقوطه. وبما أنه لا وجود للأشجار في محيط عشرة كيلومترات من الموقع، فلا بد أن يكون شخص ما قد حملها معه عمداً ووضعها هناك. هناك تفسيرات معقولة، ولكن التفسير الجليّ هو أن شخصاً ما أراد إخفاء المدفن أو بينسكر. والتفسير الجليّ لذلك هو أن...".

"سقوط بينسكر لم يكن مجرد حادث".

صفّق صادق ببطء مرة أخرى.

"ولكنك لم تذكر شيئاً عن هذا الأمر في تقريرك"، قال خليفة.
"في تلك الظروف، ارتأيت أنه من الأفضل إبقاء عملية سرد الوقائع بسيطة".
"ولكن، هناك رجل قد قُتل".
"إنها إحدى الطرائق للنظر إلى الأمور".
"هل هناك طريقة أخرى؟".

"هناك على الدوام طريقة أخرى للنظر إلى الأمور أيها المفتش. إن كان هناك ما تعلّمته على مدى أربعين عاماً أمضيته في الشرطة فهو أن لا شيء واضح تماماً".
تناول رشفة أخرى من شايه، وعيناه مثبتتان على خليفة كما لو أنه يتحدّاه للسعي إلى إثبات وجهة نظره. لقد تعامل خليفة في السابق مع أشخاص مثل صادق - ولا يزال يتعامل معهم - ويعلم أن هناك أوقاتاً للإصرار، وأوقاتاً للالتزام الهدوء. إنه وقت التزام الهدوء. جلسا صامتين للحظات، خليفة يهزّ قدميه وصادق يرتشف شايه. ومن ثم، وبإيماءة رأس، تناول الرئيس السابق ما تبقى من الشاي في كوبه ووضع جانبا، وهو يسأله:

"أقلت إنه اهتمام شخصي؟".

"أجل، يا سيدي".

"هل أنت متأكد؟".

ورمق خليفة بنظرة صارمة.

"أنا متأكد".

"في هذه الحالة، لا أرى سبباً لنش الماضي. لقد مرّ وقت طويل على ذلك بالرغم من كل شيء، وطُبقت العدالة بطريقتها الخاصة".

وأشار إلى الكيس عند قدمي خليفة.

"أفترض أنه ملف اختفاء بينسكر؟".

فأقرّ خليفة بذلك، وأوماً له صادق لتمير الملف إليه.

"حدّدنا هوية بينسكر بسرعة كبيرة"، قال واضعاً نظارته مجدداً ومقلّباً

محتويات الملف.

"لم يكن يحمل أي وثائق شخصية، ولكن الناس لا ينسون بسهولة وجهاً ممثلاً.
فلا يزال هناك بعض سكان القرنة الذين لم ينسوه حتى بعد مرور أربعين عاماً.

وعندما نحصل على اسم، يسهل الوصول إلى المعلومات المتعلقة بقضية اختفائه. وعندما نصل إلى المعلومات، لا يتطلب منا الأمر وقتاً طويلاً لبلوغ عُقْم الأمور". سحب ورقة من الملف ورفعها. إنه تصريح الرجل الذي ادّعى رؤيته بينسكر الثمل وهو يسير في اتجاه التلال الطيبية. إنه محمد البدري من الشيخ عبد القُرنه. "كنت أعرف عائلة البدري"، قال صادق. "إن أفرادها مثيرون للشغب إلى حد كبير. كان محمد المُسنّ لا يزال في الجوار، فاصطحبناه إلى المركز، ووصلنا الأسلاك الكهربائية بجسده. كان ذا قدرة كبيرة على التحمّل، ولكنه انهار في النهاية. إنهم يفعلون ذلك على الدوام". وأعاد الورقة إلى الملف.

"تُبت أن بينسكر قد اغتصب شقيقتهم المدعوة إيمان. كانت عمياء، ولم تكن قد بلغت العشرين من عمرها بعد. لقد جرّها إلى النهر، وضربها بقوة، وحصل على متعته. لقد ناضلت كما يبدو، وحاولت مقاومته، ولكنه كان قوياً جداً. لم أكن أثق بعائلة البدري لدرجة أنه كان باستطاعتي البصق عليهم. ولكن، كان لدى محمد شاهد عيان يدعم القصة. إنه من السكان المحليين، ويحظى بقدر من الاحترام. كان فتى في ذلك الوقت، وخرج لصيد السمك ليلة حدوث ذلك، وسمع الفتاة تبكي، ورأى كل شيء، فأخبر "محمد" وشقيقه بما جرى... حسناً، حدث ذلك عام 1931، ولم يكن الناس قد نسوا الدائركي بعد. أنت تعرف الفلاحين. إنهم معتدّون بأنفسهم، ولديهم طريقتهم الخاصة".

وخلع نظارته، ثم وضعها على الطاولة الصغيرة بجانب الكوب الفارغ. "أرفض العدالة الحذرة"، قال. "لو حدث ذلك في أثناء نوبة عملي لتعاملتُ مع الأمر بشكل مختلف، ولكن أربعين عاماً كانت قد مرّت على الحادث. لقد توفّي شقيقان من الأشقاء الثلاثة، وكان محمد في العقد الثامن من عمره، ولن يطول به الأمر حتى يلقي حتفه هو أيضاً. لم يكن لدى بينسكر أنساب أحياء، أو على الأقل لم يتمكن من العثور على أيّ منهم، ونكء الجراح القديمة لا يخدم أهداف أحد. يكفي سوءاً أن الفتاة قد اغتُصبت. فلماذا نذكر كل العالم بعارها؟ من الأفضل عدم نبش الماضي. لقد سمحتُ بتعرّض الرجل المُسنّ للضرب لألقنه درساً، وتركتُ الأمور على حالها. لقد أفقلت القضية وهكذا ستبقى".

وتأمل الملف، ومن ثم أغلقه بقوة، ومدّ يده ليسلمه لخليفة.

"أمل أن يكون ذلك قد أوضح الأمور".

انحنى خليفة وتناول الملف. لقد بدا غير متأثر بالقصة على نحو مثير للفضول. من الواضح أن الاغتصاب صادم للمشاعر؛ كانت الفتاة بسنّ ابنته بطّاح، لا بل عمياء أيضاً. ولكن مصير بينسكر... قبل عام، كان سيشعر بالهلع مما حدث لهذا الرجل. فقيام العصابات الإجرامية بإصدار أحكام بالإعدام بدون محاكمة، ولجوء الناس إلى تطبيق القانون بأيديهم من الأمور التي يَشْمُزُّ منها على الدوام مهما كانت الجريمة شنيعة. ولكن بوصلته الأخلاقية تبدو أقل تركيزاً في هذه الأيام. لقد واجه الرجل مِيتة مريعة، ولكنه قام بعمل مريع. وكما قال صادق، لا يبدو الأمر واضح المعالم. لم يُعد أي شيء واضح المعالم، ولا يمكن التأكد من أي شيء؛ فلا وجود للأسود والأبيض، لقد أصبحت الحياة... رمادية من دون التمكن من تبيان أيّ من اللونين الأبيض والأسود.

قلّب الملفين في حسنه، وفكّر في كيفية ارتباط أي من هذه الأمور بالمرأة التي خُنقت في دار عبادة في القدس. لم يتمكن من التوصل إلى أي رابط واضح: جريمتان يفصل بينهما ثمانون عاماً، جنسيات مختلفة، بلدان مختلفة.

"لم يكن هناك ما يوحي بوجود حافز ديني لعملية القتل، أليس كذلك؟".
سأل ساعياً وراء صلة ما. "أقصد، نظراً إلى كون بينسكر يهودياً".
فحدّق به صادق.

"هناك فتاة ضُربت، واغتُصبت، وكادت أن تُقتل؛ فتاة عمياء. إنني أعتبر هذا حافزاً كافياً من دون إقحام الدين. بأي حال، حدث ذلك قبل النكبة. لم نكن نحذر من اليهود كثيراً في تلك الأيام".

وسمّع صوت تكّة عند الباب الأمامي الذي فُتح مجدداً، إضافةً إلى حفيف أكياس تسوّق. فرفع صادق نظره إلى الأعلى، ومن ثم إلى ساعته. من الواضح أنه يعتقد أنهما تطرّقا إلى المواضيع المطلوبة كافة، وأنه حان الوقت لإنهاء الحديث.

"ألا تعرف ما الذي حلّ بمقتنيات بينسكر الشخصية؟". سأل خليفة محاولاً الحصول على أكبر قدر من المعلومات قبل أن تتمّ مرافقته إلى الباب.
فخبر صادق دلالة على نفاد صبره.

"ما أذكره هو أن كل ما عثرنا عليه في المدفن دُفن مع بينسكر في القاهرة. لم يكن هناك الكثير من الأشياء؛ ملابسه فقط وذلك القناع".

"ألم تجدوا أيّ مستندات من أي نوع؟ أو أوراق؟ أو رسائل؟".

شرع الرجل المُسنّ بالتّقرّ بأصابعه على طرفيّ الذراعين الخشبيّتين، وقد بدأ صبره ينفد.

"لا توجد مستندات"، أجاب بجفاء. "الآن، إذا كنتَ لا تمنع...".

"وماذا بشأن مقتنياته من العام 1931؟ هل تملك أي فكرة عما حدث لها؟".

كفّ صادق عن التّقرّ بأصابعه التي التفتّ بإحكام حول طرفيّ ذراعَي الكرسي.

"لا فكرة لديّ البتة. لقد أُلقي بها في النيل، هذا كل ما أعرفه. حدث ذلك قبل ثمانين عاماً".

"أتريدان المزيد من الشاي؟".

إنه صوت زوجة صادق الذي تردّد صداه من المطبخ.

"لن يكون ذلك ضرورياً"، نادى صادق. "لقد أنهينا. أليس كذلك؟".

كان ذلك تأكيداً أكثر من كونه سؤالاً. لقد طفح الكيل. أوماً خليفة برأسه، وشكر الرجل المُسنّ على وقته، ووقف معيداً الملفين إلى الكيس. فراققه صادق إلى ردهة المدخل.

"يبدو أنك تتعاطى مع هذا الأمر بجديّة أيها المفتش، علماً أنه اهتمام شخصي"، قال عندما بلغا الباب الأمامي.

"لا اعتراض لي على روح المبادرة لدى رجال الشرطة، ولكن ينبغي استخدام روح المبادرة بتأنٍ. ربما أ تبادل أطراف الحديث مع الحسني. سأحمله على تسليمك عملاً مناسباً".

وفتح الباب، فخرج خليفة. لقد تجاهل الملاحظة، لا يُفترض به المجازفة أكثر من ذلك. فالأشخاص المماثلون لصادق قد يصبحون بُغضاء إلى حد كبير.

"لديّ سؤال واحد أخير".

فحملق به صادق.

"في ملف العام 1931 توجد رسالة موجهة من هوارد كارتر، عالم الآثار. ففي ليلة مقتله كما يبدو، أخبر بينسكر كارتر أنه عشر على أمر ما؛ شيء أو مكان ما يمتدّ أميلاً. هل يعني لك ذلك أي شيء؟".

كان يتوقع من الرجل المُسنّ أن يفقد رباطة جأشه، ولكنه لم يفعل، بل مدّ يده عوضاً عن ذلك ووضعها على كتف خليفته.

"سمعتُ بمأساتك، أيها المفتش. رجاءً، تقبّل تعازي الصديقة. أرجو حقاً أن تكون عائلتك بخير. حافظوا على سلامتكم".

قال ذلك بطريقة أقرب إلى التحذير منها إلى الأمانة الطيبة.

"وإجابةً عن سؤالك، لا تعني لي رسالة كارتر أي شيء. الآن، حان موعد غدائي إذا لم يكن لديك مانع. انعم برحلة آمنة إلى منزلك. لن نرى بعضنا مجدداً".

وضغط على كتف خليفته، غارزاً إصبعه فيها، ومن ثم أوماً برأسه، وعاد إلى الوراء، وأغلق الباب بوجهه بقوة. صدرت من داخل الشقة فرقة متقطعة لذبابسة أخرى شوت نفسها على قاتلة الحشرات الكهربائية.

تل - أبيب، إسرائيل

انعطف بن - روي مرتين قبل التوجه إلى أبر كبير لإجراء مقابلة مع القوّاد الكبير غينادي كريمينكو.

كانت انعطافته الأولى في اتجاه ملجأ هوفيش في بيتاه تيكفاه لإيصال الألعاب والدُمى التي اشتراها من متجر تونيز أرّاز في القدس. لقد ترك الأكياس مع الحارس، وطلب منه التأكد من حصول أطفال الملجأ عليها. أراد الرجل الاتصال بمايا هيلل، ولكن بن - روي قال إنه على عجلة من أمره، وغادر. إذ لم يرغب في حمل المرأة على التفكير بأنه يحاول التأثير فيها، أو بأنه شخص رقيق القلب؛ والاحتمال الثاني أسوأ من الأول.

وقام بالانعطافة الثانية ليُقلّ دوف زيسكي من وسط مدينة تل - أبيب. كان قد أمضى عطلة نهاية الأسبوع في المدينة مع أصدقائه، وسأله بن - روي إذا كان

يود حضور المقابلة، وهي بادرة حسنة منه، بالرغم من أن قيام زيسكي بقضاء يومه مع رجل حقير مثل كرمينكو سيكون مَحَطَّ تساؤل الجميع.

كان زيسكي ينتظر خارج فندق غراند بيتش أوتيل في نوردو متّكئاً على عمود مصباح، ومرتدياً سروال جينز شبيهاً بالجلد وتي - شيرت ضيقة، ومنتعلاً خُفَّين، وواضعاً نظارة راي - بن. توقف بن - روي عند حافة الرصيف وفتح باب الراكب.

"تبدو كما لو أنك ذاهب إلى شول". قال في أثناء دخول زيسكي السيارة، حاملاً معه رائحة خفيفة لعطر ما بعد الحلاقة.
"بالتأكيد".

"تنبعث منك رائحة مثيرة".
"حسناً، يقولون إن العطر يُسرّ الأنف".
وأغلق الباب بقوة، وسَلَّم بن - روي كيساً ورقياً.
"غداً".

شَمَّ بن - روي الكيس، وأطلق ابتسامة عريضة.
"ويقولون أيضاً إن الفلين يُسرّ أنف رئيسك! فتى صالح".
أخرج إحدى الفطائر الصغيرة، وتناول لقمة، واستدار عند الزاوية للتوجه إلى هايباركون. ولزما الصمت للحظات، ومن ثم نظر الاثنان إلى بعضهما وانفجرا ضحكاً.

يقع سجن أبو كبير - أيه كيه أيه جافا هيلتون - في الطرف الجنوبي للمدينة، بعد الانعطاف عند زاوية المركز الوطني للطب الشرعي حيث شُرِّحت جثة ريفكا كلينيرغ. إنه مجمّع مباني مهيبة من ثلاث طبقات، ذات نوافذ تحمل قضباناً حديدية متصالة، وفيه برج كبير للمراقبة في إحدى الزوايا، ومُحاط بجدار أبيض يعلوه سياج. لقد تبادرت إلى ذهن شخص حسّاس فكرة وضع منحوتات متباعدة من الطين المحروق على الجدار في محاولة لجعل المكان أكثر إشراقاً. إنه تضییع للوقت وهدر للمال برأي بن - روي. فالسجن سجن، وما لم تتم إزالة الجدار - والقضبان الحديدية والأبواب أيضاً - فلن يتم إضفاء طابع الابتهاج على المكان.

ركنا السيارة في الموقف بجانب البوابة الفولاذية القابلة للسحب التابعة للمنشأة، وعرفنا بنفسيهما عند النافذة الأمنية الرئيسة، فأدخلهما الحارس المناوب، وأجرى اتصالاً هاتفياً بالمبنى الرئيس للإبلاغ عن وصولهما. وبعد دقائق قليلة، ظهر حارس آخر ورافقهما إلى داخل المجمّع.

"هل آدم هيبير موجود اليوم؟". سأل بن - روي في أثناء عبورهم باحة أمامية إسمنتية، مشيراً إلى صديقه السجان.

"إنه يقوم بنوبات العمل الليلية في الوقت الحاضر"، أجاب الحارس. "وهو يرسل لك أطيب أمنياته، ويقول إنه يأمل أن تكون زيارتك مفيدة".
"أنا على ثقة بأنها ستكون مثيرة"، همهم بن - روي.

وصلا إلى مبنى السجون الرئيس، وانتقلا من نور الشمس إلى الداخل المظلم. كان يتعين عليهما تدوين بعض المعلومات المرتبطة بهما، ومن ثم رافقهما السجان عبر ممرٍ مؤدٍ إلى باحة داخلية يظللها قماش مشبك، ودخلوا جناحاً آخر. كانت هناك أصوات أجهزة راديو، وثرثرة، وطققة وعاء من الصفيح على القضبان الحديدية في مكان ما فوقهم. ولكنهم لم يتمكنوا من رؤية أحد. فعلى غرار كل السجون التي زارها بن - روي، لقد انتابه شعور مُثبط للعزيمة بأن الصوت يصدر عن المبنى نفسه وليس من البشر.

"لقد وصلت"، قال الحارس متوقفاً أخيراً أمام أحد الأبواب، وواضعاً مفتاحاً داخل القفل. "سأحضر السجين. محاميته موجودة في الداخل".

وفتح الباب، ثم تراجع ملوِّحاً لهما بدخول الغرفة. كانت الأرض مكسوة باللينوليوم، وهناك نافذة في أعلى الجدار مزودة بقضبان حديدية متشابكة، وطاولة خشبية عليها إبريق ماء وأكواب ورقية ومنفضة. وكانت هناك امرأة طويلة القامة ومتوسطة العمر تجلس إلى الطاولة معهما وجهاً لوجه، وهي أنيقة الملبس، وغير منفرجة الأسارير. جلس التحريان.

"كان من المفترض أن يكون تبادلاً غير رسمي لأطراف الحديث"، قال بن - روي في أثناء إغلاق الحارس الباب وراءهما وإقفاله. "لم يكن بحاجة إلى مستشار قانوني".

"يفضّل موكلّي عدم إخفاء أي شيء".

"من المُحجل أنه لم يَقم بالأمر نفسه في صفقاته التجارية".

ارتسمت على وجهها ملامح الاستهجان وشبكت يديها. ولاحظ بن - روي أنها لا تضع خاتم زواج في إصبعها. يبدو أنها منشغلة جداً في الدفاع عن أشخاص حقيرين مثل كريمينكو لدرجة أنها لا تملك الوقت لتكوين عائلة، أم إنها ترفض مبدأ الزواج. في كلا الحالين، لم ترق له. فمثلاً لم يُرقن له قط، فهن متعجرفات، ومراوغات، يقصدن منازلهن كل يوم سعيدات يجعل رجال الشرطة يبدون كالمغفلين، ويساعدن المجرمين على العودة إلى الشوارع. يا لغبائها!

"أرجو أن تجري الأمور بهدوء وسلاسة"، قالت. "اليوم ذكرى ميلاد ابنتي، وأودّ العودة إلى المنزل في مزاج جيد بشكل معقول".
حسناً، إنها مخطئة في هذا الشأن.

"إذاً، إليكما القواعد الإجرائية"، تابعت المرأة. "وافق موكلّي على الإجابة عن أي سؤال تطرحانه، وعلى تقديم أي مساعدة ممكنة في هذا التحقيق. ولكن، في المقابل، نطلب منكما أن تكون أسئلتكما في حدود ما بلغته القضية، وأن تعاملاه باحترام وتهديب، علماً أن السيد كريمينكو لم يُعتبر رسمياً مشتبهاً به في قضيتكم، أو مداناً بأي جريمة أخرى".

"هل يُفترض بي أن أغيّر حفاظه أيضاً؟".

"انضج أيها التحري، وقم بذلك بسرعة وإلا ألغيت المقابلة في الحال".
تبّاً لك، قال في سرّه.
"من هو؟".

وأومأت برأسها في اتجاه زيسكي، وقام بن - روي بالتعريف به.
"طلبُ المقابلة مقدّم باسمك فقط".

"سيصغي فقط. أريد أن أريه الإجراءات المتّبعة وأعلّمه أهمية الاحترام والتهديب".

فابتسمت له؛ علماً أن كلامه يحمل في طياته بعض المرارة.
"حسناً، سأسمح بذلك". ودوّنت التفاصيل المتعلقة بزيسكي على دفترها.
"سأسجّل الحديث...".

وأخرجت جهاز ديكثافون ووضعت على الطاولة.

"... الذي سيعتبر تسجيلاً مقبولاً من الناحية القانونية إذا قرّرت المضيّ قدماً في إحالة الدعوة إلى محكمة أخرى، وسأراقب الوقت عن كثب. أعتقد أننا اتفقنا على ستين دقيقة".

"اعتقادك صحيح".

"لنلتزم بذلك".

بعد انتهاء المقدمات، أسندت ظهرها إلى الكرسي وشبكت ذراعيها أمام صدرها. تردد صدى صوت موسيقى بعيدة من مكان ما خارج الغرفة. فقاوم بن - روي إغراء سؤالها عما إذا كانت ترغب في الرقص.

مرّت دقائق قليلة، ومن ثم سُمع صوت وقع خطي قوية في الممر، وصوت طقطقة لدى وضع مفتاح في القفل. وفتح الباب مجدداً، وأدخل الشخص موضوعُ المقابلة الغرفة. وقفت المحامية، فيما بقي التحريّان جالسَيْن.

فالقوَّادون والمتجرون بالجنس يأتون بأشكال وأحجام عديدة مختلفة، ومن ديموغرافيات عديدة مختلفة. ولكن، إذا كانت هناك شخصية نمطية فهي غيناوي كريمينكو. إنه رجل ذو بنية جسدية ضخمة، مُفرط في الوزن، رأسه يميل إلى الصلَع، وجهه زهريّ اللون، عيناه منتفختان، ويوحى بالمرح وبالميل الخفيّ إلى التهديد. كان يضع مجموعة من الجواهر الذهبية الثقيلة - سلسلة عُنُق، وسوار، وخواتم - ويرتدي قميصاً أخضر وأبيض لفريق ماكابسي حيفا أزعج بن - روي لأنه فريقه. وعلى ساعده وشم بارز لفتاة منفرجة الساقين، الناحية العلوية من صدرها ورأسها ملوّنان بحبر أخضر.

"حسناً، الأمر مريح، أليس كذلك؟"، قال بعبرية تخالطها لهجة أوروبية شرقية، وابتسم. "يسعدني على الدوام الترحيب بفتياننا الشجعان ذوي البرّات الزرقاء، ولا سيما هذين الوسيمين".

وأطلق ابتسامة عريضة لزيّسكي الذي لم يُبدِ أي رد فعل.

"كنت أودّ ضمّكما إلى صدري. ولكن، لسوء الحظ..."

ورفع يديه الموثقتين بالأغلال.

"لا أعتقد أن هذه الأغلال ضرورية هنا"، قالت محاميته.

نظر الحارس إلى بن - روي الذي أوماً برأسه، ففكّت الأغلال.

"لا يمكنني أن ألومهم"، وضحك كريمينكو، فاركاً رُسغيه ومحرّكاً يديه بشكل دائري. "ليس عليكم سوى النظر إليّ لتتحققا من أنني قاتل مدرّب. قبل عامين، دمّرتُ وحدة مدرّعات بضربة واحدة".

وأطلق صوتاً أجشّ، وقهقهه.

"أعتقد أنه من الأفضل لنا أن نبدأ"، قالت الحامية.

فأشار الحارس إلى زرّ في الجدار، وقال لهما إنه بإمكانهما الضغط عليه إذا احتاجا إلى أي شيء، ومن ثم غادر الغرفة، مُقفلاً الباب وراءه. مشى كريمينكو الهوّينا حول الطاولة وجلس بجانب محاميته.

"هل باستطاعتي طلب زجاجة من الشراب؟". سأل وأوماً برأسه في اتجاه الزر على الجدار، مُطلقاً صوتاً أجشّ آخر.

متجاهلة التعليق، تحققت الحامية من ساعتها، ومن ثم انخست إلى الأمام، وشغّلت الديكتافون ووضعت بين كريمينكو وبين - روي. واستهلّت المقابلة بذكر المكان، والتاريخ، والوقت، وأسماء الحاضرين في الغرفة، وأسندت ظهرها بعد ذلك إلى كرسيّها، وأشارت إلى أنه بالإمكان بدء المقابلة.

"للدّكر فقط، أودّ القول إن التحرّي الأصغر سنّاً لديه بشرة جميلة حقّاً". قال كريمينكو، وأطلق ضحكة مازكة.

فابتسم زيسكي، ووضع ساقاً على أخرى بشكل متصالب، غير شاعر بأي انزعاج. ووضع بن - روي الملف الذي اصطحبه معه على الطاولة وشرع بالعمل.

"سيد كريمينكو، تلقيت مؤخراً..."

"غينادي من فضلك. كلنا أصدقاء هنا".

"زارتك مؤخراً صحافية تدعى ريفكا كلينرغ".

"هل تلقيت هذه الزيارة؟".

"أجل، لقد فعلت".

"كما تشاء. يبدو أنني أصاب بالنسيان مؤخراً إلى حد كبير. ربما يعود سبب

ذلك إلى الجوّ في هذا المكان. إنه يصيب الدماغ بالخدّر".

تصلّب فك بن - روي السفلي. سيكون العمل شاقّاً.

"دعني أحاول إنعاش ذاكرتك يا غينادي. في 30 أيار/مايو، اتصلت السيدة كلينبرغ بشاباس وطلبت زيارتك. لقد نُقل الطلب إليك، ووافقت".

"بدون علمي"، قاطعت المحامية.

"أُعلن أن سبب الزيارة شخصي. وحضرت السيدة كلينبرغ إلى السجن بعد ظهر السادس من حزيران/يونيو، وكنت بمفردك معها في هذه الغرفة بين الساعة 13:30 والساعة 14:05".

"لم نرقص معاً، أوكد لك ذلك"، همهم كريمينكو.

"هل تتذكر الآن؟".

"تذكرتُ فجأةً. امرأةً بدينة، قوية الشخصية، مع...".

ووضع يديه أمام صدره للتعبير عن حجم صدرها الكبير.

"ليس منظرًا سارًا. كان عليّ صده".

كان وجه محاميته بجانبه خالياً من أي تعبير.

"حسنًا، الآن وبعد أن أطلقت العنان لذاكرتك"، قال بن - روي، "هل تريد

أن تخبرني عمّا كانت السيدة كلينبرغ تفعله هنا؟".

فهز كريمينكو كتفيه.

"الانطباع الذي حصلتُ عليه هو أنها كانت تشعر بالوحدة. تعرف ما يكون

عليه واقع الحال. فهي بدينة، وغير مثيرة، وتعيش بمفردها، وتتقدّم في السن. أعتقد

أنها كانت تريد رفقة. لقد رأيت وجهي في الصحيفة، وظننت أنني ودود،

واستنتجتُ ربما أنني شخص يمكنها تبادل أطراف الحديث معه".

وتظاهر بن - روي بأنه متعاون، وتركه يُكمل دُعايته.

"وما الحديث الذي تبادلتما أطرافه؟".

فشبك كريمينكو ذراعيه أمام صدره، وأسند ظهره إلى الكرسي، محدّقاً

بالسقف ومفكراً.

"الآن، دعني أفكر. لقد ناقشنا حالة الطقس بالتأكيد - كان الطقس حاراً في

غير أوانه، ألا تعتقد ذلك - وأتذكّر إجراء نقاش سياسي حول انتخابات بلدية

وغيرها...".

تسمّرت المحامية في مكانها بجانبه واحمرّ وجهها. فلاحظ كريمينكو شعورها بالإحراج وأطلق ابتسامة عريضة.

"أنا أمزح فقط. لم نتحدّث عن ذلك في الواقع."

"إذاً، أنت لا تعني ما تقوله"، تتم بن - روي.

دسّ كريمينكو يده تحت قميص كرة القدم، وأخرج علبة سجائر مارلبورو، وتناول سيجارة بأسنانه، وسحب قذّاحة من العلبة، وأشعل السيجارة، مُسنداً مرفقيه إلى الطاولة.

"حسناً، كفى تجاهلاً للواقع، لندخل صلب الموضوع"، قال نافثاً موجة كثيفة من الدخان في اتجاه زيسكي الذي بدّدها بضربة سريعة بيده. "قالت تلك المرأة إنها تريد القدوم والتحدث إليّ. لم أستطع تمييزها، ولكنني قلتُ لنفسي لِمَ لا. أنتَ تشعر بالملل هنا، فأهلاً وسهلاً بأي نوع من الإلهاء. من يعلم؟ ربما يستحق الأمر ذلك. ولكنه لم يكن كذلك. بل كان مثبطاً للعزيمة."

وأطلق نفثة دخان أخرى، مُرغماً زيسكي على إبعاد كرسيه بوضع بوصات إلى الوراء.

"آسف، يا عزيزي."

"وما الذي أرادت السيدة كلينبرغ أن تتحدث إليك في شأنه؟". سأل بن - روي، مُعيداً صياغة السؤال السابق.

"أرادت التحدث في أمور مختلفة."

"وما هي؟"

"عملي، الفتيات...".

وقاطعته المحامية.

"في الظروف الراهنة، أعتقد أنه يتعيّن علينا بتجّّب...".

مدّ كريمينكو إصبعه لإسكاتها. إنها إيماءة صغيرة تكاد لا تكون ملحوظة، ولكنها عنت الكثير بالنسبة إلى بن - روي. لقد اعتاد هذا الرجل أن يكون مُطاعاً، ولا سيما من قِبَل النساء.

"استرخي"، قال. "أنا هنا لمساعدة هذين السيّدَيْن. لا شيء لديّ أخفيه سوى ما أحجل به".

وأسند ظهره، وسحب مَجَّةً طويلة من سيجارته، مُمسكاً إياها من أسفل عَقِبها على غرار كل المحكوم عليهم. بجانبه، شبت المرأة ذراعيها وحدقت عبر الطاولة، زامةً شفتيها للسيطرة على انفعالها.

"لقد فهموا كل ذلك بشكل خاطئ"، قال كريمينكو. "أقصد الشرطة، والصحف. قالوا إنني قَوَاد، ومتّجر بالجنس. حتى إنني لا أعرف معنى تلك الكلمات. أنا رجل أعمال عادي وبسيط. أنا صاحب مُلك. الجريمة الوحيدة التي ارتكبتها، وها أنا أرفع يديّ مُقسماً..."

ورفع يديه بشكل مسرحي.

"... هي ارتكابي خطيئة اللطف المفرط. فأولئك الفتيات الشابات، يأتين إلى إسرائيل، ولا يعرفنّ أحداً، ولا يتحدثنّ العبرية. لذا، أقوم بمساعدتهنّ، وأتدبّر لهنّ مسكناً منخفض التكلفة، وأقرضهنّ القليل من المال عندما يكنّ بحاجة إليه، وأجعلهنّ يقفنّ على أقدامهنّ".

"استناداً إلى ما بلغني عنك، إن المسألة تتخطى مساعدتك إياهنّ للوقوف على أقدامهنّ أو الاستلقاء على ظهورهنّ"، قال بن - روي. وتدخلت الحامية مجدداً.

"أي دُعابات رخيصة أخرى من هذا النوع وستنتهي المقابلة..."

"مهلاً، أيتها النمرة!". وضعك كريمينكو مشيراً لها بالتزام الهدوء. "كان يُمازحني فقط. لا تغضبي كلما أطلق أحدهم دُعابة صغيرة. هل يمكننا ذلك؟ آه يا بامبي!".

ووجه نظره إلى زيسكي عندما قال الجملة الأخيرة، ولكن التحريّ حافظ على رباطة جأشه مجدداً. ولو كان بن - روي مكانه لما تحمّل الإهانة. "هل هذا ما قلته للسيدة كلينبرغ؟" سأل.

"بالضبط. قلت لها إنني بمثابة الوالد لأولئك الفتيات. كيف لي أن أعرف أهنّ يَقمُنَ بكل تلك التصرفات قليلة الاحتشام من دون علمي؟ أنا الضحية هنا؛ ضحية طبيعتي التي تثق بالآخرين".

وهز رأسه بغضب مزيف. ألقى بن - روي نظرة سريعة على زيسكي، ومن ثم على الحامية التي بقيت أمارات وجهها خالية من أي تعبير بالرغم من أن موكلها

ينطق بالهراء. فتساءل عما إذا كانت تشعر بالاضطراب بسبب دفاعها عن شخص مثل كريمينكو. ربما لا. فهي ستجادل قائلةً إن القانون غير منحاز، وللجميع الحق بدفاع منصف. قد لا تحب الرجل، ولكن وجهة نظرها هي أنها تخدم قضيةً أسمى. ومن وجهة نظر بن - روي، إنها عاهرة كحال فتيات كريمينكو، لا بل أكثر منهن لأنها تملك قرارها.

"أخبرني عن قناة مصر"، قال.

"ما الذي تتحدث عنه؟".

وحلّ الارتباك المزيف مكان الغضب المزيف.

"القناة التي يتمّ الاتجار بالفتيات عبرها إلى داخل إسرائيل، مروراً بسيّئاء ووصولاً إلى النقب".

"لا أعرف شيئاً عن الأمر".

"يقولون إنك تدير العملية".

فهز كريمينكو كتفيه.

"يقول الناس كل أنواع الأمور. يقولون إنك تملك مجموعة من الأعضاء التناسلية النسائية ولكن ذلك لا يعني أن الأمر صحيح".

فأجفلت المحامية. ولو كان بن - روي أقل إحباطاً من مناورة كريمينكو في إجاباته لوجد عدم ارتياحها مسلياً.

"هل حدّثتك السيدة كلينبرغ عن مصر؟".

"ربما فعلت. ولو قامت بذلك لقلتُ لها ما قلته لك للتوّ".

"وما الذي حدّثتك عنه؟".

"هذا ما لا أعرف عنه شيئاً!".

ونفض القوّاد رِسه بطريقة تنمّ عن نفاذ صبر. وأعاد بن - روي الحديث إلى

بدايته.

"لنُعدّ إلى الفتيات"، قال. "هل سألتك السيدة كلينبرغ عن أيّ منهنّ بصفة

خاصة. هل ذكرتُ أيّ أسماء؟".

"لا أتذكّر".

"ماريا، هل ذكرت أمامك هذا الاسم؟".

فرك كريمينكو عينيه كما لو أنه يمعن في التفكير، ومن ثم هزّ رأسه.
"فوسغي؟".

وهزّ رأسه مجدداً.

"كما قلتُ لتلك المرأة البدينة. لديّ الكثير من المستأجرات لدرجة أنني لا أتذكر اسم كلّ منهنّ".

"ربما تتذكر الوجه". وفتح بن - روي الملف، وسحب صورة فوسغي ووضعها على الطاولة أمام كريمينكو. "هل كانت هذه المرأة إحدى المستأجرات لديك؟".

فهمت المحامية الملاحظة التهامية ورمقت بن - روي بنظرة تحذيرية. ولم يلاحظ كريمينكو ذلك، أو إنه اختار عدم الاكتراث. والتقط الصورة، وتظاهر بأنه يحدّق بها.

"لم يسبق لي أن رأيته من قبل"، أجاب بعد توقف مُغاليّ فيه، وأعاد له الصورة.

"هل أنت متأكد؟".

"متأكد كتأكدني من وجود ثقب في مؤخرتي".

"إنها أرمنية. لقد فقدت من ملجأ كانت تقيم فيه مؤخراً قبل أسابيع قليلة".

لقد تعمّد بن - روي قول ذلك ليتحقق من صدور أي ردّ فعل عن كريمينكو، ولكن شيئاً لم يحدث، بل حدّق به كريمينكو فحسب بعينين منتفضتين، زهرتَي اللون، وغير مسرورتين. وحاول بن - روي قراءة ما يدور في خلدّه، ولكن مصاريع عينيه كانت مُغلقة بإحكام، ولم يحصل على أي شيء ولا حتى على لمحة. من جهته، كان كريمينكو يعرف تماماً ما الذي يدور في خلد بن - روي، وشرع يضحك.

"أنت تصطاد، أيها التحري، بقصبة صيد مكسورة، وفي بركة فارغة، ورغم ذلك تتساءل عن سبب عدم حصولك على أي معلومات".

إنها كناية ولكنها غير بعيدة عن الحقيقة. أنهى القوّاد سيجارته، وانحنى إلى الأمام، وأطفأ عَقَب السيجارة في المنفضة.

"سأقول لكما أمراً ما، سأساعدكما"، قال. "تبدوان ثنائياً لطيفاً...".

وغمز زيسكي مرة أخرى.

"... وأنا شخص لئيم العريكة، وأسعى على الدوام لإرضاء الآخرين. إليكما ما جرى".

وأسند ظهره مجدداً وشبك ذراعيه، وانتفخت العضلات فوق مرفقيه.
"صديقاً، لم أحب تلك المرأة كلينبرغ. لقد وافقتُ على لقاءها، وحددتُ لها موعداً، وبدلاً من أن تشكرني ثبتتُ أهما عاهرة وقحة، وقوية الشخصية، وفظة. لقد طرحتُ أنواع الأسئلة المشوشة كافة، وألحت بالوسائل غير السارة كافة إلى حياتي الخاصة والمهنية. وفي النهاية، أخشى أن أكون قد فقدت صبري وأنهيت اللقاء. باختصار، وأقول هذا بصراحة، لم ننسجم مطلقاً. ولكن، إذا كنت تسألني إن كانت لي علاقة بمقتل المرأة، وأشتبه أن هذا ما تسألني عنه بطريقتك غير المباشرة..."

وبدأت محاميته بالاحتجاج قائلةً إن لا علاقة لهذا الموضوع بالمقابلة، ولكن كريمينكو لوّح لها مجدداً للالتزام الهدوء.

"إذا كان هذا الأمر موضوع سؤالك، فيإمكانني أن أقول لك بصدق، وبشرف الفتى اليهودي، إنني لم أقتلها. وإذا كنت ستوحي بشيء آخر، فمن الأفضل أن يكون لديك دليل دامغ تدعم به اتّهامك، وإلا أهملت عليك هذه المرأة الجذابة الجالسة بجانبني كمئات من أطنان التغوط التي خرجت يوماً من ثقب المؤخرة".
ونظر إلى التحريين مكوراً قبضتي يديه، وكان بالإمكان الإحساس بتصنّعه غير الجاد وطبيعته الحقيقية: فهو قاس، وبلا رحمة، وعنيف. وتبددت العاصفة بعد هبوبها، وعاد كريمينكو للابتسام مجدداً.

"والآن، بعد أن عاجلنا هذه المسألة، لنعد إلى العمل". وأشرق وجهه، ومدّ يده في اتجاه إبريق الماء. "توجد مرطبات، هل يريد أيّ منكم بعضاً منها؟".

وتواصلت المقابلة لأربعين دقيقة أخرى، ولكن بن - روي كان يقوم بعمله بدون اكتراث، فهو لم يتوقع من كريمينكو أن يخبره أيّ شيء، وكان الرجل منسجماً مع توقعاته. كان القوّاد غامضاً ومراوفاً، يُجيب عن أسئلة التحري بلا مبالاة شخص قضى كل حياته في ممارسة لعبة الهرّ والفأر مع القانون، وله ملء الثقة بقدرته على التملّص من مُلاحقه. من الواضح أنه كذب في شأن عمله كقوّاد

وأتجاره بالجنس، كما كذب على ريفكا كلينبرغ أيضاً في شأن نشاطاته. فهي لم تأخذ منه المعلومات التي أملت الحصول عليها. وكان بن - روي يعود مراراً وتكراراً إلى النقطة نفسها؛ فالفتاة مفتاح كل شيء. لقد تقدّمت كلينبرغ بطلب لزيارة كريمينكو في اليوم التالي لسماعها باختفاء فوسغي، وأياً تكن المعلومات التي حاولت انتزاعها منه، كان بن - روي على ثقة تامة بأنها مرتبطة باختفاء الفتاة الأرمنية. هل فوسغي إحدى فتيات كريمينكو؟ هل قام رجال كريمينكو باختطافها لمنعها ربما من الإدلاء بشهادتها ضده؟ هل اقتربت كلينبرغ من الحقيقة كثيراً وتمّ التخلص منها؟ إنه سيناريو ممكن - أفضل سيناريو يمكن التوصل إليه - وإن كانت هناك مجموعة من الأسئلة المرتبطة به والتي لم تتمّ الإجابة عنها. وعاد مراراً وتكراراً بالمقابلة إلى الورا، ضاغطاً على كريمينكو، وعارضاً عليه صورة الفتاة، في محاولة لإحداث فتحة في درعه، ولكن بدون طائل. ربما سيتمكّن في وقت لاحق من نقل كريمينكو إلى الكيشل وشدّ البراغي، ولكنه كان يشك في أن تكون لهذا الإجراء أي نتيجة. وكما قال الرجل، إنه يصطاد - فلديه الكثير من الافتراضات، وتباً للدليل الدامغ - وكان كريمينكو يُدرك ذلك. ومع إشراف المقابلة على نهايتها، بدت على وجهه نظرة رجل أمضى فترة بعد ظهر ممّنة.

وعند انتهاء الدقائق الستين، أعلنت الحامية انتهاء الوقت، ولم تسمح بأي ثانية إضافية. فأطفأت المسجّلة الشريطية ووقفت، وتوجّهت نحو الجرس المثبت على الجدار، وضغطت عليه منادياً الحارس. استرخى كريمينكو إلى الورا، ووضع ذراعه على أعلى الكرسيّ الفارغ الذي كانت محاميته تجلس عليه.

"سُرتُ بلقائكما كثيراً، أيها السيّدان"، وأطلق ابتسامة عريضة. "أو بالأحرى، سيداتي وسادتي".

ورمق زيسكي بإحدى النظرات المغيظة تلك.

"إذا كان باستطاعتي مساعدتكما بأي شيء آخر، رجاء لا تترددا في الاتصال بي. أنا مقيم هنا لأسابيع قليلة أخرى، وأتوقع العودة إلى منزلي مجدداً بعد ذلك".

وألقى نظرة سريعة على الحامية التي ظهرت على وجهها أمارات من قضت الساعة الأخيرة جالسة على صَبَّار. عادت خطوة إلى الورا في اتجاه كرسيّها،

ولكنها حين رأت وضعيّة ذراع كريمينكو، بقيت واقفة. وساد صمت غير مريح، ثم سُمع صوت وقع خطيٍّ مقتربة. فوقف بن - روي وزيسكي، وطقطق القفل وفتح الباب. كان الحارس رجلاً مختلفاً.

"اذهب باحتراس"، قال كريمينكو رافعاً يده المكتنزة، ومحرّكاً أصابعه في تحية وداع. "أهلاً وسهلاً بكما زائرَيْن دائِمَيْن".

حاول بن - روي إيجاد طريقة تهكّمية للردّ عليه تسمح له على الأقل بالمغادرة وهو موفور الكرامة، ولكنه لم يتمكن من التفكير في أي شيء، فأومأ برأسه لزيسكي، وتوجّه التحريان نحو الباب. وعندما وصلا إليه وتنحّى الحارس مُفسحاً لهما الطريق، عاد زيسكي فجأةً إلى الغرفة.

"غينادي، ما الذي كنتَ تقوم به بالتحديد لأجل شركة بارين؟".

كانت تلك محاولة عشوائية، على غرار محاولة بن - روي السابقة المتعلقة بفوسغي وبكونها قادمة من أرمينيا. وخلال لحظات وجيزة جداً، اتّسعت عيننا القوّاد، وضاحت شفّته قليلاً، ممّا كشف عن اختراق السؤال حاجز الحذر لديه وفقدانه رباطة جأشه. ولكنه استعاد اتّزانه على الفور.

"آه، إنّها تُعجبني حقّاً"، ضحك. "فهي صغيرة وسريعة الانفعال وجميلة جداً. لو كنتُ قوّاداً - وأنا لستُ كذلك كما نعرف كلنا - لقامت بعمل جيد لأجلي".

وأطلق ابتسامة عريضة لزيسكي، وبدا واضحاً أنه غير متّزن؛ لا شك في ذلك مطلقاً. وفي أثناء مغادرتهما الزنزانة وخروجهما من السجن، وضع بن - روي ذراعه على كتفَي زيسكي قائلاً:
"فتي جيد".

مصر

كان الوقت عصراً عندما وصل خليفة إلى الأقصر. في هذه الساعة، كان معظم سكان المدينة في منازلهم بسبب الحرارة، والشوارع هادئة وساكنة على نحو غير طبيعي. كان بعض المُستَين يلعبون السِّغا بجانب الينبوع الجاف عند المستديرة

أمام المحطة، واللفاعات موضوعة فوق رؤوسهم لتقيهم حدة الشمس. كانت عربة ذات غطاء يُطوى تشق طريقها غير المنتظم ذهاباً وإياباً في شارع المحطة علّها تحظى ببعض الركاب. باستثناء ذلك، كان المكان بلا حياة. فاشترى علبة كرتونية من عصير إيزي موزو - بنكهة المانغو - وجلس على إحدى درجات المحطة. أجرى اتصالاً هاتفياً بالمنزل أولاً للاطمئنان على زينب؛ لقد قضت ليلة سيئة أكثر من المعتاد، وكانت نائمة تحت ناظري بطّاح. ومن ثم اتصل بمحمد ساريا في مقر قيادة الشرطة. كان الرئيس الحسني غاضباً كما يبدو، ويملاً المكان صياحاً بسبب ظهور مجموعة كبيرة من الإعلانات في مختلف أنحاء المدينة تتهم الشرطة بعدم الكفاءة والفساد. ولم يلاحظ غياب خليفة، ونجا من الأسئلة المستفهمة. يبدو أن "صادق" لم ينفذ تهديده بالاتصال بالحسني. ليس بعد.

"أسدني صنيعاً، يا محمد"، قال في أثناء التحدث إليه عبر الهاتف. "إذا كان لديك القليل من الوقت، فهل باستطاعتك مقابلة عائلة من القرنة القديمة تُدعى عائلة البدري. إذا لم تجد أحداً هناك فلا بد أنهم انتقلوا إلى الطريف عندما تمّ جرف بيوت القرية".

"هل هناك شيء محدّد تريد أن تعرفه؟" سأل ساريا.

"المسألة قديمة. ولكن، كان هناك ثلاثة أشقاء وشقيقة واحدة. يدعى أحد الأشقاء "محمد"، والشقيقة إيمان. لقد ماتوا جميعاً منذ زمن، ولكنني مهتم بمعرفة ما إذا كان هناك أنسباء لهم. الأمر غير مُلحّ كثيراً. قُم بذلك عندما يتسنى لك الوقت".

قال ساريا إنه سيتابع القضية، وأنهى خليفة المكالمة، ثم جلس لدقيقة من الزمن مرتشفاً العصير، ومراقباً حافلة سياحية تابعة لتراكو وهي تتقدّم بثقل حول المستديرة، فيما يبدو ركباًها شاحبي الوجوه وسُيّمين. وبعد ذلك، شرب كل محتويات العلبة الكرتونية ورمّاها داخل صندوق قمامة، ثم وقف وانطلق إلى الضفة الغربية ووادي الملوك. ولو وفرّ له أي إعلان معلق إمكانية لصرف انتباهه لاستفاد من ذلك ربما.

وادي الملوك اسم على غير مسمّى. فالمقبرة القديمة ليست مقبرة حصرية للملوك - إنها مكان الراحة الأخير للملكات، والأمراء، والأميرات، والنبلاء،

والحيوانات الملكية الأليفة - كما أنها ليست وادياً واحداً. فهي تتكوّن من واديين متفرعين؛ والأكثر شهرة بينهما هو الوادي الشرقي حيث توجد كل المدافن الملكية الرئيسة، بما في ذلك مدفن توت عنخ آمون. والوادي الغربي الأوسع - أو وادي الرباح - وادي مدافن ضيق ومقفر لا يرتاده الكثير من الزائرين، وينفصل عن جاره الأكثر شهرة، ويتبع مساراً متعرجاً خاصاً بين التلال.

بعد عبور النهر، استقل خليفة مصعداً إلى مرأب الحافلة عند نقطة التقاء الواديين. ووقف للحظات محدّقاً بالسياج الخشبي الإعلاني الضخم الذي نُصب إلى جانب الطريق للترويج للمتحف الجديد في الوادي الشرقي. "شركة بارين"، جاء في النص. "تكرّم ماضي مصر، والترويج لمستقبل مصر". وبعد أن نقر السيجارة بإصبعه، توجه إلى الجزء الغربي للمقبرة.

بخلاف الازدحام الدائم في الوادي الشقيق، كان هذا الوادي خالياً من الحياة ومهجوراً؛ جادة كثيفة مكوّنة من صخور جيرية بيضاء مُعشّية للبصر تطوّقها جروف عالية وصمّت الصحراء الكثيف والخانق. ويقوم مسكن متداعٍ للحارس على جُرفٍ قرب أعلى الوادي، ويوجد على مَبعدة منه مبنى مقبّب أكثر وَجَاهة، كان ذات مرة منزل عالم الآثار المصرية جون رومر. وعدا عن لافتتين معدنيتين صدئتين تشيران إلى مدفني أمنحوتب الثالث وأخناتون، لا يوجد شيء؛ فقط صخور، وغبار، وطائرٌ خطّافٌ سريع ينساب من حين لآخر فوق أسطح الجُرف. ولو كان هناك مصري قدم يمشي بجانب خليفة، للاحظنا فرقاً قليلاً في مظهر الوادي وفي المشاعر التي تعتريهما.

لقد تطلّب الأمر قضاء القسم الأكبر من الدقائق الأربعين في السير على امتداد الوادي بسبب إبطاء الحرارة سرعة تقدّمه. في النهاية، عندما بدأ يفكّر بأنه كان يُفترض به ربما انتظار فترة أكثر برودة من النهار، انعطف الدرب إلى اليمين، وتلاشى تدريجياً في مدرج طبيعي عميق تحدّه من الخلف جدران من الصخور. وكان هناك ملاذ خشبي للاستراحة، وبجانبه مدخل مدفن الوزير إي من السلالة الحاكمة الثامنة عشرة الذي أصبح فرعوناً. وهناك دراجة نارية مُعبّرة من طراز جاوا مُسنّدة قرب المدخل، فشعر بالارتياح بعد أن خاف من اجتيازه كل هذه المسافة بدون أي جدوى.

نزل الدرجات إلى مدخل المدفن المفتوح، ونادى في اتجاه الممر شديد الانحدار.

"بروفيسورة دوفريسن!"

لا جواب.

"بروفيسورة دوفريسن، هل أنت هناك؟"

لا جواب أيضاً. وبعد ذلك، صدر صوت من الأسفل متحرر من الجسد كما لو أنه من العالم السفلي:

"يوسف خليفة، قلت لك ألف مرة، أنا أدعى ماري!"

فابتسم خليفة.

"أجل، يا بروفيسورة."

وسُمع وقع خطوات، ثم ظهر رأس من الأسفل، وكل ما هو تحت العُنق يحجبه المنحدر الشديد للممر.

"ماذا تفعل هنا بحق الجحيم؟"

"أردت طرح سؤال عليك."

"لا بد من أن يكون سؤالاً هاماً."

"هل أنزل؟"

"لا، كنت على وشك الصعود لتنشّق الهواء بأي حال. هل أنت عطشان؟"
"كثيراً".

"أنت محظوظ. لقد أحضرتُ الكثير من السير ليمون البارد."

إنها ماري دوفريسن المُسنّة الصالحة.

"أمهلني لحظة"، قالت وتوارت عن الأنظار مجدداً في الممر. فعاد خليفة إلى ظل ملاذ الاستراحة. وبعد مرور دقائق قليلة، كانت هناك حركة إلى يساره، وخرج شخص من مدخل المدفن؛ امرأة طويلة القامة، رمادية الشعر، ترتدي سروال جينز وتي - شيرت كاكّيّة اللون، وتضع لفاحاً كتانياً حول عُنقها. لوّحت له مبتهجةً، وصعدت المنحدر بخطوات واسعة في اتجاهه، متنقلةً بسرعة مثيرة للدهشة لأنها شارفت على التسعين من عمرها. ووقف خليفة، وتصافح الاثنان.

"كيف حالك، أيها الرجل الوسيم؟"

"بخير، الحمد لله. وأنت؟".

"في حال جيدة جداً بالنسبة إلى سيدة عجوز. ماذا عن زينب؟".

"إنها... بخير".

نظرت إليه ملياً، وبعد أن شعرت بأنه غير راغب في مواصلة الحديث، فركت ذراعه بودّ، ورفعت القنينة التي تحملها عالياً وسألته:

"هل تريد أن تشرب؟".

"ظننتُ أنك لن تسألي أبداً".

جلسا، وفتحت غطاء القنينة، وسكبت له كوباً وسلّمته إيّاه. ثم سكبت كوباً لنفسها، وشربا نخب أحدهما الآخر.

"أنا سعيدة برؤيتك يا يوسف".

"وأنا أيضاً، أيتها البروفيسورة".

"ماري"، صحت له مقاطعةً مِله الطبيعي إلى الشكليات في أثناء مخاطبته من هم أكبر منه سنّاً وأعلى مركزاً. أومأت موافقةً، ثم ارتشفت عصير الليمون.

كانت ماري دوفريس - المعروفة لدى الجميع في الأقْصُر بالـدكتورة الأمريكية - مشاهمةً للأسلاف. إنها الصلة الوحيدة المتبقية في ميدان عِلْم الآثار المصري مع العصر الذهبي الغابر. كان والدها، آلن دوفريس، قِيماً على المِيت، وقد برز في أواخر عشرينيات القرن الماضي، وعمل مع هربرت وينلوك، واصطحب معه زوجته وابنته، وبقيت ماري في مصر مذاك الحين؛ باستثناء مدة وجيزة قضتها في هارفارد للإعداد لشهادة الدكتوراه. وينلوك، هوارد كارتر، فليندرز بيري، جون بنديبوري، محمد غنيم؛ كانت تعرفهم كلهم. فقد كانت عضواً جديراً بالاحترام في تلك المجموعة. فماري دوفريس معروفة على الصعيد الشعبي بأنها أعظم رسّامة للآثار عملت في مصر، حتى إنه قيل إن زاهي حوّاس الشهير والمتعجرف يقدرها كثيراً.

"إذاً، كيف يسير العمل؟". سأل خليفة متناولاً محتوى كوبه بجرعة واحدة، وموافقاً على ملئه مجدداً.

"بطيء"، أجابت. "هكذا يُفترض به أن يسير. العالم يسير بسرعة كبيرة لا

تتلاءم مع وتيرتي".

دأبت ماري في العقد الأخير على وضع رسوم بمقاييس نسبية لكل لوحة ونقش في الوادي الغربي. وقضت ثلاث سنوات من السنوات العشر الأخيرة في العمل على مدفن إي.

"يبدو أنك كنت بحاجة لذلك"، قالت في أثناء شربه محتوى كوبه مجدداً بجُرعة واحدة وطويلة.

"إنها أطول رحلة على الأقدام أقوم بها".

"هذا ما يكون عليه الحال في الصيف. عندما يميل الطقس إلى البرودة يزداد النهار قصراً. وعندما يحلّ كانون الأول/ديسمبر، يمكنك اجتياز المسافة قفزاً".

ابتسمت وأعادت ملء كوبه للمرة الثالثة.

"إذاً، ما هذا السؤال الغامض الذي أردت أن تطرحه عليّ؟".

تناول خليفة رشفة أخرى ممتّة؛ إذ تُعدّ ماري الليمونادة بنفسها، وتوازن بشكل صحيح بين مرارة الليمون وحلاوة سُكّر القصب. وبعد أن مسح فمه، وضع الكوب جانباً.

"السؤال يتعلق برجل يدعى سامويل بينسكر"، قال. "إنه إنكليزي كان يعمل هنا. كنت أتساءل إن كنت تتذكرينه".

"سامويل بينسكر". لفظت الاسم مطوّلاً كما لو أنه سبق لها أن سمعت به.

"يا الله! إنه عَصْفُ المَاضِي".

"أنت تتذكرينه بالفعل".

"بغموض. اختفى عندما كنت طفلة. لقد عشروا على جثته في السبعينيات. يبدو أنه سقط في حفرة أسطوانية لمدفن في الجبل العالي".

كان خليفة قد قرر الاحتفاظ لنفسه بواقع أن بينسكر قد تعرّض للقتل. فكما قال الرئيس صادق، من الأفضل تبسيط بعض الروايات. وسأل عما إذا كانت تتذكر أي شيء عن الرجل.

"كان يخيفني. أتذكر ذلك بالتأكيد"، قالت محرّكةً يدها بخفّة لتفريق الذباب

المندفع نحو حافة الكوب. "كان يضع ذلك القناع الذي يظهر منه ثقبان صغيران للعينين وشقّ للفم. جعله ذلك يبدو كما لو أنه... لا أعلم، مسخ أو غول أو ما شابه. أظنّ أنه تعرّض لحادث في أثناء عمله في منجم، حادث انفجار غاز، أو شيء

من هذا القَبِيل؛ عِلماً أَنِّي ربما أَكُون مَخْطِئَةً. حَدَثَ ذَلِكَ قَبْلَ ثَمَانِينَ عَاماً، وَمَعَ مَرُورِ الزَّمَنِ تَصَبَّحَ تِلْكَ الْأُمُورُ مُبْهَمَةً قَلِيلاً".

وَوَجَّهَتْ ضَرْبَةً أُخْرَى سَرِيعَةً بِيَدِهَا؛ كَانَتْ يَدَاهَا جَمِيلَتَيْنِ عَلَى نَحْوِ مَثِيرٍ لِلدَّهْشَةِ، فَهَمَا طَوِيلَتَانِ وَنَحِيلَتَانِ وَرَشِيقَتَانِ. إِنْ مَرُورِ الزَّمَنِ يَمْحُو أَيَّ إِمْلَاعَةٍ لِمَا كَانَ بَعْضُ الْأَشْخَاصِ يَبْدُونَ عَلَيْهِ فِي سَنٍّ صَغِيرَةٍ، فِي حِينٍ أَنَّهُ يُمْكِنُ التَّقَاطُ لِمَحَاتِ الْأَشْخَاصِ آخَرِينَ كَمَا لَوْ أَهْمَ كَانُوا فِي سَنٍّ صَغِيرَةٍ. وَبِالرَّغْمِ مِنْ شَعْرِهَا الرَّمَادِيِّ وَتَجَاعِيدِهَا وَالبُقْعِ البَنِيَّةِ المَائِلَةِ لِلْحُمْرَةِ عَلَى بَشْرَتِهَا، مِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ مَارِي دُوفْرِيسِنَ كَانَتْ ذَاتَ مَرَّةٍ امْرَأَةً جَذَابَةً جَدًّا، وَمَا زَالَتْ كَذَلِكَ بِطَرِيقَةٍ مَا.

"سَامُوِيلُ بَيْنِسْكَرٌ"، كَرَّرَتْ مُنْهِيَةً شَرَابَهَا، وَمُعِيدَةً وَضْعَ الْكُوبِ عَلَى الْقَنِينَةِ. "مَا الَّذِي يَحْمِلُكَ عَلَى السُّؤَالِ عَنْهُ؟".

"ظَهَرَ الْاسْمُ فَجْأَةً فِي قَضِيَّةٍ يَعْمَلُ عَلَيْهَا صَدِيقِي لِي. وَقُلْتُ لَهُ إِنِّي سَأُحَاوِلُ جَمْعَ بَعْضِ الْمَعْلُومَاتِ عَنْهُ".

وَأَشْعَلَ سِيَّجَارَةً.

"صَدِيقِي إِسْرَائِيلِي"، أَضَافَ.

ارْتَفَعَ حَاجِبَا دُوفْرِيسِنَ مِنْ فَرَطِ الدَّهْشَةِ.

"كَيْفَ تَكُونُ لِسَامُوِيلَ بَيْنِسْكَرٍ عِلَاقَةٌ بِقَضِيَّةٍ لِلشَّرْطَةِ فِي إِسْرَائِيلَ؟".

"كَنتُ أَمَلُ أَنْ تَتِمَكَّنِي مِنْ إِخْبَارِي".

فَهَزَتْ رَأْسَهَا.

"آسَفَةٌ يَا يَوْسُفَ، لَا أَعْتَقِدُ أَنِّي سَأَقْدِمُ لَكَ مَسَاعِدَةً كَبِيرَةً فِي هَذَا الشَّأْنِ. أَحَبُّ التَّفَكُّيرِ فِي أَنِّي لَمْ أُصَبِّ بِالْخَرْفِ بَعْدَ، وَلَكِنْ ثَمَانِينَ عَاماً مَدَّةً طَوِيلَةً. كُنْتُ فِي السَّادِسَةِ أَوْ السَّابِعَةِ مِنَ الْعُمُرِ فَقَطْ عِنْدَمَا فُقِدَ. كَمَا قُلْتُ، مَعَ مَرُورِ الْوَقْتِ تَمِيلُ الْأُمُورُ إِلَى الْإِضْمَحْلَالِ".

وَرَفَعَتْ شَعْرَةً عَنْ عَيْنِهَا وَأَسْنَدَتْ ظَهْرَهَا، وَتَرَبَّعَتْ، مُعِيدَةً تَرْتِيبَ لِفَاحِهَا حَوْلَ عُنُقِهَا.

"أَتَذَكِّرُهُ بِالْفِعْلِ وَهُوَ يَتَنَقَّلُ فِي الْأَرْجَاءِ عَلَى مَتْنِ دِرَاجَتِهِ النَّارِيَةِ الْهَادِرَةِ"، قَالَتْ بَعْدَ تَوَقُّفٍ قَصِيرٍ، "وَأَخَافُنِي ذَاتَ مَرَّةٍ فِي أَحَدِ الْمَعَابِدِ لِدَرَجَةٍ أَنِّي تَغَوَّطْتُ فِي مَلَابِسِي. عُذْراً عَلَى أَسْلُوبِي فِي التَّعْبِيرِ. لَا فِكْرَةَ لَدَيَّ عَنِ الْمَعْبَدِ، أَوْ عَمَّا كُنْتُ

أقوم به هناك. أتذكره فقط قادماً في اتجاهي من وراء عمود. لقد انتابتني الكوابيس طوال أسابيع بسبب ما حدث".

"هل أذاك؟". سأل خليفة مفكراً بالفتاة التي اغتصبها بينسكر.

"ماذا؟ أتعني إن كان قد عاكسني؟".

فهز خليفة كتفيه.

"بالتأكيد لا. أتذكر فقط أنه كان يظهر فجأة، فأزعق وأهرب، ويتبعني بقناعه المريع ذاك".

ونكست رأسها مفكرةً، ثم رفعت نظرها مجدداً وقد ارتسم على وجهها تعبير اعتذاري.

"هذا ما أتذكره تقريباً، أنا آسفة. صديقاً، لا يمكنني أن أكون واثقة مما حدث سابقاً. تعرف كيف تُحرّف الذكريات وتتشابك. انظر إلى هناك".

وأشارت إلى المقعد الإسمتي الطويل حيث حطّ دبّور كبير بجانب يد خليفة، ثم طاف في المكان، وطار بخفة، وحطّ على حافة كوبه. فحمله على الابتعاد برأس سيجارته المشتعلة، وشرب عصير الليمونادة المتبقي في الكوب، ثم وقف، وأخذ الكوب إلى الخارج، ووضعته على صخرة. فتبعه الدبّور.

"كان ماكس يعرفه"، قالت في أثناء عودة خليفة إلى مقعده.

"ماكس؟".

"لوغرانج. إنه عالم آثار فرنسي؛ نابغة في الخزفيات. عمل مع برويير وسيرني في دير المدينة".

"لم أسمع به مطلقاً".

"لأنك لم تعاصره أيها الشاب. إنه مَيّت الآن بالطبع. كلّهم ماتوا. لم يبقَ أحد سواي من تلك المجموعة".

وتنهدت، وتحوّل نظرها للحظات في اتجاه الوادي؛ بدا الأمر كما لو أن ذهنها عبر إلى إطار زمني مختلف. لم يدُم ذلك سوى بضع ثوانٍ ومن ثم تابعت الحديث.

"بعد عشورهم على الجثة مباشرةً، أتذكر احتسائي الشاي مع ماكس وإخباري إياه عن بينسكر وعما كان عليه حاله. لم يقل أموراً جيدة كثيرة عن الرجل. كان

مدمناً على الشراب وقاسياً كما يبدو، ويجادل الناس باستمرار. لقد تعارك مع بعض القرنائين* ذات مرة، فطرح أحدهم أرضاً، مُفقداً إياه الوعي".

مرة أخرى، فكّر خليفة بالفتاة التي تعرّضت للاغتصاب. كانت من القرنه أيضاً. وكان باستطاعته تخيل بينسكر كما وُصف له. من الواضح أن تشوّه وجهه يميّزه عن غيره، ولكنه يبدو شخصية نمطية: ذاك الإنكليزي العنيف، الفظّ، المتعالي، الذي طالب بحصة من الميراث في مصر؛ علماً أنه كان يعتبر المصريين عِرْقاً ثانوياً لذا ينبغي الإساءة إليهم واغتصابهم. إنه استعماري نموذجي من المدرسة القديمة.

"كان كارتر يحبه كما يبدو"، قالت دوفريس، "مما يحملني على توقّع أنه كان هادئ الطباع مع هوارد. لقد طُرد من قسم التحف الفنية القديمة ذات مرة بسبب صفعه سائحة فرنسية في ساكارا".

لم يسبق لخليفة أن سمع بتلك القصة.
"هل تذكرين أي شيء آخر؟". سأل محاولاً اكتشاف رابط ما مع قضية بن - روي.

"حسناً، لا يمكنني تذكر الحديث حرفياً"، قالت دوفريس. "لا تزال فترة أربعين عاماً مدة طويلة من الزمن".
ونكّست رأسها مُعينةً في التفكير.

"أذكر أنه أشار إلى بينسكر بقوله إنه مهندس ماهر للغاية يقوم بتدعيم العديد من الآثار هنا وفي الضفة الشرقية. آه أجل، وأنه اعتاد الاختفاء في الصحراء طوال أسابيع متتالية".

كان خليفة منحياً لإطفاء سيجارته بالأرضية الإسمنتية. فرفع نظره لدى سماعه ذلك. لقد قالت صاحبة الدار التي كان بينسكر يقيم فيها في كوم لولاح الكثير من الأمور المماثلة في إفادتها للشرطة بعد اختفاء الإنكليزي؛ علماً أنه لم يكن هناك ذكر للصحراء.

"هل ذكر صديقك أي صحراء يقصد؟" سأل مقوّمًا جلسته مجدداً، وقد أُثير اهتمامه.

"الشرقية، كما أعتقد. أجل، الصحراء الشرقية بالتحديد".

* نسبة إلى القرنة.

"هل تعرفين ما الذي كان بينسكر يفعله هناك؟".

فهرزت رأسها عاجزةً عن الإجابة. كان عقل خليفة يعمل بكل طاقته. ليلية مقتله، عاد سامويل بينسكر من رحلة غامضة أخرى قام بها إلى مكان مجهول، واحتسى الشراب حتى الثمالة، ثم اغتصب فتاة، ومن ثم قصد منزل هوارد كارتر مترنحاً، ومتباهياً بعثوره على شيء ما يبلغ طوله أميالاً. إن السيناريو يوصله إلى مكان ما، كان بإمكانه الشعور بذلك، سواء أكان لذلك المكان علاقة بقضية بن - روي أم لا، فالأمر يثير اهتمامه.

"هل سمعت يوماً أن سامويل بينسكر قد عثر على شيء ما؟" سأل.

"ماذا تعني بقولك إنه عثر على شيء ما؟".

"لا أعرف، على مدفن ربما، أو...".

وحاول التفكير بأي شيء آخر يتلاءم مع الوصف "يلغ طولها أميالاً"؛ لاكتشاف ما رغب بينسكر في التباهي به. ولكن، لم يتبادر إلى ذهنه أي شيء، حتى إن المدفن لا ينسجم مع الوصف.

"شيء ما كبير"، قال بطريقة غير مُقنعة.

فرمقته دوفريسن بنظرة استجوابية، غير فاهمة ما يرمي إليه. وبهدف تقديم المزيد من الشرح، أخرج ملف العام 1931 من كيسه، وسحب رسالة كارتر وسلمها إياها. فقرأها، واتسعت عيناها من فرط الدهشة.

"يا للغرابة!"، قالت عندما أنهت القراءة. "أستطيع سماع صوت هوارد تقريباً وهو يقول هُراء تومي؛ كان يستخدم تلك الجملة على الدوام".

"هل تعني لك شيئاً؟ أقصد تلك العبارة عن...".

وانحنى خليفة وأشار إلى السطور ذات الصلة.

"لا شيء البتة، آسفة. أنا مشوشة على غرارك. إنه لغز بالتأكيد".

وشرعت بقراءة الرسالة مجدداً، ولكنها سحبت الورقة فجأةً قبل أن يأخذها خليفة، وأعادتها قراءتها. ومن خلال سلوكها وطريقتها في إغماض عينيها بسرعة وبشكل متكرر كما لو أنها تعود بالذاكرة إلى حدث بعيد، كان هناك ما يشير إلى وجود صلة.

"لا"، تمنت. "هذا غير ممكن".

"ماذا؟".

"حدث ذلك بعد أعوام. إنه سياق مختلف تماماً. ولكنني أتكلّم عن هوارد، والأسلوب مماثل تقريباً".

بدا الأمر كما لو أنّها تتحدث إلى نفسها أكثر من كونها تتحدث إلى خليفة. وتساءل للحظات وجيزة عما إذا كان تقدّمها في السن قد بدأ يؤثّر عليها أخيراً، وإن كانت مقدراتها العقلية آخذة بالتراجع. ومن ثم نظرت إليه بذهن صافٍ كما كان حالها على الدوام.

"ماذا؟" سأل مجدداً.

"حسناً، لا أريد حقاً إرباك المسألة. ما أفكر فيه لا علاقة له تقريباً، ولكن...". ونظرت إلى الرسالة مجدداً، ومن ثم أسندت ظهرها إلى أحد الأوتاد الداعمة لسقف الملاذ.

"إنه أمر سمعته عرضاً بعد نحو ثماني سنوات من اختفاء بينسكير. لقد علق في ذهني، وفي أثناء قراءتي جملة عثرتُ عليه، يا كارتر، تذكّرتُه مجدداً. ما أريد أن أقوله هو إنه أمر مختلف تماماً ربما، ولكن...".

ولزمت الصمت هازئةً رأسها.

"هل تريدان أن تخبريني؟".

"بالتأكيد. في الواقع، إنه أحد الأمور القليلة التي تعود إلى تلك الفترة، والتي أتذكّرها بوضوح تام. ربما يعود سبب ذلك إلى أنّ تلك المرة كانت المرة الأخيرة التي نرى فيها هوارد على قيد الحياة".

ولزمت الصمت لثوانٍ قليلة، مستجمعةً أفكارها.

"قبل ثلاثة أو أربعة أشهر من وفاته، أي ما بين نهاية العام 1938 وبداية العام 1939، كان يُقيم في لندن، ولكنه اعتاد قضاء فصل الشتاء في الأقصر، وغالباً ما كان يقصد منزلنا لتناول العشاء معنا. كان يتم إرسالني إلى الطابق العلوي على الدوام، ولكن على غرار معظم الأطفال كنت أزحف إلى فسحة الدرج، وأحاول استراق السمع إلى ما يقوله البالغون. لا أستطيع أن أتذكّر من كان موجوداً بالتحديد؛ والدي وهوارد، بالتأكيد، وربما هربي وبنلوك ووالث هاوزر...".

وتوقفت قليلاً مفكرة، ومن ثم لوّحت بيدها.

"لا يهمّ. ما أريد قوله هو أنه حدث جدال كبير، وشرع هوارد بالصياح. كان سريع الغضب على الدوام، وازداد غضبه حدةً قُبيل نهاية الجدال لدى التطرق إلى داء هودكين. لا فكرة لديّ عما كانوا يتجادلون في شأنه، ولكنني أتذكر تماماً هوارد وهو يصيح بصوت مرتفع: لم يعثر عليها. الأمر برّمته هراء تومسي. إنها أسطورة. باستطاعتكم حفر الصحراء الشرقية برّمتها ولكن تجدوها لسبب بسيط؛ وهو أن المتاهة لم تكن موجودة قطّ".

فقطّب خليفة جبينه.

"متا-هي؟"

كانت الكلمة غير مألوفة لديه.

"متاهة"، ترجمت.

"ماذا تعني؟"

"لا أعلم، صدقاً. فالمتاهة الوحيدة التي سمعتُ بها يوماً هي مجمّع هرم أمنمحات، ولكنها موجودة في الحوارة في الفيوم. لقد اكتشفها بتري في أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر".

وتمتّعت بالرسالة مجدداً، ومن ثم سلّمته إيّاها.

"أهذا كل شيء؟". سأل خليفة مُعيداً الورقة إلى الملف. "ألا يمكنك أن تتذكري شيئاً آخر؟".

"آسفة".

"أليست لديك أيّ فكرة عما كانوا يتحدثون عنه؟ وعن الشخص الذي عنّوه بكلامهم؟".

"آسفة يا يوسف. لا شيء لديّ سوى تلك المعلومة الصغيرة. ربما كانوا يتحدثون عن بتري والحوارة، وربما تشوّشت أفكار هوارد وقال الشرقية بدلاً من الغربية. ربما تكون أفكاره مشوّشة. حدث ذلك قبل ثمانين عاماً بالرغم من كل شيء. الذكريات تخدع. لقد صدمني وجه الشبه في العبارات، والإشارة إلى الصحراء الشرقية...".

وهزّت كتفَيها بطريقة اعتذارية. انحنى خليفة إلى الأمام، وأعاد الملف إلى الكيس. ومَرّت لحظات اعتقد خلالها أنها ستُخبره شيئاً ما يُنير بحثه، ولكن يبدو

الأمر كما لو أنها زادت القضية غموضاً. لقد ادعى سامويل بينسكر العثور على شيء ما يبلغ طوله أميالاً، ولكن في مكان ما خارج الصحراء ربما. وقد يكون بينسكر، أو أي شخص آخر، من ادعى وجود المتاهة، ولكن في الصحراء الشرقية. قد يكون الادعاءان بشأن أمور مختلفة تماماً، ولا علاقة واضحة لأيٍّ منهما بقضية بن - روي. إن الأمر أشبه بممارسة لعبة الطاولة مع وضع نظارة مغطاة بروث الجاموس، وهي إحدى جُمَل الرئيس الحسني المفضلة.

لقد ارتسمت حيرته على تعابير وجهه بالتأكيد، لأن دوفريسن مدّت يدها وضغطت على ذراعه.

"هناك شخص واحد يمكنك التحدث إليه"، قالت.
فرفع نظره.

"رجل إنكليزي يدعى ديغبي غيرلينغ. إنه رجل مُضحك، وبدين، ويبدو كبالون. قبل سنوات قليلة - في الواقع، أكثر من سنوات قليلة - وضع كتاباً عن الذين شاركوا في التنقيب عن توت عنخ آمون. أنا على ثقة تامة بأن بينسكر مذكور في الكتاب. ربما كان ديغبي يعرف المزيد."
"هل تعرفين كيف يمكنني الاتصال به؟".

"حسناً، إن مركزه في إنكلترا - لندن بيركبك كما أعتقد - ولكن، في هذا الوقت من العام، يمكنك العثور عليه ربما وهو يحاضر على أحد يخوت النيل."
سجل خليفة ذلك في ذهنه، ونظر إلى ساعته. لقد تأخر الوقت أكثر مما اعتقد.

"ينبغي عليّ العودة. لا أحب أن... تعلمين... زينب."
ضغطت على ذراعه مجدداً وهي تقول:
"أفهم يا يوسف. آسفة لأنني لم أتمكن من تقديم المزيد من المساعدة."
"قدّمت مساعدة كبيرة".

"على الأقل، لقد أنعشتك بقليل من العصير"، وابتسمت مرتبةً على قنينة الليمونادة. "هل يمكنني أن أُقَلِّك إلى ذراع أبو النجا؟".

وأومأت في اتجاه دراجتها النارية، فرفض خليفة طلبها غير راغب في إزعاجها، ولكنها أصرّت، قائلةً إنها بحاجة للذهاب إلى ذلك المكان بأي حال

لإحضار بعض الأغراض. إنها كذبة واضحة، ولكن البديل هو الكدّ في السير عبر الوادي في حرّ فترة العصر الملتهب؛ لذلك، اقتنع خليفة بضرورة كبتة اعتداده بنفسه وقبوله العرض.

"شكراً لك"، قال.

"شكراً لك". نادراً ما يتسنى لي في هذه الأيام التحول برفقة شاب وسيم على المقعد الخلفي".

أعادت فتينة الليمونادة إلى المدفن، وأقفلت بوابة المدخل، وانطلقا على امتداد طريق الوادي وصولاً إلى الطريق المعبّدة التي تتعرّج بين التلال من وادي الملوك إلى السهل الأخضر المزروع في الأسفل. وبدلاً من إنزاله في ذراع أبو النجا، تابعت طريقها نحو النهر، وهو أمر لم يُبدِ حياله سوى مقاومة رمزية. من الممتع أن يشعر بالهواء يداعب وجهه.

وألقى كل منهما تحية الوداع على الآخر عند مطلّ الجزيرة المائي، ثم دفع خليفة خمسين قرشاً، وصعد على متن العبّارة المحلية المتوجهة إلى الضفة الشرقية، مفكراً طوال الوقت في سامويل بينسكر، والجريمة التي ارتكبها، وموته وحيداً، والشيء أو المكان الغامض الذي ادّعى العثور عليه. وعندما رست العبّارة عند الضفة البعيدة، نزل إلى البرّ مع الركاب المتراحمين. وفيما كان يصعد الدرج في اتجاه الكورنيش القائم على النيل، تصلّب فجأة وتسمّر في مكانه.

للمرة الأولى منذ تسعة أشهر، لم يفكر بابنه علي في أثناء وجوده في الماء. وعاد إلى النهر مصدوماً، وغير واثق مما إذا كان ينبغي عليه الشعور بالارتياح بسبب إلهائه المؤقت عن الحزن الذي يشعر به، أم بالذعر من فكرة بدئه بنسيان ابنه.

إسرائيل-تل أبيب

بعد إنزاله زيسكي وسط تل-أبيب، أجرى بن - روي اتصالاً هاتفياً بصديقه الصحافي ناتان تيرات للتحقق مما إذا كان يميل إلى احتساء شراب معه، وحافزه الأول محاولة استقراء آراء الأشخاص شديدي الذكاء في شأن شركة

بارين. كان تيرات أمام حد زميني أقصى - قصة فاتنة عن ثقب أسود في صندوق المعاش التقاعدي للجيش الإسرائيلي - ولكنه قال إنه سينتهي من إعداد المقالة في غضون ساعة إذا كان بن - روي راغباً في التسكّع في مكان ما. لم يكن لديه سبب مُلِحّ للعودة إلى القدس فوافق على ذلك، واتفقا على الالتقاء في مقهى يعرفانه في ديزنغوف.

ثم أجرى اتصالاً هاتفياً ثانياً بسارة، وترك رسالة في بريدها الإلكتروني. وبعد ذلك، رغبةً منه في التنزّه بانتظار مرور الوقت، ركن سيارته على جانب الطريق على مقرّبة من ها-ياركون، وقام بنزهة سيراً على الأقدام على امتداد الواجهة البحرية.

كان الكورنيش ناشطاً بالحركة كما هو الحال على الدوام أيام السبت؛ فقد كان هناك مُشاة، ومهرولون، وراكبو دراجات هوائية، ومقاهٍ متلاصقة، وصف من الأزواج يلعبون الماتكوت وراء الشيراتون مورياء، وسُمع صوت خبط الكُرّات على بُعد مئات الأمتار في الاتجاهين. وهناك موسيقى، وحشد من الأشخاص الذين كانوا يتدربون على نَقَلات موسيقى السُّلْسَة. وعلى الشاطئ، كان هناك العديد من الأشخاص الذين يعرّضون أجسادهم لأشعة الشمس وقد ارتدوا القليل من الملابس لدرجة أنهم يبدوون شبه عُراة. لم يبدُ الأمر كما لو أنّها مدينة مختلفة عن القدس، بل بدت عالماً مختلفاً كلياً؛ فهي أكثر تساهلاً، وأقلّ حدّة، والناس فيها يعيشون باسترخاء وعلى سجيّتهم. في القدس، تشعر على الدوام بوجود عبء على كاهلك؛ الدين، التاريخ، الوضع الفلسطيني. وهنا، على الشاطئ، يُرْفَع العبء وتبدو إسرائيل بلداً طبيعياً. وليست هذه هي المرة الأولى التي يتساءل فيها عن سبب انتقاله منها.

اشترى لنفسه الثلّجات - بنكهة الفريز والفسق - وجال جنوباً على امتداد المتنزّه، البحر إلى يمينه، والواجهات الشاحخة للفنادق القائمة قبالة الشاطئ تشكل جداراً إسمتياً متواصلاً إلى يساره. فكّر بمتابعة السير وصولاً إلى متنزّه كلور بارك ليقوم بتمرين جيّد لساقه، ولكنه استنفد طاقته عند برج الأوبرا الهرمي المماثل للزقورة. ووقف للحظات مستمعاً إلى فرقة موسيقية تعزف على آلات وترية، وتقدّم حفلة موسيقية ارتجالية تحت شجرة نخيل. وبعد مضغه ما تبقى من

البسكويت مخروطي الشكل، استدار عائداً من حيث أتى. واستدارت أفكاره معه، مبتعدة عن تأملاته العشوائية بتل-أبيب، وسارة والطفل، والمنحى الذي اتخذته حياته، وعاد إلى قضية كلينبرغ. فبفضل تعليق زيسكي اللاذع في السجن، اتضح له وجود صلة ما بين غينادي كرىمينكو وشركة بارين؛ علماً أنه ليس هناك أحد يعرف نوعية هذه الصلة. ومن الواضح أن تورط كرىمينكو بالاتجار بالجنس يربطه بفوسغي التي ترتبط أيضاً بصلة مع الجانب الأرمني. حتى الآن كل شيء يسير بشكل جيد. ولكن، ماذا عن نِمسيس أجندا ورحلة كلينبرغ غير المفسّرة إلى ميترزبي رامون؟ هل كشفت نِمسيس النقاب عن أمر ما ذي علاقة بالمقالة التي كانت كلينبرغ تُجري بحثاً عنها عندما قُتلت؟ هل قصدت كلينبرغ تلك الجماعة حاملةً معها شيئاً ما؟ للوهلة الأولى، تبدو الوقائع متكاملة؛ وإن لم تكن بطريقة مرضية تماماً. إذاً، بارين، كرىمينكو، الاتجار بالجنس، فوسغي، دار العبادة الكبرى الأرمنية، نِمسيس؛ كلها أطراف خيوط يمكن ربطها ببعضها، ولا يُستثنى منها إلا خيطان ضعيفان في أفضل الأحوال.

فجوهر المشكلة يتمثل بالمقالات التي كانت كلينبرغ تطالعها وتتناول استخراج الذهب وسامويل بينسكر. من الواضح أن مقالة استخراج الذهب مرتبطة ببارين، وبطريقة واهية، بسامويل بينسكر الذي كان مهندس تعدين كما ثبت. وبينسكر مرتبط بمصر التي كانت مركز نشاط للاتجار بالجنس. بالرغم من ذلك، تبدو المقالتان في غير مكانهما على نحو متضارب، وتحتويان على انحرافات غير قابلة للشرح مرتبطة بعمل كلينبرغ.

كان بينسكر بصفة خاصة يُشعره بألم في المعدة. لقد علّمته الخبرة أن كل قضية تحتوي على عنصر واحد على الأقل لا ينسجم مع العناصر الأخرى، ويرفض ببساطة التكامل مع بقية أجزاء أحجية الصورة المقطّعة. وبينسكر هو ذاك العنصر. فالإنكليزي جزء من صورة مختلفة تماماً كما يبدو. وكان بن - روي يأمل أن يكتشف خليفة شيئاً ما، ولكن خمسة أيام مرّت ولم يتلقَ أي اتصال من المصري بعد. لقد جعله هذا الأمر في وضع دقيق. كان بحاجة ماسة إلى المزيد من المعلومات عن بينسكر، ولكنه لم يشأ في الوقت نفسه الضغط على خليفة، سيّما وأن الرجل يسعى للتعافي من المصيبة التي ألّمت به. لقد سبق له أن اتصل به وترك له رسالة من

دون أن يتلقّى أي اتصال منه، ولم يجبّد فكرة مضايقته. ولكنه لا يستطيع الانتظار إلى ما لا نهاية. فلديه جريمة يتعيّن عليه حلّها، وسامويل بينسكّر مرتبط بتلك الجريمة بطريقة ما. هل يتصل به مجدداً؟ هل يُفترض به الشروع بتحريّاته الخاصة، وتكليف زيسكي بمهمة الحصول على بعض المعلومات. كان لا يزال يحاول اتخاذ قرار في هذا الشأن عندما رنّ هاتفه المحمول.

جيد. جيد. إنه خليفة. اليهودي والمسلم في انسجام.
"كنت أفكر فيك للتو"، قال ملوّحاً لبائع يحاول بيعه قُبعة للوقاية من الشمس، ومشيئاً له للابتعاد.

"ليس بطريقة سيّئة، كما آمل"، قال خليفة.
"لا شيء هنا سوى أشعة الشمس والحب، يا صديقي".
لم يبدُ على خليفة إن كان مسروراً بالتعليق أم لا. فاعتذر على عدم الاتصال به من قبل، وشرح أنه كان يرغب في التحدث إلى شخصين قبل الاتصال به، ومن ثمّ شرع بسرّد ما اكتشفه حتى ذلك الحين: الاغتصاب، عملية القتل الثأرية، رسالة هوارد كارتر، الاكتشاف المبهّم الذي ادّعى بينسكّر تحقيقه قبل وقت قصير من وفاته والذي قد يكون على علاقة بالمتاهة. وإذا كان بن - روي يأمل أن تساعد المعلومات التي يحملها له خليفة على إلقاء ضوء على القضية، فلا بد من أن يكون قد أُصيب بخيبة أمل. وليست هذه هي المرة الأولى في هذه القضية.
"ما الذي تستنتجه من ذلك؟" سأل عندما أنهى خليفة كلامه.

"لا أعرف حقاً"، أجاب المصري. "قصة المتاهة تلك مثيرة للاهتمام، ولكن سواء أكانت محطّ اهتمام ضحيّتك أم...".
وتوقف صائحاً بغضب باللغة العربية.
"آسف، إنهم أطفال كانوا على وشك عبور الطريق"، شرح. "أغبياء. ينبغي عليهم التحقق من الطريق قبل أن يعبروا".

وشرع بن - روي بالابتسام، وتوقف بعد ذلك، مُدركاً تأثير ذلك على صديقه. وسأله إن كانت هناك أي صلة بين الجريمتين بحسب رأيه: الأقصّر عام 1931، والقدس في الوقت الحاضر. فصدر عن المصري ما يشبه الصراخ، وهو الموازي اللفظي لرفعه يديه في الهواء للتعبير عن عجزه.

"لا يمكنني رؤية أي صلة واضحة، باستثناء أن القتيلين يهوديان. وحتى في هذه الحالة، يبدو الأمر... كيف تقولها؟ غير مُقنع نظراً إلى أن فترة ثمانين عاماً تفصل بين الجريمتين. ولكنني لا أعرف كل تفاصيل قضيتك، لذلك ربما أغفل شيئاً ما".

إنها وجهة نظر مُنصفه. فبن - روي لم يزوده إلا بنظرة عامة أساسية عن الوضع. ويعود سبب ذلك جزئياً إلى رغبته في تجنب رد فعل غير محسوب قد يصدر عن قوة الشرطة الإسرائيلية بسبب قيامه بتسريب معلومات سرّية عن القضية إلى فريق آخر من دون علمهم، ولا سيما إن كان ذاك الفريق عربياً، وإلى عدم رغبته في توريط خليفة حيث يبدو الأمر كما لو أنه يستغل صداقتهما.

ولكن، بدون الاستعانة بخليفة من الممكن إغفال الصّلات، الصّلات الحيوية. وتردد محاولاً الموازنة بين الحاجة الملحة إلى إجابات، وبين الحصول على هذه الإجابات من دون ممارسة الضغط على صديقه القديم. وكان خليفة هو من حلّ المُعضلة عندما سأله:

"هل يمكنك أن ترسل لي مزيداً من المعلومات؟".

"هل تريد مني أن أرسل لك مزيداً من المعلومات؟".

"لم لا. أي شيء يعزز قضية العلاقات العربية-الإسرائيلية".

هذه المرة ابتسم بن - روي بالفعل.

"سأرسل لك شيئاً ما يوم غد. وأقدّر لك إبقاء هذا الأمر بيننا".

"بالتأكيد. سأوجّه التماساً عبر أثير محطة التلفاز التابعة للدولة. وعدا عن ذلك، سيبقى هذا الموضوع سرّاً بيننا".

ابتسم بن - روي مجدداً. فبالرغم من كل ما عانى منه، إن خليفة القديم لا يزال موجوداً، ليس كما كان في السّابق ولكنه موجود.

"لديّ بالفعل طرف خيط ربما"، تابع المصري. "أكاديمي إنكليزي. يبدو أنه أجرى بحثاً ما حول بينسكرك، وربما سيتمكن من تزويدنا ببعض المعلومات. إنه يحاضر على متن أحد يخوت النيل في الوقت الحاضر، ولكنني تحققتُ من خط سيره ووجدت أن مركبه سيرسو في الأقصر يوم غد. سأقصده وأتحدّث إليه".

"أقدّر لك ذلك"، قال بن - روي.

"لا مشكلة".

"أقدّر لك ذلك حقاً".

"لا مشكلة البتّة حقاً".

لم يكن هناك ما يُضيفاه كما يبدو، ليس عن القضية على الأقل، فلزما الصمت. كان بن - روي يجول على امتداد الواجهة البحرية في إسرائيل، فيما خليفة في الأقصر يقف محققاً بصور العائلات في مشغل فودجي فيلم للتصوير والتظهير عند زاوية المدينة والمهدي. لم يستطيعا شرح ذلك، ولكنهما أصبحا متردّين على نحو غريب في إنهاء المكالمة.

"كيف حال زينب؟".

"كيف حال سارة؟".

لقد تكلمّا في الوقت نفسه، واعتذر أحدهما من الآخر في الوقت نفسه أيضاً. "أنت أولاً"، قال بن - روي. "كيف حال زينب؟".

"بخير"، أجاب خليفة. وساد الصمت لفترة وجيزة، ومن ثم تابع خليفة قائلاً: "في الواقع، هذا غير صحيح. إنها ليست بخير مطلقاً. فهي لا تنام بشكل جيد، وتتناها كوابيس مزعجة، وتستيقظ باكية. لقد أصابتها وفاة علي في الصميم. لقد أصابتنا كلينا في الصميم".

حاول بن - روي التفكير في شيء مُعزّ يقوله، ولكنه لم يتمكن من التوصل إلى أي شيء مُعزّ فعلاً. "آسف"، تتم.

"إنه واقع الحال"، قال خليفة. "نحن نتدبّر أمورنا".

كانت إحدى الصور تظهر فتى صغيراً، في سنّ علي تقريباً، يحدّق بآلة التصوير بوجه صارم. فحدّق خليفة بها، ومن ثم تابع سيره في شارع المدينة المنورة. "ماذا عن سارة؟ هل هي بخير؟".

"إنها بخير"، قال بن - روي. في الواقع، لقد شعرت بتوعك صحي ليلة أمس، ولكنه بدا غير ذي أهمية مقارنةً مع ما يواجهه الزوجان خليفة، فلم يتكبّد عناء ذكر ذلك له.

"والطفل؟".

"إنّه بخير أيضاً. شكراً لسؤالك".

ولزما الصمت مجدداً، وكل منهما يقدر حضور الآخر، غير شاعرين بالحاجة إلى التعبير عن هذا التقدير شفهيّاً. مشى خليفة بعناء نحو المنزل؛ مروراً بمطعم بادلداك الإنكليزي ومبنى إدارة الأمن في الأقصر، فيما توقف بن - روي عند فندق كراون بلازا، مراقباً راقصي السبت في فترة بعد الظهر. فقد كان هناك اثنا عشر ثنائياً. كانوا مُستَين وشباناً، ماهرين ومبتدئين يتحركون مع الموسيقى الزاخرة من راديو ومسجّل كبير محمول. عندما مرّ من هنا في السابق، كانوا يرقصون إحدى رقصات السلسلة. أما الآن فتعزف الفرقة الموسيقية المرافقة الفالس.

"ما الذي أسمعه؟" سأل خليفة.

فشرح له بن - روي.

"أحببتُ هذا"، قال المصري. "الناس يرقصون في الشارع. نحن لا نقوم بأمور مماثلة في مصر باستثناء راقصي الزيكرو، والثورات. فنحن نرقص دائماً في أثناء الثورات".

"أكره الرقص"، قال بن - روي. "يقدم لك الفيل إيقاعاً أفضل".

وضحك خليفة. لم تكن ضحكة بكل معنى الكلمة، ولكنها ضحكة مكبوتة بالرغم من كل شيء.

"كانت زينب ترقص في كل الأوقات"، قال بعد فترة صمت أخرى. "في شقننا القديمة. كنت أعود من المركز وأجدها تستمع إلى شريط لعمر دياب، رافعة الصوت إلى أعلى درجة، وقافزة في أرجاء المكان. كانت تحب الرقص. لم تعد كذلك للأسف".

مرةً أخرى، حاول بن - روي العثور على تعليق مناسب، شيء ما يخفف من وطأة ما يعاني منه خليفة من دون أن يبدو مُبتدلاً أو عاطفياً. لو كانت سارة مكانه لعرفت ما يتعين قوله بالتحديد. لديها شعور فطري حيال أمور مماثلة، وتجد على الدوام الكلمات المناسبة. إنها نعمة لم يكن بن - روي يملكها بالرغم من نواياه الحسنة. فكّر للحظات، ومن ثم شعر بأن عليه اتخاذ موقف ما فقال: "سترقص مجدداً ذات يوم". وبالرغم من ذلك، كان يعلم أن ما يقوله يبدو شديد الغباء كما لو أنه عنوان قصيدة شعرية.

"إن شاء الله"، كان ذلك جواب خليفة الوحيد.

وبقيا على الخط لمدة أطول، غير متحدثين عن شيء محدّد، فيما بن - روي يقوم بحركة لاإرادية خفيفة انسجماً مع الرقص، محاولاً التفكير بشيء ما أكثر ملائمة للتعبير عن مدى اهتمامه بخليفة. وبعد إنهاكهما المكاملة، وفي أثناء تجواله في ميناء اليخوت في المدينة - محدّقاً باليخوت واللانشات - شعر بأنه الصديق الأوفى في العالم لدرجة أن الاسم تبادر إلى ذهنه فجأة. فجلس للحظات مفكراً بالاسم، ومن ثم اتصل بسارة وسألها عن رأيها.

"أعتقد أنها فكرة رائعة"، قالت. "ولكن، ماذا لو كانت فتاة؟".

لم يكن لديه جواب عن هذا السؤال. لو كان يتمتع بحُدسٍ لما كان بحاجة إلى حُدس زوجته. كان يعلم في الصميم أن المولود سيكون ذكراً. كان يعرف ذلك فحسب.

إسرائيل - النقب

كانت قد قرأت على جهاز الكمبيوتر كل التخمينات، وتبادل أطراف الحديث، والنظريات المعقّدة حول هويّتهم وحول صلتهم بنميسيس بالتحديد. كان كل ذلك هُراء. لم يكن هناك أي صراع داخلي على السلطة داخل نميسيس، أو أي مجموعة انفصالية، أو أي عامل تحريضي من قبل أشباح أو شركات مأكرة متعددة الجنسيات. فالحقيقة البسيطة هي إرساها بريداً إلكترونياً إلى موقع نميسيس على الويب، حاثّة على القيام بتدخل جذري، ومتلقية جواباً بالمباشرة بذلك. حصل اتصال وجيز، ووُلد الجناح العسكري لنميسيس /أجند/. وحتى الآن، تبدو مندهشة من كيفية حدوث كل ذلك بسهولة.

وهناك أمور أخرى أيضاً بالطبع. فهي لم تكتفِ بإرسال بريد إلكتروني معتبرة الأمر مجرد نزوة، ولم تستيقظ ذات صباح وتقول لنفسها: لنذهب ونعبد النظام. بل كان هناك عمل أساسي؛ سنوات من العمل. أولاً، في الولايات المتحدة بعد فرارها؛ متقلّة بين مجموعة معارضة وأخرى - مجموعات مناهضة للرأسمالية وللعولمة، وأخرى مناصرة للشيوعية وللغوضي، بالإضافة إلى مجموعات بيئية

راديكالية - ومشاركة في المسيرات، وهاتفه، وملوَّحة بالرايات، ومشاركة في أعمال الشعب، ودافئة ماضيها، ومعيدة تكوين هويتها.

وبعد ذلك في إسرائيل، حيث فرّت بعد فشل مهمتها، وازداد غضبها ليلبغ مستوى مختلفاً. وشعرت بالخجل؛ علماً أنها تعرف أن لا شيء يدعوها للشعور بالخجل. فهي لم تتسبب لنفسها بذلك، ولم تُخطئ بأي شيء.

لقد تعرّفت بتامار في إسرائيل - التقنا في سيارة الشرطة بعد اعتقالهما في تظاهرة - كما تعرّفت بغيدي وفاز من خلال تامار. من الواضح أن الإيديولوجيا التي تشاطروها كانت أحد العوامل التي جمعتهم. ولكن شخصياتهم هي التي قربتهم من بعضهم؛ أكثر من معتقداتهم بوجود دافع أسمى يحثهم؛ أمر ما أكثر حميمية من مجرد الرغبة في تخريب أعمال طاحن اللحم الرأسمالي. فاز عربي-إسرائيلي، كان طوال حياته عُرضة للتمييز والحِرمان من حق الاقتراع. غيدي مجنّد في الجيش الإسرائيلي شوّهت سمعته بسبب التشهير بالأعمال الوحشية التي ارتكبها الجيش في غزة. تامار ابنة والدين من الحاردي، متطرفين في أرثوذكسيّتهم، شعرا بالعار بسببها. كل منهم يُسهم في توضيح معالم اللوحة الأكثر اتساعاً للظلم الشامل. ولكل منهم - على غرارها - شياطينه السريّة. وكل منهم يسعى - على غرارها - إلى طرد الأرواح الشريرة.

والأهم من ذلك أن كلاً منهم أدرك - على غرارها - أنّ الأساليب التقليدية للاحتجاج - المسيرات، أعمال الشعب، الاعتصامات، والعرائض - هدر تام للوقت. إنها حرب، ولا يمكن الفوز بالحروب في نهاية المطاف إلا بواسطة العنف.

وهكذا، بدأوا بالعمل معاً. قاموا بعمليات صغيرة في البداية، كافتحام مكتب هنا، وإحراق متعمّد هناك. وبعد ذلك، شرعوا بتنفيذ مهمّات أكثر تعقيداً: تخريب خط أنابيب في نيجيريا، وتفجير مصنع ذخائر في فرنسا، واختطاف مُضارب أميركي رائد بالأغذية وتنفيذ إعدام صوري بحقه؛ فقد أضافت صفقاته ملايين الدولارات إلى استثماراته في وال ستريت في حين أنه حَكَم على الملايين من الناس بالجووع في أفريقيا والهند. لقد تمّ نقل المعركة إلى أرض العدو.

لقد عملوا معاً بشكل جيد، وشكّلوا فريقاً متماسكاً: فاز يجمع المعلومات بواسطة الكمبيوتر، وتامار تنظّم اللوجستيات، وغيدي يوفر الأسلحة.

وماذا عنها؟ إنها الأكثر ذكاءً بينهم؛ العقل الموجه للمجموعة. إذ يتعين على المنظمات التعاونية أن يكون لديها قائد، وكانت هي القائد بالتحديد.

فهي من تختار المهمات، وتخطط لكل شيء بأدق التفاصيل، وهي التي أدركت باكراً أن المهمات وحدها لن تكون كافية مطلقاً. فمقابل كل هدف يوجهون ضربة إليه، يكون هناك ألف هدف آخر يستحق أن توجه ضربة إليه من دون أن يكون بإمكانهم القيام بذلك. كانت تجربتهم قصيرة جداً؛ نقطة في محيط. ففي النهاية، لا يتعلق الأمر بالعنف بحد ذاته، بل بالتموجات التي يتسبب بها، وبالزخم الأكثر شمولية الذي يولده.

لهذا السبب، اقترحت الشروع بالعمل مع نيمسيس أجندا، واستعانوا بموقع نيمسيس على الويب، وحظوا باهتمام عالمي من خلاله لم يتمكنوا قط من الحصول عليه بمفردهم؛ أيّاً يكن عدد المديرين التنفيذيين الذين روّعوهم، وأيّاً يكن عدد التجهيزات الكمبيوترية التي استهدفوها. في البداية، كان الآخرون متشككين، ولكنها روّجت للفكرة وأصرّت على أن تكون لنيمسيس سيرة ذاتية وأتباع يمكنهم الشروع حقاً بتغيير الأمور. لقد تطلّب منها الأمر بذل بعض الجهد لإقناعهم، ولكنها فازت في النهاية.

لقد التقطوا لأنفسهم صوراً فوتوغرافية يظهرون فيها وهم يشعلون النار في مكتب تل-أبيب بواسطة القنابل، وقاموا بإرسالها إلى صندوق البريد الآمن على الويب، واقترحوا تضافر القوى. ولكنهم لم يتلقوا أي رد فعل طوال شهر. ومن ثم، فيما كانت وفاز جالسَيْن ذات مساء أمام جهاز الكمبيوتر الخاص به اختفى كل شيء من الشاشة، وقبل أن يتمكن فاز من معرفة ما يحدث، ظهرت نقطة صغيرة في وسط الشاشة، وتمددت ببطء، وانتشرت، قبل أن تتحوّل إلى كلمات: العرض مقبول. نقاتل معاً.

وجرى الاتصال بسهولة تامة.

لم تعرف قط الأفراد الذين يشكلون نيمسيس. إنهما شخصان غريباً الأطوار في غرفة مظلمة في مكان ما ربما، أو مجموعة عالمية معقدة من الناشطين! لم يكن باستطاعة أحد أن يحزر. ولكن، عندما تعود بالذاكرة إلى الوراء، تشعر بأن أولئك الأفراد كانوا يراقبونها. فمذ انخراطها في نيمسيس يتناها شعور بوجود من يراقبها،

وهي لا تزال تشعر بذلك أحياناً هنا وسط الصحراء. لقد حاولت عدم التأثر بذلك، فما يهمّ هو أنها تخوض المعركة وتخدم القضية بأقصى طاقتها، وتعاقب أولئك الذين ينبغي معاقبتهم، وتسيء إلى المسيئين.

بعد ذلك الاكتساح الأولي، بقي الاتصال بحدّه الأدنى: إذ كان أولئك الأعضاء يقومون بمهامهم، وينقلون المعلومات لنميسيس فتظهر المواد على الويب. لقد ركزت مجموعتها على العمل الميداني المباشر، واهتمت جماعة نميسيس بشبكات الكمبيوتر؛ علماً أن نميسيس كانت تزودهم ببعض أطراف الخيوط والاقتراحات، وبفضل مهارات فاز التكنولوجيا لم يترددوا في شنّ هجمات غير منتظمة على شبكات الكمبيوتر بمفردهم. فليست هناك قواعد محدّدة أو ما شابه. فالكل يخوضون المعركة نفسها.

ونطاق النشاط محدّد بوضوح في أمر واحد: هي التي ستتولى أمر شركة بارين. إنه أمر أصرت عليه منذ البداية، فتخلّت نميسيس عنها. وإذا كان هناك من سيقلي الشركة، فهي التي ستقوم بذلك لأن الشركة هدفها الأساسي. فلهجمات التي شنت على شبكات كمبيوتر بارين هي التي لفتت انتباهها إلى نميسيس/أجنال في المقام الأول. لقد شغلت بارين اهتمامها، ليلاً ونهاراً، ولا سيما بعد حادثة دار العبادة الكبرى. كانت كل الطرقات تؤدي إلى بارين، وبارين حافزها المستتر. كانت كذلك على الدوام، وستبقى كذلك.

"تبّاً!"

وداست على المكابح بقوة، فترنّحت اللاند كروزر وانزلقت على الإسفلت الحار. كانت مستغرقة بأفكارها لدرجة أنها تجاوزت الفجوة في السياج. فاستدارت بالسيارة متمتمةً، ثم عادت من حيث أتت. وبعد أن اجتازت مسافة كيلومتر واحد إلى الشمال على امتداد الطريق 10، ضغطت على المكابح مجدداً، وانحرفت إلى جانب الطريق متخبّطةً على الحصى في اتجاه السلك الشائك أسطواني الشكل الذي يشكل الحدود. في هذا الجانب إسرائيلي والنقب، وفي الجانب الآخر مصر وسيناء. كانت الحكومة تسعى إلى إقامة حدود أقل قابلية للاختراق لمنع مهربسي المخدرات والناس من العبور؛ 215 كيلومتراً من مراكز المراقبة والسياجات المكهربة ممتدة من غزة إلى إيلات. ولم تبدأ الحكومة بالعمل على هذه

الأجزاء الوسطى النائية بعد، ولا يزال بالإمكان التسلل عبرها من دون تكبد الكثير من العناء. كانت عادة تصطحب الآخرين معها، ولكنها بمفردها في هذه المهمة. فعندما يكون الأمر مرتبطاً ببارين، غالباً ما تطير بمفردها.

ترجّلت من السيارة وراقبت المنظر الطبيعي. إنه أشبه بالتواجد على سطح المريخ لجهة عدم وجود ما يشير إلى حياة بشرية، أو أي نوع من الحياة. انتظرت دقيقة، ثم سارت بجانب السلك أسطواني الشكل وصولاً إلى ذاك الجزء الذي قاموا بقطعه، دخلت عبر الفجوة بواسطة اللاند كروزر، ووضعت اللوحتين المصريتين، ثم أعادت السياج إلى ما كان عليه، وانطلقت بأقصى سرعة. إنه الجزء الأفضل من مسافة 400 كيلومتر تفصلها عن القاهرة، وأرادت أن تصل إلى هناك وتعود قبل الفجر.

تل - أبيب

"هل تعتقد أنه يمكن لشركة بارين أن تكون متورطة في الاتجار بالجنس؟".
فلفظ ناتان تيرات القليل من شرابه متفاجئاً.
"هل هي دُعاة من نوع ما؟".

وأوحت تعابير وجه بن - روي بأنه ليس واثقاً مما إذا كانت دُعاة أم لا.
"أعلم أن الأمر يبدو بعيد الاحتمال...".

"إنه أكثر من كونه بعيد الاحتمال، إنه سوريلي تماماً".
وتأرجح تيرات على كرسيه، مدلياً قنينة الشراب بيده.

"أعني، ما بك يا آري؟ إنها شركة ذات دورة رأس مال... تتراوح ما بين أربعين وخمسين بليون دولار، مع متوسط أرباح يبلغ 10 بلايين دولار، وربما تناهز عشرين بليوناً. وأنت توحى بأنها تحقق هذه الأرباح من عمل إضافي في البغاء غير القانوني. جدياً، هل تجد ذلك منطقياً؟".

أقر بن - روي بأن تيرات محق. فهو لم يجد ذلك منطقياً منذ الإعلان عن وجود بارين والاتجار بالجنس في المعادلة نفسها.

"ستكون قصة جيدة، انتبه"، أضاف تيرات. "لا، بل ستكون قصة عظيمة. فضيحة بغاء في إسرائيل مرتبطة بعملاق عالمي في المعادن".

ومرّ يده في الهواء كما لو أنه يتتبّع عنوان صحيفة رئيساً غير مرئي.
"إن سبقاً صحافياً ماثلاً يكفل نجاحي في المهنة ويميّزني عن سواي طوال الحياة".

فطلب منه بن - روي ألا يأمل كثيراً، وتناول جرعة من شرابه. كانا جالسَيْن إلى طاولة على الرصيف خارج المقهى في ديزنغوف، وكانا الأكبر سنّاً بين رواد هذا المقهى بنحو عشر سنوات، فيما أحاط بهما شبّان يتّبعون الموضة بملابس مخطّطة، ويرتشفون الشراب وهم يتبادلون أطراف الحديث ويضحكون، مستفيدين قدر الإمكان من الشمس قبل حلول الليل واللجوء إلى النوادي. كان في العقد الرابع من العمر فقط، ولكن المحيط الذي جلس فيه جعله يشعر بأنه عند المنعطف الثاني من العمر. وبالرغم من عدم تخطي تيرات العقد الرابع من العمر على غرارهِ، فقد بدا هذا الأخير من مخلفات فرق الروك الموسيقية التي لم تلقَ رواجاً كبيراً في السبعينيات، ببطنه الكبير الناتئ، والصدرة الجلدية، والشعر المائل للرمادي المصفّف بتسريحة ذيل الحصان.

"هل سبق لك أن سمعتَ بأن بارين متورطة في أي ضرب من ضروب الاحتيال؟" سأل.

انسأقت عينا تيرات في اتجاه فتاة جالسة إلى الطاولة المجاورة، وصدرها ظاهر بوضوح من فتحة فستانها المنخفضة. وتعيّن على بن - روي تكرار السؤال للفت انتباهه.

"طرح عليّ زميلك السؤال نفسه عندما اتصل بي في ذلك اليوم"، أجاب تيرات مُشيحاً بنظره بتردد.
"وماذا بعد؟".

"لا شيء. أو على الأقل لم يتمكن أحد من الإمساك بأي دليل يُدينها. أعني، إنها شركة عالمية متعددة الجنسيات، وتعتريني الدهشة إن لم تكن ملمة بالأمور كافة. كل الشركات كذلك. القليل من المحاسبة المُبدعة، القليل من تدوير الزوايا على الصعيد البيئي، نشر شائعات تطال المنافسين... كما قلت لصديقك، هذه الشركات تريد جني المال وليس الفوز بجوائز عن حسن سلوكها".

أفرغ قنينة بجرعتين، ثم وضعها على الطاولة بجانب تلك التي سبق له أن أفرغها.

"بالمناسبة، لديك زميل جيد"، أضاف. "إنه ذكي. يُفترض بك التمسك به. ربما يساعدك في حل بعض القضايا".

وأشعل سيجارة، ومضغ حفنة من اللوز المملح تناولها من الوعاء الموجود على الطاولة، موجّهاً نظره من حين لآخر نحو الفتاة التي ترتدي فستاناً ذا فتحة صدر منخفضة.

"لا شك في أن بارين متكئمة"، تابع معيداً النظر إلى بن - روي، "حتى باعتماد معايير متعددة الجنسيات. إنها تحكم السيطرة على صورتها ولا ترحّب بطرح الأسئلة. ونظراً إلى كونها شركة خاصة، من الواضح أنها لن تكون منفتحة على التدقيق الشامل إذا كانت مُدرّجة في سوق الأسهم. إذاً، من يعلم؟ ربما كانت على تواصل مع القليل من الأشخاص الذين ينقلون لها المعلومات. ولكن، صدقاً يا آري، لا يمكنني أن أتخيل تورط هذه الشركة في أمر كالاتجار بالجنس، أو في القتل، وأظن أنني أعرف مآل هذا التحقيق".

رفع حاجبيه لبن - روي الذي لم يستجب لذلك، بل تناول رشفة أخرى من شرابه. ومَرّت جنديتان تمشيان الهوينا، من لواء غيفاتي، تتدلى بندقيتا أم-16 من ظهريهما. في القدس، يشكل الجنود جزءاً من النسيج البصري، ويظهرون هنا أكثر فأكثر. فراقبهما بن - روي للحظات، ثم واصل كلامه.

"لدى بارين، كما يبدو، نفوذ سياسي"، قال مغيراً مسار الحديث. "أصدقاء في مناصب عليا".

وأقرّ تيرات بأنه واقع الحال.

"ليس الأمر غير عادي. لدى كل هذه الشركات متعددة الجنسيات نفوذ في أروقة السلطة، وصلات بارين وثيقة كما يبدو بصفة خاصة. النقطة الجوهرية هي: المال يشتري النفوذ. وبارين تملك المال، الكثير منه. وانطلاقاً مما سمعته، إنها تموّل نصف الكنيست، ونصف الكونغرس أيضاً، إذا كنت تصدّق الروايات".

ووضع القليل من اللوز في فمه، ومضغه، ثم تناول مجّة من سيجارته. وجعل بن - روي قنينة الشراب تثب على ركبته، باحثاً في المحيط عن نوع من أنواع الظلال.

"هل تعرف أي شيء عن صفقاتهم في مصر؟".

لم يكن تيرات يعرف شيئاً سوى ما أطلعته عليه دوف زيسكي.
"ماذا عن الرئيس الأعلى؟ كانت زوجته إسرائيلية، أليس كذلك؟".
فأوماً تيرات برأسه، وتناول حفنة أخرى من اللوز.

"التقيا في أثناء حدث جرى في السفارة في واشنطن. كانت موظفة في الشؤون الثقافية. كان يرسل لها الأزهار كل يوم، وطوال عام، حتى وافقت على الزواج به. توفيت في حادث تحطم سيارة قبل مدة، ولم يتمكن من تخطي الصدمة مطلقاً".
"ماذا عن الابن؟ أخبرني دوف أنه فتى سيئ إلى حد ما".

"لديه بعض العادات السيئة"، همهم تيرات، "كما أن مزاجه عنيف، وهو يضرب البغايا؛ وفقاً للشائعات التي تنشرها الصحف. ولأكون منصفاً، سمعتُ أيضاً أنه أكثر ذكاء مما يعتقد الناس".

وهزّ حبات اللوز في يده.

"في الحقيقة، إنه عنصر مؤثّر يُحسَب له حساب. في الواقع، كلهم كذلك. هناك الكثير من التخمينات والشائعات. ولكن، في ما يتعلق بالوقائع المحيطة بعائلة بارين... إذا كانوا متكتمين في شأن صفقاتهم، فذلك لا يقارَن بتكتمهم حيال حياتهم الخاصة. لم يكن معظم الناس يعرفون بوجود ابن له حتى ظهر فجأة قبل عشر سنوات كعضو في مجلس الإدارة. فقد تلقى علومه تحت اسم مزيف، وبقي بعيداً عن أضواء الشهرة. فالمال الذي يملكونه لا يشتري النفوذ فحسب، بل الكثير من الخصوصية أيضاً".

وهزّ حبات اللوز في يده مجدداً، ومن ثم أعاد رأسه إلى الوراء ووضعها في فمه، ماضعاً إياها بعزم.

"إنه يأتي إلى إسرائيل كثيراً؛ إذا كانت لهذه المعلومة أي إفادة".

فرفع بن-روى رأسه.

"أياًتي من أجل الأعمال؟".

"إذا كنت تعتبر تعاطي الكوكايين ومعاشرة المومسات عمليين. إنه يقطن في شقة على السطح في بارك هيتس ويُقيم الحفلات؛ إذا كان بالإمكان تصديق الشائعات".

فكر بن - روي ملياً بهذا الأمر، متسائلاً عن إمكانية وجود صلة بين بارين والاتجار بالجنس. غينادي كريمينكو يهرّب البغايا لأجل وريث الإمبراطورية،

وريفكا كلينبرغ تكتشف الأمر وتهدد بافتضاح أمره، يأتي بارين الابن إلى القدس ويتبع كلينبرغ إلى دار العبادة الكبرى، ويفتحها بالموضوع، ثم يفقد رباطة جأشه... مرة أخرى، إنه أحد تلك السيناريوهات التي تتلاءم مع أجزاء من القضية من دون أن تتلاءم مع أجزاء أخرى.

"هناك لغز صغير ربما يثير اهتمامك". قال تيرت، رافعاً ذراعه وماسحاً بكمه الملح العالق على شفتيه.

ليس مرة أخرى، قال بن - روي لنفسه.

"تابع".

"يتعلق الأمر بحادث تحطم السيارة الذي قتلت فيه زوجة ناتانيل بارين".

"ماذا عنه؟".

"حسناً، كان قرار المحقق الجنائي أنها لقيت حتفها قضاءً وقدرًا. أي نتيجة حادث مأساوي".

"إذاً؟".

"لقد ترك المحقق العديد من الأسئلة بدون إجابات".

"أي أسئلة؟".

أسند تيرت ظهره، وهو يسحب نفساً من سيجارته.

"كالسؤال عن سبب انحراف سيارة خضعت للصيانة مؤخراً، وتسير على طريق مكشوفة في وضح النهار فجأةً بدون أي سبب واضح، واصطدامها مباشرةً بعمود لأسلاك التلغراف".

وأخى سيجارته، وأطفأها داخل القناة في جانب الطريق.

"حان دورك كما اعتقد لتقديم جولة أخرى من المشروبات".

القاهرة

بعد دخوله الشقة التي استأجرها له الشركة، توجه تشاد بيركس مباشرةً إلى الشرفة، مروراً بغرفة الجلوس. وانحنى على الدرابزين، وحدق عبر النيل، وقال لنفسه، كما دأب على القيام بذلك عشر مرات على الأقل في اليوم: "الحياة جميلة".

إنه المدير الإقليمي لبارين في منطقة أفريقيا التي توحى بأن صفقاتها تفوق ما تحقّقه من صفقات في الواقع. فكل أعمال الوساطة العسيرة تتمّ من هيوستن مباشرةً، ويرتكز دوره على العلاقات العامة أكثر من أي شيء آخر. وبصفته رئيس مكتب القاهرة، كان يلتقي الشخصيات المصرية الهامة، ويصطحبهم لتناول وجبات عشاء مرتفعة التكلفة - على غرار العشاء الذي تناولوه هذه الليلة في جاستن - ويدفع للأشخاص الذين ينبغي الدفع لهم، ثم يطير إلى الأقصر كل شهر للتحقق من تقدّم العمل بالمتحف الجديد الذي يفصله أسبوعان عن حفلة الافتتاح. إنه وجه بارين الموجه نحو الأرض، وعينا بارين وأذناه أيضاً. وبمراهناتها على عرض الأسعار المرتبط بحقل الغاز الصحراوي، حرصت الشركة على مراقبة المزاج السياسي في البلد؛ ولا سيما بعد الإطاحة بمبارك. وإذا كان تشاد بيركس يجيد شيئاً فهو مراقبة الأمور، ويجب الاعتقاد أنه يلعب دوراً هاماً وممثلاً لدور أولئك الذين يضعون تفاصيل العقد، وذلك عندما يتمّ منحهم الامتياز؛ إذا تمّ منحهم إياه. وما يعزّز اعتقاده هذا هو المكافأة التي تُسجل للعب والتي من المتوقع أن يحصل عليها عندما يتم التوقيع على العقد.

أجرّ سخيّ، راتب تقاعدي كبير، شقة فخمة على الواجهة المشرفة على النيل، منصب مؤثّر وإن كان بإفراط. أجل، فكر تشاد، الحياة جميلة بالتأكيد.

كانت كذلك على الأقل حتى شعر بأحدهم يتسلل خلفه، ويضع حبلًا حول عنقه، ويجذبه بقوة إلى وراء بعيداً عن درابزين الشرفة، ويوقعه.

يتمتع تشاد بيركس بالعديد من الصفات الجديرة بالإعجاب، ولكن الشجاعة لم تكن بينها. فركل وناضل للحظات بطريقة فطرية أكثر من رغبته بمقاتلة مهاجمه، ثم فقد قواه بعد ذلك. لقد ألقى نظرة سريعة موجزة على رعمسيس هيلتون على الجانب البعيد للنهر، وشمّ أيضاً رائحة مسكية لمزيل التعرق؛ غريبة هي الأمور التي تسجلونها عندما تتعرّضون للخنق. وفجأة، وُضع على سجادة غرفة الجلوس، ووجهه نحو الأسفل، ولم يُعد الحبل موجوداً. تلوّى كما تتدحرج الكرة، ساعلاً وغاصّاً، ومحاولاً بشكل يائس تركيب جملة "رجاء لا تؤذيني" (على غرار الشجاعة، لم يكن تشاد بارعاً في اللغات مطلقاً).

لم يكن عليه القلق في هذا الشأن. فعندما تكلم مهاجمه، استخدم اللغة الإنكليزية. وواقع أن الصوت صوت امرأة منحه ومضة أمل ما لبثت أن تلاشت بعد أن شعر بوجود مسدس على صدغه.

"أريد أن أعرف ماذا تفعل شركتكم هنا في مصر"، قال الصوت بغضب. "ما تفعلونه بالتحديد. وإذا حاولت خداعي فسأفجر رأسك اللعين".

فأكد لها تشاد أن لا نية لديه للقيام بأي شيء سوى التعاون معها تماماً.

"جيد. ابدأ بالتكلم".

القدس

في صباح يوم الأحد، نهض بن - روي باكراً، وأعدّ تحليلاً من أربع صفحات عن كل النقاط الرئيسة في القضية، ثم أرسلها لخليفة بالبريد الإلكتروني. وبعد ذلك، بحث في الإنترنت عن حادث السيارة الذي قتلت فيه زوجة ناتانيل بارين، ووجد الكثير مما أخبره إياه ناتان تيرات. لقد خرجت سيارتها عن الطريق شمال هيوستن، واصطدمت بعمود لأسلاك التلغراف، وتوقفت على الفور. وادعى شاهد عيان رؤيته شخصاً آخر في السيارة قبل الاصطدام بقليل، ولكن لم يتمكن أي كان من دعم ذلك. واستنتج تحقيق مفصل أن الحادث كان عَرَضِيًّا. وبعد البحث عن معلومات لمدة أربعين دقيقة، قرر أن كل شيء إشارة مضللة - هناك الكثير من هذه الإشارات المضللة في هذه القضية - وأطفاً جهاز الكمبيوتر، ثم اتصل بدوف زيسكي ليبلغه بأنه سيتأخر، واشترى باقة ورود من كُشْك للأزهار قبالة شقته، وتوجه إلى منزل سارة.

"ما سبب هذه الزيارة؟" سألت عندما فتحت له الباب.

"شعرت بالرغبة في رؤيتك".

وأخرج الأزهار من وراء ظهره.

"كنتُ شديد الانشغال بالعمل... فكرتُ في أنه باستطاعتنا تناول الفطور

معاً، ثم سأقلّك إلى المدرسة".

"يبدأ عملي ظهرًا".

"عظيم. بإمكاننا قضاء فترة انصباح معاً".

فرمقته بنظرة متشككة.

"إنها بادرة غير منتظرة منك يا آري".

"ما الذي لا تنتظرينه مني؟".

"إقلاعك عن العمل في صباح أحد الأيام وأنت وسط تحقيق مهم. هل هناك خُطْب ما؟".

كانت لهجتها مُغيظة أكثر من كونها متأففة.

"هيا، اعترف. لقد فعلتَ أمراً ما. أو إنك تريد شيئاً ما".

"أريد فقط قضاء بعض الوقت معك ومع البوبو. أفتقدكما كليكما".

إنها الحقيقة. هناك أمر ما في هذه القضية - ذلك الاتجار بالجنس، وفقدان خليفة ابنه بتلك الطريقة - ترك أثراً عميقاً في نفسه كما يبدو. فعندما عاد من تل-أبيب في الليلة السابقة، استلقى على السرير مفكراً في سارة والطفل، و متمنياً أن تكون بجانبه، وموَبِّخاً نفسه بسبب عدم وجودها قربه. هكذا تجري الأمور عادةً، ولا سيما في أثناء تحقيق مُجهَد مماثل، إذ تُبعدك القضية عن الناس الذين تحبهم أكثر من سواهم. ولكن هذه القضية تدفعه نحو عائلته أكثر، وكان يفكر أكثر فأكثر بأنه ينبغي عليهما المحاولة مجدداً. ينبغي عليه المحاولة مجدداً. فهو من أفسد الأمر برمّته بالرغم من كل شيء.

"هل ستأخذين هذه؟" سأل.

"بالطبع. شكراً لك. إنها جميلة".

وقبلت الأزهار.

"لديّ شيء آخر"، قال. "انظري إلى هذا".

وأخرج هاتفه المحمول، ووقف أمامها كلاعب خفّة يستعدّ لعرض خُدعة ما؛ ملوّحاً في الهواء، قوَس إصبعه ثم ضغط على زر الإطفاء، مُرفِقاَ حركته تلك بعبارة "تا-نا!" مرتفعة. فانفجرت ضاحكة، ولَفَّت ذراعيها حوله، وضغط بطنها المنستفخ على معدته، وبدأ الأمر رائعاً.

"ظننتُ أن كبير الحاخامات سيتناول كوكتيل قريدس ولن أراك تقوم بذلك"،

قالت مُمازحة.

"حسناً، ها أنذا، الأعاجيب تحدث بالفعل. هل يمكنني إعداد الفطور لك؟".
"أجل، رجاءً".

وهذا ما أعدّه؛ عجنّته الإسبانية المكوّنة من بيض مخفوق، وقد أطلقت شريحة الخبز المحمّص جهاز الإنذار في المطبخ. فمأزحته بشأن عدم لياقته المطبخية، مُطلقةً بعض التعليقات الثأرية الذكية عن عضّ اليد التي تُطعمك. إنها مغايظة غير جدّية من النوع الذي اعتادا اعتماده في كل الأوقات، وكان غائباً بشكل ملحوظ في العام الأخير. يا الله! كم تبدو ممتعة.

بعد تناولهما الطعام - على الشرفة، والجوّ مشحون على نحو غريب كما لو أنّهما في موعدهما الأول أو ما شابه - قام بأعجوبة الصباح الثانية وغسل الأواني.
"من هذا الذي أراه أمامي؟!". سألت باندهاش ساخرة.

"لا علاقة لي بذلك. لا بد من وجود دخيل في المنزل. من الأفضل لك الاتصال على الرقم 100".

وكان هناك المزيد من الضحك؛ أفضل صوت في العالم.
ومن ثم، تمددت على الأريكة كي يتمكن من الضغط بيده على بطنها ويشعر بطفله. وبعد ذلك، ونزولاً عند رغبتها، قصداً ماميلاً مول لشراء بعض الملابس للطفل. كان بن - روي يكره التسوّق ويعتبره أشبه بتقديم بيان للضرائب. ولكنه تظاهر بالسعادة بسبب قضائه الوقت معها، حتى لو كان قضاء الوقت يعني الانتظار ساعتين في أثناء تجوالها بين سلسلة متتابعة وغير متناهية من الأكشاك المليئة بسلع للأطفال.
"أمتأكد من أنك لا تشعر بالملل؟" استمرت بطرح هذا السؤال عليه.
"لا، بتاتاً"، استمرّ بالكذب عليها.

وفجأةً، حلّ الظهر في أثناء اصطحابه إيّاها في جولة بالسيارة على امتداد أسوار المدينة القديمة وصولاً إلى مشروع اللهو الذي تديره في سيلوان؛ حيّ عربي مكتظ قائم على سفح تلة في جنوب المدينة القديمة. كان المشروع اختبارياً، ويسعى إلى تحقيق اندماج بين الأطفال الإسرائيليين والفلسطينيين من خلال تشجيعهم على المرح معاً. وقبل أربع سنوات، كان المشروع قد وُفّر التسلية لأكثر من ثلاثين طفلاً، ولكن العدد انخفض إلى أقل من اثني عشر طفلاً، وهو يعبر عن المصاعب التي تواجهها عملية السلام.

"ماذا يجري مع المستوطنين؟". سأل في أثناء انحرافهما عن الطريق المؤدي إلى معالي هاشالوم، وتوجههما إلى منحدر وادي الحِلوة.
"ماذا يجري برأيك؟ الهراء نفسه كالعادة".

كانت مجموعة من المستوطنين - من الأرثوذكس المتطرفين - قد اشترت المنزل المجاور للمدرسة، بتمويل أميركي، وتسببت بالمتاعب.
"في أحد الأيام الماضية، رمى أحدهم كيساً مليئاً بالبول في ملعب الأطفال"، قالت. "كاد أن يصيب أحد الأطفال؛ طفلاً يهودياً!".

وهزت رأسها استمئزازاً.
"الشيء بالشيء يُذكر. في الأسبوع الماضي، أطلقت مجموعة من الشباب النار على حافلتنا الصغيرة".

إنها أنباء جديدة بالنسبة إلى بن - روي. كان شديد الانشغال بعمله لدرجة أنه لم يتسنَّ له الوقت للسؤال عنها.

"لقد منحت هذا المجنون بعمله ذاك شيئاً ما تتفقان عليه"، قال مماًزحاً، ولكنها رسالة ضعيفة لم تُثر أي ابتسامة.

"صديقاً، لا أعتقد أننا سنستطيع الاستمرار لمدة أطول"، قالت. "مررنا بوقت بدا فيه الأمر كما لو أن العلاقة ستنجح، ولكن الطريقة التي تجري بها الأمور في هذه الأيام...".

وفركت صدغَيْها.
"أقول لك يا آري، المجانين يسيطرون على مستشفى الأمراض العقلية. لقد سبق لهم أن استولوا عليه، من جانبي الحدود. أتساءل أحياناً عما إذا كنت أريد لابني أن يكبر في هذا البلد".

فأبطأ بن - روي من سرعة السيارة وأمسك يدها.
"سيكون لابننا أفضل منزل في العالم؛ المنزل الأكثر سعادة وأماناً. أعدك بذلك من كل قلبي".

نظرت إليه، والتقت نظرهما للحظات. وبعد ذلك، ضغطت على يده، وانحنت وقبّلت خده.

"أحبك يا آري. أنت تثير جنوبي، ولكنني أحبك. هيا، سأأخر".

نفش شعرها، وأكملت طريقهما في اتجاه أسفل التلة نحو المدرسة؛ مجّمع إسمني أغبر اللون مع نوافذ شبكية وبوابة فولاذية تغطيها الخريشات. ساعدها على الخروج من السيارة، ثم عبرا المدخل، متجاهلين المبنى المجاور الذي يرفرف على سطحه علم إسرائيل الكبير باللونين الأبيض والأزرق. ضغطت سارة على الجرس، فيما استدار وأمسك بيديها. مرّ أمامهما أطفال عربٌ يُحدثون صحباً على ظهر حمار هزيل. ومن مئذنة في أسفل التلة، ارتفع صوتٌ مضخمٌ داعياً المؤمنين إلى صلاة الظهر.

"شكراً لك على هذا الصباح الرائع"، قالت واقفةً على أطراف أصابعها ومقبلةً أنفه.

"شكراً لك".

"يفترض بنا القيام بذلك مجدداً".

"بالتأكيد".

"كان الخبز المحمص لذيذاً".

"تياً لك".

ضحكا، وتمسك كل منهما بيد الآخر. لقد أراد قول المزيد لها، وإخبارها كم هي مميزة، وأنها تعني له الكثير، وكم يريد أكثر من أي أمر آخر في العالم أن يتشاطرا مستقبلهما. غير أن البوابة فتحت قبل أن يتمكن من الكلام. فنظرت سارة نحو الأعلى متضايقه؛ ربما كانت تفكر بالأمر نفسها.

"اتصل بي"، قالت.

"بالطبع".

وضغطت على يده للمرة الأخيرة، ولامست بطنه ببطنها، وهمست: "إلى اللقاء، يا أبني"، ثم دخلت المجمع. كان هناك تلويح سريع ثم أغلقت البوابة. حدّق بن - روي بها، مفكراً كم تكون الحياة أكثر سهولة إذا حصل على عمل عادي، عمل لا يهدد حياته بالموت والعنف والبؤس. ومن ثم، أخرج هاتفه المحمول هازأً رأسه، وشغله وعاد إلى السيارة. وعندما وصل إليها، نبّهته سلسلة من الإشارات الصوتية إلى وجود اتصالات ورسائل. الكثير من الاتصالات التي لم يتم الرد عليها والرسائل، وأكثر من المعتاد. فولج بريده الصوتي عابساً، واتكأ على سطح السيارة مُصغياً.

داخل المجمع، كانت سارة تعبر الملعب مع زميلتها ديورا، مُخبرةً إيَّاهما عن الصباح الممتع الذي أمضته، وأنها قد تحاول وبن - روي ربما العودة إلى بعضهما. ولم تكد تصل إلى جناح الصفوف حتى زجر صوت مألوف في الجانب البعيد من المجمع.

"آه لا، لا، لا، أيتها الجاهلة! ماذا تفعلين؟".

فخبت ابتسامتها.

"فضينا وقتاً ممتعاً"، وتنهَّدت.

قاد بن - روي السيارة بسرعة فائقة جنونية، وصفارة إنذار الشرطة تزعق، وضوؤها يُطلق ومضات سريعة على سطح التويوتا. لقد تمكن من الوصول إلى الكيشيل في غضون خمس دقائق. كان شارع عمر بن الخطاب مزدحماً؛ ففيه عدة مئات من الأرمن الذين كانوا يُنشدون، ويصيحون، ويُطلقون الشتائم لمجموعة من رجال الشرطة ذوي البزات النظامية الذين نُشروا لإبقائهم بعيدين عن الناحية الأمامية للمركز. وكان حشد من الصحفيين، والمصورين، والطواقم الإخبارية التلفزيونية، يراقب ما يجري. كان بن - روي ينتظر حدوث ذلك بسبب اعتقال رئيس الأساقفة آرمن بتروسيان للاشتباه بأنه قتل ريفكا كليبرغ.

لذا، قاد التويوتا ببطء في اتجاه بوابة الأمن التابعة للمركز، وشهر شارته، وعبر بسرعة فائقة موقف السيارات الموجود في الناحية الخلفية للمبنى. كان قد أجرى اتصالاً هاتفياً بزيسكي الذي كان في انتظاره.

"إنَّ هذا من صنع بوم، أليس كذلك؟" صاح وهو يندفع خارج السيارة. "بوم بالتأكيد وراء ما يجري!".

"إنَّه يفوق الرقيب أول شاليف رتبة"، أكد زيسكي. "يقول إنَّ لديه دليلاً كافياً لتوجيه التهمة".

"أي دليل؟ حباً بالله!".

لم يكن زيسكي يعرف سوى أن الضابط المسؤول يدّعي وجود قضية متينة. "متينة على غرار التايتانيك اللعينة! نحن نعلم جيداً سجلَّ إنجازات بوم. أين ليه؟". لقد أرسلت إلى المنزل لتهدأ كما يبدو. فقد ثارت ثائرتها عندما بلغها ما يجري. وضرب بن - روي سطح التويوتا بقبضته، ومن ثم عبر المجمع يتبعه زيسكي.

"والرئيس غال؟".

"في الجانب الآخر للمدينة؛ يقدم تقريراً موجزاً للوزير".

"يا لهذه الفوضى اللعينة! إنَّ الأرمن هم الوحيدون في هذا البلد الذين يتصفون بسلوكهم الحسن، وها هو قد حثَّهم على القيام بأعمال شغب، وعلى مرأى من الصحافة! يا له من معتوه!".

ووصل بن - روي إلى مدخل جناح التحرين، ودخل غاضباً. كان يوري بينكاس، وآموس نامير، والرقيب موشيه بيريز جالسين وقد وضعوا أقدامهم على الطاولات. كانوا يعتقدون كما يبدو أن صفقة ما قد جرت.
"من الجيد أنك..."

"أين بوم؟" صاح بن - روي بغضب، مُقاطعاً بينكاس.

"... انضمت إلينا"، تابع بينكاس مُنهياً جملته. "إنه في الطابق العلوي، يجب على اتصالات الصحافة".

"أراهن أن اللعين يقوم بذلك"، زجر بن - روي مستديراً ومُسرعاً بالعودة إلى موقف السيارات ليلج المدخل الرئيس للمركز. في الطرف البعيد للموقف، كان الحشد يندفع في اتجاه البوابات الأمنية، والصيحات تملأ المكان، فيما رجال الشرطة الذين يرتدون بزات نظامية يناضلون لإبعادهم. انعطف بن - روي إلى داخل معبر منخفض، ثم صعد الدرج.

"هل تريد أن أرافقك؟". سأل زيسكي الذي كان لا يزال يتبعه.

فاستدار بن - روي على عَقْبِهِ.

"ما أريد منك القيام به هو الخروج إلى هناك، والعثور على رجل يدعى جورج أسلانيان. إنه يملك مطعماً أرمنياً والكل يعرفه. قُلْ له إنني أتابع القضية، وتحقق مما إذا كان بإمكانه فعل أي شيء لتهدئة هذا الحشد. اتفقنا؟".
"اتفقنا".

"واصطحب معك شرطيين. لا أريد أن يحدث أي شيء لوجهك هذا".

وربَّت على خدَّ الشاب، ثم استدار مجدداً وصعد الدرج درجتين درجتين. كان الضابط المسؤول إسحق بوم في مكتبه، جالساً وراء طاولته ويتحدَّث عبر الهاتف. إنه رجل قصير القامة، بدين، يرتدي بذلة رسمية مكويّبة بترتيب،

وتومض على كتفيه شارتا الورقة والنجمة اللتان تشيران إلى رتبة سغان نيتزراف.
طالما أوحى يوم بغرور شديد، وبدا أشدَّ غروراً هذا الصباح في أثناء قوله إنه لا
يستطيع تقديم أي تعليق باستثناء أنهم لا يبحثون في هذه المرحلة عن أي شخص
آخر على علاقة بمقتل ريفكا كلينبرغ. عبر بن - روي الغرفة بخطوات متثاقلة،
ووكز بطرف إيمامه زرّ تشغيل/قطع الخط، قاطعاً الخط.
"ماذا تفعل بحق الجحيم؟" زعق يوم بغضب. "كنت أتحدّث إلى الجيروزاليم
بوست".

"تبّاً للجيروزاليم بوست"، أجاب بن - روي بجِدّة، منحنيّاً فوق الطاولة على
بعد بوصات قليلة من وجهه رئيسه. "ماذا يجري؟".
لقد تطلّب الأمر لحظات ليستعيد يوم صوته، وتلوّى فمه في أثناء بذله
قصارى جهده للسيطرة على غضبه.

"ما يجري، أيها التحري بن - روي، هو أنني أحلّ الجريمة. وهذا المشهد الذي
تراه في الخارج دليل على أننا أنجزنا أكثر مما أنجزته في الأيام العشرة الأخيرة".
"بتروسيان!". كانت لهجة بن - روي غير مصدّقة. "كاهن في السبعين من
العمر! كيف تصوّرت ذلك؟".

"تصوّرت ذلك من خلال إجراء عريق في جمع الأدلة وتتبعها لنرى ما
ستوصلنا إليه!".

"آه! دعني من مسألة الذكاء تلك، يا يوم!".

"أنت تُظهر لي القليل من الاحترام، يا بن - روي!".

"تبّاً لك!".

"تبّاً لك!".

وقف يوم، ونظر الرجلان إلى بعضهما ملئاً، فيما دسّت شرطية شابة رأسها
داخل الغرفة، وسألت عن سبب كل هذا الضجيج.
"تبّاً لك!" صاح يوم.

ثم عبر المكتب بغضب، وأغلق الباب بقوة، وعاد إلى طاولته.

"أنت بحاجة إلى مراقبة نفسك، يا بن - روي"، صاح مزجراً. "كيف تتكلّم
معي بهذه الطريقة؟! أنت بحاجة فعلاً إلى مراقبة نفسك وإلا وجّهت لك اتهاماً".

"أنا أرتعد!"

"يفترض بك ذلك! أنت عار على هذا المكتب. أنت وذاك المحقق غير السوي...".

"لا تجرؤ...!"

"لا أجرؤ!"

"مجنون!"

"صن لسانك!"

"مجنون!"

وتواصلت الزجاجة للحظات إضافية بين مدّ وجزر، وصراخ وشتائم، حتى تعبنا وباتنا يلهثان بقوة، فلزما الصمت. كان صياح المحتجين الأرمن في الخارج يتداخل مع صياحهما. وبعد ثوانٍ، جلس بوم مجدداً، ورفع بن - روي يديه وابتعد عن الطاولة خطوة إلى الوراء.

"هل يعرف الرئيس غال بهذا الأمر؟"

"بالطبع هو يعرف. أعتقد أنني قد أتصرف من وراء ظهره؟ لقد أريته الدليل، وأجازه، ووقع التفويض."

هز بن - روي رأسه غير مقتنع؛ فالرئيس غال ليس أحق. وإذا أُذِن بالاعتقال فالسبب يرجع إلى أن بوم قد ضخم القضية.

"إذاً، ما هو هذا الدليل؟ هذا الدليل الدامغ."

فقوّم بوم جلسته على الكرسي قائلاً بتفاخر:

"هناك محضر باسمه لدينا."

"بتروسيان؟"

"لقد سبق له أن هاجم كاهناً أرثوذكسياً يونانياً في القبر المقدس. كاد أن يخنقه. لقد فقد أعصابه تماماً."

"حدث ذلك...".

"عام 2004."

أطلق بن - روي ضحكة رافضة.

"إنه مخالف نسقي للقانون إذاً."

فاتخذ بوم موقفاً عدوانياً، ولكنه لم يردّ على الملاحظة الساخرة.
"هناك المزيد".

"تفضّل بإخباري".

"في السبعينيات، ضُبط وهو يتلاعب بدفاتر الحسابات التابعة لدار العبادة الكبرى. كان مسؤولاً عن الموارد المالية، ويسحب الأموال ويعيد استثمارها في سندات مالية معقّدة. ولقد خسرت السندات؛ مما أدى إلى إفلاس دار العبادة تقريباً. لقد فضحت هآرتس الأمر".

لم يكن بن - روي يصدّق ما يسمعه.

"هل لهذا علاقة بقضيتنا؟".

"بالتأكيد".

ونفخ بوم صدره أكثر فأكثر.

"الصحافية التي وضعت المقالة التي أثارت الفضيحة كانت متدريّة شابة تضع قصتها الرئيسة الأولى. وكانت تدعى...".

"ريفكا كلينبرغ".

أنهى بن - روي الجملة. فأطلق بوم ابتسامة رضى عن النفس كما لو أنه يسجل هدفاً بطريقة ما.

"لقد اكتشف نامير ذلك. إنه تحرّج جيد، آموس. إنه دقيق".

وتوقف قليلاً، ومن ثم تابع.

"بفضل كلينبرغ، أُعيد بتروسيان إلى أرمينيا وهو يشعر بالخزي، وتعيّن عليه قضاء ثلاث سنوات في التكفير عن آثامه، وفقد أي فرصة ليصبح بطريقاً. وهذا برأيي دافع جيد لقتلها".

"بعد خمسة وثلاثين عاماً على الحادث!". وهزّ بن - روي رأسه. "هيا يا بوم، الدليل ضعيف حتى بمعاييرك".

"قطعة قطعة يا بن - روي. هكذا تجري الأمور. قطعة قطعة، هكذا يتمّ بناء القضية. ودعني أعطيك قطعة أخرى. كذب بتروسيان بشأن مكان وجوده ليلة الجريمة".

ففتح بن - روي فمه، ومن ثم أطبقه. لقد بدا مندهشاً. واتسعت ابتسامته بوم؛ ابتسامة الرضى عن النفس.

"قال إنه كان في جناحه الخاص عندما قُلت كلينبرغ. وبفضل بعض العمل الممتاز الذي قام به صديقك الصغير غير السوي، علمنا أن لذلك الجناح باباً خاصاً يؤدي إلى الشارع. ولدينا الآن مشاهد مصوّرة لبتروسيان وهو يقوم بجولة في الحيّ الأرمني في حين ادعى أنه كان في جناحه".

كان ينبغي على بن - روي أن يضربه بسبب التعليق الذي تناول زيسكي، ولكنه تخلّى عن ذلك لمناسبة أخرى.

"أي مشاهد مصوّرة؟ لا وجود لأي كاميرات في الحيّ الأرمني".

"لا وجود للكاميرات تابعة للشرطة. ولكن ذلك المتجر عند زاوية شارعي أرارات وسانت جيمس لديه كاميرا فيديو أمنية مثبتة فوق الباب. لقد ألقى نامير نظرة على المشاهد المصوّرة علّه يحصل على أي معلومات. وكما قلت، نامير تحرّ جيد، فهو دقيق في عمله. وماذا وجد برأيك؟ وجد صوراً شديدة الوضوح لكبير الأساقفة وهو يعبر شارع أرارات عند السادسة وأربع دقائق مساءً ليلة الجريمة، ويعود عند الثامنة وست وأربعين دقيقة؛ مما يجعله موضع شبهة يا بن - روي. إصابة مباشرة".

وشرع بالتمايل، فخوراً بنفسه.

"لدينا شخص غريب الأطوار ومحتال، ودافع واضح، وعُذر غياب كاذب".
لقد عدّها على أصابعه. أصابع ناعمة وسمينة لم تُقَم يوماً بأي عمل شاق. "وإذا كان لا يزال لديك أي شك، فلدينا اعتراف أيضاً".

مرة أخرى، فتح بن - روي فمه وأطبقه من دون أن يقول أي شيء. فأوماً بوم بطريقة تنم عن الرضى، مُدركاً أن لديه اليد العليا، ورفع ورقة عن الطاولة، وقرأها ببطء، مستمتعاً بالتفوّه بالكلمات.

"موثماً يُثقل ضميري. أنا المذنب. أنا من قتلها".

ورفع نظره نحو بن - روي، وقرأ الاعتراف مجدداً مركزاً على الفكرة الرئيسة.

"من الواضح أنني أغفل معنى مستتراً هنا، ولكنني لا أستطيع تبينه. ربما يمكنك مساعدتي على اكتشافه".

وازدادت سخريته.

"هل قال هذا لك؟".

"أحد رئيسي الأساقفة الآخرين. سمعه أحد مُخبري نامير، ونقل المعلومة".
"إذاً، هذا ليس اعترافاً رسمياً البتة".

فلم يُحب بوم، بل اكتفى بإسناد ظهره مكتوف اليدين. كان في مقعد القيادة وكان يعلم ذلك.
"هذا الواقع يُربكك، أليس كذلك؟".

فلم يقل بن - روي أي شيء، بل حدّق به فحسب.
"إنه يُربكك كثيراً. أنت البلاش العظيم، الفائز بثلاثة تنويهات على ما أنجزته في قسم الشرطة، أنت الذي تغوص دائماً إلى عمق القضية. ولكنك في الخطوط الجانبية في هذه الجولة. لقد قام شخص آخر بحلّ القضية، وثبت أن كل أطراف خيوطك المأسوف عليها مجرد هراء. يا الله! لا بد أن يكون الأمر مؤلماً بالنسبة إليك".

"ما يؤلمني"، قال بن - روي بغضب، "هو أنك أثرت الأمر من جميعاً وأطلقت هياجاً عاماً لأجل قضية سيقوم أي محامي دفاع يتمتع بكفاءة جزئية بتمزيقها إرباً إرباً عندما يضع يديه عليها. إنه دليل ظرفي يا بوم، ولا شيء لديك، لا شيء يربط بتروسيان بالجريمة مباشرة".

توقف بوم عن الدوران على كرسيه، وانحنى إلى الأمام فوق الطاولة.
"سُتُبت التهمة أيها التحري. ثِق بي، سُتُبت التهمة. بتروسيان هو رجلنا، وحتى لو لم يخنقها بنفسه فهو يعرف بالتأكيد من قام بذلك. الخسراء الجنائيون يفحصون جناحه الآن في أثناء تكلّمنا. أنا ونامير على وشك إحكام قبضتنا عليه. وأنت...".

ومدّ إصبعه في اتجاهه بعدوانية.
"أريدك على طولتك لتملأ الفراغات".
"أنا في مقابلة معك الآن".

"باستطاعتك الجلوس على وجهي اللعين!". صاح بوم، ثم صمت للحظات قليلة بعد أن أدرك أن الإهانة لم تحقق ما يصبو إليه، وقبل أن يهاجمه بن - روي مجدداً قال:

"طالما كنتَ أخرج متعالياً يا بن - روي، ولن أتحمّل ذلك بعد الآن. إنه خطئنا الاستقصائي وسوف تلتزم به. هل هذا مفهوم؟ وإلا أنزلت رتبك إلى شوتر، وجعلتك حارساً على أسوأ مستوطنة يمكنني العثور عليها. الآن، انزل إلى الطابق السفلي وابدأ بالعمل. إنه أمر مباشر".

فحدّق به بن - روي من دون بذل أي جهد لإخفاء كرهه، ثم توجّه إلى الباب. وعندما وصل إليه استدار.

"هل تعرف بم يذكرني كل ذلك؟".

فارتفع حاجبا بوم.

"بالعجة بالببيض التي طهوئها هذا الصباح".

فبدا بوم مُربكاً.

"بيضة"، شرح بن - روي. "بيضة كبيرة تبقب وتُخرج الفقاقيع في اتجاه وجهك مباشرة، يا سيدي. أنت تستهدف الرجل الخطأ. ولو كنت مكانك لأعددت منشفة لأنه سيكون عليك التعاطي مع كل الفوضى التي أحدثتها".

وخطا خطوة خارج الباب، ثم عاد مجدداً إلى الداخل قائلاً:

"إذا سمعتك يوماً تتكلّم عن شريكك على هذا النحو فسأزّين وجهك. ينطبق الأمر نفسه على ليه شاليف. مجنون".

وبلغ منتصف الدرج قبل أن يتمكن بوم من التفكير بردّ مناسب.

الأقصر

دخلت مجموعة من اليخوت الحوض بعد الظهر، وهي إحدى مجموعات اليخوت القادمة من أسوان، وتحركت في اتجاه الشاطئ جنباً إلى جنب في صفوف يتكون كل منها من ثلاثة يخوت، وبلّاقة، كفرقة من السباحين الذين يتحركون بشكل متزامن.

كان خليفة واقفاً على أرض محاذية للرصيف البحري منتظراً. وعندما أنزلت المعابر المتحركة، صعد على متنها، وشرع بالبحث عن الدكتور ديغي غيرلينغ، وهو الرجل الذي اقترحت ماري دوفريس أن يقابله لأنه ربما يعرف شيئاً ما عن سامويل

بينسكرك الغامض. تعقبه، وعثر عليه في النهاية في غرفة جلوس عند مقدمة اليخت؛ حيث كان يلقي محاضرة عن مواد التجميل المصرية القديمة لمجموعة من النساء متوسطات الأعمار. مكث خليفة في آخر الغرفة حتى انتهت المحاضرة، وبدأ الحضور بالتفرّق، ومن ثمّ توجه إلى الأمام، وعرّف بنفسه، وشرح سبب وجوده هناك. "تحرّ!" قال غيرلينغ بصوت أشبه بخوار. "إنّ الأمر مثير للفضول! هل ارتكبت جريمة؟".

بطريقة ما، أقرّ خليفة. ولم يتمكن من التطرق إلى التفاصيل. "بالطبع لا، بالطبع لا. سأبقي الأمر سرّاً!"

ونقر الرجل الإنكليزي على أنفه بطريقة تأمرية. كانت ماري دوفريس قد شبّهته ببالون. وبالنسبة إلى خليفة، بدا أشبه بإجاصة؛ إجاصة فائقة النضج ملفوفة ببذلة من الكتان الأبيض، وتضع ربطة عنق على هيئة فراشة وتنتعل خفّين. "هل نتحدث هنا؟" سأل. "أم تفضّل التوجه إلى مؤخر اليخت؟". "في المكان الذي يوفر أكبر قدر من الراحة"، قال خليفة.

"إذاً إلى مؤخر اليخت. ستبدأ حفلة رقص شرقي بعد عشرين دقيقة، ولا أريد أن يزعجنا أحد. أنت تحرّ حقيقي نابض بالحياة! يا الله! أشعر وكأنني في إحدى حلقات مسلسل مورس!"

وجمع مدوّنات محاضراته، واعتمر قبّعة من القشّ تقيه من الشمس، ولوّح لمن بقي من الحضور بطريقة استعراضية، وعبر الغرفة.

"لا تنسَ الليلة، يا دكتور ديغبي!" نادى إحدى النساء.

"سأكون سليمان حقيقياً"، صاح غيرلينغ. "منصفاً وحازماً جداً!"

ولوّح مجدداً بطريقة مسرحية قبل أن يخرج من الغرفة، ويتوجّها إلى مجموعة من الأذراج المكسوّة بالسجاد، وتردد صدى قهقهات النساء وراءهما.

"مسابقة مومي ليلة الأحد"، شرح الرجل الإنكليزي في أثناء صعودهما. "ثلاث عشرة مطلّقة يتمشّين على نحو استعراضي وهنّ ملفوفات بورق المراحيض، ويشرّفني اختيار الفائزة. كم الأمر مُحجل!"

وهزّ رأسه بطريقة تنمّ عن الحزن والأسى. واصلا الصعود إلى أعلى الدرج، وتوجّها إلى المنصة العلوية لليخت. كان هناك حوض سباحة صغير محاط بسباحين

ممدّدين على كراس شمسية. وفي الطرف الآخر ظلّة توجد تحتها مجموعة من الكراسي البلاستيكية. كان اليخت راسياً في أبعد صف من المراكب. وركّز الإنكليزي انتباهه للحظات، وبطريقة حاملة، على الجبال الطيبة البعيدة الضبابية والمحدّودة. وبعد أن صفّق يديه، توجّه إلى الظلّة، وانخفض وجلس على كرسي، ولوّح لخليفة للجلوس بجانبه.

"إذاً أيها المفتش"، قال. "سامويل بينسكر. آمل حقاً أن أتمكن من تقديم بعض المساعدة".

بعد حضوره اجتماعاً طويلاً ومملاً في المركز عرض خلاله الرئيس الحسني - لمدة ساعة ونصف - للافتتاح الوشيك لمتحف وادي الملوك - الذي كان بعد أقل من أسبوع - قضى خليفة ما تبقى من فترة الصباح في متابعة المدوّنات المفصّلة المرتبطة بالقضية، والتي كان بن - روي قد أرسلها له. فالاتصال الهاتفي الذي أجري مع فندق روزيتا حيث حجزت ريفكا كلينيرغ غرفة، لم يُضف إلى المعلومات التي جمعها بن - روي من الناس أي جديد. ولم يكن قسم الجرائم الخطيرة في الإسكندرية على علم بوجود أي صلة بين فندق روزيتا والاتجار بالجنس، أو التسلل إلى ملفات الكمبيوتر، أو أي شكل آخر من أشكال الجريمة المنظّمة؛ باستثناء القضية العرّضية التي تتناول صيد الكركند غير القانوني، وعرض الأسعار المتعلق بحقل شاهاران للغاز الذي تسعى بارين للفوز به. وإن تمكنت من تحقيق ذلك فستكون هذه الصفقة وفقاً لأحد مصادر خليفة في صحيفة المصري اليوم إحدى الصفقات الكبرى التي أبرمتها الحكومة المصرية يوماً مع شركة أجنبية. كما لا توجد أي صلة واضحة مع الجريمة التي ارتكبت في القدس. باختصار، لم يُضف أي شيء إلى ما يعرفه الإسرائيليون.

وإذا كان يريد مساعدة بن - روي في هذه القضية - كلما بحث خليفة عن معلومات أكثر شعر أكثر فأكثر بأنه مُلزم بالمساعدة - فيتوجب عليه معرفة سبب اهتمام ريفكا كلينيرغ بسامويل بينسكر. ويبدو أن معرفة هذا الأمر متوقفة على لقائه ديغبي غيرلينغ. أجل، هناك إذاً الكثير مما يستند إليه في هذا الحديث.

"قل لي إنك أجريت بحثاً عن بينسكر"، استهلّ كلامه.

"إنه بحث متواضع كتبته قبل سنوات قليلة"، أكد الإنكليزي. "كل رجال الملك الفتى - الأعضاء المنسيون في فريق التنقيب عن توت عنخ آمون. لقد بيعت ست وعشرون نسخة فاخرة في مكتبة متحف بيري. إنه كتاب شديد الرواج حقاً وفقاً لمعايير دراسة الآثار المصرية. لقد ظهر اسم بينسكرب بسبب ما أدخله من تحسين على المناظر الطبيعية عند مدخل المدفن. من فضلك، يا صلاح!".

قال ذلك لنادل يرتدي سترة بيضاء ويجول بجانب حوض السباحة، فدنا الرجل منه، وسأل عما يمكنه أن يحضره لهما. رفع خليفة يده دلالة على عدم رغبته في أي شيء. فيما طلب غيرلينغ كأساً من الشراب.

"أحضر معي دائماً عدداً قليلاً من زجاجات الشراب لاحتساؤها خارج وقت الخدمة"، أسرّ. "ويضيف النادل إلى شرابي دائماً الكثير من النعناع، هذا هو السر".

وغمز، ثم أخرج مندبلاً، وبدأ يرتب على جبينه الذي تجمعت فوقه قطرات العرق بعد إمضائهما دقيقتين فقط خارج القاعة المكيفة داخل اليخت. أشعل خليفة سيجارة، وكان على وشك الشروع بالكلام عندما تولّى غيرلينغ المهمة بدلاً عنه.

"إنه شاب مثير للدهشة، سامويل ذاك"، قال. "لقد ذكرته في الكتاب بشكل موجز فقط، ولكن الأمر تطلب مني أن أقوم بكثير من الأبحاث عنه. لقد نسي الآن تماماً بالطبع، ولكنه كان شخصاً هاماً في زمنه. غالباً ما فكرت بإدراج مدوناتي عنه في كتاب آخر".

وربّت على جبينه مجدداً، ثم رفع قبعة الشمس وبدأ يلوح بها لنفسه. "كان مهندساً؛ مهندساً تعدين يهودياً مانشستريراً بالتحديد، وديموغرافيته موسّعة بصفة خاصة. قدّم إلى مصر في الأساس ليثبت جهاز سَحَب في منجم فوسفات قرب الخارجة، وانتهى به الأمر ماكثاً هنا، ومقدماً النصّح لبعض البعثات الأثرية في الأقصر. بينسكرب أول من أدرك أهمية قهوة أكثر المدافن عمقاً في الوادي بالطريقة الملائمة. ويعود له الفضل ببقاء بعض التزيينات، علماً أنها تسبب بعض الإزعاج".

وأمال رأسه في اتجاه حوض السباحة؛ حيث كانت امرأتان ترتديان ثياب السباحة تلاعبان رجلين مُفرطي الوزن، وتزعقان من فرط الضحك في أثناء رشهم بعضهم بمسدسات الماء.

"إنه نداء فَمِينا بريتانيكاو"، تنهَّد غيرلينغ مقلِّباً عَيْنَيْهِ، ومبعداً كرسيَّه كي لا يصبح حوض السباحة في مرمى نظره، فيما تالَّأت جادة النيل الزمرّدية الواسعة تحت أشعة شمس بعد الظهر. وللحظات وجيزة، وجد خليفة نفسه يحدّق بصَدَل يشق طريقه في اتجاه منبع النيل بجانب الشاطئ الغربي، ويُحدث جُرحاً عميقاً ومُزبداً في الماء. وقبل أن يغوص عميقاً في شروده الذهني، هدر صوت غيرلينغ مرة أخرى.

"... كان يسكن في حيّ فقير في مانشستر كما تعلم. وهو ابن إسكافي أمّي يتكلم اليديش. لقد تغلّب على الفقر الأكثر هولاً، وعلى التمييز الديني وغدا مهندساً. كان رجلاً بارعاً تماماً ولكنه صعب المراس، وكانت لديه مبادئ اشتراكية متينة أدخلته نزاعاً مع معظم المستعمرين الآخرين هنا. كان يتشاجر مع الناس على الدوام، واشتهر بلجوائه إلى، كما تعلم..."

وقام بإيماءة؛ كما لو أنه يوجّه لكلمة بقبضتيه. فتذكر خليفة القصة التي أخبرته بها ماري دوفريسن عن بينسكر حين هاجم رجلاً من القُرنة.

"أجل، يبدو أنه كان يحب الشّجارات"، أقرّ غيرلينغ عندما ذكر له خليفة الحادث. "لم أتبيّن قطّ التفاصيل المحدّدة؛ سوى أن بينسكر استاء بسبب أمر ما قاله الرجل، وأفقده وعيه. لقد تسبب بكثير من المشاكل، كما يبدو؛ علماً أنه كان يحترم المصريين الأصليين إلى حد كبير؛ وفقاً لمعظم الروايات. ربما كان الأمر مرتبطاً، كما تعلم..."

وحرك يده نحو فمه كما لو أنه يحتسي الشراب.

"إما ذاك أو وجهه. كان مظهره سبباً لسرعة غضبه".

"كنت سأسألك عن ذلك"، قال خليفة. "كان وجهه... كيف تقول ذلك؟... هل ولد مشوّهاً؟".

"أتقصد إن كان ذلك عيباً بالولادة؟". وهز غيرلينغ رأسه. "لا، لا، حدث التشويه في وقت لاحق. كان في الواقع شاباً وسيماً؛ إذا كان بالإمكان الاعتماد على الصور الفوتوغرافية القليلة المبكّرة. عيانان داكتان، وقسمات وجه سامية حادة. احترق وجهه بالغاز".

لم يفهم خليفة.

"غاز الخردل"، شرح الإنكليزي. "الحرب العالمية الأولى. معركة باسنديل. كان بينسكر جندياً في سلاح الهندسة ويقود فريقاً يحفر تحت خطوط الألمان، فاكشف بوش ما يجري، وحفر حفرة مقابلة وضخَّ شحنة من الغاز داخل النفق الإنكليزي، وحرق الأوغاد المساكين وهم أحياء. لقد جازف بينسكر بحياته في أثناء محاولته سدَّ الفجوة ليتمكن الآخرون من الخروج. فاز بميدالية فكتوريا التي تحمل رمز النصر الديني بسبب ما ألمَّ به، علماً أنه عانى من ذلك حتى آخر أيامه. كان يشعر بالألم باستمرار كما يبدو، ويحتاج إلى مشروبات قوية ومورفين ليتمكن من العمل. إنه مظهر مأساوي بطرائق شتى".

وشك خليفة في أن تكون الفتاة التي اغتصبها بينسكر قد رأت الأمور على هذا النحو. غير أنه احتفظ بالفكرة لنفسه، غير راغب في التطرق إلى تفاصيل الاغتصاب، بل سحب صورة فوتوغرافية من جيبه، وحول مجرى الحديث متطرقاً إلى ذاك الجزء في قصة بينسكر الذي يثير اهتمامه فعلاً؛ رسالة هوارد كارتر. "لا أفترض أن هذه الرسالة تعني لك شيئاً، أليس كذلك؟" سأل خليفة وهو يسلمه الرسالة.

اعتمر غيرلينغ قبّعته مجدداً، ثم وضع نظارة على شكل هلال، وقرأ الرسالة. وكلما استرسل في القراءة ازدادت عيناه اتساعاً.

"من أين حصلتَ عليها؟". سأل عندما أُنهي القراءة، رافعاً نظره. "كانت موجودة في ملف قديم للشرطة. لم أكتشفها إلا منذ يومين". "ليتني عرفتُ بوجودها، كنت سأضيفها إلى بحثي. إنها رائعة. رائعة تماماً". "هل تملك أي فكرة عما يعنيه بذلك؟ ذلك الجزء المتعلق بالعثور على شيء ما؟".

"حسناً، لا يمكنني أن أكون متأكداً مئة بالمئة"، قال غيرلينغ وهو يقرأ الرسالة مجدداً بإمعان، "ولكنني أراهن بأنه يشير إلى متاهة أوزيريس".

إن الطريقة التي قال بها ذلك باقتناع أفقدت خليفة توازنه. لم يكن يتوقع جواباً مباشراً، بل بذل المزيد من الجهد. وانحنى إلى الأمام، وامتدَّ خَدْرٌ أمل إلى أعلى عموده الفقري، ونسي كل ما قيل حتى تلك اللحظة. "ما هي هذه الما-تاها؟".

"متاهة"، صحَّح له غيرلينغ؛ مشدداً على الحرفين الأخيرين. "إحدى الأعجوبتين المصريتين القديمتين اللتين أشار إليهما الإغريق بهذا الاسم. والأعجوبة الأخرى، بالطبع، هي مجمع هرم أمنحوتب الثالث في الحوارة. ولكن متاهة أوزيريس برأيي هي الأكثر إثارة للاهتمام بين الاثنتين".
"هذه الما-تاهة، أهي مدفن؟".

"لا، لا، لا". وهز غيرلينغ رأسه، واهتز فكّه. "كانت منجماً. في الواقع، إنها منجم؛ مصدر الذهب الأساسي لفراعنة المملكة الجديدة".
وازدادت حدة الحذر. فوفقاً للمدونات التي أرسلها له بن - روي، كانت ريفكا كلينبيرغ تقرأ عن مناجم الذهب.
"لم يسبق لي أن سمعتُ به"، قال خليفه.

"حسناً، من المحتمل ألا تسمع به ما لم يكن لديك اهتمام خاص بالتكنولوجيا المصرية القديمة. صديقاً، لم أكن أعرف الكثير عن هذا الأمر حتى ظهر فجأة في البحث الذي كنت أجريه عن بينسكر، وقرأتُ بعض الأمور عن الموضوع. لقد وضع هذا المنجم كل مناجم الذهب الأخرى في الظل كما يبدو. فكنوز توت عنخ آمون، ومستودع كنوز تل بَسْطَة، ومجوهرات آحوتب، وجنازة تحوت... ربما تكون أي منها مصنوعة من الذهب المستخرج من منجم المتاهة. إنه مدينة حقيقية تحت الأرض إذا كنت تصدِّق هيرودوت".
"هل كان بينسكر يبحث عن هذا المنجم؟".

"بالتأكيد"، قال غيرلينغ. "يبدو أن هذا الأمر كان هاجساً بالنسبة إليه. لا فكرة لديّ عن المكان الذي سمع فيه عن المنجم للمرة الأولى. ولكن، منذ وصوله إلى مصر قام بغزوات داخل الصحراء الشرقية، محاولاً تتبّع أثره. فهو بالرغم من كل شيء مهندس تعدّين. هناك رسالة له في أرشيف براكين في مانشستر - جوزف براكين ناشط عمالي في عشرينيات القرن الماضي، وكان صديقاً حميماً لبينسكر إبّان الحرب - يسترسل فيها في الحديث عن هذا الشيء، وعن مدى الدهشة التي سترافق اكتشافه؛ ليس بسبب الذهب فحسب، بل بسبب الضوء الذي سُلِّقه المنجم على ممارسات العمل القديمة. ففي حين كان كل شخص آخر صعب المراس في مصر يبحث عن الفراعنة والكنوز، أراد سامويل بينسكر

جمع معلومات عن الطبقة العاملة. إنه تلميذ حقيقي من تلامذة ماركس. آه! إنه أسلوب الفرسان!".

دنا النادل منهما حاملاً صينية على أطراف أصابعه بشكل متوازن، ووضع على الطاولة كأساً من الشراب، وكوب ماء مثلاًج لخليفة، علماً أنه لم يطلبه. "نخبك!". صاح الإنكليزي بصوت متهدج، رافعاً كأسه إلى شفتيه، ومتناولاً ثلث محتوى الكأس بجرعة واحدة، فيما ارتشف خليفة الماء، شاعراً بالسعادة لوجود الكوب بين يديه. وساد صمت ما لبث أن كسره غيرلينغ قائلاً: "فتحاته عميقة جداً، وأروقته عديدة جداً، وهو مُربك بتعقيده لدرجة أن المرء يضيع كلياً عندما يلج مدخله".

وتناول غيرلينغ جرعة كبيرة أخرى، ثم وضع الكأس على بطنه. "هكذا يصف هيرودوت المتاهة"، قال، "أو إنه على الأقل ما قاله هيرودوت بشكل مختلف؛ إذ لا أستطيع تذكر المقطع حرفياً. لقد كان مليئاً بالذهب كما يبدو؛ لدرجة أنه بإمكانك أن تقطع شرائح منه عن الجدار بسكين كما لو أنك تقطع اللحم. وعندما تخرج إلى ضوء الشمس - مفترضاً أنك لن تخرج أبداً - سيتألاً شعرك كما لو أن النار قد أضرمت به؛ وذلك بسبب غبار الذهب العالق به. لم يكن هيرودوت ممن يتحفظون في التعبير عن الوقائع". ضحك، وحرك غُسلوج نبتة نعناع بشكل دائري. وتناول خليفة المجة الأخيرة من سيجارته.

"بالطبع، كان هيرودوت هو الإغريقي الوحيد الذي أشار إلى المنجم بأنه متاهة"، أضاف غيرلينغ. "لم يكن المصريون يملكون هذا المفهوم. فقد كانوا يعرفونه انطلاقاً من العنوان العادي شِموت نِت وسير؛ ممرات أوزيريس. من الواضح أن أوزيريس هو سيّد العالم السفلي".

لقد لفت شِموت نِت وسير انتباهه؛ وإن كان ذلك بشكل مُبهم. وبالرغم من افتتانه بتاريخ بلده، لم يهتم خليفة كثيراً بالتعدين في الأزمنة القديمة. "هل هيرودوت مصدرنا الوحيد في ما يتعلق بهذا المنجم؟" سأل.

"لا، لا، إنه مذكور في عدد من الأماكن المختلفة"، أجاب غيرلينغ مُحركاً غُسلوج النعناع بشكل دائري مرة أخرى قبل أن يسحبه من الكأس، وينحني إلى

الأمام ويمتصّه. "لا يمكنني الادعاء بالتأكيد بأنني مرجع في هذا الموضوع، ولكن هناك مقطعاً عنه في ديودوروس سيسولوس يصف كيفية قيام عشرة آلاف عامل من العبيد بالعمل فيه، منتجين كمية من الذهب يفوق وزنها وزن الفيل. وأتذكر أيضاً وجود مصادر مستقاة من مؤرّخين وعلماء جغرافيا من الإغريق يُعرفون بالأغاثارسيد. وهناك أيضاً مصادر مصرية قديمة أكثر غموضاً وانفتاحاً على التأويلات".

وأعاد إسقاط عُسلوج النعناع في الكأس، متناولاً ما تبقى من شرابه، ثم سحب منديله مرة أخرى، وربّت على قميصه وسرواله المبقّعين. ونادت امرأة بجانب حوض السباحة، طالبة معرفة المكان الذي وضعت فيه جانين المرهم الوافي من أشعة الشمس. وفي النيل، اقترب كُنش سياحي يحمل اسم نيوتاتيانيك لا يلائمه مطلقاً. "بالطبع، هناك أولئك الذين كانوا يشككون بالأمر برمته"، قال غيرلينغ مستهلاً الحديث مرة أخرى من دون أي تحفيز من خليفة. "ويَدّعون أن الأمر مجرد أسطورة. لقد رفض كارتر الفكرة على الدوام، علماً أنه كان يميل إلى رفض كل ما قد يُلقي بظلاله على اكتشافه الخاص. ولكن النصوص متماسكة على نحو مفاجئ؛ ووفقاً لمعايير قديمة بالتأكيد. وأعتقد أن بعض النقوش المكتشفة حديثاً دليل إضافي على وجود تلك المتاهة فعلاً. وتتمثل العقبة الجليّة بأن أحداً لم يعثر على ذاك الشيء اللعين مطلقاً. ويبدو أن أحدهم قد فعل ذلك الآن، أو إنه قد سبق له أن فعل ذلك على الأقل".

ولوّح بالرسالة.

"إنها رائعة. رائعة تماماً".

"هل تعتقد أنه يقول الحقيقة؟". سأل خليفة.

"لا أرى أي سبب للكذب في هذا الشأن. كان شمالياً متهوراً غير معتاد على شطحات الخيال. وإذا قال إنه قد وجدها، فأنا أعتبر ذلك حقيقياً. إن هذه الرسالة رائعة تماماً. هل تمانع أخذي نسخة عنها؟".

"رجاءً، احتفظ بها"، قال خليفة. "الأصلية لديّ في مكتبي".

"أنا مدين لك. أعتقد حقاً أنه يُفترض بي الشروع بالعمل على هذا الأمر المرتبط بينسكير. يبدو أنه أكثر إثارة للاهتمام مما ظننتُ. إنه مالوري في دراسة الآثار المصرية".

لم يأبه خليفة بالمرجع ولم يستفهم عنه. كان شارد الذهن، وهو يحاول أن يفهم سبب اهتمام صحافية إسرائيلية تضع مقالة عن الاتجار بالجنس باكتشاف منجم ذهب مصري يعود للعصور القديمة. لم يكن هذا الأمر من مهامه بل من مهام بن - روي الذي يُجري التحقيق، ولكنه لم يتمكن من تمالك نفسه. لقد أسره أمر ما في القضية بطريقة غير مسبوقة.

"هل نعرف أي شيء آخر عن هذا المنجم؟".

"هممم!".

كان غير لينغ يقرأ الرسالة مجدداً، مستغرقاً في أفكاره.

"المنجم. هل نعرف أي شيء آخر عنه؟".

"حسناً، كما قلتُ، في الواقع، ليس الأمر ضمن مجال اختصاصي". وطوى الإنكليزي الرسالة ووضعها في جيب قميصه. "شخصياً أعتقد أنه أشبه بمنجم إغريقي روماني. كان كبيراً بالتأكيد؛ كل المصادر توافق على ذلك. إنه أب كل المناجم المصرية في العصور القديمة، ويبدو أنه استخدم طوال فترة قيام المملكة الجديدة. خمسمئة عام من الحفر وإقامة الأنفاق. إذا تصوّرت أن أعماق المدافن في وادي الملوك تطلّب حفرها عشرين عاماً تقريباً، فيإمكانك تكوين فكرة عن الحجم النسبي للمكان. يعود تاريخ هذه المناجم إلى الأزمنة القديمة بالطبع، ولكن اكتشاف هذا المنجم يبقى اكتشافاً ضخماً بالرغم من ذلك".

"وكان في مكان ما من الصحراء الشرقية"، قال خليفة.

"هذا ما تشير إليه المصادر كما يبدو. فأعمال التنقيب عن الذهب الأكثر قِدماً جرت في ذلك الجزء من العالم؛ هناك أو في التّوبيا المشتقة من نوب أي الذهب باللغة المصرية القديمة".

وأخرج منديله وبدأ بالتربيت على جبينه مجدداً.

"إن من يُفترض بك التحدث إليهما في الواقع هما الأخوان الرّيسولي"، قال. "فهما يتجولان في تلك الناحية من مصر منذ عشرين عاماً، ويعرفان كل شيء عن التعدين في الأزمنة القديمة".

مرة أخرى، أسر الاسم انتباهه.

"أهما شقيق وشقيقته؟".

"بالضبط. إنهما ثنائي مميز. تلك النقوش الجديدة التي ذكرتها، أنا على ثقة تامة بأهمية اللذان اكتشفاهما. هما اللذان يجب أن نتحدث إليهما إذا أردت معرفة المزيد عن المتاهة. مركزهما جامعة القاهرة، كما أعتقد".

دوّن خليفة ملاحظة ذهنية للاتصال بهما. ثم طرح عدداً إضافياً من الأسئلة، ولكن غير لينغ لم يتمكن من إضافة أي شيء إلى ما أطلعه عليه. ومع بدء الإنكليزي باختلاس نظرات سريعة إلى ساعته، شكره خليفة على ما قدمه من مساعدة وأنهى المقابلة.

"أمل حقاً أنني لا أستعجلك"، قال غير لينغ بطريقة اعتذارية، "ولكن، يتعين عليّ اصطحاب مجموعة من الأشخاص إلى جادة السفنكس عند الخامسة، وبدأ الموعد يقترب".

فطلب منه خليفة ألا يقلق، وقال له إن لديه كل ما يحتاج إليه. "بالمناسبة، عمل جيد جداً في الجادة"، أضاف غير لينغ، رافعاً نفسه عن الكرسي. "إنه إنجاز مميز. لقد حول المدينة تماماً. نظراً إلى كونك أقصراً، لا بد أن تكون فخوراً جداً".

لم يُجب خليفة، بل شرب مائه ونهض. لقد علق نظره للحظات وجيزة على طواف كبير من ورد النيل ينساق إلى وسط النهر، ويقف وسطه مالك حزين رمادي اللون وفخور؛ كما لو أنهبحار يقود طَوْفاً. ومن ثم، وهزة رأس، تبع الإنكليزي وسار بجانبه. "هناك أمر واحد إضافي"، قال في أثناء سيرهما على المنصة. "تفضّل".

"عندما كنت تجري بحثاً عن بينسكّر، ألم تقع على أي صلة بينه وبين إسرائيل؟".

فقطّب الإنكليزي حاجبيه.

"لا أتذكر وجود أي صلة"، قال. "حتى إن إسرائيل لم تكن موجودة في زمن بينسكّر، بل كانت الأرض حينها خاضعة لسلطات الانتداب البريطانية في تلك الأيام وكانت تدعى فلسطين. لا يمكنني أن أتذكر أبداً. في كلا الحالين، أنا على ثقة تامة بأن بينسكّر لم يذهب إلى هناك قطّ. في الواقع، كان مرتاباً بأمر الصهيونية

برمتها. ولكن، بما أنه كان في مصر، فمن غير المستحيل أن يكون قد زار المكان. وإذا قام بذلك فإن الأمر لم يبلغ مسمعي".

وبلغ الباب وهم بالخطو إلى الداخل، ولكنه استدار.

"تمهل، كان هناك فرد من عائلته انتقل إلى هناك في ثلاثينيات القرن الماضي. نسيبة أو ما شابه. لقد مكثت هناك لمدة عامين، ومن ثم تحررت من آمالها الكاذبة وعادت إلى إنكلترا. لا أستطيع تذكر اسمها".

وفكر للحظات، ومن ثم هز كتفيه بطريقة اعتذارية ودخل. فلزم خليفة مكانه؛ مراقباً طوف ورد النيل وهو ينساق شمالاً في رحلته، متحركاً ببطء على نحو دائري مع التيار المتدفع. وبعد ذلك، أشعل سيجارة كليبواترا أخرى، وتبع غيرلينغ إلى الداخل.

"عليّ القول إن القضية تبدو مثيرة للاهتمام"، صدر صوت الإنكليزي من السلم أمامه. "منجم ذهب يعود للأزمة القديمة، عالم آثار يختفي، ألغاز في القدس؛ يبدو الأمر كمؤامرة في رواية. أودّ أن أعرف كل شيء عن الأمر".

وتناول خليفة بحجة من سيجارته.

القدس

عند الساعة السابعة، كان بن - روي وليه شاليف جالساً على الشرفة في شقتها في رامات دنيّا، يرتشفان الشراب ويحدقان بغروب شمس نارّي أحمر قانٍ، ومن ورائهما تصدر طقطقة مكتومة للأواني في أثناء قيام زوج شاليف، بني، بإعداد العشاء. كان كلب صغير يراقبهما من الزاوية البعيدة للشرفة، وهو كناية عن كومة شعر أطلق عليها اسم يصعب تصديقه: غورجوز.

"إذاً، ما الذي استنتجته من كل ذلك؟" سألت.

"لقد تبادرت إلى ذهني كل أنواع الكلمات اللعينة".

"إنها بالتأكيد إحدى الطرائق لوصف الوضع".

وأسندت قدميها على درابزين الشرفة ودفعت الكرسي إلى الوراء مهتزة. لقد ملأت المركز صياحاً كما يبدو عندما اعتقلوا بتروسيان في ذلك الصباح. وما هي تعود إلى رُشدها؛ هادئة، متماسكة، مركّزة.

"لقد طُرحت على الرجل المُسنّ أسئلة بالتأكيد"، قالت. "لقد كذب في شأن عُذر غيابه، ولا يبدو أمر الاتصال الهاتفي جيداً".

فالاتصال تطور جديد. كان آموس نامير قد قضى فترة بعد الظهر في مراجعة سجلات الهاتف التابعة لرئيس الأساقفة، واكتشف اتصالاً هاتفياً وارداً من الهاتف المحمول لكلينبرغ. حدث ذلك قبل ثلاثة أسابيع من وفاتها، ودام الاتصال خمس دقائق.

"عندما رأيته في دار العبادة الكبرى ادعى أنه لا يعرفها".

"لم نكن قد حدّدنا هويّتها بعد".

"لا يزال هذا رابطاً مباشراً بالضحية"، قالت، "واسمها في كل الصحف. كان باستطاعته عرض خدماته. إنه ماهر، لا ريب في ذلك".

"يبدو الأمر كما لو أنك توافقين بوم الرأي".

"يوم أوافق إسحق بوم الرأي هو اليوم الذي أسلم فيه شارقي. ولكن بتروسيان ليس صادقاً. وهو حالياً الشخص الأكثر اشتباهاً به لدينا. في الواقع، إنه المشتبه به الوحيد".

أسند بن - روي قدمه على الدرايزين، وارتشف بعض الشراب. لم يكن يفضل هذا النوع، ولكنه الوحيد الموجود لدى شاليف، وكان بحاجة إلى شراب بعد كل ما حدث في ذلك اليوم.

"إنه رجل مُسنّ يا ليه. أنتِ قلتِ ذلك بنفسك".

"إذاً، فجأةً بات هناك تخفيف للجُرم بسبب السن؟ لم يكن آمون هرتزيغ شاباً بالتحديد".

فهرتزيغ أول قضية قتل عملاً عليها معاً؛ لقد قتل زوجته. لقد نُشرت أخباره في الصفحات الأولى، وكان في الثالثة والثمانين من العمر.

"لم يرتكب بتروسيان الجريمة"، أصرّ بن - روي. "تعرفين ذلك تمام المعرفة على غراري. وأياً يكن الأمر الذي تورّط فيه - ومن الواضح أنه متورط في أمر ما - فمن المُحال أن يكون قد خنق ريفكا كلينبرغ".

"إذاً، إنه يعرف من قام بذلك ويحميه".

إنه أمر ممكن ولو بشكل محدود، علماً أن بن - روي لم يكن مقتنعاً بذلك.

"الأمر غير منطقي يا ليه. الأمر غير منطقي".

"إذاً، ما هو الأمر غير المنطقي؟". ونظرت إليه. "أخبرني يا آري، رجاءً. لأنه مهما كانت نوايا المرء حسنة، فقد قضينا عشرة أيام في التحقيق ولم تطرح بعد اقتراحات أفضل".

إنها وجهة نظر مُنصفة. الاتجار بالجنس، فوسغي، بارين، مصر، نَمِيس، سامويل بينسكرك؛ في النهاية، إنها ضربات فرشاة عشوائية لا تشكل صورة واضحة. كان باستطاعته الشعور بأنه على الدرب الصحيح - إنه يشعر بذلك في كل خلية في جسده - ولكن سلوك الدرب الصحيح وامتلاك قضية عملية أمران مختلفان. "سأواصل التحقيق في القضية"، قال بشكل غير مُقنع.

"أنا مسرورة لأجلك. ولكن، لسوء الحظ، لن تتمكن من بوم. إنه يريد بتروسيان، ويقف على رأس صف طويل". فتجهّم وجهه. "ماذا تقصدين؟".

"أقصد أن رئيس الأساقفة لم يجبّ بنفسه على مرّ السنين. فقد أثار بعض التعليقات المثيرة للغضب حول المستوطنات، وحصار غزة، وفساد المدينة. لديه أعداء في مناصب عالية. الكثير من الأعداء". "أتقولين إنهم سيُلومون باللوم عليه؟".

"ما أقوله هو إنه يوجد عدد كبير من الأشخاص المتمتعين بالنفوذ الذين لا يمانعون رؤيته مذلولاً وقد تم الخط من قدره. ما زلنا نلتزم بالقانون في هذا البلد - تقريباً - وإذا لم يكن هناك أي دليل، فلن يجازفوا بإرساله للمحاكمة. ولكن ضغوطاً كبيرة تمارَس للعثور على ذلك الدليل، ولا يقدّم رئيس الأساقفة أي خدمة لنفسه".

فأعاد بن - روي رأسه إلى الوراء، وفرك صدغيه. كان يوماً طويلاً؛ إنه يوم طويل آخر.

"ماذا يقول الرئيس غال؟" سأل.

"ليس الكثير. حتى الآن، الأمر منوط بيوم".

"هل سيُبقيه على رأس فريق التحقيق؟".

فهزت شاليف كتفيها.

"لم يتعطف الضابط المسؤول ويأتمني على أسراره. وأعتقد أنه سيستمر بذلك حتى يتوصل إلى قناعة تامة بأن الدرب الذي يسلكه لن يوصله إلى أي مكان؛ الاحتجاجات ليست دعاية جيدة. سيُقيمه قيد الاحتجاز للساعات الأربع والعشرين القادمة ليثبت وجهة نظره ليس إلا، ومن ثم سيضعه قيد الإقامة الجبرية في منزله".
"أحتاج إلى التحدث إليه".

لقد علم بن - روي من طريقتها في تحريك فمها أن الأمر لن يكون سهلاً. فبوم يحرس إوزته الذهبية. أنزل قدميه، وأزاح كرسيه ليصبح في مواجهتها مباشرةً.

"الأمر مرتبط بالفتاة يا ليه. فوسغي. إنها المفتاح. لا أعرف كيف، ولا أعرف السبب، ولكن فوسغي هي المفتاح. هناك شيء ما يُنبئني بأن بتروسيان يعرف عنها أكثر مما يُفشي. أحتاج إلى التحدث إليه".

نادى بني شاليف من المطبخ، معلناً أن العشاء أصبح جاهزاً، فنظرت زوجته من فوق كتفها، ثم أرخت ذراعها، وطقطقت برجماتها. فجرى الكلب بخطوات سريعة وقفز إلى حضنها، مُحدثاً أصوات نخير ممتة فيما كانت تداعبه وراء أذنيه. ولم تبارح مكانها للحظات. ومن ثم، رفعت الكلب وطبعت قبلة على أنفه.

"سأرى ما يمكنني فعله"، قالت. "لا يمكنني أن أعدك بأكثر من ذلك، وعليك أن تحذر. باستطاعة بوم التسبب بكثير من المتاعب. لا تُغضبه. اتفقنا؟".

فهمهم بن - روي.

"استناداً إلى ما أخبرني به زيسكي هذا الصباح، عليك العمل بنصيحتك".
"حدث ذلك هذا الصباح"، قالت شاليف. "أما صباح غد، فسأقبل مؤخرة الضابط المسؤول. لقد عملتُ بكدٍّ لأصل إلى ما أنا عليه، ولن أضحيّ بذلك".
"حتى لو عني ذلك التعاون مع الشخص غير المناسب".

فلم تُحب، بل أنزلت الكلب إلى الأرض، وتناولت ما تبقى في كأسها من شراب، ووقفت. فقام بن-رول بالمثل، ودخلا الشقة. كان بني شاليف يخرج من المطبخ مع قدرٍ كبيرة، وتبعه ابنته الصغرى، مالكة، حاملة كومة من الأطباق.
"هل ستبقى، يا آري؟" نادى. "هناك طعام يكفي الجميع".

فشكره بن - روي، ولكنه قال إنه ينبغي عليه المغادرة.
"سأصطحب سارة لتناول العشاء خارج المنزل. لقد طهوتُ لها فطورها،
وأشعر بأنه يتعين عليّ تسوية الخلافات بيننا".
فصفاً له، ورافقته شاليف إلى الباب الأمامي.
"لا تتراجع"، قالت في أثناء خروجه إلى فسحة الدرج، وضغطت على زر
المصباح. "سأعطيك وأحاول توفير قَدْر من حرية التحرك لك. ولكن، لا تُثر
المتاعب وتصرف بحذر. لديّ شعور سيئ حيال هذه القضية".
"أعرف ذلك، ويزداد هذا الشعور سوءاً".
فترددت، ومن ثم وقفت على أطراف أصابع قدميها، وطبعت على خدّه قبلة
خفيفة. لقد مضى على عملهما معاً خمس سنوات، ولم يسبق لها أن قامت بعمل
مماثل. لقد فاجأتهما المبادرة بقَدْر ما فاجأته، واحمرّت وجنتاها. وبعد أن تمتمت:
"انتبه لنفسك، يا آري"، أغلقت الباب. ولم يكذب بن - روي يجتاز نصف المسافة
على الدرج حتى غرق المكان في الظلام.

الأقصر

بعد لقائه ديغبي غيرلينغ مباشرة، أجرى خليفة اتصالاً هاتفياً بجامعة
القاهرة، آملاً في اكتشاف المزيد عن متاهة أوزيريس. لقد أكدت له المرأة التي
تحدّث إليها - سكرتيرة في قسم علم الآثار - أن الفريق المؤلف من الشقيق
والشقيقة حسن وسلمى الرّيسولي هو المرجع الأهمّ في شؤون التعدين في العصور
القديمة. ولسوء الحظ، كانا في عمل ميداني وسط سيناء، ولن يعودا إلى القاهرة إلا
بعد ثلاثة أسابيع. فقال لها خليفة إن الأمر مُلِحّ، ووافقت على محاولة الاتصال بهما
على هاتفهما المحمول، ولكنها أبلغته بأن الاتصالات متقطّعة، وقد تمضي أيام قبل
أن يتلقّى أي إجابة. فترك لها رقم هاتفه، وعاد إلى المنزل، وساعد بطّاح على
إعداد العشاء، ووضع يوسف في السرير، ومن ثم شعر برغبة فجائية شديدة باختبار
كيف يكون الثنائيّ طبيعياً مرة أخرى، وبالرغبة في اصطحاب زينب في نزهة
مساوية سيراً على الأقدام في أنحاء الأقصر.

لم يكونا يخرجان إلا نادراً. فقبل وفاة علي، كانا يقومان بذلك في كل الأوقات: فيعبران النهر لتناول العشاء مع محمود في توت عنخ آمون، ويدخلان السوق لتناول القهوة وتدخين النارجيلة، وينزلان إلى الكرّك للتنزّه ليلاً في أرجاء المعبد المُقْفَر (إحدى فوائد امتلاك ترخيص مرور خاص بالشرطة). ولكن أقصى ما يمكنه القيام به في هذه الأيام هو اصطحابها من أحد أطراف الشقة إلى الطرف الآخر. في هذه الليلة، وكعادتها، قالت زينب إنها لا تريد الذهاب لأنهما لا تستطيع مواجهة الأمر، ولكنه ألحّ عليها فتخلّت عن إصرارها لأنها شعرت بأهمية الأمر بالنسبة إليه؛ وبالنسبة إليها أيضاً، بطريقة ما. فشبكا ذراعيهما، وجالا على امتداد شارع المدينة المنوّرة في اتجاه مركز المدينة، غير متفوّهين بأي كلمة، وشاقّين طريقهما بحذر عبر حشود المساء، ومتوقّفين لمدة وجيزة لمشاهدة المختفلين في زفاف ضخم أُقيم خارج المنزل، وذلك قبل أن ينتهي بهما الأمر في مقهى صغير في الجهة المقابلة لحديقة السرور مدينا كلوب.

"أتريدان المزيد من الشاي؟" سأل.

"شكراً لك، لا".

كان صوتها هادئاً جداً في هذه الأيام، ويكاد لا يكون مسموعاً.

"أتريدان تدخين النارجيلة؟".

وأوما لها بأنبوب النارجيلة الذي كان يمسكه فهزّت رأسها.

"إنها بنكهة التفاح".

هزة أخرى بالرأس.

"كنت تحبّين النارجيلة بنكهة التفاح".

هزت كتفها هذه المرة. ومرّت أمامهما عربة يجرّها حمار محمّلة بجاويزات غاز

معدنية.

"ربما يُفترض بنا التفكير بالعودة"، قالت.

"لقد خرجنا للتوّ".

"لا أحب ترك الولدين. تعرفُ كيف يستيقظ يوسف و...".

لفّ خليفة ذراعه حول كتفها.

"الولدان بخير، يا زينب. بطّاح فتاة كبيرة وقادرة تماماً على الاعتناء بشقيقها

لمدة ساعتين. سوف تتصل إذا كانت بحاجة إلينا".

وربّت على الهاتف المحمول الموضوع في جيب قميصه.
"لنخصّصَ لنفسينا بعض الوقت. حاولي الاستمتاع بالأمسية".
لقد بدا الأمر كما لو أنها تريد الجدال، ولكنها أومأت برأسها بوهن، ومدّت يدها وشبكت أصابعها بأصابعه.
"أنتَ مُحِقٌّ"، قالت. "الخروج أمر جيد لنا. ولكن..."
وعضّت شفتها.

"أعرف"، قال وهو يحضنها. "صدّقيني يا زينب، أعرف. ولكن، علينا أن نحاول التأقلم مع الأمور".
وضغط على يدها زافراً دَقَقاً بطيئاً من دخان التبغ بنكهة التفاح. كانت ثرثرة الأحاديث وطققة أحجار الدومينو تُسمع حولهما، وفي الجانب الآخر من الشارع المقابل لحديقة السرور، كان الأطفال يصيحون فيما كانوا يقفزون على الترامبولينات العملاقة.

"هيه، أخبرني محمد ساريا دُعابة اليوم"، قال محاولاً التخفيف من اكتئابها وإخراجها من الواقع الذي تعيش فيه. "مبارك، القذافي، بن علي، وجمل، موجودون معاً في بالون، وفجأةً هبّت عاصفة..."

ورنّ الهاتف المحمول، فتسمّرت زينب في مكانها.
"لا بأس"، قال. "لا بأس".

وضع أنبوب النارجيلة جانباً، وسحب الهاتف من جيّبه. لم يكن رقم هاتف منزله، أو أي رقم آخر يعرفه. فأراها شاشة العرض ليطمئنّها، ثم أجاب بعد ذلك. وسمع صوت تشويش في أذنه.
"آلو؟"

المزيد من التشويش.
"آلو؟"

لا شيء. ربما كان اتصالاً خاطئاً، أو أحد تلك الاتصالات التي تحاول بيعه سلعة ما. وحاول للمرة الثالثة من دون الحصول على أي إجابة، وكان على وشك إقفال الخط عندما سمع فجأةً:

"... عن استخراج الذهب. قيل إن الأمر مُلِحٌّ".

لقد خرج الصوت - صوت امرأة - بشكل مرتفع وواضح، وحلّ هسيس غير واضح مكان التشويش. وأرعى خليفة ذراعه عن كتف زينب.

"سيدة ريسولي؟".

"رجاءً، ادعني سلمى".

"وأنا حسن"، تردد صدى صوت رجل عبر الخط. "آسف لأننا تأخرنا في الاتصال بك".

"على العكس تماماً". قال خليفة. لم يكن يتوقع اتصالاً منهما في وقت قريب.

"تُبقي الهاتف مُقفلاً في العادة"، قالت المرأة مجدداً.

"للحفاظ على البطارية"، أضاف الرجل.

"ولكن، كان لدينا عمل...".

"... وهكذا تسلمنا الرسالة من ياسمين في الكلية".

بدا الأمر كما لو أنهما يتكلمان على نحو تبادلي. فتخيلهما خليفة جالسين جنباً إلى جنب واضعين سماعة الهاتف بينهما، وكل منهما ينحني مُداورةً ليقول ما لديه.

"إذاً، كيف يمكننا مساعدتك؟" سألاً في وقت واحد.

مغطياً الهاتف بيده، التفت نحو زينب وسألها:

"آسف، أحتاج إلى التحدث إلى هذين الشخصين. هل تمانعين؟".

فلوّحت بيدها، مشيرةً إلى أنه يُفترض به مواصلة حديثه عبر الهاتف.

"هل أنت متأكدة؟ يمكنني أن أطلب منهما معاودة الاتصال".

فهزت رأسها، وأومأت له مجدداً لمواصلة الحديث. لقد شعر بالسوء بسبب ذلك، وعلم أنه يُفترض به إرجاء المكالمات الهاتفية، ولكنه أمل ألا تطول كثيراً، وكان في الواقع يريد معرفة ما لديهما عن منجم الذهب ذاك. لمس جبينه، وتمتم قائلاً إنه لن يُطيل الحديث، ومن ثم ابتعد عنها وأطلع عائلة ريسولي على الوضع من دون أن يتطرق إلى الجريمة، بل اكتفى بذكر قضية سامويل بينسكر. وعندما أخبرهما عن رسالة هوارد كارتر، شهق أحدهما وصفر الآخر؛ من الصعب معرفة من قام برد الفعل هذا أو ذاك.

"سرت إشاعات منذ زمن بعيد عن اقتفاء أحدهم أثر المتاهة"، قالت سلمى،

"ولكن، صديقاً، لم أصدقها. حتى إنه لم يسبق لي أن سمعتُ بهذا الرجل بينسكر".

"ولكن، هل سمعتِ عن المتاهة؟".

"أجل، إنها أحد مناجم الذهب القليلة في الأزمنة القديمة التي عُرفت باسم محدّد بدلاً من الإشارة إليها بكلمة بيا".

"إنها الكلمة القديمة التي تعني منجماً"، أوضح شقيقها.

وبعد التشويش الأولي، أصبح الخط واضحاً تماماً. لقد صعب عليه التصديق أنه يتحدث إلى شخصين وسط الصحراء.

"والمنجم، أهو موجود فعلاً؟". سأل خليفة.

"آه، أجل"، قالت سلمى. "كل المؤرخين الإغريق يذكرونه، علماً أنه من المعروف أنهم كتبوا ذلك بعد خمسمئة عام...".

"وما يقارب ألف عام مع ديودوروس"، قاطعها شقيقها.

"... ولكن، هناك مراجع معاصرة قليلة أيضاً، بما في ذلك نقشان اكتشفناهما بنفسينا".

كان ديغبي غيرلينغ قد ذكر له أمراً ما بهذا المعنى. ألقى خليفة نظرة إلى الوراء في اتجاه زينب - كانت جالسة ويدها في حضنها، محدّقةً بالمحتفلين في حديقة السرور في الجانب الآخر من الشارع - وطلب المزيد من المعلومات.

"أحدهما على الجدار قرب أسفل وادي الشغب".

وقال حسن مرة أخرى. "اللغة غامضة قليلاً...".

"لم تكن واضحة مطلقاً"، تردد صدى صوت شقيقته من خلفية الخط.

"... ولكنّ ما نُقش يسجّل في الأساس مرور قافلة ذهب متوجهة من المنجم إلى وادي النيل. لقد فعل ذلك على الأرجح أحد الجنود الذين يجرسون القافلة. هناك إطار إهليلجي يحمل اسم رعمسيس السابع...".

"أو ربما راميس التاسع".

"... مما يوحي بأن المنجم كان لا يزال يعمل بقوة حتى في نهاية المملكة الجديدة".

في هذه الأثناء، سُمعت صيحات جماعية مع ارتفاع دولا ب هيدرولي عملاق في الهواء، وشروعه بالدوران. فوضع خليفة يده على أذنه لصدّ الصوت.

"والنقش الآخر؟".

"إنه موجود على الجهة الخارجية لجُرف صخري فوق وادي مينه"، قالت سلمى. "عثرنا عليه في العام الماضي، ولم يتم نشره بعد. إنه مثير للاهتمام بصفة خاصة لأنه أول مرجع عن المنجم حتى اليوم".
"أوائل السلالة الحاكمة الثامنة عشرة"، سُمع صوت شقيقها. "إِبان حكم تَحْتِمِس الثاني".

"إن اللغة غير واضحة تماماً أيضاً"، قالت سلمى، "ولكن ما اكتشفناه حتى الآن إعلان ملكي من نوع ما عن إعادة إهداء المنجم. إذا انتظرتَ للحظات...".
وسُمع صوت خفيف صفحات تُقَلَّب في أثناء قيامها بمراجعة مفكَّرتها على الأرجح.

"إليك ما جاء فيه". وشرعت بالقراءة. "منجم الذهب الذي كُشف عنه لوالدي وكان في منطقة نفوذ هاتور، هو الآن في منطقة نفوذ أوزيريس، والذهب له، وهو من يملك طرقه العديدة؛ حيث إنه بات يتعيَّن الإشارة إليه بأنه شِموت نِت وسير، ممرات أوزيريس".

وسُمع صوت ضربة مكتومة مع إغلاق المفكِّرة أو أي شيء آخر.
"من الواضح أن هناك عدداً من التفسيرات الممكنة"، أضافت، "ولكن ما يعنيه هذا برأينا...".

"ما يعنيه بالتأكيد..." قاطع شقيقها.
"... هو أن منجماً شُرع العمل به إِبان حكم تَحْتِمِس الأول...".
"أو ربما أُمْنَحوتب الأول...".

"... بلغ الأعماق لدرجة أن رعايته انتقلت من هاتور، إلى أوزيريس. وهو أمر استثنائي تماماً إذا كنا مُحِقِّين. ما أعنيه هو أن معظم أعمال استخراج الذهب المصرية القديمة كانت تجري في خنادق مفتوحة. حتى إنَّ تلك التي غاصت تحت الأرض لم تتخطَّ عُمق عدة عشرات من الأمتار".

"وهو أمر صحيح في بداية عمر المنجم، تذكَّري"، قال شقيقها. "لقد تطلَّب الأمر - ماذا؟ - أربعمئة عام من الحفر قبل الشروع باستخراج الذهب بكميات كبيرة. وحتى مع مرور فترات من عدم التنقيب، يبقى حجم المنجم بعيداً عن التصديق. لا عجب في أنهم أشاروا أيضاً إليه بعبارة بيا وي عا إن نوب".

"أعظم المناجم قاطبة"، ترجمت سلمى.

تلمس خليفة مقدّمة أنبوب نارجيلته وأخذ نفساً. فكل هذه الأمور مثيرة للاهتمام، ولكنه كان لا يزال يناضل لاقتفاء أثر أي صلة واضحة بين منجم ذهب يعود تاريخه إلى ثلاثة آلاف عام مضت، وبين امرأة خُنِقت في دار عبادة في القدس. بالتأكيد، إن شركة بارين تستخرج الذهب، ولكن الذهب والعنف لم يكونا قط بعيدَيْن عن بعضهما وفقاً لخبراته. وبالرغم من ذلك، تبدو كل المعلومات واهية جداً، وتبدو واهية بشكل مضاعف عندما يحاول إيجاد أي صلة بينها وبين الاتجار بالجنس. سحب نفساً آخر، وتحقق من زيب - كانت لا تزال تحدّق أمامها مباشرة، ضائعة في أفكارها - وطرح السؤال الجلي:

"هل استنفد الذهب من المنجم كلياً في الأزمنة القديمة؟".

وجرى تھامس، ومن ثم قالت سلمى ريسولي:

"إنها نقطة غير محسومة إلى حد ما".

لم يكن هذا هو الجواب القطعي الذي ينتظره.

"ماذا تعين بقولك إن هذا الأمر غير محسوم؟".

"حسناً، هيرودوت واضح جداً في هذا الشأن"، قال حسن. "فقد قال إن

المنجم هُجر في نهاية المملكة الجديدة لأنه تم استخراج كل الذهب. ولكن

ديودوروس سيسولوس الذي كان يعمل لصالح هيرودوت من مصدر مختلف..."

"ويُعتبر بصورة عامة الأكثر تعويلاً عليه بين الاثنين في هذا الموضوع

بالذات..." قاطعت شقيقته.

"يقول ديودوروس إن مكان وجود المنجم قد نُسي في أثناء الفوضى الشاملة

التي حدثت في نهاية المملكة الجديدة؛ مما يعني ضمناً أنه لم يُستنفد بل ضاع. ولا

وجود بالتأكيد لمراجع معاصرة تتحدث عن المنجم وُضعت بعد نهاية السلالة

الحاكمة العشرين..."

"علماً أن هناك ورقة بردي تعود للحقبة الأخيرة تصف إرسال بعثة لمحاولة

تحديد موقع المنجم مجدداً"، قالت سلمى. "وما كانوا ليقوموا بذلك لولا ثقتهم

بوجود شيء ما جدير بالتعدين. لسوء الحظ، ضاعت البعثة في الصحراء، ومات

جميع أفرادها من العطش، لذلك لم تتسنّ لهم فرصة اكتشافه قط".

"في الواقع، وببساطة، لا أحد يعرف"، قال حسن مجدداً. "شخصياً، أميل إلى تصديق هيرودوت. وشقيقي سلمى تعتمد وجهة النظر المعاكسة. يستحيل تأكيد أي من الأمرين".

"وسيبقى الأمر على حاله حتى يعثر أحدهم على المنجم"، أضافت سلمى. "وهذا ما فعله سامويل بينسكر كما يبدو"، تمتم خليفة وقد أخذ بحجة أخرى من نارجيلته متأثلاً. وقدم شاب إلى جانبه، وشرع باستبدال قطع الفحم الأساسية التي بدأت تتحول إلى رماد بأخرى متقدمة من دون أن يلاحظه خليفة. لقد شعر بذلك النوع من الحذر في عموده الفقري. لم يكن قوياً، ولكنه موجود بالتأكيد. فانحنى على مقعده إلى الأمام.

"يبدو أن هيرودوت يقول شيئاً ما عن وفرة الذهب في المنجم لدرجة أنه باستطاعتكم..."

"... قطع شرائح منه عن الجدار بسكين".

أنهى حسن الجملة.

"هل الأمر حقيقي؟".

وضحك الاثنان.

"من الواضح أنك لا تعرف الكثير عن استخراج الذهب"، قالت سلمى.

فأقرّ خليفة بذلك.

"إنها قصة جيدة ولكنها من نسج الخيال"، قال حسن. "استخرج المصريون معظم ذهبهم من شقوق الكوارتز الثّري؛ ولا سيما الكوارتز الأبيض الذي يحتوي على القليل من الذهب في داخله. وللوصول إلى الذهب، كان يتعين عليهم قطع كميات كبيرة من الكوارتز وإخراجها من سفح التلة، ومن ثم تحويلها إلى بودرة وغسل هذه الأخيرة بالماء لاستخراج المادة النفيسة. لذلك، ليس الأمر بسيطاً كما يوحي هيرودوت. لقد اقترب ديودوروس سيبولوس من الحقيقة أكثر من سواه".

"ولكن، لا ريب في أن رواسب الذهب في الأزمنة القديمة كانت وافرة"، قالت سلمى، "وكل المصادر تتفق في الرأي على أن رواسب الذهب في أوزيريس هي الكبرى. لذلك، ربما تكون هناك ذرة من الحقيقة في مزاعم هيرودوت. فالتحليل التي أجريناها على أكوام من نفايات المناجم توحى بأن المناجم الأكثر

شحاً تُنتج ما بين خمسين وستين غراماً من الذهب في كل طنٍّ من المعدن الخام، وهو ما يوازي تقريباً ضعف ما تنتجه المناجم الحديثة. وكان النقاء استثنائياً، فنسبته ثلاثة وعشرون، لا بل أيضاً أربعة وعشرون قيراطاً".

راجع خليفة التعاير التقنية في عقله، ولكنه فهم الفحوى. كان الحَدَر لا يزال يمتد صعوداً ونزولاً على امتداد عموده الفقري. وشعر بأن أمراً ما سينشق عن كل ذلك؛ إنه يمتزج ويحاول الكشف عن نفسه. أما إذا كان هذا الأمر على علاقة بقضية بن - روي أم لا، فتلك مسألة مختلفة.

"وكل ما يمكننا تأكيده في شأن موقع المنجم هو أنه في الصحراء الشرقية في مكان ما؟".

"يمكننا تضيق المساحة الجغرافية قليلاً"، أجابت سلمى. "إن الواديين حيث عثرنا على النقوش - وادي الشَّعْب ووادي مينه - يبدو أنهما قد استُخدما كطريقين أوليين للمنجم، الشَّعْب من الغرب والمينه من الشمال. وهناك كتابتان أُخريان تشيران إلى ذلك في بير الجندي. وبوصل هذه النقاط ببعضها نحصل على مثلث، ويكون المنجم في مكان ما من الصعيد الصحراوي. ولكنها لا تزال منطقة كبيرة جداً". "وبعيدة جداً"، أضاف حسن. "وقد يكون القمر الدلالة الوحيدة على الحياة هناك".

وتذكر خليفة شخصاً آخر استخدم هذا التشبيه مؤخراً. لم يتمكن من استعادة السياق المحدد للكلام، ولم يضيّع الوقت في محاولة القيام بذلك، بل سأل:

"هل هذا المنجم قيّم؟ أقصد إذا عثر عليه أحد".
لقد خرج السؤال من فمه بشكل طوعي تقريباً. أما اللازمة غير المنطوقة فهي: هل هو قيّم بما يكفي للقتل لأجله.

"أفترض أن كل شيء يعتمد على كيفية تحديده لكلمة قيّم"، قال حسن.
"على الصعيد الآثاري، قد يكون اكتشافاً مثيراً للاهتمام؛ ولا سيما إذا كان المنجم لا يزال محافظاً على شكله وسلامته ولم ينهر من الداخل".

"كنت أفكر في الناحية المالية بالتحديد"، قال خليفة، "لو افترضنا وجود ذهب هناك".

"حسناً، إنه افتراض كبير جداً"، قال حسن. "فأياً يكن الأمر الذي أشار إليه ديودوروس سيسولوس، لا يمكنني شخصياً أن أتخيل تبقي أي شيء من الرواسب الأصلية. ليس بعد خمسة قرون من التعدين المتواصل".
"ولكن، ماذا لو كانت هناك رواسب؟".
"حينئذٍ أجل، سيكون قيماً بالطبع. أعني الذهب ذهب. والناس يرغبون فيه".

"ولكن استخراجها ليس سهلاً"، تدخلت سلمى. "كما قلنا من قبل، الأمر لا يقتصر فقط على السير إلى هناك مع معول وأدوات لقطع الذهب عن الجدران. إن استخراج الذهب من المعدن الخام عملية معقدة، ونظراً إلى بُعد المنطقة، يتوجب القيام بذلك على مستوى صناعي ليكون الأمر برمته عملياً على الصعيد الاقتصادي. وهذا ما قام به الفراعنة كما يبدو بسبب وجود جيش من عمال السُّخرة في تصرفهم. وفي هذه الأيام، هناك نفقات إضافية غير مباشرة. إذاً، للإجابة عن سؤالك، أجل سيكون قيماً ولكن ليس كما تعتقد. وفي الواقع، يتعين على الحكومة، أو على تكتل تعديني كبير، تعبئة الموارد الضرورية لتحقيق القيمة".

تكتل مثل شركة بارين، فكر خليفة في سرّه.
وأسند ظهره، نافثاً الدخان من منخرينه، ومدققاً النظر إليه، وشاعراً بأنه سيتوصل إلى أمر ما مع مواصلة السعي لإيجاد صلة بين منجم ذهب في مصر وجثة في إسرائيل من خلال صناعة الاتجار بالجنس بين البلدين. ومرت لحظات. وبعد إدراكه أن سلمى وحسن ريسولي في انتظاره، وكذلك زوجته، وأن مسؤولية إيجاد الصلة لا تقع على عاتقه في النهاية، بل تنحصر مهمته في مساعدة بن - روي على توفير بعض المعلومات، شكر الشقيق والشقيقة على ما قدّماه من مساعدة، وقال إنه سيتصل بهما إذا كان بحاجة إلى أي شيء آخر، وأنهى الاتصال. ومنح نفسه ثواني قليلة، ساعحاً للمقابلة بالترسخ في ذهنه، ومن ثم استدار.
"آسف لأن الأمر تطلّب هذا القدر من...".

كان مقعد زينب فارغاً. فألقى نظرة في أرجاء المكان، مفترضاً أنها لا بد أن تكون قد دخلت المقهى للحصول على شيء ما، أو ربما ذهبت لإلقاء نظرة على

نافذة أحد المتاجر المجاورة. غير أنه لم يجد أي أثر لها. ووقف، موجّهاً أنظاره إلى امتداد الشارع، محاولاً العثور عليها وسط الحشود، وحلّ الذعر بسرعة مكان القلق.

"زينب"، نادى. ومن ثم، وبصوت أعلى: "زينب!".

ولمس أحدهم معصمه، فدار حول نفسه، ظانّاً أنها هي، ولكن ثبت أنه الرجل الجالس إلى الطاولة المجاورة.

"إنها هناك"، قال الرجل مشيراً بسبابته. وتتبع خليفة إصبع الرجل، ووجدتها واقفة عند الدرازين المحيط بحديقة السرور، محدّقة بالأطفال في الداخل، ويدها ممسكتان بالقضيبين الحديديين كما لو أنها تنظر من خارج زنزانة السجن.

"آه، يا زينب"، تتمم. "آه، يا عزيزتي".

فرمى بعض المال على الطاولة، وهروا في اتجاهها. كانت كتفاها تتحركان صعوداً ونزولاً، فلفّ ذراعه حولها وسحبها إلى الورا بلطف وأبعدها عن المكان، لاعتناً نفسه لأنه لم يراقبها عن كثب.

"لا بأس"، قال. "أنا هنا الآن".

فدارت حول نفسها، ودست وجهها في صدره، منتحبةً بطريقة لا يمكن التحكم فيها.

"أنا أفقده، يا يوسف. آه يا الله! أنا أفقده. لا يمكنني تحمّل الصمت".

كانت المدينة نابضة بالحياة، فهناك الكثير من الضحك، والموسيقى، وأبواق السيارات، وصخب عربات النقل. ولكن، بدون علي، ستكون هناك على الدوام زاوية هادئة بشكل غير طبيعي في حياتهما كمنزل مهجور.

"لا بأس"، كرر وهو يضمّها إليه بإحكام، متجاهلاً نظرات المارة، وتمتمة أولئك الذين لا يوافقون على هذا القرب العلي بين رجل وامرأة. "سنتخطئ المحنة. أعدك يا زينب، سنتخطئ المحنة".

ولزما مكانهما لمدة وجيزة، متعانقين، وغافلين عن الحشود حولهما، ومُغلّقين على نفسيهما في عالم الأسى الخاص بهما. وبعد ذلك، شبك يدها بيده بإحكام، واصطحبها إلى المنزل، ناسياً كلياً حديثه مع عائلة ريسولي.

إسرائيل - النقب

منذ طفولتها، كانت يَقيظُة للأصوات في الليل. وعندما سمعت وَقَعَ الأقدام غير المألوف في الخارج - فقد كانت الخطوات ثقيلة جداً لتكون لتمامار، وبطيئة ومتثاقلة جداً لتكون لغيدي أو لفاز - استيقظت على الفور ومدّت يدها تحت وسادتها باحثَةً عن الغلوك. توقف وَقَعَ الخُطى، ثم عاد مجدداً، متوجهاً نحو الباب. كان باستطاعتها سماع تنفّسها - فهو منخفض، وحشيّ، كما لو أن حيواناً من نوع ما يتحوّل خلسة - ومن ثم بدأ المِقْبُض يتحرك بشكل دائري. فصوّبت مسدسها، وسدّدت عبر الماسورة. حركة دائرية واحدة لاختبار القفل، ومن ثم حركة دائرية أخرى بقوة وإلحاح كبيرين. وفي الحركة الدائرية الثالثة، حُلّ القفل وُفُتِح الباب شيئاً فشيئاً، وأصدرت المفصّلات غير المزيّنة للباب المصنوع من ألواح السنديان صريراً.

"ابتعد"، هسهست، ضاغطةً بإصبعها على الزّناد. "سأقتلك. ابتعد".
"أريد التحدث فقط".

"لا تريد التحدث أبداً! ابتعد! ابتعد!".
"لا تدفعيني على إرغامك يا راشيل".

جذبت الزّناد، ولكنه علق. وحاولت مرة ثانية، وثالثة، وارتفع الحمض إلى حلقها، وبدأ قلبها يخفق بقوة لدرجة اعتقادها بأنه سينفجر داخل قفصها الصدري. لم يُطلق الغلوك النار. وشرعت بالركل، ولوّحت بذراعيها بقوة. لقد أصبح على السرير، واندفعت يدهُ تحت الغطاء...

"آه لا، رجاءً لا...".
"ششش".

"أنت تؤلّمني. رجاءً، توقف، أنت تؤلّمني...".
"ولكنني دفعتُ كل ذلك المال".
"الأمر مؤلم. الأمر مؤلم".
"ششش".

"توقف! الأمر مؤلم. أنت تمزّق... آه، يا الله، رجاءً لا...".

واستيقظت منتفضة.

لقد لزمت مكانها للحظات، وكان المشهد شديد الوضوح في ذهنها لدرجة أنها انتقلت ببطء شديد من الكابوس إلى الواقع. بعد ذلك، بذلت جهداً لتجلس، وتلمّست المصباح الموضوع بجانب السرير، وسحبت ركبتيها في اتجاه صدرها ناشجة.

إنه الكابوس نفسه على الدوام، ليلة بعد ليلة، ولكن التفاصيل تختلف. يدخل الغرفة أحياناً، ويكون في الداخل أحياناً أخرى. تعرفه أحياناً، ويكون غريباً أحياناً أخرى. ولكن العناصر الأساسية لا تتغير أبداً: التنفس، الوزن، الصدمة التي تشعرها بالغثيان. فهذه العناصر لم تتغير قط. وفي كل ليلة، تذهب إلى النوم ملتزمة فيلماً سينمائياً مختلفاً. وفي كل ليلة، يعرض عقلها الباطن مشهد الاغتصاب نفسه الذي لا يمكن تحمّله، وتكون النجمة السينمائية فيه. فمسحت عينيها وضمت ساقها إلى بعضهما بإحكام.

وبعد مرور عدة دقائق، انحسر نسيجها شيئاً فشيئاً، وهدأ خفقان قلبها. فنظرت إلى الساعة؛ إنها الثانية وسبع عشرة دقيقة من بعد منتصف الليل. فكّرت بالذهاب إلى غرفة تamar، والتفوق بجانبها في الملاذ الآمن، ولكنها استيقظت الآن، وتعلم أنها لن تتمكن من العودة للنوم مجدداً. فانحنت إلى الأمام، وأدارت جهاز الكمبيوتر الحضي على طاولة السرير، وشغلته فظهرت صورة مبنى شاهق من الزجاج والفولاذ يومض تحت أشعة الشمس؛ إنه مقر قيادة شركة بارين في هيوستن. وولجت الملف الذي انتزعته من تشاد بيركس بالقوة، وشرعت بالبحث عن أمر ما، أي شيء يمكن اعتباره مُدينًا. فمن شأن ذلك أن يساعد على تشويه سمعة الشركة.

القدس

"أنت تكذب".

"آسف إذا كنتُ أعطي هذا الانطباع".

"أنت تعرف الفتاة".

"آسف. لا أعرفها".

"تعرف مكانها".

"مجدداً، آسف...؟".

"كان اعتقاد ريفكا كلينبرغ مماثلاً. لذلك اتصلت بك قبل ثلاثة أسابيع من مقتلها".

"يوسفني أنني لا أتذكر تفاصيل الحديث".

"يوسفني أنني لا أصدقك".

"آسف لذلك".

"أين الفتاة؟".

"كيف أخبرك عن مكانها، وأنا لا أعرف مكانها".

"لماذا كذبت في شأن عُذر غيابك؟".

"نسيْتُ أن أذكر أنني ذهبتُ في نزهة سيراً على الأقدام".

"لماذا قلت إنك مُذنب بمقتل ريفكا كلينبرغ؟".

"قلتُ إنني أَسْتَحِقُّ اللوم بسبب مقتلها. فأنا الذي طلبت فتح أبواب دار العبادة الكبرى حتى وقت متأخر من الليل. ولو لم أقم بذلك لما قُتلت هناك".

"لا أصدقك".

"إنه رأيك".

"أنت تُخفي أمراً ما".

"كما تشاء".

"أنت تخشى أمراً ما".

"كلنا نخشى أمراً ما، أيها التحرّي".

"أين الفتاة؟".

"كيف أخبرك عن مكانها، وأنا لا أعرف مكانها".

"أنت تكذب".

"آسف إذا كنتُ أعطِي هذا الانطباع".

كوّربن - روي قبضته من شدة الإحباط. فالوضع على حاله منذ أربعين دقيقة، كما لو أنه شريط يُكرّر ما سُجِّل عليه من دون الوصول إلى أي نتيجة. لم يتغيّر شيء في الساعات الاثنتين والعشرين الماضية. لم يكن رئيس الأساقفة يقول

شيئاً، أو يعترف بأي شيء، وبخروج الخبراء الجنائيين حالي الوفاض من جناحه الخاص، كانت قضية يوم تفقد تماسكها. ولهذا السبب، لأن موقفه أخيراً وسمح لين - روي بإجراء المقابلة. وحاول مرة أخيرة قبل انتهاء فترة الساعات الأربع والعشرين. وإذا كان بن - روي مُحَبَّطاً، فحاله لا يقارن بما يشعر به ضابطه المسؤول المحبوب في تلك اللحظة.

ألقي نظرة سريعة على ساعته - إنها الثامنة وأربعون دقيقة صباحاً - ووقف وجاب الزنزانة ذهاباً وإياباً بضع مرات، ممدداً ساقيه، ومصفياً ذهنه. كان رئيس الأساقفة جالساً في صمت تأملي، وترسم على شفتيه ابتسامة واهنة؛ ليست ابتسامة مغرورة أو ساخرة كالابتسامات التي تحصل عليها من أشخاص حقيرين مثل غينادي كريمينكو. إنه نوع مختلف من التعبير؛ فهو هادئ، ورزين، وواثق من نفسه، وتقياً تقريباً. إنها ابتسامة مَنْ يثق بأنه يفعل الصواب، ويشعر بسعادة كبيرة نتيجة العناء أياً تكن العواقب التي يحملها له. لقد صُنع بن - روي بهذه الابتسامة. وما يعرفه عن أمثال هذا الرجل هو أنهم لا ينهارون أبداً أياً تكن الضغوط التي تمارس عليهم. فعاد إلى الطاولة، وجلس، والتقط صورة فوسغي.

"حسناً، لُعب الكرة. هل تعرف هذه الفتاة؟".

"آسف. لا أعرفها".

"لماذا تكذب؟".

"أنا لا أكذب".

"ما الذي تخشاه؟".

"كما قلتُ، كلنا نخشى أمراً ما، أيها التحري؟".

وهكذا دواليك: الأسئلة نفسها، والأجوبة التملصية نفسها لمدة ثلاثين دقيقة أخرى حتى استسلم أخيراً، مسلماً بأنه يصدّم رأسه بجدار من الآجر. وأياً تكن الأمور التي يعرفها رئيس الأساقفة، فقد أغلق عليها في داخله، ولن تُرغمه أي ضغوط على البوح بها. فوقف بن - روي، وتوجه إلى باب الزنزانة، وقرع الباب المعدني بقوة ليفتح أحدهم الباب. فيما لزم رئيس الأساقفة مكانه، ويدها مشبوكتان أمامه، والخاتم الذي يدلّ على منصبه يتوهج بلون أرجواني في الإضاءة الخافتة للزنزانة، والبسمة على وجهه.

"أخبرني صديق لي في بداية هذه القضية بأن لا شيء يحدث في الجمّع بدون معرفتك"، قال بن - روي في أثناء انتظاره فتح الباب.
رفع رئيس الأساقفة نظره محدّقاً به.

"كان مُحطّطاً. أعتقد أن لا فكرة لديك البتّة عمّن قتل ريفكا كLINBERG، وأنا على ثقة تامة بأنك لم ترتكب هذه الجريمة بنفسك".
"سُررتُ بسماع هذا".

"ولكنك تعرف حقاً ماذا حلّ بالفتاة"، تابع بن - روي. "وبامتناعك عن إعطاء هذه المعلومة، فأنت لا تُعيق تحقيقاً تُجرّيه الشرطة فحسب، بل تسمح للقاتل بالتحوّل بحرية، وبارتكاب جريمة أخرى ربما. هل هذا يُريح ضميرك، يا صاحب الغِطة؟".

وبالرغم من بقاء الابتسامة على شفّتيه، تحركتُ فُزحيّتا عينيّ بتروسيان بطريقة تكاد لا تكون ملحوظة. ربما كان هناك ارتعاش شك، وربما كان هذا الارتعاش بسبب ذرّة غبار. في كلا الحالين، زال الارتعاش على الفور.

"وفقاً لخبرتي، إن مسائل الضمير ليست سهلة أبداً كما تبدو"، قال رئيس الأساقفة. "فهي تؤدي على الدوام إلى مُعضلات وعواقب غير مقصودة. فالرجل الذي يضحّي من أجل مواجهة نظام فاسد يترك وراءه عائلة يقوم ذلك النظام باضطهادها. الضمير سيّد لعب، أيها التحري. وفي هذه الحالة، ضميري في أقصى درجة من الوضوح. والآن، إذا لم يكن لديك مانع، أطلب منك منحي لحظات قليلة للتعبّد".
فتح باب الزنزانة وراء بن - روي. فوقف للحظة مراقباً الرجل المُسنّ وهو يحني رأسه ويبدأ بالتمتمة، ومن ثم خرج من الزنزانة.
"حسناً؟".

كان الضابط المسؤول بوم ينتظره في نهاية الممرّ بوجه غاضب. فهز بن - روي رأسه، مثيراً كلمات تعجّب وركلاً للجدار.

الأقصر

عندما وصل خليفة إلى مركز الشرطة صباح الاثنين، كان هناك زائر في انتظاره في الرّدهة؛ عمر الزّهوي. وتبادل الصديقان عبارة صباح الخير، وتعانقا.

"هل رشا بخير؟". سأل خليفة ملوحاً لأحد أفراد الشرطة بإحضار الشاي لهما، ومرافقاً عمر على الدرج.
"بخير، شكراً. وزينب؟".
"أفضل يوماً بعد يوم".

للمرة الأولى خلال تسعة أشهر، تمكن خليفة من قول ذلك من دون الشعور بأنه يتفوه بكذبة. كان قد خشي من أن يؤدي الحادث في الليلة السابقة - الدموع خارج حديقة السرور - إلى إصابة زوجته بانتكاسة، ولكن ثبت أنه أدى إلى إحداث تغيير ما داخلها. فلقد نهضت هذا الصباح قبل الآخرين وأعدت الفطور - وجبة لم تُعدّها منذ زمن طويل - وأصرت على اصطحاب يوسف إلى المدرسة. كان الحزن لا يزال موجوداً؛ مظلاً عينيها، ومحفوراً على وجهها، ومفتراً صوتها. ولكن، كان هناك أثر خفيف لعزم لم يسبق لخليفة أن رآه من قبل. وعندما انطلق إلى مركز الشرطة الذي يبعد عشر دقائق سيراً على الأقدام، شعر بأنه في حال أفضل مما كان عليه منذ زمن بعيد.

"أفترض أنها زيارة عمل وليست زيارة اجتماعية"، قال في أثناء صعودهما الدرج.

"قدرات استنتاج خارقة"، قال صديقه ساخراً، وملوحاً بحقيبة الأوراق، وبخارطة ملفوفة يحملها.

"أهي نتائج اختبار الماء؟".

"هي بالذات. آسف لأنني جعلتك تنتظر".

لم يكن الاعتذار ضرورياً. فمنذ أن شرع خليفة بالنظر في قصة سامويل بينسك، لم تُعد قضية تسميم البئر المثيرة للفضول من أولويات خليفة. إذ لم ترد تقارير عن حوادث إضافية ماثلة، وكان كل شيء هادئاً في مزرعة عطية. لقد اعتبر أن الأمر برمته زوبعة في كأس شاي.

"ستقول لي إنها قد فسدت بشكل طبيعي، أليس كذلك؟" قال.

"لا شيء من هذا القبيل"، أجاب عمر. "الآبار مسممة بلا ريب. الآبار السبع كلها".

"الثلاث"، صحّح خليفة.

"لا، بل السبع. فلقد أخذت بعض العينات من المنطقة، وإضافةً إلى الآبار
الثلاث التي حدّدتها، تبين لي أن أربع آبار أخرى ملوثة أيضاً".

فتوقف خليفة. فجأةً، تراجعت قضية متاهة أوزيريس من ذهنه كأولوية.
"هل أنت متأكد من ذلك؟".

"تماماً. وهذه الآبار هي التي تمّ الإبلاغ عنها، وقد يكون هناك المزيد منها، لا
بل ملء بئر منها. لا أقصد التورية هنا. كما تعلم - بئر، بئر...".
وتجاهل خليفة الدُّعابة.

"هل الآبار كلها قبطية؟".
"أربع منها فقط".

"وفقاً لحساباتي، تبقى هناك ثلاث".
"أنت متنبّه كالعادة، يا صاحبي".
"وماذا أيضاً؟".

"الآبار الثلاث يملكها مسلمون. إحداها حُفرة للرّي تابعة للبدو قرب بير
الجندي، والأخرى موجودة في أرض زراعية صغيرة قرب البرّامية، والثالثة... لا
أذكر مكانها بالتحديد؛ لديّ التفاصيل هنا".

ورفع حقيقته. كان عقل خليفة يحاول التكيف مع صورة تُظهر كما يبدو
شيئاً مختلفاً جداً عما كان قد تخيّل من قبل.
"الأمر مثير للاهتمام"، قال عمر، "مثير للاهتمام جداً. الأمر هام، في الواقع.
أعتقد أنه يُفترض بنا التحدث. هلاً...".

وأشار إلى أعلى الدرج، فتقدّمه خليفة إلى الطابق الرابع، وعبرا الممر إلى
مكتبه حيث وجد إبراهيم جالساً وقدماه على الطاولة، ماضعاً التورشي، ومتبادلاً
أطراف الحديث عبر الهاتف. كانت الغرفة المجاورة شاغرة، فدخلها.

"أعددتُ موجزاً عن الوضع"، قال عمر بعد إغلاق الباب. وفتح الحقيبة
وسلّمه مجموعة من الأوراق الموضّبة بدون عناية؛ "تقرير تمهيدي عن المفارقات
الجيولوجية-المائية في الصحراء الشرقية" كما كتب على الورقة الأولى. "ولكن، ربما
يكون من الأسهل أن أخبرك عن الأمر برّمته. إذا لم يكن لديك مانع، أمّن لي
مكاناً هناك".

وشرع بفتح الخارطة في أثناء قيام خليفة بتأمين مكان لها على طاولة مجاورة، وساعد صديقه على بسطها وتثبيت زواياها بكوب، ومنفضة، وأداة لإحداث الثقوب، والكتيب الكامل لعمل الشرطة المصرية؛ وهي المرة الأولى منذ عشرين عاماً التي يجد فيها خليفة طريقة لاستخدام الكتيب. فبخلاف الخارطة المعلقة على الجدار في مكتب خليفة، والتي تُظهر كل مصر، تغطي هذه الخارطة جزءاً صغيراً من البلد فقط؛ مثلث الصحراء الذي يحده النيل من الغرب، والبحر الأحمر من الشرق، والطريقين 88 و99 من الشمال والجنوب. ووُضعت سبع علامات صغيرة بحجر أحمر على بعض التضاريس من وديان، ودروب، وجبال، وخطوط كفاية. إنما الآبار المسَمَّة على الأرجح. وأشعل خليفة سيجارة كليوباترا، وانحنى الرجلان فوق الطاولة.

"سأحاول إيجاز الأمر وعدم إشعارك بالملل من خلال إلقاء محاضرة عليك..."
استهلَّ عمر الكلام.
"الحمد لله."

"... ولكن، قبل أن أتطرق إلى الآبار..."

وأشار إلى العلامات السبع.

"... يجدر بي ربما وضع الأمور في سياقها لتفهم على الأقل ما الذي أتكلّم عنه."

وتناول خليفة مجّة من سيجارته وأوماً لصديقه بالمتابعة.

"إذاً، الصحراء الشرقية الوسطى". وضرب عمر براحه يده على وسط الخريطة. "على الصعيد الجيولوجي، تقع هذه المنطقة على حافة ما يُعرف بمكمن نوبيان المائي المكوّن من حجر رملي؛ وهو في الأساس صفحة تحت الأرض واسعة من الحجر الرملي ينفذ الماء إلى داخلها جزئياً، وتقع بين طبقتين من الصخور التي لا ينفذ الماء إلى داخلها: بازلت، غرانيت، صلصال، ذلك النوع من الأمور. نشير إليه بالمكمن المائي المحصور، أي إن الماء محتجز تحت الأرض."

تناول خليفة مجّة أخرى. فأثّياً تكن المعلومات التي يحصل عليها خارج قضية

بن - روي تبقى بالنسبة إليه ذات طابع تثقيفي.

"والمياه بحد ذاتها في قسمها الأكبر مياه أحفورية لا يمكن تعويضها بعد نفادها"، تابع صديقه. "أي إن هذه المياه هي تلك التي تسرّبت إلى داخل الصخور

طوال عشرات، لا بل مئات آلاف السنوات، وما زالت موجودة هناك مذاك الحين. هناك مقدار محدود من إمكانية تسرب الماء بسبب التغيرات التي تشهدها جاذبية الأرض، والتباينات في الضغط الجوي. لن أتعمق في تفاصيل الفيزياء...".

"الحمد لله"، كرر خليفة الذي بدأ يفقد قدرته على التركيز.

"... ولكن الماء راكد فعلياً. إن الماء لا يتحرك، ولا يذهب إلى أي مكان، ولا يمكن تعويض الكميات التي تُنفق منه. إن المياه تقبع هناك فحسب في مَسَامِ الحجر الرَّملي وداخل الطبقات التي لا ينفذ الماء إليها. تخيل إسفنجة موضوعة داخل حاوية إسمنتية لا ينفذ الماء إلى داخلها".

وعبر الباب، كان باستطاعة خليفة سماع إبراهيم فتحي وهو يتحدث عبر الهاتف، علماً أن مضغ التورشي بقي خارج مدى السمع، والحمد لله. إنه صوت طالما وجده خليفة مزعجاً، وكان يبذل قصارى جهده للتركيز على ما يُقال.

"عملياً، كل بئر في الصحراء الشرقية"، تابع عمر، "والصحراء الغربية أيضاً تستمد مياهها من هذا النظام المائي الراكد. ومن الواضح أن عمق الآبار يتراوح بين مكان وآخر وفقاً لقرب المَكَمَن المائي من وجه الأرض - بين عشرين متراً وكيلومترين - ولكن المبدأ الأساسي هو نفسه على الدوام. وباستخدام مشابهة الإسفنجة، يشبه الأمر إقحام شاروقة ورقية عبر الحاوية الإسمنتية، ودسّها في الإسفنجة، وامتصاص الماء".

وتوقف قليلاً ليتمكن خليفة من استيعاب الأمر، ومن ثم:

"ولكن هناك استثناءات نادرة، لا بل مثيرة للاهتمام".

لقد لفت أمر ما في نبرة عمر انتباه خليفة.

"ماذا تعني بكلمة استثناءات؟".

"حسناً، تكون جيولوجيا نظام المَكَمَن المائي في بعض الأماكن أكثر غموضاً". شرح عمر. "إذ تتحطم جدران الصخور التي لا تسمح بنفاذ الماء، ويفتت الحجر الرَّملي ويلتصق بالحجر الجيري المتشقق إلى حد كبير. لن أتسبّب لك بالشعور بالملل بكل تفاصيل الجيولوجيا المائية. كل ما تحتاج إلى معرفته في الواقع هو وجود شقوق متعرّجة في المَكَمَن المائي؛ إنها تصدّعات في المقام الأول. ولا يتعدّى طولها في معظم الوقت مئات قليلة من الأمتار، ولكنها تمتد مسافة

كيلومترات عدة، لا بل عشرات الكيلومترات، من حين لآخر، كما لو أنها أنابيب تحت الأرض".

وَقُرِعَ الباب، ودخل الشرطي الذي كان في الطابق السُّفلي، حاملاً الشاي الذي طلبه خليفة. فانتظره عمر حتى وضع صينيَّته وغادر، ومن ثم تابع حديثه. "تسمح المساحة الإضافية في هذه الشقوق، كما يبدو، بحركة متزايدة للماء"، قال مُضيفاً ثلاث ملاعق من السكر إلى كوبه، ومحرّكاً إياها. "لا نتحدث هنا عن أثمار تحت أرضية متدفقة أو ما شابه، ولكن المياه تجري ببطء مسافة عشرات قليلة من الأمتار في العام، بخلاف حالها في معظم أنحاء المَكْمَن المائي. وإذا كان الشق في درجة النحدر شديدة، أو إذا كانت المياه المترسِّبة بفعل السيول تستطيع احتراق الشق، يمكن لحركة المياه أن تكون أكبر بشكل ملحوظ. لقد أجروا اختباراً في العام الماضي في جبل حَمَّاتٍ حيث أدخلوا صِباغاً عبر أحد الشقوق قبل تدفّق أحد السيول بوقت قليل، وحُمِلَ مسافة خمسة كيلومترات في أشهر عدة".

"رائع"، تتم خليفة، متسائلاً عما إذا كان سيحني أي فائدة من هذا السَّرد. فعرف عمر ما يفكر فيه ورفع إصبعه، مشيراً إلى أنه يُفترض به التحلّي بالصبر، وأنه بات قريباً من الفكرة الرئيسة.

"لم يبدأ الناس بالبحث عن هذه الشقوق، وبالتفصيل، إلا مؤخراً"، قال. "لأننا لم نكن نمتلك التكنولوجيا الضرورية بصفة رئيسة. ولكن، هناك الآن فريق في جامعة جلوان يستخدم جهاز تحسُّس بُعدي فضائي لوضع خرائط للشقوق، أو على الأقل للشقوق الرئيسة. ولحسن الحظ، إنه يقوم بمسح لإحدى المناطق التي تثير اهتمامنا". ووجّه للخارطة ضربة أخرى براحة يده.

"لقد دفعني حَدْسِي للاتصال بالفريق، وقمت بتزويده بإحداثيات الآبار المسمَّمة. وما الذي وجدته باعتقادك؟".

"إنها موجودة كلها في شقوق؟" جازف خليفة.

"بالضبط. صودف أن الآبار السبع حُفرت في شقوق ناقلة للماء، والمياه التي يُخرجونها متحركة. أبقى هذه الفكرة في رأسك...". وربّت على رأس خليفة.

"... والآن، انظر إلى توزّع الآبار".

وأشار إلى العلامات السبع مرة أخرى.
"للوهلة الأولى، يبدو كل شيء عشوائياً تماماً، أليس كذلك؟ آبار مبثرة من دون أي شكل نمطي واضح يربط بينها. باستثناء تاريخ تسممها؛ ولكن شكلاً نمطياً ظهر بالفعل. وقع أول حادث هنا في دير الزيتون".
ولمس العلامة الأكثر قرباً من وسط الخريطة، والتي تشير إلى الدير الذي كانت دميانا بركات قد أخبرت خليفة عنه.
"ووقع آخر حادث هنا...".

ولمس العلامة التي تشير إلى موقع مزرعة عطية.
"ومن هنا...".

دير الزيتون.
"... إلى هنا...".

مزرعة عطية.

"... تشكّل حالات التسمّم سلسلة متواصلة وواضحة من حيث التاريخ. بشكل أساسي، كلما ابتعدت هذه الحالات عن المرتفعات الوسطى تأخر تاريخ التسمّم".
وبدأ الرماد يتكوّن على طرف سيجارة خليفة، ولكنه لم يلاحظ ذلك. كان الحَدَر قد عاد إلى عموده الفقري.

"الآن، هناك طرائق مختلفة لوضع تفسير منطقي لهذا الشكل النمطي"، تابع عمر. "ربما يكون مصادفة، وهو أمر يمكن تصديقه. وربما قام أشخاص، ولأسباب لا يعرفها أحد سواهم، بالتخطيط لشنّ حملة لتسميم الآبار بدءاً بالأكثر بُعداً. بالنسبة إليّ، يتمثل التفسير الواضح - التفسير الحقيقي الوحيد - بأن الآبار قد سُمّمت من فوق الأرض وليس من تحتها. وأياً يكن سبب هذا التسمّم، فإنه يدخل المَكْمَن المائي هنا...".

ونقر بُرجُمة إصبعه على وسط الخارطة حيث السطوح المتوجّهة المحيطة بجبل الشَّلُول.

"... وينتقل في اتجاه الخارج والداخل على امتداد الشقوق الناقلة للماء".
وانقصف الرماد عند طرف سيجارة خليفة وانهمر على الخارطة، فمسحه.
وكان الحَدَر الذي بدأ يشعر به يزداد قوة أكثر فأكثر.

"ويوصلنا كل ذلك إلى تحليل الماء"، قال عمر ماداً يده وملتقطاً تقريره الذي وضعه خليفه على الطاولة المجاورة. "لقد تطلّب الأمر القليل من الوقت، وكان عليّ إجراء اتصالات هاتفية طلباً لبعض الخدمات، ولكنني تمكّنت من الحصول على عينات من الآبار السبع، ووصلت النتائج يوم أمس. كما كنت أتوقع، كل الآبار مسمّمة وقد أثار ذلك دهشتي".

وفتح التقرير، وقلب صفحاته، وشرع بالقراءة:
"مستويات ضئيلة للزئبق. مستويات مرتفعة للسيليเนียม، والفلوريد، والكلوريد. مستويات تفوق المعدّل من...".

ونظر إلى خليفه.

"... الزرنيخ".

فحملق خليفه.

"أهناك من يرمي الزرنيخ في الماء؟".

"هكذا يبدو الأمر بالتأكيد. ولكن الشيء المثير للاهتمام ليس الزرنيخ بحد ذاته المزوج بتلك العناصر الأخرى. فهذا الأمر ليس من اختصاصي، ولكنني تحدثت إلى أشخاص أعرفهم، وأجمع الجميع على أننا نواجه مادة مترسّبة ملوثة للهواء ناجمة عن تعرّض الكبريت لحرارة شديدة".

وتحوّلت الحملقة إلى نظرة غاضبة مُربكة.

"ماذا يعني ذلك بحق الجحيم؟".

"عليّ طرح السؤال نفسه"، وضحك عمر. "إنها مرحلة من مراحل فصل المعدن الخام عن الصخور. إنها تُستخدم في أشكال مختلفة من استخراج المعادن: نحاس أحمر، زنك، رصاص. ولكن، في هذه الحالة، تشير المستويات العالية للزرنيخ إلى مخلفات...".

"استخراج الذهب".

أتمّ خليفه الجملة. لقد ذهب الخدر وحلّ مكانه خفق نابض في عمق معدته. وحدّق بالخارطة، وإلى مرتفعات الصحراء الوسطى، ومن ثم أطفأ سيجارته في المنفضة الموضوعة على الزاوية الجنوبية الشرقية للخارطة.

"اعذّرني للحظات، يا عمر"، قال. "عليّ إجراء اتصاليّن هاتفيّين".

القدس

في منتصف الفترة الصباحية، أُعيد رئيس الأساقفة بتروسيان إلى منزله في المجمع الأرمني حيث وُضع قيد الإقامة الجبرية. وتفرّق الحشد في شارع عمر بن الخطاب، ووضّب الصحافيون معداتهم، وتلقى يوم انتقاداً لا ذعاً من الرئيس غال بسبب طريقته في إدارة الأمر برمته. وعاد بن - روي وزيسكي إلى مكنتهما، وكانا قد جلسا للتوّ للتحدث عن خطوئتهما التالية عندما رنّ هاتفاهما معاً. وفي الوقت نفسه، عبر زيسكي المكتب وردّ على خطّه الهاتفّي الأرضي، في حين دار بن - روي وردّ على هاتفه المحمول. إنه خليفة، ولم يكن هناك تبادل لأي ملاحظات هازلة. "أعتقد أننا ربما نكون قد أمسكنا بطرف خيط".

وزود بن - روي بالمستجدات: بينسكرا، المتاهة، إمكانية بقاء المنجم قيد العمل، الآبار المسمّمة. دوّن بن - روي الملاحظات الغريبة، ولكنه اكتفى بالإصغاء في معظم مراحل الحديث، وبدأت على وجهه أمارات اهتمام بالغ، ومن ثم اندهاش، وبعد ذلك عدم تصديق لدى سماعه بموضوع الآبار. "لا بد أن تكون مصادفة"، قال عندما أنهى خليفة كلامه. "قضيتي، قضيتك، القضية نفسها! لا، لا، لا. لا أصدّق ذلك. إنها شديدة الإيقان".

"هذا ما فكرتُ فيه"، قال خليفة. "أعني، إن منجم بينسكرا ليس المنجم الوحيد في الصحراء الشرقية. ولكن، عندما تابعتُ الأمر مع وزارة النفط والموارد المعدنية، قالوا لي إنه لا وجود لأي مناجم ذهب ناشطة قرب تلك المنطقة. فالمناجم الأكثر قرباً موجودة في تلة الشكري وحماش قرب مرسا علم، أي على بُعد مئتي كيلومتر".

وكان باستطاعة بن - روي سماع صوت زيسكي في الجانب الآخر للغرفة؛ إنه يقول شيئاً ما عن حافلة وعن توقف غير مُدرّج في الجدول. كان مذهولاً ممّا يقوله خليفة لدرجة أنه لم يتمكن من الانتباه إلى ما يقوله زيسكي. "ما زلت لا أصدّق ذلك"، قال. "لا بد من وجود تفسير آخر".

"ما الذي تستنتجه إذاً ممّا أخبرتك إياه"، قال خليفة. "عندما كنت أتحدث عبر الهاتف إلى المرأة في الوزارة، طلبتُ منها التحقق ممّا إذا كان هناك أي نشاط تعديني

في تلك المنطقة. لا وجود لأي نشاط مماثل، وعلى الأقل ليس في الأزمنة الحديثة. وما تمكنت من العثور عليه هو امتياز للتنقيب لصالح شركة تدعى بروسبكتو إدجيت سقط. بمرور الوقت منذ خمسة عشر عاماً. لقد قضت ثمانية عشر شهراً في مسح تلك الناحية من الصحراء بالتحديد".

"إذاً؟"

"بروسبكتو شركة تابعة لبارين كوربوريشن".

عض بن - روي على شفته. وأمامه، كان دوف زيسكي قد وقف وتوجّه إلى خارطة إسرائيل المعلقة على الجدار.

"إذاً، ما الذي توحى به؟" سأل. "هل تقصد أن بارين قد عثرت على هذا المنجم، وأنها تقوم باستثماره سرّاً؟".

"أنا لا أوحى بذلك. أنا أعرض الوقائع فقط، علماً أنها لا تؤدي إلى هذه النتيجة. رخص الامتياز ليست بخسة الثمن بالرغم من كل شيء. توفر بارين الكثير من المال إذا استثمرت المنجم بطريقة غير قانونية. وربما اكتشفت صحافيتك ما يجري وهددت بافتضاح الأمر...".

ناداه زيسكي، ولكن بن - روي رفع يده في إشارة إلى أنه مشغول. أمر مضحك، فكر في سره، قبل أسبوع، طلب من خليفة جمع بعض المعلومات على هامش قضيته، وها هو المصري يحلّها له كما يبدو. وأعاد السيناريو في عقله، محاولاً مطابقته مع كل أطراف الخيوط الأخرى التي حصلوا عليها. لم يكن يملك أي فكرة عما إذا كان بالإمكان استثمار منجم ذهب سرّاً، علماً أن الموقع بعيد جداً وفقاً لما قاله خليفة، ولذلك قد يكون ذلك ممكناً. وضع هذه المعلومة جانباً في الوقت الراهن؛ فالكثير من أجزاء الأحجية يلائم ما توصّل إليه حتى الآن: مقالات الصحف، بينسكر، بارين، مصر، ونميسس أجندا أيضاً؛ إذا كانت كلينبرغ تتقرّب من أفراد تلك المجموعة أملاً في الحصول على معلومات عن المنجم كانوا قد حصلوا عليها في أثناء تسللهم إلى ملفات الكمبيوتر، أو إذا كانت تزودهم بمعلومات ربما؛ فالأمر ممكن في كلا الحالين. وتبقى مسألة فوسغي والاتجار بالجنس. كيف يرتبط كل ذلك بمنجم ذهب غير قانوني وسط الصحراء المصرية؟ لا يوجد أي رابط؛ أو على الأقل ليس بأي طريقة يستطيع فهمها على الفور. وكالسابق، شعر بأنه نقل

السجادة إلى أحد جوانب الغرفة، كاشفاً عن فجوة قبيحة المظهر في الجانب الآخر. لم يتمكن بعد من تغطية الأرض كلها. "بن - روي؟".

وتردد صدى صوت خليفة عبر الخط. "آسف"، قال. "كنت أفكر في كل ما توصّلنا إليه حتى الآن. اسمع، أدين لك بالكثير لأجل ما قدّمته لي، يا صديقي. سنتابع هذا الأمر وأُعلمك...". وقبل أن يتمكن من القول "بآخر المستجدات"، قاطعه خليفة. "سأعمل على توفير المزيد من المعلومات"، قال. "ربما يكون المكان نائياً، ولكن لا يمكنني تصديق أنهم يستثمرون منجماً هناك من دون معرفة أحد به. لا بد من أن يكون أحدهم قد رأى أو سمع شيئاً".

فقال بن - روي للمصري إنه قد أدّى له خدمة كبيرة، لا بل أكثر، ولكن خليفة أصرّ على ذلك، ووافق بن - روي نزولاً عند إصرار خليفة وعدم تمكّنه من ثنيه عن رأيه. ربما يساعده ذلك أيضاً بطريقة ما كما ساعدته قضية هانا شليغل؛ فبالرغم من كل شيء، هذه القضية هي السبب في إشراكه خليفة في أعمال الاستقصاء.

واتفقا على البقاء على تواصل، وأقفل خليفة الخط. فجلس بن - روي للحظات، ناظراً على كرسيه ومتحرّكاً بشكل دائري، ومقلّباً الأمور في رأسه. ووقف بعد ذلك، وتوجّه إلى طاولة زيسكي. "آسف لذلك، يا دوف. هناك بعض التطورات المثيرة للاهتمام في مصر. ماذا لديك؟".

"عاد السائق"، قال زيسكي. كان عقل بن - روي لا يزال مشغولاً جزئياً بالحديث الذي أجراه مع خليفة، وتطلّب منه الأمر بضع ثوانٍ لفهم ما يعنيه. بالطبع، إنما التذكرة الملوّنة بالبيض التي عثر عليها داخل وعاء القمامة في شقة كلينبرغ؛ تذكرة الرحلة إلى ميتزبي رامون. كان سائق الحافلة خارج المنطقة في يوم العطلة. "وماذا بعد؟".

"أعتقد أننا ربما نكون قد أمسكنا بطرف خيط".

إنها المرة الثانية التي يستخدم فيها شخص ما العبارة نفسها في غضون خمس عشرة دقيقة. كانت الأمور في تحسّن.
"تابع".

"تعرف الرجل إلى صورة كلينبرغ على الفور، وقال إنها استقلت حافله مرات قليلة".

"ماذا يعني بقوله مرات قليلة؟".

"ثمانٍ مرات أو تسع مرات في السنوات الثلاث الأخيرة. كانت تقطع على الدوام تذكرة سفر ذهاباً وإياباً، فيقلّها إلى مقصدها، ومن ثم يُعيدها في رحلة لاحقة".

"أفترض أنه لا يمكننا أن نأمل أن يكون على علم بما كانت تفعله في ميتزبي رامون".

"هذا هو الأمر المثير للاهتمام. لم تقصد قطّ ميتزبي رامون؛ وربما اقتربت منها على الأقلّ. كانت تترجّل على بُعد عشرة كيلومترات من البلدة، وتستقلّ الحافلة نفسها في رحلة العودة من المكان الذي ترجّلت فيه".

ووقف، ولوّح لبن - روي للاقتراب من الخارطة المعلقة على الجدار.

"هنا"، قال واضعاً إصبعه على الطريق 40 الممتدة بين الشمال والجنوب. إنه مكان صحراوي مُقفّر. وتحت إصبعه تقاطع مع طريق ثانوية صغيرة متّجهة غرباً في اتجاه محمية هارها-النقب الطبيعية، وصولاً إلى... الحدود المصرية. فحدّق بن - روي، وهو يشعر بالدوايب المسنّنة تدور في رأسه. وبعد ذلك، مدّ يده وشرع بجذب الخارطة من سنادات بلو تاك.

"أسديني خدمة يا دوف، لا بل خدمتين في الواقع. اجمع أكبر قدر من المعلومات عن شركة تدعى بروسبكتو إدجيب. إنها شركة تابعة لبارين، قامت بعملية مسح في الصحراء المصرية منذ مدة. واتصل بمكتب بارين في تل-أبيب. قل إننا نُجري تحقيقاً حول جريمة، ونريد التحدث إلى من يمكنه تزويدنا بمعلومات عن أعمال الشركة في مصر؛ شخص عالي الرتبة وليس موظفاً مكتبياً. حاول الخروج بشيء ما هذا اليوم أو صباح غد. لقد حان الوقت لمعرفة ما لدى هؤلاء الأشخاص ليقولوه عن أنفسهم".

"ماذا ستفعل؟" سأل زيسكي.

"أنا؟". وأنزل بن - روي الخارطة وطواها. "سأقوم بنزهة ممتعة وصغيرة بالسيارة في أنحاء البلد".

هيوستن

كان وليام بارين مستيقظاً تماماً في الثانية صباحاً بتوقيت هيوستن. لم يكن استيقاظاً لأجل تعاطي الكوكايين، فقد وضع كل ذلك وراءه. لا، إنه استيقاظ صافي الذهن، استيقاظ زاهر بالنشاط كذلك الذي اعتاده في معظم ليالي هذه الأيام مع شروعه بوضع خططه. وحدّق إلى الخارج عبر المشهد الليلي لهيوستن بأبراجها المتألّثة وخطوط حركة المرور البعيدة، كما لو أنه مشهد مأخوذ من بلايد رانر، مفكراً في الاختيار بين أمرين: تكبّد عناء التوجه إلى حوض السباحة الموجود على السطح للسباحة، أو النزول إلى جناح القلب لإحراق بعض الطاقة على طاحونات الدّوس. وعوضاً عن ذلك، نهض من السرير، ووجّه دَفْعاً من ضربات الكاراتيه نحو النافذة، ثم دخل المكتب وجلس إلى طاولته.

في وقت سابق، كان قد اصطحب باربرة إلى العشاء في النادي الريفي. كان يفكر أكثر فأكثر بأنها المرأة المناسبة له. إنها مُمِلّة وغير مغامرة، ولكنها تبدو جيدة، وتعرف كيف تتصرف في ظرف اجتماعي، وهي متحدّرة من نسب بروتستانت أنكلو-ساكسوني أصيل؛ إنها الزوجة التي يحتاج إليها لدى ترؤسه إحدى الشركات متعددة الجنسيات الرائدة في البلد. سيخضعها للفحص، ويتحقق من خصوبتها وقدرتها على المحافظة على استمرارية السلالة، ومن ثم سيطلب يدها في العام التالي بعد استقرار الأمور في الشركة، أو ربما بعد عامين. عليه التعاطي مع القرارات وفقاً لأولويّتها على غرار كل القرارات المرتبطة بالأعمال.

وأعاد ظهره إلى الوراء، وأسند قدميه على زاوية الطاولة المغطاة بأعمال مكتبية؛ ملفات، تقارير، برامج كمبيوترية لمعالجة الحسابات، تحاليل؛ وحش بارين الضخم الذي يكشف عن أجزائه المكوّنة. التقط ورقة بشكل عشوائي -

أرقام الأرباح المتوقعة من شركة النوقود الحيوي الكندية - وأفلتها من يده لأنه لم يكن في مزاج ملائم للتدقيق في الأرقام. وعلى شاشة الكمبيوتر كانت كاميرا الفيديو لا تزال تعرض مشاهد عبر شبكة الإنترنت، ولكنه لم يكن في مزاج ملائم لذلك أيضاً. فمرّر يده على شعره، وألقى نظرة سريعة على ساعته الروليكس، ورفع سماعة الهاتف وطلب الرقم. بعد خمس رنات، تمت الإجابة على الاتصال.

"هل أيقظتُك؟" سأل.

"أجل، ولكن لا مشكلة في ذلك". أكد له صوت ناعم.

"هل أنت في مزاج ملائم للتحدث؟".

"تماماً".

"أردت التحقق مما إذا كنت قد فكرت بالأمر الذي ناقشناه".

"أجل"، قال الصوت، كان هناك المزيد من التفكير، المزيد والمزيد من التفكير للوصول إلى قرار. كان وليام مُحِقاً. لا بد من القيام بذلك لتأمين المستقبل، وضمان الاستمرارية.

فابتسم وليام.

"كنت أعرف أنك ستفهم. أنت فرد من العائلة بالرغم من كل شيء. علينا مساعدة بعضنا".

"بالفعل".

"كنت أفكر في أنه يُفترض بنا القيام بذلك الأمر في مصر، وإبقاء كل شيء في متناول اليد من دون طرح الكثير من الأسئلة".

"فكرة جيدة".

"هل نحن مستمرّان إذا؟".

"نحن مستمرّان".

قال وليام إنه سيبقى على تواصل، وطلب من الشخص على الجانب الآخر من الخط التنبيه، وأنهى المكالمات. وللحظات، جلس وهو ينقر الطاولة بأصابعه. ووقف بعد ذلك، وعاد إلى غرفة نومه حيث المنشفة والسروال الداخلي القصير. قد يسبح بالرغم من كل شيء.

إسرائيل

تقع ميتزبي رامون على بُعد 160 كيلومتراً جنوب القدس، وتفصل بين المنطقتين ثلاث ساعات بالسيارة عندما تكون حركة المرور كثيفة، وعندما يقود السائق ضمن حدود السرعة.

لقد قطع بن - روي المسافة في ساعتين فقط.

ففي الكيلومترات الثمانين الأولى، أطلق صفارة الإنذار في سيارته مما سهّل عليه المرور في الطرقات الأكثر ازدحاماً في بحر السبع. وعندما خرج من المدينة إلى النقب الصخرية الفارغة، أوقف صفارة الإنذار وانطلق بأقصى سرعة. وفي منتصف النهار، وصل إلى التقاطع حيث كان سائق الحافلة يُنزل ريفكا كلينبرغ ويُقلّها. فتوقف، وخرج من السيارة، ومدّد ساقيه، وحدّق حوله.

كان المكان قد بدا له موحّشاً على خارطة المكتب، وبدا له في تلك اللحظة أكثر وحشةً. فهناك الطريق 40 الفارغ المكوّن من مسريّين، والفرع الثانوي للطريق المتوجّه غرباً، وثلاث لافتات معدنية: مؤشّر مسافة يُظهر وقوع ميتزبي رامون على بُعد 10 كيلومترات، وسياج خشبيّ إعلانيّ سياحي خاص بحمّية هارها- النقب الطبيعية، وتحذير من الجبال الشاردة. وعدا ذلك، لا شيء. فالشمس متّقدة، والصحراء ممتدة، وعلى بُعد خمسة أمتار تبعث من ماعزة نافقة رائحة تعفن. كان الأزيز غير المنتظم للذباب هو الصوت الوحيد في ذلك السكون المهيم.

تفرّس بالمنظر الطبيعيّ غير واثق تماماً مما يأمل في تحقيقه من اجتيازه كل هذه المسافة إلى هنا، وشاعراً بأن قيامه بكشف النقاب عما كانت كلينبرغ تقوم به أمر محتمل بسبب وجوده في المكان شخصياً أكثر من محاولته متابعة الأمر من مكتبه. بعد ذلك، استدار حول السيارة، وفتح صندوق التويوتا، وأخرج منظاراً ثنائياً، وتسلّق غطاء محرك السيارة، وأمعن النظر مجدداً، والمعدن يصرف تحت حذاء التيمبرلاند الخاص به في أثناء دورانه حول نفسه 360 درجة. لقد وفرّ له المنظار مشهداً أكثر تفصيلاً مقارنةً مع ما كان يراه بالعين المجردة. فقد رأى الصخور، والغبار، والتلال، والأخاديد، وكتلة من أزهار عصا الراعي غير العادية المهملّة. لم يكن هناك أي أثر لأيّ بشريّ.

ألقى نظرة حوله مرتين على البانوراما الصحراوي، وركّز بعد ذلك على منحني الطريق المتجه غرباً. إنه الأمر الذي لفت انتباهه على الخارطة عندما أشار زيسكي إلى هذه النقطة في المركز، وما زال يثير اهتمامه بسبب ترجّل كلينبرغ في هذه النقطة بالتحديد. هل كانت تقابل شخصاً ما تسلّل من مصر عبر الحدود؟ هل كانت تعتزم التسلّل إلى داخل مصر؟ أم إنها ترجّلت هنا لسبب مختلف كلياً، وقُرب المكان من الحدود مَحْض صدفة؟ أيّاً يكن الوضع، فالأمر مرتبط بنميسيس أجنّدا بالتأكيد. فقبل ثلاث سنوات، سلكت هذا الطريق للقاء صلة وصل مع أجنّدا. وانطلاقاً مما قاله السائق، لقد دأبت على الترجّل في هذا المكان والعودة بواسطة الحافلة.

"ولكن، لماذا هذا المكان بالذات؟" تتمم. "لماذا هنا؟ ماذا كنت تفعلين؟". تتبّع خط الطريق انطلاقاً من نقطة التقائه بالطريق 40 ووصولاً إلى نقطة اختفائه وراء حيد صخري بعيد، متمعناً في النظر عبر المنظار جيئةً وذهاباً كما لو أن الطريق المعبّد سيزوّده بالإجابات التي يبحث عنها. ولكن أيّاً من الإجابات لم يتوافر، وبعد عشر دقائق استسلم، وقفز عن غطاء محرك السيارة وأعاد المنظار الثنائي إلى الصندوق. جلس على مقعد السائق، وأخرج قنينة ماء وعلبة دوريتوس كان قد اشتراها من محطة الوقود في أثناء خروجه من القدس. تناول جرعة من الماء، وفتح الدوريتوس وشرع بالمضغ. كان قد تناول ربع محتويات العلبة عندما سمع زجاجة ضعيفة لعربة مقتربة، وهي أول عربة تمر من هناك منذ توقّفه. فوضع الدوريتوس والماء على مقعد الراكب، والتقط صورة ريفكا كلينبرغ التي اصطحبها معه وخرج إلى الطريق.

كانت العربة صهريجاً ولا تزال بعيدة، وهي متوجهة إلى الجنوب من بئر السبع، وخطها الكفافي يهتّر ويتنفخ بسبب التشوش البصري الذي يحدثه الحر. لقد راقبها لمدة دقيقة تقريباً، وكان دنوّها بطيئاً على نحو مُملّ. وعندما أصبحت على بُعد خمسمئة متر، عاد إلى داخل السيارة، وأدار المفتاح، ووضع صفارة إنذار الشرطة الواضحة على سطح السيارة. وسمع صوت هسيس بعيد للمكابح، ثم أبطأ الصهريج وتوقف بعد أن اجتاز عشرة أمتار. فسار بن - روي في اتجاهه وأومأ للسائق لإنزال زجاج نافذته.

"لقد تَمتَّ معاينتي قبل ثلاثة أسابيع"، قال الرجل والسيجارة ترتفع وتنخفض في زاوية فمه. "لديّ الأوراق هنا إذا كنت تريد التحقق منها".

فقال له بن - روي إن ذلك لن يكون ضرورياً.

"هل تسلك هذا الطريق في معظم الأحيان؟" سأل.

"مرتين في الأسبوع. من أشدود إلى ميتزبي، وأعود عبر ييروكهام وديمونا".

"هل سبق لك أن رأيت هذه المرأة؟". وسلّمه بن - روي الصورة

الفوتوغرافية. فتفحصها السائق، ومن ثم أعادها له هارّاً رأسه.

"كانت تقف هنا كما لو أنها تنتظر شخصاً ما".

"لم أرَها من قبل مطلقاً".

"هل أنت متأكد؟".

"أنا متأكد".

"حسناً، تابع سيرك".

وعاد بن - روي إلى الورا وحرك إبهامه في اتجاه الطريق السريع.

"وأطفئ السيارة!". نادى في أثناء شروع السائق بالانطلاق. "أنت تقود

صهريج نفط لعيناً!".

فتأقّف الرجل، ونقر السيارة في اتجاه موقف الطوارئ، وانطلق بسرعة.

وعاد بن - روي إلى سيارته وواصل تناول الدوريتوس.

أوقف أربع عشرة عربة إضافية في الدقائق التسعين التالية، بما في ذلك شاحنة

خفيفة لنقل السلع محمّلة بالبدو، وحافلة عسكرية منطلقة من قاعدة رامون الجوية،

وسيارة أودي آر منخفضة السقف يقودها أحد أكثر الرجال بدانة الذين سبق له

أن رآهم يوماً برفقة امرأتين شديديّ الجاذبية؛ درس عملي في الجاذبية المغوية للمال

النّقدي.

لقد عرف شخصان ريفكا كلينبرغ من صورتها في الصحف، ولكن لم يسبق

لأيّ منهما أن رآها شخصياً، وليس في هذا المكان النائي بالتأكيد. وفي أثناء

انطلاق سيارة الأودي بسرعة قصوى وابتعادها، وشعر المرأتين يطير وراءهما في

مهبّ الريح، أقرّ بن - روي بأنه يضيّع وقته. لقد قرر سلوك الطريق الفرعي المتجه

غرباً إلى الحدود المصرية، والتحقق مما إذا كان أحدهم قد رأى كلينبرغ، ومن ثم

سيعود إلى ميتزبي رامون للتحدّث إلى الشرطة المحلية، ويتوجّه إلى منزله أخيراً. أحياناً تفوز، وأحياناً أخرى تخسر. كان الأمر جديراً بالمحاولة.

ألقي نظرة أخيرة حوله بالمنظار، وتبوّل على جانب الطريق، ثم عاد إلى داخل سيارته. كانت هناك سيارة أخرى تقترب من الجنوب على صورة بقعة مستديرة تهتز. فتردد، متسائلاً عما إذا كان ينبغي عليه القيام بمحاولة أخيرة. وبعد ذلك، قرّر أن الأمر غير جدير بالمحاولة، وأغلق الباب بقوة، وربط حزام الأمان حوله، وأنزل صفارة الإنذار الوامضة، وهمّ بالمغادرة، ولكنه بدّل رأيه وتوقف مجدداً. فوضع جهاز نقل الحركة على صيغة الرّكن، وأعاد صفارة الإنذار إلى سطح السيارة، وفك حزام الأمان.

"الرقم ستة عشر جالب للسّعد"، تتمم ملتقطاً صورة كلينبرغ، ومندفعاً إلى الخارج.

كانت السيارة تسير بسرعة، وفي الثواني الخمس عشرة منذ رؤيته لها للمرة الأولى، كانت قد تحررت من سراب الحر وباتت أكثر وضوحاً. إنها إس يو في. وقف على الطريق، وكانت السيارة منطلقة بأقصى سرعة مقلّصة المسافة بينهما. وعندما أصبحت على بُعد أربع مئة متر منه، رفع يده، ولكن السيارة لم تُبطئ، وأصبحت على مسافة ثلاث مئة متر، ومن ثم على مسافة مئتي متر، وكان على وشك التراجع إلى الوراء والخروج من الطريق عندما ضغط السائق فجأةً على المكابح وسُمع هسيس المطاط، وانبعث الدخان من أسفل الدولابين الخلفيين، وتوقفت السيارة - تويوتا لاندكروزر - فجأةً في موقف الطوارئ. كان السائق ديناميكيّاً كسائق سيارة الأودي؛ كان هناك سائق وراكبتان، علماً أن الرجل في هذه الحالة نحيل ووسيم. فتوجّه بن - روي إلى نافذته وشهر شارته.

"لو كنت أحمل جهازاً لتحديد السرعة لسُحبت منك رُخصتك"، قال.

"آسف"، قال الرجل. "أنا قادم من مكان بعيد جداً".

"لم يكن يجدر بك السير بهذه السرعة الكبيرة".

"آسف"، كرّر الرجل.

وضع بن - روي يده على سطح السيارة ومدّ رأسه ونظر إلى داخل السيارة. كانت المرأة الجالسة على مقعد الركاب الأمامي نحيفة تقريباً، وشعرها أسود

قصيراً، صدرها مرئياً بشكل واضح من التي-شيرت. أما المرأة الموجودة في الخلف فخرّوبية الشعر، وقد سرّحت شعرها على صورة كعكة صغيرة، وساقاها الجميلتان منحرفتان في اتجاه ظهر مقعد السائق. المرأتان جذّابتان، ولم يستطع تمالك نفسه من ملاحظة ذلك، وإن لم يكن الأمر على غرار رفيقتي سائق الأودي. فهاتان المرأتان أكثر تحفظاً.

"هل أنتَ من هنا؟" سأل، مخاطباً الرجل.

"من تل-أبيب. كنا في إيلات لبضعة أيام."

يا لك من محظوظ، فكر بن - روي في سرّه.

"هل تسلك هذه الطريق في غالب الأحيان؟"

"كل شهرين ربما."

جالت عينا بن - روي على المرأة الجالسة على المقعد الخلفي، ومن ثمّ أراهم الصورة.

"افترض أن آيّا منكم لم يسبق له أن رآها في هذه الأنحاء؟"

فنظروا إلى الصورة، وأنزلت المرأة الجالسة في الخلف قدميها وانحست إلى الأمام.

"لقد رأيتهَا"، قالت.

فانحنى رأس بن - روي أكثر فأكثر، ودخل عبر نافذة السيارة.

"هل رأيتهَا في هذه الأنحاء؟"

"لا، في الصحيفة. إنها تلك المرأة التي قُتلت في القدس."

كانت تملك لهجة خاصة، خفيفة ولكنها موجودة. إنها أميركية، حمّن، وربما بريطانية. عيناها رماديتان وحادّتان، وعلى أنفها بقع نَمَش مبعثرة؛ إنها جذّابة بشكل جدّي.

"ولكنك لم تريها مطلقاً في هذا الجزء من العالم؟". كرّر.

فهزت رأسها.

"وأنتما؟"

فهزّا رأسيهما أيضاً.

"هل هي من هذه الأنحاء؟". سأل الرجل مُعيداً الصورة.

"نتبّع بعض أطراف الخيوض".

"حسناً، أمل أن تقبضوا عليه"، قالت ذات الشعر خرّوبي اللون، مُعيدةً ظهرها إلى الوراء، ومُسندةً قدميها مجدداً. ثبّت بن - روي نظره عليها لأنه شعر بأمر ما حيالها. ولكنه لم يتمكن من معرفته، وبعد التلكؤ قليلاً، شكرهم على وقتهم، وقوم وقفته وابتعد عن السيارة.

"وانتبه إلى سرعتك"، قال. "ليس كل رجال الشرطة متساهلين بقدري".

فابتسم الرجل، وأدّى له التحية وانطلق. راقبهم بن - روي وهم يغادرون، محدّقاً إلى الخيال الظلّي للرأس عبر النافذة الخلفية من دون أن يبارحه شعوره. وبعد ذلك، هزّ كتفيه وعاد إلى سيارته، وغادر الطريق العام 40، سالكاً الطريق الأصغر المتجه غرباً نحو الحدود المصرية. ولم يكدّ يجتاز كيلومتراً واحداً حتى خرجت الكلمات من فمه فجأة: سالي، كاري، ماري-جاين.

لقد بدا مُربكاً للحظات كما لو أن شخصاً آخر يتكلم. وبعد ذلك، أطلق صرخة عميقة مُرفقة بكلمة تَبّا! وضغط على المكابح، وفتح حاوية القفازات، وسحب مسدس جريكو، ومن ثم دار بالسيارة وعاد بأقصى سرعة من حيث أتى، وصفارة الإنذار تلعلع.

حافظ غيدي على سرعة منخفضة حتى غابت سيارة الشرطي عن مرآة الرؤية الخلفية، ومن ثم داس على دواسة الوقود إلى أقصى حد، مراقباً أي دلالة على حدوث عملية مطاردة.

"أظن أننا بخير"، قال غيدي.

"لسنا بخير. إن طريقة نظره إليّ...".

وانخرفت، وأخرجت هاتفها الذي يعتمد تقنية الإرسال الفضائي - الهوائيات الأرضية لا تعمل هنا - وطلبت بإبهامها رقماً. فأطلق ثلاث رنات، ومن ثم:

"فاز، ابدأ بإطفاء كل شيء. ربما اضطررنا إلى الانتقال".

وأهتت الاتصال، ثم انحنت وسحبت مسدس غلوك من حقيبة ظهرها. على المقعد الأمامي، قامت تامار بالمثل. وزاد غيدي السرعة حتى تجاوزت 160 كيلومتراً

في الساعة، سالكاً سلسلة طويلة من الانحناءات قبل أن يخفّض سرعته إلى حد كبير ويتوقف في موقف الطوارئ. كانت تamar قد فتحت الباب، وقفزت وركضت بأقصى سرعة إلى التلة المشرفة على الطريق العام. وانطلق غيدي حول الزاوية، فأصدرت دوايب السيارة صوتاً حاداً فيما كان يسلك الدرب المؤدية إلى مجتمّعهم؛ وانتقلت ديناً إلى المقعد الأمامي. بمشقة وطلبت الرقم مجدداً، مترنحةً إلى الأمام والوراء في أثناء ارتجاج اللاندكروزر على الأرض الوعرة. لقد أطلق الهاتف ستّ رنّات هذه المرة، ومن ثم سُمع صوت تamar: "كِدْتُ أصل".

وسُمع عبر الهاتف صوت تسلّق، ووقع أقدام، وتنفّس أجشّ.
"حسناً، أنا في الأعلى".
"وماذا؟".
"أنا لا أراه".

واضطدمت اللاندكروزر بأحدود واستدارت، مما أدى إلى قذف ديناً في اتجاه النافذة. فرمت الغلوك إلى المقعد الخلفي، ونقلت الهاتف المحمول إلى يدها اليسرى، وأمسكت مقبض التثبيت في الباب لتثبّت نفسها.
"هل هناك أي شيء؟".
"لا شيء".

وترنّحت السيارة بقوة مرة أخرى عندما اضطدمت بمنحدر، وانزلقت، فيما بذل غيدي قصارى جهده للسيطرة على المقود والسير في خط مستقيم، وتوجه بسرعة إلى مجموعة من المباني البعيدة.
"ما زلت لا أراه"، قال صوت تamar. "أعتقد أنه ربما... تمهّلي، يمكنني سماع...".

"ماذا؟".

وساد الصمت.

"ماذا، يا تamar؟".

"صفارة إنذار! إنه قادم".

"تبّاً!".

لوّحت دينا بيدها، حاثّة غيدي على الإسراع. ومن أعلى التلة، واصلت تامار تزويد دينا بأدق التفاصيل.

"إنه على بُعد كيلومترين تقريباً... وقادم بسرعة. أصبح عند المنعطف الآن... على بُعد كيلومتر واحد... يقود بسرعة كبيرة في الواقع. أصبح تحتي... ومرّ قربي! لقد أغفل الطريق الجانبية! وهو يواصل السير في اتجاه الشمال".

وصلا إلى المجمّع، وتوقفا بسرعة بجانب غرفة الكمبيوتر المفتوحة. كان فاز يفك الأسلاك بسرعة، ويضع السوّاقات الصلبة في صناديق. فهرع غيدي لمساعدته، وبقيت دينا في اللاندكروزر، وهاتفها المحمول على أذنها، والغلوك متدلّ من يدها. وظنّت أنها سمعت عويل صفارة الإنذار.

"حدثيني يا تامار؟". قالت.

"لا يزال منطلقاً".

"ما هي المسافة التي بلغها؟".

"اجتاز كيلومتراً واحداً تقريباً. إنه يصعد الحيد".

"بالسرعة نفسها؟".

"يبدو الأمر كذلك".

"والآن؟".

"لا يزال يصعد".

وساد الصمت، ومن ثم:

"إنه في الأعلى و... لم أعد أراه".

طقطقت دينا براجمها، فتوقف غيدي وفاز عما كانا يقومان به وخرجا.

ولبث الثلاثة ينتظرون، ناظرين إلى بعضهم بعصبية. ومرّت ثلاثون ثانية.

"ماذا يحصل يا تامار؟".

"لا أثر له".

"انتظري دقيقة أخرى".

ففعلت.

"لا شيء. نحن بخير. لقد ذهب".

فأومأت دينا برأسها لغيدي وفاز، وتنفس الجميع الصُّعداء.

"لا، لم يذهب. سيعود!".
"تَبّاً!".

ودنا منها الاثنان، ورفعت الهاتف لكي يسمع الجميع ما يحدث.
"إنه ينزل من الحيد"، قالت تامار. "بسرعة. وصل الآن إلى المنبسط... إنه على بُعد أقل من كيلومتر واحد... خمسمئة متر... لقد تخطاني لينحرف عن الطريق. إنه يُبطئ. لقد توقف. إنه... تمهّلي... ماذا يفعل؟! إنه يعود! إنه يسلك الدرب. قُضي علينا!".
"راقبي الطريق"، قالت دينا. "أعلمينا إذا كان برفقة أصدقاء. أبقى رأسك منخفضاً".

أُنتِ المكالمات، ووضعت الهاتف في جيبها. كان فاز قد عاد إلى غرفة التكنولوجيا، وغيدي ينقّب اللاندكروزر؛ ثم ظهر حاملاً مسدساً صغيراً.
"هل أنت مستعدّة لذلك؟" سألت.
وثبتت مخزن الذخيرة بقوة في مكانه.
"مستعدّة".
"حسناً، لنقُم بما يتعيّن علينا القيام به".

فضربوا قبضات أيديهم ببعضها واختفوا وسط المباني مع اقتراب صفارة الإنذار.

* * *

خَفَضَ بن - روي سرعته، سالكاً الدرب من الطريق العام في اتجاه الصحراء، ومتحكماً بمقود السيارة بيده اليسرى، وحاملاً مسدس الجريكو بيده اليمنى. وبعد 400 متر، هبط الدرب عبر فلق ضيق، ومن ثم انحرف إلى اليمين بشكل حاد. وعلى بُعد كيلومترين إلى الأمام، رأى مجموعة مباني في الصحراء الصفراء المائلة للبنّي، فتوقف وأطفأ صفارة الإنذار، والتقط منظاره الشنائي، وألقى نظرة.
كانت اللاندكروزر هناك مركونة أمام أحد المباني، وباب السائق مفتوحاً، وتوجد عربة ثانية في الظل تحت بناء آخر يقع بجانب المبنى نفسه. وهناك أربعة مباني أخرى، وبعض الألواح الشمسية، وطَبَق كبير لالتقاط الإرسال الفضائي بدا كما لو أنه قطعة أرض مزروعة بالخضَر. غير أنّه لم يكن هناك أي أثر للحياة.

تفحص الصحراء المحيطة به، وركز بعد ذلك على المجمّع كما لو أنه يأمل في مفاجأة شخص ما على حين غرة، ولكنه لم يرَ أحداً. فإما أنهم رحلوا أو محتبئون. هناك ثلاثة منهم على الأقل، وربما أكثر، وهم مسلّحون بالتأكيد. فانطلقاً مما سمعه، إن نيسيس أجندا خطيرة، خطيرة جداً؛ ولم يكن يشك قط في أن هؤلاء الأشخاص منتمون إلى نيسيس أجندا. من الأفضل استدعاء الدّعم. رمى المنظار داخل السيارة، وأخرج هاتفه المحمول، غير أنه لم تكن هناك إمكانية للاتصال بواسطته أو بواسطة هاتف السيارة. تبّاً. إذّا، إما العودة إلى الطريق العام ومحاولة إيقاف أحدهم وإرساله لإحضار جنود المدرّعات، أو متابعة المهمة بمفرده؛ وهو أمر جنوني.

لقد تابع المهمة بمفرده، وانطلق ببطء أكبر من ذي قبل مستخدماً السرعة الثانية في جهاز نقل الحركة، ومتوقفاً كلما قطع مئات قليلة من الأمتار لإلقاء نظرة متفحّصة على المباني بواسطة المنظار، ومسدسه جاهز للعمل. لم يرَ أحداً، ولم يدنُ منه أحد. وتوقف على بُعد مئة متر تقريباً من المجمّع، وترجّل. كان هناك سكون تام.

"مرحباً!"

لا جواب.

"مرحباً!"

لقد خنق الحرّ صوته، وجعله خافتاً وجليظاً كما لو أنه يصرخ من تحت بطانية. انطلق إلى الأمام، وجزمته تُحدث صريراً على الحصى، محرّكاً الجريكو أمامه يميناً ويساراً.

"لقد رأيتُ صورتك في شقتها!" صاح. "شقة ريفكا كLINBERG. كنتِ لا تزالين فتاة. لقد احتجت إلى بعض الوقت لأدرك أنك الفتاة التي تظهر في الصورة، ولكنني لا أنسى أبداً أي وجه."

لا جواب، ولا صوت، ولا حركة. وصل إلى اللاندكروزر، والتصق بها، وألقى نظرة إلى الداخل. كانت المفاتيح لا تزال في آلية إشغال المحرك. توقف قليلاً، ومن ثم انخفض على ركبتيه، ورفع مسدسه وأطلق طلقة نارية واحدة. لم يكن هناك أي رد فعل. ربما فروا هرباً على الأقدام، أو إنهم محتبئون في الصحراء يراقبونه، وينتظرونه.

"لقد قَدِمْتُ لتراك!". صاح. "قبل أربعة أيام من مقتلها. كانت تقصد هذا المكان بشكل منتظم. لماذا؟".

لا جواب.

"هل كانت تساعدك؟ هل هذا هو السبب؟ هل كانت ريفكا كلينبرغ عضواً في نَمِيسِيس أجندا؟".

لا جواب. هدوء تام، سكون مُطبق، كما لو أن العالم برمته قد جُمِدَ في جَرَّة. طَرَفَ بعَيْنَيْهِ، ومسح قطرة عَرَق، ووقف، ثم دار حول السيارة، ووصل إلى جدار المبنى الأقرب. كان الباب مفتوحاً. وتحقق من السيارة المركونة تحت البناء المجاور، وبعد العدّ إلى الرقم ثلاثة، اندفع عبر الباب. كانت هناك أغراض كمبيوتر مبعثرة في كل مكان - شاشات، سواقات صلبة، أسلاك، موديمات - كما لو أن هناك من يستعدّ للرحيل على عَجَل. نظر حوله، وعاد إلى الورا. كانت أبواب المباني الأربعة الأخرى مُغلقة. لقد جال عليها واحداً واحداً، وتوجّه بعد ذلك إلى الباحة المركزية. لم تكن المباني الثلاثة الأولى مُقفلة؛ غرف بسيطة، وغير مريحة، وفارغة، غير أن الباب الأخير كان مُحكَم الإغلاق. فنظر حوله، وقام بعد ذلك بركله، فخرج الإطار بأكمله من الجدار وتطاير وابل من الجصّ المحطّم.

كان المكان في الداخل مُعتماً ومائلاً إلى البرودة، والستائر مُسدلة للوقاية من أشعة الشمس، وتنتشر في الأرجاء رائحة غامضة لعِطر مانع للتعرّق. وهناك سرير، وخزانة ملابس، وطاولة، وحمام وراء باب مفتوح. فتفحّص هذا الأخير، وتحقق مرة أخرى من الباحة، ثم توجّه إلى الطاولة حيث يوجد جهاز كمبيوتر حضني شاشته مضاءة، ويظهر عليها مبنى شاهق من الزجاج والفولاذ على خلفيّة سماء زرقاء برّاقة. وفوق المدخل صف من الحروف الذهبية اللمّاعة التي تؤلّف عبارة بارين كوربوريشن. حدّق بها، ومن ثم جلس على السرير وحاول فتح دُرَج الطاولة. كان مُقفلاً. فجذبه بقوة ولكن من دون جدوى. وحاول مرة أخرى. وبعد أن فقد صبره، انحنى، وسدّد، وأطلق النار على القفل. ثم سحب الدُّرَج وقَلَب محتوياته. كان هناك مُشط ذخيرة، ومغلّف محشو بالرسائل، وجوازا سفر؛ واحد إسرائيلي والآخر أميركي، وكلاهما يحملان صورة المرأة التي رآها في السيارة. وكل منهما يحمل اسماً مختلفاً: دينا ليفي وإليزابيت تيل. نظر إليهما، ومن

ثم أخرج محتويات المغلف، فتبعثرت رسائل وبطاقات بريدية على السرير. كان هناك أيضاً مغلف أصغر حجماً توجد في داخله صور فوتوغرافية لُفَّت بشريط مطاطي. فحملها، محدّقاً بالصورة الأمامية. إنها امرأة تهدد طفلاً في مَهْدِه، امرأة شابة، ممتلئة الجسم، مجمّعة الشعر، وتجلس على ما بدا أنه كرسيّ خاص بالمستشفى. لقد أخذ منها الزمن كل مأخذ، ولكنه عرفها على الفور، كما كان قد عرفها ببذّتها العسكرية النظامية في صورة لها عشر عليها في شقتها بالقدس. إنها ريفكا كليبرغ.

"تَبَّأ لي"، تتم.

"تحركْ مليمتراً واحداً فقط"، قال صوت من جهة الباب، "وثق بي، هذا ما سأقوم به بالتحديد".

* * *

ظنّت للحظة من الزمن أنه قد يحاول القيام بأمر ما، وأنظاره تنتقل بين مسدسها الغلوك والعوزي الذي يحمله غيدي، مقيماً الوضع. وبعد أن سلّم بتفوّق السلاح المقابل، هز رأسه ورفع ذراعَيْه. وبتغطية من غيدي، توجهت دينا إليه وجردته من مسدسه ومن الصور الفوتوغرافية أيضاً التي انتزعتها منه ورمتها على السرير لأنهما لم تشأ أن تلمسها أصابعه.

اصطحبها إلى الخارج، وبخنا في ملابسه، وعثرا على مفاتيح السيارة والهاتف المحمول. فاحتفظت بالمفاتيح، ورمت الهاتف لفاز الذي توارى عن الأنظار داخل غرفة التكنولوجيا. ومن ثم اقتاداه إلى سيارته، وقيداه بالأغلال؛ الرّسغ الأيمن إلى المقوّد، والكاحل الأيسر إلى دوّاسة الفرامل.

"أنتِ ابنتها، أليس كذلك؟". قال في أثناء انحنائها للتحقق من أن الأغلال مُحكّمة الإغلاق. "أنت ابنة ريفكا كليبرغ. كانت والدتك".
"مهما يكن".

بحثت في مختلف أنحاء السيارة للتحقق من عدم امتلاكه أي سلاح ناري محبّباً، وفصلت هاتف السيارة عن منصّته، وبعد التحقق للمرة الأخيرة من الأغلال، عادت وغيدي إلى المجمع. فتوجّه غيدي إلى إحدى غرف التخزين لإحضار

متفجرات وأجهزة توقيت، فيما توجهت دينا إلى غرفة تخزين أخرى لإحضار صفائح نقل البنزين.

كانوا قد تدرّبوا على هذا الأمر عدة مرات مع أشكال مختلفة للمدة التي تتطلبها مغادرتهم: هروب مباشر تاركين كل شيء وراءهم، جمع الأغراض الأساسية على عجل في مدة دقيقتين، مغادرة أكثر تنظيماً مع وقت كافٍ لجمع أغراضهم ومحو آثارهم. لم يرد أي خبر من تامار الموجودة على التلة، وقد منحهم ذلك المزيد من الوقت قبل المغادرة. كانت سعيدة بذلك. فمن بين كل الأماكن العديدة التي أقامت فيها في حياتها، شعرت بأن هذا المكان أشبه بمنزلها. كانت تعرف على الدوام أنه يتعين عليهم المغادرة في مرحلة من المراحل. ولكن، سيتسنى لهم على الأقل إلقاء تحية وداع لائقة.

وبعد فتح غرفة التخزين، سحبت خمس صفائح إلى وسط الباحة، ومن ثم قصدت غرفتها لجمع حاجياتها. لم يكن هناك الكثير منها: بعض الملابس، رسائل والدتها، الصور الفوتوغرافية.

كان الماضي حياة مختلفة تعمّدت تناسيه، والرسائل والصور هي الأشياء الوحيدة التي تذكّرها به، إنها قبس النور الوحيد في ظلمة الحياة، إضافة إلى تلك الكوابيس المزعجة بالتأكيد. ففي تلك الكوابيس، يستيقظ الماضي على الدوام ليقتض مضجعتها.

رمت كل شيء داخل حقيبة، إضافة إلى ملفّين مليئين بالأوراق، وكمبيوتر بارين الحظني. ووضعت جوازي السفر في المرحلة الأخيرة. دينا لفي وإليزابيت تيل؛ اسمان فقط من الأسماء العديدة التي اعتمدتها على مرّ السنين. دينا، إليزابيت، سالي، كاري، ماري-جاين؛ كان هناك الكثير منها. إنها الأنا الثانية التي تحتبئ وراءها. ودينا هو الاسم الأكثر ملاءمة مع ما يحمله من معاني ضمنية لا تقتصر على العدالة والحكمة فحسب، بل على الانتقام أيضاً.

أسماء عديدة مختلفة، أقنعة عديدة مختلفة، وهويات عديدة مختلفة.

ولكن، في الواقع راشيل هو اسمها الحقيقي الوحيد.

فتحت سحاب الحقيبة، وألقت نظرة أخيرة على محتوياتها ثم خرجت إلى الباحة. كان غيدي ينتقل من مبنى إلى آخر، زارعاً الشّحنات المتفجرة. لقد أكد

اتصال أُجري مع تامار على التلة أن الطريق العام فارغ، ولا أثر لأي شخص آخر قادم. طلبت منها العودة إلى المجمع، ورمت حقيبتها داخل اللاندكروزر، ثم عادت للتحقق من الشرطي. وحالما رآها، شرع بطرح أسئلة عليها حول والدتها، ولكنها لم تتكبد عناء الشرح.

"كانت تعمل معك، أليس كذلك؟". قال محاولاً حثها على الكلام، ومحاولاً بدون طائل التخلص من الأغلال الضاغطة على رِسه وكاحله. "ريفكا كلينبرغ كانت جزءاً من نِمسيس أجندا. لهذا السبب استمرت بالقدوم إلى هنا".

ابتسمت رُغمًا عنها؛ ليس لأن محاولاته كانت بعيدة عن الهدف، بل لأنه يطلق النار على كل شيء. كان معظم الناس سيلتمسون الرحمة لو كانوا مقيدين في سيارتهم في ظل حرارة تبلغ مئة درجة ولا يملكون أي فكرة عما إذا كانوا سيعيشون حتى الساعة التالية. ولكن هذا الرجل يستمر بمحاولة اكتشاف المزيد. إنها نقطة لصالحه حتى ولو كان مُخطئاً بذلك تماماً.

"لم تكن لها أي علاقة بنِمسيس أجندا"، قالت معتبرةً أنه يستحق شرحاً جزئياً على الأقل. "كانت تأتي للزيارة وليس أكثر".

"وتقضي بعض الوقت مع ابنتها".

لم تعلق على الأمر.

"هل كانت تعرف ماذا تفعلين؟". سأل محرّكاً غلال معصمه ومُحدثاً صليلاً.

"بالطبع كانت تعرف. كنت أثق بها".

"ليس بما يكفي لتمنحها مقابلة"، قال. "منذ ثلاث سنوات عندما أرادت أن

تضع مقالة لمجلتها".

نقطة أخرى لصالحه. لقد قام بفرضه المنزلي.

"لقد انطلقت قبل إشارة البدء في تلك المسألة"، أجابت. "قال لها محرّرها إن

باستطاعتها إجراء المقابلة من دون الحصول على إذن منا. كانت تمرّ بمرحلة صعبة في ذلك الوقت بعد فقدانها عملها، ولم تكن تفكر بشكل صحيح. قلتُ لها إن في

الأمر مجازفة كبيرة. كنا ملاحقين إلى حد كبير، وعندما تضع مقالة مماثلة ستعرض للملاحقة أيضاً، لذلك علينا التوقف عن الالتقاء. ففهمت الوضع، وبعد ذلك لم

تذكر أجندا قطّ مرة أخرى".

"وحتى في زيارتها الأخيرة؟ قبل أربعة أيام من مقتلها؟".

فترددت. وسواء أكانت تلك نقطة لصالحه أم لا، فهو لا يزال شرطياً، ولم تشأ الانجرار إلى حوار معه. حافظي على هدوئك، لا تُخبري أحداً، إنه سرنا الصغير؛ إنه درس تعلمته بمشقة. وفي الوقت نفسه، كان هناك جزء منها يريد التكلّم، مما يمنحها فرصة معادلة النقاط على الأقل. فشعر بعدم يقينها وضغط عليها.

"أرادت منك التسلسل إلى ملفات بارين الكمبيوترية، أليس كذلك؟ لهذا السبب قدّمت إلى هنا في المرة الأخيرة. أرادت منك أن تساعدني على اكتشاف ما تفعله بارين في مصر".

وانقبضت معدتها كما هو الحال على الدوام لدى ذكر بارين. فحدّقت به، محاولةً تصوّر كيفية التعاطي مع الوضع واستنباط أفضل مسار يخدم أهدافها. وبعد التوصل إلى قرار، استلّت الغلوك من الناحية الخلفية لسروال الجينز. فتصلّب بن - روي وحاول التخلص من الأغلال.

"استرخ"، قالت. "لسنا قاتلي رجال الشرطة".

ألقت نظرة سريعة على ساعتها، ثم جلست على صخرة موجودة بجانب الدرب، ووضعت الغلوك على ركبتها. فعاد إلى الورا، ودلّك معصمه الذي اكتسى لوناً أحمر مائلاً للزُرقة.

"هل أنا مُصيب؟".

وكان هناك توقف قصير، ومن ثم أومأت برأسها.

"قالت لنا إنها عثرت على صلة بين بارين ومقالة كانت تضعها عن الاتجار بالجنس. كانت تعلم أننا نُخضع بارين لمراقبة مشدّدة، ولدينا وسائل للتسلل إلى نظام الشركة الكمبيوترية. لقد أرادت منا الدخول والتحقق مما إذا كان بإمكاننا العثور على أي معلومات عن منجم ذهب في مصر. وعن ميناء روزيتا، بالطبع".

فارتعشت عيناه.

"هل قالت السبب؟ ما الذي كانت تفكر فيه؟".

فهزت رأسها.

"لا أعتقد أنها كانت تعرف السبب، وإذا كانت تعرفه فهي لم تُفشِ به. كنا على وشك التوجه إلى مكان ما، فقلت لها إننا سنتحقق من الأمر حالما نعود. وبعد قيامنا بذلك، قُتلت".

طأطأت رأسها، ومن ثم رفعت نظرها مجدداً.
"لقد استهدفنا بارين مذاك الحين من دون الحصول على أي شيء. لا روزيتا، لا منجم ذهب، لا شيء. فأيّما يكن ما تقوم به تلك الشركة فقد تمكنت من إخفائه".

كان الشرطي لا يزال يفرك معصمه، وتغصّن جبينه في أثناء قيامه بذلك.
"هل تعرفين إن كانت قد اتصلت ببارين وفتحت المسؤولين بأي من هذه الأمور؟".

فهزت كتفيها.
"أشك في ذلك. فهي ما كانت لتواجه أيّا كان حتى تحصل على دليل دامغ".
"هل تعتقدين أن بارين قد قتلته؟".
فسخرت من ذلك؛ من سذاجة السؤال.

"بالطبع هم من قتلوها! إنه نوع الأمور التي يقومون بها. لقد كشفت النقاب عن أمر ما في شأنهم فقاموا بذبحها. هكذا يعملون. إنهم قذرون كالغائط".
"ومع ذلك، لم تتمكني قط من الحصول على أي شيء يُدينهم".
وهزت كتفيها مرة أخرى.

"إنهم أذكاء. ولكننا سوف نتمكن منهم".
وعلى امتداد الدرب، كانت تامار تقترب مُهرولة. يكفي كلاماً، حان الوقت للمغادرة. فوقفت.

"أنت تحاول من دون جدوى"، قالت له. "فأنت لا تملك أي فكرة البتة عن قوة أولئك الأشخاص، وعن مدى... إثارهم للاشمئزاز. لا أمل لشرطي أحرق مثلك، متمسك بالقواعد، ويعمل ضمن القانون، بالإمساك ببارين. فالطريقة الوحيدة للإيقاع بشركة مماثلة - والإيقاع بأي من هذه الشركات - هي استخدام الوسائل القذرة التي تستخدمها. لهذا السبب أنشئت نِمْسِيسُ أجندا لتقوم بما لا يستطيع القانون القيام به".

"إذا، ساعديني"، قال. "زوديني بما تعثرين عليه".

فهزت رأسها.

"لا تجري الأمور بهذه الطريقة أيها الهاوي. ربما تكون الشرطي الأكثر استقامة في العالم، ولكنك لا تزال مجرد سنّ في دولاب الآلة. والآلة تهتم دائماً بأمثال بارين. إن مسؤولي بارين على درجة كبيرة من الأهمية ومتماسكون جداً. أنت تضع وقتك. ولكن، خطأً سعيداً بأي حال".

"على الأقل، أخبريني بما اكتشفته عنهم"، أصرّ محاولاً إبقاء الحديث مستمراً. "كيف تعرفين أنهم قتلوها؟ وماذا تعنين بقولك إنهم مثيرون للاشمئزاز؟".

لوّحت بيدها رافضةً الإجابة. لقد قالت كل ما تريد قوله. وحدّقت به - صورة لعجز مُحبط؛ مع رسغ وكاحل مكبلين بالأغلال، وإبطين متعرقين - ووصلت تامار وعادت الاثنان إلى المجمع. كان فاز يضع المعدات التكنولوجية في سيارة اللاندكروزر الثانية، فيما أنهى غيدي للتوّ زرع الشّحنات المتفجرة. وفي أثناء قيامه وتامار يجمع أغراضهما، تنقلت دينا من مبنى إلى آخر، ساكبةً النفط وضابطةً أجهزة التوقيت. وبعد انتهائهما، قامت بجولة أخيرة في الأرجاء. ومن ثم، فكت سحّاب حقيبتها، وقبّلت أوراق أحد الملفات، وسحبت ورقة. وما إن انتهت من طيّها ووضعها في جيبتها، حتى كانت سيارتا اللاندكروزر قد حُمّلتا وباتوا جاهزين للمغادرة.

انطلق غيدي وفاز على الفور، وتقدّمت وتامار من سيارة الشرطي وتوقفتا. لقد تركتا له زجاجتي ماء وصفيحة فارغة للتبوّل فيها. ورمتا هاتفه المحمول، ومفاتيح سيارته، ومفاتيح الأغلال، داخل صندوق السيارة. ومسحتا كل شيء. بما في ذلك الأغلال، كي لا تتركاً أي بصمات.

"سنمنح أنفسنا ساعتين للابتعاد"، قالت له، "وبعد ذلك، سنتصل بشرطة ميتزبي ونُعلمهم بوجودك هنا".

"هذا لطف كبير منك"، تمت.

"لقد زرعنا متفجرات في كل المباني"، أضافت. "ليست من العيار الثقيل. ولكن لو كنت مكانك لأخفّضت رأسي عند الرابعة من بعد الظهر تحسّباً".
ودمدم شيئاً ما. يبدو أنه تخلّى عن مسألة الوالدة.

"لا تتكبد عناء تتبّع لوحات السيارتين لأننا سنقوم بتبديلها. ولا تتكبد عناء تتبّعنا. نحن شديدو الذكاء ولن تتمكن من ذلك".

أوماً بإصبع يده غير المقيّدة، مما حملها على الابتسام. مدّت يدها إلى جيّتها، وأخرجت الورقة المطوية ورمتها في حضنه.

"هذه كل المساعدة التي ستلقاها منا. إنها قائمة بشركات بارين التي لديها صلات في مصر. ربما يكون هناك أمر ما، وربما لا. أنت تحرّ، اكتشف الأمر".

واستدارت نحو اللاندكروزر، فنادى.

"ما الذي يجري بينك وبين بارين؟ ما سبب هذا الحقد؟".

فأبطأت. كيف يمكنها أن تخبره؟ كيف يمكنها أن تخبر أي شخص؟ حتى إن طاقمها لا يعرف الحقيقة. من الأفضل الاحتفاظ بسريّة بعض الحوافر، وببعض الهويّات أيضاً. إنها مهمّتها، وهذا كل ما يهمّها، ولا حاجة للشرح.

"لقد ألحقوا الأذى بشخص مقرب مني"، تمنت بصوت منخفض جداً ولم يتمكن من سماعها. ونادى مجدداً، وكرر السؤال، ولكنها تجاهلته. وبعد أن ألقّت نظرة أخيرة على المجمّع، دخلت اللاندكروزر، وأغلقت الباب. ثم أومات برأسها لتامار، فانطلقتا بأقصى سرعة وسط سحابة من الغبار.

* * *

في النهاية، كان أفضل جزء من الساعات الأربع عندما وصلت سيارة من مitezبي رامون أخيراً لإطلاق سراح بن - روي في أثناء هبوط الشمس وراء الأفق، وبعد تحوّل مجموعة المباني إلى أكوام من الرُكام يتصاعد منها الدخان، وكان في أسوأ حالة من المزاج السيئ.

"أحتاج إلى هاتف"، قال بغضب في أثناء خروجه من التويوتا بمزيد من الجهد، عارِجاً على كاحله المتورّم. "هاتف يعمل هنا في الواقع".

"في سيارتنا"، قالت إحدى الفتيات اللواتي يرتدين البزّات النظامية، وهي فتاة جذّابة داكنة البشرة لديها قِوام عارضة أزياء، مما جعل الأمر برمتّه أكثر إذلالاً بالنسبة إليه.

"اذهبوا إلى هناك علّكم تستطيعون العثور على شيء ما"، قال ملوّحاً لهم في اتجاه أنقاض المباني. كان يريد القليل من الخصوصية أكثر من توقُّعه عثورهم على شيء ما. "وأزِيلُوا ابتسامة الرضى عن النفس تلك عن وجوهكم!".

ونظر إلى الفتاة بوجه متحهم، ومن ثم عَرَجَ في اتجاه سيارة الدورية، والتقط هاتف السيارة بعصبية مزاج، وأجرى اتصالاً سريعاً بسارة في بادئ الأمر للاطمئنان عليها. لقد بدت مسرورة بسماع صوته، وسألته إن كان يريد القدوم ليحتمعا وحدهما حول مائدة العشاء في الليلة التالية. لو تلقى العرض في ظروف أخرى لكان مسروراً بالتأكيد. فهي لم تطه له العشاء منذ انفصالهما، ولكن في الوقت الراهن كان ضوء الشموع الرومنسي آخر ما يفكر فيه. فقال إنه يودّ القدوم، ولكن بصوت أقل حماسة مما حاول أن يجعله يبدو. وكان الاتصال الثاني بدوف زيسكي.

"أين كنتَ بحق الجحيم؟". سأل زيسكي. "كنت أحاول الاتصال بك بعد الظهر".

"موثقاً"، قال بن - روي باقتضاب جاف. "هل تحدّثتَ إلى بارين؟".
لقد فعل، وحُدّد موعدٌ للقاء في وقت لاحق من ذلك المساء؛ عند التاسعة ليلاً لتمكين أشخاص عاليي الرُتب في هيوستن من المشاركة في الاجتماع.
"ولكن، إذا كنتَ لا تزال في ميتزبي فلن تتمكن أبداً...".
"سأكون هناك"، قاطعه بن - روي مُلقياً نظرة سريعة على ساعته. "هل توصلت إلى أي شيء عن بروسبكتو؟".

ليس الكثير. فالشركة تابعة لبارين، وتأسست في أواخر التسعينيات بهدف استطلاع فرص ممكنة لاستخراج الذهب في مصر. لقد تمّت تصفيتهَا بعد عامين فقط. وكان وليام بارين المدير التنفيذي الأول، وهذا أمر مثير للاهتمام.
كان بن - روي يصغي، ومن ثم طلب من زيسكي التوجه إلى شقة ريفكا كلينبرغ.

"كنت على وشك مغادرة المكتب في الواقع"، قال زيسكي. "سألتقي...".
"ألغ الموعد واذهب إلى هناك"، زجر بن - روي؛ إذ لم يكن في مزاج مناسب ليلعب دور السيد متفهم. "هناك صورة فوتوغرافية في غرفة النوم لفتاة. أعتقد أنها

لابنة كلينبرغ التي تطلق على نفسها حالياً اسم دينا لفي وإليزابيت تيل. أنا بحاجة إليك لاكتشاف كل ما يمكنك اكتشافه عنها، وألق نظرة على الصورة الأخرى أيضاً، تلك التي تظهر فيها كلينبرغ في أثناء الخدمة العسكرية الإلزامية. كان يُفترض بنا القيام بذلك قبل عشرة أيام".

كان يقصد كان يُفترض بي القيام بكل ذلك. لقد جُنَّ الرجل لأنه لم يكن دقيقاً وحريصاً كما يُفترض به أن يكون. وكان مزاجه سيئاً لأنه كُبل بالأغلال في السيارة طوال الساعات الأربع الأخيرة، وتبوّل في صفيحة لنقل البنزين.

طلب من زيسكي تدوين تفاصيل عن الاجتماع والاتصال به، ثم نادى عنصريّن من ذوي البزّات النظامية، وزودهما بأرقام لوحات سيارتي اللاندكروزر وأوصاف مالكيهما الأربعة، وطلب منهما تعميم أرقام اللوحات. إن الأمر تضییع للوقت بالتأكيد، ولكن عليه القيام بعمله كما ينبغي. وبعد ذلك، عاد إلى التويوتا بخطى ثقيلة، وأدار المحرك، وانطلق بأقصى سرعة وسط سحابة من الغبار والحصى. وبعد أن اجتاز مسافة مئتي متر، توقف فجأة، وفتح باب الركاب، ورمى صحيفة البنزين.

الأقصر

"ألم ترَ أي شيء غير عادي هناك؟ ألم ترَ مباني، آلات، شاحنات...؟". وتردد صدى صوت رجل عبر الخط، مُعلماً خليفة بأنه لم يرَ شيئاً خارج المؤلف. الصخور فقط، الرمال ومزيد من الصخور؛ إنه تماماً ما تتوقع أن تجده وسط الصحراء.

"ولكن، من الإنصاف القول إن المنظر الطبيعي شديد التلوّي وجبلي".
"والناس؟".

"لا وجود للناس أبداً. لا حيوانات من أي نوع باستثناء الوعول من حين لآخر، وأرنب برّي صحراوي. كانت المنطقة نائية جداً لدرجة أن البدوي لا يستطيع الذهاب إلى هناك".

"هل سمعتَ أي شيء غير عادي؟".

"مثل ماذا؟".

"لا أعلم. هل سمعت أصوات استخراج معادن، أو حفر، وثقب، وطرق بالمطارق؟".

"لا يمكنني القول إنني سمعت مثل هذه الأصوات".

"هل أنت متأكد؟".

"متأكد".

شكر خليفة الرجل على وقته متنهّداً، وأنهى المكالمة، ثم توجّه إلى النافذة، وكانت سيجارة كليوباترا متدلّية من زاوية فمه على نحو مُحبط. فالرجل يدير شركة صغيرة لتنظيم رحلات سياحية في الصحراء، ومركزها الغردقة، وهي إحدى المؤسسات القليلة التي تغامر بالوصول إلى أي مكان قريب من الصعيد الأوسط في الصحراء الشرقية. لقد تحدّث خلال النهار إلى كل تلك المؤسسات، ويبدو أن أحداً لم يرَ أو يسمع شيئاً يوحي بوجود عمليات ناشطة لاستخراج الذهب. وحصل على النتيجة نفسها من المؤسسات التي تسيّر رحلات عبر الصحراء من الأقصر إلى الغردقة وميناء سفاجا، ومن المؤسسات التي تسيّر رحلات على متن مناطيد وتصطحب سياحاً لمشاهدة شروق الشمس فوق جبال البحر الأحمر. ولم تُضف وزارة النفط والموارد المعدنية أي شيء على ما سبق أن تم إخباره به؛ كان لا يزال ينتظر اتصالاً من عائلة الرئيسولي، علماً أنه لم يعلّق آمالاً كبيرة على ما سيقولانه؛ فلو سبق لهما أن رأيا أي شيء غير طبيعي لذكرا الأمر في أثناء الحديث الذي أجراه معهما في الليلة السابقة.

ولكن، هناك إلماعتان محتملتان جديرتان بالبحث. فأحدى مؤسسات تنظيم الرحلات السياحية أبلغته بأنها صادفت آثار إطارات كبيرة في أحد الوديان النائية في جبل الشّلول. هذا الأمر يجد ذاته لا يُنبئه بالكثير؛ ففي الهدوء الثابت للصحراء حيث لا شيء يتحرك ويتغيّر، قد تعود هذه الآثار إلى عقود مضت. ولكن، نظراً إلى وجود احتمال بسيط، تحدّث إلى الفريق في جامعة حلوان الذي يقوم بمسح جويّ للشقوق الناقلة للماء. فبالرغم من عدم رؤية أعضاء الفريق أي شيء يوحي بوجود أعمال استخراج للذهب، إلّا أن أحد قباطنتهم رأى ما بدا أنه قافلة شاحنات تتحرك غرباً عبر القفر بين الصعيد الأوسط ووادي النيل. لم يتمكن

القبطان من معرفة المكان الذي كانت قادمة منه أو ذاك الذي تذهب إليه، ولكن كان هناك الكثير من الشاحنات؛ عشرون شاحنة على الأقل، وربما أكثر. أهـي معلومة مفيدة؟ أم غير مفيدة؟ لم يكن خليفة يملك أي فكرة. ولكن، هناك أمر أكيد واحد. إذا عثرت بارين على المتاهة وشرعت بالعمل فيها مجدداً، فإنها تحافظ على سرية العملية برمتها بطريقة عجائبية.

وأطلق تنهيدة أخرى متسائلاً عن سبب ترك هذه القضية تستحوذ عليه؛ فالقضية ليست قضيتـه. ومن ثم، وبعد أن سحب آخر حجة من سيجارته، أسند ذراعيه على زجاج النافذة وحدّق نحو الخارج. فعلى بُعد خمسمئة متر من منبسط يحتوي على شجيرات وقمامة مبعثرة، كان باستطاعته رؤية المجمع السكني حيث توجد شقته: رثة، بيضاء، مغطاة جزئياً بأشجار كوزارينا مغيرة، وتتلاشى وراءها تدريجياً الأطراف الشرقية للمدينة داخل حقول تُفسح المجال لعدمية الصحراء بلونها الأغبر الداكن. كانت طائرة نفّاثة قد أقلعت للتو من مطار الأقصر وتتحه جنوباً بانحدار شديد في اتجاه أسوان كما هو مفترض، أو ربما أبو سيمبل. وفي اتجاه الشرق، بدت الجبال المقفرة التي تكاد لا تُرى كضباب بني مرتفع في الهواء. وفي مكان ما تحت تلك الجبال...

"أين أنت؟". قال بصوت مرتفع. "أين أنت بحق الجحيم؟".

"أنا واقف وراءك تماماً!".

فاستدار. كان محمد ساريا يقف عند المدخل حاملاً طبقة ورقياً مع شريحتي بصبوسة عليه.

"لماذا تعمل حتى وقت متأخر؟" سأل.

"أتابع أمراً ما فحسب"، قال خليفة. "كنت على وشك المغادرة".

"حسناً، قبل أن تقوم بذلك، يمكنك مساعدتي في تناول هاتين الشريحتين".

ورفع ساريا شريحتي البصبوسة، فاعترض خليفة قائلاً إنه ليس جائعاً، ولكن مساعده أصرّ.

"ستنقذي من نفسي"، وضحك. "أصبحت سميناً جداً".

فلان خليفة، وجلس الاثنان.

"مع من كنت تتحدث؟". سأل ساريا مسلماً إياه إحدى الشريحتين، وقاضماً

الشريحة الأخرى.

"هم؟".

"أين أنت بحق الجحيم؟".

"آه! صحيح، إنها قصة طويلة".

"كتلك التي لا تريد أن تخبرني عنها؟".

"كتلك التي لا تبدو فيها المكائد مفهومة جداً"، أجاب خليفة، متناولاً قسمة من إحدى زوايا فطيرته. وللحظات، عاد بالذاكرة إلى الماضي البعيد عندما تناول وعلي البصوصة في مطعم غروبيز في القاهرة. لقد أصرّ علي على تناول شريحة ثانية، ولم يكد يتناول نصفها حتى هرع إلى الحمام بسبب شعوره برغبة شديدة في التقيؤ. لقد بقي خليفة مع الذكرى للحظات، متعلقاً بها وشاعراً بالحُنو، ولكنه تخلى عنها بعد ذلك، وأخبر ساريا بما اكتشفه في الساعات الأربع والعشرين الأخيرة ملخصاً المعلومات الأساسية فقط: المنجم، الآبار المسمّمة، نتائج تحليل المياه. ولم يذكر بن - روي أو المرأة كلينبرغ، علماً أن ساريا من الأشخاص الأكثر نُضحاً في الشرطة، ولكن وجهه سيتجههم بسبب فكرة القيام بعمل تهديدي لصالح الإسرائيليين.

"هل أطلعت عائلة عطية على هذا الأمر؟". سأل عندما أنهى خليفة حديثه.

"ليس بعد. كنت أمل توضيح المزيد من التفاصيل أولاً".

"هل تريد مني أن أقصدهم؟ أنا في إجازة غداً، ويُفترض بنا إبلاغهم ربما وإراحة بالهم بأنه ليس عملاً مناهضاً للمسيحيين بالرغم من كل شيء".
"هل تمانع؟".

"إن هذا من دواعي سروري. أيُّ عُذر لعدم قضاء فترة الصباح مع والدّة زوجتي مرحّب به. لقد أخبرتني قصة مُمِلّة جداً في ذلك اليوم لدرجة أنني كدتُ أفارق الحياة".

فابتسم خليفة.

"هل تريد مني أن أذهب إلى بير هاشفا أيضاً؟". سأل ساريا.

"دع هذا الأمر في الوقت الحاضر. لا أريد التسبب بالدُعر للناس. دعني أحاول تتبّع أثر المنجم أولاً، ومن ثم يمكننا الذهاب والتحدث إليهم عندما نكون قد حصلنا على وقائع ملموسة".

فأوماً ساريا برأسه، وتناول قُضمة كبيرة أخرى من فطيرته، ثم ساد الصمت، وبعد ذلك:

"بالمناسبة، لقد عثرتُ على تلك العائلة".

لم يعرف خليفة عن أي عائلة يتحدث. مساعده.

"كما تعلم، تلك التي كانت تقيم في القرنة القديمة. عائلة البدرى".

بالتأكيد، عائلة الفتاة التي اغتصبها بينسكر. كان قد طلب من ساريا الاستقصاء عن أفراد العائلة، غير أن الأمر لم يُعد يبدو هاماً بصفة خاصة بعد أن اكتشف أمر منجم الذهب.

"وماذا بعد؟". سأل بدافع التهذيب أكثر من كونه بدافع الاهتمام؛ إذ لم يرغب في أن يشعر ساريا بأن وقته ذهب هباءً.

"ليس هناك الكثير"، أجاب الرقيب ساريا بغم مليء بالطعام. "كما قلت، لقد انتقل معظمهم إلى الطريف عندما تمَّ جَرَفُ القرنة القديمة. وكانت الشقيقة قد غادرت أيضاً".

"الشقيقة؟".

"تلك التي ذكرتها. إنها تُقيم في قرية قرب إِدْفُو منذ ثلاثين عاماً. أو أكثر". ارتبك خليفة.

"ثلاثة أشقاء وشقيقة"، ذكره ساريا بلهجة والد يشرح أمراً ما لفى كثير النسيان. "الأشقاء مدفونون منذ زمن، ولكن شقيقتهم تعيش قرب إِدْفُو".

"إيمان البدرى؟".

"بالتحديد".

فهز خليفة رأسه.

"أعتقد أن هناك تشابهاً في الأسماء يا محمد. إيمان البدرى توفيت منذ سنوات. لا بد أن تكون من تتحدث عنها امرأة أخرى".

"ليس هذا ما قيل لي"، قال ساريا. "كان هناك ثلاثة أشقاء: محمد، وسعيد، وشقيق آخر لا أستطيع تذكر اسمه. أحمد كما أعتقد. والشقيقة إيمان، وهي تُقيم خارج إِدْفُو تماماً. إنها امرأة متديّنة كما يبدو، وتقضي وقتها في استمطار البركات على الوالدات الحوامل".

وهمّ خليفة بالاعتراض، قائلاً لساريا إنه لا بد من أن يكون مخطئاً، ولكنه لزم الصمت بعد ذلك. وبعد أن فكر في الأمر، أدرك أنه لم يُخبره أحد بأن المرأة التي اغتصبها بينسكر متوفاة.

"ولكن الأمر غير معقول!"، تتمم. "لا بد أنها تخطت المئة".

"في الواقع، عمرها مئة بالتحديد، ولا تزال قوية".

انتقل خليفة من حالة عدم الاهتمام كلياً إلى حالة الاكتراث التام والفجائي.

"هل أنت واثق من ذلك؟".

فرمقه ساريا بنظرة محدّرة.

"هل تعرف اسم القرية؟".

ممتصّاً العسل عن أطراف أصابعه، التقط ساريا قلمماً وكتب على ورقة.

وتفحص خليفة الورقة، ومن ثم طواها ووضعها في جيبه.

"هل قلت إنها تقيم قرب إدفو؟".

"على بُعد خمسة كيلومترات إلى الشمال".

نظر خليفة إلى ساعته مُحْتَسِباً الوقت. وبعد ذلك، ربّت على كتف ساريا، ثم

وقف وتوجّه إلى الدرج، داساً ما تبقى من شريحة البصبوصة في فمه. فإدفو على

بُعد ساعة من الزمن بالسيارة، ويبدو أنه العشاء الوحيد الذي سيتناوله.

إسرائيل

في وقت مبكر من ذلك اليوم، كان بن - روي قد انطلق بسرعة فُصوى في رحلته من القدس إلى ميتزبي رامون.

وفي طريق العودة، قاد بسرعة أكبر، مجتازاً المسافة بفارق عشرين دقيقة أقل مما تطلّبت رحلة الذهاب، وصفارة الإنذار محتدّمة غضباً طوال الطريق؛ عاكسة مزاجه.

وفي أثناء القيادة، أعاد أحداث فترة بعد الظهر في ذهنه مراراً وتكراراً، محاولاً

ربطها بإطار القضية التي يقوم بجمع أجزائها.

إذ إن كَوْن المرأة المنتمية إلى نمسيس ابنة كلينبرغ، قد شرح أموراً قليلة.

ولكن هذا الواقع طرح مجموعة معقّدة من الأسئلة، ومنها على الأقل سبب رغبة

كلينبرغ بالاحتفاظ بسرّية وجود ابنة لها؛ علماً أن محررها لم يقل أي شيء عن تشدّدها في الإبقاء على سرّية حياتها!

مع القليل من الحظ، سيتمكن زيسكي من استنباط بعض الأجوبة. كان اهتمام بن - روي المباشر منصباً على ما قالت له دينا عن شركة بارين، ولا سيما إصرارها على أن من قتل كلينبرغ شخص يعمل لصالح بارين.

لم يتفاجأ بالفكرة. فكما يبدو، يظهر اسم بارين في القضية منذ البداية. ولكن ما فاجأه هو اقتناعها التام بهوية مرتكب الجريمة. فبالنسبة إلى دينا لفي - إليزابيث تيل - أو أيّاً يكن اسمها الحقيقي، بارين مُذنبه بدون شك.

كيف يمكنها أن تكون أكيدة إلى هذه الدرجة؟ هل تحتفظ بشيء ما لنفسها، ولا تخبره القصة الكاملة؟ هل اكتشفت نِمسيس أحداً دليلاً حاسماً من نوع ما؟ ولكن، في هذه الحالة، لماذا لا تكشف عنه؛ إن لم يكن له فمّن خلال موقع نِمسيس على الإنترنت. فنظراً إلى طبيعة علاقتهم مع بارين، يُتوقع منهم الإعلان عن أي أمر، وإن لم يكن مُدينًا إلى حد كبير، لحظة اكتشافه.

لا، لقد اعتبر أنها تقول الحقيقة. وفي ما يتعلق بالدليل، كانوا خاوي الوفاض على غرارهِ. لذلك، يبقى السؤال: كيف يمكنها أن تكون على هذه الدرجة من اليقين بأن بارين مسؤولة عن مقتل أمها؟ هل كرهها للشركة - أيّاً يكن سببه - هو السبب في عدم تمكّنها من تصوّرها غير مُذنبه؟ هل تمارس لعبة مُتقنة من نوع ما معه، مرسلّة إياه في اتجاهات خاطئة لأسباب تعرفها وحدها دون سواها؟

أم إنها تعرف أمراً آخر عن بارين؛ أمراً قبيحاً جداً، وسيئاً جداً، ومثيراً للاشمئزاز؛ هذه هي العبارة التي استخدمتها لوصفها، ونتيجة لذلك جاء تأكيدها على كون بارين مسؤولة عن مقتل كلينبرغ؛ مما يطرح مرة أخرى مسألة سبب عدم قيام نِمسيس بالكشف عن ذلك للملأ، إذا كان هناك ما تعرفه.

لم يبدُ الأمر منطقياً. لقد أمضى أربع ساعات موثقاً بالأغلال بمقود سيارته، ومتبوّلاً في صحيفة لنقل البنزين، ومع ذلك إنه لا يزال بعيداً عن معرفة ما يجري. ولكن هناك أمراً واحداً واضحاً على الأقل؛ أيّاً تكن دينا لفي، فهناك مسألة شخصية بينها وبين بارين، أمر ما يتخطى مجرد كرهه مناهضة للرأسمالية لشركة ضخمة متعددة الجنسيات. لقد رأى ذلك في عينيها، وفي لغة جسدها، وفي طريقة

انشداد وجهها كلما ذكر اسم بارين كما لو أن هناك مَنْ يغرس برغياً عميقاً داخل جمجمتها.

بالنسبة إلى ابنة ريفكا كلينبرغ - إذا كانت كذلك بالفعل - فشركة بارين هي الشر عينه.

وها هو الآن يُسرع في العودة إلى القدس للقاء الشر. فكما قال لزيسكي قبل انطلاقه في الصباح: إنه الوقت المناسب لهما ليكتشفا ما لدى هؤلاء الأشخاص ليقولوه عن أنفسهم.

كان ممثلو بارين قد طلبوا إجراء المقابلة في فندق الملك داوود، وهو الفندق الأرفع مستوى والأكثر شهرة في القدس. وللشركة جناح هناك كما يبدو، تستخدمه كمكتب إعلامي في القدس، ويحتوي على أجهزة تمكّنهم من التواصل مع مقر قيادة الشركة في هيوستن. فالمقابلات التي تتناول التحقيق في شأن جريمة قتل تُجرى في مركز الشركة عادةً، ولكن بن - روي عمل وفقاً لرغبة الشركة. ففي النهاية، يبقى الحديث حديثاً أينما جرى، وما داموا يُجيبون عن أسئلته فهو مستعدّ للقائهم أينما كان؛ حتى لو كان اللقاء في حمام عام.

لقد وصل قبل دقيقتين. ففي العام 1946، كان قسم كبير من الجناح الجنوبي للفندق قد دُمّر بمتفجرة زرعتها منظمة إيرغون؛ أكبر عمل إرهابي أحادي في تاريخ المنطقة. ولا يمكنكم أن تعرفوه اليوم. فالمكان يسوده الهدوء التام، وديكوره المُسرف وأثاثه الفخم ينقلانكم بعيداً عن العالم الحقيقي. لقد سبق لبن - روي أن زار الفندق مرات قليلة على مرّ السنين من دون أن يشعر بالاطمئنان، وكان هذا الشعور أقل هذه الليلة نظراً إلى سبب زيارته. عبر الرّدهة المكسوة بالسجاد من دون إلقاء نظرة إلى المحيط، واستقلّ مصعداً إلى الطابق الرابع، متشاطراً إياه مع ثنائيّ أكبر سنّاً قادمين من إنكلترا للمشاركة في حفل يُقام خصيصاً لحفيدهما.

كان جناح بارين موجوداً في الناحية الخلفية للمبنى، في آخر ممرّ طويل خافت الإضاءة. توقف بن - روي للحظات في الخارج، مسيطراً على نفسه، ومراجعاً

بسرعة خطة الهجوم لديه، ومن ثم قرع الباب ففتح على الفور، وتمت مرافقته إلى الداخل.

كان الجناح مؤلفاً من طابقين؛ ومكوناً من غرفة انتظار ضخمة، وسلم يؤدي إلى غرفة النوم، وتُشرف النوافذ الموجودة فيه على مناظر رائعة في الشرق عبر وادي هينوم، ووصولاً إلى جبل صهيون والخليط المغمور بالأضواء في المدينة القديمة. كان هناك خمسة أشخاص ينتظرونه في الداخل، وقد فاجأه العدد المبالغ فيه؛ رجلان يرتديان بذلتين - لا بد أنهما مديراً بارين التنفيذيان - ورجل وامرأة جالسان بجانب بعضهما على أريكة، وعرف على الفور من ملامحهما الصارمة ونظراتهما المحذقة الجافية أنهما مستشاران قانونيان.

إنهم الشخصيات الثانوية الداعمة، والشخص الخامس هو من لفت انتباه بن - روي على الفور، فمن الواضح أنه المسؤول الكلّي، وحضوره يهيمن على الأجواء؛ حتى وإن لم يكن حاضراً جسدياً. كان وجهه يلوح على شاشة تلفاز عملاقة في الطرف الأبعد للجناح؛ إنه مُلتح، ومتورّم، وأشيب، إنه ناتانيل بارين. "لقد تأخرت يا سيدي".

كان الصوت الذي سمعه عبارة عن زجاجة جشّاء، من نوع الأصوات التي يمكنكم أن تتخيلوها تصدر عن الوجوه في جبل ريشمور. "لا يُعجبني اضطرابنا للانتظار. كان من المفترض بنا الشروع بالمقابلة عند الواحدة بتوقيت هيوستن".

إنها الواحدة ودقيقتان، ولا يُعتبر هذا تأخيراً كبيراً، ولكن بن - روي اعتذر بالرغم من ذلك، غير راغب في المواجهة ولم تكن المقابلة قد بدأت بعد. هناك الكثير من الوقت لذلك في ما بعد. رَمَقَ الرجل من الشاشة؛ إنه اختبار مُربك كمن تتم مراقبته من قِبل شخص مميّز في برنامج تلفزيوني. ومن ثم، أوماً للتحريّ للجلوس. "عندما قلتُ إنني أريد التحدث إلى شخص ما في الإدارة العليا، لم أتوقع حضور رئيس الشركة"، قال بن - روي في أثناء جلوسه على الكرسي الشاغر الوحيد.

وعلى بُعد أحد عشر ألف كيلومتر، تراجعت كتفا ناتانيل بارين قليلاً إلى الوراء، وتغصّنت سترة التويد تحت إبطيه.

"عندما أبلغتُ بإمكانية جرِّ سُمعة شركة بارين النظيفة إلى استفسار جنائي"، زجر، "لم أرغب في تفويض شخص آخر للاهتمام بالأمر. ربما أتقاعس قليلاً عن تسيير الشؤون اليومية للشركة، ولكنها لا تزال شركتي وسُمعة عائلتي. أتمنى أن تتفهّم ما أقوله، يا سيد...؟".

"بن - روي"، قاطع أحد المديرين التنفيذيين.
"كبير التحرين بن - روي"، قال بن - روي. "وأجل، باستطاعتي تفهّم الأمر".

"أنا سعيد لأن أحدنا يفهم الآخر".

من الواضح أن التكنولوجيا المعتمدة متطورة جداً لأنه لم يكن هناك أي تأخر زمني - ولو بمقدار ضئيل - في صوت الرجل بالرغم من المسافات، وصورته شديدة الوضوح لدرجة أنه باستطاعتكم رؤية البقع البنية المائلة للحُمرة على يديه الضخمتين. ولاحظ بن - روي أن اليد اليسرى تُمسك قناع أكسجين بلاستيكيّاً.
"هل تريد مُرطبات، يا سيد بن - روي؟".

فقال بن - روي إنه بخير.

"في هذه الحالة، أقترح أن نتطرق إلى الموضوع مباشرةً. اطرح الأسئلة التي تحتاج إلى طرحها".

كانت أصابع اليد اليمنى لبارين تقرع على سطح الطاولة التي يجلس إليها بإيقاع بطيء. وبالرغم من أن التوقيت في هيوستن يشير إلى أنهم لا يزالون في وقت مبكر من فترة بعد الظهر، فقد بدت الغرفة حوله - مكتب أو مكتبة - غارقة في الظلام. كان باستطاعة بن - روي الشعور بوطأة المكان حتى لدى رؤيته من خلال شاشة تلفاز. فرك رِسه الذي كان لا يزال يؤلمه بسبب الأغلال، وقلّب صفحات دفتر مدوّناته وصولاً إلى صفحة بيضاء، ودخل صلب الموضوع.

"قبل اثني عشر يوماً، قُلت في القدس صحافية تدعى ريفكا كلينبرغ"، استهلّ كلامه. "في دار العبادة الأرمنية الكبرى. لقد خُنت".

لم يؤدّ الإعلان إلى أي رد فعل مرئي من قبل بارين. كان لا يزال يقرع بأصابعه على الطاولة ويحدّق بين - روي بعينين مرتشحتين ثاقبتين النظرات. وكان الآخرون يحدّقون به أيضاً؛ خمسة أزواج من العيون تشق طريقها نحوه من كل

الاتجاهات. ليس الأمر مهتداً بالتحديد، ولكنه ليس مُربحاً. يتعين عليه القيام بمهمته بحرص شديد.

"هل صودف أنك عرفت بحصول اتصال بين السيدة كلينبرغ وشركتك مؤخراً؟" سأل.

على الشاشة، مالت عينا بارين في اتجاه المديرين التنفيذيين اللذين هزا رأسيهما.

"من الواضح أنك تعتقد بوجود سبب للاتصال"، قال بارين بصوت أجش.
"في أثناء استقصاءاتنا، تبين أن السيدة كلينبرغ كانت تُجري بحثاً عن شركة بارين قبل وقت قصير من وفاتها"، شرح بن - روي.

فسأل أحد المحامين عن نوع البحث، وأخبرهم بن - روي عن المقالة التي تتناول منجم الذهب.

"كما كانت أيضاً تُجري بحثاً عن رجل يدعى سامويل بينسكر. ففي العام 1931، يبدو أن سامويل بينسكر هذا قد اكتشف مكان منجم ذهب مصري قديم فقدت آثاره منذ زمن بعيد ويُعرف بمناهة أوزيريس".

وكانت المحامية حسيقة، وسألت بن - روي عن علاقة هذا الأمر بشركة بارين، فأسكتها ناتانيل بارين بحركة بيده. إنما الإيماءة نفسها تقريباً التي استخدمها غينادي كريمينكو لإسكات محاميته. رجلان اعتادا أن يُطاعا من دون طرح أي سؤال.

"تابع، يا سيد بن - روي"، زجر.

بدل بن - روي طريقة جلوسه على مقعده وتابع:

"يبدو أن منجم الذهب هذا كان موجوداً في مكان ما وسط الصحراء الشرقية في مصر. ومنذ مدة غير بعيدة، أجرت شركة تابعة لبارين تدعى بروسبكتو إدجيت مسحاً في تلك المنطقة بالتحديد".

وتدخل المحامي الآخر سائلاً عن علاقة هذا الأمر بالاستعلام عن جريمة قتل تمت في القدس. ومرة أخرى، لوّح له بارين بيده ليلزم الهدوء.

"هل يمكنك أن تخبرني القليل عن بروسبكتو؟" سأل بن - روي.
"ميكى".

وأوماً بارين لأحد المديرين التنفيذيين المرتدين ثياباً رسمية، وهو شاب مكر ذو عذارين مخلوقين بشكل مرتّب، ويضع في معصمه ساعة. "كانت شركة تابعة صغيرة"، شرح الرجل بصوت منمّق ودقيق على غرار مظهره. "أشرفت على ترخيص لمدة عامين للقيام بأعمال استكشاف في جبال البحر الأحمر. وعندما سقط الترخيص بمرور الوقت، حُلّت الشركة". تماماً كما أخبر زيسكي بن - روي في وقت سابق. "هل تمّت إدارتها ككيان منفصل؟" سأل. "لا"، أجاب الرجل، "لقد تمّت إدارتها من هيوستن مباشرةً، مع مكتب فرعي في القاهرة".

"هل عثرت على أي شيء؟". "كميات محدودة من رواسب الزمرد، من نوعية رديئة جداً لا تسمح بعمليات استخراج، إضافةً إلى طبقتين من الفوسفات غير جديرتين بمزيد من عمليات الاستخراج، والكثير من الرمال والصخور". "ألم تعثر على الذهب؟". "لا متاهات أيضاً"، قال المدير التنفيذي الآخر بطريقة ساخرة، متسبباً بموجة من الضحك. وابتسم بن - روي، ومن ثمّ غير الحديث.

"أفهم أن استخراج الذهب يُنتج كمية هائلة من النفايات السامة". مرةً أخرى، همّ المحاميان بالكلام، ومرةً أخرى لوّح لهما بارين بالالتزام الهدوء، مما جعل بن - روي يتساءل عن سبب تكبّده عناء إحضارهما إلى الاجتماع. رافعاً قناع الأكسجين، أخذ الرجل المُسنّ مجموعة من الأنفاس العميقة من دون أن يرفع نظره عن التحري. وبعد ذلك، أنزل القناع وأسند ظهره.

"عليّ أن أعترف يا سيد بن - روي"، وأزّ في أثناء تنفّسه، "بأنه ليس من الواضح - بالنسبة إليّ وبالنسبة إلى زملائي على حدّ سواء - كيف أن فهماً للأمور التكنولوجية المعقّدة المرتبطة باستخراج الذهب سيساعدك على تقديم القاتل للعدالة. ولكن، استناداً إلى هذا الفهم الذي سيساعدك، واستناداً إلى علاقاتنا الممتازة والدائمة مع دولة إسرائيل، يُسعدني أن أضع بتصرفك ما كوّنته من خبرة في هذه الصناعة طوال خمسين عاماً".

لم يكن يبدو سعيداً بصفة خاصة، ولكن بن - روي لم يشأ التعليق على الأمر.

"إذاً، إجابةً عن سؤالك، أجل، تنجم عن استخراج الذهب كميات كبيرة من الطّفح السام. لقد تحسّنت المعالجات على مرّ السنين، ولكنه يبقى عملاً قذراً أيضاً تكن الطريقة المتّبعة. لقد كان كذلك على الدوام، وهكذا سيبقى. فعلى غرار كل الأشياء الجميلة، للذهب عيوبه".

"هل الزّرنِيخ جزء من العيوب؟".

وراقب بارين عن كثب في أثناء قوله ذلك، باحثاً عن أي رد فعل ملمسوس. ولكن، لم يكن هناك أي شيء كالسابق.

"إنه أمر ممكن"، أجاب الرجل المُسنّ. "السيانيد هو الناتج الرئيس من عملية استخراج الذهب. ولكن، إذا تمّ استخراج الذهب من بيريت الزّرنِيخ، فأجل، ستحصل على كمية كبيرة من راسب الزّرنِيخ الذي يصبح على المدى البعيد أكثر ضرراً؛ لأن تحلّل الزّرنِيخ أبطأ من تحلّل السيانيد. هل تمنع قيامي بالتطرق إلى المزيد من التفاصيل؟".

كان هناك أمر ما في لهجته حثّ بن - روي على التجرؤ وقول أجل. ولكنه لم يفعل، غير راغب في الانجرار إلى محاضرة في الكيمياء. فبعد أحداث اليوم، شعر بالتعب يمتدّ إلى عقله ولم يشأ إلهامه بمزيد من المعلومات. وغير الحديث مرة أخرى.

"وفقاً للمقالة المنشورة في الصحيفة، والتي أشرتُ إليها في السابق، نُقل نفايات منجمك إلى الولايات المتحدة".

وكان هناك صمت لفترة قصيرة في أثناء قيام بارين بالنظر إليه، ومن ثم أجاب:

"صحيح".

"هل هذا الأمر ينطبق على النفايات التي تفرزها كل مناجمك؟".

ونجّمت عن هذا السؤال همهمة رافضة.

"يتم التخلص من البقايا الناجمة عن عمليّاتنا الأخرى في الموقع نفسه؛ وفقاً لقوانين البلد الذي يصادف وجود الموقع فيه بالطبع. لا نواجه مصاعب إلا مع

منجم دراجس لأن الامتياز يشترط نقل النفايات إلى خارج البلد. يمكنني أن أضيف أنه شرط لعين ومرتفع التكاليف لجهة الشحن، والتجميد، وطرير النفايات. ولكن، يمكننا امتصاص التكلفة بسبب وفرة الناتج من فلذات الذهب. أربعون مليون أونصة من الذهب بمعدل تركيز يبلغ 35 غراماً بالطن الواحد. صدّقني يا سيد بن - روي، إنه المعيار الرئيس لاستخراج الذهب".

"وبالطبع، يُسعدنا في شركة بارين أن نُؤدّي واجبنا في حماية البيئة"، قال المدير التنفيذي الآخر مماًزحاً، وهو رجل أصلع ذو عَيْنَيْنِ متفتحتَيْنِ إلى حد كبير، وبطن مميّز متدلّ فوق سروال بذلته من ماركة آرمانِي. "نحن نتحمّل مسؤولياتنا البيئية بجديّة تامة".

"بجديّة تامة"، كرر بارين، وأوحت لهجته بأنه يقصد العكس تماماً. حرّك بن - روي قدميه، محدّقاً بالرجل المُسنّ، وشاعراً بأنه يُغفل خُدعة ما، ومتراجعاً عن طرح الأسئلة التي ينبغي عليه طرحها. ربما يُفترض به إرجاء المقابلة إلى اليوم التالي ليكون أقل إرهاقاً. ولكنه موجود هنا الآن، ويشك في أن تسنح له الفرصة مرة أخرى، لذلك تابع بإصرار.

"هل لشركتكم أي صلات بميناء روزيتا؟" سأل. "على الشاطئ المصري الشمالي".

وشرع بارين ينقر على الطاولة بإصبعه مجدداً.

"لا عِلْم لي بذلك"، أجاب. "وبما أن لا شيء يحدث في هذه الشركة بدون عِلمي، فالجواب إذاً هو لا".

ابتسم موظفوه.

"ماذا عن رجل يدعى غينادي كريمينكو؟".

"لم أسمع به قط".

"دينا لفي؟".

ساد الصمت للحظات وجيزة عابرة لم يتمكن بن - روي أثناءها من معرفة

ما إذا كانت تعني أي شيء، ومن ثم:

"لم أسمع به قط كذلك".

"إنها امرأة".

وهز بارين كتفيه. فحدّق به بن - روي، محاولاً قراءة ملامح وجهه ومعرفة إن كان يقول الحقيقة أم إن كان شديد البراعة في الكذب. غير أنه لم يتمكن من اتخاذ قرار. وبعد أن صمت لفترة وجيزة، غيّر الموضوع مجدداً كما لو أنه ملاكم يتحرك بخفة وسرعة، محاولاً إحداث فتحة في جدار الخصم.

"لنُعد إلى بروسبكتو قليلاً"، قال. "أستنتج أن الشركة كانت برئاسة ابنك يا سيد بارين".

وظهرت القسوة جزئياً في نظرة الرجل المُسنّ؛ كما لو أنه لم يرحّب بذكر خلفه. إنه رد الفعل الأول منذ بداية المواجهة.

"هل ما زلنا نتابع تحقيقك هنا؟" زجر، وضغط بيده على قناع الأكسجين.

"أم إنه اهتمام عام بطريقة إدارتي لأعمالي؟".

تجاهل بن - روي الملاحظة الجارحة، وأكد له أن لهذا الأمر علاقة وثيقة باستفساره. وحدّق بارين من الشاشة، وبدأ أن رأسه الضخم يرتجف قليلاً كصخرة على وشك السقوط، وبدأ يتمايل. وبعد ذلك، شبك يديه مهمهماً.

"استنتاجك صحيح"، قال محرّكاً إبهامه حول خاتم زفافه الذهبي الرفيع.

"كنا ندرّب وليم آنذاك على الاعتياد على إدارة المؤسسة، وإدارة بروسبكتو كانت جزءاً من تلك العملية".

فتردد بن - روي، مخربشاً على دفتر مدوّناته، ومن ثم قال:

"إنه شخص نابض بالحياة، أقصد ابنك".

لقد تعمّد استفزاز بارين، واستجمع قواه عندما قال ذلك، متوقّعاً ردّاً حاداً. فاقترب المحاميان إلى الأمام ككلبيّ دوبرمان يُشدّان بالرّسن، ولكن بارين لم يُطلقهما، بل جلس صامتاً للحظات، وابتسم بعد ذلك بطريقة غير متوقّعة، وارتسمت ملامح مُقلّقة على امتداد أسفل وجهه كجرح منفتح.

"أنا رجل واضح، يا سيد بن - روي"، زجر. "لذلك، لتكلّم أنت وأنا بوضوح. كما تعلم - وهذا أمر واضح - إن ابني لديه... ماضٍ. وبفضل صحافة إثارة الفضائح، لم تعد المعلومات سرّية. واستناداً إلى ذلك الماضي، أنت تعتقد ربما أن بروسبكتو في أثناء إدارته لها... ماذا؟ أصبحت مخادعة؟ هل اكتشفتُ أمراً أشبه

بكهف علاء الدين، وشرعت باستثماره من وراء ظهورنا، ومن ثم قتلت الصحافية لأنها اكتشفت الأمر؟ هل هذا ما تعنيه؟".

هناك أمران أعنيهما، فكر بن - روي في سرّه، علماً أنه لم يُبح بذلك. "حسناً، أحب الوضوح يا سيدي. فالوضوح لا يترك أي مجال للشك. وأنا أقول بوضوح إن لا شيء يحدث في هذه الشركة - لا شيء - من دون أن أعرفه. وثانياً، لا يمكن العمل في منجم ذهب من دون أن يكتشف الناس أمره؛ حتى ولو كان في أبعد صحراء لعينة على الكوكب. وثالثاً، وهذا هو الأكثر أهمية..."

وانحنى أمام الكاميرا مباشرةً في أثناء قوله ذلك، وملاً وجهه الشاشة. "... سواء أكان ابني صالحاً أم طالحاً، فهو بالتأكيد ليس شخصاً مماثلاً لآل كابون يهاجم كل من يصادف أنه يسير بجانبه خطأً. إنه ضرب من ضروب الخيال، يا سيد بن - روي. وصدقاً، لقد توقعت أداء أفضل من قبل ممثل إحدى أعظم قوات الشرطة في العالم. أرجو أن يكون ذلك قد أوضح وجهة نظري".

فأقر بن - روي بذلك. "حسناً. إذا قمت بإقحام عائلتي في هذا الأمر مجدداً فستنتهي المقابلة، ومهنتك أيضاً إذا اضطررت لذلك. ستيفن".

قال ذلك للشخص الذي ظهر على الشاشة من يسار بارين منحنيّاً. إنه خادم خاص من نوع ما؛ بسبب بذلته النظامية قائمة اللون وسلوكه الممثل. وبقي ظاهراً على الشاشة لمدة طويلة بما يكفي لوضع كوب ماء على الطاولة أمام الرجل المُسنّ، والخروج من المشهد والتواري عن الأنظار. رافعاً الكوب، ارتشف بارين الماء وجبينه متغضّناً نتيجة شعوره بالغضب.

"هل هذا كل شيء؟". تتم وعيناه تبدوان من فوق حافة الكوب كزوج دُبابات زرقاء كبيرة. "أم إن هناك نظريات غير عملية أخرى تريد إتخاها؟".

نظر إليه بن - روي مباشرة رافضاً التهيب. فهناك عناصر أساسية أخرى يرغب في تغطيتها، كعرض أسعار حقل الغاز المصري الذي تسعى بارين للفوز به مثلاً، وقائمة الشركات التي أعطته إياها دينا في وقت سابق. كان باستطاعته الشعور بأنه بات في وقت مستقطع. وبأي حال، إن التعليق الذي تناول إنهاء مهنته

قد أغاظه. لذلك، بدلاً من مواصلة الوَخز على نحو هامشي، لجأ إلى الهجوم المباشر.

"سيد بارين، هل تملك أي فكرة عن سبب اعتقاد نِمْسِيس أجندا أن شركتك قد قتلت ريفكا كلينبرغ؟".

لقد أدى التعليق إلى تقرير فوري وغاضب من قِبَل المحاميين، ولم يعمد مستخدمهما إلى كبح جماحهما. غير أن بن - روي لم يُجب؛ مركزاً انتباهه بشكل ثابت على وجه بارين، ومحللاً تأثيرات كلماته كما يحلل عالم جيولوجيا مؤشرات زلزال ما على أداة قياس قوة الزلازل. لقد غضب الرجل بدون شك، ودفع فكّه السفلي إلى الأمام، وتجمّد فمه في عبوس مهلّـد. وفي الوقت نفسه، كان هناك شيء ما في عينيّه لا ينسجم مع ملامح وجهه، ويصعب تحديده؛ فبالرغم من شدة وضوح صورته على الشاشة، إلّا أن عدم وجوده شخصياً في الواقع جعل تفسير هذه المؤشرات بالغة الصّغر أمراً صعباً بالنسبة إليه. لم يكن ما يراه بن - روي خوفاً بالتأكيد أو شعوراً بالذّنب، بل حذراً مُدركاً من نوع ما كما لو أن التعليق لم يفاجئه على غرار الآخرين المشاركين في المقابلة.

"أوضح وجهة نظرك يا سيدي"، قال بغضب.

"بكل سرور"، قال بن - روي. "في وقت مبكر من هذا اليوم، أمسكت بي ديناً لفي تحت تهديد السلاح. وهي المرأة التي ذكرتها في السابق، ولديّ مبرر للاعتقاد بأنها ابنة ريفكا كلينبرغ، وهي عضو أيضاً في نِمْسِيس أجندا".

لم يقل بارين شيئاً، بل حلق به مع ذلك الفارق المثير للفضول بين وجهه وعينيّه كما لو أن الوجه يشير إلى شيء والعينين تشيران إلى أمر مختلف تماماً. "لقد سمعتَ عن نِمْسِيس أجندا كما أعتقد".

وتغصّن قناع الأكسجين تحت ضغط قبضة الرجل المُسنّ.

"أنت مُحقّ تماماً، لقد سمعتُ عنها. قبل يومين فقط، عاملوا أحد موظفيّ في القاهرة بوحشية. إذا كنتَ تملك وصفاً لهذه المرأة، فأنا آمل بإخلاص أن تكون قد سلّمتها للسلطات المعنية".

"أنا السلطات المعنية"، قال بن - روي. "وأجل، لقد عُمّم الوصف".

فجأة، شعر بأنه مستيقظ تماماً وصافي الذهن.

"قبل أربعة أيام من مقتلها"، تابع، "التقت ريفكا كLINBERG هذه المرأة، وطلبت من نِمْسِيس أجندا التسلل إلى ملفات الكمبيوتر الخاصة بشركتك للبحث عن معلومات حول منجم ذهب في مصر، وعن ميناء روزيتا".

ومنحه ثواني قليلة ليستوعب ما يقوله، ومن ثم:

"تعتقد دينا لِي فِي أن والدتها كانت تكتب مقالة يمكنها إلحاق الضرر بشركة بارين. وتعتقد أيضاً - وهذا اعتقادها الثابت - أن شركة بارين - أو شريكاً ما لها - قد قتلت ريفكا كLINBERG لتحول دون نشر المقالة. لذلك، أكرر سؤال: هل تملك أي فكرة عن سبب اعتقادها هذا".

كان بن - روي قد تعرّض لنظرات قاسية - بوصفه شرطياً إسرائيلياً في القدس، نادراً ما كان يمرّ يوم من دون التعرّض لنظرات قاسية - ولكن تلك النظرات لا تقارَن أبداً بالنظرات المنبثقة من الشاشة، والتي حملت المحاميين على التزام الصمت. وخيّل لبِن - روي أن الغرفة حوله تضيق وتنكمش لدرجة شعوره بأنه وبارين موجودان في الحلبة بمفردهما. كان هناك توقف قصير، ولم يُسمَع سوى صوت أنفاس الرجل المُسنّ الغاضب، والصّليل المكبوت لعربة خدمة العُرف في الممر خارج الجناح. وبعد ذلك، أسند بارين ظهره ببطء، وجسمه الضخم المكسوّ بالملابس يملأ الكرسي كدفق من الصُّهارة المتصلّبة.

"يمكنني أن أقول لك بالتحديد سبب اعتقادها هذا يا سيد بن - روي"، قال بصوت أجشّ كما لو أن حلّقه مسدود بورقة صقّل. "إنها تعتقد ذلك للسبب عينه بالتحديد الذي يجعل الشعب المناهض لدولة إسرائيل يعتقد أن شرطتها تتعمّد إطلاق النار على الأطفال العرب، كما يتمسك المناهضون للسامية بفكرة قيام اليهود بشرب دماء الأطفال. لأنّها وأصدقاءها المصابين بمرض نفسي يكرهوننا؛ ليس بسبب أمر ما قمنا به، انتبه، أو بسبب خرقنا أيّ قوانين، بل بسبب ما نمثله. وما نمثله هو انتصار الرأسمالية. المال؛ هذا هو بيت القصيد يا سيد بن - روي، وأنا أتكلّم بصراحة ولا أقدم أي تبريرات. نحن نطيع القانون، وندفع ضرائبنا، ونقلّم دعمنا لمجموعة من القضايا الجديرة بالاهتمام، ولكن النقطة الجوهرية هي أننا نَجني مالا، ولا يمكنهم تحمّل ذلك. لا يمكنهم أن يتحمّلوا واقع أنني أنام جيداً في الليل ولا أستيقظ في حالة من التعرّق، أو وأنا أشعر بالقلق بسبب سقوط شجرة لعينة ما

وسط الأمازون. لقد أزعجونا طوال الجزء الأكبر من السنوات السبع الماضية، ولم يتكبدوا عناء تقديم أي دليل عن أيّ إساءة، ولو لمرة واحدة. لذلك، صدقاً، لا يفاجئني أبداً قيامهم باللقاء اللائمة علينا على جريمة قتل لم ترتكبها. أنا مندهش لعدم اتهامنا بعد باغتيال كينيدي".

وصمت محاولاً التنفّس بجهد، واكتسى وجهه لوناً أرجوانياً داكناً، وظهرت فُقاغات لُباب عند زاويتي فمه، فأخذ عدّة أنفاس من قناع الأكسجين، فيما عيناه تتسعان مع كل شهيق وتنقبضان مع كل زفير. وبعد ذلك، أنزل القناع، وتقبّل المنديل الذي سلّم إياه من اليسار من الخادم على الأرحح، الذي كان لا يزال واقفاً هناك.

"كنت سعيداً بالتساهل معك يا سيد بن - روي"، زجر مربّباً بالمنديل على فمه، "ولكن، بما أننا انتقلنا كما يبدو من عالم الشرطة إلى عالم الافتراء والتلميح، فأنا غير مستعد لمتابعة هذه المقابلة. أتمنى لك أفضل حظّ في عملية تتبّع قاتلك، ولكنني أشعر بأنه يتحتم عليّ القول إنك لن تتمكن من الإمساك بقاتلك في وقت قريب استناداً إلى ما سمعته في الدقائق العشرين الأخيرة هذه. وثق بي، سأعبر لرؤسائك عن وجهات نظري. طاب يومك، يا سيدي".

ورُفعت يده استعداداً لقطع الاتصال الفيديوي، فنادى بن - روي:

"لديّ سؤال أخير، يا سيد بارين".

فتردد الرجل المُسنّ على غرار بن - روي الذي لم يكن قد حسم أمره بعد بشأن السؤال. ربما يُفترض به أن يطرح سؤالاً عن روزيتا، أو أن يضغط على بارين أكثر فأكثر في شأن الاتجار بالجنس، أو يتحدثاه ربّما من خلال قائمة الشركات المصرية المطوّية والموجودة في جيبه. ولكنه عوضاً عن ذلك، ومن دون أن يعرف السبب، طرح سؤالاً فخاً.

"هل تعتقد أن لنميسيس أجندا علاقة بوفاة زوجتك؟".

فقبل يومين، أخذ دوف زيسكي غينادي كريمينكو على حين غرة بسؤال فخ مماثل، ولكن الحظ لم يحالفه مع بارين. فلقد حملق إليه الرجل المُسنّ عبر الشاشة، وتبدّلت ملامح وجهه بفعل الغضب، وتحرك صدره صعوداً ونزولاً. ومن ثم، وبعد أن همهم: "أخرجوه من هنا"، مدّ يده، واسودّت الشاشة.

في أثناء مرافقة بن - روي إلى الخارج بعد المقابلة التي أجراها مع ناتانيل بارين، كان خليفة في طريقه لإجراء مقابلة مع إيمان البدري؛ المرأة التي اغتُصبت بوحشية قبل ثمانين عاماً على يد سامويل بينسكر.

كان قد وصل إلى قريتها قبل ساعتين، وأمل في العودة إلى الأقصر أو إلى منزله في وقت قريب. وفي أثناء توقفه خارج منزلها - منزل منخفض من الآجر الطيني، مع بُرج حمام مثبت بجانبه، وحمار ينهق في مكان ما في الناحية الخلفية - لاحظ وجود عشر نساء بملابس سوداء جالسات بالصف على امتداد الناحية الأمامية للمبنى. كان ساريا قد أبلغه بأن ضحية بينسكر قد أصبحت شخصية مهمة من نوع ما، وتبين أن النساء مصطفات للحصول على بركاتها. في ظروف أخرى، كان سيُشهر شارته ويدخل مباشرة، ولكن الفطرة أنبأته بأن المنحى التعسفي غير ملائم في هذه الحالة. وبعد أن اتصل بزيّيب ليُعلمها بتأخره بالعودة إلى المنزل أكثر من المتوقع، جلس في آخر الصف وانتظر دوره، متجنباً عمداً النظر إلى النساء كي لا يعرض سمعتهن للشبهة؛ فهذه الأمور هامة في هذه المناطق البعيدة.

وأخيراً، بعد مرور ساعتين دخن خلالهما عشر سجائر كليوباترا، استدعاه صوت امرأة إلى الداخل، وكان الشخص الأخير في الصف. فوقف، ونفض سرواله، وملس شعره حرصاً منه على مظهره، علماً أن المرأة التي يزورها عمياء. وبعد ذلك، دخل المبنى عبر ستارة الخرز.

كان المكان في الداخل بعيداً كل البعد في مظهره عن الجناح الذي أجرى فيه بن - روي مقابلته. لا كهرباء، ولا سجاد، ولا تزيين، ولا أثاث مزركش. فعوضاً عن ذلك، وجد خليفة نفسه في غرفة أرضيتها ترابية، وجدرانها عارية ومبنية بآجر طيني، وسقفها خشبيّ مسودّ بسبب الدخان. ويؤدي باب في الجانب البعيد إلى غرفة المعيشة في الناحية الخلفية للمنزل، وهناك قنديل كاز يُصدر مقداراً كافياً من النور لجعل الغرفة مرئية من دون إزعاج. وفي ما يتعلق بالأثاث، فالمكان خالٍ منه؛ باستثناء أريكتين خشبيتين بسيطتين موضوعتين بمحاذاة الجدارين الجانبيين.

وعلى الأريكة اليمنى، تجلس امرأة هَرمة شبيهة بدُمية، متربّعة ومُسندة ظهرها على
الآجر الطيني. وكل شيء، باستثناء وجهها كثير التجاعيد، مغطى بجلباب أسود؛
لدرجة أنه لا يمكن على الفور تبيان حدود انتهاء جسدها وبدء الظلال.

"يقال إن بركاتي تريح أولئك الحوامل"، قالت بصوت أجشّ ولكنه لطيف على
نحو مثير للفضول، ومهدئ كسُفّ نخل تطلق في مهبّ الريح. "ولكن، للأسف يا
سيدي، أخشى ألا يكون باستطاعتي تقديم أي بركة تساعدك في حَمْلِكَ".

ابتسمت لدُعابتها، وأومات خليفة للجلوس على الأريكة المقابلة. لم يكن
باستطاعته أن يعرف كيف تبين لها أنه رجل؛ ربما من صوت تنفّسه، أو وقع
قدميه. عبر الغرفة نحو الأريكة اليسرى وجلس.

"لست من هذه النواحي"، قالت، وأملت رأسها في اتجاهه.
"أنا من الأقصر".

وتوقف قليلاً، ثم أضاف:
"أنا شرطي".

أومات برأسها قليلاً كما لو أنها قد حزرت بطريقة ما. كان قد سبق له أن
التقى عمياناً شاحبِي العينين، وقُرْحياهم تفضح حالتهم. أما عيناها فخضراوان
كالزمرّد اللّماع، وبرّاقتان على نحو غير طبيعي، كما لو أن عماها يتجلّى بفَرط
اللون أكثر منه بالافتقار إليه.

"هل بإمكانك إحضار شيء لك لتشرب؟" سألت. "فالليل حارّ، وقد قطعت
مسافة طويلة".

كان خليفة يشعر بالظمأ، ولكنه رفض العرض، غير راغب في التسبب لها
بأي متاعب. فابتسمت مجدداً كما لو أنها فهمت سبب رفضه، ثم نهضت عن
مقعدها، وجرت خطاها إلى غرفة المعيشة في الناحية الخلفية للمنزل بحركات
بطيئة وواثقة. لو لم يكن يعرف مُسبقاً أنها ضريرة، لَمَا حزر ذلك مطلقاً. وعادت
بعد دقيقتين مع كوب شاي.

"لديّ فتاة تساعدني بالمهام المنزلية الروتينية"، شرحت مسلّمةً إيّاه الكوب،
وعائدةً إلى أريكتها من دون أن تلمّس أي شيء في طريقها ولو لمرة واحدة،
"ولكن، باستطاعتي تدبّر أمري في الأمور البسيطة. رجاءً، اشرب".

فلبّي خليفة طلبها من دون أن يذكر واقع أنه يتناول الشاي مع السكر على الدوام. أما الشاي فقد تّمتّ تحليلته بملعقتين من السكر؛ تماماً كما يحبّه.

"إنه لذيذ"، تتمم.

"عفواً"، أجابت. "أهلاً وسهلاً بك".

وساد الصمت، ومن ثم قالت له:

"آسفة لخسارتك".

فشكرها على مواساتها له، وتناول رشفة أخرى من الشاي، ثم أدرك بعد ذلك - وقد أجفل - أنه لم يذكر لها "علي".
"كيف عرفت؟".

"يمكنك رؤية بعض الأمور حتى بدون عيّنين"، قالت بهدوء. "أساك يحيط بك. إنه يتدلى منك كعباءة".

لم يعرف ما يجب أن يقوله.

"إنه ابني"، هذا كل ما تمكّن من قوله.

"آسفة جداً".

وحدّقت به - أو إن هذا ما بدا له على الأقل - بعينين متألّئتين بالوهج المتقلّب لقنديل الكاز، والظلالُ تحتشد في أرجاء المكان. وبعد ذلك، أسندت ظهرها إلى الجدار، شابكةً يديها في حضنها.
"هناك أمر ما يُزعجك"، قالت. "أمر ما يجعلك مضطرباً في حضوري. رجاءً، أخبرني عن سبب وجودك هنا".

بدّل خليفة جلسته على مقعده قليلاً. لقد بلغه أن حواسّ العميان قويّة، وباستطاعتهم ملاحظة أمور يُغفلها أولئك الذين يتمتعون برؤية تامة، ولكن هذا الأمر مختلف. لقد بدا الأمر كما لو أن باستطاعتها رؤية ما يختلج في صدره، ومعرفة ما يفكر فيه ويشعر به. انحنى إلى الأمام، محرّكاً الشاي في كوبه، ومتردداً فجأةً في طرح الأسئلة التي قدّم لطحها.

"هيا"، ألحّت، "لا يمكن أن يكون الأمر بهذا السوء. قل ما تريد قوله. سوف تشعر بأنك في حال أفضل. ربما يكون الأمر أفضل لكلينا".

وباعدت يديها بما معناه أنه يُفترض به التكلّم. وساد الصمت، وبدت الظلال في الغرفة أكثر قتامة وكثافة. وبعد ذلك، تنهّد:

"كما قلتُ، أنا من شرطة الأقصر"، استهلّ كلامه. "أعمل على قضية... في الواقع، أساعد في قضية... لقد قُتلت امرأة في القدس. لن أخوض في التفاصيل. يبدو أن هناك صلة برجل أعتقد... أنك تعرفينه. رجل إنكليزي يدعى... سامويل بينسكر".

ارتفع رأسها، ومن ثم انخفض.

"آه!". تمت.

كان ذلك ردّ فعلها الوحيد.

"أعرف ما حدث"، تابع بلهجةٍ حاول إبقاءها لطيفة قدر الإمكان، محاولاً إبلاغها أنه لا يفهم ما تشعر به فحسب، بل إنه لا سبب للخلجل أيضاً. "رجاء، سامحيني لأنني ذكّرتك بالأمر".

"أنت لا تذكّرني"، تمت. "التذكير يعني أن أكون قد نسيت. ولكن، لم يمرّ عليّ يوم واحد من دون أن أفكر بذلك في الليل، وفي كل دقيقة من اليوم. إنه يعيش معي دائماً. ثمانون عاماً مضت على الأمر، ولكنني أشعر كما لو أنه حدث يوم أمس".

رفعت يدها ولمست صِدغَها بأطراف أصابعها، وحدّق خليفة بالأرض. فمئذ دقائق قليلة، بدت الزيارة فكرة جيدة. وها هو الآن في حضورها...

"سامحيني"، كرّر. "لم أشأ أن...".

"لا حاجة بك للاعتذار. لقد قاموا بما قاموا به، ولقد تعلّمتُ العيش مع الأمر".

لا بد أنه متعب لأن الأمر تطلّب منه لحظات قليلة لاستيعاب ما قالتة عن ابنه علي. ورفع نظره عابساً.

"من هم أولئك الذين قاموا بما قاموا به؟".

"الذين ارتكبوا الجريمة".

وازداد وجهه عبوساً.

"لا أفهم، يا أمي. ظننتُ...".

"ماذا؟".

"أن سامويل بينسكر...".

لم يشأ استخدام كلمة /اغتصبك كي لا يذلّها.

"... كان مسؤولاً".

أنزلت يدها، وبدت عيناها وكأنهما تحترقان في الضوء الخافت.

"كان هناك ثلاثة منهم".

وشعر خليفة بانقباض في حلقه.

"كان هناك ثلاثة مجرمين لم يتم تقديمهم للعدالة مطلقاً. ثلاثة وحوش ماتوا

بسلام على أسرّتهم في حين أن ضحيّتهم...".

وطأطأت رأسها، وغاب وجهها في الظلام لدرجة أنه بات من المستحيل رؤية

تعبير وجهها. جلس خليفة هناك لاعناً نفسه بسبب أنانيّته، ولفتحه الجراح

الماضية، وجعله المرأة المُستَـة تعيش مجدداً حدثاً بدا أكثر تكديراً مما تصوّر. مرت

لحظات قليلة، فوقف قائلاً:

"لم يكن يُفترض بي القدوم. حدث ذلك منذ زمن بعيد، والأمر لا يعني.

رجاءً يا أمي، سامحيني. سأغادر الآن".

واستدار في اتجاه الباب، ولكن صوتها الحازم على نحو غير متوقّع أعاده إلى

الوراء.

"سوف تبقى".

ورفعت رأسها، مُميلةً وجهها نحوه. كان يحمل أحاديث عميقة، لدرجة أن

التجاعيد بدت أكثر من الجلد.

"حملتُ هذا السر طوال ثمانين عاماً. حان الوقت لإخبار أحدهم بالحقيقة.

ساعدني يا الله، كنت سأقوم بذلك من قُبَل لو علمتُ أن هناك من سيُصغي.

ولكن، أن أكون امرأة في مصر، ولا سيما فلاحاً؛ فهذا لا يسمح لي بالتكلّم عن

هذه الأمور. لا يجدر بي التكلّم أبداً إذا كنت أعرف صالحي. وحتى لو فعلتُ،

لما أحدث ذلك أي فارق؛ فقد كان أشقائي أذكاء".

وشعر خليفة بانقباض إضافي في حلقه، وفي معدته أيضاً.

"الله أكبر! أتقولين إن أشقاءك متورّطون في الاغتصاب؟".

هذه المرة قال ذلك بالفم المألن. وكان وَقَع الصدمة كبيراً عليه، لدرجة أنه لم يقلق بشأن التفاصيل الصغيرة ذات الدلالات. ابتسمت المرأة المُسنّة، وقد فاجأه ذلك، علماً أنه لم يرَ في حياته مطلقاً ابتسامة مع هذا القدر القليل من حسن الفُكاهة.

"لم يحدث أي اغتصاب"، همست بصوت أعلى بقليل من هسهسة قنديل الكاز. "لم يمسنّي أحد بإصبعه، ولا سيما سامويل بينسكر". ولفظت الاسم سام-وو-يل-بين-س-كر، ولم يكن اللفظ يحمل أيّ مرارة يمكن توقعها من امرأة هاجمها حامل الاسم، بل بالعكس تماماً: كانت لهجتها توحى بالرقة وبمشاعر جيّاشة. فتقدّم خليفة خطوة إلى الأمام. "ولكن، كان هناك شاهد. فتى صغير. لقد رأى...". "ماذا؟ ماذا رأى؟".

"رأى بينسكر وهو يعتدي عليك". كان باستطاعة خليفة سماع الرئيس صادق وهو يصف الاعتداء. "كنت تبكين، وتناضلين...". تنهّدت، وهزّت رأسها ببطء.

"نحن لا نفهم على الدوام كل ما نراه أيها المفتش، ولا سيما من خلال عينيّ فتى. فعندما يرى طفل دموعاً لا يخطر بباله أنها ربما تكون دموع فرح. وعندما يرى رجلاً يمسك بامرأة، فهو يفترض أنه لا بد أن يكون اعتداء. ما رآه الفتى لم يكن ما ظنّ أنه رآه".

لم يكن هناك أي حقد في صوتها، بل حزن فقط، حزن غير محدود. وقف خليفة في مكانه للحظات، ومن ثم عبر الغرفة، وسقط على ركبتيه أمامها. كانت صغيرة جداً ومنحنية الظهر، والأريكة منخفضة جداً، لدرجة أن رأسه بقي فوق مستوى رأسها بالرغم من جلوسه.

"ماذا حدث في تلك الليلة يا أمي؟".

"ماذا حدث؟ حدث أمر رائع. لقد طلب الرجل الذي أحببته الزواج بي، ووافقتُ. كانت أسعد ليلة في حياتي، لفترة وجيزة على الأقل".

وتنهّدت، وأمالت رأسها محدّقةً من فوق كتف خليفة في اتجاه الظلال في الزاوية العليا للغرفة. كانت أفكار خليفة تتزاحم في رأسه، محاولاً الخروج باستنتاج

منطقي. فكل ما سمعه عن بينسكر، وكل ما افترضه في الأيام القليلة الماضية، انهار أمام ناظرية كصورة فوتوغرافية تتحول إلى رماد بين أطراف أصابعه. اقترب أكثر من المرأة المسنة، وأمسك بيديها.

"أخبريني"، قال. "رجاء يا أمي. أريد أن أفهم".

في الخارج، بدأ الحمار ينهق مجدداً بصوت عال، وبدأ مستاءً بطريقة ما كما لو أنه جزء من واقع منفصل. وداخل الغرفة، كان الصمت كثيفاً جداً لدرجة أنه شعر كما لو أنه باستطاعته تذوقه. ومرت ثوانٍ، أو ربما دقائق؛ فمنذ لحظة دخوله منزلها، بدا له كما لو أنه قد فقد كل حسّ بالزمن. ومن ثم، سحبت يديها من يديه ببطء ووضعتهما على وجهه، ممررةً أطراف أصابعها جيئةً وذهاباً - الفم، الأنف، الخدان، الأهداب، الجبين - متتبعَةً ملامحه كما لو أنها خطوط مكتوبة بلغة بريل.

"أنت رجل صالح"، همست. "رجل لطيف. سمعت ذلك في صوتك، والآن أقرأه في وجهك. أقرأ الألم أيضاً، والكثير من الغضب، ولكن الطيبة تتغلب عليها كلها كما كان حال سام-وو-يل. كان رجلاً صالحاً، بل كان أفضل رجل عرفته في حياتي. ربما كنت الشخص المناسب لسماع الحقيقة".

وأمسكت بوجهه للحظات إضافية. وبعد ذلك، أنزلت يديها، وأسندت ظهرها، وأغضت عينيها وأخبرته القصة. لقد أنقذها بينسكر من أشقائها. هكذا بدأ الأمر.

كان يعمل في مدفن في التلال فوق القرنة القديمة. وذات مساء، كان عائداً إلى بيته مروراً بالقرية، وراها تتعرض للصفع فتدخل. وفي أثناء المشاجرة، لكم أحد الأشقاء بقوة لدرجة أنه أفقده وعيه (تردد صوت ماري دوفريسسن في رأس خليفة بوضوح كما لو أنها جالسة قربه: لقد دخل عراكاً مع بعض القُرناوين ذات مرة، فطرح أحدهم أرضاً وأفقده وعيه). وفي وقت لاحق، اكتشفت الفتاة أن بينسكر كان يراقبها طوال عام، ولم تصدر منه أي بادرة بسبب شعوره بالخجل من مظهره. "كان رجلاً أحمق!". وضحكت. "ما الفارق الذي كان سيشكله ذلك بالنسبة إلي؟ فما أراه موجود في الداخل. وفي الداخل كان الرجل الأكثر وسامة في العالم. إذ لم يسبق لأحد أن عاملني بذلك القدر من الاحترام والوقار".

وشرع الاثنان بالالتقاء؛ الفلاحة العمياء والإنكليزي مشوّه الوجه. وتطوّرت الصداقة بينهما بسرعة إلى علاقة غرامية في ظل أوقات مختطّفة قضياها معاً، وبسرّية قصوى بالطبع. فحتى الوقت الحاضر، يُنظر إلى العلاقة بين هاواغا وفلاحة بعين الرّيبة، هذا إذا لم تتم إدانتها على الفور. وفي العام 1931، لم يكن بالإمكان تخيّل علاقة مماثلة. لقد قال لها بينسكر في مناسبات عديدة إنه يجب على هذا الأمر أن ينتهي خوفاً منه على سلامتها. ولكن مشاعرهما كانت قوية، وحبهما عظيم جداً، واستمرت لقاءاتهما.

"كان في العقد الرابع من العمر، وكنت في التاسعة عشرة من عمري"، قالت. "ولكن علاقتنا لم تكن مجرد مغازلة. كنت أتمتع بحكمة تفوق حكمة من هنّ في مثل سنّي، وأعرف بالتحديد ما أقوم به. ربما كان أكبر سنّاً مني، ولكن المهم هنا...". ولمست رأسها بيدها. "وهنا...".

ونزلت اليد إلى قلبها.

"... كنا متساويين. وفي معاناتنا أيضاً، فقد شملنا الله برحمته".

ولمست عينيها ووجهها في إيماءة تشير إلى عماها وتشوّه بينسكر. "كان مظهره يؤلمه جداً"، قالت بحزن. "كان قوياً، ولكن القوة ليست كافية أحياناً. فاهمسات، والنظرات، والتعليقات كانت تُرهقه. ذات مرة، رأته فتاة صغيرة، خواجاية، في مدينة هابو، فزعقت وهربت كما لو أنه مسخ من نوع ما. لقد بكى عندما أخبرني بذلك، وتلوّى بين ذراعيّ وانتحب كطفل". (صوت ماري دوفريسن مجدداً: أتذكّره فقط يظهر فجأة، فأزعق وأهرب، ويتبعني بقناعه المريع ذاك. لقد انتابني كوايس طوال أسابيع بسبب ما حدث).

كان بينسكر يخرج إلى الصحراء أحياناً، ويتوارى عن الأنظار طوال أسابيع متتالية (أراد خليفة الضغط للحصول على المزيد من المعلومات حول هذا الأمر، ولكنه امتنع عن ذلك). ولكنه كان يعود على الدوام، ويلتقي الاثنان بالحرارة نفسها التي كانا يشعران بها عندما يفترقان لفترة من الزمن.

"كان لطيفاً جداً، ورفيقاً جداً، ولم يستغلّني قط. ولو أراد ذلك لسمحتُ له، ولكنه كان محترماً جداً. قال إن الأمر غير صائب. كنت أشعر بالأمان في حضوره،

وبأنني كاملة تماماً. فقبل ذلك الحين، كنت أشعر بأنني غير جديرة بأن أكون نصف إنسان".

وتواصلت المغازلة لمدة عام، وكانت المواعيد السريّة تتمّ بين الأطلال القديمة القائمة على امتداد الجبال الطيبيّة. ومن ثم، وبعد غياب أطول من المعتاد (كيف يمكن لخليفة أن يضغظ!) التقى العاشقان ذات ليلة في مكانهما المفضّل على ضفة النيل، وطلب منها بينسکر أن تصبح زوجته.

"لم أستطع التصديق بأن الشعور بسعادة مماثلة أمر ممكن، وظننت أنه يمازحني، وتوسّلت إليه كي لا يلحق الأذى بي، ولا يلعب بمشاعري، ولكنه ضحك فقط، وطلب مني ألا أكون حمقاء إلى هذا الحد. وحتى الآن، يمكنني سماع صوته، وشمّ رائحة جلد معطفه حين كان يضمّني إليه، ورائحة الزيت على يديه. لقد بكيْتُ فرحاً".

أرادت الفرار معه على الفور، ولكن بينسکر أصرّ على القيام بالأمر بالطريقة الملائمة. لقد أراد الذهاب لمقابلة والدها في صباح اليوم التالي، وطلب يدها رسمياً. وحتى ذلك الحين، عليها إبقاء خطبتهما سريّة، وعدم إخبار أحد بها.

"كنت خائفة"، قالت. "كنت أعرف موقف عائلي وإمكانية حدوث متاعب. ولكنه كان جديراً بالاحترام، كان الرجل الأكثر جدارة بالاحترام الذي التقيته يوماً. ولو لم يكن كذلك لَعاش ربما".

في تلك الليلة، عادت إلى المنزل وأعدّت أفضل الملابس لديها استعداداً لصباح اليوم التالي. خلدت إلى النوم فرحة، وحملت بسام-وو-يل بينسکر وبالحياة البهيجة التي سيتشاطرها.

وقبل ساعة من بزوغ الفجر، استيقظت مُحفلة، وشعرت بألم رهيب في صدرها.

"علمتُ على الفور أن مصيبة ما ألّت به"، قالت. "مصيبة مروّعة. لقد بد الأمر كما لو أن قلبي يصرخ".

وبعد وقت قصير، عاد أشقاؤها إلى المنزل على متن عربة نُقل يجرها حمار. لقد واجهتهم وطلبتُ أن تعرف أين كانوا وماذا فعلوا. لقد تمّ التعاطي مع الخوارج.

هذا كل ما قالوه لها. ولم تره مجدداً. لم يره أحد مجدداً. لقد تمت مشيئة الله، وتحققت العدالة.

"العدالة!". قالت. "كانوا يعلمون أنه لم يغتصبني. كانوا يعلمون ذلك جيداً حتى قبل أن أصبح في وجوههم مُخبرةً إياهم بالحقيقة. كان عذرهم الوحيد أنهم انتظروا الفرصة المناسبة طوال عام للتأثر منه بسبب تصديّهم بشجاعة في ذلك اليوم. وعندما جاء الفتى راكضاً مع قصته، اغتنموا الفرصة. كانوا رجالاً أشراراً وقساة القلوب".

لقد بكت، ولعنت أشقاءها، وهدّدتهم بالذهاب إلى الشرطة. لذلك جرّوها من شعرها إلى الداخل، وأبرحوها ضرباً؛ لدرجة أنها احتاجت إلى شهر كامل حتى تتمكن من السير مجدداً.

"كنت سعيدة بالألم، وممتنة له. فقد سمح لي بمشاطرة سام-وو-يل أمراً ما مرّ به. كنا معاً في الألم".

لقد تمّ الاحتفاظ بها سجينة فعلاً طوال السنوات الأربعين التالية، ونادراً ما كانت تجازف بالخروج من منزل العائلة، ولم تكن تتكلم إلا نادراً؛ كالميت الحي. وحين عثروا على جثة بينسكير، ماتت مجدداً.

"ما لا أستطيع فهمه هو كيفية ارتكاب أشقائي جريمة مروّعة مماثلة؛ بهذه الوحشية التي لا تُطاق، ومع ذلك يفلتون من العقوبة. ولكن عدالة من نوع آخر تحققت؛ إذ لم يتمكن أحد منهم من إنجاب ذُرِّيَّة. لقد مات الثلاثة من دون أن ينجبوا أبناء. إن هذا الأمر يمنحني القليل من العزاء".

بعد وفاة آخر أشقائها، غادرت القرية وانتقلت جنوباً، وبدأت حياة جديدة. لقد عملت لكي تحمل السعادة التي حُرمت منها للآخرين.

"لم أزر قبره قط"، قالت. "لم أرغب في ذلك مطلقاً. فهو لا يزال يعيش هنا...".

ولمست قلبها.

"وبالنسبة إليّ، هذا كل ما يهمّ. فاسمه على شفتيّ عندما أستيقظ في الصباح، وأخلد إلى النوم في الليل، ويكون ملايين المرات على شفتيّ بين الاستيقاظ والنوم. إنه أجمل اسم في العالم. يا زوجي، يا زوجي الحبيب. إنه أفضل رجل عرفته يوماً".

ومررت إصبعها المجددة تحت عينيها لتمسح دموعها، علماً أن عينيها كانتا جافتين.

"هذه"، قالت، "قصة إيمان وسام-وو-يل".

ألقي خليفة رأسه بجانبها. لم يكن يعرف كيف يشعر، فكيف يعرف ما يجدر به قوله؟ كل ما كان باستطاعته التفكير فيه هو جثة بينسكر المخطئة الملقاة في الناحية الخلفية للمدفن، وابنه علي الشاحب والمستلقي بلا حراك على سرير المستشفى بعد إطفاء الجهاز الداعم للحياة. إن حكمة الله غامضة بالفعل، غامضة جداً لدرجة أنها ليست المرة الأولى في الأشهر التسعة الأخيرة تلك التي يجد نفسه فيها يتساءل عن ذلك.

"الأمر متعلق بالمنجم، أليس كذلك؟".

فرفع نظره.

"إنه سبب وجودك هنا". وتحولت عيناها في اتجاهه. "المرأة في القدس. علاقة سام-وو-يل. إنه المنجم، أليس كذلك؟ منجم الذهب الذي عثر عليه".
مرة أخرى، بدا له أنها تسبقه بأشواط.
"نعتقد ذلك"، أجاب.

"كان سام-وو-يل يقول على الدوام إن أي خير لن ينجم إذا انتشر الخير. بالنسبة إليه، لم يكن الذهب يعني شيئاً. ولكن، بالنسبة إلى الآخرين... هناك الكثير من الجشع في العالم".

دخل هر الغرفة من الناحية الخلفية للمنزل متبختراً. وقفز على الأريكة بجانب المرأة المسنة وتكورّ قرب قدميها.

"كان شديد الحماسة"، قالت وهي تمدّ يدها وتمرّرها على امتداد عمود المهر الفئري. "في تلك الليلة الأخيرة، عندما عاد أخبرني أنه وجدته. كان يبحث عنه طيلة سنوات، شهراً تلو شهر وبمفرده في الصحراء. وأخيراً، في رحلته الأخيرة... لقد مكث هناك ثلاثة أشهر، وقال لي إنه لم يستكشف نصفه بعد. إنه أشبه بمدينة تحت الأرض كما قال، عالم تحت الأرض. كان في غاية السعادة. كنا في غاية السعادة".

وابتسمت بحزن ولزمت الصمت. كانت هناك عدة أسئلة يريد خليفة طرحها، وكان بحاجة ماسة إلى المعرفة، ولكن بعد كل ما سمعه هذه الليلة

يتمكن من إيجاد صوته. وكان الهرّ يخرخر، وقنديل الكاز يهسهس. وانقضت دقيقة تقريباً.

"ما كان اسمها؟". سألت أخيراً. "تلك المرأة التي قُتلت".
فأخبرها خليفة.

"هل كانت إنسانة صالحة؟".

فاعترف أنه لا يعرف الكثير عنها.

"أعتقد أنها كانت صالحة. أظنّ أنها حاولت مساعدة الناس وفضّح الأعمال
المسيئة".

"والمنجم، هل هو هام؟ هل يساعدك جمع معلومات عنه على تحقيق العدالة
لأجلها؟".

مرة أخرى، لم يكن خليفة واثقاً.
"أعتقد ذلك"، كرر.

وساد الصمت مجدداً، وبدأت المرأة المُسنّة تنطوي على ذاتها كما لو أنها تُمعن
التفكير في أمر ما. وبعد ذلك، سحبت يدها ببطء عن ظهر الهر، وبحشت داخل
طَيّات ثوبها، وأخرجت شيئاً ما لم يتبيّن ماهيّته على الفور، ولم يُدرك أنه دفتر
مدوّنات إلا عندما سلّمته إيّاه. إنه دفتر مدوّنات قدم، على غلافه الجلدي المتغصّن
بُقع، وصفحاته مطوية الزوايا ومصفرة بسبب قِدَمها.

"سام-وو-يل أعطاني إيّاه"، قالت. "في تلك الليلة الأخيرة، عندما طلب
يدي. قال لي إنه لم يكن يملك الوقت لشراء خاتم، ولكنه عوضاً عن ذلك سيترك
معي أثمن شيء يمتلكه دلالةً على صدقه. إنها مدوّناته عن المنجم. لا تزال بجانب
قلبي منذ ثمانين عاماً. لم يسبق لأحد أن رآها، ولا حتى أنا".

فألقي خليفة نظرة على الدفتر، وارتفعت وتيرة نبضه فجأةً، وتسارع تنفّسه.
ووقف بعد ذلك، وتوجّه إلى قنديل الكاز، ووضع الدفتر تحت ضوءه، وشرع
بتقليب الصفحات بعناية.

كانت هناك كتابة - متلاشية، عنكبوتية الشكل - وقوائم بأرقام اعتبر أنها لا
بد أن تكون قياسات ورسوماً. صفحات من الرسوم: رسوم تقريبية لأدوات قديمة
وأغراض منذورة، نسخات لنقوش وكتابات هيريّة، تصميم مطوي مُتَقَنّ للمنجم،

أو على الأقل لذلك الجزء الذي تمكّن بينسكر من استكشافه؛ صفوف مُربكة من الأنفاق والممرات والغرف، وفتحات عمودية للتهوئة؛ كلها تتفرّع من دهليز مركزي واسع كما لو أنه نظام أوعية تحت أرضي رَحْب.

وفي آخر الدفتر تماماً، ورقة أخرى مَطْوِيَّة ومُلصَّقة على الناحية الداخلية لغلافه الخلفي. إنها خارطة للصحراء الشرقية غير مفصَّلة كالخارطة التي أراه إيّاها صديقه عمر في الصباح، ولكنها مفصَّلة بقدر كافٍ: النيل، البحر الأحمر، الوديان، الجبال. وهناك، في وادٍ صغير على صورة مِنجل مدسوس تحت الضفة الغربية لجبل الشَّلُول، إشارة بالغة الصَّغر مرسومة بقلم رصاص وبجانبتها حرفان: م أ.

"الحمد لله"، همس خليفة.

ولزم مكانه للحظات، ومن ثم أعاد طيَّ الخارطة وأغلق الدفتر.

"أخشى أنني أطلب منك الكثير يا أمي، ولكن هل يمكنني...".

"خذها"، قالت المرأة المُسَنَّة. "مع برّكتي، ومع بركة سام-وو-يل أيضاً. هذا ما كان سيريده حتماً. كان تحقيق العدالة هاماً بالنسبة إليه، وإلى".

"سأحافظ عليه وأفديه بحياتي"، قال خليفة. "وسأعيده لك حالما أنتهي منه".

فأومأت برأسها. وزن الدفتر بيديه، ومن ثم توجّه إليها، وانحنى وقبلها على خديها.

"شكراً كثيراً، يا أمي".

"عفواً".

وشرع بتقويم وقفته، ولكنها أمسكت يده، وأمالت وجهها نحوه، وجهاً لا يزال يحمل جمالاً مختلفاً تحت التجاعيد، بالرغم من سنّها، كما لو أنه يتمّ إلقاء نظرة مُبهِمة على شابة من خلال ورقة ورق متغضّنة.

"إنه يرقد بسلام"، قالت. "هناك نور ذهبي، وعلي يرقد بسلام داخله. لا تنسَ ذلك أبداً".

وأمسكت يده للحظات إضافية، ومن ثم أفلتتها وأومأت له في اتجاه الباب. ولم يكد خليفة يخرج حتى بدأ يذرف الدَّمع.

رأس الشيطان، خليج العقبة

"أي واحد منهم؟".

"ذلك الموجود في النهاية".

"لا أصدّقك".

"تحقق من الأمر بنفسك. إنهم عملاء سرّيون، صدّقني".

وانسلّ الفتّيان على امتداد صف الشاليهات، وأقدامهما تغرق في الرمال من دون إحداث أي صوت. كانت الأمواج تمسّهن وتضطدم بالشاطئ إلى يمينهما، ووراءهما، تكاد تُسمّع موسيقى خافتة من المبنى الرئيس للمنتجع. وباستثناء ذلك، كان كل شيء هادئاً، فيما القمر يرتقّي اللون يرتفع فوق البحر كميدالية.

وبلغا الشاليه الأخير في الصف - الوحيد المأهول في نهاية قرية الإجازات هذه - وزحفاً إلى الناحية الخلفية. كانت هناك سيارتا لاندكروزر، وكانتا مركوبتين جنباً إلى جنب في الخليج الذي حوّل إلى موقف إسمنتي.

"لقد وصلوا هذا المساء. إنهم أربعة. لديهم أحمال من معدات التحسس. انظر".

لم يكن بالإمكان استراق النظر عبر نوافذ الشاليه بسبب الستائر المُسدّلة بإحكام. ولكن، بعد تسلّق مَنْفَذ تكييف الهواء - بحذر كي لا يُحدثا أي ضجيج - تمكنا من استراق النظر عبر فتحة ضيّقة بين الزاوية العليا لإحدى الستائر وإطار النافذة. في الداخل، ومن خلال المثلث الضيّق لزجاج لم تطله الستائر، تمكنا من رؤية سرير، وبعض الحفائب، وكومة من الصناديق المعدنية، وطاولة. كان هناك شخصان، رجل وامرأة، يحدّقان بجهاز كمبيوتر حضني مفتوح. كانا يضعان سماعات رأسية. وهناك رجل آخر راكع على الأرض يعث بأداة إلكترونية، فيما استلقى الشخص الرابع - امرأة - على السرير، متصفّحةً بمجلة، وعلى الوسادة بجانبها سلاح.

"ماذا قلت لك؟" همس الفتى. "إنهم جواسيس".

كان صوته أكثر انخفاضاً مما كان يعتزم، ولكن المرأة على السرير رفعت نظرها، وقالت شيئاً ما. فاستدار رفاقها، وقفز الفتّيان وتواريا بأقصى سرعة بين الشاليهات، مذعورين جداً لدرجة أنهما لم ينظرا إلى الوراء.

وعندما عادا بعد ساعة، وكان فضولهما قد أخذ منهما كل مأخذ، لم يجدا سيارتي اللاندكروزر، وكان الشاليه فارغاً كما لو أن أحداً لم يكن موجوداً. تناقشا في شأن إخبار مدير المنتج عما شاهداه، ولكنهما قررا عدم القيام بذلك. فقد كانت السياحة في حالة من الركود، وسُتلقى اللائمة عليهما بسبب حملهما الزبائن على المغادرة. وبأي حال، قد لا يصدّقهما أحد. لذلك احتفظا بالأمر لنفسيهما؛ إنه سرّهما. فبعد سبعين عاماً، وعندما يغدوان مُسنّين ومُحدّودين، سيستمران بالاستمتاع بتدخين النارجيلة، ومناقشة اكتشافهما وجود عملاء سرّيين قرب البحر.

القدس

عندما وصل بن - روي إلى الكيشل عند الساعة السابعة من صباح يوم الثلاثاء، كان في مزاج جيد، وأفضل بالتأكيد مما كان عليه في اليوم السابق. لقد نام جيداً، وكان الصباح جميلاً، وسيقصد منزل سارة في المساء لتناول العشاء معها. إنها المرة الأولى التي ستطهو له فيها منذ انفصلهما؛ وهذه دلالة جيدة. ولكن، تبدّل مزاجه لحظة دخوله المركز.

لقد صادف في بادئ الأمر ييغال دورفمان، وهو المحقق في قضية مقتل أحد طلاب اليشيفا طعناً. كان قصير القامة، وأشبه بابن عرس، ووغداً مغروراً لا يُطاق في أفضل الأحوال، ولا سيما هذا الصباح عندما ألقى بذراعه على كتف بن - روي وأعلمه بابتهاج بإقفال قضية مقتل الطالب.

"اعترف فتى عربي قبل ساعتين"، قال متبجحاً ومدخناً سيجاره. "خبراء جنائيون صارمون في الأدلة الجنائية. المفوّض سعيد. إهانات قدرة في أرجاء المكان. ولكن، كفى كلاماً عن هذا الموضوع: كيف تسير قضيتك؟".

والمعنى الضمني لهذا السؤال الذي يمكن ملاحظته بسهولة هو: لا تسير بمقدار نصف مسار قضيتنا.

بعد دقائق قليلة، فيما كان لا يزال يشعر بألم معنوي لاذع، استُدعي إلى مكتب الرئيس غال، ووُيخ بسبب طريقته في إدارة النقاش مع ناتانيل بارين في اللينة

السابقة. لقد قصد ممثلو بارين وزارة العدل ومكتب رئيس الوزراء لحظة انتهاء المقابلة، وتقدّموا بشكوى رسمية بسبب منحي الاستجواب الذي قام به بن - روي. "لا يمكنك دخول المكان وشتّم هذا النوع من الأشخاص"، قال غال بغضب. "ولكن بارين ماكر يا سيدي. الشركة والعائلة. كلهم متورطون في هذه القضية".

"إنهم يُقيمون أفضل العلاقات مع نصف الكنيست اللعين! هل حصلتَ على أي دليل؟ أي دليل حقيقي؟".

فأقرّ بن - روي بأن لا دليل لديه.

"إذاً، أفلع عن إزعاج الآخرين حتى يصبح لديك دليل. هل هذا مفهوم؟ لقد عانيتُ الأمرين بسبب هذا الأمر ولا أريد المزيد. الآن، اخرج".

عندما اتصل خليفة قبل الساعة الثامنة، كان مزاج بن - روي الجيد ذكّري بعيدة.

"رجاءً، قل لي إن لديك أمراً ما لي"، قال وهو يدير كرسيه بطريقة تحول دون نظره إلى التحرّين الزميلين يوني زلّبا وشيمون لوتزيتش اللذين كانا يرتشفان الشراب ويتباهيان بالنهاية الناجحة لتحقيقهما.

"حسناً"، قال خليفة. "لقد عرفت مكان منجمك".

كان بن - روي يجلس مترهلاً على مقعده. ولدى ذكر المنجم، جلس منتصباً.

"أنت تمزح".

"الشرطة المصرية لا تمزح أبداً".

فابتسم الإسرائيلي لذلك. وفجأةً، شعر بعودة مزاجه الجيد.

"كيف عثرتَ عليه؟".

وأخبره خليفة عن لقائه بإيمان البدري.

"قضيتُ نصف الليل وأنا أراجع دفتر مدوّنات بينسكر"، قال. "إنه لا يصدّق.

لا يصدّق البتة. يبلغ عمق الدّهليز الرئيس للمنجم ميلاً تقريباً، وهناك مئات الفتحات العمودية للتهوئة، والأنفاق، والأنفاق الفرعية. وهذه هي ناحية المنجم التي تمكّن بينسكر من استكشافها فقط".

"والذهب؟".

من المزعج أنه السؤال الوحيد الذي لم تُجب عنه مدوّنات بينسكر. لقد ذكر قيامه بأخذ بعض العينات من صخور المنجم، ولكن من الواضح أنه قُتل قبل أن تتسنى له فرصة تحليل العينات بشكل ملائم. باستثناء ذلك، لم يكن هناك أي ذكر للموضوع. "هذا لا يعني أنه لا وجود لأي منه هناك"، قال خليفة. "أخبرني الرجل الذي تحدثتُ إليه على متن اليخت قبل أيام، الإنكليزي، أن بينسكر لم يكن مهتماً بالذهب، بل أراد فقط جمع معلومات عن العمال في الأزمنة القديمة. لذلك، من المحتمل أن يكون المنجم مليئاً بالذهب. لن نعرف ذلك حتى نقصد المكان". "اليوم؟".

"لسوء الحظ لا".

"إن العثور على شيء مهم من هذا النوع يرتّب علينا المرور بالكثير من الإجراءات البيروقراطية"، شرح خليفة. "لقد أبلغت الوزارة، وسيرسلون شخصاً ما يوم غد لإلقاء نظرة على دفتر المدوّنات. ولديّ اجتماع بعد ظهر اليوم مع ممثل المجلس الأعلى للتحف الفنية القديمة. في الواقع، لن تنتهي الإجراءات الروتينية قبل نهاية الأسبوع على الأقل". "ألا يمكنك الإسراع؟".

"ثق بي، وفقاً للمعايير المصرية، تُعتبر نهاية الأسبوع بمثابة سرعة الضوء". فتأفف بن - روي. إن الأمر مُحبط، ولكن ليس بيده حيلة. على الأقل، لقد عثروا على المنجم. إنها خطوة كبيرة في الاتجاه الصحيح. في هذه الأثناء، هناك الكثير من الأمور الأخرى التي تشغله وزيسكي. فهما لا يزالان بحاجة إلى حلّ مسألة فوسغي، وربما مكّنهما ذلك من إلقاء نظرة على وليم بارين عن كُتب. ومن ثم، هناك قائمة الشركات المصرية تلك التي أعطته المرأة المنتمية إلى نِمسيس إياها: ربما كان بإمكانها إلقاء بعض الضوء على القضية. في الواقع، عندما كان يتحدث إليه عبر الهاتف...

"اسمع يا خليفة، لقد قمتَ بأكثر مما ينبغي. ولكن، هل يمكنني الاستفادة من أفكارك في أمر إضافي".
"بالطبع. أي أمر تشاء".

وأخبر بن - روي المصري عما مرّ به بعد ظهر اليوم السابق.
"أعطيتني تلك المرأة قائمةً بشركات في مصر تُجري معها بارين معاملات تجارية. يمكننا القيام بكل العمل التمهيدي من هنا، ولكنني أتساءل عما إذا كنتَ تعرف أيّاً منها، وذلك بهدف تضيق نطاق البحث قليلاً".
وسحب الورقة من جيبه، وبسطها على الطاولة. كان هناك نحو أربعين اسماً موضوعاً بالترتيب الأبجدي.

"هل أنت مستعدّ؟".

"أطلق النار".

"أدراهِه ترايدينغ".

"لم أسمع بها من قبل".

"أمسكو".

"لا".

"بنك مصر".

"بالطبع. إنه من أكبر مصارفنا".

"أهو مستقيم؟".

"حتى الآن وفقاً لمعلوماتي. يشتهر بخدمته البطيئة".

فابتسم بن - روي، وتابع.

"دلّتا سيستمز".

"لا".

"دُرَبِي".

"لا".

"إغاز".

"إنّها شركة الغاز الطبيعي المصرية القابضة"، قال خليفة. "إنّها تكتّل كبير يُشرف على كل احتياطينا من الغاز".

ربما تكون هذه الشركة على صلة بعرض الأسعار الذي تقدّمت به بارين للحصول على امتياز في حقن الغاز الصحراوي. فوضع بن - روي علامة نجمة بجانب الاسم، اعتقاداً منه بأن الأمر جدير بالبحث.

"فاوزر إلكترونيكس".

"لا".

"فوزكي متالز".

"لا".

"جمالي ليمتد".

"لا".

وتابع في اتجاه آخر القائمة. كان خليفة قد سمع بالقليل من الأسماء، في حين أنه لم يسمع بمعظمها. ولم يلفت أيّ منها انتباهه لجهة تورّطه بمعاملات تجارية مأكرة. وإغاز هي الوحيدة التي وضع بن - روي بجانبها علامة نجمة. ووصل إلى آخر الصفحة وقبّلها. كانت هناك ثلاثة أسماء إضافية على الجهة الأخرى.

"عمارة كونكرت"، قرأ.

"لا".

"واستي لوجيستيكس".

"لا".

"زوسر فريت".

وساد الصمت.

"زوسر فريت"، كرّر.

"أجل".

"أجل، ماذا؟".

"أجل، لقد سمعتُ بها".

وبدا صوت المصري بعيداً فجأة، كما لو أن انتباهه قد تحوّل في اتجاه آخر ولم يعد مركزاً على الحديث بالكامل.

"وماذا أيضاً؟". سأل بن - روي.

مجدداً، كان عليه تكرار السؤال قبل الحصول على إجابة.

"إنها شركة نقل"، تتم خليفة. "كبيرة. كبيرة جداً. طرقات، سكك حديد.

أنهار، ذلك النوع من الأمور. لديها العديد من الصّلات مع الحكومة".

"هل هذا كل شيء؟".
"تقريباً، ولكن هناك أمراً واحداً بعد".
"هيا".

وسُمع صوت تنهّد.

"قتل ابني علي بسبب صندل تابع لزوسير فريت".
عندما أنهى بن - روي المكاملة، جلس خليفة لمدة طويلة من الزمن محدّقاً
بالفضاء، وضارباً بخفّة على الطاولة بعلبة سجائره.

إنها مصادفة بالتأكيد. فزوسير شركة ضخمة، ولا شيء غير طبيعي في شأن
معاملاتها التجارية مع شركة ضخمة أخرى. ومع ذلك... ومع ذلك...
لقد شعر منذ البدء بأمر ما يتعلق بقضية ريفكا كلينبرغ؛ لقد شعر بأن جانباً
ما من جوانبها يدعو ويحتجبه. هناك شيء ما يتعلق بالقضية ويتخطى مجرد الرغبة
في مساعدة صديق أو دخول لبّ لغز مثير للفضول؛ شيء ما جعله يلتزم بالتحقيق،
ويواصل التعمّق في القضية، ولا يتجاهلها، شيء ما...
محتم. والآن، هذا الأمر يظهر فجأة.

ونقر غطاء العلبة، ثم سحب سيجارة بأسنانه، وتركها تتدلى من دون
إشعالها.

لم يتعمّد يوماً تحميل زوسير مسؤولية الحادث؛ ليس بالكامل، على الأقل.
أجل، كان الصندل خارج مساره، ولم يُقم الرقيب الأمامي بعمله بشكل ملائم،
ولكن لم يكن يُفترض بعلي وأصدقائه النزول إلى النهر في المقام الأول.
وها هو يفكر بذلك. والمثير للفضول أنه لم يسبق له أن فكر بالأمر كثيراً، بل
تقبّله كما يتقبّل المصريون الكثير من الظلم والجور؛ كما لو أن عدم الإنصاف جزء
من حمضهم النووي... وبعد التفكير بالأمر، تفاجأ خليفة بإلقائه اللوم على زوسير
كما لام المحافظة على جرف نصف الأقصر، ومثلما لام النظام برمته على إدارته
ظهره للناس من أمثال عائلة عطية والفتى المعوّق في ملجأ الأطفال التابع لدميانا
بركات. لم يلمها على الحادث بحد ذاته، بل على عجزها، وعدم مبالاها، ووفاء
خمسة فتيان بسبب أحد صنادلها من دون أن تتكبد عناء إجراء تحقيق داخلي حول
الاصطدام. لقد استخفّت بالأمر برمته، وواصل جميع المسؤولين فيها حيواتهم كما

لو أن شيئاً لم يحدث، وذلك على غرار الأثرياء والأقوياء الذين يستخفون على الدوام بالأثر الإنساني الأشمل لأعمالهم.

وها هو اسمها يظهر فجأةً على رادار التحقيق في قضية جريمة قتل. هل يعني ذلك شيئاً؟ تساءل، هل هذا القاسم المشترك غير المتوقع بين الحادثتين المنفصلتين في الظاهر محض مصادفة؟ هل هناك صلة ما على نطاق أوسع؟ أم إنه يحاول ببساطة استخراج معنى ما من وضع معين، من دون أن يكون هناك أي معنى بالضرورة؟

لم تكن لديه أي فكرة. فأفكاره مشوشة ومربكة. وكل ما باستطاعته قوله بالتأكيد - سواء أكان الأمر مصادفةً أم غير مصادفة - هو أنه شعر فجأةً برابط شخصي وقويٍّ مع قضية بن - روي، كما لو أنه يدليّ قدميه على أطراف دوامة مائية تقوم بسحبه إلى جوفها. وشعر أيضاً - لأسباب لم يتمكن من شرحها أو تفسيرها بشكل منطقي - بأن مساعدة بن - روي على حل قضيتّه ستساعده بطريقة ما على التأقلم مع وفاة ابنه على الأقل، إن لم تساعده على تخطّي هذه المحنة. يبدو أن طريق العودة إلى ضوء النهار تمرّ عبر المتاهة. أسند ظهره، وأشعل سيجارة الكليوباترا، ودخنها حتى عقبها، وحلقات الدخان تنحرف وتشق طريقها متلوية فوقه. وبعد ذلك، داس على عقب السيجارة، والتقط الهاتف، واتصل بموقف سيارات المركز. كان قد استأجر في اليوم السابق سيارة فيات أونو متهالكة لقيادتها إلى قرية إيمان البدري. ومن أجل الرحلة التي سيقوم بها الآن، سيكون بحاجة إلى سيارة أكثر قوة.

* * *

فكرتُ طويلاً بعملية التطهير الوشيكة؛ إنها عملية العمليات، إذا شئتم. فكرتُ طويلاً لدرجة أن نبأ إخفاقي في العملية السابقة ترك أثراً في نفسي أقل مما لو أعمد إلى التفكير مطوّلاً. لقد هزّني بالطبع نبأ تورط العائلة وتلقّي التوبيخات؛ علماً أنني لم أتفاجأ. فمنذ البداية، كانت لي شكوكي حيال دار العبادة الكبرى. كنت

أعرف أنه لم يكن يُفترض بي القيام بالأمر قبل الوقت المحدد وفقاً للخطة الموضوعة.

ولكن، هذا ما حدث، ولا يمكن إعادة كتابة الماضي. فقد راني مصوبة الآن على المهمة قيد التنفيذ. احترم الماضي، ولكن لا تدعُه يصرف انتباهك؛ إنه درس آخر تعلمته من والذي. أنا أنظر إلى المستقبل؛ مستقبلي ومستقبل العائلة. كلوريد البوتاسيوم احتمال، والإنسولين أيضاً. والدقة أمر أساسي، والأمران لا يمكن اقتفاء أثرهما. ولكن ضيق الوقت قد يكون مشكلة.

سأولي الأمر مزيداً من التفكير. ووفقاً لطبيعة الأمور، أميل إلى البساطة. لا إبر، لا حقائب، استخدم فقط ما لديهم في الغرفة. لقد أحرث بعض التمارين بواسطة معصمي وذراعي، وحددت أفضل وضعية لممارسة الضغط من دون ترك أي رُخوض. للتوازن الدقيق دور أساسي، ولكن يُفترض بي أن أكون قادراً على إنجاز المهمة، وسيحبيني ذلك النظر إلى الوجه. في العادة، لا تعتريني أي توجّسات من هذه الأمور، ولكنها عملية تطهير غير عادية. إنها نقطة تحوّل كما يُقال.

وفي أثناء تحدّثي عن الأمر، أمل ألا أبكي. لست شخصاً عاطفياً بشكل صريح - لا يدخل ذلك حساباتي - ولكن، لا يمكنني التغاضي عن الاحتمال نظراً لضخامة الخطوة التي أنا على وشك القيام بها. فائياً يكن الدافع، لا يزال هناك رابط لن يكون من السهل قطعه بالرغم من ضرورة القطع.

سأضيف أنسجة إلى عدّتي. أمل ألا أضطر لاستخدامها، ولكنكم لا تعرفون ما قد يحدث. إنها أوقات متقلّبة، والاستعداد هو الأساس.

عندما طار الغراب، كان لا يزال هناك أقل من 140 كيلومتراً بين الأقصر وجبل الشّلول. ولو كانت هناك طريق مباشرة لوصل خليفة إلى هناك في غضون ساعة.

لم تكن هناك طريق مباشرة، بل دروب قليلة قيّمة: قفّر مترامي الأطراف من الجبال، والجروف، وأغوار من الحصى، ووديان حوّلت الشمس لونها. إنها متاهة طبيعية مُفزعة تحمي متاهة الشيموت نت وسير. ستكون رحلة عسيرة ومحفوفة

بالمخاطر أيضاً حتى مع قيادة لاندروفر ديفندر، وهي عربة مصممة خصيصاً لتحدي الأراضي الوعرة خارج الطرقات العامة، خارقاً بذلك أول قاعدة للسفر عبر الصحراء: لا تعبر الصحراء بمفردك أبداً.

ولكن، كان عليه المحاولة، ولم يستطع انتظار البيروقراطية المصرية لإنهاء مسارها اللامتناهي. أراد أن يعرف ما يحدث في المنجم، كان بحاجة إلى معرفة ذلك. وإذا ازدادت الأمور صعوبة، فباستطاعته العودة. كان قد اقترض أحد الهواتف العاملة بنظام الاتصال عبر الأقمار الاصطناعية ليقوم باستخدامه عندما يواجه متاعب حقيقية. سيكون كل شيء بخير، قال لنفسه. الأمر صعب، ولكن كل شيء سيكون بخير.

قبل الشروع في رحلته، توقف قرب شقته، وشرح لزينب أنه يتعين عليه الذهاب إلى مرسا علم بسبب العمل، ومن المحتمل ألا يعود إلى المنزل حتى وقت متأخر. إنها كذبة، ولكنه لم يشأ إقلاقها. فبوجود هاتف يعمل بنظام الاتصال عبر الأقمار الاصطناعية، أم لا، لا يزال الناس يموتون في الصحراء الشرقية، ولقد فقدت زينب ابنها مؤخراً.

كان عليه التوقف في محطتين للتزود بالموثون - وقود إضافي، ماء، مصباح كهربائي للجيب، سجائر، جبن، طعمية، خبز بلدي - وانطلق إلى وجهته. على المقعد بجانبه توجد خارطة صديقه عمر للمرتفعات الوسطى في الصحراء، إضافة إلى دفتر مدونات سامويل بينسكير.

لم يكن تحديد مكان المنجم هو المشكلة، بل يكمن التحدي في الوصول إلى هناك.

وتمثلت خطته بقطع أطول مسافة ممكنة على الطريق المعبدة، علماً أن ذلك يتطلب منه قطع ضعف المسافة المطلوبة. لذلك، توجه جنوباً أولاً نحو إدفو، وسلك الطريق العام 99 شرقاً نحو مرسا علم وشاطئ البحر الأحمر. وفي منتصف الطريق، كان الطريق يلتف 99 بحدّة في اتجاه الشمال. وباندفاعه بقوة من الرأس المسدّب لذلك الالتفاف، افترض أنه يتوجب عليه قطع مسافة تقلّ عن خمسين كيلومتراً في الصحراء قبل الوصول إلى محيط المنجم. لا تزال الطريق طويلة نظراً إلى طبيعة الأرض، ولكن كل كيلومتر يجتازه يزيد من فرص نجاحه في بلوغ مقصده.

وهناك سببان آخران أيضاً لاختيار تلك الطريق بصفة خاصة. فوفقاً لدفتر المدوّنات، إنّها الوُجْهة التي سلكها سامويل بينسكر للوصول إلى المنجم. وقافلة الشاحنات التي رصدها من الفضاء فريق المسح التابع لجامعة حلوان مرّت في تلك الناحية من الصحراء بالتحديد. لم يكن يملك أي فكرة عمّا إذا كان للقافلة أي علاقة بالمناهة، ولكن وجودها يوحي بأنه بالإمكان القيادة في تلك المنطقة ولو جزئياً.

كانت حركة المرور على الطريق 2 أكثر بطئاً من مساء اليوم السابق، واحتاج إلى ساعتين تقريباً لبلوغ إدفو. ولكن، عندما استدار ليسلك الطريق 99 في اتجاه الشرق، لم يكن هناك أحد على الطريق العام أو خارجه؛ فقط شريط من الإسفلت الأسود المتلألئ يتعرّج عبر قفر من الرمال والصخور التي حوّلت الشمس لونها. مرّ بحاجز تفتيش للشرطة خارج إدفو تماماً، وبمستوطنتين صغيرتين في الكنايس والبرّامية؛ مجموعات سكنية مُهمّلة من الإسمنت والآجر الطيني عند جانب الطريق العام تبدو كما لو أنّها تتمسّك بالحياة العزيزة بقوة. باستثناء ذلك، لم تكن هناك أي دلالة على التدخل البشري. وفي الساعة التي قضاها لبلوغ منعطف الطريق العام المتجه شمالاً، لم يصادف سوى عربة واحدة؛ شاحنة إيسوزو خفيفة مليئة بالأغنام. ربما كان على سطح المربّخ.

في النهاية، وبعد الساعة الحادية عشرة بقليل، أبطأ وتوقف. فوفقاً لخارطة عمر، بات الآن عند النقطة الأقرب إلى جبل الشّلول. فترجّل ونظر في اتجاه الشمال، حاجباً الشمس عن عينيه. كانت أمامه رُبى صغيرة من الرمال التي تشكّل تلالاً منخفضة ترتفع بدورها على صورة منحدرات عالية من الصخور البنية المائلة للصفرة. وتزداد المنحدرات ارتفاعاً وانحداراً كلما نظرتم إلى الشمال، وتزداد صعوداً حتى تندمج أخيراً مع القفر الأوسط الجبلي المحظّر.

أشعل سيجارة، متسائلاً عما إذا كان ما يقوم به فكرة سيّئة، عالمياً أنّه فكرة سيّئة. ومن ثم، ومخافة تراجع احتمال القيام بذلك كلما فكّر فيه، ملأ الخزان بالوقود، وأخرج القليل من الهواء من كل من إطارات اللاندروفر لتعزيز قدرتها على السير، وخرج من الطريق العام إلى المجهول. كان أحدهم قد ترك كاسيت محمد منير في مسجّلة الستيريو، فشغّلها لإبقاء معنوياته مرتفعة.

في الكيلومترات العشرة الأولى، كان تقدّمه سهلاً على نحو غير متوقّع. فشقّ طريقه عبر التلال محتفظاً بسرعة بطيئة، قبل أن يسلك وادياً فسيحاً في الاتجاه المطلوب. وارتفعت التلال من حوله، وكانت هناك موجات من الصخور المهيبة في كلا الجانبين. وبقي قعر الوادي منبسّطاً عملياً، فاجتاز مسافة طويلة خالية من المصاعب.

ولكن ذلك لم يدُم. فقد أظهرت خارطة عمر الوادي منفثاً على وادٍ أكثر اتساعاً ينحني غرباً قبل التوجه مجدداً إلى الشمال، غير أن جلاميد ضخمة مبعثرة على امتداد الطرف العلوي للوادي أعاقَت تقدّمه كما لو أنّها أعمدة لمنع المرور. حاول إبعاد جلمودين من دون جدوى. ومع عدم تمكّن اللاندروفر من عبور الوادي، لم يكن أمامه سوى خيار العودة من حيث أتى ومحاولة العثور على طريق أخرى.

وبعد أربع ساعات، كان لا يزال يواصل المحاولة فيجد نفسه مراراً وتكراراً في وادٍ يبدو كما لو أنه يأخذه في الاتجاه الصحيح، ولكن سرعان ما يصل إلى شقّ ضيق لا يمكن التّفاذ منه، أو يجد نفسه في مواجهة جدار صخري عمودي، أو يستدير مئة وثمانين درجة ليجد نفسه في وجهة مختلفة عن وجهته الأساسية. وفي إحدى المراحل، غرقت إطاراته في كثيب رملي، وتعيّن عليه قضاء ثلاثين دقيقة في الحفر للخروج منه؛ لقد عاد مرتين إلى الطريق العام ليواجه بالمشكلة نفسها من نقطة انطلاق مختلفة. لم يكن دفتر مدوّنات بينسكر ذا فائدة - فهو يشير فقط إلى أنه بلغ المنجم من الجنوب - وكانت خارطة عمر تتناقض باستمرار مع الوقائع على الأرض في ما يتعلق بالتفاصيل الطبوغرافية. ومع انقضاء فترة بعد الظهر ببطء ومواجهته عقبات مستمرة، وجد نفسه يفكر في ضرورة التخلّي عن الأمر برمّته والعودة إلى المنزل وترك المهمة للخبراء.

قُرابة الساعة الثالثة، وبعد تقدّمه خمسة عشر كيلومتراً، ظهر أمامه ممرّ واعد كما يبدو، ولكنه تلاشى شيئاً فشيئاً وصولاً إلى كثيب رملي يرتفع أربعين متراً ولا يمكن اجتيازه. فأوقف اللاندروفر، وخرج. مدّد ساقيه وقام بحركات ركل بواسطة، وتناول جرعة كبيرة من الماء، ومن ثم أحضر منظراً ثنائياً وحقبة الطعام التي اشتراها في الأقصر، وكذّب في السير في اتجاه أعلى أقرب حيّد لإلقاء نظرة على طبيعة الأرض.

كان موجوداً غرب المكان الذي غامر في بادئ الأمر للوصول إليه داخل الصحراء. وإلى الجنوب، يتعرّج الشريط المعبّد للطريق 99 في اتجاه الشاطئ، وإلى الشمال ينتأ القفر الأوسط شيئاً فشيئاً بعيداً؛ قلعة متلاثلة من الصخور البنية الضبابية التي لم تصبح أقرب مما كانت عليه قبل أربع ساعات. وبين المنطقتين، وفي أثناء تحديقه بالناحية العلوية لمناهة ضخمة، رأى بحراً من الحيوذ والجروف والمنحدرات وأعالى التلال، من دون وجود ممّر واضح في اتجاه الجبل العالي وراءها. "تبّاً لعينة"، تتمم.

وعاين المنظر الطبيعي بيأس. ومن ثم جلس على الأرض متربّعاً، ووضع إلفاعاً على رأسه يقيه من حرارة الشمس، وشرع بإخراج الطعام. فكّر في قضاء ساعتين إضافيتين محاولاً الدخول من اتجاه آخر، ومن ثم سيتخلّى عن الأمر. حلّ الليل في الصحراء بسرعة، وبالرغم من تجهيز اللاندروفر بزوج من الأضواء الكشافة إضافة إلى مصابيحها العادية، لم يجبّد فكرة البقاء في المكان بعد حلول الظلام.

فلف بعض الجبن بقطعة من الخبز البلدي وتناول لقمة، متبّعاً بنظره العدم القاحل قبل الهبوط في الوادي في الجانب الآخر من الحيد. إنه يقوم بموازة الوادي الذي ترك فيه اللاندروفر، علماً أنه أكثر اتساعاً ويمتدّ نحو الشمال مباشرة، ويستدير في اتجاه الشرق. كانت هناك شجرة أقافيا ذات جذع حلزوني الشكل، وظلّتها التي تشبه طبقاً تميل وفقاً لزاوية توحى بعدم الاستقرار كما لو أنها مُنْهَكَة بسبب الحر. إنها الدلالة الأولى على الحياة التي رآها هنا، ووجد نفسه يحدّق بها في أثناء مضغه شطيرته، ممتناً لوجود شيء ما يركّز عليه غير الغبار والصخور. لقد أخذ بالمشهد تماماً، متسائلاً عن مدى قِدَم الشجرة، وكيف نجت في هذه الظروف الطبيعية التي لا ترحم، ولم يشاهد الآثار على امتداد الأرض في الجانب المقابل للوادي إلا بعد مرور عدة دقائق. الكثير من الآثار. آثار عميقة، ومتلاصقة، ومستقيمة؛ كما لو أن شخصاً ما قد خدش الرمال بشوكة ضخمة. إنها آثار إطارات.

وقف ورفع المنظار الثنائي. كانت الأرض متماوجة لدرجة أنه يستحيل معرفة اتجاه الوادي. أمعن النظر إلى أعلى الحيد، باحثاً عن طريق عبر الوادي الذي ترك فيه اللاندروفر، ولكن من دون أن يتمكن من العثور على أي طريق. فالأمر أشبه

بوجود طريقتين يفصلهما جدار مرتفع، ولا يوجد طريق فرعي يصل بينهما. ركّز على الآثار. إنها عريضة - تشير إلى عربة رباعية الدّفع أو إلى شاحنة خفيفة - وعلى جانبيها حافة مرتفعة بشكل ملحوظ كما لو أن الإطارات التي أحدثتها تمتاز بسماعتها. إنها شاحنات بدون شك. شاحنات كبيرة. الشاحنات نفسها التي رصدها فريق المسح التابع لجامعة جلوان؟ لا فكرة لديه البتّة عن سبب وجودها، ولكن الأمر جدير بإلقاء نظرة على المكان الذي تؤدّي إليه. ونزل إلى اللاندروفر، وأدار المحرك، وعاد إلى الوادي، باحثاً عن فجوة في الجدار.

كان عليه قطع أربعة كيلومترات قبل أن يعثر على الفجوة. إذ ينخفض الحيد فجأةً عند هذه النقطة، مشكلاً منحدرًا عميقاً. وهناك كثيب رملي متنامٍ على جانب المرتفع مع انحناء سلسة يمكنه العبور باللاندروفر من خلالها. لقد تطلّب الأمر أربع محاولات للوصول إلى الأعلى بسبب انزلاق الإطارات على الرمل، ولكنه نجح في النهاية وتمكن من نزول المنحدر الصخري في الجانب البعيد والوصول إلى الوادي المجاور.

بعد ذلك، تحسّنت رحلته إلى حد كبير. فأيّما يكن ما قامت به هناك، فقد بدا الأمر كما لو أن الشاحنات قد استخدمت الوادي مراراً لأن آثارها كانت متلاصقة على نحو كثيف. لقد وفرّ لنفسه أرضية جيدة للقيادة أشبه بطريق لائقة بعد اتخاذه الأنلام مساراً لإطارات اللاندروفر. وتمكن من رفع سرعته إلى خمسين كيلومتراً في الساعة، متنقلاً بين سرعات جهاز نقل الحركة، والألحان العذبة لمحمد منير تخرج بخفّة من جهاز الستيريو في السيارة. وبعد أن اجتاز مسافة عشرة كيلومترات في الوادي، ولج وادياً آخر، ومن ثم عبر وادياً تلو الآخر، مُقحمًا نفسه في شبكة عنكبوتية متزايدة التعقيد من مجاري المياه الجافة كان سيضيع داخلها لولا الآثار التي تقوده. وكل وادٍ كان أضيق قليلاً من سابقه، وغدت المنحدرات أكثر ارتفاعاً من الجانبين، وضاق المنظر الطبيعي من حوله شيئاً فشيئاً. وكان يجد نفسه أحياناً منعطفاً إلى الغرب، وأحياناً أخرى إلى الشرق. ولكن الاتجاه كان إلى الشمال باستمرار، وإلى عمق أعماق القلب السري للكتلة الجبلية، مقترباً أكثر فأكثر من هدفه، ومبتعداً أكثر فأكثر عن ازدحام الطريق العام. لقد شعر بأنه صغير ووحيد على نحو متزايد، وعصبي المزاج أيضاً. فإذا كانت الآثار تؤدّي إلى المنجم -

باجتياز كيلومتر تِلَوَ الآخر، ينخفض أكثر فأكثر احتمال أن يؤدي هذا الدرب إلى مكانٍ آخر غير المنجم - وإذا كان المنجم يشهد أعمالاً غير قانونية، فإن بُعد الموقع سيكون آخر اهتماماته. فأطفأ جهاز الستيريو، وتحقق من صلاحية الهاتف العامل بنظام الاتصال عبر الأقمار الاصطناعية بجانبه، ومن جهوزية مسدسه حلوان من عيار 9 مليمترات.

ومع استمرار تقدّمه، كان ضوء النهار ينحسر من حوله، وتطول الظلال، حتى انحرفت في النهاية آثار الإطارات إلى اليمين، بعد المرور في وادٍ آخر متعرّج، واختفت داخل ممرّ ضيّق بين جُروف عالية. فأبطأ، وتوقف، وأوقف عمل المحرك. مدّ يده إلى دفتر مدوّنات سامويل بينسكِر، وقلّب صفحاته وصولاً إلى رسم شاحب بقلم الرصاص توجد تحته عبارة: ممرّ المتاهة. ورفع الدفتر، مُقارناً الرسم بالمنظر أمامه. كانا متطابقين.

لقد نجح في مسعاه.

جلس لدقيقة يُصغي السمع، مُمِلاً رأسه إلى الأعلى، ومحاولاً التقاط أي صوت. لم يكن هناك أي شيء ما لم يُعتبر السكون بحد ذاته صوتاً. مكتفياً، أعاد تشغيل محرك اللاندروفر وعاد مسافة مئة متر إلى خارج الوادي حيث ركن السيارة بمنأى عن الأنظار تحت جزء صخري ناتئ، ثم خرج واتصل بين - روي، وحصل على بريد صوتي.

"أنا في المنجم"، قال غير مضطّيع الوقت في الشرح. "سألقي نظرة. أتصل بك مجدداً بعد ثلاثين دقيقة".

ورمى الهاتف داخل السيارة - لا جدوى من اصطحابه لأنه لن يكون هناك أي إرسال تحت الأرض - أخرج مصباح الجيب الكهربائي من صندوق السيارة. ومن ثم، وبعد التحقق من جهوزية مسدس حلوان للاستخدام، عاد إلى الوادي وتتبع الآثار مجدداً.

لقد أدّت إلى ممرّ ضيّق يقلّ عرضه عن عشرة أمتار ويكاد يكون كافياً للاتساع لشاحنة واحدة. وعلت جدران الصخور فوقه محدّودة، ملاءات من الحجر الجيري أشبه بشراع ترتفع وتدور كالأمواج في اتجاه شريط أزرق باهت من السماء قائم فوقها على مسافة عالية. كانت طيور الخطّاف تنساب ذهاباً وإياباً.

وبالرغم من تأخر الوقت، كان الهواء لا يزال مُثَقَلًا بالحرارة. كَوَّرَ يَدَيْهِ حول فمه وصرخ.

"سلام-الام-الام-الام-الام".

وتردد صدى صوته في الوادي الضيق، مرتدًا من جدار إلى جدار، ومتكررًا لمدة من الزمن قبل أن يختفي ويعود السكون. ونادى مرة ثانية، وثالثة، ومن ثم شرع بالسير وإصبعه منثنية بإحكام حول زناد جِلْوان. استدار الممر إلى اليسار، ومن ثم إلى اليمين، وإلى اليسار مرة أخرى وبجدة. وفي هذه الأثناء، غابت الجدران فجأة، ووجد نفسه واقفًا على حافة مساحة مفتوحة ضخمة مُحاطة بِجُرُوف؛ مُدرِّج طبيعي فسيح تحت الضفة الجنوبية لجبل الشَّلُول.

"الله أكبر"، تتم.

في أعلى الجبل، كانت القمم لا تزال تتوهَّج بلون برتقالي دافئ تحت أشعة الشمس في وقت متأخر من بعد الظهر. وفي الأسفل، حلَّ الغسق وساد اللون الرمادي الشاحب المائل للصفرة، وسُدَّت الشقوق والصدوع بالظلال. كانت هناك أكوام من حُطام الصخور والحصى مكدَّسة عند قاعدة الجُرُوف؛ اعتبر أنه حُطام خمسة قرون من التعدين. وإلى يساره مباشرة مجموعة مبعثرة على نحو يكاد يكون متماثلًا من كتل صخرية توشي بألها بقايا ماو قديمة. وباستثناء الكثير من كِسَر الخَزَف الممزوجة برمل أرضية المُدرِّج، لم يكن هناك أي شيء آخر. لا مباني، لا آلات، لا معدات، لا دلالة على أي نوع من أنواع النشاط الصناعي مؤخرًا.

لا منجم أيضًا حتى تلك اللحظة. فالآثار تنبثق من الممر وراءه، وتلتف حول نفسها على صورة سباغيتي متشابكة على أرضية المُدرِّج، فالشاحنات التي أحدثتها استدارت على الأرجح، وخرجت مجددًا. لا وجود لأي سبب واضح لوجودها.

تفحص المنظر الطبيعي الذي يحيط به، محاولاً اكتشاف ما يجري، ومن ثم سار إلى الأمام كما لو أنه غملة في ملعب كرة قدم، ووصل إلى وسط المكان. لقد اعتقد للحظات وجيزة أنه سمع أزيزاً بعيداً لآلات، دمدمة تكاد تكون مسموعة عند حدود مدى السَّمْع. وزال الصوت عندما حاول التوجه نحوه. فمدَّ رأسه مُصَغِّيًا، غير أنه لم يتمكن من التقاطه مجددًا، وافترض أنه من صنع خياله. رافعاً عَيْنَيْهِ،

تفرّس بالناحية الخارجية للصخور. لا شيء. لا مداخل، لا كهوف، لا فتحات من أي نوع. مجرد صخور فحسب.

دار حول نفسه 360 درجة، ومن ثم توجه إلى الجانب البعيد للمكان كاداً في السير، وتسَلَّقَ بمَشَقَّةٍ إحدى أكوام الصخور ليحصل على منظر أفضل للأرض. من الأعلى، تمكن من رؤية آثار إطارات في كل مكان مركزة كما يبدو حول جُرف في الجانب الجنوبي للمُدرَج. فحدّق في ذلك الاتجاه، مُلقياً نظرة متفحّصة داخل الظلّمة المتزايدة. لم يتمكن من رؤية أي شيء يشرح سبب وجود الشاحنات هنا. مرّت دقيقة، وكان على وشك الاستدارة عندما لفحت ريح خفيفة فجائية وجهه، ومرّت عبر الوادي الضيّق. وسمع صوت اهتزاز ناجم عن حركة - أم إنه اعتقد ذلك على الأقل - لم يدُم ذلك سوى جزء من الثانية، وساد السكون مجدداً. فانحنى إلى الأمام، وعيناه تبدّلا ن جهداً لالتقاط مشهد ما. وكانت هناك لفحة أخرى، واهتزاز آخر عند أسفل الجُرف كما لو أن الصخرة تتحرّك وتتماوج.

"ما الذي...؟"

ونزل عن المنحدر وتوجه إلى الجُرف من دون أن يكون متأكداً مما إذا كان قد رأى أي شيء في الواقع، أم إنها خُدع الغسق. وتوقف على بُعد ثلاثين متراً من الجُرف ونادى.

"سلام-الام-الام-الام!"

وتردد صدى صوته في مختلف أنحاء المُدرَج. لم يتلقَ أي جواب. وساد السكون مجدداً، علماً أنه أصبح قريباً لدرجة أنه لم يلاحظ وجود جزء مستطيل من الجدار عند أسفل الجُرف مختلف قليلاً في اللون عن بقية الجدار؛ نسيج مختلف قليلاً أيضاً، كما لو أن أحدهم...

"ذكي. شديد الذكاء."

داساً مسدس جِلوان في الناحية الخلفية لسِرواله، تقدّم في اتجاه الجُرف وأنعم النظر إليه. وبعد ذلك، مدّ يديه ووضعهما حول الصخرة وجذب. وسمع صوت خفيف في أثناء انفصال الغطاء المصنوع من الخيش عن سِناداته وسقوطه على الأرض عند قدميه. ورائه، كان هناك بابان فولاذيان كبيران مُقفلان بواسطة سلسلة وقفل، ومخفيّان بشكل غير مُتقَن ولكن بفعالية؛ فلدى النظر إليها من أي

مكان غير قريب منها جداً، لا يمكن تمييز المادة المائلة للصفرة عن الصخور المحيطة. وفي أعلى الصخرة كان هناك نقش عميق لكلمة واحدة. لم تعد معرفة خليفة بالرموز الهيروغليفية كما كانت عليه في السابق، ولكن هذا الرمز لم يكن صعباً، ولا سيما بوجود عنصر حاسم.

وسير. أوزيريس.

"نلت منك"، همس.

وسحب البابين بقوة، ومن ثم أخرج مسدسه، وسدّد وأطلق النار على القفل. فدوى الصدى بين الجدران الصخرية المحيطة، مما دفع عدداً من طيور الخطّاف إلى الارتفاع نحو السماء مذعورة. وللحظة وجيزة، اعتقد أنه سمع صوت آلات مرة أخرى، أو صوت محرك؛ صوت شيء ميكانيكي. كان من الصعب عليه تحديد مكان صدوره، والتأكد إن كان صادراً من مكان ما بالفعل وليس مجرد تخيلات. أصغى من دون أن يتمكن من سماعه مجدداً؛ إنه مجرد تخيلات. إنه كذلك بدون شك. فhez رأسه، وأمسك مقبض أحد البابين وسحب. وتدرج اللوح الفولاذي وانفتحت المتاهة أمام ناظره.

القدس

عندما اتصل خليفة، كان بن - روي يتحدث إلى سارة عبر الهاتف ليسألها إن كانت تريد منه إحضار أي شيء معه وهو في طريقه لتناول العشاء. وعندما تلقى الرسالة الصوتية من المصري، ضغط على زرّ طلب الرقم، وهما هو هاتف خليفة في صيغة البريد الصوتي. كانت التحية بالعربية، صوت امرأة - لا بد أن خليفة قد استعار الهاتف - وعرف بن - روي أنه يعمل وفقاً لنظام الاتصال عبر الأقمار الاصطناعية لأنه يتلقى إشارة وسط الصحراء. فترك له رسالة، معبراً عن قلقه من أن يكون قد قصد المنجم بمفرده، حاثاً إيّاه على الحذر وعدم القيام بمجازفات غير ضرورية.

"طمئني حالما تتلقى هذه الرسالة"، اختتم. "حالما تتلقاها. سأكون في الانتظار".

وأقفل الخط. في الناحية المقابلة من الغرفة، كان دوف زيسكي قد أنهى استفساراته عن دينا ليفي، واستدار لينظر إليه وجهاً لوجه.
"ما سبب كل ذلك؟".

فشرح له بن - روي، ورفع زيسكي حاجييه.
"أعتقد أنه سيكون بخير؟".

"أمل ذلك. إنه صديق وفي وأكره التفكير...".

لم يقل بن - روي ما الذي يكره التفكير فيه. وألقى نظرة سريعة على ساعة الجدار - لقد تخطت السادسة - وشبك ذراعيه. موعده في منزل سارة بعد ساعة ونصف، وكان يتوقع تلقي اتصال من خليفة قبل حلول الموعد.
وفي الناحية المقابلة من الغرفة، استدار زيسكي، ومدّ يده إلى هاتفه، وشرع بإدخال رسالة نصّية.

مصر

دخل خليفة المنجم، وأضاء مصباحه، ووجّه شعاع الضوء في أرجاء المكان.

كان في غرفة كبيرة، غرفة ضخمة، عميقة وأشبه بكهف، علماً أن التموجات التي أحدثها إزميل العصور القديمة على السقف والجدران تشير إلى أن المكان من صنع الإنسان وليس الطبيعة. وكان روث الخفافش يغلف الأرض بقشرة يابسة؛ وهناك رائحة تُشادر قوية. فسحب منديلاً من جيبيه، ووضع على أنفه، وخطا إلى الأمام خطى قليلة.

كانت هناك أنفاق إلى اليسار واليمين، ستة من كل جانب؛ أنابيب كالحة السواد تنتشر من القلب الأوسط للغرفة كما لو أنها دودات عملاقة تشقّ أنفاقاً داخل الصخور بحثاً عن طعام. بعضها على مستوى الأرض، والبعض الآخر على مستوى أعلى. وتحت أحد الأنفاق العلوية، كان لا يزال هناك سلّم موضوع على الجدار. فسَلَط خليفة الضوء على درجاته الجليدية الموثّقة. لقد بدت قوية كما كان حالها عندما داست آخر الأقدام عليها قبل ثلاثة آلاف عام. وسَلَط الضوء على

الممرّ تحته. كانت هناك ثلاثة مداخل، الكثير من المداخل. عدّ تسعة منها قبل أن يتتلع الظلام شعاع الضوء. فوفقاً لرسوم بينسكر التوضيحية، تؤدّي هذه المداخل إلى منطقة مكتظة بالغرف والحجيرات كانت مأوى لعمال المنجم العبيد. إنه انعزال كابوسي عن العالم حيث لا تتعدّى حياة المرء أشهراً إن لم يكن أسابيع. وحرك خليفة المصباح الكهربائي بشكل دائري، متعرّفاً إلى خربشات جدرانيسة قديمة، وصف من جرار التخزين الفخارية، وسلّة موضوعة رأساً على عقب. وبعد ذلك، وجّه شعاع الضوء عبر الغرفة نحو الفجوة المستطيلة في الجانب البعيد.

إنه مدخل الدهليز الرئيس للمنجم.

باستثناء البابين المنزلقين، لم ير أي شيء يوحي بنشاط حديث في المنجم. وهنا، عند فتحة الدهليز، يوجد دليل واضح، ولكنه ليس من النوع الذي يتوقعه. واصل ضغط المندبل على وجهه، وعبر الغرفة، شاهراً المصباح أمامه، وأكوام البراز ترتفع من الجانبين.

وكانت منصّة فولاذية كبيرة تشغل معظم مساحة الفتحة. أول فكرة تبادرت إلى ذهنه هي أنها حوضٌ للتحميل بما أنها بارتفاع مؤخر شاحنة تقريباً، وتمرّ آثار الإطارات عبر بابي المنجم وصولاً إليها. وفي أعلى المنصة سكّنا حديد على شكل L تفصل بينهما مسافة مترين، وتحدران إلى أرض الدهليز - كما لو أنهما زحلوقتان بدون قعر - وتتوجهان إلى الظلمة.

مرّر خليفة ضوء المصباح في أرجاء المكان، ومن ثم نزل تحت المنصة، ووقف في الفجوة بين سكّتي الحديد اللتين تمتدان بجانب جدران الدهليز. لقد بدا له أن شيئاً ما يُنقل من الأسفل، ويُسحب على السكّتين، ويوضع على المنصة، ومن ثم يوضع على متن الشاحنات، ويُنقل إلى الخارج. أهو معدن خام؟ ذهب؟ لا فكرة لديه مطلقاً. وخطا خطى قليلة إلى الأمام. لقد خنقه السواد؛ سواد كثيف لدرجة أنه كان باستطاعته الشعور به كما لو أنه يشق طريقه عبر خيوط عنكبوت. وكانت هناك أشكال تنساب وترفرف؛ خفافيش أجفلتها الإضاءة الفجائية. وتواصل امتداد سكّتي الحديد. فتقدّم خطى قليلة أخرى، واستمرّ امتداد سكّتي الحديد. لقد جاب بينسكر الدهليز وقدّر أنه يمتدّ مسافة ميل. هل تمتد سكّنا الحديد وصولاً إلى الأسفل؟ لا فكرة لديه، علماً أن شيئاً ما يُنبئه بأنه واقع الحال. فأيّاً يكن

ما يُنقل إلى الأعلى فهو يأتي من المستويات الأكثر عمقاً للمنجم. ولاكتشاف ما يتم نقله، يتعين عليه النزول إلى هناك.

عاد إلى الورا. كان قلبه يخفق بقوة، ونفسه يضيق، ويلهث بسرعة. لم يكن يجفل بسهولة. فالظلام والمساحات الضيقة لم تكن تُقلقه قط. لقد قام مرات عديدة باستكشاف المدافن الأكثر ظلمة، بمفرده، في التلال المحيطة بوادي الملوك؛ مدافن لم يزرها السيّاح قط ويتعين النزول إليها ديبياً على اليدين والركبتين، هذا إن لم يكن زحفاً على البطن. كان عادة يستمتع بالإثارة.

ولكن، ليس اليوم، لأنه يجفل بسهولة بخلاف أي وقت مضى. هناك أمر بغضب في شأن السواد، والصخور المحيطة به، والأنفاق والسرايب المربكة التي توحى ببؤس بشري. إنها أكثر من كونها بغیضة؛ إنها مهدّدة. فالمنجم برمته يبدو... أنه يُضمر السوء.

عاد إلى الورا أكثر فأكثر، إلى خارج الدّهليز وإلى مدخل المنجم، ومن ثم توجه إلى البابين.

ففي الدقائق العشر التي قضاها في الداخل، أصبح المكان في الخارج أكثر ظلمة بشكل ملحوظ. كان لا يزال يبدو مناراً مقارنةً مع السواد الذي خبره للتوّ. وتنشقّ الهواء.

لم يتمكن من القيام بذلك. لم يستطع النزول إلى الأسفل. ليس بمفرده. كانت الأمطار الخمسة سيّئة بما يكفي، أما النزول مسافة ميل فأمر مستحيل. سيقصد المنزل ويعود في يوم آخر مع زملاء، ودعّم. إنه يعرف الآن مكان المنجم، ويعرف كيفية الوصول إليه. ريفكا كلينبرغ، شركة بارين، زوسير فريت؛ باستطاعة الأجوبة أن تنتظر. سيكون عليها الانتظار لأنه من المستحيل...

وعاد إلى الداخل، وتوجّه إلى المنصة، ونزل تحتها وصولاً إلى الدّهليز مجدداً. لقد بدت الظلمة أكثر إيداناً بالسوء كما لو أن الجوّ نفسه يُنذره بضرورة المغادرة. حرّك المصباح جيئةً وذهاباً، شاقاً الظلام، ومتسائلاً عن كيفية تعاطي سامويل بينسكر مع هذا الوضع بنجاح. أي نوع من الجنون الهاجسي سحب الإنكليزي إلى داخل المنجم، وأبقاه هناك في الأسفل بمفرده طوال أسابيع متتالية، زاحفاً وسط

ظلام دامس، وباذلاً جهداً كبيراً لوضع خارطة للمكان؟ إن التفكير بذلك جعل خليفة يشعر بالغثيان.

حرك المصباح مجدداً، فكشفت الجدران والسقف عن نفسها قبل أن تغرق مجدداً في ظلام لا يمكن اختراقه. ومرت دقيقة، ومن ثم دقيقتان، ولم يكن يسمع سوى تنفسه الأجشّ وصوت رفرفة أجنحة الخفافيش من حين لآخر تحته. وبعد أن أجفل كما لو أنه على وشك الدّفع بيده إلى داخل شُعلة، وضع المنديل في جيبه، وأخرج مسدسه من الناحية الخلفية لسرواله، وانطلق إلى الأمام بين سكّتي الحديد. "الله يحميني"، أنشد، "الله يرعاني، الله نوري".

تقدّم بحذر في بادئ الأمر، وهو يخطو ببطء، ويجرّ قدميه بتردد على منحدر الدهليز. كان يستدير مراراً وينظر إلى الوراء، إلى همس النور الذي يكاد يكون محسوساً عند مدخل المنجم، وكل خلية في جسده تحته على الاستدارة والركض بأقصى سرعة في اتجاهه. لقد قاوم هذا الحثّ وتابع سيره. وعندما اختفى النور بعد نحو مئتي متر، زاد من سرعة تقدّمه بهدف الوصول إلى المكان الذي تؤدي إليه سكّتا الحديد، والعودة بأقصى سرعة ممكنة. "الله يحميني، الله يرعاني، الله نوري".

وانفتحت أنفاق وممرات أخرى على الجانبين. حاول عدّها، ولكنها كانت عديدة لدرجة أنه سرعان ما تخلّى عن المحاولة. فبعضها يميل إلى الأعلى، وبعضها ينحدر نزولاً، والبعض الآخر واسع بوسع الدهليز الرئيس، ويكاد سواها لا يتسع إلا لشخص واحد فقط. فوفقاً لدفتر مدوّنات بينسكر، إنها تتفرّع وتنقسم إلى أنفاق وممرات أخرى تتفرّع وتنقسم بدورها مع شقّ المتاهة طريقها عبر الصخور، متناميةً ومنتشرةً ومتضاعفةً ككائن حيّ هائل من نوع ما يتضاعف ذاتياً. لقد جعله التفكير بهذا الأمر يرتعد. فالوضع في الدهليز المستقيم كان سيئاً بما يكفي، فكيف سيكون في الأنفاق والممرات المتداخلة. إن فكرة المجازفة خارج الدهليز الرئيس، وفقدانه نقطة انطلاقه في شبكة الممرات المعقّدة هذه... وأخرج السيناريو من رأسه. ربما كان بينسكر مجنوناً بما يكفي لاستكشاف المكان، ولكن خليفة لن يجيد سنتيمتراً واحداً عن هدفه. كان ينزل، ويصعد، ويخرج مجدداً. كلما كان الأمر أسرع كان ذلك أفضل.

"الله يحميني، الله يرعاني، الله نوري".

لقد عبرت سكّتنا الحديد عدة مرات غرماً كهفية كتلك الموجودة عند مدخل المنجم؛ غرماً تحت الأرض واسعة مع أعمدة منحوتة في الصخر، وسقوف لا تزال تحمل بُقع دخان المشاعل القديمة. وفي أثناء عبوره دهلزاً جانبياً عميقاً، لمح حفرة في الأرض أشبه ببركة حبر أسود (لقد أشار بينسكر إلى هذه الحفرة؛ فقد أنزل حبلاً داخلها ليسير أغوارها، فلم يصل الحبل الذي يبلغ طوله مئتي متر إلى قعرها).

لقد فكر في أكثر من مناسبة بالعودة؛ إنه الشعور بالهلع المتنامي في داخله. وكان باستطاعته الشعور بوجود أمر سيئ بانتظاره هناك في الأسفل، أمر شرير لا يُفترض به السير في اتجاهه. وعاد على أعقابهِ مرتين، وهَمَّ بالعودة إلى سطح الأرض، ولكنه كان يُرغم نفسه على العودة ومواصلة النزول.

وكان الظلام يلفّه باستمرار، والصخور تضغط عليه، وسكّتنا الحديد تواصلان النزول أعمق وأعمق إلى جوف الأرض.

"الله يحميني، الله يرعاني، الله نوري".

وبدأ الدهليز بالانحدار أكثر فأكثر. وأصبح الهواء أكثر سخونة، وظهرت قطرات ماء غريبة على الجدران. وامتزجت رائحة معدن صدئ مُبهمة مع رائحة النشادر اللاذعة المنبعثة من روث الخفافيش.

وانبعثت أيضاً رائحة أخرى لم يتمكن من تحديدها على الفور، ولم يتمكن من معرفتها إلا بعد أن ازدادت حدّتها؛ إنها رائحة ثوم. وكلما نزل أكثر فأكثر، ازدادت حدّة، مألوفة منخريه، ومتغلّبة على أي رائحة أخرى. عندما كان فتى يتعرّع في ظلال الهرم، اعتادت والدته تعليق الثوم فوق باهم الأمامي. وباستطاعته الآن شمّ رائحته هنا في الأسفل، في منجم حيث لا سبب البتّة لوجوده. لقد أجفله وجوده أكثر مما أجفله السواد ومناهة الممرات والأنفاق المُربكة، وأفقدته القدرة أيضاً على معرفة الاتجاه، وجعله يتساءل عمّا إذا كان قد بدأ يفقد اتّزانه، وإن كانت هذه الرائحة مجرد رائحة خادعة ناجمة عن الدُعر.

وعندما بدأ يشك في نفسه في ما يتعلق بهذه المسألة، انتابته شكوك أخرى. ما هذا النّقر الخافت الذي يسمعه في الأعماق، أم إنه صدّى وقع خطاه ليس إلا؟ أهـي همسات في الظلام، أم تسارع تنفّسه ببساطة؟ وظنّ مرة أخرى أنه يسمع صوت

آلات. وفي مرات عدة، كان واثقاً تماماً من رؤيته أشخاصاً يتحركون في الأنفاق الجانبية، أشكالاً طيفية غير محدّدة تنسلّ عند أطراف مدى البصر. وعندما يحاول مفاجأتهما بواسطة ضوء مصباحه، تختفي. وتكرر الأمر عندما حاول التركيز على الأصوات. وحدها رائحة الثوم صمدت. إنها هناك بلا ريب، وهو لا يتخيّلها بالتأكيد. فهي تزداد قوة على غرار نبض صيدغيه، وخفقان قلبه المكثوم، واقتناعه بأن شيئاً مُرعباً ينتظره في الأسفل هناك في الظلام.

ومع ذلك واصل السير، مقاوماً أفكاره المُحبطة كلما تقدّم بوصة بحثٍ من رغبته في معرفة ما يجري، والتي فاقت شعوره بالخوف الهائل. واصل نزوله في المنجم حتى وقع ضوء مصباحه فجأةً على شيء ما أمامه، بعد مضيّ ما خيّل إليه أنه ساعات، وتبيّن له أنها أقلّ من ثلاثين دقيقة وفقاً لساعته.

كان الدهليز ينحدر بقوة، حيث إن هناك درّجاتٍ قد حُفرت في الصخر للمساعدة على النزول. فتوقف عن متابعة تقدمه، ثم جلس القرفصاء. ومدّ مصباحه وحرّك شعاع ضوئه، محاولاً اكتشاف ما يوجد في الأسفل. وأياً يكن ما هو موجود، فقد كان عند حدود متناول المصباح تماماً، ولم يستطع رؤيته بوضوح. "مرحباً!"

وبدا صوته خافتاً كما لو أن شيئاً ما يُعيق مروره ويمنع أي صدى.

"مرحباً!"

لا شيء.

تقدّم خطوتين أخريين جازاً قدميه. وأصبحت رائحة الثوم قوية جداً لدرجة أنه وجد صعوبة في التنفس. من الأفضل إبقاء المنديل على فمه وأنفه، ولكن لم يكن بإمكانه حمل المنديل والاحتفاظ بمسدسه مُشهرّاً في آن واحد، سيّما وأنه لم يكن يعتزم ترك نفسه بدون حماية، لذلك تحمّل الرائحة الكريهة. "مرحباً!"

حتى ذلك الحين، لم يكن قد اتّضح له بعد ما يوجد في الأسفل، علماً أنه كانت هناك أشكال من نوع ما، حافات مقوّسة تلوح في الظلّمة. لقد بدا الأمر كما لو أنها تملأ الدهليز بأكمله من الأرض إلى السقف، وسكّنا الحديد تمرّان وسطها. أهذا انحياز صخري؟ ونزل درّجة إضافية، محاولاً التغلّب على دفع

السواد له إلى الورا. ووقع شعاع الضوء على شيء ما مستدير كالعجلة، وعلى خطّ كفا في لحافة أو إطار متعصّن. إنه من صنع الإنسان، ولا يمكن الإخطاء في ذلك.

"ما...؟".

ومدّ قدمه في اتجاه الدَّرَجَة التالية بتردد كما لو أنه يغمس إصبع قدمه في مياه مثلّجة. وفي الوقت نفسه، قوَّس جسده إلى الورا مخافة طيران شيء ما من الأسفل في اتجاهه. ولكن شيئاً لم يحدث. فاطمأنّ، وشرع بالانحناء إلى الأمام، ولكنه شعر بالتوتر فجأةً. فدار حول نفسه، وسقط على ركبته، مُصوّباً مسدسه إلى الظلام. وسمع في مكان بعيد في الأعلى صوت آلات، أو محرّك؛ صوت شيء ميكانيكي.

كان قد سمع أصواتاً غريبة هنا من قَبْل، ولكنها تبخّرت لحظة محاولته التقدّم في اتجاهها. ولكن، هذه المرة، استمر الصوت الذي أجفله؛ دمدمة غامضة ومخيفة كما لو أن المتأهة نفسها تننّ. فأصغى بتركيز، وشعاع الضوء ينتفض بسبب ارتعاد يده. لقد كان من المستحيل تحديد مصدر الصوت. إنه صادر من الأعلى، هذا كل ما استطاع تأكّده، ومن الطريق التي قدّم عليها. أصغى لمدة دقيقة من الزمن بنفس ثقل تارةً وبلهاتٍ غير منتظم طَوَّراً. وبعد ذلك، وقف وهمّ بالعودة، غير آبه بما سبّب الانسداد وبأي شيء آخر سوى الخروج من المنجم.

اجتاز عشرين متراً وتوقف. كانت الدمدمة لا تزال مسموعة بالوتيرة نفسها. واصل السير، ثم توقف مجدداً. كان لا يزال يسمعها، علماً أنها مصحوبة بصوت آخر: طقطقة مكبوتة هادرة من نوع ما كما لو أنها عَجَلات بعيدة تسير على سكك حديد. فحرّك ضوء مصباحه بسرعة في اتجاه الظلام، محاولاً اكتشاف ما يجري، ولاعنأ نفسه لنزوله إلى الأسفل. بدا له أن صوت الطقطقة يزداد ارتفاعاً شيئاً فشيئاً. وقف للحظات مسرّاً في مكانه ومشدود الأعصاب لدرجة أنه شعر بأن كل جسده سينهار. وبعد ذلك، خطا في اتجاه اليمين، ووضع قدمه على سكة الحديد. لقد ارتفعت ذبذبة خفيفة على امتداد ساقه. وفعل الأمر نفسه على السكة الثانية. هناك أيضاً بدا المعدن يترّ تحت حذائه. هناك شيء ما متّجه نحوه، شيء كبير بسبب الارتفاع المطّرد لصوت تقدّمه. فتراجع، وصوّب مسدسه، ووضع

قدمه على السكة مجدداً. لقد ازدادت الذبذبة قوة في غضون خمس دقائق. أياً يكن هذا الشيء، فهو ينزل بسرعة.
"الله أكبر"، هسهس.

وحرّك مصباحه في الاتجاهين. إلى يساره جدار صخري، وإلى يمينه ممر جانبي، وهو أحد الممرات الأكثر ضيقاً، ولا يزيد عرضه عن متر واحد، ويكاد لا يتسع له في الارتفاع. تساءل عما إذا كان يُفترض به الاختباء فيه، ولكنه بدا ضيقاً جداً، ومُسبباً لرُهاب الأماكن المغلقة كثيراً، ومُضمرّاً السوء إلى حد كبير، لدرجة أنه لم يتمكن من حمل نفسه على القيام بذلك. لم يتمكن من حمل نفسه على القيام بأي شيء سوى الوقوف هناك بين سكتي الحديد، والمسند والمصباح مصوّبان إلى الأمام، مسمّراً في مكانه كأرنب بين مجموعة من مصابيح السيارات الأمامية. وبجانبه، بدأت السكتان تهتزّان.

"توقف!". صاح. ومن ثم، بصوت أعلى: "توقف! الشرطة!".
كان ما يفعله أمراً مثيراً للسخرية، ومُضحكاً بسبب عدم فائدته. لقد أصبحت الطقطقة مرتفعة جداً لدرجة أنه لم يتمكن من سماع صوته. وإذا كان هناك أشخاص على متن ذاك الشيء الذي ينزل - مقطورة قطار كما اعتقد - فلن يكون هناك أي أمل بأن يسمعه. وإذا فعلوا، فما الذي سيقومون به؟ هل سيتوقفون ويرفعون أياديهم، ويقولون إنهم آسفون، ويضعون أنفسهم رهن تصرفه لاعتقالهم؟ يا للسُخف! ولكن الدُّعر يحملكم على القيام بأمر سخيف. وصاح مرة ثانية وثالثة، ملوّحاً بالمصباح، وأملاً في أن يروا شعاع الضوء ويتيقنوا من وجود شخص ما هنا.

"النفق مسدود!". صاح. "توقفوا الآن! الشرطة! إنه مسدود!".
لا شيء. وغدت الطقطقة أعلى، وازداد صوتها ارتفاعاً حتى غدا مُصمّاً للآذان كما لو أن قطار شحّن بأكمله ينطلق بسرعة فائقة على المنحدر في اتجاهه. وتماوجت السكتان، متلهفتين للإفلات من مسامير الرّبط التي تثبّتتهما بأرضية الدّهليز. وبات ذاك الشيء قريباً، قريباً جداً. ومع ذلك، صاح مجدداً وبأعلى صوته. شاعراً باليأس، أطبق إصبعه حول زناد جِلوان وأطلق النار في الظلام. مسدّداً على الناحية السفلية. ومع ذلك، استمر ذاك الشيء بالتقدم. أطلق عيار

نارياً آخر من دون الحصول على أي نتيجة. كان الدهليز يهتز بأكمله. وبدت الظلمة أمامه تنتفخ كموجة مرتفعة. طلقَتان إضافيتان ورأى حركة عند حدود شعاع ضوء مصباحه. لم يكن لديه سوى جزء من الثانية ليشاهد ما بدا كأسطوانة كبيرة أو محدلة تندفع نزولاً على سكّتي الحديد قبل أن يقفز جانباً إلى داخل النفق الضيق.

لقد أساء تقدير المسافة، وعلق طرف حدائه بالسكة، فتعثّر وسقط إلى الأمام داخل فتحة النفق. وعلى نحو فطري، مدّ يده لإيقاف عملية السقوط، فأفلت المصباح من قبضته، وغرق في الظلام. بحث عن المصباح باضطراب بواسطة كفيه. وعلى بُعد سنتيمترات قليلة وراءه، مرّ ذلك الشيء بسرعة كبيرة مصدراً هديرًا راعداً.

ولكنه لم يكن قد تجاوزه بعد، بل استمر بالمرور، لا بل استمرّ المزيّد منه بالمرور. في الظلام، لم يكن باستطاعته معرفة ما إذا كان ما يمر أمامه شيئاً واحداً أو سلسلة كاملة من الأشياء؛ الواحد تلو الآخر. وللحظات وجيزة ومضطربة، وجد نفسه يفكر في أنه ربما يكون جهازاً ضخماً للحرف أرسل لإزالة العقبة في الأسفل. فإذا كان الأمر كذلك، فهو لم يتمكن من إتمام المهمة لأن دويّاً سُمع بعد أربع ثوانٍ؛ اصطداماً يصمّ الأذان حصل لدى ارتطام هذا الشيء - أو الأشياء - بالعقبة وجهاً لوجه. وبدا الأمر كما لو أن المنجم يتأرجح بأكمله. وتطاير عليه وابل من الغبار وحطام الصخور. وازداد الصوت حدّة مقارنةً مع ما كان عليه عندما مرّ هذا الشيء قربهِ، فقد اصطدم بالرُّكام وتخطّم في الدهليز. أُصيب خليفة بالسدّعر، وفشل في العثور على المصباح الكهربائي، مرّر يده باضطراب على الأرض ذهاباً وإياباً، متوسّلاً إلى الله لمساعدته للعثور عليه. ولكن أدعيته لم تُستجَب، وبارتداد أصوات الاصطدام ببطء في اتجاهه، لم يكن أمامه سوى خيار التخلي عن المصباح وجرّ نفسه إلى عمق الدهليز لتجنّب التعرّض للأذى.

وبعد اجتيازه أمتاراً قليلة، تدرّج ووقف على قدميه بصعوبة. كان السواد يلفّه. تلمّس بيده جدار الدهليز، وضغط عليه لتثبيت نفسه، ووقف هناك مُصغياً في أثناء تردّد صدى الصَّخَب المكتوم للمعدن المتخطّم في المنجم. لم يكن يملك أي فكرة عمّا يجري، فقد كان ضريباً مثل إيمان البدرى. كل ما باستطاعته تأكّيده هو

قدوم شيء ما - أو أشياء كثيرة - من الأعلى وتحطّمه، وتحرك الأشياء في اتجاهه مع امتلاء الدهليز بالحطام بسرعة. كان ذلك الشيء يقترب منه أكثر فأكثر، وصوته يعلو أكثر فأكثر، فيما ارتجاجات الصخور تزداد حدةً تحت قدميه كما لو أنه يقف معصوب العينين بجانب طريق عام يشهد أكبر حادث اصطدام جماعي للسيارات.

ومن ثم أصبحت الأصوات أكثر انخفاضاً، وابتعدت إلى يمينه بعيداً عن الدهليز، وتراجعت الارتجاجات بالتدرّج، ونخفت الصوت، علماً أنه لا يزال موجوداً.

تسمّر خليفة في مكانه لمدة دقيقة تقريباً، محنطاً بالسواد. وبعد ذلك، تقدم خطى قليلة، مرتعداً ومحتنقاً من رائحة الثوم الكريهة التي أصبحت قوية جداً وجعلت الدموع تترقرق في عينيه، ومدّ يده، فلمس شيئاً معدنياً. "الله أكبر".

تلمّسه صعوداً، ومن ثم نزولاً. إنه متشابه؛ نتوءات وحروف، إضافةً إلى نوع من الغبار الدقيق كالبودرة ينسكب من الشقوق في المعدن.

إنها براميل، براميل ضخمة. لقد تدرّجت من الناحية العلوية، واصطدمت ببعضها، وتغنّنت، وتمزّقت، وأريقّت محتوياتها.

كانت فتحة الدهليز قد سدّت بسببها من الأعلى إلى الأسفل، ومن الجانبين. من دون وجود أي شقّ يمكنه تمرير أصابعه عبره. إنه باب زنزانة مُقفّل في سجن يحظى بحراسة أمنية مشدّدة.

كان بمفرده، خائفاً ومسجوناً في سواد المتاهة.

القدس

عند السادسة وخمس وأربعين دقيقة، بدأ القلق يعتري بن - روي، فاتصر بخليفة، وحين ردّ عليه بريد صوتي، ترك رسالة. واتصل مجدداً بعد خمس عشرة دقيقة، ثم مرة ثالثة بعد عشرين دقيقة، تاركاً رسالتين في الاتصالين من دون الحصول على أي إجابة.

وعندما وصل إلى منزل سارة عند الساعة وخمس وأربعين دقيقة مساءً، ازداد قلقه بشكل جذّي.

"هناك رائحة زكية"، قال في أثناء مرافقتها له إلى داخل الشقة، ومُختلساً نظرة إلى هاتفه المحمول.

"شولنت بلحم الضأن".

"يوم الثلاثاء؟".

"إذا كنت ستصّب كل انتقاداتك على الطّبق، فسأطلب البيتزا".

فأمسك بذراعها، وأدارها نحوه، وقبّلها على أنفها. فالشولنت بلحم الضأن طبّقه المفضّل. كانت قد بذلت جهداً ليس بالطهو فحسب، بل لتبدو رائعة أيضاً؛ إذ كان شعرها مُسدلاً وممشّطاً، وقد وضعت القليل من العطر، فيما ظهر انتفاخ الحُمْل تحت قماش فستانها. إنها جميلة كما اعتاد رؤيتها على الدوام. كان يعتزم بذل جهد أيضاً. كانت قد اشترت له قميص تيد بايكر بمناسبة ذكرى ميلاده الأخيرة، وخطّط لارتدائه، ورشّ القليل من عطر ما بعد الحلاقة المفضّل لديه أيضاً. ولكنه لم يحظَ بالوقت الكافي للذهاب إلى المنزل وتبديل ملابسه بسبب انشغاله بخليفة. حتى إنه لم يتمكن من شراء أزهار لها. وألقى نظرة سريعة على هاتفه. لا شيء. ماذا يحدث بحقّ الجحيم؟

"هناك شراب في الثلاجة"، قالت في أثناء مرورهما بالمطبخ.

ففتح الثلاجة وأخرج زجاجة شراب وسألها: "أتريدين واحدة؟".

فرمقته بنظرة، وأشارت إلى الانتفاخ.

"بالطبع، آسف".

فتح الزجاجات وتناول جرعة. كانت سارة في حركة ناشطة حول جهاز الطّهو، والموسيقى تعزف في غرفة الجلوس؛ جوني ميتشل، أوّل سي دي اشتراه لها. إنها تبذل جهداً في الواقع، وحاول التركيز.

"هل البويو بخير؟". سأل.

"كل شيء بخير. هل تريد أن...".

وأدارت بطنها في اتجاهه. فدنا منها وضغط بيده عليه.

"كلما فكرتُ بذلك الاسم الذي اقترحتَه، أعجبن أكثر فأكثر"، قالت.

"وأنا أيضاً".

"ماذا عن اسم آيريس إذا كانت فتاة؟".

وانقبض، فأيريس هو اسم المومس التي تحدّث إليها في نيفي شَعْنان.

"ربما لا"، قالت قارئة تعابير وجهه. "سأواصل التفكير".

وضغطت بيدها على يده، والتقت نظرهما وابتسمت.

"من الجيد أن تكون هنا يا آري".

"من الجيد أن أكون هنا. يُسعدني ذلك حقاً".

لزما مكانيهما للحظات، في حين كان بن - روي يُمسك بإحكام، وعلى نحو لا إرادي، الهاتف المحمول الموضوع في جيب سرواله. وبعد ذلك، دنت منه على أطراف أصابعها وقبلته؛ إنها قبلة خفيفة وسريعة، ولكن على شفّتيه. ثم استدارت نحو جهاز الطهو وحركت محتويات القدر.

"لماذا لا تخرج إلى الشرفة؟ أكاد أنتهي من عملي هنا. باستطاعتك إضاءة الشموع في أثناء وجودك هناك".

ورمت له علبة إقّاب، فالتقطها وأعرب لها مجدداً عن مدى سعادته بسبب وجوده معها - آملاً أن يعوّض التكرار واقع عدم تكبّده عناء ارتداء ملابس نظيفة - وخرج. كانت هناك طاولة مرتّبة مع أزهار وشموع، ووعاء زيتون، وسلّة خبز بيتا. ولدى النظر إلى الطاولة، تبين له أنه ليس الوحيد الذي يفكر في عودتهما إلى بعضهما.

تناول حبّتي زيتون، وأضاء الشموع، واحتسى شرابه. وبعد ذلك، أغلق الباب بقدمه ببطء، وأخرج هاتفه المحمول وطلب رقم خليفة مجدداً. "يعتريني القلق عليك. أنا شديد القلق. اتصل بي حالما تتلقى هذه الرسالة. هل اتفقنا؟".

وأتمى الاتصال في اللحظة التي خرجت فيها سارة.

"يبدو أنك تشعر بالذنب"، قالت.

"فقط لأن أفكاراً غير ملائمة تعتريني حيالك"، قال كاذباً، وداساً الهاتف في

جيبه الخلفي.

فضحكت، ووضعت ذراعيها حول عنقه.

"أعتقد أنها ستكون أمسية جيدة".

"وأنا أيضاً. أمسية جيدة حقاً".

وعانقها بدوره، وضمّها إليه، مُعرباً لها عن مدى جمالها.
في هذه الأثناء، كان يفكر في المتاهة، ويرغب في أن يرن هاتفه المحمول.

المتاهة

قضى خليفة ثلاثين دقيقة، محاولاً إبعاد البراميل التي تسدّ مدخل النفق، وراكلاً إياها. ولكنه لم يتقدّم بوصة واحدة. لقد أدخلتها قوة الاصطدام ببعضها، صاهرةً إياها معاً. ولو تمكّن من إبعاد أحدها بأعجوبة، لما أحدث ذلك فرقاً كبيراً. وأنباء الصوت المتواصل لتصادم المعدن - كان لا يزال مسموعاً ولو قليلاً - أن الدهليز الرئيس المؤدي إلى المنجم لا بد أن يكون قد سُدّ مسافة مئة متر على الأقل، إذا لم يكن أكثر، من مكان وجوده. لقد احتجزته مئات، وربما آلاف البراميل، في الداخل. سيكون عليه العثور على طريق أخرى للمغادرة.

إذا كانت موجودة.

"النجدة!". صاح شاعراً بحريق في حلّقه بسبب رائحة الثوم اللاذعة القادمة كما يبدو من داخل البراميل. "النجدة! رجاء، النجدة! النجدة!".

ولكن، من دون جدوى. كان يدرك تماماً أن الأشخاص اليائسين يقومون بأمر لا جدوى منها. وكانت فكرة شق طريقه عبر المتاهة، من دون أن يرى أي شيء، لا تُحتمل...

فاستدار في مواجهة النفق. كان الظلام كثيفاً لدرجة أنه لم يكن يحمل أي لون ولا يمكن اختراقه. فراغ تامّ بدا أمامه اللون الأسود الأكثر قتامةً باهتاً. لَوَح بيده مرةً، ومرتين، وثلاث مرات. ومن ثم، شرع بجَرّ قدميه ببطء إلى الأمام، وبدا صوت اصطدام البراميل البعيد الإيقاعي كما لو أنه يردد صدى نبضات قلبه.

فتحاته عميقة جداً، أروقتة عديدة جداً، إنه مُربك بتعقيده، لدرجة أن المرء يضع كليباً عندما يلج مدخله، ويخبر ديدالوس نفسه.

كان يتقدّم خطوة خطوة، ناعراً الأرض بقدمه، وخائفاً من وجود حفرة أخرى كتلك التي رآها لدى عودته إلى الدّهليز. كان النفق ضيقاً ويتراوح عرضه بين متر ومتر ونصف، ولا يزيد ارتفاعه عن المترين. مدّ يده اليسرى إلى الأمام متلمّساً، وممسكاً بمسدس حلوان بيده اليمنى. إنه لا يرى أي شيء بالتأكيد، ولكن إدراكه أنه يحمل المسدس يمنحه القدر اليسير من الارتياح. ففي مأزقه الحالي، إنه بحاجة إلى كل ما يمكنه الحصول عليه.

كان الممرّ مستقيماً، والأرض مسطّحة، وبدت الجدران منقوشة بترتيب على غرار المدافن في وادي الملوك. لم تكن هناك أنفاق جانبية، أو إنه لم يتمكن من العثور على أيّ منها. لقد شعر جزء منه بالارتياح؛ فالأنفاق الجانبية تعني اتخاذ قرارات، وتعقيدات، واحتمال أن يتوه في شبكة المتاهة الخبيثة.

وكان جزء منه قلقاً، ويزداد هذا القلق مع كل خطوة مترددة يقوم بها. فمن الأهمية بمكان التمسك بأي أمل للخروج، لذا شق طريقه عبر المتاهة، وبقي على أقرب مسافة ممكنة من سكة الدّهليز الرئيس، ولكن النفق بدا كما لو أنه يُبعده عن تلك السكة أكثر فأكثر في اتجاه المجهول.

لم يكن هناك الكثير مما يستطيع القيام به، وهكذا شق طريقه ببطء وهو لا يسمع سوى صوت تنفّسه المذعور، والاهتزاز المتواصل للبراميل في مكان ما بعيداً. لقد لمست يده فجوة قليلة العمق بحجم قبضة يد في الجدار المسطّح بخلاف الجدران الأخرى. وبعد اجتيازه مسافة قصيرة، تحطّم تحت قدمه شيء ما تبيّن له عندما انحنى للتحقق منه أنه كسر جرّة محطّمة أو إناء محطّم. وعدا عن ذلك، لم يواجه أي معالم أو أشياء أخرى؛ لا شيء سوى الأرض، والجدران، والظلام الخانق، والغامر.

وبعد ذلك، انتهى النفق فجأةً.

"آه، يا الله! لا".

داساً مسدس حلوان في الناحية الخلفية لسرواله، تلمّس المكان بكلت يديه. أمامه، كانت هناك صخرة صلبة. فربّت على الجهة اليسرى، واليمنى. وعلى السقف. لم تكن هناك أي فجوات، ولا حتى أيّ تصدّع. إنه طريق مسدود.

وربّت مرة ثانية، وثالثة مستكشفاً كل بوصة من الجدار. ومن ثم استدار. وأسند ظهره على الجدار، وانزلق على الأرض. وفي أثناء قيامه بذلك، توقف أخيراً الصوت المكتوم الصادر عن اصطدام البراميل ببعضها. وساد سكون أشبه بسكون القبر. فثنى ركبتيه نحو الأعلى ووضع ذراعيه حولهما. لقد دُفِنَ حياً.

القدس

شملت المقبّلات التي أعدّتها سارة في المنزل طبق بابا غنّوج، وهو من أطباق بن - روي المفضّلة. أطفأ أضواء غرفة الجلوس، وجلسا على الشرفة على ضوء الشموع. كانت هناك نجوم في السماء، وعبير زهر المغنوليا يصل إليهما من الحديقة في الأسفل. وحلّ إليّ أنكري مكان جوني ميتشل. كان الأمر سيبدو مثالياً لو لم يكن قلقاً إلى هذه الدرجة. "يبدو أن مشروع المسرحية قد توقف"، قالت ملتقطاً قطعة خبز بيتا من السلة وقاسمةً إيّاها إلى نصفين. كان قد استرق النظر إلى الهاتف المحمول في يده تحت الطاولة، واختلس نظرة إلى شاشة العرض. ولكنه رفع نظره لدى سماعه ذلك قائلاً: "آه لا!"

وحركت سارة خبز البيتا بشكل دائري في سائل التغميس. وسمعنا اليوم أن مانخا الرئيس قد أوقف تمويله. "ألا تستطيعون إيجاد مانح آخر؟". "ليس في الجوّ السائد. لقد أسقطت المصالحة من الحساب". "آسف".

فهزّت كتفيها، وقضمت زاوية البيت. "إن جزءاً مني يشعر بالارتياح، وهذا إحساس شديد الغرابة. الأمر أشبه بمراقبة شخص ما تحبه وهو يموت ببطء. من الأفضل وضع حد لمأساته. لدينا مهلة شهر تقريباً، ومن ثم سوف...".

ودوّت موسيقى هافا ناجيلا في حضن بن - روي، فرفع هاتفه على الفور، مركزاً على الشاشة. لم يكن سوى صديقه شمول. فنظرت إليه سارة عبر الطاولة، غير غاضبة، ولا متضايقه؛ وإنما... خائبة الأمل.

"آسف"، قال تاركاً الهاتف ينتقل إلى صيغة البريد الصوتي.

فمدّت يدها، وشبكت أصابعها بأصابعه.

"ظننتُ أنك ستوقفه عن العمل هذه الليلة فقط يا آري. لقد قمتَ بذلك في السابق. أنت قويٌّ بما يكفي. أعرف أنك كذلك. هيا، قاوم رغبتك الشديدة. قاوم! قاوم!"

كانت تحاول جعل الأمر يبدو كدُعابة، مما جعله يشعر بسوء أكبر. فضغط على يدها.

"اسمعي يا سارة. لا أريد تضخيم المسألة، ولا أريد لهذا الأمر أن يُفسد أمسينتنا، ولكن أعتقد أن صديقي خليفة في مأزق. سأضع الهاتف هنا...". ووضعه وسط الطاولة.

"وإذا اتصل أي شخص آخر باستثنائه، أي شخص، فأنا أقسم بالله إنني لن أجيب. وبعد أن يتصل، سأوقف الهاتف عن العمل، ويمكنك أن تفعلي بهذا الشيء اللعين ما تريدين. لا أبالي حتى إذا ألقيته في المرحاض وأغرقته".

وظهر شيء ما في عينيها يقول إنها سمعت كل ذلك من قبل، ولم تصدّقه. ولكنها أزالَت هذا الانطباع وارتسمت ابتسامة مصطنعة على وجهها.

"تبدو لي صفقة عادلة".

وضغط على يدها مرةً أخرى. وبعد ذلك، وقف جزئياً، وانحنى فوق الطاولة، وقبّل رأسها.

"شكراً لك لأنكِ امرأتِي"، قال.

"شكراً لك لأنك رجلي؛ حتى إن كنتَ الرجل الأكثر إغضاباً الذي التقيته يوماً".

وضحك بسبب هذا التعليق وجلس. وفي أثناء قيامه بذلك، ألقى نظرة سريعة على شاشة الهاتف بهدف التحقق.

"كُل"، قالت، "وإلا احتاج الطعام إلى إعادة تسخين".

المتاهة

لم يكن خليفة يملك أي فكرة عن المدة التي قضاها جالساً هناك في آخر النفق، ضاغطاً رأسه على ركبتيه، وشابكاً ذراعيه حول ساقيه، واليأس يغمره تماماً كما يغمره سواد المنجم. ربما مضت دقيقتان، وربما ساعتان، وربما يومان. هنا، يبدو أن لا معنى للوقت.

في النهاية، سحب ذراعيه، ورفع نفسه على قدميه. وقف للحظات، وفي هوامش ذاكرته يتردد صدى مقطع صغير من حديث كان قد قاله لشخص ما في وضع موحش كهذا الوضع (ثقي بالله يا آنسة مولاري. ثقي بالله ولا تيأسي أبداً). ومن ثم استدار، وشرع مجدداً بالتريث بيديه على الصخر في نهاية النفق. إلى الأعلى، إلى الأسفل، من جانب إلى آخر. إنه صلب كما كان منذ وقت طويل عندما ضربه بقوة للمرة الأولى. لا شقوق، لا فجوات، لا سبيل لعبوره. إنه طريق مسدود بكل معنى الكلمة.

ووجهه ضربة بقبضته إلى الصخر (لو كان هذا المشهد في فيلم، فكر في سرّه، لفتح مدخل مخفي من نوع ما في هذه المرحلة). وبدأ يتلمّس طريقه بموازة جانب النفق، ممرّاً يديه بشكل منهجي من الأرض إلى السقف علّه أغفل ممرّاً جانبيّاً وهو في طريقه إلى المكان. كان يعرف أنه لم يُغفل أيّ ممرٍّ لأن الجدران متقاربة إلى حد كبير ويستحيل عليه ألا يتحسس فتحة إذا كانت موجودة؛ حتى لو كان الظلام دامساً. ولكن القيام بأي شيء أفضل من الجلوس هناك عادّاً الدقائق والساعات والأيام حتى يوافيه الموت ويضع حداً لبؤسه؛ على غرار سامويل بينسكر الذي لا بد أن يكون قد عدّها. لم يشأ أن يموت مثل سامويل بينسكر. لم يشأ أن يموت، نقطة على السطر.

ودخل إيقاعاً من نوع ما؛ كان يجرّ قدميه بضعة سنتيمترات، ثم يركع، ويضع راحتي يديه على الجدار، ويتلمّس طريقه بأطراف أصابعه، ثم يلمس السقف. ثم يجرّ قدميه سنتيمترات قليلة، ويركع، ويضع راحتي يديه على الجدار، ويتلمّس طريقه...

لم يكن بحاجة إلى هذا المقدار من الدقة لاستكشاف كل مليمتر من الصخر، ولكن هناك عنصراً مهدّئاً في هذه الحركة. فقيامه بذلك ببطء، كان يُرجئ اللحظة

التي يُقرّ فيها للمرة الأخيرة بأنه حُكم عليه بالهلاك. وما دام هناك جدار لاستكشافه، فسيكون هناك أمل مهما كان ضئيلاً، وهو أمل بالرغم من كل شيء. وعندما يغطّي كل بوصة من النفق من دون العثور على سبيل للخروج فسيستسلم حينذاك لليأس.

كان يجرّ قدميه سنتيمترات قليلة، ثم يركع، ويضع راحتي يديه على الجدار، ويتلمّس طريقه...

وصل إلى حُطام الآنية المبعثرة التي صادفها من قبل - كسر سميكة ومحرّزة مصدرها جرة تخزين كبيرة من نوع ما كما هو مفترَض - ومن ثم، وعلى بُعد أمتار قليلة، وفي أثناء تمريره يديه من الأرضية في اتجاه أعلى الجدار، عثر على فجوة ضحلة في الصخر. كان قد صادف فجوة مماثلة في أثناء نزوله النفق، ولكنه تذكر أن تلك الفجوة كانت بارتفاع الكتف، في حين أن هذه الفجوة بمستوى ركبته، أم إنها الفجوة نفسها ربما وتخونه الذاكرة؟ كان من المستحيل بالنسبة له التأكد من أيّ من أحاسيسه في هذا السواد الجحيمي. توقف، مستكشفاً الفجوة بأطراف أصابعه. لم يكن عمقها يتخطى سنتيمترين، وهي عبارة عن ثلم أكثر من كونها فجوة، وانتابه شعور ما حيال ذلك. لقد تذكر أن الفجوة الأخرى كانت أكثر عمقاً وغير مستوية، مما أكد له أنهما مختلفتان. حرّك يديه إلى مكان أعلى في الجدار فلمستا ثلماً آخر بارتفاع الورك، وآخر بارتفاع الصدر، ورابع بارتفاع كتفه تقريباً. إنه ذاك الذي لمسه من قبل، كان متأكداً من ذلك؛ العمق نفسه، الملمس نفسه عند حافته السفلية. أربعة أتلّام في الجدار المسطح المنحوت بإتقان، واحد فوق الآخر. إنه أمر مثير للاهتمام.

وتلمّس بيده الناحية العلوية، وصولاً إلى السقف حيث عثر على... فجوة.

وفجأة، بدأ قلبه يخفق بقوة. فوقف على أطراف أصابع قدميه، وتلمّس الخط الكفافي للفجوة بأطراف أصابعه. إنها مربعة الشكل بقياس نصف متر تقريباً لكل من أضلاعها، محفورة بأناقة، وموجودة وسط السقف، وأشبه بالطرف السفلي لمسرب مدخنة. لا بد أن يكون قد مرّ تحتها مباشرة عندما نزل النفق من قبل.

قفز محاولاً توجيه ضربة بيده لناحية الداخلية للفجوة، ولكنه لم يتمكن من لمس الصخرة. وتلمّس الأرض في اتجاه أسفل الممر، وعاد مع حَفْنة من كِسَر الخَزَف، رماها في اتجاه الأعلى واحدةً تلو الأخرى. المَسْرَب يمتدّ مسافة إلى الداخل كما يبدو. أهو طريق مسدود آخر؟ أم مَسْلَك للفرار؟ لقد أدرك بعد موجة من الحماسة أنه ما من وسيلة لدخول المَسْرَب، في كلا الحالين.
ما لم...

وعبر إلى الجدار المقابل، ومرّر يديه على صفحته وصولاً إلى الأسفل، حيث تلمّس بأطراف أصابعه أربع حُفَرٍ أخرى بحجم تلك الموجودة في الجهة المقابلة نفسه، وقائمة على الارتفاع نفسه.

والتمع في ذاكرته أمر ما رآه قبل ست سنوات أو سبع في وادي الملوك. كان صديقه غينغر، وهو عالم في الآثار المصرية، قد اصطحبه مع ابنه علي في جولة خاصة على المدافن المُقْفَلة. وفي أثناء مرورهم وسط الوادي، توقف غينغر ليشير إلى فتحة عمودية للتهوئة تابعة للمدفن كيه في 56، كان فريق من علماء الآثار البريطانيين قد اكتشفوه مؤخراً. لقد أُحدثت حفر صغيرة في الجدران الصخرية على جانبي فتحة التهوئة.

"إنها مواطئ قَدَم"، شرح لهما غينغر عندما أشار إليها خليفة. "كان العمال القدماء يقفون منفرجي السيقان تحت فتحة التهوئة، ويستخدمونها للتسلق والنزول كالعناكب في أنبوب. الأمر سهل إذا كانت لديكم سيقان طويلة".

لم تكن ساقا خليفة طويلتين. ولكن ما يفتقر إليه في البنية الجسدية كان يعوّض عنه في قوَّره الأعمى. فدسّ مسدس حلوان عميقاً تحت سرواله، وجرّ قدميه حتى انفرجت ساقاه ولامست قدماه جداري الممر. لقد مدّد ساقيه إلى أقصى حد، ولو كان النفق أعرض بستينمترات قليلة لما تمكن من القيام بذلك. ثبّت طرف حذائه الأيسر داخل الفجوة اليسرى الأكثر انخفاضاً. وبعد ذلك، ضغط بأصابعه على الصخر لتحقيق التوازن، وتمم بدعاء سريع ورفع قدمه اليمنى بسرعة. لقد أغفل الفجوة المقابلة فكبا إلى الأمام. حاول مرة ثانية، وثالثة، ونجح أخيراً في المحاولة الرابعة. وقف هناك للحظات وقدماه مثبتتان على جداري النفق كما لو

أفهما جسر يصل بين الجهتين، وعضلاته تصرخ احتجاجاً لأنه غير معتاد على ذلك. وبعد ذلك، ترتحت قدمه اليسرى في اتجاه الفتحة التالية في الأعلى، ولكنه فقد توازنه ووقع.

"هيا!". هسهس، مُدركاً أنها فرصته الوحيدة في الواقع للخروج من النفق، وإذا لم ينجح في ذلك فسيلقى حتفه. "هيا!".

وفي المحاولة التالية، صعد ببطء قبل أن يقع. وفي المحاولة اللاحقة، تمكن في الواقع من وضع ذراعيه ورأسه داخل الفتحة قبل أن تستسلم ساقاه ويقع أرضاً. رافضاً تقبل الهزيمة، انطلق في محاولة أخرى، متجاهلاً الألم في فخذه، ورائحة الثوم الكريهة. كان يركّز كل جهوده على مهمة الصعود، معتمداً على الفتحات في الجدارين، وهدفه دخول فتحة التهوية.

وهذه المرة نجح وبلغ موطن القدم الأعلى، ووجد أخدوداً محفوراً داخل الجدار، فرفع نفسه. ووجد أخدوداً آخر، ومن ثم آخر، وهكذا كان يرفع نفسه ويتسلّق. وبعد ذلك، خرج من النفق إلى داخل المسرب.

"الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله".

منح نفسه لحظات قليلة، مُسنداً ساقيه على جدار المسرب، ومن ثم شرع بالتسلّق. لقد حُفرت دعامات في الجدارين على مسافات متماثلة، فتمكن من الصعود بدون الكثير من العناء، منتقلاً من أخدود إلى آخر كما لو أنه يصعد سلماً، ولم يبارحه الخوف من أن تؤدي فتحة التهوية إلى طريق مسدود آخر. ولكنه لم يُطِل التفكير بذلك، بل واصل شقّ عباب السواد ببطء، متحققاً من كل دعامة قبل أن ينقل وزنه إليها؛ مُدركاً أن سقوطه قد يعني كسر أطرافه والموت المؤكد. لقد طار خفاش ذات مرة من الأعلى مباشرة إلى وجهه. وشعر مرة أخرى بأنه يندفع عبر شيء طريّ ورقيق افترض أنه نسيج عنكبوت. وباستثناء ذلك، كانت فتحة التهوية نظيفة. وبعد أن تسلّق عشرين متراً إضافياً، غابت الجدران فجأة عن أنظاره، ووجد نفسه يخرج إلى مساحة مفتوحة. وبعد أن زحف مسافة متر تقريباً، هبط على أرضية مسطّحة ومغطاة بالغبار، وشعر بالارتياح بسبب خروجه من الممر، ولكن هذا الارتياح كان لا يزال مشوباً بإدراكه أنه لا يزال سجين المتاهة.

القدس

حاول بن - روي. لقد حاول حقاً. فهي تعني له الكثير، وقد بذلت جهداً كبيراً لجعل الأمسية مميزة، ولتمنحهما - لا بل ثلاثتهم - فرصة أخرى.

ولكن خليفة كان كل ما يفكر فيه. وعندما كانت سارة تتحدث إليه، وتطلعه على أمر ما له علاقة بالجنين؛ أمر شخصي وحميمي، كان يعود بنظره على الدوام إلى شاشة الهاتف، راغباً في أن تُضاء. وعندما كانت تُدير ظهرها لدخول المطبخ وإحضار شيء ما، كان يحمل الهاتف المحمول بيده ويوجّه رسالة أخرى لخليفة، ملتصقاً منه الاتصال به.

لقد حاول، لقد حاول حقاً. ولكن اهتمامه كان في مكان آخر، وتمكنت سارة من ملاحظة ذلك بوضوح كما لو أنه يومض من إطار لوحة إعلانات مُضاء بالتيون فوق رأسه. لم تقل أي شيء أو تُصاب بسُورة غضب. ولكن، قرابة الساعة التاسعة والنصف، وفي أثناء قيامها بإزالة فضلات الكعكة باللوز التي أعدها خصيصاً له - وهي من أطباقه المفضّلة - قالت له:

"عُد إلى المنزل يا آري، أو اذهب إلى المكتب، أو قُم بنزهة سيراً على الأقدام. اذهب إلى مكان ما يمكنك التركيز فيه على ما تحتاج إلى التركيز عليه".
"ولكن الوقت مبكّر. اعتقدتُ أنه يمكننا..."

"أنتَ لستَ هنا يا آري. إذا كان صديقك يواجه المتاعب، فأنا أعتقد أنه يُفترض بك أن تكون حيث يمكنك التركيز على هذا الأمر وليس الجلوس من دون التحدث إليّ إلا نادراً".

حاول الاحتجاج وإقناعها بأن تسمح له على الأقل بالبقاء لمساعدتها على غسل الأطباق، ولكنها أصرّت بمرارة وليس بغضب. لم يسبق له أن رآها حزينة على هذا النحو. لقد أنبأه شيء ما بأنه فقد الفرصة؛ الفرصة الأخيرة.
فوضع هاتفه في جيبه، ورافقها إلى الباب الأمامي. وعندما فتحت له الباب حاول أن يقبلها، ولكنها أدارت وجهها عارضةً عليه خدّها.

"آسف"، قال.

"وأنا أيضاً".

"لقد أمضيتُ وقتاً ممتعاً".

لم تصدّق ذلك. وسمحت له بتقيل بطنها، وأعربت عن أملها في أن يكون خليفة بخير. وبعد ذلك، عادت إلى الوراء، وأغلقت الباب.

"سأتصل بك"، صاح.

لم يتلقَ أي إجابة، ولم يكن واثقاً من سماعه نشيجاً مكتوماً صادراً من الداخل.

المتاهة

"سلام!".

وتردد صدى صوت خليفة. وفقاً للصدى، كان في كهف أو غرفة كبيرة كتلك التي مرّ بها في أثناء عبوره الدّهليز الرئيس للمنجم. طأطأ رأسه، محاولاً تذكر أي شيء مماثل في رسوم بينسكر التوضيحية من دون أن يُفلح في ذلك. فجرّ قدميه بضع خطوات إلى الأمام، وذراعاها ممدودتان أمامه كما لو أنه رجل ضريب، ولكنه عاد بعد ذلك إلى الوراء. وبحث في جيّبه، وأخرج منديله وبسطه على الأرض بجانب حافة فتحة التهوئة. فعندما تسلّق من الأسفل، كان ينظر في اتجاه الدّهليز، فوضع منديله عند حافة فتحة التهوئة بطريقة تشير إلى ذلك الاتجاه. في النفق، كان من السهل عليه تتبّع وُجهته انطلاقاً من المحاور الأوّلي للمنجم، وذلك بسبب وجود جدارين مستقيمين من الجانبيين. أما هنا، فسيكون الأمر أكثر صعوبة عليه مع عدم وجود معالم مباشرة تُوجّهه. سيكون المندبل مرجعاً على الأقل.

رَبّت على المندبل، متحققاً من عدم إمكانية وجود أي إهام في شأن الجهة التي تقع فتحة التهوئة بجانبها. وبعد ذلك، قوّم وقفته، وانطلق إلى الأمام مجدداً، ملوّحاً بيديه عبر الظلام، ومتتبّعاً اتجاه الممر تحته الذي يؤدي إلى الدّهليز الرئيس.

وبعد عشرين خطوة اصطدم بصخرة.

فتلمّس المكان في الأعلى والأسفل، وبدأ يجرّ قدميه في اتجاه اليمين. كانت الجدران صلبة، وواصل تقدّمه ببطء في أرجاء الغرفة، أو الكهف، أو أيّاً يكن. كان

الظلام دامساً جداً لدرجة أنه فقد كل حسّ بالاتجاه، وبمكان وجود فتحة التهوية. وبعد قيامه بخطى معدودة، اصطدم برُكّام من الحجارة، فالتقط مجموعة من الحجارة الصغيرة، وشرع برميها في الفراغ في اتجاه الناحية العلوية. وتردد صدى طقطقة خافتة فوقه. المكان مرتفع، ولكنه لم يتمكن معرفة مدى ارتفاعه. رمى حجراً آخر بشكل أفقي، وسُمت طقطقة أخرى. أهي على بُعد عشرة أمتار أم عشرين متراً؟ من المستحيل تحديد المسافة. رمى أربعة أحجار أخرى ليكون صورة تقريبية عن أبعاد المكان - إنه كبير، هذا ما تمكن من التوصل إليه - وواصل تقدّمه في الأرجاء وصولاً إلى الجدران. لقد صادف قِدرين خزفيتين كبيرتين جداً وبارتفاع حصره. وعلى مقرّبة منهما، داس على شيء ما تبين له بعد التحقق منه عن كثب أنه عظام حيوان صغير.

لم يعثر على أي مداخل أو فتحات، ولم يعثر على مخرج للمكان، وبدأ يشعر بالدُّعر ويفكر في أن النفق وفتحة التهوية والغرفة ربما تكون جزءاً من الطريق المسدود نفسه. وحينذاك اصطدم بشيء ما مُسند إلى الجدار. إنه سلّم.

مرّر يديه عليه؛ قائمتان عموديتان، درّجات، ربطات جلدية، لقد بدا متيناً. اختبر الدرّجة السُفلية، إنها متينة. وشرع بتسلّقه بحذر، درّجةً درّجة. وبعد ثلاث درّجات، اكتشف وجود فتحة واسعة في الجدار مماثلة لتلك التي رآها في مدخل المنجم. "سلام!"

وترددت الأصدا. إنه نفق آخر، طريق إلى الخارج. ولكن، أيّ طريق هو طريق الخروج؟ وهل هو الطريق الوحيد، أم إن هناك خيارات أخرى؟ نزل، وواصل السير إلى اليمين، جاراً قدميه قرب جدران الغرفة حتى بلغ رُكّام الحجارة مجدداً. لم تكن هناك أي فتحات على مستوى الأرض، ولا زوايا أيضاً، مما أنبأه بأن المكان مستدير، فتلمّس طريقه في اتجاه السلّم. ركع، ودبّ عبر الغرفة بشكل مستقيم قدّر الإمكان، ماسحاً الأرض بيديه بحثاً عن أعلى فتحة التهوية. وبعد دقائق قليلة، اصطدم بالصخر. تبّاً! لقد أغفلتها! وقف، وتلمّس طريقه في اتجاه السلّم مجدداً، ثم ركع. وزحف، مائلاً قليلاً إلى يسار

وُجهته السابقة. هذه المرة، عثر على الفتحة. كان المندبل عند جانبها البعيد، وقد أنبأه ذلك بأنه في اتجاه الدّهليز الرئيس. وكرر العملية للتأكد من أنه في الاتجاه الصحيح، ثم عاد إلى السلم. خلع حذاءه، وأسندته إلى الجدار للإشارة إلى موقع السلم (إنه لموقف هزلي ألا يكون الوضع ميؤوساً منه كثيراً). ومن ثم، جال على امتداد جدار الغرفة، عارجاً على قدم واحدة؛ متسلّقاً ونازلاً، وباحثاً عن أي فتحات أخرى. لم يجد أيّاً منها، أم إنه لم يتمكن من اكتشافها؟ أكمل دورته ووصل إلى الحذاء مجدداً، فانتعله. لقد اتخذ قراره، تسلّق السلم، ودخل النفق بمشقة، وشرع باجتيازه ملوّحاً بيده أمامه، ومُبقياً رأسه منخفضاً لتفادي صدمه بالسقف.

وبعد أن قطع مسافة عشرين متراً - ربما أكثر، وربما أقل؛ فقد علق في عالم حيث كل شيء مُبهَم وغير محدّد على نحو ميؤوس منه - وصل إلى مكان منبسّط وتمكّن من الوقوف. وبعد اجتيازه مسافة ماثلة، وصل إلى مكان حيث يتشعّب من النفق فرعان. فالمتفرّق الأيسر منحدر، في حين يتجه الأيمن صعوداً. اختار الأيسر، حارصاً على تذكّر الفلق كي يستعين به إذا أراد اقتفاء أثر خطواته. نزل، ووصل إلى مجموعة درّجات صعدت به مرة أخرى، وبلغ مفترق طرق من نوع ما مع أنفاق أخرى متجهة إلى اليسار أو اليمين. مرة أخرى، اتجه يساراً، معتبراً بعد احتساب المسافة أنه لا بد من أن يكون بموازاة الدّهليز الرئيس، وإن كان فوقه. وكان النفق الجديد يمتد بشكل مستقيم قبل أن ينحدر فجأةً ويلتفّ على نفسه، ووجد خليفة وفقاً لحساباته - أصبح أقلّ تأكيداً أكثر فأكثر من تلك الحسابات مع كل خطوة يخطوها - أنه يعود إلى داخل المنجم بدلاً من التوجه إلى المدخل. وانفتح ممر إلى يمينه فسلكه، ودخل ما بدا أشبه بغرفة مليئة بالأعمدة، وهناك مداحل في كل من جدرانها. المزيد من الممرات، المزيد من القرارات، المزيد من التعقيد، المزيد من الإرباك.

"آه يا الله! ساعدني"، وغصّ. "أرجوك يا الله ساعدني. أرجوك. أرجوك".
وكان الظلام الدامس لا يزال في عينيه، والسكون في أذنيه، والمتاهة تطوّقه بلا رحمة بشكل تدريجي كما لو أنها تلتفّ عليه.

القدس

عاد بن - روي إلى منزله، وحاول تحديد خطواته اللاحقة في شأن خليفة وسارة.

سيتصل بها في اليوم التالي، ويحمل لها الأزهار، ويتوسل إليها لمنحه فرصة أخرى؛ فرصة أخرى إضافية. كان هناك شيء ما يُنبئه بأن ذلك لن يحدث، وأنه أفسد الأمر بطريقة حاسمة. بالتأكيد، لديه عُذر ليكون مشّت التفكير على هذا النحو، ولكنه يواجهها بالأعذار باستمرار. هناك شيء ما على الدوام؛ سبب ما يحول دون أن يكون لها كلياً. وإذا لم يكن خليفة هو السبب، فأزمة أخرى ربما. إنها حال التحرّي الميداني. لم يكن باستطاعته التخلي عن خط المواجهة والحصول على عمل مكتبي في مكان ما، ولم تكن بيده حيلة لتخطي المأزق. إنها بحاجة إلى المزيد منه، وهي تستحق المزيد، وهو لا يستطيع تقديمه لها. إنه - جه مأزقاً.

منح نفسه لحظات قليلة مفكراً في دوافعه ومشاعره بندم. بعد ذلك، سلّم بعدم تمكنه من القيام بأي شيء حيال الأمر في هذه الليلة، وأبعد سارة والطفل عن رأسه، وركز على أولويته المباشرة؛ خليفة.

لقد حدث أمر ما لصديقه، أمر سيئ. كان واثقاً من ذلك. ولا وجود لأي تفسير آخر لعدم اتصاله به، وبين - روي هو المسؤول، فهو من ورط المصري في القضية، ويشعر الآن بتأنيب الضمير.

ذارعاً شقته ذهاباً وإياباً، أجرى اتصالاً آخر به عبر الهاتف العامل بنظام الاتصال عبر الأقمار الاصطناعية، وترك رسالة أخرى. ثم اتصل به عبر الهاتف العادي أيضاً علّه يُوفّق في التحدّث إليه. وبعد ذلك، شغل جهاز الكمبيوتر الحضي، ووجه له بريداً إلكترونياً أيضاً. وهكذا يكون قد استخدم كل الوسائل المتاحة.

ماذا بعد؟ لم يكن يملك رقم هاتف منزل المصري، إذ كانا يتواصلان على الدوام عبر الهاتف المحمول أو البريد الإلكتروني. وحتى لو كان يملكه، فهو ليس واثقاً من مدى فائدته. فهو يكاد لا ينطق بأي كلمة عربية، وإذا كان هناك من

يتكلم الإنكليزية في العائلة، فما الذي سيقوله هم؟ آسف لإزعاجكم، أردتُ فقط التحقق مما إذا كان زوجك/والدك ليس ميتاً؟ لديهم ما يكفيهم من أسي، ولم يشأ زيادة الأمر سوءاً. باستطاعته الحصول على الرقم والاتصال به عندما يستنفد كل الوسائل الأخرى. في الوقت الحالي، إنه لا يريد إقلاقهم.

فكر في الاتصال ببارين، ولكنه تخلى عن الفكرة. فبال تأكيد لن يساعده في العثور على شخص ذهب للتحقق من منجم أنكروا معرفتهم به.

وبدلاً من ذلك، أجرى مكالمة هاتفية مع داني بيرلمان، وهو صديق له يعمل ضابط ارتباط بين أقسام قوات الشرطة في مقر قيادة الشرطة الوطنية في جبل سكوبس. فيرلمان الذي يتكلم العربية بطلاقة يدين له بخدمة - عدة خدمات في الواقع - وقام بن - روي هذه الليلة بطلب خدمة في المقابل. فتذمر بيرلمان وتأفف، وسأل إن كان بإمكان ذلك الانتظار حتى اليوم التالي، ولكن بن - روي ألح عليه، فوافق في النهاية على الاتصال بمعارفه في الشرطة المصرية، والحصول على أسماء وأرقام في الأقصر، ورؤية ما يمكنه القيام به.

"سأتصل بك متى بلغني أي شيء"، قال، "ولكن، لا تعتبر الأمر منتهياً. فالمصريون كابوس لعين".

فأكد بن - روي على المطلب الملح، وشكره، ثم أنهى المكالمة. شغل التلفاز، وتابع لمدة دقيقتين برنامجاً وثائقياً عن أمور عدة، ولا سيما عن مجموعة رجال علقوا في منجم في الصين، ثم أوقفه عن العمل، وتحقق من بريده الإلكتروني، وبعد ذلك عاود الاتصال بخليفة. وبسبب عدم وجود أي شيء بإمكانه القيام به، أخذ بنصيحة سارة وخرج في نزهة سيراً على الأقدام. فأي شيء أفضل من جلوسه في شقته بمفرده متأملاً بواقع أنه لم يَنْهِ علاقةً فحسب، بل خسر صديقاً أيضاً.

المتاهة

إن الأمر الحاسم بالنسبة إلى خليفة، والخيط بالغ الصغر الذي يتأرجح عليه أي أمل بالبقاء، هو عدم فقدانه الصلة بموقعه الذي يربطه بالدّهليز الرئيس للمنجم.

فما دام قادراً على تحديد موقعه ومعرفة اتجاهه، فإن فرصة، ولو ضئيلة، تتوافر له للعثور على مخرج من خلال تمسّ ضيقه.

ولكن، بعد عشرين دقيقة من مغادرة الغرفة الكهفية، انقطع الخيط وضاعت الفرصة.

لقد تاه. كان تائهاً تماماً على نحو ميؤوس منه، من دون أن يكون بإمكانه تحديد موقعه.

حاول اقتفاء أثر خطاه، وتلمّس طريقه للعودة إلى الغرفة، ولكن خارطة الطريق في ذاكرته أصبحت متشابكة على نحو ميؤوس منه. إلى اليسار أو إلى اليمين هنا؟ إلى الأعلى أو إلى الأسفل؟ الممر الثاني أو الثالث؟ لكان الأمر صعباً بما يكفي لو كانت المتاهة مُضاءة بنور كشّاف، فكيف الحال وهي غارقة في ظلام دامس؟

تعثر وهو لا يرى شيئاً، ويشعر بأنه عاجز، ويائس. لقد وصل عدة مرات إلى أماكن ظنّ أنها مألوفة: امتداد شديد الانحدار لدرجات، ممرّ ضيق بصفة خاصة، أرضية مغطاة بأوانٍ خزفية محطّمة، وصف من السلالم المليئة بالأوساخ. لقد فقد الإحساس بما هو مألوف: متى كان هنا؟ من أين أتى قبل ذلك؟ إلى أين ذهب بعد ذلك؟ هذا إذا كان هنا في الواقع، ولم يكن هذا الجزء جزءاً مماثلاً من المنجم. لقد بدا كل شيء مختلطاً ببعضه، وكل النقاط المرجعية تلاشت في الظلام كورقة في أسيد، مخلّقة وراءها وحلاً أسود بدون معالم مميزة.

عبر جسراً خشبياً من نوع ما فوق حُفرة عميقة، وسمع هسيساً في الأسفل، وصوت ارتطام أجسام منزلقة. وبعد قليل - أو ربما بعد فترة طويلة، أو ربما قبل ذلك؛ لم يُعد للوقت أي معنى هنا منذ مدة طويلة - وجد نفسه يندفع عبر ما اعتبره في البداية، وفي خضمّ تشوّشه، ستائر ثقيلة من الخرز. وبعد أن تفحصها عن كثب، أدرك أنها هياكل عظمية مدلاة من عارضة في السقف.

وقبل أو بعد ذلك، سمع صوت مياه جارية، فحاول تحديد مصدرها، ولكنه كان تائهاً في الفراغ.

أم إن كل هذه الأمور موجودة في رأسه ليس إلا. لم يكن بإمكانه معرفة الحقيقة، والتمييز بين ما هو واقعي وما هو نسج الخيال. لقد بدت

السيناريوهات الأكثر غرابة معقولة، كما لو أنها أسوأ الكوابيس التي انتابته يوماً، مع فارق وحيد وهو أنه عادة يستيقظ من النوم فتنتهي الكوابيس.

فكّر في عائلته؛ زينب، بطّاح، يوسف. كيف سيواجهون مسألة فقدانه من دون أن يعرفوا أبداً كيف ولماذا فقدوه؟ (أرجوك يا الله لا تدّعهم يظنون أنني هربتُ وتخلّيتُ عنهم!). إن قضية سامويل بينسكر، وابن - روي، وإيمان البدرى، وديغبي غيرلينغ، وعائلة عطية تنتهي بموته هنا في الأسفل.

لقد فكّر بابنه علي أكثر من سواه، ابنه الحبيب، حين كان وحيداً وعاجزاً ومتأرجحاً في أعماق النيل السوداء كما يتأرجح هو أيضاً. غريب كيف تكرر الأمور نفسها.

وجرّ قدميه بدون توقّف مُنهكاً، وظمّان. كان يصيح طلباً للمساعدة، ويتوسّل إلى الله ليساعده شخص ما، أيّاً يكن هذا الشخص وينقذه، حتى أُنْهك صوته في النهاية وساد الصمت.

القدس

"سأوي إلى الفراش".

"حسناً".

"هل ستنام باكراً؟".

"بعد قليل".

رافعاً نفسه عن الأريكة، عبر جويل ريغيف الغرفة، وانحنى فوق كتف دوف زيسكي. كانت الأوراق والصور الفوتوغرافية متناثرة على الطاولة أمامه. وعلى شاشة الكمبيوتر شعار الجيش الإسرائيلي المكوّن من نجمة، وسيف، وغصن زيتون. وفي أعلى الشاشة عنوان: سجلات التجنيد للعام 1972.

"تبدو قضية مثيرة".

فهمهم زيسكي.

"أهي قضية دار العبادة الكبرى نفسها؟".

"دائماً قضية دار العبادة الكبرى".

"هل توصلتُم إلى شيء؟".
"ربما".

لزم ريغيف الصمت للحظات، ومن ثم ضغط على كتف زيسكي، واستدار وخرج من الغرفة.

"لا تعمل بكدّ مُفرط"، نادى من المدخل.
فلم يُجب زيسكي. كان منحنياً إلى الأمام، ومحدّقاً بشاشة الكمبيوتر. فهناك قوائم بأسماء وتواريخ ولادة في أربعة أعمدة على امتداد الصفحة. رافعاً يده، مرّر إصبعه فوق كل من الأعمدة، مُداوِرةً. وتوقف في منتصف العمود الرابع، وتجهّم وجهه، وقلّب الصفحات على الطاولة، ثم سحب صورة فوتوغرافية تظهر فيها مجموعة من النساء المنتميات إلى الجيش الإسرائيلي اللواتي يرتدين بزّات الخدمة العسكرية ويعتمرن قبعات مزوّدة بأغصان للتمويه. قلبها، وقرأ الإهداء على الجانب الآخر بصوت عال. "للعزيزة ريفكا. أياماً سعيدة! آل إكس".
نظر إلى الشاشة مجدداً، ومن ثم إلى الصورة، متحققاً لمرتين متتاليتين. وبعد ذلك، أطلق ضحكةً.
"نلتُ منك!". همس.

في مكان ما في الخارج، سُمع صوت إطارات سيارة وإطلاق لبوق السيارة.

صدر الصوت من سيارة بن - روي التي أُجبرت على الانحراف عندما اندفعت دراجة نارية من شارع جانبي أمامها من دون استخدام الإشارات. مدّ بن - روي يده على نحو فطري نحو صفارة الإنذار، معترماً بإيقاف الرجل وتوجيه كلام صارم له. ولكنه تخلّى عن الأمر واكتفى بشتمه، مُطلقاً صرخة عميقة، ومطلقاً العنان لبوقه مرة أخرى، ثم واصل طريقه.

لقد تخطى الوقت منتصف الليل. كان قد قام بنزهة سيراً على الأقدام لمدة ساعتين، جائلاً على غير هُدى في منطقة رهافيا، مروراً بمتنزه رهافيا، والمتحف والكينيسست الإسرائيليين، وحديقة ساشير. لم يكن قد بلغه أي شيء من خليفة أو من صديقه داني بيرلمان على حد سواء. وفي النهاية، عاد إلى الشقة، مُسلماً بأنه

ليس باستطاعته القيام بالمزيد في تلك الليلة، وقرر الخلود إلى النوم.
خلع ملابسه وصعد إلى السرير. استلقى هناك في الظلام طوال عشرين دقيقة محدقاً بالسقف، ومُسكاً هاتفه المحمول بيده. ومن ثم، تبادرت إلى ذهنه فجأة فكرة وجود أمر إضافي آخر يمكنه القيام به. إنه مجرد تكهن، ولكنه علم منذ البداية أنها ستكون مفتاح كل الجوانب الغامضة في القضية. فارتدى ملابسه مجدداً، وأسرع على الدَّرَج في اتجاه السيارة، وانطلق بأقصى سرعة في اتجاه المدينة القديمة.

بعد خمس عشرة دقيقة من الحادث الذي كاد أن يصطدم خلاله بالدراجة النارية، رَكَن التويوتا في موقف سيارات الكيشيل. كان بن - روي واقفاً خارج البوابة الخشبية الثقيلة للمجمع الأرمني حيث بدأ الأمر اللعين بكامله.
مدّ يده وطرق الباب.

كانت هناك فترة صمت، وبعد ذلك فُتِح الباب، ورأى رجلاً جسيماً، يعتمر قلنسوة مسطّحة وسترة صوفية واقفاً هناك، وتتدلى من زاوية فمه سيجارة. إنه أحد الحراس الذين رأهم بن - روي عندما قَدِم لمعينة جثة كلينبرغ.
"المجمع مُقفل"، زبحر.

فشهر بن - روي شارته.
"أحتاج إلى التكلّم مع رئيس الأساقفة بتروسيان".
"أوى غبطته إلى الفراش. يتوجب عليك العودة في ما بعد".

وشرع الرجل بإغلاق الباب، فمدّ بن - روي يده للحؤول دون إغلاقه.
"أحتاج إلى التكلّم مع رئيس الأساقفة بتروسيان"، كرر مُدركاً العداء الذي أصبح موجوداً بين الأرض ورجال الشرطة بسبب اعتقال رئيس الأساقفة، وأضاف: "رجاء، أحتاج إلى مساعدته. الأمر مُلِحّ، إنه مُلِحّ جداً".

فنظر إليه الرجل وشفته تضرعان على طرف السيجارة، وسُحب الدخان تنحرف خارج منخريه. ومن ثم، أشار لِن - روي بإصبعه كي ينتظر، وأغلق الباب وتوارى عن الأنظار. بعد دقائق قليلة، ساد خلالها السكون المدينة القديمة كلياً كما لو أنها مدينة أشباح، فُتِح الباب مجدداً، وأوماً له الحارس بالدخول.
"سيراك غبطته".

وأغلق الباب وأقفله. تقدّم بن - روي على امتداد ممر المدخل المقبّب، ودخلا باحة صغيرة مرصوفة مواجهة لدار العبادة الكبرى سانت جيمس، فأوماً له الحارس في اتجاه مدخل إلى اليمين.
"هناك. إنه في الأعلى".

فشكره بن - روي وعبر في اتجاه الباب. في الداخل، أوصلته مجموعة من الدَرَجات الصخرية شديدة الانحدار التي يقوم على جانبها درابزين إلى بهو طويل مبلّط حيث توجد ثرياً زجاجية مدلاة من السقف، ولوحات زيتية كبيرة معلّقة على الجدران. كان رئيس الأساقفة بتروسيان واقفاً عند أحد المداخل، مُرتدياً ثوباً طويلاً أسود عادياً. سار بن - روي في اتجاهه، وحذاء الرياضة الخاص به يصرّ على البلاط المصقول.

"آسف لأنني أيقظتُك".

فرع بتروسيان يده رافضاً الاعتذار.

"أنا رجل عجوز لا أنام كثيراً. تفضّل رجاءً".

وأفسح المجال لبن - روي كي يدخل مكتباً صغيراً. بخلاف بقية المجمّع، كانت الغرفة عادية وبسيطة؛ فلا زينة مزخرفة فيها، ولا أثاث مزركش. كانت هناك طاولة، وهاتف، وجهاز كمبيوتر، وكريسيان جلدّيان، ورفوف تحمل ملفات وصوراً فوتوغرافية موضوعة في أطُر. ولاحظ أن بتروسيان يظهر في إحداها مصافحاً البابا بندكتوس. أوماً له رئيس الأساقفة بالجلوس، وجلس وراء الطاولة.
"أبلغني مارديغ بأن الأمر مُلح"، قال واضعاً يديه على الطاولة، وخاتم المنصب المصنوع من الجَمْشْت يومض تحت ضوء المصباح. "أخبرني، كيف يمكنني المساعدة؟".

كانت نبرة صوته ثابتة وخافتة. ولم يبدُ عليه الغضب بسبب الطريقة التي عومل بها في أثناء التحقيق. أمسك بن - روي ذراعَي الكرسي، وقال له بشكل مباشر وبدون موارد.

"أحتاج إلى العثور على الفتاة فوسغي".

فأطلق بتروسيان ابتسامة اعتذارية.

"كما قلت لك صباح أمس، آسف لأنني لا أعرفها".

"وكما قلت لك صباح أمس، أعتقد أنك تكذب".

أمال الرجل المُسنّ رأسه، وفتح يديه كما لو أنه يقول ماذا يمكنني أن أقول؟

فيما انحنى بن - روي إلى الأمام. لم يكن يستجوبه الآن، بل كان يتوسل إليه.

"أحتاج إلى التحدث إليها"، قال باذلاً قُصارى جهده لإبقاء مستوى صوته منخفضاً. "لا أعرف ما الذي يحدث معك، ولا أعرف لماذا تكذب. صديقاً، لا أبالي. ما أعرفه حقاً هو أنك تعرف مكانها، كما تعرف كل ما يحدث هنا. وأحتاج إلى أن تُخبرني عن مكانها. إن حياة رجل تعتمد على ذلك؛ حياة رجل صالح".

واصل بتروسيان الابتسام، علماً أن شيئاً ما في تعابير وجهه بدا فجأةً متعمداً كما لو أنه يبذل جهداً للإبقاء عليه.

"لقد أخبرت الفتاة ريفكا كلينبرغ أمراً ما"، تابع بن - روي. "لقد التقتا، وأخبرتها أمراً ما عن منجم ذهب، وعن شركة تدعى بارين. بسبب تلك المعلومات قُتلت ريفكا كلينبرغ. والآن، الأمر نفسه على وشك الحدوث مع رجل بريء. إنه صديقي. وربما يكون قد مات، لا سمح الله. عليّ أن أكتشف ماذا يجري. إنها الأمل الوحيد لديّ لإنقاذه. رجاءً، قل لي أين فوسغي. ساعدني".

بالرغم من ذلك، لم يقل بتروسيان شيئاً، ولم يكشف عن أي شيء. كان باستطاعة بن - روي ملاحظة قلقه وصراعه مع ذاته من خلال ارتعاش أجبافه، وطريقته في تثبيت إهامه وسبّابته بإحكام حول حجر الجَمْشْت أرجواني اللون.

وانحنى بن - روي إلى الأمام، مُلقياً يديه على الطاولة، وضاعطاً على الرجل المُسنّ. "لم يُعد الأمر مرتبطاً بامرأة متوفاة"، تابع، "وبجريمة قتل حدثت، وبأمر ما لا يمكن تغييره. بل إنه مرتبط بالحُقول دون ارتكاب جريمة أخرى، وبإنقاذ حياة؛ حياة مصري مسلم إذا كنت غير راغب في إنقاذ حياة إسرائيلي".

للمرة الأولى، كان هناك رد فعل مرئي. إذ تأفّف بتروسيان، وهز رأسه.

"الحياة حياة أيها التحري. كلهم عزيزون ومتساوون. لا علاقة للدين والقومية في ذلك".

كان على وشك الانهيار، لقد شعر بن - روي بذلك. فأياً يكن ما يُخفيه.

لقد بدأت التصدّعات بالظهور. فحيث فشل التحقيق، نجحت مناشدة مباشرة لإنسانيته كما يبدو. وضغط للمرة الأخيرة.

"رجاءً، ساعدني لأساعد صديقي. أخبرني أين فوسغي. دعني أتحدث إليها وأعدك بألا أعود إليك مجدداً".

ففكر بتروسيان بذلك ملياً، ضاماً أطراف أصابعه، ومحدقاً بين - روي من فوقها. كان هناك صمت، ومن ثم قال:

"وإذا كنت قد ألحقتُ بها الأذى، فهل ستبقى على وعدك بعدم العودة؟".
كان السؤال غير متوقع، فتردد بن - روي، مُمسكاً حافة الطاولة بيديه.
"هل ألحقتُ بها الأذى؟".

وتلألأت عينا رئيس الأساقفة. كان باستطاعته قراءة الارتياح في تعابير وجه بن - روي، فقال:

"الأمر صعب أليس كذلك؟ كما قلتُ لك عندما تحدثنا يوم أمس، الضمير سيّد لعب. وها أنت تطلب مني خيانة ضميري. ومع ذلك، عندما أطرح عليك مُعضلة مماثلة - مقايضة العدالة بالمعلومات - أجدك غير متأكد. لذلك، أسألك مجدداً: هل تضمن لي عدم اتخاذ أي إجراء ضدي أو ضد أي من زملائي إذا كانت الفتاة قد تعرّضت للأذى؟".

بدّل بن - روي جلسته، وأسند ظهره. لقد ظنّ قبل لحظات أنه متمكّن من الوضع، ولكن الأمر فاجأه.

"لا يمكنني أن أضمن لك ذلك"، قال.

نظر إليه بتروسيان، وقد احترقت نظراته المحدقة بن - روي في الصميم. وفي مكان ما في الخارج، بدأ جرس يُقرع. وكانت هناك فترة صمت أخرى، وبعد ذلك أوما الرجل المسنّ برأسه.

"أنا سعيد بسماع ذلك. لم تكن خبراتي مع الشرطة الإسرائيلية إيجابية تماماً، ولكنني أشعر بأنك رجل شهم وكرم الأخلاق. قبل انتهاء الليلة، ستخضع تلك الميزات للاختبار. ولأطمئنك فقط، لم يحدث أي أذى من أي نوع للفتاة".
"هل ستصطحبني إليها؟".

"في حال نسيّت ذلك، أنا قيد الإقامة الجبرية، ولا يُسمح لي بمغادرة المجمّع".

"سأؤمّن وصولك إليها".

فكر بتروسيان بهذا الأمر. ومن ثم، وبعد إخماء الرأس، التقط الهاتف وطلب رقمًا. لقد تكلم بسرعة بلغة افترض بن - روي أنها الأرمنية. وبعد إعادة الهاتف إلى مكانه، وقف وأومأ للتحري بأن يتبعه. "تعال. ورجاء، تذكر ما قيل للتو عن الشبهة وكرم الأخلاق". وغادرا المكتب وتوجها إلى الأسفل.

* * *

كانت قد حضرت إلى المجمع قبل خمسة أسابيع على نحو غير متوقع، وهي مذعورة ومجروحة المشاعر، والشرطة الإسرائيلية على وشك ترحيلها وإعادة نقلها إلى أرمينيا؛ مباشرة إلى أيدي الأشخاص الذين استغلّوها في البداية. كانت يائسة والتمست تأمين ملاذ لها.

"نحن عائلة هنا ونهتم بشعبنا. لقد سبق لها أن عانت على نحو يفوق قدرتها على التحمل. لم نتمكن من رفض قبولها. فمن واجبنا مساعدتها".

كان رئيس الأساقفة يشرح لين - روي الأمر برمته في أثناء عبور الاثنين الحيّ الأرمني بخطى واسعة، والشوارع الضيقة المقفرة تُردّد صدى خطواتهما. كانوا قد اصطحبوا فوسغي إلى منزل آمن، ووفّروا لها الحماية من السلطات الإسرائيلية أولاً، ومُن قتل ريفكا كلينيرغ بعد وقوع الجريمة في دار العبادة الكبرى ثانياً.

"لقد أدركت السيدة كلينيرغ أن الفتاة إذا فرّت يوماً فستقصد أبناء شعبها"، قال. "لقد اتصلت بي وسألتني إن كنت قد رأيته، وإن كنت أعرف أين يمكن العثور عليها. ولو أخبرتها الحقيقة لخلتُ دون موقها. ولكنني لم أخبرها. لقد أنكرتُ كل معرفة لي بها. وهكذا، بدأت تتردد على دار العبادة الكبرى، وتتسكّع في محيطها. آملة في رؤية الفتاة. موقها عبء على ضميري كما قلت، ولكن لم يكن لدي أي خيار. لم تكن فرداً من جاليتنا، ولم أكن أعرف إن كان باستطاعتي الوثوق بها أم لا".

ووصلا إلى تقاطع الطرق في نهاية شارع سانت جيمس، واستدارا إلى اليمين في اتجاه شارع أرارات. سُمع صوت تعارك فوقهما، وقفز هرّ فوق الجدار بعد أن أجفله وجودهما.

"هل عرفتَ اسمَ كلينبرغ عندما اتصلتْ؟". سألَ بن - روي. "وهل عرفتَ أنها هي التي وضعتَ المقالةَ عنك في السبعينيات، ودمّرتَ مسيرتكَ المهنية". فانحنتَ كتفا بتروسيان.

"بالطبع تذكّرتُها. رجاءً، صدّقني عندما أقول إنني لا أكنّ لها أي حقّد. لقد أثّمتُ، والخطأ خطئي وحدي. لم تكن سوى الإنسانة التي أعلنتَ الخطأ. لقد حزنْتُ كثيراً لوفاتها".

وصلا إلى أسفل أُرارات، واستدارا مجدداً، وسلكا زُقاقاً ضيقاً هذه المرة يوجد في آخره باب خشبي. دَنُوا منه، وكان هناك هاتف داخلي فيديو ولوحة من السيراميك تحمل اسم ساباردريان. ضغطَ رئيس الأساقفة على زرّ الهاتف.

"إنها مجرد طفلة"، قال محدقاً بين - روي عندما تردد صدَى سحب المزاليج من الداخل. "طفلة عانت أهوالاً لا يمكنك تخيلها. لا تزال هناك فرصة لتشفى وتنشئ حياة خاصة بها. ولكن، إذا رُحِلَتْ، وإذا عثر عليها المتجرون بالجنس مجدداً...".

وفُتِحَ الباب إلى الداخل، وظهر رجل يضع مسدساً تحت حزامه.

"إنها مجرد طفلة"، كرر بتروسيان. "أطلب منك ألا تنسى ذلك، وألا تتطرق إلى تفاصيل مرتبطة بمقتل السيدة كلينبرغ. فوسغي تعرف أنها ماتت، ولكننا أخفينا عنها التفاصيل الأكثر تكديراً. فهي مدعورة بما يكفي".

وحَدّقَ بعيني بن - روي للتحقق من فهمه للموضوع، ثم دخل، وتبعه بن - روي. وأغلق الباب وراءهما وثبّتت المزاليج. كانا في غرفة واسعة بيضاء تحتوي على أثاث بسيط مبعثر، وهناك رجل آخر جالس إلى طاولة ويحمل بندقيّة صيد. وفي الجانب البعيد للغرفة مجموعة من الدَرَجات الخشبية المؤدية إلى رواق منخفض مع أربعة أبواب مغلّقة. عبر بتروسيان الغرفة، ونظر إلى الأعلى، ونادى برقة. لم يفهم بن - روي ما يقوله، بالرغم من سماعه كلمة بدت شبيهة بكلمة فوسغي.

كانت هناك فترة صمت قصيرة، ومن ثم فُتِحَ الباب الأبعد، وخرج إلى الرواق شخص قزمي، داكن الشعر. فنصّبَ فكّ بن - روي السُّفلي وكوّر قبضتي يديه بطريقة غير مقصودة.

كما لو أنه يُدير مفتاحاً.

* * *

بكلمة من بتروسيان، توارى الحراس الأرمين داخل غرفة جانبية، فيما توجه بتروسيان وبن - روي إلى أسفل الدَّرَجَات. مدَّ رئيس الأساقفة يده، فنزلت الفتاة بتردد.

كانت أكثر نُحولاً مما اعتقد بن - روي وفقاً لصور الرأس الفوتوغرافية التي سبق له أن رآها. لم يكن طولها يتجاوز خمس أقدام، وكانت أكثر جمالاً. عيناها لوزيتان كبيرتان، وملامحها رقيقة وصبيانية في آن واحد. من المستحيل معرفة عمرها، علماً أن الانطباع المهيمن هو أنها صغيرة في السن؛ صغيرة جداً. التمعت في ذهنه ذكرى مقابله المومس في نيفي شَعَنان، وما قالته عنها وعن مشاركتها في مشاهد إباحية؛ إنها ناضجة وصغيرة، أستاذة وتلميذة في الوقت نفسه. وشعر بأن حَلَقَه جاف، وتناسى الحديث لأنه كان زبوناً أيضاً، ولكن بطريقته الخاصة؛ فهو رجل آخر يريد منها شيئاً ما. ووقف ويداه متدليتان إلى جَنْبَيْهِ، مفكراً في ما أمل أن تكون عبارة تعاطف.

وصلت الفتاة إلى أسفل الدَّرَج، ونظرت إلى بن - روي، ومن ثم إلى رئيس الأساقفة، باحثة عن الاطمئنان. فأمسك الرجل المُسنّ يدها، وانحنى نحوها، وقال شيئاً ما. مرةً أخرى، ارتفعت عيناها في اتجاه بن - روي، وأومأت برأسها. بلطف، اصطحبها بتروسيان إلى أريكة، وجلس بجانبها. وجلس بن - روي على الكرسي المقابل، محاولاً عدم التحديق برِسْعَي الفتاة اللذين يحملان آثار ندوب عميقة. وحين لاحظت اتجاه نظره صالبت ذراعيها أمام صدرها بإحكام، داسّة رِسْعَيها داخل قماش التي-شيرت الرمادية الفضفاضة. وكان طرف إبهامها الأيسر يتحرك جيئةً وذهاباً على رمز النصر الديني الفضّي المتدلي من عنقها.

"فوسغي تفهم العبرية قليلاً"، استهلّ رئيس الأساقفة كلامه "ولكنها لا تجيد التكلم بها. سأترجم لك إذا كان ذلك مقبولاً".

"بالطبع"، قال بن - روي.

وهمس بتروسيان للفتاة، فتمتعت بجواب ما، وثبتت نظرها على الأرض المبلّطة.

"بإمكانك البدء متى شئت"، قال الرجل المُسنّ. "ورجاءً، تذكر ما قلته عندما دخلنا. حاول أن تكون...".

وأوماً بيده بإشارة تهدئة.

"بالطبع"، كرر بن - روي.

وانحنى إلى الأمام، مُسنداً كَفِّهِ على ركبتيه. كان قد أجرى مئات المقابلات على مرّ السنين، ولكنه لم يشعر قطّ بهذا المقدار من القلق. فقضية كلينبرغ - وربما حياة خليفة - تتوقف على هذا اللقاء المتميّز، وهذه المرحلة المتميّزة. لقد بدا الأمر كما لو أنه يقف أمام باب، ومن شأن فتحه أن يغيّر كل شيء. عالج الأمر برويّة، قال لنفسه. لا تجذب المِقْبُض بقوة بسبب توقّك إلى اكتشاف ما يوجد في الجانب الآخر.

"مرحباً، يا فوسغي"، قال.

كانت الفتاة تحدّق بالأرض.

"أدعى آري بن - روي. أنا تحرّ في شرطة القدس. بإمكانك أن تدعيني آري إذا شئت، لا بل آري أيضاً".

لم تؤدّ محاولته لتهدئة مزاجها إلى أي رد فعل مرئيّ، ربما لأن صوته كان لا يزال يبدو رسمياً وفظاً، بالرغم من بذله أفضل جهوده لتعديله، كما لو أنه يتحدث إليها في غرفة لإجراء المقابلات في قسم الشرطة. سابرا نموذجي لعين.

"شكراً لك لأنك وافقتِ على التحدث إليّ"، تابع. "ودعيني أوكد لك منذ البداية أنه لا علاقة لهذا اللقاء بطلب الإقامة الذي تقدّمتِ به. أعذك بذلك. لا حاجة للخوف من ذلك. هل فهمتِ ذلك؟".

فهزّت الفتاة رأسها في إيماءة تكاد تكون غير واضحة.

"أحتاج إلى التحدث إليك عن امرأة تدعى ريفكا كلينبرغ. أعتقد أنك تتذكرينها. لقد زارت ملجأ هوفيش قبل أسابيع قليلة".

رفعت نظرها، ثم أنزلته وقالت شيئاً ما.

"إنها تسأل إن كنتم قد عثرتم على الأشخاص الذين قتلوا السيدة كلينبرغ"، ترجم بتروسيان.

"نحن نقرب من ذلك"، قال بن - روي، "نقترب كثيراً. بإمكانك أن تساعدنا للاقتراب أكثر فأكثر. هل ستساعدينا يا فوسغي؟".

غمرت بيدها رمز النصر الديني الفضّي، متشبّهةً به كما لو أنه حبل نجاة. وتكلّمت مجدداً. كان صوتها أكثر انخفاضاً بقليل من ذي قبل، وأسرع

بقليل، مما يُلَمَح إلى ارتفاع درجة توترها. فوضع بتروسيان يده على ركبتيها، مهدّئاً إيّاها.

"نقول إنها لا تريد التقدّم بشهادة"، ترجم.

"لا أحد يطلب منك التقدّم بشهادة، يا فوسغي. أحتاج فقط إلى أن تجيئني عن أسئلة قليلة. هل يمكنك القيام بذلك برأيك؟".

كانت لا تزال متشبّثة بالقلادة. وكان هناك توقّف قصير، ومن ثم تنهّدت وأومأت برأسها.

"شكراً لك"، قال بن - روي. "سأسرع قدر استطاعتي".

لقد بدا كما لو أنه طيب على وشك إجراء حُفنة. فشبك يديه، وأطلق ما أمل أن تكون ابتسامة مطمئنة.

"عندما قدّمت السيدة كلينبرغ إلى الملجأ، تحدّثت إليّها. هل تتذكرين؟".

"كين"، تَتمت. أجل.

"هل قلت لها شيئاً ما عن منجم ذهب؟".

فهزت الفتاة رأسها.

"منجم ذهب في مصر".

هزة أخرى بالرأس.

"هل أنت متأكدة؟ خُذي وقتك".

وتَتمت ببضع كلمات.

"إنها متأكدة"، نقل رئيس الأساقفة.

"ماذا عن شركة تدعى بارين. إنها شركة أميركية كبيرة".

لو. لا.

وكرر الاسم ببطء، مهجّناً إيّاها علّها لم تفهم اللفظ. غير أن رد الفعل كان نفسه. وبذل جهده للمحافظة على حيادية تعابير وجهه وعدم إظهاره خيبة أمله. كان يأمل في إصابة عين الثور مباشرة، وادّخار بعض الوقت، وتجنّبها مقابلة طويلة. ولكن ذلك لم يحدث. سيكون عليه توسيع رقعة الاستهداف.

"هل باستطاعتك أن تقولي لي عما تحدّثتما يا فوسغي؟" سأل.

فوضعت قدمها اليمنى تحت ركبتيها اليسرى، وتَتمت بالمزيد من الكلمات.

"تقول إنها أخبرت السيدة كلينبرغ عن المكان الذي قدمت منه"، جاءت الترجمة. "قريتها، عائلتها. ومن ثم... عما حدث لها".

فتح بن - روي يده، طالباً المزيد من التفاصيل. فتلمّست الفتاة رمز النصارى الديني. وعندما أجابت، كان صوتها أكثر انخفاضاً، فاضطر رئيس الأساقفة لإمالة رأسه ليسمع كلماتها.

"تقول إنها كانت في الرابعة عشرة من عمرها عندما أخذوها"، ترجم. "كانت عائدة إلى المنزل من المدرسة سيراً على الأقدام. لقد اختطفها عن الطريق. كانا رجلين لا تعرفهما. ربما كانا أذربيجانيين، فقد كانت قربتها على الحدود تماماً".

وارتسمت صلة في ذهن بن - روي؛ شيء ما كشفه زيسكي في مرحلة مبكرة من التحقيق في شأن بارين التي تستثمر منجم ذهب في أرمينيا الشرقية قرب الحدود مع أذربيجان. وشرح الأمر لفوسغي، وسألها إن كانت تملك أي معلومات عن ذلك. فأجابت بالنفي. لم تكن هناك مناجم حيث تُقيم. لا شيء البتة باستثناء الجبال والأهوار ومصنع الدجاج حيث كان والدها وأشقاؤها يعملون. فتجاهل بن - روي هذه المعلومات، وأوماً لها لتتابع. فأمسك بتروسيان بيدها الطليقة.

"اقتاداني إلى منزل"، ترجم عندما شرعت بالكلام مجدداً. "ومن ثم إلى منازل أخرى. كانت هناك فتيات أخريات. لقد حملونا على... أعتقد أننا ندرك ما أرغموها على القيام به".

والتقت عينا رئيس الأساقفة عيني التحري، وأوماً بن - روي برأسه، مشيراً إلى أنه ليس من الضروري أن تعيش فوسغي مجدداً التفاصيل الدقيقة لما مرّت به. "هل تعرفين أين كنت؟" سأل.

فهزت فوسغي كتفيها.

"تمّ نقلي إلى أماكن عديدة"، نقل بتروسيان. "أعرف أنني كنت في تركيا، وكنت أستطيع سماع أصوات خارج النافذة. لقد عرفتُ اللهجة. وعندئذٍ، تمّ بيعي إلى أشخاص آخرين قاموا بإقلالي على متن سفينة إلى مكان يوجد فيه...".

فقاطعتها بتروسيان، وسأل عن أمر ما. فشرحت له الفتاة.

"سيّاح"، تابع. "شبان من بلدان مختلفة. أمان ربما، وإنكليز. ليست متأكدة. ونُقلت إلى تركيا مرة أخرى. مدينة كبيرة. كنت في طابق سُفلي، وكان المكان مُظلماً. لقد اعتادوا الاصطفاف في طابور".

وغدا صوت الفتاة أكثر ارتفاعاً بقليل بسبب ارتياحها لعملية السرد. وفي الوقت نفسه، أصبحت التبرة خالية من أي تعبير، ومتجرّدة، كما لو أنها لا تصف نفسها بل شخصاً آخر. وتذكر بن - روي ما أخبرته به مايا هيلل في ملجأ هوفيش عن اعتماد الفتيات أسماء افتراضية: يساعدهنّ ذلك على إبعاد أنفسهنّ عما يُفرض عليهنّ القيام به، ويسمح لهنّ بالاعتقاد بأن شخصاً آخر، ولسنّ هنّ، من قام بما قُمن به.

"أعتقد أنني بقيت في المدينة طوال عام تقريباً"، تواصلت الترجمة. "بعد ذلك، ذهب قسم منا على متن سفينة أخرى. ومن ثم، اصطحبنا أشخاص عرب عبر صحراء، وهكذا قدِمْتُ إلى إسرائيل. كنا ثلاث فتيات، لا بل أربع فتيات في شقة واحدة. كانوا يراقبوننا طوال الوقت. وأحياناً، كانوا يصطحبونني إلى الخارج ويُرغمونني على..."

فرّفع بن - روي يده في إيماءة للكفّ عن الكلام. كان يرى وقائع القصة في مخيلته، وعاد بالذاكرة إلى الورا.

"هل يمكنك العودة إلى ما قلّته منذ لحظات"، قال. "قلت إنك كنت في تركيا، في مدينة..."

وأومأت فوسغي برأسها.

"وتمّ نقلك على متن سفينة".

إيماءة ثانية بالرأس.

"هل نُقلت إلى ميناء؟"

فجبت، والتفتت نحو رئيس الأساقفة، وقالت شيئاً ما. فأصغى، ومن ثم أومأ برأسه.

"ليس ميناء كبيراً"، قال، "بل صغيراً. يحتوي على حوض واحد. كان الوقت

ليلاً وتوجد رافعات".

ومن دون أن يدرك، بدأت قدم بن - روي بالتقرّ على الأرض.

"هذا المكان"، قال، "هذا الحوض، هل أخبرت ريفكا كلينبرغ عنه؟".
فأومأت برأسها.

"هل هو في بلدة تدعى روزيتا؟".

فهزت كتفيها، غير واثقة.

"هل هو في مصر؟".

هزة أخرى للكتفين.

"لم أعرف قطّ أين كنا"، ترجم بتروسيان. "طلبوا منا النظر إلى الأرض.
لذلك لم تتمكن من رؤية المكان".

"ولكن، بعد وصولك إلى ذاك الحوض، تمّ نقلكم عبر صحراء إلى داخل
إسرائيل".

فهزت رأسها.

"وضعونا في عربة نقل مُقفلة في بادئ الأمر" - ظلّ صوت بتروسيان
صوتها - "وساروا بنا حتى الفجر. وبعد ذلك، صرنا في منزل ما، مع رجال
عرب. لقد...".

من طريقة إمساكها القلادة بقبضتها، اتّضح له ما قام به الرجال. فلوّح بن -
روي بيده ليُظهر لها أنها ليست مضطرة لإطالة التفكير بالأمر.

"في الليلة التالية، نقلونا في سيارات جيب. وكان علينا السير بعد ذلك لمدة
خمس ساعات تقريباً. كان الطقس بارداً. حاولت إحدى الفتيات الفرار فأطلقوا
النار عليها. ومن ثمّ أفلّتنا سيارات أخرى، ودخلنا إسرائيل".

كانت قدم بن - روي تنقر الأرض بسرعة أكبر في أثناء عودة فوسغي
بالذاكرة إلى الوراء. لقد أُدخلت إلى إسرائيل عبر الصحراء. لا بد أن تكون سيناء.
وتمّ اصطحابها من ميناء، رصيف، أيّاً يكن ما تريد تسميته، إلى سيناء. لا بد أن
يكون في روزيتا حيث كانت ريفكا كلينبرغ ذاهبة ليلة مقتلها. وتمّ تهريبها إلى
روزيتا على متن سفينة. كان باستطاعته الشعور بأن الأجزاء تتحرك، وتتخذ مكانها
في الأحجية، علماً أنه لا يزال يناضل لإيجاد رابط بين العنصرين الرئيسيين في هذه
القضية: بارين والمتاهة. برويّة، قال لنفسه. تطرّق إلى زوايا القضية كافة.

"هل تعرفين من هربك؟" سأل.

لم تكن تعرف. رجال، هذا كل ما تمكنت من قوله. كانوا رجالاً عنيفين.
"غينادي كريمينكو؟ هل سمعت به يوماً؟".

لو.

وكرر السؤال، وحصل على الجواب نفسه. وجاء جوابها بالنفي أيضاً عندما سألتها عن زوسر فريت. كان باستطاعته الشعور بأنه قريب من أمر ما، قريب جداً، ولكنه لم يصل إليه بعد.

"هل يمكنك إخباري المزيد عن تلك السفينة التي كنت على متنها؟". سأل محاولاً التطرق إلى زاوية أخرى من القضية. "السفينة التي أفلتت من تركيا".

فعضت شفتها، وكانت يدها تضغط على رمز النصارى الديني وترتخي. وبعد مرور دقيقة تقريباً، استعادت صوتها الطبيعي أخيراً. وعرف بن - روي من تجعّد جبين الرجل المُسنّ وطريقته في قلب عينيّه أنه يُصدم بما يسمعه. كانت صدمته أكبر مقارنةً مع ما مرّ به حتى ذلك الحين.

"يا الله!" همس. وبعد ذلك: "لقد وضعنا في حاوية. حاوية للشحن البحري. كنا ثلاث عشرة فتاة، لمدة أربعة أيام. كانت هناك شبكة معدنية لإدخال الهواء. فرش، بطانيات، دلو ماء للتخفيف من وطأة الحرارة في المكان. وكل ليلة، كان يتم نقل بعضنا واصطحابنا إلى حُجيرات، فيقوم البحارة...".

وغصّت الفتاة، فأفلت بتروسيان يدها، ولفّ ذراعه حول كتفيها، مواسياً إياها. وفي الوقت نفسه، التقت أنظاره أنظار بن - روي، ورفع حاجبه ليسأل عما إذا كان هذا النوع من الاستجواب ضرورياً حقاً. فأوماً بن - روي جزئياً بطريقة اعتذارية، مشيراً إلى أنه كذلك. ففي مكان ما من قصة فوسغي تكمن المعلومات التي يحتاج إليها كإبرة ضائعة في كومة قش؛ إنه الجزء الرئيس الذي يُكمل أحجية الصور المقطّعة ويكشف عن الصورة أخيراً. وللعثور على ذلك الجزء، يتعيّن عليه البحث في كل الكومة، حتى لو عني ذلك إرغام الفتاة على العودة إلى كابوس أسرها.

"هل يمكنك أن تخبريني عن السفينة عينيها؟" سأل محاولاً مساعدتها. "هل كانت كبيرة أم صغيرة...؟".

فترددت، ومن ثم مدّت ذراعها. كبيرة.

"أهي سفينة للركاب؟ أم لصيد الأسماك؟ أم للشحن؟".

لصيد الأسماك كما تعتقد، أو ربما للشحن. لم تتسنَّ لها فرصة رؤية نواحٍ عديدة منها؛ فقط الجانب الذي مكثَّ فيه، ومن ثم الحاوية، والحُجرة التي اغتصبها فيها.

"ماذا عن الطاقم؟ هل كان أفراده مصريين؟ عرباً؟ هل كانوا داكني البشرة؟".
ليس أولئك الذين رَأَهم؛ أولئك الذين كانوا يُحضرون لهنَّ الطعام، ويمكنون معها في الحُجرة كانوا شاحبي البشرة. إنهم روس، كما تعتقد، فظُّون جداً.

كانت قد بدأت بفقدان رتابة صوتهما، وانزلقت عبره غصَّات انفعال. وظهر كَرَبٌ متزايد من خلال لغة جسدها: الإمساك برمز النصارى الديني أكثر فأكثر، وطريقة وضعها يدها الطليقة حول معدِّتها بإحكام كما لو أنها تحميها. لو كانت هناك طريقة أخرى للحصول على المعلومات، لاعتمدها بن - روي بسرور، ولكنها الطريقة الوحيدة. فالفتاة تعرف شيئاً ما، وعليه التوصل إليه. الآن. الليلة. ومرةً أخرى، انتابته فكرة أنه ليس أفضل من الرجال الذين استغلَّوها، وأزال هذه الفكرة من رأسه، وواصل الاستجواب.

"الأشخاص الذين وضعوك على متن السفينة في تركيا"، قال. "هل يمكنك أن تُخبريني أي شيء عنهم؟".

لم تتمكن من ذلك، باستثناء أنهم أتراك. لقد تمَّ اقتيادها إلى السفينة، وتسليمها للطاقم، وزجَّها في الحاوية. كنَّ ثنائي فتيات هناك. وقَدِمت أربع فتيات أخريات في وقت لاحق. هذا كل ما استطاعت تذكره.

"ماذا عن لحظة نزولك من السفينة، على ذلك الرصيف. ماذا حدث حينئذٍ؟".

بدأت تلهث بسرعة وعدم انتظام.

"ماذا حدث على الرصيف، يا فوسغي؟".

كان الجواب تئمة مصحوبة بذرف الدموع، وذَقْنها يضغط على صدرها كما لو أنها تحاول الاختباء. فترجم بتروسيان بتردُّد، وأشارت نظراته لبين - روي إلى أنه لن يسمح باستمرار هذا الوضع لمدة أطول.

"لقد حملونا على الاصطفاف، وطلبوا منا خلع ملابسنا، كل شيء، لنغدو عاريات، ووضعَ أيدينا على رؤوسنا. أيها التحري، يجب عليّ في الواقع...".
"انقل لي ما تقوله فحسب"، قال بن - روي بحِدّة.

قَرَّب الرجل المُسنّ الفتاة منه، وهمس بكلمات مواساة.
"كانت هناك سيارة"، تابع. "سيارة كبيرة سوداء. وكان هناك رجل داخلها، على المقعد الخلفي. قال أشياء، أصدر أوامر. لم أفهم. وبعد ذلك، ارتدينا ملابسنا مجدداً. كانت هناك حافلات صغيرة. لقد انطلقوا بنا طوال الليل إلى المنزل...".
"الرجل في السيارة"، قاطعه بن - روي بنبرة حادة ومُلحّة. "أخبريني عن الرجل في السيارة. كيف كان يبدو؟".

وشرعت بالبكاء، متأرجحةً إلى الأمام والوراء. وكرر بن - روي السؤال، كارهاً نفسه لأجل ذلك، ومُدركاً أنه الجزء المفقود الذي يحتاج إليه.
"لم أتمكن من رؤيته جيداً"، ترجم بتروسيان، وكانت الكلمات تخرج من فمه بطريقة عاطفية في أثناء نشيج الفتاة. "كان المكان مُظليماً، والأضواء مسلّطة علينا. كان يجلس وسط المقعد، بعيداً عن النافذة".
"لا بد أن تكوني قد رأيت شيئاً ما".
فهزت رأسها.

"هل رأيت شيئاً ما؟ لا بد من وجود شيء ما!".
"لم أرَ شيئاً"، صاحت بلغة عبرية متلعثمة. "لم يكن جالساً قرب النافذة. لم أَره".

"بأي لغة كان يتكلم؟".
"لا أعرف. لقد قلتُ لك. لا أعرف!".
رفع بتروسيان يده لـ بن - روي، وراحة يده موجهة نحو التحريّ، مشيراً له بالتوقف. فتجاهل بن - روي ذلك.
"فكرّي يا فوسغي، أرجوك، فكرّي! لا بد من وجود شيء ما تتذكرينه".
"لا، أرجوك. أقول الحقيقة!".
"فكرّي!".

"أيها التحري، حدث ذلك منذ مدة طويلة...".

"فكّري يا فوسغي! الرجل في السيارة. كيف كان يبدو؟".

"أيها التحري!".

"لم أرَ وجهه"، صاحت. "قلتُ لك، قلتُ لك! كل ما رأيته هو ذراعه عندما رمى السيارة من النافذة. رأيتُ الذراع للحظة مع... مع...".

ولوّحت بيديها نائحةً، ومكافحةً للعثور على الكلمة التي تريدها.

"مع ماذا، يا فوسغي؟ ذراع مع ماذا؟".

"مع... مع...".

وكانت قبضتا يديها تتكوّران وتنفتحان. وتمايلت، وحدّقت ببتروسيان بتوسل وغضب، وصاحت أمراً ما بالأرمنية.

"ماذا؟". صاح بن - روي بعينين متوهّجتين. "ذراع مع ماذا؟ ماذا قالت للتو؟".

"وشم"، ترجم ببتروسيان. "كان للرجل وشم على ذراعه. وهذا كل ما سأسمح به، أيها التحري. لقد طلبتُ منك بصفة خاصة عدم...".

وخبا صوته مع تركيز بن - روي على شيء ما رآه قبل أربعة أيام. سجن، زنازنة، مجموعة من الجواهر الذهبية الثقيلة، رجل يدعونه ها-ميناهيل؛ المدرّس. وعلى ساعده، بحبر أخضر وزهري...

وجلس على الحافة الأمامية للمقعد، ونبضه يتسارع، وجسده مشدود كوتر قوس.

"الوشم، يا فوسغي. هل كان لـ...".

ورسم في الهواء شكل امرأة. فترددت مرتعدة، ومن ثم أومأت برأسها.

"وهل كانت المرأة...".

وفتح يديه كساقين منفرجتين، فأومأت برأسها مجدداً.

إنه غينادي كريمينكو منذ البداية.

"شكراً لك، يا فوسغي"، قال. "هذا كل ما أحتاج إليه. لست بحاجة إلى

التسبب لك بالمتاعب بعد الآن".

تلوّت بين ذراعي ببتروسيان، مرتعدةً بطريقة لا يمكن التحكم فيها. وفكّر بن - روي بالتوجّه إليها، ووضع يده على كتفها، مُعرباً لها عن أسفه لما عرّضها

له. غير أنه شعر أن ذلك لن يُجدي نفعاً. فأخّر ما تحتاج إليه الآن هو تمتمة اعتذار من قبل شرطي يهودي سيّئ. وعوضاً عن ذلك، وقف وتحقق من هاتفه المحمول - لا رسالة من خليفة - ثم توجه إلى الباب الأمامي.

"أعتقد أنه يُفترض بك البقاء معها هنا"، قال في أثناء شروعه بسحب المزاليج. "سأبلغ المركز بأن لا علاقة لك بالموضوع، وسأوضح لهم المسألة. باستطاعتك العودة إلى المجمع متى شئت".

والتفت بتروسيان. كان الرجل المُسنّ يحدّق به، وتصعب قراءة تعابير وجهه: إنها وقائية ربما، لا بل أبويّة. لم يكن غاضباً، وقد فاجأه ذلك نظراً إلى تخطّي بن - روي الحدود المتفق عليها. نظرا إلى بعضهما للحظات. ومن ثم، وبإيمالته رأسه - لشكره من ناحية، والاعتذار منه من ناحية أخرى - سحب بن - روي آخر مزلاج وفتح الباب. كان على وشك الخروج عندما خطر له أمر ما فاستدار.

"سؤال أخير يا فوسغي. الصورة التي كنت ترسمينها مع ريفكا كLINBERG، المرأة شقراء الشعر، من هي؟ أهي فتاة من أولئك اللواتي تمّ الاتجار بهنّ وكنّ برفتك؟".

فرفعت الفتاة نظرها، ولزمت الصمت للحظات. وبعد ذلك، تحدّثت إلى بتروسيان بالأرمنية. فأصغى، وأوماً برأسه، ونقل الجواب لبن - روي.

"لم تكن حقيقية. إنها مجرد صورة نقلتها عن جانب السفينة. صورة حورية ماء".

"آه"، قال بن - روي.

واستدار نحو الباب، فناداه صوت رئيس الأساقفة.

"سؤال أخير لك أيضاً أيها التحري. تعرف أين هي الآن، وتعرف وضعها. هل بإمكانك أن أسأل عما تعترم القيام به؟".

"في الوقت الحاضر، التوجه مباشرة إلى تل-أبيب للتحديث إلى رجل يدعى غينادي كرمينكو".

"تعرف ما أعنيه. في شأن فوسغي".

تبت بن - روي نظره على عيني الرجل، ومن ثم هزّ كتفيه قائلاً:

"أخشى أن تكون مخطئاً. لا أعرف أحداً يدعى فوسغي".

وغمز، وأوماً برأسه، ثم غادر المنزل.

المتاهة

هناك طفل يبكي في مكان ما. كان خليفة على ثقة تامة من ذلك. في مكان ما من المتاهة طفلٌ تائه على غراره. لم يكن يتخيل ذلك. لم يكن متوهماً بسبب السواد. هناك طفل ما يواجه المتاعب.

"لازم مكانك!" قال بصوت أجشّ بسبب العطش والإجهاد. "لازم مكانك وسأعثر عليك. لا تخف. سنخرج، أعدك!"

وأخذ يتعثّر في مشيه، متلمّساً طريقه على امتداد الجدران الصخرية، ومحاولاً الاقتراب من الصوت الذي يتبدل مكانه باستمرار. فتارةً يكون أمامه، وطوراً يكون وراءه، وأحياناً بعيداً جداً، وأحياناً أخرى قريباً على نحو معذب.

"أرجوك، لازم مكانك! إذا تحركت فسأخفق في العثور عليك. لازم مكانك وسأعثر عليك!"

خرج الصوت من نفق إلى يمينه؛ نحيب نائح مذعور. من المستحيل أن يعرف إن كان فتى أو فتاة. إنه طفل، هذا كل ما يعرفه، طفل تائه، وعليه العثور عليه لأنه إذا كان هو نفسه خائفاً فأى شعور ينتاب ذاك المسكين؟ طفل مسكين. طفل صغير مسكين عاجز.

"أنا قادم، لا تخف، أنا قادم!"

وتلمّس طريقه حتى آخر النفق، ونزل مجموعة من الدرجات، ووجد نفسه في غرفة منخفضة. كانت الخفافيش تصطدم بوجهه زاعقةً، وهناك شيء ما يركض على الأرض. الكثير من الأشياء. فوق حذائه، وعلى سرواله. فحرك ذراعيه كطاحونة هوائية وركل بساقيه، وابتعد عن المكان في الظلام الدامس. وصل إلى جدار، وربّت على امتداده، وعثر على فتحة ممرٍ آخر؛ ممرٌ كبير بعد التحقق منه. كان الطفل في مكان ما في الأسفل.

"ابقَ حيث أنت! أنا قادم. سيكون كل شيء بخير. أنا قادم."

وشرع بعبور الممر. كان صوت النشيج مسموعاً بوضوح في الظلمة أمامه، علماً أنه كان يخبو شيئاً فشيئاً.

"أرجوك!" توسّل. "لازم مكانك. إذا تحركت فلن أعثر عليك أبداً."

وَحَثَّ الحُطْيَ، وَقَدْ تَغَلَّبَتْ رَغْبَتُهُ الشَّدِيدَةُ فِي الْوُصُولِ إِلَى الْوُصُولِ عَلَى خَوْفِهِ مِنْ
التَّعَثُّرِ أَوْ الْإِصْطِدَامِ بِشَيْءٍ مَا. كَانَ الْمَرْمَرُ ضَيِّقًا وَمُرْتَفَعًا، وَأَرْضُهُ مَسْطُوحَةٌ كَالْإِسْمَنْتِ
المُصْقُولِ. شَرَعَ بِالسَّيْرِ بِخُطَوَاتٍ وَاسِعَةٍ، وَمِنْ ثَمَّ بِالْمَهْرُولَةِ، مُتَنَقِّلًا بِسُرْعَةٍ وَبِلَا مَبَالَاةٍ فِي
الْفَرَاغِ، نَاسِيًا كُلَّ شَيْءٍ فِي أَثْنَاءِ إِسْرَاعِهِ لِلْوُصُولِ إِلَى الْفَتَى الصَّغِيرِ أَوْ الْفَتَاةِ الصَّغِيرَةِ قَبْلَ
اِخْتِفَاءِ الصَّوْتِ مُجَدِّدًا. شَرَعَ بِالرَّكُضِ، وَدَبَّتْ فِي أَوْصَالِهِ طَاقَةٌ شَدِيدَةٌ، وَانْدَفَعَ انْدَفَاعًا
أَخِيرَةً مَسْعُورَةً قَبْلَ أَنْ يَخْبُو الصَّوْتُ بَعِيدًا، فِي سَعْيِ مَجْنُونٍ لِلْوُصُولِ إِلَى...

وَاصْطَدَمَتْ قَدَمُهُ بِشَيْءٍ مَا، فَتَعَثَّرَ وَلَوَّحَ بِيَدَيْهِ كَمَا لَوْ أَنَّهُ يَتَخَبَّطُ فِي الْمَاءِ،
وَاسْتَعَادَ تَوَازِنَهُ جَزْئِيًّا، غَيْرَ أَنَّهُ تَعَثَّرَ بِشَيْءٍ آخَرَ - بَدَتْ الْأَرْضُ مَلِئَةً بِصَخُورٍ
صَغِيرَةٍ أَوْ حِجَارَةٍ مَبْعَثَةٍ - فَسَقَطَ عَلَى وَجْهِهِ. وَلِلْحِظَاتِ وَجِيزَةٍ، تَرَدَّدَ صَدَى
بُكَاءِ الْوَلَدِ بَعِيدًا، وَمِنْ ثَمَّ تَلَاشَى، وَسَادَ السَّكُونُ.

اسْتَلْقَى لِمَدَّةٍ وَجِيزَةٍ، وَرَأْسُهُ وَذِرَاعَاهُ مُتَدَلِّيَتَانِ فَوْقَ حَافَةِ دَرَجَةٍ مِنْ نَوْعٍ مَا،
وَأُذُنَاهُ تَتَرَصَّدَانِ أَيَّ صَوْتٍ. لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ الْمَزِيدُ مِنَ الْبُكَاءِ. لَا أَصْوَاتٍ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ
بِاسْتِثْنَاءِ تَنْفَسِهِ الْأَجَشِّ. رُبَّمَا تَحْيَلُ كُلُّ ذَلِكَ. رُبَّمَا جُنَّ.

"سَاعِدْنِي يَا اللَّهُ"، تَأَوَّهَ.

رَفَعَ نَفْسَهُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ، وَرَبَّتْ مُحَاوَلًا الْعُثُورَ عَلَى الدَّرَجَةِ التَّالِيَةِ وَتَبَيَّنَ مَا
يُوجَدُ أَمَامَهُ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَتِمَّكَنْ مِنْ تَلَمُّسِ أَيِّ دَرَجَةٍ أُخْرَى. لَمْ يَتِمَّكَنْ مِنَ الشُّعُورِ
بِأَيِّ شَيْءٍ. هُنَاكَ مَسَاحَةٌ فَارِغَةٌ لَيْسَ إِلَّا. انْحَنَى إِلَى الْأَمَامِ، وَمَدَّ يَدَهُ نَحْوَ الْأَسْفَلِ،
وَمَطَّ ذِرَاعَهُ. لَا شَيْءَ. فَعَادَ إِلَى الْوَرَاءِ، وَتَلَمَّسَ أَرْضَ النِّفْقِ بَيْنَ جِدَارَيْهِ؛ كُلُّهَا
مُتَشَابِهَةٌ. وَلَكِنْ الْأَرْضُ تَنْتَهِي فِي مَا يَشْبَهُ فَتْحَةَ التَّهْوَةِ. مَسَحَ الْأَرْضَ بِذِرَاعِهِ، وَعَثَرَ
عَلَى أَحَدِ الْحِجَارَةِ الَّتِي تَعَثَّرَ بِهَا (مُسْتَدِيرٌ، ثَقِيلٌ، حَجَرٌ مِطْرَقَةٌ رُبَّمَا). فَرَمَاهُ فِي
الْحُفْرَةِ، وَمَرَّتْ لِحْظَاتٌ طَوِيلَةٌ قَبْلَ أَنْ يَتَرَدَّدَ صَدَى ارْتِطَامِهِ بِالْقَعْرِ. كَانَتْ لِحْظَاتٌ
طَوِيلَةٌ جَدًّا لِدَرَجَةٍ أَنَّهُ بَدَأَ يَتَسَاءَلُ عَمَّا إِذَا كَانَ هُنَاكَ قَعْرٌ فِي الْوَاقِعِ. وَأَجْفَلَ،
مُدْرِكًا مَدَى قُرْبِهِ مِنَ السَّقُوطِ فِيهِ، وَارْتَعَدَ أَيْضًا. رُبَّمَا كَانَ بُكَاءُ الْوَلَدِ مُفْتَعَلًا مِنْ
الشَّرِّيرِ يَهْدَفُ إِغْوَاثَهُ لِمُلَاقَاةِ حَتْفِهِ.

"أَرْجُوكَ يَا اللَّهُ سَاعِدْنِي"، كَرَّرَ.

وَرَمَى حَجَرَيْنِ آخَرَيْنِ، وَرَمَى بَعْدَ ذَلِكَ حَجْرًا إِلَى الْأَمَامِ، مُحَاوَلًا تَحْدِيدَ مَدَى
اتِّسَاعِ الْفَتْحَةِ، فَسُمِعَتْ طَقْطَقَةٌ مَعَ اصْطِدَامِ الْحَجَرِ بِشَيْءٍ صَلْبٍ - الْجِدَارِ الْمُقَابِلِ

لفتح التهوية كما يُفترض - وتردد في ما بعد صدى اصطدامه بأسفل الفتحة. رمى حجراً آخر بقوة أكبر. هذه المرة، سُمعت طقطقة مع ملامسة الحجر امتداد الجدار. لا بد أن النفق يمتد في الجانب الآخر للفتحة. وقام برمية أخرى، وكان هناك صدى طقطقة أخرى. نفق عريض مع حفرة في وسطه...

وفجأة، شعر بأن أفكاره تتضح، ونبضه يتسارع. ربما لم يكن ذلك من عمل الشرير بالرغم من كل شيء. ربما كان لصالحه.

متلمساً محيطه، جمع كومة صغيرة من الحجارة، وشرع برميها الواحد تلو الآخر بأقصى طاقته عبر فتحة التهوية وصولاً إلى تَمَّة الممرّ المقابل. طقطقة، طقطقة، طقطقة، طقطقة...

صليل.

هناك شيء ما في الأسفل كما أمل.

قذف ثلاثة أحجار إضافية، وسمع صليلاً. ليس صوت اصطدام صخر بصخر. إنه صوت اصطدام صخر بمعدن. معدن يتردد صداه، معدن يطن، معدن يُصدر رنيناً متذبذباً، كما لو أنه... سكة حديد.

ما لم تكن هناك أكثر من سكة حديد واحدة في المنجم، وهذا أمر غير مُحتمَل، فإنه سيتمكن من العودة إلى الدّهليز الرئيس.

أطلق صيحة فرح جشَاء. لم يكد الصوت يخرج من فمه حتى خبا وزال لأنه لم يُعد بعد. فبينه وبين طريق العودة حفرة، حفرة كبيرة. تلك التي لحها للحظات وجيزة عندما كان في طريقه إلى داخل الدّهليز. الحفرة التي أنزل فيها سامويل بينسكر حبلاً مزوّداً بأثقال بطول مئتي متر من دون أن يصل إلى قعرها.

وضع يديه على رأسه، وأغمض عينيه، وحاول أن يتصور دفتر مدوّنات بينسكر. ما الذي قاله عن الحفرة؟ إنها في دِهليز جانبي وسط الدّهليز الرئيس تقريباً. إنها مربعة الشكل، وتمتد وصولاً إلى الممر؛ على غرار فتحات التهوية في بعض المدافن في وادي الملوك. لقد أخذ الإنكليزي قياسات، ولكن خليفة بذل قُصارى جهده من دون أن يتمكن من تذكّر القياس الحاسم: المسافة التي تمتد عبر فتحة التهوية. فكّر ملياً من دون جدوى. ففتح عينيه، وشرع برمي الحجارة مرة

أخرى، محاولاً تحديد اتساع الفتحة من خلال الصوت. وأفضل ما توصّل إليه هو امتدادها مسافة تتراوح بين ثلاثة أمتار وخمسة، وهو خطّ فاصل كبير. ربما يكون قادراً على القفز مسافة ثلاثة أمتار، ولكن يستحيل عليه قفز مسافة خمسة أمتار. إنه الخط الفاصل بين الحياة والموت.

استدار وتلمّس طريق العودة من حيث أتى، باحثاً عن ممر جانبي، عن طريق يقع إلى جانب فتحة التهوية. ولكنه لم يعثر على أي شيء. وبلغ الغرفة التي تحتوي على خفافيش وعبرها، وصعد بضع درجات، وسلك ممراً آخر، مبتعداً أكثر فأكثر عن خط الدّهليز. فوصل إلى مفترق طرق، ووجد نفسه أمام خيارين؛ إمّا الاتجاه يميناً أو يساراً، أو مواصلة السير بشكل مستقيم. فاختار اليمين. وبعد عشرين متراً، وصل إلى ثلاثة دروب على صورة شوكة. فتوقف، وفكّر في الأمر، ومن ثم دار على عقبيه وعاد من حيث أتى. لم يستطع ببساطة المجازفة بالضياع مرة أخرى. لقد حظي بطريق للخروج وسوف يسلكه. لقد ارتاب في إمكانية تقديم المتاهة فرصاً ثانية.

بعد عودته إلى فتحة التهوية، رمى المزيد من الحجارة، محاولاً رسم صورة في مخيلته عن القفزة التي سيقوم بها بالاستناد إلى الصدى. وبعد ذلك، دبّ على الأرض في اتجاه بداية الممر، باحثاً عن الحجارة الصخرية، ومُبعداً إياها عن طريقه.

فإذا كان لديه أي أمل بالقيام بالقفزة، فسيكون بحاجة إلى مسافة تمهيدية طويلة وخالية من أي عقبات.

تل - أبيب

كان الوقت قد تحطى الرابعة صباحاً عندما توقف بن - روي خارج سجن أبو كبير. فالتقاه صديقه السجّان آدم هبير عند البوابة.

"على مسؤوليتك يا آري"، قال متقدماً إياه في اتجاه مجمّع الزنزانات. "هل اتفقنا؟ لا فكرة لديّ عما ستقوم به".

"على مسؤوليتي"، قال بن - روي.

ودخلا المجمع. كان المكان في سكون تام. اصطحبه هيبير عبر ممر، وصعدا مجموعة من الدرجات إلى الطابق العلوي. وفي منتصف ممر آخر، توقف أمام باب معدني، وأخرج مجموعة مفاتيح، وأدخل أحدها في القفل بعناية، وفتح الباب. "كم ستبقى؟".

"سأبقى عشرين دقيقة، أو ثلاثين دقيقة كحد أقصى".
"أحرص على عدم إحداث ضجيج مرتفع. وتذكّر، لا فكرة لديّ. صحيح؟".
"صحيح".

وقف جانباً، وسمح لبن - روي بالمرور.
"أعطه واحدة منّي، متناً كلنا".
وأغلق الباب، وأدير المفتاح، واختفى وقع خُطى هيبير في الممر.
ألقي بن - روي نظرة في أرجاء الزنزانة. كانت هناك طاولة، وكرسي، ومِغسلة، ومرحاض، وسرير قابل للطيّ يستلقي عليه غينادي كريمينكو، وعيناه مغطّتان بغطاء للعينين من الساتان ليقيه الضوء المنبعث من المصابيح في الخارج. كان يشخر بصوت مرتفع.

متحرّكاً بحذر كي لا يوقظه، دنا بن - روي من رأس السرير. وانزلت الذراع اليسرى للقوادم تحت الأغطية، ولامست أطراف أصابعه الأرض، فمرّ الضوء على الوشم على ساعده. حدّق بن - روي بالصورة، مفكّراً بفوسغي وبمعانتهما، وبمعاناة ضحايا كريمينكو. وبعد ذلك، مدّ يده فوق الطاولة، وتناول إبريق ماء بلاستيكيّاً، وأفرغ محتوياته على وجه كريمينكو.

فاستيقظ القوادم مُنحنيّاً كمدية جيب، وخرجت زجاجة اعتراض من رثيّه. قاطع بن - روي الزجاجة على الفور بلكمة قويّة على المعدة. ولكمه ثانية على فكّه السفلي هذه المرة، ومن ثمّ أطبق بذراعه على عنقه وجره إلى المرحاض، ووضع وجهه داخله، وأطلق دَفَق الماء بركبته. فتدفّق الماء بشكل دائري حول الرأس الأصلع للقوادم، غامراً إيّاه. قفز هائجاً وقاوم، ولكن بن - روي شرطيّ جسيم، وغاضب، وذو لياقة بدنية، وأهل للصراع. أطلق دَفَق الماء مرة ثانية، وثالثة، مثبّتاً وجه كريمينكو في أسفل المرحاض. ومن ثمّ، وبعد أن شعر بأنّه بدأ ينهار وتخور قواه، رفعه، وطرحه على ظهره، وأطبق بيده على حلّقه، ودفعه بقوة في اتجاه

الأرض. وسحب مسدس الجريكو من سرواله، ووجه ضربة قوية للقواد على جانب رأسه، وسدد الماسورة بين عينيه المتفتحتين مباشرةً.

"ليست هذه سوى مقدمات، أيها السافل السمين"، هسهس. "سوف تُخبرني الآن بكل ما تعرفه عن شركة بارين، وريفكا كلينبرغ، والسفينة التي توجد عليها صورة حورية ماء. وإذا أخبرت أي شخص بأي كلمة عما يحدث الآن، فسأقتلع عينيك اللعيتين. هل فهمت؟".

"أجل، يا سيدي"، غصّ كريمينكو.

"جيد، أنا أصغي".

المتاهة

كان خليفة يعلم أنه إذا فكر كثيراً في الأمر - الإمكانية الكبيرة لفشل القفزة في الظلام الدامس، مع عدم وجود أي فكرة واضحة عن المسافة التي يمكنه اجتيازها في حالة من الإجهاد الجسدي والعقلي - فإنه لن يجد الشجاعة أبداً للقيام بها مهما كان موقفه صعباً.

لذا، لم يفكر في ذلك. فبعد أن أزال الصخور والعقبات من الممر، قضى خمس عشرة دقيقة في قياس المسافة التمهيدية حتى حافة الفتحة، مراراً وتكراراً، للتأكد من بعدها؛ فإذا كانت قصيرة جداً فلن يتمكن من عبور الفتحة، وإذا كانت طويلة جداً فسيسقط في الهوة على رأسه.

وبعد رميه مسدس حلوان إلى الجهة المقابلة لتخفيف وزنه، وتأديته صلاة لله تعالى، اتخذ موقعه في نقطة الانطلاق، وحاول النجاح بكل طاقته.

أجهض المحاولة الأولى في منتصف المسافة المؤدية إلى الفتحة لأن حاسة سادسة أنبأته بأن خطواته أوسع من المطلوب. وحدث الأمر نفسه في المحاولة الثانية. وبدأت المحاولة الثالثة جيدة فواصل الركض، عادداً خطواته، وزائداً السرعة باستمرار عبر السواد. كانت لديه تسع وعشرون خطوة لبلوغ السرعة القصوى قبل القفز في الخطوة الثلاثين. وفي الخطوة السادسة والعشرين، نبهه شيء ما في رأسه إلى أن اتساع خطواته غير ملائم مجدداً. كان قد استجمع قدراً كبيراً من الزخم، وكان

قريباً جداً من الحافة، فلم يتمكن من القيام بأي شيء حيال ذلك، ولم يكن لديه الوقت الكافي للتفكير، فقال: "يا الله ساعدني!". ومن ثم، قفز على الأرض بقوة في الخطوة الثلاثين وأطلق نفسه في الفراغ، هاتفاً بيأس: "الله أكبر!".

لقد أدرك على الفور أنه هلك. كان باستطاعته الشعور، وإن كان وسط السواد، بأنه لن يبلغ حافة فتحة التهوية بسبب عدم ارتفاعه في الهواء المسافة التي توصله إلى الجهة الأخرى. لقد بدا الأمر في لحظة عابرة كما لو أنه عبر إلى واقع منفصل، إلى بُعد بديل لا يتألف إلا من الفراغ؛ حيث لا ضوء، ولا شكل، ولا وزن، ولا زمن.

بعد ذلك، اصطدم بشيء صلب.

فتحسّس محيطه باضطراب، وكانت يده وذراعه على صفحة مسطّحة، وساقاه وقدماه على صفحة عمودية، فأدرك أنه اصطدم بالحافة المقابلة. تلمّس بقدمه نتوءاً من نوع ما، فضغط عليه، ولكنه زال، فشرع يركل الفراغ بساقيه، وشرع بالحدش والضرب؛ باحثاً عن مقبض، عن شيء ما يتمسك به. ولكن، لم يكن هناك أي شيء، فالأرض مسطّحة ومكسوّة بالغبار ليس إلا. وشعر بأن قدميه تزلان.

"أرجوك يا الله، أرجوك يا الله!".

حاول أن يثبت نفسه إلى الأرض بواسطة منكيه وساعديه ورفع نفسه، ولكنه لم يكن يملك القوة للقيام بذلك. وحاول تعليق ساقه بطرف الحافة ولكنه لم يتمكن من بلوغها. وكشطت أظفاره الصخر، وشرع بالركل بقدميه على جدار فتحة التهوية. لقد شعر بأنه ينزلق. "قُضي عليّ"، قال لنفسه. "انتهى الأمر. قُضي عليّ".

ولكنه واصل محاولات التشبّث بالجدار، وكان يتنفس بصعوبة، وقبضته تضعف شيئاً فشيئاً. وبذل جهد أخير ويائس، فرج ساقه إلى اليسار فاصطدمت بشيء صلب ومعدني. أهو ثُرس صغير؟ مسمار؟ لم يكن يملك أي فكرة، ولم يُبال. فكل ما يهّمه هو أنه موطئ قدم يمكنه تحمّل وزنه. فأسند قدمه عليه، وكانت عضلاته تؤلمه وذراعه وأصابعه على وشك الاستسلام، وتمكّن من رفع نفسه بطريقة ما، مستخدماً يديه، وناضل لشق طريقه إلى الأعلى في اتجاه حافة الحفرة

وصولاً إلى الأرض المسطّحة. ثم تدرج بعيداً عن الحفرة لاهثاً، واستلقى على أرض النفق، ووجهه إلى الأسفل.

"شكراً لك يا الله"، لهث. "شكراً لك، شكراً لك، شكراً لك".

استلقى هناك لدقائق قليلة، ساعحاً لقلبه بالعودة إلى حالته الطبيعية؛ مكدراً ومغتبطاً في آن. وغير راغب في البقاء في المنجم لمدة أطول، بحث في المحيط عن مسدسه، ثم وقف وتلمّس طريقه عبر النفق. وبعد أن اجتاز مسافة ثلاثين متراً، شعر بأن الجدران تختفي من الجانبين. وعندما اصطدم كاحله بالسكة الحديدية، شم رائحة ثوم بعيدة.

لقد عاد إلى الدهليز الرئيس.

وخطا فوق السكة، واستدار إلى اليمين، وشرع بالصعود. عندما سلك هذه الطريق من قبل - بدا الأمر كما لو أنه قام بذلك منذ أيام، أو أسابيع، فقد شعر أنه قضى كل حياته في الأسفل - شعر بالهلع الذي كان يزداد مع كل خطوة. أما الآن فهو يشعر بأن هلعه يتناقص. صعد شيئاً فشيئاً، مقترباً من المدخل ومبتعداً عن الأمور المُرعبة، حتى انبسطت الأرض في النهاية، ولا مست أصابعه إحدى قوائم منصة التحميل المعدنية. مرّ من تحتها، وجرّ خطاه نحو الغرفة الكهفية في أعلى المنجم، واصطدم بالبايين المعدنيين المنزلقين.

عندما دخل المنجم، كان قد تركهما مفتوحين، ولكنهما الآن موصدان بإحكام من قبل الذين دحرجوا البراميل في اتجاه السكة الحديدية، كما يفترض. أدخل أصابعه في الفجوة بين الألواح، غير آبهٍ بما إذا كان هنالك أشخاص في الخارج، وغير آبهٍ بأي شيء آخر باستثناء رؤية السماء وتنشقّ هواء نقيّ.

انفصلت الألواح عن بعضها مسافة بوصة واحدة. وفجأة، رأى الضوء. كان مُعتماً، وغير واضح، وبنياً. ارتبك في بادئ الأمر، ولكنه أدرك بعد ذلك أنه لا بد أن يكون السبب هو الغطاء المصنوع من الخيش الذي أُعيد وضعه في مكانه لإخفاء البايين. فوكزه وشعر بأنه ينتفخ حاملاً معه ريحاً خفيفة من الهواء النقيّ. ووكزه مجدداً. بعد ذلك، عاد إلى الوراء، وصوّب مسدسه عبر الفجوة، وأطلق النار على القفل الحديد الذي أحكم بواسطته إقفال البايين. ثم أزال السلسلة، وفتح البايين، وانحنى ورفع هُذب الغطاء، فسطع النور في وجهه، مُعشياً بصره.

فكبا وسقط على رُكبتيه، ورفع ذراعيه نحو السماء، شاكرًا الله على مساعدته.

بعد ذلك، وقف مجدداً، وركض في اتجاه سيارته.

إسرائيل

كان بن - روي في منتصف المسافة التي تفصله عن القدس، ولا يزال يستوعب ما أحير به غينادي كريمينكو، عندما رنَّ هاتفه المحمول. وما إن رأى رقم المتصل حتى كاد ينحرف عن الطريق العام.

"خليفة!". صاح، واضعاً السماعة على أذنه بقوة. "هل هذا أنت؟".

إنه هو.

"تود/لاعل! الشكر لله! أين كنت؟".

"إنها قصة طويلة"، بدا صوت المصري خشناً وأجشّ. "سأطلعك على كل شيء في ما بعد. اسمع، لقد عرفت ما الذي يجري. كنت في المنجم. إنهم لا يستثمرونه. إنهم...".

"يرمون المواد السامة داخله".

وكانت هناك فترة صمت قصيرة.

"أنت تعرف؟".

"إنها قصة طويلة أيضاً". وتوجّه بن - روي إلى مَسْرَب السرعة المنخفضة، وخفّض سرعته. "اكتشفتُ ذلك قبل أربعين دقيقة فقط. بارين تستخدم المتاهة كمستودع للمواد السامة. فهي تعمل في منجم ذهب في رومانيا، ومن المفترض بها نقل كل النفايات السامة إلى الولايات المتحدة، ولكنها تدوّر الزوايا وتطمئرها في المنجم بدلاً من ذلك. إنهم يشحنونها إلى مصر، وينقلونها عبر النيل على متن صنادل تابعة لزوسير، ومن ثم يشحنونها إلى المنجم. إنهم يقومون بذلك منذ سنوات".

وحتى في أثناء قيامه بوصف الوضع، كان بن - روي يناضل لاستيعاب مدى جسامة الفضيحة.

"شقيق ربّان الناقلة التي تنقل النفايات قوَّاد كبير في تل-أبيب. إنه رجل يدعى غينادي كريمينكو. كان الاثنان يسيَّران خطأً جانبياً للاتجار بالجنس، ويتخذان من أعمال بارين تغطيةً لعمليتهما. فهما يقومان بنقل فتيات من رومانيا على متن السفينة، وينزلانهن مع النفايات في روزيتا، ويهرَّبانهن عبر الحدود إلى داخل إسرائيل...".

"يا الله القدير!".

"أوقفت العملية برمتها بعد اعتقال كريمينكو منذ شهرين، ولكن ريفكا كلينبرغ التقت إحدى الفتيات اللواتي تمَّ الاتجار بهنَّ وحصلت على القصة بكاملها. وبارين على وشك عقد صفقة بملايين الدولارات مع الحكومة المصرية في ما يتعلَّق بحقل غاز. وإذا أعلنت كلينبرغ ما اكتشفته فستفشل الصفقة، وستتشوِّه صورة بارين، وستخسر كل شيء. لذلك عمدوا إلى قتلها. لا يزال هناك العديد من الفراغات لمئنها، ولكنها الصورة الأساسية. الآن، أخبرني ماذا جرى لك؟ لقد...".

"أنت وأنا. بارين وزوسير. باستطاعتنا التَّيل منهما. أعرف مكان المنجم. لقد رأيته. هناك ملايين البراميل. باستطاعتنا التَّيل من الأوغاد!".

وفجأةً، بدا صوت خليفة منفعلاً، أم إنه كان ثملاً.

"يمكننا التحدث بالموضوع في وقت لاحق"، قال بن - روي. "أرى أنك متعب...".

"لستُ مُتعباً!". وبدت السَّماعة كما لو أنها تقفز بسبب حدة ردِّ المصري.

"لم يسبق لي في حياتي أن شعرت بقلَّة تعبٍ مماثلة. لقد قتلوا ابني، والآن باستطاعتنا تقديم المذنبين للعدالة".

"هيا يا خليفة، لا نعرف...".

"بالطبع نعرف. قُتل ابني بسبب صندل ينقل نفايات بارين السامة، والآن باستطاعتنا التَّيل منهم. للمرة الأولى منذ تسعة أشهر، أشعر في الواقع بأنني مستيقظ!".

كان يثرثر، وصوته مضطرب بسبب الغبطة العارمة التي يشعر بها، وكان يحبس أنفاسه. فطلب منه بن - روي أن يهدأ، ولكن خليفة قاطعه مجدداً.

"عليّ أن أتصل بزَيْنَب، وبعد ذلك سأعود إلى الأقصر. سوف أتصل بك بعد ظهر هذا اليوم، وبممكننا التخطيط لما يتعين علينا القيام به. باستطاعتنا التّيل منهم يا بن - روي. أنت وأنا. نعمل معاً. فريق النّخبة. كما في الأيام الماضية!".

وسُمع ما يبدو أنه انفجار للضحك، ثم تمّ إنهاء المكالمة بعد ذلك. ومن وراء بن - روي، أطلق بوق بقوة مع قيام سائق شاحنة بتحذيره لأنه كاد أن يخرج من المسرّب.

مصر

ربما كان الإتهاك هو السبب في ما يشعر به، وربما التجفاف، وربما الصدمات التراكمية لكل ما عانى منه في المنجم. لم يحلل خليفة ذلك، ولم يع أن عليه تحليل أي شيء. لقد قتل صندل نوري تابع لزوسر ابنه، وثبت في النهاية أن تلك الصنادل النهرية عينها استُخدمت لنقل نفايات سامّة عبر النيل، لطمرها بطريقة قانونية. إذًا، قُتل ابنه بواسطة صندل محمّل ببراميل تحتوي على تراب ملوّث. الأمر جليّ وواضح كضوء النهار. لهذا السبب، منعت زوسر إجراء أي تحقيق بالحادث. ربما لم يكن حادثاً. ربما قُتل الفتيان عمداً لمنعهم من اكتشاف ما يوجد على متن الصندل. كل شيء متشابك في رأس خليفة، ولكن كل شيء يتّضح شيئاً فشيئاً. لقد قتلوا "علي". بارين وزوسر هما المسؤولتان. والآن، سيقوم وبن - روي بالكشف عن الفضيحة برمّتها للعن. إنه ظلم مروّع. لن يذهب موت ابنه عبثاً.

فاتصل بزَيْنَب، وابتكر لها قصة تعطلّ السيارة في الصحراء.

"أنا في طريق العودة الآن"، أكّد لها بصوت بدا غير مألوف بالنسبة إليه كما لو أن شخصاً آخر يتكلم. "سيكون كل شيء بخير. سيكون كل شيء على ما يُرام".

حاولت الاستفهام عن سبب عدم اتصاله بها على الأقل - "كنت شديدة القلق، يا يوسف!" - ولكنه اختصر الحديث بحدة ربما؛ فهناك أمور عليه القيام بها. ابتلع محتوى قُبينة كاملة من مياه البركة، وحشا فمه ببعض الجبن والعيش البلدي. وبعد ذلك، أدار محرك اللاندروفر، وانطلق بسرعة عبر الصحراء على امتداد آثار الإطارات في اتجاه الطريق العام 99 والحضارة.

تسعة أشهر من العذاب، والآن، ستتحقق العدالة أخيراً. لقد شعر بأنه بخير تماماً.

القدس

كانت الساعة لا تزال الثامنة صباحاً عندما عاد بن - روي إلى القدس. فكر بالذهاب إلى المركز؛ فقد رغب في إحراج بوم ودورفمان، وإخبارهما بأنه حلّ القضية، ورؤية تعابير وجهيهما. ولكنه قرر أن ذلك باستطاعته الانتظار. كان مُتعباً ولا يستطيع التفكير في استجواب شخصي طويل محتمل. وعوضاً عن ذلك، عاد إلى المنزل، وشغل جهاز الكمبيوتر المكتبي، وقضى ساعة في تدوين الأمر برمته: بارين، المنجم الروماني، المتاهة، فوسغي، ريفكا كلينبرغ.

كانت هناك ثغرات؛ أمور لم يستطع كريمينكو إطلاعه عليها، أجزاء من القصة بقيت غامضة. وفي حين كان واثقاً تماماً بأن بارين عثرت على المتاهة عندما كانت تُجري مسحاً في تلك الناحية من الصحراء، لم يكن بن - روي متأكداً من تاريخ اتخاذها القرار بالشروع باستخدامه لطمر النفايات السامة، ومن الشخص الذي اتخذ القرار. ومن جهة ثانية، لم تكن الخطوات الدقيقة التي اتخذها ريفكا كلينبرغ للكشف عن اللغز واضحة، فكيف عرفت بأمر سامويل بينسكر؟

لقد بقيت ثلاثة أسئلة بصفة خاصة من دون إجابات. أولاً، كيف اكتشفت بارين أن كلينبرغ تتحرى عنها؟ كان بن - روي قد افترض أن كريمينكو قد زوّد بارين بمعلومات عن زيارة كلينبرغ للسجن، ولكن القوّاد أصرّ على أنه لم يُلمح لها بأي شيء (كيف يكون من زوّدها بالمعلومات، قال مُجادلاً، في حين أنه وشقيقه يخدعان بارين من خلال الاتجار بالفتيات عبر إحدى سفنها؟).

ثانياً، من الذي أصدر الأمر بقتل الصحافية؟ أهو ناتانيل بارين؟ أم وليم بارين؟ أم إنه فريق ثالث داخل الشركة قام بمبادرة خاصة؟

ثالثاً، والأهم من ذلك، من الذي نفذ جريمة القتل؟ من هو ذاك الشخص الملفّع الذي تتبّع كلينبرغ في شوارع المدينة القديمة وإلى داخل دار العبادة الكبرى حيث خنقها؟ من القاتل؟

هناك الكثير من أطراف الخيوط التي يتعين وصلها (وهناك أيضاً مسألة جانبية تتمثل بنمسييس أجندا التي يتعين التعاطي معها؛ فقد اعتقلوه تحت تهديد السلاح، وبدا غيباً. لذا، لن يدعهم وشأنهم).

ولكنه خطأ خطوة هائلة في اتجاه حل الأمر برمته. فأجز تقريراً من خمس صفحات، وراجعته، ثم أرسل عبر البريد الإلكتروني نسخات منه لليه شاليف، والرئيس غال - ليغيظه ليس إلا - وللضابط المسؤول بوم أيضاً. وبعد ذلك، توجه متمهلاً إلى داخل غرفة النوم، وركل حذاء الرياضة خالِعاً إيّاه، وارتمى على السرير، ووجهه إلى الأسفل.

واستغرق في النوم بعد ثلاثين ثانية.

مصر

هناك عادة مثيرة للفضول في تحوّل الأكاذيب إلى حقيقة.

لقد ثبتت صحة ذلك في الكذبة التي أطلقها خليفة حين قال لزوجته كاذباً إن سيارته قد تعطلت. كان يندفع إلى الأمام عبر الصحراء بسرعة، وقدماه ويداها تهتز بقوة على أجهزة التحكم باللاندروفر، وعدّاد السرعة يشير إلى 70 كيلومتراً في الساعة في أثناء عبوره الآثار الأكثر تراصّاً للشاحنات، عندما أساء تقدير زاوية وانزلق. بذل قصارى جهده للتحكم بالمقود، مناضلاً لاستعادة السيطرة على السيارة. كان يقود بسرعة كبيرة، فانزلقت اللاندروفر، واصطدمت بعقبة غير مرئية، وتأرجحت، ودارت حول نفسها، واستقرّت جانبياً بمعدّل إمالة بلغ 45 درجة في منخفض أشبه بخندق.

"تَبّاً! تَبّاً!"

خرج بمشقة. كان البخار يتدفق من تحت غطاء المحرك، وتبيّن له أن الإطار الخلفي الأيسر قد انفجر، وكان ناتئاً وفقاً لزاوية غير طبيعية، فعرف أن محور الدولاب قد التوى. لقد أرجى كل ما كان يعتزم القيام به في ذلك الصباح لأنه لن يتمكن من مواصلة القيادة.

"تَبّاً لعينة!"

ركل المصَدِّ، وبعد ذلك، جمع كل ما يحتاج إليه لاصطحابه معه: الماء، السلاح، دفتر مدوّنات سامويل بينسكر. وأعدّ حقيبة بديلة مُرتجّلة بواسطة بطانية عثر عليها في الناحية الخلفية للاندروفر، فربطها، وانطلق سَيراً على الأقدام. في اليوم السابق، كان احتمال قطعه مسافة عشرين كيلومتراً في الصحراء الخاوية سَيراً على الأقدام أمراً مرعباً. ولكن، بعد ما مرّ به في المنجم، شعر بأن رحلته هذه أشبه بنزهة في الحديقة العامة.

القدس

كان بن - روي قد نام بضع دقائق فقط عندما رنّ هاتفه المحمول. فتدحرج بوهن على ظهره، وسحب الهاتف من جيبه وأجاب. إنها ليه شاليف.

"ماذا يجري بحق الجحيم، يا آري؟ أين كنت؟"

"أونه. ماذا؟"

فرك بن - روي عينيه مُربكاً.

"كنت أحاول الاتصال بك طوال فترة بعد الظهر؟"

فرغ معصمه ونظر إلى ساعته. إنها الرابعة من بعد الظهر. وما ظنّ أنها دقائق قليلة كانت في الواقع سبع ساعات.

"تبّاً. آسف، يا ليه. كانت ليلة طويلة".

ناضل للجلوس، ورفع قدميه عن الأرض بحركة متأرجحة. كان رأسه ينبض، وشعر وكأن فمه مليء بالتراب.

"هل تلقيت تقريري؟" سأل.

"أجل. نحن بحاجة إلى التحدث".

بعد أن استعاد إدراكه، لاحظ أنها ليست على طبيعتها. هناك اقتضاب في نبرتها، ورتابة.

"هل كل شيء بخير؟"

"نحتاج إلى التحدث"، كررت متهرّبة من السؤال. "تعال إلى المركز الآن، وإلى مكثبي".

"ماذا يجري؟".

ولكنها كانت قد أنهت المكالمة. جلس للحظات يدلك صدغيه، وشعر بانكماش في تجويف معدته بسبب القلق الذي انتابه. وقف بعد ذلك، ودخل الحمام، ثم وضع رأسه تحت دَفَق من المياه الباردة.

وصل إلى الكيشيل بعد عشرين دقيقة. ووفقاً للتعليمات، ركن سيارته في الباحة في الناحية الخلفية للمبنى، وذهب مباشرةً إلى مكتب ليه شاليف. كانت جالسة وراء طاولتها، وأصابعها تلهو برزمة صغيرة ملفوفة بورق رقيق للتغليف. وعندما رآته ابتسمت، علماً أنها أرغمت نفسها على ترك انطباع جيد. لقد بدت قلقة وشاحبة جداً، فظن أنها ربما تكون مريضة.

"هل أنت بخير، يا ليه؟".

"أغلق الباب فحسب واجلس يا آري".

ففعل.

"إذاً، ما الأمر؟" سأل.

فالتقت عيناها عينيه للحظات وجيزة قبل أن تُشيع بنظرها في اتجاه الناحية الأخرى للغرفة.

"حمل كبير من الغائط"، تتمت.

"أرجع السبب إلى تقريرتي؟".

فأومأت برأسها.

"إن إرسال نسخة منه لبوم لم يكن فكرة جيدة على الأرجح. لقد تسنّت للرئيس فرصة معالجة المسألة بالرغم من موقفنا".

وهز كتفيه.

"لم أستطع مقاومة الفكرة. كان بحاجة إلى تلقينه درساً في عمل الشرطة الصحيح. ليس سوى القليل من الغائط يتظاهر بالثبابة".

في العادة، كانت شاليف تضحك لدى إهانته بوم؛ تماماً كما يضحك عندما تقوم بالمثل؛ مؤامرة عصيان صغيرة. ولكنها لم تشارك في مرحه، بل جلست هناك تلهو بالرزمة الورقية.

"إذاً؟" سأل.

"إذاً، لقد أرسل ذاك الغائط الذي يتظاهر بالتباهة التقريرَ إلى معارفه في الوزارة، وقاموا بدورهم بإرساله إلى المراجع العليا مباشرةً".

فربت بن - روي على رأسه.

"من الجيد أن يكون هناك جمهور".

"آه، بات لديك جمهور يا آري، صدّقي. فجأةً، بات هناك عدد كبير من الأشخاص في مناصب ذات نفوذ يُظهرون اهتماماً كبيراً بهذه القضية. الكثير من الاهتمام".

لقد توقّع منها الشعور بالسرور بسبب هذا الاهتمام، فهي التي تقود الفريق الذي ينظر في هذه القضية بالرغم من كل شيء. ولكنها لم تكن مسرورة.

"إذاً؟" كرّر.

بجدداً، نظرت إليه قليلاً قبل أن تُشيع بنظرها عنه.

"إذاً، لقد أُحيلت القضية إلى قسم التحقيقات الخاصة".

لقد تطلّب الأمر لحظات ليستوعب الأمر.

"أنت تمازحيني".

"هل يبدو ذلك على وجهي يا آري؟".

لا. يبدو وجهها كوجه شخص مُحبط بجدّة، ومُثار. فلم يصدّق بن - روي ما يسمعه.

"ولكننا حللنا عملياً هذه القضية البغيضة. أصبحنا نعرف سبب مقتلها، ونعرف من يقف وراء ذلك، ونعرف أنهم طمروا ملايين الأطنان من النفايات السامة في منجم في مصر بطريقة غير قانونية...".

كان يُدير إصبعه مع كل نقطة، رافعاً صوته.

"لقد قضينا وقتنا في العمل بكّد على هذه القضية يا ليه. لم يتبقَّ أي شيء سوى التفاصيل. فلماذا تُحال إلى قسم التحقيقات الخاصة لإتمامها بحق الجحيم؟".

لم يكن باستطاعتها النظر إلى عينيّه. وساد الصمت، وصار الجوُّ في الغرفة مُثَقلاً بالتوتر ومشحوناً. بعد ذلك، تكوّرت قبضة يد بن - روي فجأةً عندما أدرك الحقيقة.

"لن يُنْهوا القضية، أليس كذلك؟ سيتم وضعها على الرف".
لم تقل شيئاً، وفي ذلك دلالة على الموافقة.
"لا بد أنك تمازحيني يا ليه، قولي لي إنك تمزحين!".
كان فمها مُطْبَقاً، وأصابعها ترتجف. لقد بدت عصبية المزاج.
"كما قلتُ، لا يبدو المزاح على وجهي".
"ولكن، لماذا؟ لماذا؟".

ووقف.

"نعرف أن بارين هي التي قامت بذلك يا ليه! ونعرف سبب قيامها بذلك.
باستطاعتنا عملياً نقل القضية كما هي إلى المحكمة!".
"لن تذهب إلى أي مكان يا آري. لقد أقصينا عن التحقيق".
"ولكن، لماذا؟ قولي لي لماذا؟".

لم يتمكن من الكفّ عن طرح السؤال.
"لدينا قضية فُتحت ثم أُغلقت، ويتم التخلّي عنها الآن! وأنا أريد أن أعرف
السبب!".

"لأنّ المعنيين ذوو نفوذ". وعندما حدّق إلى عينيها هذه المرة لاحظ احمراراً
فيهما كما لو أنّها بكّت في وقت من الأوقات. "إنهم يملكون النظام يا آري، أو
على الأقل يملكون الأشخاص الذين يُديرون النظام، والأمر لا يختلف. هم
يحرّكون الخيوط فترقص الدُمى. واستكمالاً لمزيج استعاراتي، هذه الدُمى
موجودة في القمة تماماً، والأمر صادر منها. لا يمكن المسّاس ببارين، وقد تمّت
تنحيّتنا".

تكوّرت قبضتا بن - روي بشدّة، لدرجة أن برجماته بدت كما لو أنّها ستشقّ
بشرته وتخرج منها.

"أُتقولين لي إن باستطاعتنا مقاضاة كاتراف، رئيسنا، ولكننا لا نستطيع
مقاضاة شركة متعددة الجنسيات تملك ملايين الدولارات؟".

مرةً أخرى، كان الصمت جواهما.

"لا أصدّق أنني أسمع هذا الكلام! أعتقد أنك قلت لي إنّنا ما زلنا نلتزم
بالقانون في هذا البلد".

"يبدو أن بعض الأشخاص فوق القانون"، قالت بهدوء. "لدى بارين العديد من الأصدقاء".
"يا الله! يا الله!"

وارتمى على الكرسي. لقد شعر كما لو أنه تلقى لكمة على أمعائه. كانت شاليف تلهو بالرزمة الورقية. ففتح بن - روي يده وفرك عنقه. وكان هناك صمت آخر.

"هل ستتخلّين عن القضية؟". سأل أخيراً.

"ثق بي، أشعر بالسأم بقدرك".

"ولكنك ستتخلّين عن القضية".

واحمرّ وجهها خجلاً وليس غضباً، وهذا ما صدمه.

"الأمر صادر من رأس الهرم يا آري. كما قلت لك في السابق، لقد عملتُ بكّد لأصل إلى ما أنا عليه، ولا يمكنني رمي كل شيء بهذه البساطة".
"والرئيس؟".

وتنهّدت.

"غال سيستقيل في غضون خمسة أشهر. زوجته ليست بخير، وابنه ينتقل إلى وزارة العدل. لذا، لن يضحيّ بكل شيء".

"لا يمكنني تصديق ما أسمعُه!"

فهزّت شاليف كتفها بوهن.

"إذاً سأنقل القضية إلى الصحافة".

"ما كنت لأقوم بذلك لو كنت مكانك".

"ماذا تعين بأنك ما كنت لتقومي بذلك؟".

"إذا أعلنت الأمر على الملأ، فستقحم عدداً كبيراً من الأشخاص الذين لا

ترغب في إقحامهم. لديك طفل على الطريق...".

فاستشاط بن - روي غضباً.

"هل تهددينني يا ليه؟".

"أنا أقول لك فقط...".

"هل أصبحت فجأةً الناقلة الصغيرة لرسائلهم؟".

وكان دور شاليف للاحتدام غضباً.

"لا تجرؤ على معاملتي بترفع يا آري بن - روي. هل سمعت؟ الأمر صعب بما يكفي بدون تلميحائك التهكمية. سنترك قاتلاً بدون محاكمة، هل تعتقد أن شعوري إيجابى حبال ذلك؟ أشعر باشمزاز عارم لم يسبق لي أن شعرت به في حياتي. ولكن، هكذا تجري الأمور. نحن مرؤوسون نتلقى الأوامر كما تلقينا هذا الأمر. ربما سيتغير الوضع مع مرور الوقت وستتحقق العدالة - أرجو من الله أن يتم ذلك - ولكن، في الوقت الحاضر، ينبغي أن نعصّ على الرصاصة ونأتمر بأوامرهم؛ إن لم يكن لأجلك فلأجل من تحبهم. لأنك إذا عصيت أمرهم - صدّقني - فسيسعون وراءك كما يسعى ابن آوى وراء جثة".

وحملت به، متنفساً بصعوبة، وقد تحوّل الكحل في عينها اليسرى إلى ما يشبه لطخة فحم تحت عينها. ومن ثم، انخنت إلى الأمام، ووضعت رأسها بين يديها. ففي السنوات الخمس التي عملا فيها معاً، إنما المرة الأولى التي تظهر فيها أمامه على هذا النحو.

"آسفة يا آري"، تمتمت. "لم أقصد أن..."

"لا، أنا آسف. ما كان يُفترض بي قول ذلك".

جلست هناك للحظات، داسّة وجهها بين يديها. وبعد ذلك، رمت رزمة ورقية نحوه.

"إن هذه من المفوّض؛ لتعلم أنه تمّ تقدير جهودك".

فتح بن - روي الرزمة. كانت تحتوي على ميدالية من النيكل مع شريط أزرق وأبيض. إنما ميدالية الشرطة الإسرائيلية.

"أعتقد أن التنويه هو التالي: لأجل مساهمته المتميزة في تحقيق أهداف الشرطة"، قالت، "أو هراء مشابه".

"سأحتفظ بها"، تمتم بن - روي.

"هناك أمر آخر".

"كلّي آذان صاغية".

فترددت كما لو أنها تشدّد عزميتها لتقول أمراً ما لا تريد قوله، ومن ثم:

"هناك منصب معروض في أكاديمية الشرطة. إلقاء محاضرات في التحقيق المتقدم. لا أعرف كل التفاصيل، ولكن من الواضح أن الأجر ضعف أجرك الحالي لقاء أربعة أيام عمل فقط في الأسبوع، بالإضافة إلى منزل مدعوم مالياً، وتقاعد مبكر مع راتب تقاعدي كامل. قيل لي إنك إذا تقدّمتَ بطلب رسمي للحصول على هذا المنصب فستكون مرشحاً مضمون الفوز".
فهمهم.

"إنها رشوة ليضمنوا صمتي".
"أظن أن التعبير الدقيق كان اعترافاً بالقدرات الفريدة لبن - روي في مجال التحقيق. ولكن، أجل، إنه صرف من الخدمة للتخلص من المتاعب".
"وأنت؟ ما الذي ستحصلين عليه؟".
واحمر وجهها مجدداً.
"ترفع إلى منصب ضابط مسؤول".
فهز رأسه.

"تبّاً لذلك يا ليه. لم أظنّ قطّ أنني سأصل إلى هذا اليوم".
"وأنا كذلك"، تمتمت. "ولا في كواييسي الأكثر جموحاً".
وساد الصمت. لم يكن أيّ منهما يعرف تماماً ما سيؤول إليه الحديث. وبعد ذلك، قُرع الباب.
"راك ريغا!" نادى شاليف.

وبذلت جهداً للنظر إلى عيني بن - روي.
"فكّر في الأمر يا آري، رجاءً. فكّر جيداً، ليس لأجلي وليس لأجلك، بل لأجل سارة والطفل. الوضع دقيق هنا. بإمكانك ربما محاولة إنقاذ أمر ما".
"لأشعر بالندم والغثيان بقيّة حياتي؟".
"أقلّه، ستكون لديك حياة متبقية".

نظرا إلى بعضهما، مُطبقي الشفاه، ومنحنِي الظهر؛ كلاعبين في فريق عانى للتوّ من هزيمة مُدَلّة. وبعد ذلك، وقف بن - روي وتوجّه إلى الباب، فنادته.

"طالما كان لديّ شعور سيّئ حيال هذه القضية".

فتوقف واستدار. وقرع الباب مجدداً، ومن ثم:
"ورطة مع الغائط".

فهز رأسه، وفتح الباب، ومرّ بجانب شرطي يرتدي بذلة نظامية في الممر.

الأقصر

"هل تحاول قتلي يا خليفة؟ هل تحاول؟ لأن افتتاح وادي الملوك سيجري في غضون أربع وعشرين ساعة، والهاتف يرّن من دون توقف، وها أنا أكتشف أنك تعمل في قضيتين إحداهما للإسرائيليين اللعينين!".

جرّ خليفة قدميه، ممسكاً دفتر مدونات سامويل بينسكر. فبعد خمس ساعات من السير في الصحراء، أقلته شاحنة خفيفة تابعة للشرطة، ثم عربة نقل مُقفلة تابعة لشركة الهاتف مناتيل، وبعد ذلك شاحنة نقل تابعة لزوسير محملة بأنايب إسمنتية؛ أكثر المصادفات إثارة للسخرية. كان قد وصل إلى الأقصر منذ أربعين دقيقة، فعرّج على المنزل، واستحمّ وبدّل ملابسه، وصارح زينب. وبعد ذلك، توجه إلى المركز، غير راغب في التحدث إلى بن - روي قبل مراجعة رئيسه.

حينذاك، رآه الحسني على الدّرج وطلب منه الصعود إلى مكتبه على الفور.
"اتصلوا بي إلى المنزل!". قال بشكل مسرحي، ووجهه متّقد بلون الشمندر المخلل. "يهودي ما قويّ الشخصية من مقر قيادة الشرطة في إسرائيل. في منتصف الليل، وعلى رقمي الخاص!".

لم يكن هناك مشي على أطراف الأصابع حول مرؤوسه في فترة بعد الظهر هذه، أو مناداة بالاسم الأول، أو استعمال لغة متحفظة. إنه الحسني القديم؛ متمرّ، ومولّع بالمواجهة، وبركاني الطباع.

"أراد أن يعرف إن كنت أعرف مكانك. فقلت: لا أقصد الإساءة أبيها الزميل. ولكن، ما شأنك أنت في مكان وجود أحد عناصري؟ فقال لي إنك كنت تساعد زميلاً له في أحد التحقيقات، وهناك إمكانية بأن تكون في خطر. ماذا يجري بحق الجحيم يا خليفة؟ أريد أن أعرف ماذا يجري!".

حدّق خليفة بدفتر المدوّّات. لم يكن قد نام طوال ست وثلاثين ساعة، وبدا مرهق الأعصاب. وبالرغم من أنه شعر كما لو أن جسده يخصّ شخصين مختلفين، فقد كان يشعر بنشاط مثير للفضول. سيحقق العدالة لابنه!

"سأقدّم تقريراً... استهّل كلامه.

"ستقوم بذلك بكل تأكيد!". وتردد صدى ضرب الحسني على الطاولة بقبضة يده. "ولكن، قبل ذلك، ستُخبرني هنا، والآن، ووجهاً لوجه بما يحدث. ماذا يجري يا خليفة؟ لماذا أتلقى اتصالاً من شخص يهودي على رقمي الخاص؟".

"للأمر علاقة بتسميم الآبار يا سيدي."

"ماذا؟".

"تلك التي أخبرتك عنها. في الصحراء الشرقية."

"آه! ليس الآبار المائية القبطية اللعينة مجدداً. أعتقد أننا اتفقنا على جعل هذا الأمر من آخر أولوياتنا".

"هناك منجم ذهب يا سيدي، بجانب جبل الشلول. منجم قديم...".

"ها هو!". صاح الحسني. "ها هو! لقد قلت ذلك: قلم! إنه أمر مضحك، ولكنني علمت أن الإشاعات ستتناوله بطريقة ما. لا يُفترض بك العمل أبداً مع أشخاص جديرين بالازدراء، لا سمح الله!".

قاوم خليفة الإغراء بتصحيح التّع الذي استخدمه الرئيس. فعندما يكون الحسني في هذا المزاج، لا تبدو فكرة قيامه بذلك جيدة أبداً. وزوّده بالخطوط العريضة للوضع ببطء وعناية - ريفكا كلينبرغ، شركة بارين، زوسير، المنجم، طمر النفایات السامة - مُشيراً باقتضاب إلى علاقة إسرائيل بالقضية، ومشدداً على الصلة المصرية. كان يفضّل التحدث إلى بن - روي أولاً، وإيضاح الدليل، وتنظيم أفكاره، ولكن إذا أراد الحسني أن يعرف في الحال فلا يمكنه الامتناع عن إخباره. ربما كان ذلك لصالح القضية. فكلما أسرع في وضع رئيسه في الصورة، تمكنوا من الشروع بمواجهة المذنبين بسرعة.

كان الرئيس يصغي إليه وتعاير وجهه تدل على عدم تجاوبه، وقبضته مكورتان بإحكام على الطاولة كما لو أنه تمثال فرعوني. وعندما أنهى خليفة كلامه، نهض وتوجّه إلى النافذة، وحدّق نحو الخارج بمبنى وزارة الداخلية الموجود على بُعد عشرة أمتار. وبعد مرور أقل من دقيقة، عاد إلى مكانه.

"إذا؟" سأل.

"آسف".

"إذا"، كرر الحسني بنبرة لطيفة على نحو غير متوقع كما لو أن خليفة قد أطلق للتو دُعابة مُفرحة. لم يكن ذلك رد الفعل الذي يتوقعه خليفة، فاقترب إلى الأمام. "إذا، هناك شركة أميركية متعددة الجنسيات، بمساعدة إحدى شركائنا الكبرى وبتحريض منها، تطمر بشكل غير قانوني نفايات ملوثة في الأراضي المصرية. والنفايات المذكورة تترشح إلى داخل النظام المائي وتسبب بضرر بيئي على نطاق واسع".

لقد حاول تفصيل الأمر من دون أن يبدو كما لو أنه يعامل الحسني بتفضُّل. مرة أخرى، لم يكن رد فعله كما كان يتوقعه، أو يأمله. فقد هزّ الرئيس كنفه بطريقة مبالغ فيها، ورفع يديه كما لو أنه يقول: "هل يُفترض بذلك أن يعني لي شيئاً؟". كان باستطاعة خليفة الشعور بزيادة حدة غضبه.

"سيدي، إنها فضيحة جنائية كبيرة. نحن نتكلم عن آلاف، وربما عشرات آلاف براميل النفايات السامة. لقد كنت هناك ورأيتها".

والتمعت ذكريات المنجم في ذهنه: الظلام، رُهاب الأماكن المغلقة، رائحة الثوم الكريهة والغامضة، وقد افترض أنها على علاقة بالتلوث الناجم عن الزرنيخ. "لقد حرق أولئك الأشخاص القانون"، تابع متخلياً عن تلك الذكريات. "لدينا الدليل، ونحتاج إلى التحرك...".

فرع الحسني إصبعه، مُسكِناً إياه. ولوّح بإصبعه الثابتة والمهددة في وجه خليفة كهراوة.

"دعني أوضح لك بعض الحقائق المحلية يا بُني"، قال، وبدا غضبه المكبوت في كل كلمة ينطق بها. "نحن شرطة الأقصر. شرطة الأقصر. لدينا منطقة عمل، ونتعاطى مع الجرائم التي تُرتكب في تلك المنطقة. قتل امرأة يهودية في القدس لا علاقة لنا به أيضاً، ناهيك عن أن موت صهيونية مدعاة للاحتفال. ومنجم مهجور في العدم - لا علاقة لنا به البتة. سواء أكانت هناك أشياء مرتبطة به أم لا. أمّا مسألة البئر المسمّمة على طرف منطقة عملنا، فرمما تُبالي بها. ولكن، كما سبق لي أن قلت لك، سوف نولي المسألة المزيد من التفكير بعد الانتهاء من مسألة افتتاح

المتحف. وفي ما يتعلق بالمومسات في روزيتا، والمنجم في رومانيا، وكل هراء آخر غير قابل للتصديق، فلا علاقة لنا بذلك. أكرر، لا علاقة لنا بذلك".

"لا أصدّق أنني أسمع هذا الكلام"، تتم خليفه، غير عالمٍ بأنه يردد صدى ما كان بن - روي يقوله لرئيسه بالتحديد، وفي الوقت نفسه، على بُعد 700 كيلومتر في القدس. ومن ثم قال بصوت عال: "سيدي، لا يمكنني ببساطة أن أسمع...".

فاحتدم غضب الحسني.

"ماذا؟ لا يمكنك أن تسمح بماذا؟ هل أقوم بشرح أسس الشرطة المصرية لك؟!".

"بارين وزوسير...".

"هما، على التوالي، شركتان مقرّهما أميركا، ولا سلطة قضائية لنا عليهما؛ كما أنهما من الشركات الأكثر نفوذاً في مصر".

"صودِفَ أنهما ساعدتا على طمر مئات آلاف البراميل المليئة بالتراب الملوّث...".

"قبل دقيقة كانت ألف برميل".

"مئة، ألف، مئة ألف، لا يهم؛ زوسير خرقت القانون!".

"لا أهتم؛ حتى لو خرقت أنف السّفِينكس اللعين!". وضرب الحسني النافذة بقبضته، وبدأت الغرفة برمتها كما لو أنها تهتز بسبب قوة الضربة. "أيّ منكما لم ترتكب جريمة في منطقة عملنا يا خليفة. وحتى لو ارتكبت جريمة، فلا سبب يدعونا للتورط فيها. يا الله القدير! ستطلب مني بعد ذلك فتح ملف قضية لأن أحد الفتيان سُرق دراجته الهوائية في أستراليا".

تكوّرت قبضة خليفة فيما كان يناضل لكبت غضبه.

"إذا، هل ستغضّر الطّرف ليس إلا؟".

"لن أُولي المسألة أي اهتمام. ليست من شأننا. هل فهمت؟ لم تحدث في منطقة عملنا، وليست من شأننا!".

"إذا سأنقل المسألة إلى خارج منطقة عملنا. سأخطّطك وأذهب إلى مدير الشرطة".

وأعدّ نفسه لسورة غضب أخرى، ولكن الحسني أطلق ضحكة مُجلجلة بدلاً من ذلك.

"لا مشكلة لدي"، صاح. "إلى الجحيم. حتى إنني سأعطيك الرقم الخاص بالمدير. في الواقع، لماذا التوقف هنا؟ لماذا لا تذهب إلى رأس الهرم؛ إلى وزير الداخلية نفسه الذي يشغل شقيقه منصب رئيس مجلس إدارة زوسر، وسيكون ليلة غد هنا في وادي الملوك يصافح بسعادة رئيس شركة بارين. شركة بارين نفسها التي تضحّ حالياً عشرات ملايين الدولارات في الاقتصاد المحلي! إذًا، هيا اذهب واتصل به يا خليفة. ولكن، لا تُعدّ إليّ باكياً عندما تُطرَد من الشرطة، وتُطرَد عائلتك من شقتها الجديدة".

فانتصب خليفة على قدميه، فاقداً السيطرة على نفسه.
"هل هذا تهديد؟"، صاح، مردداً أيضاً صدى المواجهة بين بن - روي وليه شاليف. "هل تهديني؟".

فتقدّم الحسني بضع خطوات بمنكبين مشدودين، وذراعين مثنيتين عند المرفقين كما لو أنه ملاكم على وشك الانقضاض على خصمه. وكان هناك صمت بعد أن واجه أحدهما الآخر. ومن ثم، بدا الأمر فجأةً كما لو أن الرئيس قد استنزف كل رغبة لديه في القتال، فأنزل ذراعيه، ومشى بخطوات ثقيلة في اتجاه طاولته.
"لا، أنا لا أهددك"، قال مرثياً على مقعده. "أنا أذكرك بكيفية حصول الأمور في هذا البلد. هناك أشخاص لا يجوز لك المساس بهم سواء أحدثت ثورة أم لا. إذا رغب الإسرائيليون في التقدم بطلب حكومي رسمي للتعاون، حينئذٍ ربما ستدور بعض العجالات. ولكن، بالرغم من ظننا بأن الإسرائيليين فائقو القدرة، لن تكون لهذا الطلب أي فائدة ما لم يحظَ بدعم الأميركيين. إذًا، لمَ لا تذهب وتُجري حديثاً مع رجلك اليهودي الصغير. وإذا وصلنا الأمرُ بمباشرة التحقيق، فسنحقق. وحتى ذلك الحين، لن أحرّك ساكناً في ما يتعلق بهذه المسألة. وإذا كنت تعرف مصلحتك، فلن تقوم بذلك. الآن، إذا لم يكن لديك مانع، لديّ أمور أهتمّ بها. واحرص على إغلاق الباب وراءك".

وانتزع سماعة الهاتف، وأدار كرسيه، مُديرًا ظهره لخليفة. فلزم التحري مكانه للحظات، مقاوماً رغبته في الاندفاع وضرب كتفي الحسني بقبضتيه، والصياح:

"لقد قتلوا ابني! لقد قتلوا ابني!". كان يعلم أن ذلك لن يُجدي نفعاً. فاستجمع قوته، وخرج من الغرفة متبختراً، مُغلِقاً الباب وراءه بقوة. إذا كان الحسني يريد طلباً رسمياً من الإسرائيليين، فهذا ما سيحصل عليه بالتحديد. فبن - روي يعرف ما يتعين عليه القيام به. لم يكن بن - روي تحريراً جيداً فحسب؛ تحريراً جيداً لعيناً فقط، بل صديقاً أيضاً. إنه صديق جيد لعين. سينتصران معاً ويحرصان على تحقيق العدالة. إنهما فريق النُجبة، كما في الأيام الغابرة. وتوجه إلى مكتبه، نازلاً الدَّرَج درجتين درجتين.

القدس

إن الأمر الذي أزعج بن - روي أكثر من أي أمر آخر ليس عرض رشوة رسمية عليه للتخلي عن قضية قتل، بل تفكيره فيه ملياً في أثناء عودته إلى جناح التحرير في الكيشل.

كان يُفترض به رفضه بدون إبطاء. فهو مناقض لكل مبدأ أخلاقي لديه، ولكل ما يمثله ويناضل لأجله. حسناً، ربما لم يمارس مهنته على الدوام حسب القواعد، وربما كان يطلق العنان لقبضتيه قليلاً ويؤوّل ما يُسمح له بالقيام به في أثناء تطبيق القانون، ولكنه يستطيع التفريق بين الصواب والخطأ، ويعرف أنه وإن تخطى الحدود أحياناً - كما فعل في الليلة السابقة مع غينادي كريمينكو - فستبقى هناك حدود دائماً؛ خط فاصل وواضح بين الأشخاص الصالحين وأولئك السيئين. وبالرغم من كل أخطائه، بقي على الدوام في الجانب الصحيح من ذلك الخط الفاصل، ولم يخطُ قط إلى الجانب الآخر. لقد ناضل على الدوام للحرص على تحقيق العدالة.

والآن، يُطلب منه أخذ مِمحاة ومحو الحدود، والادعاء بأنها غير موجودة. وإدارة ظهره لكل ما آمن به.

كان يُفترض به أن يطلب منهم الذهاب إلى الجحيم، وتسليم كل شيء لنواتان تيرات ليسطع نجمه على الصفحة الأمامية لهاآرتس. ومع ذلك، ومع ذلك...

وصل إلى جناح التحرين، ودخل مكتبه. لم يكن هناك أحد. المكان برّمته هادئ وساكن على نحو غير طبيعي. فأعدّ لنفسه القهوة، وأوقف هاتفه المحمول عن العمل، ثم ارتقى على كرسيه.

لم يكن خائفاً. إنه شخص شديد الاحتمال وقادر على الدفاع عن نفسه. فرؤساء بارين والسياسيون لا يُخيفون.

ولكنه لم يكن غيباً. فبارين تتمتع بنفوذ؛ نفوذ جدّي. ومواجهتها ستسبب له المتاعب، متاعب جدّية، ليس له فحسب، بل لسارة أيضاً والطفل على الأرجح. لقد سبق لهم أن قتلوا شخصاً، وربما قتلوا عدداً كبيراً من الأشخاص. إذا عصيت أمرهم - صدّقني - فسيسعون وراءك كما يسعى ابن آوى وراء جثة. لم يكن المعنيّ الوحيد بذلك، بل هناك اعتبارات على نطاق أوسع.

أخذ رشفة من كوبه، وربّت بهاتفه المحمول على فخذ.

إذا أفشى الأمر، فما الذي سيحققه؟ سيدمرّ حياته المهنيّة ويضع نفسه والأشخاص الذين يحبهم في مرمى النار. ولأجل ماذا؟ بارين تطمر النفايات السامة بالتأكد، ولا يوجد رابط مباشر بين الشركة ومقتل ريفكا كلينبرغ، بل إنه دليل ظرفي. وسيثبت محامو بارين أن الدليل الظرفي بمثابة عدم وجود دليل. تَبّاً، حتى إنهم قد يحرفون الوقائع وينحون باللائمة على طرف ثالث، أو يتملّصون من التهمة. في أفضل الأحوال، سيُحكّم عليهم بغرامة مالية وستتشوّه سمعتهم، وربما سيفقدون صفقة حقل الغاز المصري. سيكون الأمر مزعجاً ولكنه ليس كارثياً؛ ليس بالنسبة إلى شركة كبيرة كبارين. وبالنسبة إليه... إنه يقف على ميزان ذي كفتين غير متوازنتين، والأمور ليست لصالحه.

الوضع دقيق هنا. بإمكانك ربما محاولة إنقاذ أمر ما.

نفخ على قهوته، وتناول رشفة أخرى، وحدّق بالخارطة على الجدار المقابل، وهو مشغول بالفكر.

إنه عرض جيد بالتأكد. رشوة، مكافأة، سمّوها ما شئتم، ولكنه عرض جيد لعين إذا كان باستطاعتكم تجاهل المبدأ الأخلاقي. إذ ستبدل حياته، وسيحصل على راتب مضاعف، وعلى عمل أقل، ومنزل منخفض الإيجار، وتقاعد مبكّر. ومع قرب انتهاء عرض مسرحية سارة، لن تعود مقبّدة بالقدس. باستطاعتهم

الانتقال إلى كيريات عطا في الشمال حيث توجد أكاديمية الشرطة، وسيجدان ربما مكاناً قرب البحر، ويبدآن مجدداً، ويمنحان طفلتهما - أطفالهما، ربما - حياة أفضل مما هو الحال في القدس حيث تتشوّه المبادئ. سيكونان أقرب إلى عائلتيهما أيضاً - فعائلته تقيم شمال هاديرا في سهل شارون، وعائلتها قرب الجليل - كلما فكّر بذلك أعجب به أكثر فأكثر كما يبدو.

لو كان باستطاعته التعاطي مع الجانب الأخلاقي، مع واقع إبقاء القتاتل حراً طليقاً...

إن وضع قضية على الرف ليس ممثلاً لإلقائها في وعاء القمامة، بالرغم من كل شيء. وكما قالت ليه شاليف، الظروف تتبدّل، وقد يضعف نفوذ بارين. ربما يكون الأمر أشبه بإرجاء تطبيق العدالة بدلاً من التخلي عنه. وتوسّعاً بمشابهة التحرر من المشكلة، هناك أسماك تسحبونها لحظة شعوركم بأنها ابتلعت الطّعم، في حين تستخدمون الحنكة مع أخرى وتُرخون لها الصنّارة قبل اصطيادها. أما النتيجة النهائية فواحدة. لا تزال لديكم تروقة على العشاء. إنها مسألة توقيت ليس إلا.

أم إنه يخدع نفسه ربما، ويحاول تحميل واقع قيامه بلعب دور فوستوس ويبيع روحه للشّرير.

لم يكن يعلم، لم يكن يعلم فحسب. قلب الأمور في رأسه، محاولاً التوصل إلى قرار. وفي أثناء ذلك، كان باستطاعته سماع صوت سارة في مؤخر رأسه وهي تقول له يوم انفصالهما: يجب التضحية بأمر ما يا آري. لقد بدت له هذه المعادلة صحيحة الآن أكثر من أي وقت مضى. سيكون عليه التنازل عن أمر أساسي لأجلها. لقد اختزلت مُعضلة السنوات الأربع بأكثر المعادلات الثنائية صعوبة: إعطاء الأولوية لأولئك الذين يحبهم أم لنداءات ضميره؟ أسود أم أبيض؟ طرّة أم نقش؟ لا خيارات بديلة.

ومع ذلك، لم يتمكن من اتخاذ قراره، وكان لا يزال يشعر بأن اتجاهات مختلفة تتنازع، فيميل في هذا الاتجاه تارةً وفي ذلك الاتجاه طوراً، عاجزاً عن اختيار اتجاه محدّد. أخيراً، وكما لو أنه تعب من عجزه عن اتخاذ القرار، أخذت يده المبادرة بإرادتها، ورفعت الهاتف الخلوي وأعدت تشغيله. كانت هناك رسائل،

ولكن أصابعه طلبت رقماً بدلاً من وضعه على صيغة البريد الصوتي. وضع الهاتف على أذنه فسمع صوت سارة على المجيب الآلي. ارتفع حاجباه كما لو أنه تفاجأ بسبب حمله الهاتف بطريقة غير متوقعة.

"سارة"، قال بعد توقف الإشارة الصوتية. "مرحباً. هذا أنا. أنا... أمم... أمم... أنا آسف في شأن الليلة الماضية... أردت أن... أمم...".

وتلثم للحظات، معتذراً مجدداً، ومُعرباً عن مدى استمتاعه بالعشاء، وعن مدى جمالها، حتى تطلق شيء ما فجأة، وقرّر وضع حدّ لذلك.

"اسمعي يا سارة، أحتاج إلى التحدث إليك. ليس عبر الهاتف، بل وجهاً لوجه. هناك أمر أريد استشارتك في شأنه. لقد عُرضت عليّ وظيفة، وظيفة جيدة، وظيفة جيدة حقاً، في حيفا، بعيداً عن الخطوط الأمامية. أعني، بداية جديدة لنا، لثلاثتنا. أعتقد أنني سأقبلها. أريد أن أكون معك يا سارة، أكثر من أي شيء آخر في العالم. معك ومع البوبو، في عائلة لائقة. لا شيء آخر يهمّني. لا شيء. هل يمكنني المرور في وقت لاحق؟".

وتردد، ثم أضاف: "أحبك كثيراً"، وأقلل الخط.

إنه العمل الصحيح. كان يعرف ذلك. صحيح أن جزءاً منه سيشعر بالسوء على الدوام، ولكن عائلته هي المكافأة. باختصار، إن سارة والطفل هما اللذان يهمّانه، ولكن عليه التعاطي مع الشعور بالذنب. ويأمل أن يوقعوا ببارين ذات يوم، ولكن ليس اليوم. فكما قالت ليه شاليف: نحن مرؤوسون نتلقى الأوامر. وهذا هو الأمر. في النهاية، هو يقوم بما يُطلب منه القيام به.

وأُسند ظهره، شاعراً بهدوء مثير للفضول، كما لو أن عبثاً قد رُفع عن كاهله. رنّ هاتفه، فانحنى إلى الأمام على الفور. مفترضاً أنها سارة، أجاب على المكالمات حتى من دون النظر إلى الشاشة. ولكنها لم تكن سارة.

"بن - روي هذا أنا. كنت أحاول التحدث إليك. علينا التحدث".

فجأة، عاد العبء إلى كاهله مجدداً. في هذا الوقت بالذات، باستطاعته الاستغناء عن هذا الحديث.

الأقصر

كان خليفة جالساً على حافة طاولته كشخص يستمد حيويته من عصبية مزاجه.

"إذاً، هذا هو الوضع في النهاية"، شرح وهو يشعل سيجارة كليوباترا. "إذا كنا سنواجه هاتين الشركتين، فسيوجب عليك التقدم بطلب رسمي للتعاون. وإذا كان باستطاعتك إشراك السلطات الأميركية في هذا الأمر، فسيكون ذلك أفضل".

في الجانب الآخر من الخط، لزم بن - روي الصمت.

"أعرف أن الأمر جنوني"، تابع خليفة مسيئاً تفسير عدم إجابة الإسرائيلي، "ولكن، هكذا تجري الأمور في هذا البلد. بارين وزوسر لديهما علاقات عديدة. نحتاج إلى... كيف تقول ذلك... المهاجمة على مستويين. إذاً، هل تملك أي فكرة عن الوقت الذي يتطلبه الأمر لتحصل على الطلب؟".

لا جواب أيضاً. فكرر خليفة السؤال معتقداً أن أمراً ما يشئت انتباه بن - روي. فسمع تنفساً عميقاً - شيئاً بين التنهيدة والتأوه - ومن ثم:

"نحتاج إلى التحدث عن هذا الأمر".

"أعرف أننا نحتاج إلى التحدث عن الأمر. لهذا السبب اتصلتُ!".

وضحك خليفة. كان هناك هوس في صوته. غير أنه لم يكن هناك ما يشير إلى السرور في الجانب الآخر من الخط.

"بن - روي؟".

"اسمع يا صديقي، هناك بعض التعقيدات...".

فقطب المصري حاجبيه.

"تعقيدات؟ ماذا تعني؟".

"كل ما في الأمر...".

وسمع صوت تنفس آخر كما لو أن بن - روي يختار كلماته بعناية.

"حسناً، خلاصة القصة أن قسماً آخر تولى القضية لأن بارين أميركية وما شابه ذلك. لديها صلات كثيرة هنا أيضاً، ولذلك يجب معالجة المسألة بحذر".

لقد أطلق شيء ما في نبرته أجراس التنبيه في رأس خليفة.

"لا أفهم ما تقوله".

"لقد أصبحتُ خارج القضية. لم أعد أعمل عليها".

فانزلق خليفة عن الطاولة، ورماد السيجارة يتساقط على الأرض. كانت الأجراس تقرع بصوت أكثر ارتفاعاً.

"هل ما تُخبرني به دُعابة؟".

فهمهم بن - روي.

"كما تقول رئيسي، وجهي لا يشير إلى أنني أمارحك".

"هل تمّ إبعادك عن القضية بكل بساطة؟".

"هكذا يبدو الأمر".

"ولكن، لماذا؟ لماذا يفعلون ذلك؟ لقد أخبرتني هذا الصباح أنك حللت القضية عملياً".

فتمتم بن - روي شيئاً ما.

"ماذا؟".

"قلت: هذه الأمور تحدث".

"ألست منزعجاً من الأمر؟".

"بالطبع أنا منزعج".

"لا تبدو لي منزعجاً".

"ثق بي يا خليفة، أنا منزعج، ولكن ليست بيدي حيلة. الآن انظر، سأكون ممتناً لك على الدوام...".

"إذاً، اطلب من القسم الآخر أن يتقدّم بالطلب".

"عفواً؟".

"اطلب من القسم الآخر أن يتقدّم بالطلب. لا يمكنني القيام بأي شيء بدون طلب رسمي للمساعدة من قبلكم".

"لسوء الحظ، ليس الأمر بهذه البساطة".

"ما هو هذا الأمر غير البسيط؟ بإمكانك أن تخبرهم وتشرح الوضع...".

"ليس الأمر بهذه البساطة"، كرر بن - روي، وبدا الانزعاج واضحاً في صوته، بالإضافة إلى أمر آخر أيضاً. وبالرغم من أن خليفة لم يكن بإمكانه التأكد

من الأمر الآخر، فقد بدا بوضوح أنه الإحراج. انتزع خليفة السيجارة من فمه بقوة، وحاجبه مرتفع نحو الأعلى، وسأله:
"ماذا يحدث؟".

"لا شيء يحدث".

"لقد تمت تنحيّتك ببساطة عن قضية قتل، وأنت تقول لي الآن إن شيئاً لا يحدث".

فساد الصمت.

"هل نال منك أحدهم؟ هل هذا هو الأمر؟".

"لا أفهم ماذا تعني؟".

"هل هناك شخص ما يؤثّر فيك؟".

"لا أحد يؤثّر فيّ بأي طريقة".

"إذاً، لماذا سلّمت القضية لقسم آخر؟".

"لقد قلتُ لك السبب!". وبدأ الانزعاج واضحاً. "بارين شركة أميركية، ولديها العديد من العلاقات هنا، هناك طرائق معيّنة لمقاربة...".

"إذاً، أعطني اسماً ورقم هاتف وسأتكلم مع القسم الآخر على الفور".

"لا تجري الأمور على هذا النحو. لا يمكنك الاتصال بشكل مفاجئ...".

"كما اتصلتَ بي! هل تتذكر؟ هكذا بدأ كل شيء. لقد اتصلتَ بي

بشكل مفاجئ وطلبتَ مساعدتي. وها أنا أطلب مساعدتك. لديّ منجم مليء بنفايات سامّة، ومياه آبار تتسمّم، وصنادل تجوب النيل ذهاباً وإياباً... لا أستطيع اتخاذ إجراءات بحقّ الأشخاص المسؤولين ما لم تطلب حكومتك من حكومتي...".

"لا ترفع صوتك في وجهي يا خليفة".

"أنا لا أرفع صوتي!".

"بل إنك ترفع صوتك! ولا يُعجبني ذلك. لا أعرف ما الذي حدث لك في

الليلة الماضية...".

"ما حدث لي في الليلة الماضية، يا صديقي، هو أنني كدتُ أموت داخل منجم

لأنك طلبتَ...".

"لم أطلب منك القيام بأي شيء!".

"طلبتَ مني أن أساعدك في قضية قتل! وساعدتك بالفعل. وأنا أساعدك الآن. بارين قتلت امرأة في القدس..."

"لا نعرف إن كانت وراء قتلها".

"لقد قتلتها بالطبع. لقد أخبرتني بذلك هذا الصباح".

"ربما قتلتها".

"لقد قتلتها! تعرف أن بارين مسؤولة عن قتلها. لقد اكتشفت ما يقومون به في المنجم..."

"لا دليل مادّي لدينا..."

"ما الذي تتكلم عنه بحق الجحيم؟ لديّ منجم مليء بالأدلة! مليون برميل من الأدلة! لم يسبق لي أن عملتُ في قضية تحتوي على هذا الكمّ...!".

"ليست قضيتك!".

"إنها قضيتي. لولاي ما كنت لتعرف شيئاً عن سامويل بينسكر، والمنجم، وزوسر..."

"وأنا ممتنّ لذلك، لقد قلتُ لك. ولكن الكرة في ملعبنا الآن. إنها قضية إسرائيلية. وأنا أقول لك إن مساعدتك لم تُعدّ مطلوبة".

"إنها مطلوبة!". وأخذ خليفة بحّة من سيجارته بغضب، ويده ترتجف. "إنها مطلوبة لأنه من الواضح أنك لست رجلاً بما يكفي..."

"ماذا؟ ماذا قلتَ لي للتوّ؟".

"لستَ رجلاً بما يكفي لتنفيذ إلى كُنه التحقيق وتلاحق المجرمين".

"كيف تجرؤ؟!؟".

"أحدهم يؤثّر فيك يا بن - روي".

"لن أجلس هنا..."

"بارين أثّرت فيك".

"لا تعرف ما الذي..."

"بارين أثّرت فيك! ولهذا السبب انتقل التحقيق إلى قسم آخر. لقد ساعدتُك يا بن - روي. لقد حللتُ القضية لأجلك، وخاطرتُ بحياتي. وها أنت تتصرف كيهودي يتدبّر المكائد..."

"ماذا؟ ماذا؟ كيف تجرؤ يا ذا الرأس الشبيه بالخرقة القذرة...".

"لقد قتلوا ابني!".

"لا تكن لعيناً...".

"لقد قتلوا ابني الصغير!". كان خليفة يُطلق صرخات عميقة. "صَندل تابع لزوسر محمّل بنفايات بارين السامة. لقد قتلوا "علي". لقد قتلوني. والآن، لن تساعدني على تقديمهم للعدالة لأنك خائف. أيها الوغد! أيها اليهودي الوغد الجبان!".

وركل سلّة المهملات بجانب طاولته، مدحرجاً إياها على أرض الغرفة. وفي الجانب الآخر من الخط، كان باستطاعته سماع بن - روي وهو يتنفس بصعوبة. وساد الصمت، ومن ثم سُمع صوت الإسرائيلي. من الواضح أنه كان يناضل للسيطرة على نفسه.

"آسف لما حدث لابنك يا خليفة. أنا آسف بصدق. وأنا ممتن لكل ما قمتَ به. ولكن، لا يمكننا الاستمرار. لقد انتهى الأمر. هل تفهم؟ لقد انتهى الأمر". وساد الصمت مجدداً، ومن ثم سُمع صوت آخر. ليس صوت بن - روي، بل صوت أنثى.

"لا، لم ينته. لم ينته بتاتاً. في الواقع، لقد بدأ للتو".

القدس

"ما...".

أبعد بن - روي الهاتف عن أذنه مصدوماً، ومن ثم أعاده بقوة. لقد عرف الصوت على الفور. إنها المرأة التابعة لنمسييس أجندا، ابنة ريفكا كLINبرغ، دينا ليفي أو أيّاً يكن الاسم الذي تعتمده الآن. كانت على الخط تنصّت على حديثهما، كما لو أنهما كانا يتحدثان سرّاً في غرفة وقفزت فجأةً من خزانة الملابس. "كيف...؟".

"لقد وضعنا جهاز تنصّت سرّياً في هاتفك"، قاطعت مستبقة السؤال. "في ميتزبي رامون، أداة صغيرة ذكية تسمح لنا بالتنصّت ليس على اتصالاتك فحسب بل على كل ما يدور حول الهاتف بشعاع خمسة أمتار".

لقد تطلّب منه الأمر لحظات لاستيعاب المعاني الضمنية لذلك. وبعد ذلك، اسودّ وجه بن - روي.

"اخرج من الخط، يا خليفة. اخرج الآن."

فتجاهله المصري.

"من أنت؟". قال بغضب. "وماذا تعين بقولك إنّ الأمر لم ينته؟".

كرّر بن - روي طلبه، ولكن أياً منهما لم يتوجّه إليه بأي كلمة. وكطفل طرد من الزمّرة، كل ما استطاع القيام به هو الجلوس هناك وهو يصغي بعجز في أثناء قيام المرأة بتزويد خليفة بمعلومات عن نمّيس أجندا وعن إنجازاتهم.

"تمارس بارين ضغوطاً"، شرحت. "الإسرائيليون ينفون التحقيق. صديقك تلقى رشوة للتخلي عن القضية".

"إنّها كذبة لعينة! لا تُصغ...".

"كما قلت له عندما التقينا قبل أيام قليلة، القانون لا يطال شركات مثل بارين، أو زوسير. لا يطال أياً منها. والطريقة الوحيدة للتغلّب عليها هي في اتّباع أساليبها".

"إذاً، أخبريني كيف". قال خليفة فجأةً بصوت مليء بالحماسة والإلحاح. "قولي لي ماذا يمكنني أن أفعل؟".

"هل أنت مجنون يا خليفة؟ حتى إنه لا يجب عليك التفكير...".

"قولي لي ماذا يمكنني أن أفعل؟".

"يمكنك أن تساعدنا"، قالت المرأة.

"أجل، سأفعل. أي شيء".

"حباً بالله، يا خليفة!".

"ستصل شحنة نفايات الليلة. لقد تسلّلنا إلى ملفات جهاز الكمبيوتر التابع لزوسير، وحصلنا على كل التفاصيل. سترسو سفينتهم على رصيف شمال روزيتا؛ عند مصبّ النيل تماماً، وسيتمّ إفراغ الشحنة قرابة منتصف الليل. نحن في طريقنا إلى هناك الآن. سنقوم بتصوير الأمر برمّته، وربما سنستجوب فردّين من الطاقم. ومن ثم، نحتاج إلى الذهاب إلى المنجم. هل يمكنك اصطحابنا إلى هناك؟".

"بالطبع!".

"خليفة!"

"سنوجه لك رسالة نصّية من رقم هاتف آمن. أعد الاتصال بنا عليه وستتفق على المكان الذي..."

"سأذهب معكم إلى روزيتا". صاح خليفة. "لقد قتلوا ابني. أريد المشاركة في الأمر".

"آسف، ولكننا لا نعمل..."

"أنا ذاهب إلى روزيتا. هذا هو الاتفاق. أريد التحقق من الأمر بنفسي. سأقصد روزيتا، ومن ثم سأرشدكم إلى المنجم. هذا أو لا شيء".
وكان هناك صوت همس مكبوت كما لو أن المرأة تتداول مع شخص آخر، ومن ثم، وبعد تردد قالت له:

"حسناً، إلى روزيتا. هل لديك دفتر المدوّنات؟ ذلك الخاص بالمنجم؟".
أجل، جاء الجواب.

"اصطحبه معك. ربما تمكّنّا من استخدامه. نحن نرسل لك رسالة نصّية الآن".
"حباً بالله، أصغ إليّ يا خليفة، هؤلاء الأشخاص..."
"ماذا؟ أيّ نوع من الأشخاص هم؟".

إنها المرة الأولى في غضون دقيقتين التي يكفّن فيها عن تجاهل بن - روي.
"قل لي أيّ نوع من الأشخاص هم يا بن - روي؟".
"إنهم متهورون! إرهابيون!"

"وأنت كاذب وجبان! وأنا أعرف جيّداً من يتعيّن عليّ العمل معه في الحال. لقد حظيتَ بفرصتك يا بن - روي، واخترتَ تلقّي الرشوة والتخلّي عن الأمر. لم يعد ذلك من شأنك. سأتصل بكِ حالما أتلقي الرسالة النصّية".

قال ذلك للمرأة. فصاح بن - روي، وطلب من خليفة عدم القيام بذلك، قائلاً له إن الأمر جنوني، وإنهم لن يتمكنوا أبداً من بارين، وإن عليه ربما تقبّل الواقع أيضاً. كان يتكلم مع نفسه لأن المكالمات كانت قد قطعت. فرمى الهاتف عبر الغرفة. وفي أثناء قيامه بذلك، رأى شخصاً واقفاً عند المدخل، نصفه إلى الداخل، والنصف الآخر إلى الخارج، وهو متصلّب الفكّين.

"هل كنتَ تسترق السّمع، يا دوف؟".

الأقصر

كانت الرسالة النصّية في انتظار خليفة حالما أقفل الخط. إنه رقم هاتف خلوي مصري كما يبدو. فاتصل، وأجابت المرأة. إنهم على بُعد ساعتين من روزيتا تقريباً، قالت له. وسألته إن كان باستطاعته الوصول إلى الشاطئ. لا مشكلة، قال. فهناك رحلات جوية منتظمة من الأقصر إلى الإسكندرية مروراً بالقاهرة. "علماً أنه لا يمكنني نقل مسدسي معي على متن الطائرة حتى مع وجود شارة الشرطة".

"انس الأمر"، قالت. "لدينا قوة نارية كافية. وجه لنا رسالة نصية على هذا الرقم حالما تعرف رقم الرحلة الجوية التي ستكون على متنها. ولا تفكّر في خداعنا".

لم يفهم خليفة معنى الجملة، ولكنه فهم الفحوى. وشرع بطمأنتها بأن شيئاً من ذلك لن يحدث، ولكنها كانت قد أنهت المكالمة. جلس للحظات، وكان هناك ضوء تحذيري بالغ الصّعر يومض في مكان ما داخل رأسه. كان منفِعلاً جداً لدرجة أنه لم يلاحظ الأمر. فالعدالة هي كل ما يأبه له، تحقيق العدالة من أجل ابنه. ولم يكن يهتم بكيفية تحقيقها. لذا، وضع كل شكوكه جانباً، وتلقّف الهاتف واتصل بشركة الخطوط الجوية المصرية (إدجيبت إير) لحجز مقعد له على متن الرحلة المتوجّهة إلى الشمال.

القدس

"هل كنتَ تسترق السمع؟". كرر بن - روي عاجزاً عن إخفاء نبرة الاتهام في سؤاله. فلم يُجب دوف زيسكي، بل وقف هناك محدّقاً إليه من وراء نظارته ذات العدستين المستديرتين من دون أن يرفّ له جفن، ممسكاً برزمة أوراق بيده. "دوف؟".

"هل ساندع بارين تنجو بفعليتها؟".
"إذاً، كنتَ تسترق السمع".

"كنت أنتظر لإعطائك هذه". ورفع زيسكي الأوراق. "كنت تصيح".
وساد صمت مُربك. بعد ذلك، همهم بن - روي ولوّح بيده غير راغب في دخول جدال آخر.

"إنه خطئي. يُفترض بي أن أتعلّم إبقاء صوتي منخفضاً".
وإذا كان يأمل في التخفيف من حدة التوتر، فهو لم يُفلح في ذلك. وتقدّم زيسكي خطوة إلى الأمام.
"لماذا؟". سأل. "ظننتُ أننا...".

"ستزوّدك ليه شاليف بالمعلومات"، قال بن - روي مقاطعاً إيّاه. "القضية في طريقها إلى قسم التحقيقات الخاصة، ولم تُعد لدينا علاقة بها. هذه الأمور تحدث الآن، ماذا لديك هناك؟".

لم يكن زيسكي راغباً في تغيير الحديث.
"ولكن، لا يمكننا...".

"لا تقل لي ما يمكننا وما لا يمكننا القيام به يا دوف". كانت نبرته أكثر جفاءً مما أرادها أن تكون، ولكنه بدا عصبيّ المزاج بعد المواجهة التي حصلت بينه وبين خليفته، وغير راغب في معاودة الكرة. أنت كاذب، جبان، لست رجلاً بما يكفي. كانت كلمات المصري لا تزال ترنّ في أذنيه بطريقة جارحة لأنه يعلم في قرارة نفسه أنها صحيحة. أجل، فعل ذلك لأجل سارة والطفل وليس لأنه خائف، ولكن الواقع يبقى أنه تخلّى عن القضية وتلقّى رشوة للقيام بذلك. قبل عشرين دقيقة، تخيل أن باستطاعته التعاطي مع الشعور بالذنب، ولكنه لم يعد متأكداً الآن، ولم يكن بحاجة إلى زيسكي لزيادة شكوكه.

تقدّم الشاب خطوة أخرى إلى الأمام في اتجاهه.
"آري، اسمع...".

"عليك أن تتوجّه لي بقلب سيدي".
"ولكنني عثرتُ على شيء ما يتعلق ببارين، أعتقد...".
فأجاب بن - روي بحدة:

"لا أريد أن أسمع أي شيء عن بارين. هل تفهم؟ نحن خارج القضية، لقد أصبحت بين يدي مرجع أعلى، نقطة على السطر. أيّاً يكن ما حصلت عليه.

اتركه على الطاولة فحسب، ومن ثم اغرُب عن وجهي. أرغب في القليل من الخصوصية".

وقف زيسكي أمامه، مُطبقاً شفتيه بإحكام للسيطرة على انفعاله، وكانت ملامح وجهه تشير إلى أن أصابع الاتهام موجّهة إلى بن - روي. وبعد ذلك، مشى متبختراً، وألقى رزمة الأوراق على حافة الطاولة بقوة، واستدار وخرج. سقطت الأوراق على الأرض وتبعثرت قبل أن يتمكن بن - روي من الوصول إليها.

"تبّاً! هسهس. "تبّاً!"

جلس للحظات، مُطبقاً قبضة يده وفتحاً إياها، وشاعراً بالخزي لأنه بدا مشابهاً للضابط المسؤول بوم في تعليقه حول ضرورة مخاطبة مرؤوسه له بكلمة سيدي. من ثم، وقف وتبع زيسكي بهدف الاعتذار منه بسبب سؤره غضبه، ولكنه لم يتمكن من العثور عليه. وبعد البحث في أنحاء المركز لمدة خمس دقائق، عاد إلى المكتب. كان هاتفه المحمول محطماً في الزاوية البعيدة للغرفة. لم يكن يملك أي فكرة عن شكل جهاز التنصّت السري، ولم يتكبد عناء البحث عنه. وبعد إنقاذه بطاقة سيم، حمل القطع المتبقية إلى غرفة المراحيض والمغاسل، ورماها داخل المرحاض. ولدى عودته إلى المكتب، فتش طاولة زميله يوي زلبا، وأخذ جهاز النوكيا القديم الذي كان يحتفظ به هناك، ووضع البطاقة فيه، وشحن الهاتف بالكهرباء. ثم شرع بجمع الأوراق المبعثرة. كانت كلها على الأرض وتحت الطاولة، وتعيّن عليه الركوع للوصول إلى الورقة الأبعد، وقد فاجأه اعتبار ما يقوم به ملائماً. جمعها بدون ترتيب، وكان على وشك وضعها على صينية البريد، ستماً من الأمر اللعين برمته، عندما لفت انتباهه أمر ما على إحدى الأوراق. إنه اسم بحروف سوداء عريضة: دينا ليفي. وتذكّر أنه طلب من زيسكي جمع معلومات عنها قبل يومين بعد أن سجنه أفراد من منظمة نيمسيس. إنه تقرير زيسكي كما هو مُفترض، علماً أنه لم يُشر إلى ذلك...

جلس متجهّم الوجه. لم تكن الأوراق مرتبة بالتسلسل، ولم تكن هناك أرقام على الصفحات، وقد احتاج إلى مدة من الزمن لترتيبها. كانت هناك صورة طُبق الأصل لبريد إلكتروني من السفارة الإسرائيلية في الولايات المتحدة يوجد في أعلاها

لوغو الجيش الإسرائيلي، ونسخة مسحوبة على طابعة لمقالة صحفية عن فتاة اعتُقلت في أثناء أعمال شغب مناهضة للعوامة في هيوستن (أليست هيوستن مقر قيادة بارين؟) مجموعة لا بأس بها من المعلومات. من الواضح أن زيسكي كان يعمل بكدّ، مما حملته على الشعور بالسوء أكثر فأكثر بسبب طريقة تكلمه معه. ففرز الأوراق، ووضعها في مجموعة مرتّبة، ثم أسند ظهره وشرع بقراءتها من بدايتها ببطء في بادئ الأمر، ومن ثم بشكل عاجل مع بدء أجزاء القضية بالتجمّع، واتّضح الصورة برمتها. وعندما بلغ النهاية، شحب وجهه وظهرت قطرات تعرق على جبينه.

"آه يا الله!"، همس. ومن ثم قال بصوت مرتفع: "خليفة!".

الأقصر

لم تكن هناك مقاعد متوافرة لدى إدجيبت إير في تلك الليلة في الدرجة الاقتصادية، ولا حتى في درجة الأعمال، مما جعل خليفة أمام خيار وحيد ألا وهو إفراغ الحساب المصري اليسير التابع للعائلة لشراء بطاقة في الدرجة الأولى. كان الشعور بالذئب سيسحقه في أي ظرف آخر، ولكنه لم يُعيد النظر بقراره هذه الليلة. فابنه المقتول هو كل ما يهّمه.

تأكد من مواعيد الرحلات؛ السابعة وخمس دقائق إلى القاهرة، مع توقف انتقالي في الإسكندرية، والوصول عند الثامنة وخمسين دقيقة. وكما تقتضي التعليمات، وجّه رسالة نصّية لأفراد منظمة نِمسيس، وجاء الرد على الفور: اتصل عندما تهبّط وسنُعلمك بما يجب أن تقوم به. مجدداً، ومض ضوء التحذير في مكان ما في رأسه. ومرة أخرى، لم يُعير الأمر أي اهتمام. اتصل بالمنزل، ولفّق لزيّن قصة أخرى عن العمل حتى وقت متأخر. ومن ثم، ومع تبقي القليل من الوقت قبل التوجّه إلى المطار، أحضر خارطة لمنطقة الدلتا، وقضى خمس عشرة دقيقة في الاطلاع على وضعية الأرض التي سيغامر بدخولها.

فروزيتا، أو رشيد كما تُعرّف عموماً، تقع قرب لساني البحر الداخلي في البرّ، والقائمين في أقصى الغرب حيث يتفرّع النيل في أثناء دنوّه من الساحل.

فالبلدة متجمّعة على امتداد الضفة الغربية للنهر. وعلى بُعد كيلومترات قليلة في اتجاه مصبّ النهر، توجد قلعةً قايتباي التي تعود للعصور الوسطى، وحيث اكتشفت قوات نابوليون المجتاحة في العام 1799 حجر روزيتا الشهير. لم يكن خليفة مهتمّاً بأي من هذه الأمور. كان اهتمامه منصبّاً فقط على الرأس الرملي القاحل شمال قايتباي حيث يُنهي النيل رحلته البالغة 6,700 كيلومتر ويصبّ في المتوسط. والمنطقة مُشار إليها بأنها محمية طبيعية ومنطقة عسكرية في آن؛ مما يعني أن أحداً لا يمكنه الدخول باستثناء أولئك الذين يملكون تفويضاً. هناك يقع رصيف زوسير - بعيداً عن العيون التي تريد استراق النظر - ويوجد طريق واحد فقط لبلوغ المكان. لذلك، سيكون عليهم الذهاب سيراً على الأقدام، أو استخدام شارة الشرطة. باستطاعة القرار النهائي الانتظار حتى يصلوا إلى المكان. في الوقت الحاضر، إنه بحاجة إلى معرفة ما الذي يخططون له.

لقد تلقى أربعة اتصالات من بن - روي في أثناء تمعّنه في الخارطة. وكان في كل مرة يوجّه الاتصال إلى صيغة البريد الصوتي، ومن ثمّ يحو الرسالة من دون الإصغاء إليها. من الواضح أن الإسرائيلي يعمل وفقاً لجدول أعمال مُضمّر، ولم يكن مهتمّاً بسماع المزيد من أكاذيبه وأعداره. لقد حظي بفرصته. فما شرع به وكفّ عن إتمامه سيقوم هو، خليفة، بإثرائه بمساعدة نمسيس أجندا. فليذهب بن - روي إلى الجحيم. إنه يهودي وغد جبان.

ألقي نظرة أخيرة على الخارطة، وقبل الساعة السادسة مساءً، نزل إلى الطابق السفلي، مُصطحباً معه دفتر مدوّنات سامويل بينسكر. في منتصف الطريق، سمع صوت الرئيس الحسني في الردهة في الأسفل، يوبّخ شخصاً ما بسبب التدابير المتخذة لافتتاح وادي الملوك في الليلة التالية. غير راغب في مواجهة ثانية على غرار مواجهتهما السابقة، تريث لمدة خمس دقائق على فسحة الطابق الأول حتى خبا الصوت أخيراً لدى مغادرة الرئيس المبنى. فمكث ثلاثين ثانية إضافية للتحقق من مغادرته. ومن ثم، أسرع إلى الخارج كي لا يفوته موعد الرحلة. وعندما كان يستدير إلى اليسار في اتجاه شارع المدينة المنورة، ويستعدّ لإيقاف سيارة أجرة تُقلّه إلى المطار، سمع صوتاً يناديه؛ إنه صوت مألوف. إنها زينب.

كانت واقفة في الجانب المقابل من الشارع، بجانب الأرض البور المواجهة لمركز الشرطة والمكسوة بشجيرات ملتفة. فألقى نظرة سريعة على ساعته - إنها السادسة وعشر دقائق، بدأ الوقت يضيق - وهرب في اتجاهها.

"ماذا تفعل هنا؟".

كان حجابها مرفوعاً على رأسها، وهناك عرق على جبينها، كما لو أنها كانت تركض.

"زينب؟".

"قلت إنك ستعمل حتى وقت متأخر".

"أنا أعمل حتى وقت متأخر. أنا... خارج لإحضار شيء ما".

لقد مضى على زواجهما عشرون عاماً، ولم يسبق له أن كذب عليها ولو مرة واحدة. ولكن، يبدو أنه يُطلق سلسلة من الأكاذيب في الساعات الست والثلاثين الأخيرة. فمدّت يدها ولمست ذراعه، ونظرت إليه مباشرة. لم تكن بحاجة لقول أي شيء. كان كل شيء ظاهراً في عينيها، وكانت تعلم أنه لا يقول الحقيقة. مرّت بضع ثوانٍ، ومن ثم سحبت يدها، وخطت إلى الوراء، ووجّهت نظرها إلى الأرض.

"هل هي جميلة؟".

احتاج خليفة إلى لحظات قليلة ليفهم ما تعنيه.

"آه، يا زينب!". قال بصوت مشبع بالخوف والاستحسان الكئيب. "زينب!".

واقترب منها، وأمسك ذراعها، واصطحبها إلى الأرض البور بعيداً عن الناس المصطفين على امتداد جانب الشارع.

"كيف يمكنك التفكير في أمر كهذا؟".

"أعرف أنني لم أكن زوجة صالحة يا يوسف، في الأشهر التسعة الأخيرة هذه، منذ...".

وطرفت عينيها للتخلص من الدموع.

"لا ألومك. لا ألومك حقاً".

"توقفي عن التفوّه بمثل هذا الكلام يا زينب. توقفي الآن".

ووضع دفتر المدونات في الجيب الداخلي لسترته، وأمسك يديها الجميلتين؛ يديها اللتين لن يتعب أبداً من الإمساك بهما ما دام حيّاً.

"أنتِ حبّ حياتي. طوال السنوات التي قضيناها معاً، لم أنظر ولو لمرة واحدة إلى امرأة أخرى. فلماذا سأقوم بذلك عندما تكون أجمل امرأة في العالم واقفة هنا بالذات بجانبني؟".

"إذاً، لماذا يا يوسف؟ لماذا تكذب عليّ على هذا النحو؟ أسمع الكذب في صوتك، وأراه على وجهك. أعرفك تماماً".

وها هما عينا خليفة تنظران إلى الأرض الآن.

"أين كنتَ في الليلة الماضية؟" تابعت. "لم تتصل بي. وعندما عدتَ إلى المنزل، كانت ملابسك متسخة. لم تنم، وكانت هناك دماء على ذراعك، كنت تبدو كالشبح...".

كانت يداها ترتجفان.

"ماذا يحدث يا يوسف؟ أخبرني".

"أعمال في مركز الشرطة... ليس إلا"، تتمم مجرراً قدميه، ولاوياً معصمه جزئياً لإلقاء نظرة خاطفة على ساعته. "إنه الأمر المتعلق بوادي الملوك، الرئيس الحسني...".

أبعدت يديها عن يديه ووضعتهما على وجهه.

"رجاءً يا يوسف، كفى أكاذيب. أعرف كم اعتمدت عليك منذ أن فقدنا "علي"، وكم كان عليك أن تتحمّل إضافةً إلى حزنك، وكم كنتُ عبئاً...".

"لا تقولي ذلك يا زينب. لم تكوني عبئاً مطلقاً. أنت زوجتي...".

"إذاً، أخبر زوجتك بما يحدث. رجاءً، أتوسّل إليك! أتوسّل إليك!".

كانت الدموع تتجمع في عينيها، متساقطةً على خديها.

"في هذه الأيام القليلة الأخيرة، وللمرة الأولى شعرتُ... فكّرتُ في أنه ربما يكون هناك بعض الضوء في نهاية النفق. ولكنني لا أستطيع القيام بذلك بدونك يا يوسف. هناك خطبٌ ما، أشعر بذلك. أحتاج إلى معرفة الحقيقة، لأن فقدان زوج بعد... بعد...".

لم تستطع إتمام الجملة، فأمسك خليفة كتفيها، مختلساً نظرة أخرى إلى ساعته، وكارهاً نفسه بسبب ذلك. ولكن، لم يكن لديه إلا القليل من الوقت للحاق بالرحلة الجوية...

"لن تفقدي زوجك يا زينب. أنا أحبك، أنا هنا لأجلك، دائماً، دائماً. كل ما في الأمر هو أنه يتعين عليّ الليلة الذهاب إلى الإسكندرية...".
"الإسكندرية!"

"لا شيء يدعو للقلق...".
ورفعت يديها عن وجهه، وخطت إلى الوراء مجدداً.
"ما الذي لا تخبرني به يا يوسف؟".

"لا شيء...".
"ما الذي لا تخبرني به؟".
"الأمر معقد".
"إذاً اشرحه!"

"هناك شيء ما عليّ... بعض الأشخاص... إنها قضية تخصّ بن - روي...".
"أخبرني!".
"علي، الأمر مرتبط بعلي!"

قال ذلك بصوت أكثر ارتفاعاً مما أراد، من دون أن يبلغ حدّ الصراخ. وفي الشارع وراءهما، استدار الناس للتحقق من سبب الضجيج، فتجاهلهم خليفة.
"الأمر مرتبط بابننا"، كرر مناضلاً لإبقاء صوته ثابتاً. "فتانا. لا وقت لديّ للتطرق إلى التفاصيل، فالتفاصيل لا تهمّ. كل ما تحتاجين إلى معرفته هو أنني سأحقق العدالة لأجل علي".
فلم تقل شيئاً، بل حدّقت به فحسب، واطعّة يدها على حلّقها، وعيناها البنّيتان دامعتان بسبب الخوف.

"لقد قتلته يا زينب. زوسر وشركة أخرى. لقد قتلنا علي"، وسأوقع بهما، وأعاقبهما. هناك أشخاص سيساعدوني. أشخاص صالحون. لا شيء يدعو للخطر. سيكون كل شيء على ما يرام، وسنحقق العدالة لأجل فتانا. سننال من الأوغاد!"

كانت تهرز رأسها.
"لم أعد أعرفك"، همست. "عشرون عاماً مضت على زواجنا، وفجأة لم أعد أعرف زوجي".

"ما الذي لا تعرفينه؟". وارتفع صوته مجدداً، وهناك شيء ما يلتهب داخله.
"لقد قُتل ابننا وأريد تحقيق العدالة! ما الذي لا تعرفينه إذا؟".
"هذا الغضب. هذا... هذا... الجنون".

"إنه الجنون الذي يريد العدالة".

"أنت تترك زوجتك، وعائلتك، وتذهب في مهمة عقيمة...".
"ليست مهمة عقيمة. لا تقولي ذلك! القانون لن يمسهما، لذلك عليّ القيام بذلك بنفسني! يُفترض بك أن تشكريني! هل سمعت؟ اشكريني، أيتها الجاحدة...".

وصمت بشكل مفاجئ، محدّقاً بذعر بكفه التي رفعها في اتجاه وجه زوجته،
وذلك للمرة الأولى طوال كل تلك السنوات التي قضياها معاً. مرّت ثوانٍ قليلة،
وخليفة يتأمل قبضته من دون أن يشعر بها. وبعد ذلك، سقطت يده كما لو أنها
حجر.

"آه يا الله! آسف"، قال. "رجاء، لم أقصد... أنا آسف".

فحدّقت به زينب مصدومة، وتردد صدى أذان العشاء من مكبر الصوت في
مئذنة المسجد القائم على مَبعدةٍ منهما في الشارع نفسه. وبعد ذلك، فعلت أمراً لم
يسبق لها أن فعلته في السنوات التي أمضياها معاً. فقد دنت منه، وسقطت على
ركبتَيها أمام خليفة، وشبكت يديها في إيماءة توسّل.

"زوجي"، همست، "حبي، نوري، حياتي. لم أقف في طريقك يوماً، ولم
أطلب منك أي شيء مطلقاً. ولكنني الليلة أناشدك: أيّاً يكن ما تفكر في القيام به،
اصرفه من ذهنك. أتوسّل إليك، اصرفه من ذهنك".

فانحنى، وحاول أن يرفعها مُدركاً أن الناس ينظرون إليهما ويشيرون بالبَّنان.
هزّت كتفها لئبعد يده، ودنت منه أكثر فأكثر وهي تجرّ رُكبتَيها حتى لامسته،
والدموع تسيل على خديها.

"إذا كان باستطاعتك إعادة فتانا بطريقة ما، فاذهب مع كل بركة يمكنني
منحك إياها"، وغصّت. "سأرافقك حتى نهاية الأرض وما وراء الأرض. ولكن
ذلك لن يُعيد "علي". إنك تسعى للثأر بسبب حادث رهيب...".
"لم يكن حادثاً يا زينب. لقد قُتل. أنت لا تعرفين القصة...".

"أعرف أن ابني مَيّت. وإذا كان غير موجود هنا الليلة، فزوجي لن يكون موجوداً أيضاً! ألم تعانِ عائلتنا من مقدار كافٍ من الألم؟ إذا لم يكن لأجلي، فلأجل ابنك وابنتك؛ يوسف وبطّاح اصرف ذلك من ذهرك. لقد سبق لهما أن فقدنا شقيقاً. أرجوك، أرجوك، لا تُضِف والدّاً إلى القائمة!".
"لن يفقدا...".

"بلى يا يوسف. أعرف ذلك، أنا أشعر بذلك. لقد وقفتُ بجانبك في كل الأمور المجنونة والخطيرة التي قمتَ بها في السنوات التي قضيناها معاً لأنك ألطف رجل في العالم، وأعلم أن ما تقوم به نابع من الصلاح في قلبك".
وضربت صدرها بيدها.

"ولكن هذا الأمر، يا يوسف، هذا... أياً يكن ما تخطط له، فهو لا ينبع من الصلاح. أرى ذلك في عينيك. إنه نابع من الغضب، والكره، والألم، ولا يمكن إلا أن يؤدّي إلى المزيد من الألم. إذا كان ما تقوله صحيحاً، فالله سيعاقب المسؤولين عن موت ولدنا. فهو، سبحانه وتعالى، سيعاقبهم، وليس أنت. سينتهي الأمر بمأساة يا يوسف. أعرف ذلك، أعرف ذلك. ولا يمكنني تحمّل مأساة إضافية في حياتي. أيُّ ممّا لا يستطيع تحمّل ذلك".

وشرعت بالنشيج، متمسكةً بساقه كما يتمسك طفل خائف بوالديه.
"أتوسّل إليك يا يوسف، من زوجة لزوجها، من والدة لوالد، من صديقة لصديقتها: لا تذهب الليلة. أتوسّل إليك. لا تذهب. لا تتركني. ابق! ابق!".
على بُعد عشرة أمتار، تجمّع حشد صغير بجانب الشارع، مراقبين المشهد الدرامي. وكان أحدهم يحمل هاتفاً محمولاً ويصوّر المشهد. فلم يُعرهم خليفة أي اهتمام، وهذا من روع زينب، ثم ركع ورفعها.
"لا بأس"، همس، "لا بأس، يا حبيبتي. كل شيء بخير".

هدأت ببطء، فعادت إلى الوراء، ورفع وجهها، وأخرج من جيبه ومسح الدموع عن خديها. مرّت لحظات قليلة أخرى وكانا لا يزالان راكعين هناك، ممسكين ببعضهما، وكل شيء خارج عالمهما المباشر يخبو ويختفي؛ بقيا بمفردهما في فُقاعتهما الخاصة. وبعد ذلك، ساعدها على الوقوف برفق، وشرعت بالابتسام، مفترضةً أنه تخلّى عن إصراره، ثم رآته ينظر إلى ساعته.

"آه يا الله! يوسف، ظننتُ..."

فرّفع إصبعه ولمس شفّتيها، مُسكِتاً إيّاها. ففي أي وقت آخر من السنوات العشرين الأخيرة الماضية، كان توسّلُها هذا سيؤدّي إلى ثنيه عن مأربه بدون شك، والقيام بما تريده، والقفز عن جرف إذا طلبت منه ذلك. ولكن أمراً ما أصابه في المنجم، وتغيّر شيء ما في داخله، ولم يُعد الشخص الذي كانه؛ لقد تبدّل وقسا.

"أحبك يا زينب"، وغدا صوته فجأةً فاتراً وخالياً من الإحساس، "أكثر من أي شيء في العالم، ومن ابنينا. أنت كل شيء بالنسبة إليّ، ولكنّ عليّ القيام بذلك لأجل علي. ولن يردعني عن القيام بذلك أي شيء تقولينه أو يقوله أي شخص آخر. سأعود صباح غد. إنه وعد".

ثم انحنى وقبلها على جبينها. وبعد إلقائه نظرة أخرى على ساعته - إنها السادسة وثمانٍ وعشرون دقيقة؛ سيقوم باختصار المسافة - سحب دفتر مدوّنة بينسكِر من جيب قميصه وانطلق مُهرولاً. وراءه، مدّ الرجل الذي يحمل الهاتف المحمول ذراعه وقرب الصورة، مصوراً زينب وهي تسقط على ركبتيها وتغطي وجهها بيديها.

إسرائيل

"مرحباً يا آري. تلقّيتُ رسالتك. لقد وعدتُ بتناول العشاء في مطعم رينات، ولكن يمكنك المرور بي في وقت لاحق إذا كنت تريد التحدث، ويمكننا تناول الفطور معاً إذا شئت. إذا كنت جدّياً في شأن العمل الجديد، والانتقال إلى حيفا... فسنتناقش ذلك. أنا أنتظر اتصالاً منك. شالوم".

سمع بن - روي البريد الصوتي عبر الهاتف، ممسكاً الهاتف بيده اليسرى وباحثاً بيده اليمنى عن لوحتي السيارة الحمراءين الخاصّتين بالشرطة في صندوق التويوتا، ومن ثم شغل الرسالة التالية.

"يبي. أس. غام أني أوهيفيت أوتشا. أحبك أيضاً، أيها الرجل الكبير، بالرغم من بذلي أفضل الجهود كي لا أحبك".

أغلق الصندوق، وباب السيارة، وألصق إحدى اللوحتين المغنطيتين على الهيكل الخلفي للسيارة، محاولاً في الوقت نفسه تصوّر أفضل طريقة للإجابة على الرسائل؛ أينقل لها أنه وبالرغم من حبه لها أكثر من أي شيء آخر، فهو سيخذلها مرة أخرى. لم يكن باستطاعته التفكير ملياً بالكلمات المناسبة ل يبدو أنه لا يخذلها؛ عذر آخر. ومع تبخّر الوقت، قرر إرجاء الموضوع حتى يصبح على متن الطائرة. وحاول الاتصال بخليفة للمرة الأخيرة، ومن ثم وضع الهاتف في جيبيه، وألصق اللوحة الأمامية، وانطلق بأقصى سرعة في اتجاه قاعة المغادرين في مطار بن-غوريون الدولي.

إنه عمل جنوني أحرق، ولكنها الخطة الوحيدة التي استطاع وضعها في هذا الوقت القصير. لم يكن المصري يردّ على اتصالاته. وينطبق الأمر نفسه على صديقه داني بيرلمان، ضابط الارتباط بين أقسام الشرطة، مما يعني أن لا اتصال مباشر لديه مع السلطات المصرية. وحتى لو تمكن من الاتصال بها، فما الذي سيقوله لها؟ إن مجموعة مناهضة للرأسمالية على وشك شنّ هجوم على الأرض المصرية؟ بمساعدة أحد ضباط الشرطة لديها، وبتحريض منه. لم يظنّ أن هذا الأمر سيكون لصالح خليفة، حتى لو أنقذ حياته.

في النهاية، شاعراً باليأس، وعاجزاً عن التفكير في أي بديل آخر، اتصل بشركة طيران العال. كانت لديها رحلة جوية أسبوعية واحدة إلى الإسكندرية؛ تلك التي حجزت ريفكا كLINBERG مقعداً على متنها. ولكنها ستنتقل في الليلة التالية، مما يعني أن الشراك سيكون قد أطبق على خليفة وتلقّى رصاصة في رأسه. الخيار الوحيد الآخر المتاح له هو السفر باعتماد شركة النقل المصرية، إير سينا، وهي شركة تابعة لإدجيبت إير. فاتصل بها، غير معلّق آمالاً كبيرة. ولكن تشاؤمه كان في غير محله بفضل وجود رحلة في تلك الليلة عند الساعة وعشر دقائق مساءً تصل إلى الإسكندرية عند الثامنة وخمس وأربعين دقيقة مساءً. حاول باضطراب التفكير بطريقة سهلة لمساعدة صديقه. فهو لم يتوجّه إلى الجدار الغربي للتعبّد، ولم يتوصّل إلى فكرة مناسبة، ومع تكتكة الساعة ومرور الوقت، حجز مقعداً له. لقد جاب أرجاء المنزل للحصول على جوازه، ومن ثم قاد كالجنون إلى مطار اللد، ووصل قبل سبع عشرة دقيقة من الإقلاع. ربما كان الإسراع أمراً جيداً. فعلى

غرار خليفة الذي دخل المنجم من دون استعداد، ما كان بن - روي ليقوم بهذه الخطوة مطلقاً لو فكر ملياً في ما سيقوم به.

كانت كل طاولات التفتيش التابعة لإير سيناء فارغة لأن النداء الأخير لموعد الانطلاق أُذيع منذ فترة طويلة. وما كان شخص مدني ليتمكن مطلقاً من بلوغ الطائرة، ولكنه تمكن من القفز فوق الشريط الأحمر وعبور البوابة، مستعيناً ببطاقة التعريف التابعة للشرطة. وتوقف عند الفتاة التي تتفحص بطاقات ركوب الطائرة، والتي لم تسمح له بالمرور إلا بعد أن اطلعت على المعلومات المرتبطة به على الكمبيوتر وطابقتها مع جواز سفره. وفي النهاية، تمكّن من حملها على الإذعان. وكان لا يزال يربط الخزام في مقعده - بين امرأة عربية أكبر سنّاً ورجل مُفرط في الوزن يضع ذراعه تحت الخزام - عندما توجهت الطائرة إلى المدرج.

أخرج هاتفه المحمول. يمكن للأمر أن تصبح محمومة عندما يهبط في مصر ويواجه عوامل إلهاء عديدة. وإذا كان يريد الردّ على رسالتي سارة، يُفترض به القيام بذلك في الحال. فأخفض رأسه وشرع بطلب رقمها بسرعة، آملاً ألا يراه طاقم الطائرة، ولكنه بدّل رأيه وانتقل إلى صيغة الرسائل النصّية. ولسبب ما يجهله - الضغط بسبب الوضع على الأرجح - بدت له صياغة الرسالة ذات أهمية كبيرة. لقد تطلّب منه الأمر التفكير بالكلمات طوال فترة استعداد الطائرة للإقلاع، ولم يبدأ بإدخال النص إلا بعد إقلاعها.

أحبكما كليكما. أكثر من أي شيء في العالم. أعد بأن أبقى على الدوام لأجلكما. سأتصل غداً. سنكون أسعد عائلة على الإطلاق.

كان لديه وقت محدود لإضافة القُبَلات والضغط على زر الإرسال في أثناء هدير الطائرة على المدرج. وبعد ذلك، ارتفعوا عن الأرض وغادر الوطن الأم. "لا يُفترض بك القيام بذلك"، حذّره الرجل الجالس بجانبه. "قد يشوّش ذلك أجهزة التحكم في الطائرة".

"أنت مُحقّق"، قال بن - روي. "آسف".

وأوقف الهاتف عن العمل، وأسند ظهره، وحدّق بالسقف، وشعر بوخز الدموع في عينيّه بطريقة لا يمكن تفسيرها.

كان وليام بارين يحدّق أيضاً بسقف الطائرة، ولكنها إحدى طائرات الشركة من طراز غولفستريم جي 650 أس، ولم يكن يشعر بالتأكيد بوخز في عينيه بسبب الدموع، بل كان يشعر بأنه أفضل مما كان عليه طوال حياته. فلحظة الذروة تقترب بسرعة. سيبلغ الأمر الذروة أخيراً... بعد كل تلك السنوات من التخطيط، وتدبّر المكائد، والمناورة، سيكون هذا أفضل مما أنجزه مع أولئك المومسات اللواتي لم يبلُغن السن القانونية في وسط مدينة هيوستن. إنها مُتعة مؤجّلة.

وحرك كوبه المليء بالشراب بشكل دائري. فبالرغم من أن حضوره لم يكن مطلوباً بقوة، شعر فجأة بأنه يحتاج إلى أن يكون بجانب الحدث. ليس وسطه بل بجانبه؛ فالآخرون سيقومون بالعمل القذر. قبل ساعات قليلة، كان مسترخياً في ظلّته، وها هو الآن في طريقه. هذا ما كانت الشركة بحاجة إليه منذ مدة طويلة، القليل من العفوية. فالإجراءات التي يتبعها والده لاتخاذ القرارات جليدية، ولم يكن يرتجل. لكن كل ذلك سيتغيّر عندما يصبح، هو وليام، في سُدّة المسؤولية. القليل من الأعمال التلقائية العفوية، والقليل من المرونة. ففي ظل قيادته، ستكون بارين شركة مختلفة. ولكن، لا يزال هناك حيوان مفترس، وبعض الأمور لم تتغيّر. بعض الأمور لا تتغيّر بسهولة.

ارتشف شرابه، ووضع هاتفه المحمول على ذراع المقعد، فيما دنا منه أحد أفراد الطاقم وزوّده بمعلومات عن الرحلة. سيصلون قبل عشرين دقيقة من الوقت المحدّد. فشكره وليام وغاص مجدداً في الجلد الأبيض، محمّلاً بالهاتف، الهاتف الخاص، ذلك الذي سيتلقى عليه الاتصال في وقت قريب.

بعد ثمانٍ وأربعين ساعة ستسوّى كل أعمال العائلة. فابتسم وتناول رشفة أخرى، وكانت الحُجرة تتذبذب برفق من حوله. إنه يشعر بأنه أفضل مما كان عليه طوال حياته.

مصر

لو رفع خليفة نظره في أثناء توجهه بخطى واسعة إلى داخل محطة الواصلين بعد التاسعة مساءً لرأى شخصاً مألوفاً يحتاج لدى مسؤولي الأمن في الجانب البعيد من القاعة. ولو توجه إلى ذلك الشخص وتحدّث إليه لتجنّب الكثير من العَمّ.

لكنه لم يرفع نظره. كان شديد الانشغال بماتفه الخلوي، وهو يُصغي إلى التفاصيل التي تزوّده بها المرأة المنتمية إلى نمسيس حول المكان الذي سيلتقونه فيه. وعندما أنهت المكالمة، كان يعبر بوابة الخروج من المطار، وأغفلت الفرصة العابرة الوحيدة لتفادي المأساة.

خارج المحطة، لوّح بيده لسيارة أجرة، وطلب من السائق - وفقاً للتعليمات - أن يُقلّه إلى الشرق في اتجاه روزيتا. حاول الرجل التحدث إليه، سائلاً إيّاه عن عائلته، وعمّا يفعله في هذا الجزء من العالم، وعن رأيه بالحكومة الجديدة. كانت إجابات خليفة تمتاز بمتدبّة، وبعد اجتياز كيلومترات قليلة، شهر شارة الشرطة بعد أن سئم من أسئلة الرجل.

لقد احتاجا إلى بعض الوقت للخروج من المدينة. وما إن عبرا جسراً طويلاً فوق بحيرة يقوم على أطرافها نبات قصّب حتى أصبحت الشقق والمعامل ومصافي النفط وراءهما؛ مفسحة المجال لمنظر طبيعي مؤلف من شجيرات ملتفة حمراء مائلة للاصفرار، وحقول قطن، وغيّضات نخيل وحمضيات. كان خليفة يدخن ويحدّق خارج النافذة، ويفكرّ بابه.

في منتصف الطريق إلى روزيتا - كما جاء وصف المرأة المنتمية إلى نمسيس تماماً - مرّا بمحطة نفط موبيل مُضاءة بالتيون، تلتها سياجات خشبية عملاقة للإعلانات قائمة إلى جانب الطريق يحمل أحدها إعلاناً لأحذية بيار كاردان، والآخر إعلاناً لـ"كيه أف سي". فطلب من السائق التوقف، ودفع له التعرّفة، ثم خرج، وسار مسافة خمسين متراً على الطريق، ووقف بجانب كومة من القصّب المقطوع على صورة خيمة مخروطية الشكل. مرّت ثلاثون دقيقة. ومن ثم، انحرفت سيارة تويوتا لاندكروزر بيضاء خارج الطريق العام، وتوقفت فجأةً أمامه. وفي الوقت نفسه، كان هناك صوت وقع أقدام في غيّضة نخيل وراءه، وظهرت شابة من الظلال.

"إلى الداخل"، قالت مشيرةً بيدها في اتجاه الباب الخلفي المفتوح للاندكروزر. فقام خليفة بما طُلب منه. وانزلت المرأة على مقعد الركاب الأمامي، وأعادهما السائق إلى الطريق العام؛ رجل نخيل ذو مظهر عربي مع سيجارة متدلية من زاوية فمه.

"كنت قد بدأت أظنّ أنكم لن تأتوا"، قال خليفة بعد أن انطلقوا بأقصى سرعة.

"كنا بحاجة للمراقبة قليلاً"، شرحت المرأة، دائرةً نحوه. لتنظر إليه وجهاً لوجه،
"والتأكد من أنه ليس هناك من يتبعك".

ومدّت يدها.

"دينا، وهذا فاز. أنا سعيدة لأنك استطعت الانضمام إلينا".

فصافحها خليفة.

"يوسف خليفة".

"أعرف"، قالت. "كنا نُصغي إلى اتصالاتك، هل تتذكّر؟ أهذا هو دفتر المدوّنان الذي كنتَ تتحدث عنه؟".

وأشارت إلى الدفتر الجلدي الذي يظهر جزء منه خارج سترة خليفة. فأومأ برأسه.

"حافظ عليه. سنقرر في وقت لاحق ما سنفعله به".

"أنتما فقط؟".

"الآخران عند الشاطئ يستطلعان الحوض".

"ما هي الخطة؟".

فهزت كتفها بطريقة ملتبسة.

"في الوقت الحاضر، ليست هناك خطة. من المتوقع وصول السفينة في منتصف الليل. واستناداً إلى المعلومات التي جمعناها من نظام زوسير، إنها تأتي مرةً واحدة كل شهر، وتُفرغ حمولتها من النفايات، ثم تغادر بعد ذلك لإحضار المزيد، في حين تقوم صنادل زوسير بالعمل بالتناوب ناقلةً عبر النيل ما تمّ تسليمه. وفقاً لما تبدو عليه العملية برمتها على الأرض في الواقع...".

وهزت كتفها مجدداً وتابعت:

"سنضع المخطط شيئاً فشيئاً".

واستدارت، وبحث داخل صندوق القفّازات، وسلّمت خليفة مسدساً.

"أتعرف كيف تستخدم هذه المسدسات؟".

"بالطبع".

"آمل ألا نكون بحاجة إليها. ولكن، لا يمكننا القيام بأي مجازفة. لا نعرف ما الذي سنصادفه هناك".

وزن خليفة المسدس بيده. إنه غلوك وفقاً لمظهره. فراقبته، ووجهها الشاحب ينتقل بين الظل والنور مع مرورهم تحت أنوار مصابيح الطريق العام. وساد الصمت، ومن ثم:

"أنتَ تجازف بالدخول إلى هنا و تربط مصيرك بمصيرنا. فكما قال صديقك، نحن خطيرون ومتهورون".

"صديقي السابق"، صحَّح خليفة، واضعاً المسدس جانباً، وساحباً علبة سجائر كليوباترا. "وسأجازف".

والتقت أنظارهما للحظات. وبعد ذلك، وبإيماءة بالرأس، استدارت إلى الأمام. فأنزل خليفة زجاج نافذته وأشعل سيجارة. لم يُقل أي شيء طوال ما تبقى من الرحلة.

دخلوا روزيتا بعد عشرين دقيقة، وكانت الساعة قد تخطَّت العاشرة والنصف. وبدا الأمر كما لو أن فاز يعرف المكان الذي يقصدونه، سالكاً بثقة شبكة معقدة من الشوارع الوضاعة وكثيرة الصخب، وخارجاً إلى الجانب الآخر من البلدة، حيث سلكوا طريقاً ضيقاً معبداً، وتوجهوا شمالاً نحو الشاطئ. كان النيل يتبّعهم إلى اليمين؛ واسعاً وأسود ومرقّطاً بمراكب وعوامات مزارع السمك العائمة. وهناك منازل وأهراءات مبعثرة في الطرف المقابل، وتقوم على امتداد خط الشاطئ سلسلة من المصانع المنيّة بالآجر، وتظهر إزاء السماء الليل المداخن المسودة بفعل الدخان كما لو أنها بقايا غابة مدمّرة. وبعد مرورهم بقرية قايتباي، اختفت المباني، وظهرت حقول الذرة بعيداً، وغيضة نخيل غير عادية، وتوهّج غير واضح على صورة قُبّة يوحى بوجود تجمع أضواء في مكان ما قرب مصبّ النيل. إنه حوض زوسير، قال خليفة لنفسه، وتسارع نبضه.

قطعوا بضعة كيلومترات إضافية، متيقّظين، ومُطفئين مصابيح السيارة، وسائرين بسرعة منخفضة، والتوهّج يزداد بريقاً باستمرار. وبعد ذلك، عندما ظهرت نقطة أمنية مُضاءة في الأمام، غادروا الطريق، سالكين درباً ضيقاً. وبعد بضع مئات من الأمتار، نفذ فاز تدريجياً إلى بَراح وسط غيضة نخيل. لقد بدا

المكان كما لو أنه رُتّب مُسبقاً لأن سيارة لاندكروزر أخرى كانت في انتظارهم، ويقف شخصان بجانبها: رجل ذو لياقة بدنية، وامرأة قصيرة الشعر. فتوقفوا وراءهما وخرجوا، وجرّت عملية التعريف.

"إذاً، ما هو وضعنا؟" سألت دينا.

"وضعنا ليس سيئاً"، قال الرجل، "علماً أننا نحتاج إلى المزيد من الوقت".
"ليس لدينا متسع من الوقت. فإما الليلة أو سيتوجب علينا الانتظار شهراً آخر".

فسلّم الرجلُ بوجهة النظر هذه، ولوّح لهم في اتجاه جهاز كمبيوتر حضني موضوع على غطاء محرك اللاندكروزر الثانية، وعلى الشاشة فسيفساء من أربع عشرة صورة فوتوغرافية، هي على الأرجح ثمرة مهمة الاستكشاف التي قام بها مع المرأة قصيرة الشعر. كبر الصورة الأولى؛ النقطة الأمنية التي كانوا قد رأوها، فظهر سياج مرتفع ممتدّ من الجانبين تعلوه لفافات وأسلاك شائكة. وفي الخلفية، في اتجاه النهر، ظهر ما بدا أنه صف من المستودعات التي تظهر فوقها الأجزاء العلوية لرافعات.

"السياج يلتفّ حول الموقع"، استهلّ كلامه. "ثلاثة حراس عند البوابة...".

"هل هناك عناصر من الجيش؟" سأل خليفة.

فأوماً الرجل برأسه.

"إنهم مجنّدون يراقبون التحركات ليس إلا".

"هذا ما يبدو عليه الأمر بالتأكيد. فأحدهم نائم والآخران يشاهدان التلفاز، وهناك شخصان يقومان بدوريات في الداخل، ولكنهما لا يبدوان مهتمّين بصفة خاصة، وتفصل بينهما مسافة بعيدة. السياج غير مكهرب، ولا نرى كاميرات أمنية. يمكننا اختراق السياج بدون مواجهة أي مشكلة".

"كم يبعد الرصيف؟" سألت دينا.

"نحو 750 متراً. إنه أرض مفتوحة، ولكن هناك الكثير من الكُثبان الرملية والشجيرات الملتفة التي توفر غطاء مناسباً. يمكننا العبور بدون أي متاعب".

وعرض صورة أخرى لرصيف إسمنتي ممتدّ تقوم على أحد جانبيه مستودعات، وعلى الجانب الآخر مياه متموجة تحت ضوء القمر حيث يصبّ النيل في البحر.

وعلى بُعد مئة متر من الشاطئ، توجد مكعبات إسمنتية ضخمة أغرقت لإحداث حاجز أمواج وقائي. وعلى الرصيف نفسه ثلاث رافعات عملاقة ذات أذرع بارزة ممتدة فوق الماء.

"كما يمكنكم أن تروا، إن المكان مُضاء جيداً، وهناك أشخاص في مختلف أرجائه. عمّال في الحوض بصورة رئيسة، وبعض عناصر الأمن".

وضغط بالفأرة مرة أخرى، فظهرت على الشاشة صورة تليفوتوغرافية لرجل قويّ البنية يرتدي سترة جلدية، ويحمل مدفعاً رشاشاً يدوياً من طراز هيكلمر إند كوش أم بيبي 5.

"إنه حارس خاص وفقاً لمظهره. ليس هناك شيء لا يمكننا التعاطي معه. توجد مواقع جيدة للتصوير هنا، في الجانب القريب من الرصيف...".

وعاد إلى الصورة السابقة.

"وهنا بين هذه المستودعات...".

وعرض ثلاث صور فوتوغرافية إضافية: صورة لمجموعة رافعات بعيدة مجمعة في فجوة بين مبنيين من المستودعات، وصورة مكبرة للرافعات، وصورة ملتقطة من وراء الرافعات للناحية الوسطى للرصيف في اتجاه الماء.

"الأمر برمته قابل للتنفيذ بطريقة مُتقنة، ولكن المشكلة تكمن في الاقتراب من السفينة. يمكننا التقاط الصور عن بُعد، ولكن الصعود على متنها والقبض على أحد أفراد الطاقم سيكونان عسيرين نظراً لكمية الأضواء المُسلطة. ربما تكون هناك طريقة لفعل ذلك، ولكننا لن نعرف بالتأكيد حتى ترسو السفينة ونتبين ما يمكننا القيام به. حتى ذلك الحين، نحن نتوقع فقط".

فأومأت دينا برأسها مُلقيةً نظرة سريعة على ساعتها، ثم انحنت إلى الأمام فوق غطاء محرك السيارة وشرعت بتقليب الصور واحدة تلو الأخرى، معوّدة نفسها عليها. وانضمَّ إليها أصدقاؤها. وبقي خليفة وراءهم على بُعد خطوة واحدة. إنهم الخبراء، أما هو فموجود لتقديم المساعدة.

مرت دقائق عدة، واهتزّت سُعف النخل فوقهم مع هبوب ريح خفيفة آتية تحمل معها رائحة ملح متميزة. ومن ثم، وقفوا معاً بشكل مستقيم.

"حسناً، لنُقم بذلك"، قالت دينا.

واستدارت نحو خليفة.

"سنكون بحاجة إلى شخص ما يقف قرب السياج، ويحمي ظهورنا عندما تبدأ العملية. هل يمكنك القيام بذلك؟".

"سأتوجه إلى الرصيف"، قال خليفة مُدركاً أنه بدا كفتى سريع الغضب، ولكنه راغب في أن يكون في قلب العملية، لا بل يحتاج إلى أن يكون في قلب العملية. فابتسمت، وفاجأه الأمر.

"توقعت بطريقة ما أنك ستقول ذلك. حسناً، فاز، أنت ستقف في الخلف لحمايتنا. غيدي، تamar، تمرّكزا في نهاية الرصيف. وأنا ومجنّدا الجديد سننخذ من المستودع موقعاً لنا. هذا ما يمكننا التخطيط له في الوقت الحالي. عدا عن ذلك، سيكون علينا الارتجال".

أنزلوا تجهيزاتهم - كاميرات، أجهزة لاسلكي، مدفعان رشاشان يدويان من طراز عوزي - ووزعوها على بعضهم. وبعد ذلك، أقفلوا السيارتين وانطلقوا سيراً على الأقدام، وكل منهم يحمل حقيبة ظهر، وأيديهم ووجوههم ممرّعة بتراب مبتلّ ليكونوا أقلّ عُرضة للمشاهدة. كان خليفة سيسخر من نفسه لو لم تكن الرهانات مرتفعة. وفي مكان ما من النهر، سُمع صوت بوق صندل. فلوى إصبعه على زنبرك الغلوك وصرف أسنانه، مقتنعاً بأنه يقوم بالصواب.

بعد عشرين دقيقة، كان كل منهم في موقعه. أمّا هو ودينّا فقد عبرا السياج بدون أي متاعب، والتفّا وراء المستودعات من الخلف، وتسّلّقا مجموعة صناديق الشحن البحري، وثبّتا الكاميرا الفيديوية. أمامهما، كان الرصيف مغموراً بالأضواء، أما الارتفاعات فموجودة في الخلف وغارقة في الظلال. لقد شعر خليفة بالأمان على نحو مثير للفضول. كان يراقب كل ما يحصل كما لو أنه غير موجود هناك في الواقع. واتصل الثنائي الآخر عبر جهاز اللاسلكي ليقولا إنهما باتا في موقعهما أيضاً في الطرف البعيد للرصيف. كانت الساعة هي الحادية عشرة واثنين وأربعين دقيقة، وفقاً لساعة خليفة. وكل ما عليهم القيام به هو الانتظار.

"أعتقدين حقاً أن باستطاعتنا التّيل منهم؟" سأل محدّقاً برصيف الميناء. "هل سيكون لكل هذه الاستعدادات أي فعالية؟".

"ما كنتُ لأقوم بذلك لو لم تكن ذات فعالية".

وأخفضاً رأسيهما مع مرور شاحنة عملاقة ذات رافعة شوكية أمامهما.
وعندما رفعاً رأسيهما مجدداً، شعر بيدها على ذراعه.
"كان يُفترض بي قول ذلك منذ البداية. آسفة لما حصل لابنك".
لقد بدا الأمر كما لو أن ملامح وجهها لانت للحظات، علماً أن عينيها بقيتا
باردتين لا تلينان. وبعد ذلك، أنزلت يدها وأشاحت بنظرها.
عند مصب النهر، كان الضباب قد بدأ بالتجمّع، منجرفاً فوق الماء كهبات
البحار.

* * *

نفق ضوء؛ هذا ما يبدو لي عندما أقترّب من تنفيذ عملية تطهير. نفق طويل
من الضوء عند أحد الطرفين، والهدف عند الطرف الآخر، وكل شيء آخر في
الخارج. إنه تركيز تامّ حتى إتمام العملية، وبعد ذلك يمكنني الخروج من النفق
والعودة إلى الإدارة اليومية للأمور.

بالطبع، هناك فوارق هذه المرة. فأنا لست بمفردى كما جرت العادة.
والفوضى التي يتعيّن إزالتها أقرب إلى المنزل. إنها في المنزل إلى حد ما، بالرغم
من المسافات القائمة. ومن الطبيعي أن تكون لديّ مهام أقوم بها، وإلهاءات، وهي
أمور تنفرد بها عملية التطهير هذه.

بالرغم من ذلك، أجد نفسي في النفق داخل رأسي. لا مزيد من الشكوك، لا
مزيد من الأسئلة، لا مزيد من القلق. أرى هدفي بوضوح - كيف لا وهو خلفي
مباشرةً - وأتوجّه إليه باطّراد. سينتقل إلى مكان قريب ما بين بين، وسيكون بمأمن
حينها، علماً أن ما يوجد هناك يبقى غير مرئي. إنه نظام مختلف بالتأكيد. من
يعلم؟ حتى إنه قد يكون هناك أطفال؛ وقع أقدام البالغة الصّغر. أمل ذلك. لقد
أحببت الأطفال على الدوام، فهم يثيرون شعوري بـ... الطيبة.

ولكن، عليّ الاستمرار لمدة أطول بلعب دوري، والالتزام بالتمثيلية. لن تعرفوا
أبداً من ملامح وجهي ما سأقوم به بعد وقت قريب، ولا بعد مليون عام. طالما
كنت، وما زلت، المؤدّي البارِع.

* * *

في النهاية، رست السفينة قبل الواحدة بقليل. كانت هناك سلسلة من الأبواق البعيدة، وازداد النشاط على الرصيف فجأة، وسمعت صوت بوق كهربائي، وشعلت المحركات، وكان عمال الرصيف يتنقلون بسرعة ذهاباً وإياباً.

قُبالة الشاطئ، كانت سماكة الضباب تزداد باطراد، وتوارى مصب النهر وراء حجاب رمادي أشبه بالشاش لا يمكن اختراقه. كانوا يراقبون ازدياده بقلق، خائفين من قيامه بغمر الرصيف وجعل التصوير أمراً مستحيلاً. ولكنهم شعروا بالارتياح بعد تراجعهم، مُرسلاً خُصلاً قليلة إلى اليابسة لامست الأرض المحاذية للرصيف البحري، والتفت حول قاعدة إحدى الرافعات. كان معظم الضباب فوق الماء، وسيختلف الوضع إذا هبّ الهواء، ولكن رؤيتهم واضحة في الوقت الحاضر. رفعت رفيقة خليفة جهاز اللاسلكي إلى فمها، وضغطت على زرّ التحدث.

"هل الجميع جاهزون؟".

جاهزون، جاء الجواب.

"فاز؟".

وأعلن صوت فظّ أن قافلة من الناقلات العاملة بالمازوت قد عبرت البوابة الرئيسة للتوّ، وباستثناء ذلك كل شيء هادئ وراءهما.

"حسناً، استعدّوا".

تواصل إطلاق البوق؛ خوار غامض ومخيف صادر من داخل الضباب كصوت وحش بحريّ بدائي. ومرّت خمس دقائق. ومن ثم، انشقّ الضباب كما لو أنه تمّ استخدام فأس عملاقة، وظهرت مقدّمة سفينة عملاقة إلى يسارهم، وانزلقت ببطء في اتجاه الناحية الأمامية للرصيف كجدار شاهق من الفولاذ الأسود، وبقي الجزء الخلفي منها ضائعاً في الظلمة حتى بعد أن بلغت مقدّمتها الشاطئ. واصلت التقدم، وتواصل ظهور المزيد منها، وبدأت كبيرة ومهدّدة، إلى أن انزلقت برج الرّبان أخيراً خارج الضباب، وظهرت السفينة كلها. فبطول ثلاثمئة متر وارتفاع مجمّع سكاني، بدا كل شيء تحتها صغيراً؛ ولا سيما عمال التحميل والتفريغ المستعجلين الذين كانوا أشبه بالنمل. وعلى مقدّمتها صورة حورية بحر بشعرها المنساب كما لو أن الريح تعبت به. وبجانب الصورة اسم السفينة بحروف بيضاء: عذراء المحيط.

أصدرت الكاميرا الفيديوية أزيزاً مع شروع رفيقته بتسجيل المشهد.
اندفعت السفينة باتجاه الرصيف يقطرها زورقان. ودارت المحركات بصورة معكوسة، وألقيت الحبال إلى الأسفل ورُبطت، وأنزلت السلاالم من مقدّمة السفينة إلى مؤخرها، وسُمع هدير الهيدروليكا بالتزامن مع انفتاح كُوات على ظهر السفينة وانغلاقها. وتحركت آلات الرّفْع في الرافعات إلى مكائها وانخفضت.
مرّت ثوانٍ قليلة أخرى. وبعد ذلك، بدأت براميل معدنية بالظهور ببطء، وكانت موضوعة بترتيب على منصات فولاذية نقالة ضخمة تحتوي كل منها على مئة برميل. كانت الرافعات الشوكية تنقلها تحت جناح الظلام في اتجاه الشاطئ وتُنزلها على الرصيف.

"هل تصوّرين هذا المشهد؟" طقطق جهاز اللاسلكي.
"بالتأكيد"، أجابت رفيقة خليفه، مقرّبة الهاتف من فمها لُسمع صوتها. "كل ما نحتاج إليه هو ابتعاد الضباب قليلاً، ومن ثم تغطيته المكان برمته. وبهذه الطريقة، ربما سنحظى بفرصة للصعود إليها".

وفي أثناء تحدّثها، شعر خليفه بالنسيم يلفح وجهه، ومن ثم اختفى، وما لبث أن عاد بقوة أكبر، نافشاً شعره، وحاملاً الضباب أمامهما على الانتفاخ والانحراف كستارة متموجة، وعلى الزحف فوق السفينة.
"دقائق قليلة إضافية فقط"، همست رفيقة خليفه. "دقائق قليلة إضافية فقط وعندئذٍ يمكننا...".

لم تُنه الجملة. فقد كانت بجانبه منذ لحظة، وفي اللحظة التالية طارت عن صندوق الشحن البحري الذي كانا يقفان عليه، فاستدار. كانت الأرض موجودة وراء مجموعة الرافعات في الظل، ولم يتمكن من رؤية ما يحدث على الفور، باستثناء وجود شخصين هناك: المرأة وشخص آخر أكبر حجماً منها يثبتها على الأرض. فقفز، ورفع الغلوك استعداداً لضرب المهاجم على رأسه، ولكنه تسمّر في مكانه عندما ناداه صوت مألوف.

"تراجع يا خليفه. هذا أنا".
وظهر وجه عريض الفكين، لم يره منذ أربع سنوات، ولكنه عرفه على الفور. والتفت الوجه إلى المرأة.

"الآن يا راشيل، أعتقد أن الوقت قد حان لتخبري صديقنا عما تفعلينه هنا في الواقع".

* * *

كانت خطة بن - روي - هذا إذا كانت لديه خطة - الوصول إلى الرصيف بأسرع وقت ممكن، وتحديد مكان خليفة، وإخراجه من هناك قبل أن يُصاب بأي أذى.

غير أن الأجهزة الأمنية في الإسكندرية كانت لديها أفكار أخرى. فقد احتجز لأكثر من ساعتين، بعد الارتياح به بسبب كونه إسرائيلياً، ولأن موعد رحلة العودة في اليوم التالي، ولأنه لم يحجز في فندق، وبالإضافة إلى كل ذلك لأنه لا يملك تأشيرة دخول رسمية. كان باستطاعته أن يُخبرهم بالحقيقة، وبأنه شرطي موجود هنا لمساعدة أحد رجال الشرطة لديهم الذي يسير بشكل أعمى في اتجاه الشرك. لقد شعر أنه من شأن هذا الأمر أن يعقد المسائل ويورطه في شبكة لا نهاية لها من الشرح. وعوضاً عن ذلك، ادّعى الغباء وتمسك بقصته قائلاً إنه يريد لقاء صديق قديم من الأقصر، وقد تم تدبّر الأمر برمته في الدقيقة الأخيرة، وكان واثقاً أنه باستطاعته الحصول على تأشيرة دخول مؤقتة لدى وصوله. كان العذر واهياً إلى أقصى حد، وخشي ألا يصدّقه وأن يعتبروه جاسوساً. وكان أمله الوحيد أن يتحققوا من يوسف خليفة ويدركوا أن شخصاً ما بهذا الاسم قد طار بالفعل من الأقصر في تلك الليلة، فتثبت صحة قصته. وبعد انتظار مؤلم، قاموا خلاله بتحريّاتهم كما يبدو. كانت هناك تمتمة مثيرة للشك ونظرات عابسة - مثال بسيط عما يواجهه المسافرون العرب في إسرائيل - ولكنهم ختموا جواز سفره في نهاية المطاف وسمحوا له بمواصلة رحلته.

"أحرص على أن تكون على متن تلك الرحلة غداً"، كان أحد مسؤولي الأمن قد قال له ذلك بطريقة تهديدية. "ثق بي، كلما أسرعت بالخروج من هنا كان ذلك أفضل"، جاء جواب بن - روي بصوت منخفض.

كان قد سحب رزمة من المال من صراف آلي تابع لأحد مصارف الإسكندرية، واستقلّ سيارة أجرة إلى روزيتا، ومن ثم إلى الشمال في اتجاه مصب

النيل حيث يوجد الرصيف الذي كانت المرأة المنتمية إلى نمسيس قد حددت مكانه. وفي أثناء اقترابهما من الشاطئ، بدأ السائق يثرثر بالعربية، قائلاً إن الطريق مسدود ولا يؤدي إلى أي مكان، وأنه يُفترض بهما الاستدارة والعودة. فلوّح له بن - روي برزمة من المال وطلب منه مواصلة السير. وبلغا المكان الذي بدا منه المركز الأمني التابع للجيش. فتوقف السائق ورفض التقدّم.

"نهاية المطاف"، قال. "يوجد جندي. الأمر ليس جيداً".

فدفع له بن - روي التعرّفة كاملةً وخرج. وفيما كانت سيارة الأجرة تستدير مغادرة هز السائق رأسه كما لو أنه يتعامل مع رجل مجنون. وكشفت مصابيح السيارة الأمامية عن درب ضيق متّجه نحو غيضة نخيل، ومن داخل الغيضة ظهر وميض أبيض، فتوجّه بن - روي إليه، ووجد سيارتي تويوتا لاندكروزر مركبتين تحت الأشجار؛ إنهما السيارتان اللتان كان قد رآهما في ميتزبي رامون بالتأكيد؛ علماً أنهما تحملان لوحات مصرية.

كانت نمسيس هناك.

"أرجوك يا الله لا تجعلني أتاخر كثيراً"، تتم.

وشقّ طريقه عبر الغيضة، وخرج على بُعد عشرين متراً من سياج مرتفع. كانت هناك أنابيب من الأسلاك الشائكة في الأعلى تطرح نقطة استفهام كبيرة حول إمكانية تسلّقها. لا بد أن يكون أعضاء نمسيس قد مرّوا عبرها، ولكنه قد يقضي ذهراً في البحث عن الفتحة، وهو لا يملك الوقت الكافي للقيام بذلك. لذا، عاد نحو المركز الأمني، متّبعا حافة الغيضة، ومنحنياً، ومفكراً في أنه ربما يكون بإمكانه الانسلاخ من دون أن يراه أحد. وفي تلك الأثناء، سُمع هدير محركات قافلة من عشر ناقلات تعمل على المازوت على امتداد الطريق، وتوقفت أمام البوابة. كانت الأخيرة قريبة منه، فقرر المجازفة. متخفياً بالظلال، دار حول الناقلة، وصعد السلم الموجود في مؤخرها، واستلقى على سطح الناقلة المقوّس. أطلق البوق، وبدأت القافلة بالتحرك.

لقد عبر.

وبعد دقائق قليلة، توقفت وراء المستودعات، فنزل بن - روي السلم واندمج بالظلال. كان المكان برّمته أكبر مما توقّع، وخشي من أن يتطلّب الأمر ساعات لتحديد مكان خليفة. فحينئذٍ سيكون الأوان قد فات لإنقاذه.

كان قد بلغ أحد أطراف الرصيف بعد أقل من عشرين دقيقة، وراقب السفينة وهي ترسو وراء ربوة من السلاسل الصدئة، ومن ثم انكفأ عائداً من الطريق الأخرى. عثر على باب في الناحية الخلفية لأحد المستودعات، ففتحه وألقى نظرة سريعة داخله، كان المكان في الداخل شديد السواد مع رائحة قوية لزيت محركات. مُغلقاً الباب، تقدّم إلى الطرف البعيد للمستودع. كان المستودع الآخر على بُعد خمسة أمتار، وبين المستودعين ممرٌ مُعشوشب عريض يمتد حتى الرصيف، وقد سُدّ آخره بمجموعة من الرافعات يقف عليها شخصان. من الصعب التأكد تماماً من هويتهما من هذه المسافة لأن أضواء الرصيف جعلتهما صورتين ظليّتين، ولكن شيئاً ما أنبأه بضرورة مطاردة فريسته. ففكر في الصراخ وتحذير خليفته، ولكنه كان يعلم أنها مسلّحة، وفي الأمر مجازفة كبيرة. لذلك، اتجه نحوهما بحرص شديد، وطقطقة الآلات وهديرها تغطي صوت وقع خطاه. وحين أصبح على بُعد عشرين متراً، استدار أحد الشخصين في اتجاه الآخر وتأكد من أنها هي. ففسّر في مكانه، والتصق بجانب أحد المستودعات. وبعد أن أشاحت بنظرها، واصل تقدّمه ووقف وراءهما تماماً. لا إجراءات غير عادية. لا مُقدّمات. لا تردّد. مدّ يده، وأمسك حزامها وجذبها نحوه.

* * *

"ما الذي تفعله بحق الله يا بن - روي؟ أفلتها. اذهب من هنا!".

أمسك خليفته وجه بن - روي، فنطح بن - روي يده لئيبعدها، وانتزع المسدس من يد المرأة، ورماه وراءه، ورفعها على قدميها ودفعها في اتجاه الممر إلى داخل الظلال بين المستودعات بعيداً عن الرصيف، فتبعهما خليفته، محاولاً الإمساك بذراعي بن - روي. هاجم بن - روي المصري بقدمه وأصابه في ركبته، موقعا إياه أرضاً.

"تراجع أيها الأحمق اللعين. سأشرح لك كل شيء. تراجع فحسب".

كانت المرأة تناضل وتركل، ولكنه كان يُمسكها بإحكام، واضعاً إحدى يديه حول ياقبتها، وضاعطاً بالأخرى على ذراعها اليمنى وراء ظهرها. دفعها مسافة عشرين متراً، ومن ثم أوقعها أرضاً. كان خليفته قد وقف على قدميه، ومشى بخطى متعثرة حتى أصبح وراء بن - روي، ودسّ فوهة الغلوك في مؤخرة عنقه.

"أفلفتها!". صاح بغضب. "هل تسمعي؟ اتركها وإلا فليساعدي الله، سأطلق النار!".

"ليست كما تظنّ يا خليفة!".

"أفلفتها!".

تحتة، كانت المرأة تقاوم وتتحرك كالسوط.

"اقتله!". قالت بغضب. "حُبّاً بالله. سيُسَلِّمنا!".

"لن أحذرك مجدداً يا بن - روي!".

"أصغِ إليّ!". هسهس الإسرائيلي. "لقد خدعت الجميع؛ أنت، جماعة نِمْسِيس... إنها مَدْسُوسَة. إنها عميلة بارين في الداخل!".
"إنه مجنون لعين!".

ورفعت نفسها بجهد، محاولةً تحرير نفسها. ولكن بن - روي كان قوياً جداً. وألقى بكل وزنه عليها لإبقائها ممددة على الأرض، متنفساً بصعوبة. أدار وجهه، ومرّت فوهة الغلوك على امتداد فكّه السفلي واستقرّت عند ذقنه. كانت عيناه تشتعلان في الظلام.

"لقد مررنا بهذا الموقف من قبل يا خليفة"، زجر. "هل تتذكر؟ أمانيا؟ كنت ستقتلني أيضاً حينذاك. ومن كان مُحِقّاً آنذاك؟".
وحملق بالمصري.

"أصغِ إليّ. هذا كل ما أطلبه. اسمعي لمدة دقيقة فقط لأنك تحتاج إلى معرفة من تكون، وما تفعله. وإذا أردت أن تطلق النار عليّ بعد ذلك، فافعل".

كانت يد خليفة ترتجف. صحيح أنه لم يُبعد المسدس، ولكنه لم يضغط به بقوة على وجه بن - روي. لم يكن يثق بالإسرائيلي. لم يكن يثق به البتّة. فقد أهمل التحقيق، وتلقى رشوة للتخلي عن القضية. وفي الوقت نفسه، كان هناك شيء ما في نبرته وفي تعابير وجهه غير المتناسقة يحمله على التمهّل؛ لقد اتصل به من قبل. وساد الصمت، وتسمّر الثلاثة في أماكنهم كما لو أنهم مشهود في إطار؛ بن - روي يمسك بالمرأة، وخليفة يصوّب المسدس نحو بن - روي. وبعد ذلك، أوما خليفة برأسه قليلاً، مشيراً إلى أنه سيُصغي.

"كل الأمر متعلّق بالعائلات"، استهّل بن - روي كلامه، موجّهاً نظره إلى الأسفل، ومن ثم إلى الأعلى. "لقد أخطأتُ في شجرة العائلة. لقد اعتقدتُ أنّها ابنة ريفكا كلينبرغ. لقد تطلّب الأمر تحريّاً أفضل منّي لاكتشاف الحقيقة. لقد ثبت أنّها ليست ابنتها على الإطلاق. إن ريفكا كلينبرغ عرّبتها. أليس كذلك يا راشيل؟". ودفعها بخشونة، مشدداً على الاسم مجدداً من دون أن يُشيح بنظره عن خليفة.

"كانت والدتها وكلينبرغ صديقتين حميمتين، وقامتاً بالخدمة العسكرية معاً، وبقيتا على اتصال حتى عندما حصلت والدتها على عمل في الخارج؛ في السفارة الإسرائيلية بواشنطن في قسم الشؤون الثقافية. وهكذا، لفتت انتباه صناعي أميركي من أصحاب البلايين، رجل كرهه يدعى...". وتلكاً قليلاً.

"ناتانيال بارين".

توترت المرأة تحته، ومن ثم هدأت. واستمر خليفة بوضع إصبعه بإحكام حول الزناد، وعقله يثّر، محاولاً فهم ما سمعه للتوّ.

"هي...".

"بالتحديد، ابنة بارين. اسمها الكامل راشيل آن بارين، وعلى غرار شقيقها، تلقّت علومها تحت اسم مستعار، وأبقيت بعيدة عن أضواء الشهرة. ومع ذلك، إنّها من عائلة بارين. إنّها الابنة المطيعة، وعلى غرار كل البنات المطيعات، يبدو أنّها تسعى وراء مصالح العائلة".

ولاحظ خليفة أن قبضتي المرأة مكورتان بإحكام كالصوّان.

"هل هذا صحيح؟" قال بصوت أجشّ.

لا جواب، كان هذا هو الجواب الذي يحتاج إليه. وفجأةً، شعر بجفاف كبير في حلقه. أرخى خليفة إصبعه عن الزناد، وأبعد بن - روي المسدس عن ذقنه. فسمح له خليفة بالقيام بذلك. وخبا صوت الهدير والقعقة المحيط بهم كما لو أن باباً أغلق بينهم وبين حوض السفن شيئاً فشيئاً.

"إنه أمر مثير للفضول، ألا تعتقد؟". تابع الإسرائيلي كلامه، متوجّهاً إلى نفسه أكثر من مخاطبته المرأة وخليفة. "رغم استهداف نيمسيس كل تلك الشركات

الماكرة متعددة الجنسيات على مرّ السنين، ورغم كل تلك الهجمات على الملفات الكمبيوترية، وكل غارات حرب العصابات الجريئة تلك، ظلّت هناك شركة وحيدة لم يتمكنوا قطّ من كشف أي حقارة ترتكبها ألا وهي بارين. ما السبب برأيك؟ ليس لأنها نظيفة الكفّ بالتأكيد. إذاً ما السبب؟ لماذا تفوح من بارين دائماً رائحة الورود؟ هل تمكنت من استباق الأمور؟".

لا ردّ. لقد بدا الأمر كما لو أن هناك ثلاثة ممثلين على المسرح، ونسي اثنان منهم حوارَيهما.

"حسناً، إليك سؤالاً آخر"، قال بن - روي. "كيف اكتشفت بارين أن ريفكا كلينبرغ تتحرّى عن أعمالها؟ لقد راودني هذا السؤال منذ مدة. فهي لم تتصل ببارين، وتجنّبت الأضواء، باحثة عن دليلها بحدوء. شخصان فقط كانا يعرفان أنها بدأت بكشف صلة بارين بما يجري. أحدهما القوّاد الذي أخبرتك عنه، غينادي كريمينكو، والذي أقسم إنه لم يُح بأي شيء. ونظراً إلى وجود سلاح مصوّب إلى حلّقه في ذلك الوقت، أميل إلى تصديقه. ويبقى لدينا..."

ووجه للمرأة الموجودة تحته دفعة خشنة أخرى.

"إنها متورطة بذلك حتى أذُنّيها يا خليفة. لم أجمع كل النقاط بعد، ولم أكتشف القصة بأكملها، ولكن بارين أدخلتها بطريقة ما إلى نِمْسيس أجندا، وهي تحمي الشركة من الداخل مذاك الحين. لهذا السبب كانت حريصة جداً على لقائك. لهذا السبب أرادت منك أن تحضر دفتر مدوّنات سامويل بينسكر معك. لأنه بدونك وبدون دفتر المدوّنات، لن يعرف أحد مكان المنجم. وبدون العشور على المنجم، لن يعرف أحد ما الذي تفعله بارين هناك. كانت ستدمرك كما دمّرت عرّابتها. أليس هذا صحيحاً، يا راشيل؟ لقد قتلتها. أنت التي قتلت ريفكا كلينبرغ".

على الأرض، تمكنت المرأة من إدارة رأسها بطريقة ما، وتمكنت من النظر إليه جزئياً.

"أنت أبله لعين حقاً"، قالت بغضب. "أكثر بلاهة مما اعتقدتُ. عندما قُتلت ريفكا كلينبرغ كنتُ على بُعد خمسمئة ميل وسط الكونغو. ولو أردتُ أن أقتله..."

وحرّكت كتفها في اتجاه خليفة.

"... لَقَمْتُ بذلك في أي وقت من الساعات الثلاث الأخيرة. كما كان باستطاعتي وضع رصاصة في رأسك في ميتزبي رامون. لا عجب أن تتمكن شركات مثل بارين من النجاة بفعلتها عندما تكون أنت - أيها اللعين - أفضل ما لدى القانون ليتولى مهمة التحقيق".

فوقها، ظهر على وجه بن - روي وميض شك عابر. فأزال هذا التعبير عن وجهه، ورفعها على قدميها.

"كما قلتُ، لم أحصل على كل الأجوبة. بإمكان الأجوبة أن تنتظر. في الوقت الحاضر، سنخرج من هنا. وأنتِ سترافقيننا..."

وقوطع بتشويش فجائي صادر من جهاز اللاسلكي الذي تركوه مُلقى على الرافعات. كان أشبه بفرقة طلق ناري تلاه صوت، صوت امرأة مبحوح بسبب الخوف.

"اهربي يا ديننا، إنه شرك. كانوا في انتظارنا. اهربي! اهربي! إنهم يعرفون أننا...". وابتلع الصوت بعد أن سُمع طلق ناري آخر. مُجفلاً، وغير واثق مما يجري، تراخت قبضة بن - روي آتياً، فركلت سحجته كاحله بقوة، مُفْلِتَةً في الوقت نفسه من قبضته. ودارت حول نفسها، وركلته بركبته عند التشعب بين ساقيه، فأنحى، ومن ثم وجّهت للجانب السفلي من فكّه ضربة بأسفل راحة يدها وأسقطته أرضاً. حاول خليفة الإمساك بها، ولكنها ركضت عبر الممر في اتجاه الرافعات في آخره.

"أطلق النار عليها"، قال بن - روي بغضب، رافعاً نفسه على قدميه، والدم يسيل من ذقنه. "أطلق النار على العاهرة!".

وبشكل تلقائي، رفع خليفة الغلوك، مُمسكاً رسغه الأيمن بيده اليسرى لتثبيت عملية التصويب. كانت هدفاً سهلاً بالرغم من الظلال؛ إذ إن المستودعات قد ضيّقت نطاق حركتها، وجعلتها أضواء الرصيف هدفاً واضحاً. تعقبها بماسورة المسدس، لاوياً إصبعه على الزناد، ولكنه لم يتمكن من حمل نفسه على الضغط عليه. بلغت فتحة الممر، والتقطت مسدسها عن الأرض حيث رماه بن - روي، وقفزت من فوق أقباص الشحن كما لو أنها تقفز فوق مجموعة من الأدراج. في

الأعلى، توقفت واستدارت، والتقت نظراتها نظرات خليفة للحظة وجيزة. لم يكن واثقاً من الأمر، ولكنه ظنّ أنّها هزّت رأسها، علماً أنّه لم يفهم معنى ذلك. ومن ثم، التقطت جهاز اللاسلكي والكاميرا الفيديوية، وقفزت عن الأقفاص وغادرت. فأنزل مسدسه.

بجانبه، كان بن - روي واقفاً على قدميه.
"لماذا لم تُطلق النار عليها؟". وسعل. كان صوته غليظاً كما لو أنّ أحدهم قد حشا فمه بإسفنجة مبلّلة.

"لم أستطع"، تتم خليفة. "ليس على امرأة. ليس في الظهر".
ولزم مكانه لعدة ثوانٍ مذهولاً، وعقله مشغول. وسُمع صوت طلق ناري آخر، ولكن وراءهما هذه المرة في محيط السياج، وشعر بيد الإسرائيلي على كتفه.
"علينا الخروج من هنا".

فاستدار خليفة. لم تكن لديه أي فكرة عما يجري، وعمّن يُطلق النار، وعن سبب إطلاق النار، ولم يكن متأكداً إنّ كان بن - روي مُحِقّاً أم لا في شأن المرأة. فما يعرفه هو أنّ الإسرائيلي قطع مسافة طويلة وعرض نفسه للخطر لأجل مساعدته، وهذا على الأقل يستحقّ بعض العرفان بالجميل. شرع بقول شيء ما، ولكنه توقف عاجزاً عن إيجاد الكلمات المناسبة. وبدلاً من ذلك، رفع ذراعه، وربّت بكمّه على فم الرجل المطلّخ بالدماء.
"تبدو في حالة من الفوضى أيها اليهودي الوغد المتعجرف".

فهمهم بن - روي.
"وتبدو كما أنت بالتحديد؛ مسلماً وقحاً يحمي النساء".
وأوماً لبعضهما، وشبكاً يديهما، وانطلقا عبر الممر بعيداً عن الرصيف. وما إن قطعاً بضعة أمتار حتى ظهر أمامهما فجأة بضعة أشخاص. وأطلقت النار بين أقدامهما.

"ارميا سلاحيكما، وضعاً أيديكما على رأسيكما!". أمر صوتٌ أجشّ بلهجة أميركية. "لن أكرر الأمر".
فرُمي السلاح ورُفعت الأيدي.

* * *

لقد دُفعا على امتداد الناحية الخلفية للمستودع وصولاً إلى الرصيف. كان الضباب قد انتشر بشكل ملحوظ في الدقائق العشرين الأخيرة. وكانت السفينة أمامهما مغطاة بحجاب كثيف من البياض جعل خطّها الكفافي مُبهماً وغير واضح كما لو أن 60,000 طنّ من الفولاذ تزول ببطء. كان البخار ينتشر على امتداد الرصيف كتلج جاف، فيما الارتفاعات العملاقة تختفي وسط الظلام. كان المشهد أشبه بحُلْم غير حقيقي بطريقة غريبة، ما لبث أن تفعلّ مع إطلاق البوق وتوقّف عملية الإفراغ فجأة. إذ توقفت المحركات عن العمل، واختفى عمّال الرصيف، وأظلم المكان، وأصبح كل شيء ساكناً وجامداً بشكل مخيف. تبادل بن - روي وخليفة نظرة سريعة، ولكنهما لم يقلوا شيئاً.

لقد تمّ اقتيادهما عبر الرصيف إلى مؤخر السفينة. كانت هناك سيارة فخمّة سوداء مركونة عند أسفل المَعبر، يقف بجانبها ثلاثة أشخاص مفتولي العضلات، وذوي وجوه عابسة، ويرتدون سراويل جينز، وسترات واقية، ويتعلون جزمات مناسبة للصحراء. كانوا يحملون أسلحة من طراز هيكлер إند كوش أم ببي 5، وأسلحة يدوية من طراز سيغ سوير. لم يظهر على وجوههم أي اهتمام ملموس في أثناء مرور التحريّن أمامهم في اتجاه المَعبر الجسري للسفينة.

صعدا إلى السفينة، وكانت الدَرَجات المعدنية تصدر صوتاً تحت أقدامهما. في الأعلى، عبراً ممراً ضيقاً قائماً حول برج السفينة. كان الضباب أكثر كثافة هناك كما لو أنهما دخلا سحابة، وأعلى البرج مختلفاً في الظلمة. في مكان ما فوقهما، كان باستطاعتهم سماع أصوات أشخاص يتكلمون لغة لم يفهموها. لقد اعتقد بن - روي أنهما روسية. وشعر بشيء ما يلامس وجهه، وأدرك أنه رماد سيجارة منهمر، فلم يتكبد عناء التعبير عن تذمّره.

ملوّحين بأسلحتهم، أوماً أسرو التحريّن لهما بالانعطاف يميناً حول قاعدة البرج نحو الجانب الأبعد. وفي الناحية الخلفية لسطح السفينة، كانت هناك حاوية تخزين مستطيلة الشكل، كتلك التي تمّ تهريب فوسغي والفتيات الأخريات المسكينات داخلها، كما فكر بن - روي. وفتحت أبوابها الفولاذية. كان الظلام دامساً، فلم يتمكنوا من رؤية ما يوجد داخلها باستثناء بعض الفُرش الإسفنجية الموضوعة على الأرض، وشمّاً رائحة بُول ومعدن صديء حادّة.

لُوحَ لهما للوقوف بمحاذاة الحاوية، تحت بقعة من الضوء الخافت الصادر عن مصباح في البرج فوقهما. وأمامهما، توارى داخل الضباب جسر رافعة متنقلة ضيق يُستخدم كمر بين العنابر المفتوحة التي توضع فيها الحمولات. وخطا الحراس إلى الورا، وهم يدفعونهما بأسلحتهم.

مرّت بضع دقائق، والحراس واقفون هناك، وخليفة وابن - روي ينظران إلى بعضهما من حين لآخر من دون التفوّه بأي كلمة، غير متأكّدين مما يجري. ومن ثم، شعرا بالتوتر فجأة. لقد سمعا صوتاً واهناً أمامهما؛ في مكان ما وسط الضباب على امتداد جسر الرافعة المتنقلة؛ صوتاً حاداً إيقاعياً شبيحاً. تكوَّرت قبضاهما بطريقة تلقائية، فيما تحوّلت أنظارهما إلى داخل الظلام، محاولين اكتشاف مصدر هذا الصوت. وتواصل الصوت، ودنا. هناك أمر ما في شأنه غير مريح ويُضمر الشر. فطريقة صدور الصدى من الظلام توحى بزحف كائن مفترس في اتجاههما، ناخراً على امتداد جسر الرافعة بنّية شريرة.

"ينتابني شعور سيّئ حيال هذا الأمر"، تتمخ خليفة، والتصق بجانب الحاوية.
"لا تُشِر إليه"، جاء ردّ بن - روي.

اقترب الصوت أكثر فأكثر، وازداد ارتفاعاً، وبات مُرفقاً بوقع خطى؛ خطى بطيئة تُحدث صوتاً مكتوماً على المعدن المشبّك. ولاح ظل مُبهّم داخل الضباب، ونتاجاً وازداد دُكنةً مع ظهوره شيئاً فشيئاً أمام أعينهما حتى اتخذ شكل رجل؛ رجل جسيم، أشيب، مُفرط في الوزن، يجرّ قدميه وراء إطارٍ للمشي ثلاثيّ العجلات.
إنه ناتانيال بارين.

وتقدّم إلى داخل دائرة الضوء.
"عمتما مساءً أيها السيدان".

كان صوته بمثابة زجاجة عميقة وخشنة. وتوقف عن الكلام قليلاً فيما كان ينظر إليهما، ومن ثم قال:

"إنها سفينة كبيرة ومثيرة للإعجاب، ألا تعتقدان ذلك؟ كنت أقوم بجولة على امتداد سطح السفينة. يجب إصلاح هذه العجلة".

وأشار إلى أحد الدواليب الصغيرة.
"القليل من الزيت يفي بالغرض".

وهمهم ورفع يده مشيراً إلى الحراس بالتراجع، فانسحبوا حتى حافة الضباب؛ بعيداً بما يكفي لإخراجهم من المشهد، وقریباً بما يكفي لإبقاء السجينين في مرمى أسلحتهم.

"في العادة، نترك المسائل الأمنية لزملائنا المصريين"، قال الرجل المُسنّ، معدّلاً ثقله على إطار المشي. "ولكن، أعتقد أنه من الأفضل إشراك بعض رجال الأمن الخاصين بنا أيضاً في هذه الليلة لتعزيز الأمن قليلاً. وهم يقومون بعمل جيد". وأوماً برأسه موافقاً. كان هناك قناع بلاستيكي مُدلى من جبل حول عنقه، ويخرج منه أنبوب رفيع في اتجاه أسطوانة أكسجين موضوعة تحت إطار المشي ومثبتة إليه بحزام.

"عليّ التوجه إلى مصر بأي حال"، تابع وهو يسحب منديلاً من جيّبه ويربّت به على فمه. "لافتتاح ذاك المتحف اللعين غداً مساءً في الأقصر. يبدو أنه من المنطقي التوقف هنا أيضاً. إصابة عصفورين بحجر واحد".

أمامه، كان خليفة وبن - روي يقفان ملتصقين بجانب حاوية الشحن، وعينا خليفة مثبتتان على بارين وهما تشتعلان كُرهاً، في حين أن نظرات بن - روي تميل إلى أن تكون استحوائية. فداخل رأسه، كانت تدور أسنان الدولاب، محاولاً جمع كل الخيوط واكتشاف ما يجري بالتحديد؟

"لقد التقينا ابتك للتوّ"، قال لامساً فمه المتورّم بيده. "التقيتماها الآن". وابتسم بارين. "إنها سيدة صغيرة مذهلة، ألا تعتقد ذلك؟". "كانت تعمل لصالحك طوال الوقت؟".

واتّسعت الابتسامة.

"كما قلتُ، إنها سيدة صغيرة مذهلة، ولكنها عاصفة أيضاً. أنا فخور بها جداً". "هل هي التي أعدّت هذا الشرك؟". سأل خليفة بصوت خال من أي تعبير على نحو مثير للفضول وقد شحب وجهه. "هل هي التي أحضرت أعضاء نِمْسيس إلى هنا كي تتمكن من قتلهم؟".

جرّ بارين قدميه وتمايلت كتفاه، معدّلاً ثقله على إطار المشي. "لنقل فقط إنه من المريح جداً أن أعرف أن العائلة والشركة ستكونان في يد أمينة عندما أرحل".

وضحك مُصدراً صوتاً جافاً وغير مُستساغ كُنْباح كلب. وربّت على فمه مجدّداً، ثم وضع المنديل في جيبه. في عقل بن - روي، كانت أسنان الدواليب لا تزال تدور. بطريقة ما، لم تُجمَع الخيوط بعد، وإنّما كانت أطرافاً مُدلاة. "أولئك الأشخاص... كانوا جزءاً منها فقط"، قال. "مجموعة صغيرة، خلية. لا تزال نَمِيسيس أجندا موجودة. وأنتم لم تتحلّصوا منها". وكانت هناك ضحكة أخرى. "شيئاً فشيئاً، أيها التحرّي. خطوة خطوة. ثِق بي، نحن نسيطر على الوضع تماماً".

"وماذا عن ريفكا كلينبرغ؟". ظنّ بن - روي أن باستطاعته توضيح الصورة قدر المستطاع قبل حدوث المحتوم. "من قتلها؟ أهي راشيل؟". فلوّح بارين بيده، ساخراً من السؤال. "قتلها شخص ما يضع مصالح الشركة في قلبه"، قال. "في ظل هذه الظروف، لا أعتقد أنه من المستحسن أن أكون أكثر تحديداً. علماً أنني أعترف لك بما حقّقته، وقد أبلّيت بلاءً حسناً باكتشاف بقيّة التفاصيل بشكل جيد. اطلّعتُ على نسخة من التقرير الذي وضعته. إنه عمل جيد يقوم به تحرّ". ورفع يداً متورّمة ومنقّطة بلون بُني مائل للحُمْرة، وأدّى لبن - روي تحيّة مثيرة للسخرية.

"كما حُفّنت، تعرّنا بالمنجم عندما كنا نضع تصوّراً لذلك الجزء من العالم. لم أعره اهتماماً كبيراً في ذلك الوقت. ولم نَع أنه مُنشأة تخزين جاهزة لبعض النفايات التي أُرغمنا على شحنها إلا بعد أن مُنحنا امتياز دراجس". هبّت عَصْفة ريح؛ فجعلت وجهه الكبير المماثل ليقطينة غير واضح المعالم مؤقتاً وراء حجاب من الضباب.

"ولكن، كان هذا التفصيل هو الوحيد الذي أخطأت فيه"، تابع مع زوال الضباب. "فنحن لا نظمر كل النفايات في الواقع، بل ربعها فقط. وتعود الكمية المتبقية إلى الولايات المتحدة لإعادة معالجتها وضمّرها في الأرض. إنه عمل مكلف لعين كما قلتُ لك عندما تحدّثنا في تلك الليلة. إذ تخفّض هذه العملية هوامش أرباحنا. ولكن، بطمر خمس وعشرين بالمئة منها فقط نوَفّر مئات الملايين من

الدولارات كنكلفة شحن، مما يعني أرباحاً إضافية تقدّر بملايين الدولارات. وفي النهاية، هذا كل ما يهمنّا، أليس كذلك؟ زيادة هوامش الربح، وجني المزيد من المال".

وتقوَّس حاجباه الكثَّان الرماديان كما لو أنه كان يتوقع من بن - روي وخليفة التعبير عن موافقتهما على تحليله. ولكنهما لم يفعلا، بل وقفا هناك صامتين. ولم يبدُ بارين منزعجاً بصفة خاصة من عدم حدوث رد فعل. "بالمناسبة التقيتُها مرات قليلة"، أضاف. "أقصد تلك المرأة كلينرغ. كانت صديقة زوجتي العزيزة الراحلة. لا يمكنني القول إنني كنت أستلطفها على الدوام، وأعتقد أنهما كانت تبادلي ذاك الشعور أيضاً. إنه أمر غريب كيف تظهر المصادفات الصغيرة في الحياة".

وابتسم ابتسامة عريضة، وتغنَّت تعابير وجهه على الفور عندما فاجأته نوبة من السعال. فتحرَّكت كتفاه صعوداً ونزولاً، وانتفخت عيناه المرتشحتان في أثناء نضاله من أجل الحصول على الهواء. أمامه، كانت عينا بن - روي يقظتين وهو يفكر في الفرص المتوافرة للتغلب على الحراس. ولكنه اعتبرها غير كافية، بل إنها قليلة جداً.

"إذاً، ماذا الآن؟". سأل عندما استعاد بارين عافيته.

"الآن؟". وانفتحت يدا الرجل المُسنّ، ثم أطبقتا على المقبضين المطاطيين لإطار المشي. "الآن، أعتقد أننا سننتظر انقشاع هذا الضباب لإنهاء تفريغ الحُمولة. وبعد ذلك، سيقوم القبطان كريمينكو وطاقمه بإصلاح الفوضى التي تسببوا بها بسبب عملية قهریب المومسات، وذلك باصطحابكما أيها السيّدان إلى وسط المحيط، وتقطيعكما إرباً إرباً، ورميكما للأسمك. والأمر نفسه ينطبق على جثث قاطعي الطرق أولئك التابعين للميسيس، والتي يتم جمعها الآن في أثناء تكلّمي كما أعتقد. لا يمكنني القول إنني سأذرف أي دُمعة عليهم، غير أن قتل رجال الشرطة لم يكن قطّ عملاً مُرضياً لضميري. ولكن ماذا يمكنني أن أفعل؟".

وهزّ كتفيه بطريقة تشير إلى عجزه؛ كما لو أن الأمر برمته مفروض عليه. "كان يُفترض بك قبول الرشوة أيها التحري. القاعدة الأولى للأعمال: إذا عُرضت عليك صفقة جيدة، فتشبَّث بها".

فاجأته نوبة سعال أخرى، فاكتسى وجهه لوناً أرجوانياً في أثناء تثبيتته قناع الأكسجين على وجهه، ونضاله من أجل التنفس. بجانب بن - روي، كان خليفة يدرس فرص الإطباق على الحراس. وعلى غرار الإسرائيلي، اعتبر أن الفرص معدومة تقريباً. فعلى بُعد أمتار قليلة فقط، يقف الرجل الذي يُعتبر مسؤولاً عن وفاة ابنه - محور القوة المسيطرة الذي حطّم عالمه برمّته - من دون أن يتمكن من الوصول إليه. وشعر بفراع في صدره بسبب إحباطه.

"بأي حال، أيها السيدان"، تابع بارين أخيراً، مُنزلاً القناع، ومنحنيّاً إلى الأمام على إطار المشي. "أنا رجل أدخل صلب الموضوع مباشرةً، وأردتُ الوقوف هنا أمامكما والنظر إلى أعينكما، وتوضيح أي تساؤلات لديكما. أما وقد قمت بذلك، فلم أعد أجد أي فائدة من إطالة اللقاء، لذلك إذا لم يكن لديكما مانع..."

ونقر برأسه في اتجاه الحراس الذين تقدّموا بضع خطوات، مسدّدين مدافع هيكлер الرشاشة نحوهما، ووجوههم خالية من أي تعبير كما لو أنّهم روبوتات. وأومأوا للتحريين بأسلحتهم لدخول حاوية الشحن.

"لم أكن قطّ أجيد التمثيل على المسرح"، قال بارين بعد أن توجّها إلى الداخل المُتّين، واستدارا، "ولكن، عليكم الإقرار بوجود بعض... ما هي الكلمة؟ التزامن في الأمر برمّته. بدأت مشاكلنا مع الحاوية، وهنا ستنتهي بالتحديد. إنه حسّي بالإتقان".

وابتسم، ثم أومأ للحراس، فشرعوا بإغلاق بابي الحاوية. وضع خليفة قدمه في الخارج، مُعيقاً أحد البابين، ومُبقياً إياه مفتوحاً.

"لقد قتلتَ ابني"، قال محدّقاً ببارين. "لقد قتلتَ ابني، وسوف أقتلك".

فاندفع الفك السفلي للرجل المُسنّ إلى الأمام.

"هل ستقوم بذلك الآن؟ حسناً..."

فرفع معصمه وتفحص ساعته.

"... لديك أربع ساعات للقيام بذلك. وبعد ذلك، ستكون في طريقك إلى

قعر المحيط والسرطانات تمضغ عينيّك. لذلك، لو كنت مكانك لأسرعُ".

وأطلق إحدى تلك الضحكات التي تُصدر أزيزاً، فيما دُفع خليفة إلى الوراء، وأُغلق باب الحاوية بقوة في وجهه. وسُمع صوت معدني لدى إحكام القفل -

للمرة الثانية في غضون أربع وعشرين ساعة، وجد نفسه واقعاً في شرك سواد لا يمكن اختراقه - وصريرُ إطار المشي في أثناء جرّ بارين قدميه. وبعد ثوانٍ قليلة، زال الصوت وساد الصمت، ومن ثم:

"مرحباً يا أبي. مرّ زمن طويل".

مكوراً قبضته، وجه خليفة ضربة قوية إلى الناحية الداخلية للباب صائحاً:
"كاذبة! كاذبة، كاذبة، كاذبة!".

* * *

في اللحظة التي سمعت فيها راشيل صراخ تامار على جهاز اللاسلكي - "اهربي! إنه شرك!" - علمت أنه موجود في مكان ما على الرصيف. لم تتمكن من شرح ذلك، ولم تتمكن من تحليل الأمر. كانت قد عرفت ذلك للتوّ، وشعرت بحضوره فجأة داخل عظامها، وفي تجويف معدتها؛ في أعماق أعماقها، تماماً كما كانت تشعر في طفولتها عندما يكون جالساً في سكينه في مكتبته في أعلى منزله الفخم، وعندما يقترب كسحابة عاصفة في الممرات المضاءة بنور خافت. كان بعيداً كل تلك السنوات، وها هو والدها العزيز يقترب مجدداً سعيّاً وراء ابنته الصغيرة. لقد عرفت على الدوام أنه سيقوم بذلك، وستُعيد لها المتاهة على الدوام لتغرق فيها.

فبعد إفلاتها من الشرطي الإسرائيلي، قفزت فوق صناديق الشحن البحري، وشرعت بالركض على الرصيف بأقصى سرعة، متجاهلةً صيحات عمال التفريغ والتحميل، وملوّحةً بالغلوك في وجه كل من يقترب منها. لقد بدا الأمر كما لو أنها وسط كابوس؛ فكل شيء مُبهَم وغير محدّد بسبب الضباب. كما أن توقّف كل المحركات فجأة وسيادة السكون ساهما في ذلك. كانت قد نادت في جهاز اللاسلكي، مراراً وتكراراً، صائحةً بأسمائهم - "غيدي، تامار، فاز!" - ولكنها علمت أنه لا جدوى من ذلك. وأخيراً، وضعت جهاز الاتصال جانباً، والكاميرا الفيديوية أيضاً، حتى إنها لم تعرف سبب تكبدها عناء اصطحابها معها. لم تكن تعرف أي شيء باستثناء أن الآخرين لقوا حتفهم، وأنها تركض، ووالدها هنا، وها هي الأمور تتسارع أخيراً، وكانت تنتظر تسارعها في السنوات الإحدى عشرة

الأخيرة. يمكن لرغبتها هذه أن تتحقق ما دام بإمكانها صدّ الماضي ودفن الكثير من ذاتها.

أُبقيني مُحبّة، لا تدعني أحداً يرى.

والآن، أصبح الماضي حاضراً، وكل الألغاز تُحلّ.

كان عدد من الرجال قد ظهرُوا مرتين من العدم وألقوا القبض عليها، وسمعت مرتين أصواتاً تأمر بإطلاق سراحها.

"إنها هي. دعوها تذهب".

أنت ذلك الشخص يا راشيل. طالما كنت ذلك الشخص.

لقد دفعتهم بخشونة، وواصلت الركض.

في نهاية الرصيف، كان الضباب سميكاً وأشبّه بالحليب. فتسلّقت الجدار الإسمنتي بمشقة، ونزلت إلى الصخور في الأسفل، وتلمّست الأرجاء بحثاً عن تamar وغيدي وعن المكان الذي ثبتا فيه كاميراتهما. لم يكن بإمكانها القيام بأي شيء لتغيير ما حدث، ولكنها كانت بحاجة إلى رؤيتهما بأُمّ العين، وإلقاء تحية الوداع عليهما على الأقل، ولا سيما على تamar، قبل أن تذهب للعنور عليه. لقد خرقت القاعدة الذهبية مع تamar، وأصبحتا مقرّبتين؛ تماماً كما خرقت القاعدة مع ريفكا، ومع والدتها أيضاً. وعندما تخرقون القاعدة تحدث أمور سيئة على الدوام.

"ليس خطئي"، وغصّت. "ليس خطئي. ليس خطئي".

فبعد كل تلك السنوات، كان لا يزال في أعماقها جزء منها يتساءل عما إذا كان ما يحصل أو ما قد حصل خطأها، وعما إذا كان باستطاعتها القيام بالمزيد للمقاومة، وعما إذا كانت عاهرة في الواقع.

"آسفة. آسفة".

وتلمّست المكان لفترة وجيزة، ومن ثم أدير محرك في مكان ما إلى يمينها بعيداً عن النهر. إنه محرك شاحنة. ورأت أضواء وسط الضباب. فتوجّهت إليها بخطى متعثّرة، ووجدت نفسها على رمال حصوية. ورأت آثار دواليب. لم يكن أي شيء يبدو واقعياً، فيما الضباب يبدو ممزّقاً. أممها. وعى بُعد خمسة أمتار، رأت الناحية الخلفية لشاحنة خفيفة. كان هناك رجلان يجلسان على الجانبين، يرتديان ملابس مماثلة للملابس أولئك الذين ألقوا القبض عليهم على الرصيف: سراويل جينز،

وسترات واقية، ويتنعلون أحذية مناسبة للصحراء. وعند أقدامهما على أرضية الشاحنة، ثلاث جثث مُلقاة: ذكران وأنثى. كانت عيونهم مفتوحة ومضرجة بالدماء. لقد سمعت صرخة، وتطلبها الأمر لحظات لتُدرك أنها صادرة من فمها. مدّت يدها نحوهم ولكن الشاحنة كانت قد انطلقت. لوح أحد الرجلين بيده في اتجاه السفينة، ولفظ شيئاً ما ربما يكون "إنه هناك". ومن ثم، تجمع الضباب مجدداً، واختفت الشاحنة.

أصبحت بمفردها كما كان حالها على الدوام. وحدها في الضباب مع ظلمة حجلها.

اقتفت آثار خطاها كرجل آلي، وعادت إلى الصخور، إلى الرصيف، وإلى السفينة، والغلوك متدلّ من يدها. لقد بدا الأمر كما لو أن كل شيء يحدث بحركة بطيئة، وكما لو أنها شخصية في فيلم سينمائي بطيء. بلغت المَعبر الجسري في مقدمة السفينة، وصعدت إلى السطح، وتبعَت جسر الرافعة المتنقلة وصولاً إلى وسط السفينة حيث عنابر الحُمولات تقوم على الجانبين كبرك سوداء.

لقد غدا حضوره أقوى مع كل خطوة تخطوها إلى الأمام. كانت هناك جاذبية خفيفة تشدّها إليه بشكل لا يلين.

ثم ظهر أمامها فجأة وهو يجرّ قدميه بجانب الطرف البعيد لحاوية شحن كبيرة. كان كما تتذكره تماماً؛ ظلاً منتفخاً ومتثاقلاً الحركة يلوح عبر الضباب. لا بد أن يكون قد شعر بوجودها أيضاً لأنه توقف واستدار. والتقت أنظارهما. أطلق الوجه الأشيب الدُّبِّي ابتسامة. حينئذٍ، دار الفيلم بسرعه العادية، ولم يعد الأمر أشبه بحُلُم. فجأة، أصبح كل شيء في الزمن الحاضر وحقيقياً. وانقبض قلبها، وكذلك معدتها، وعاد ذلك الألم الذي تشعر به بين ساقيها.

"مرحباً يا أبي. مرّ وقت طويل".

* * *

بدا الأمر بالنسبة إلى بن - روي وخليفة كما لو أنها تحية ابنة مُحبّة؛ عودة الابنة الضالّة.

ولم يتمكنّا - وهما مسجونان في ظلمة الخاوية، ويفصلهما جدار من الفولاذ عن الخارج - من رؤية النظراتِ المعبرة على وجهها.
نظرات كره بحث لا لبس فيها. كره يبلغ حدّ الجنون كما لو أنها تواجه شيئاً مثيراً للاشمئزاز، شيئاً مقيئاً إلى حد كبير لدرجة أنها كانت على وشك السقوط على ركبتيها والتقيؤ.

وقفت هناك للحظات، مسمّرة في مكانها، فيما يتردد صوت قرع قبضات أيدٍ على الناحية الداخلية من الخاوية، وصرخات "كاذبة". ومن ثم، تقدّمت بضع خطى إلى داخل دائرة الضوء، وإصبعها مُحكمة الإطباق حول زناد الغلوك. أمامها، كان بارين يجر إطار المشي ويتقدّم نحوها أيضاً، ملوّحاً للحراس بالابتعاد عن سطح السفينة، وبقيها هناك وحدهما، وجهاً لوجه، الأب والابنة، بعد كل تلك المدة.

"مرحباً يا عزيزتي راشيل". كانت عيناه المرتشحتان رطبتين ومتألفتين، وفمه مُقوّساً بابتسامة هائلة بالحب. "مرّ وقت طويل بالفعل. لقد افتقدتك أكثر مما يمكنني التعبير عنه".

ومدّ يداً مرتجفة نحوها فلم تتحرك. فبعد مرور كل تلك السنوات، كانت الكراهية التي تشعر بها تجاهه أكثر شدة من أي وقت مضى.

"تبدين رائعة"، قال بصوت يترّ وهو يحدّق بها بإعجاب من الأعلى إلى الأسفل. "لقد كبرت وأصبحتِ امرأة جميلة الآن. أرى والدتك فيك؛ الكثير مما لدى والدتك. أنت تجعليني فخوراً بك جداً".

وهمّ بحر قدميه في اتجاهها، ولكنها رفعت المسدس في وجهه.
"لا تفعل".

فتوقف، وصدره يتحرك صعوداً ونزولاً في أثناء نضاله لسحب أنفاسه بصعوبة بسبب رئتيه المريضتين. قست ملامح وجهه لجزء من الثانية، ثم استرخت على الفور.

"آسف بشأن أصدقائك"، قال، ثم عاد التعاطف إلى ابتسامته. "آسف حقاً. أعرف أن الأمر يزعجك، ولكن كان لا بد من القيام بذلك. لقد حان الوقت كما ترين. حان الوقت لتعودي إلى المنزل. والدك بحاجة إليك. عائلتك بحاجة إليك".

حدّث به فحسب بوجه شاحب كالضباب. كان باستطاعتها اشتمام رائحة عطر ما بعد الحلاقة؛ قويّة، وكثيرة الزيت، وحادّة على نحو مُبهم. إنه أمر صغير يحمل معه أموراً كثيرة أخرى؛ أصواتاً: وقع أقدام على السجادة، وصرير مقبض الباب، أحاسيس: وزن، ضغط. الأمور التي تراها في كوابيسها، الأمور التي كانت تحرب منها طوال حياتها.

"لم يكن الأمر سهلاً؛ أقصد عدم وجودك هناك. أصبح المنزل فارغاً جداً بغيابك، ولا سيما منذ وفاة والدتك..."

"لم تتوفّ بطريقة طبيعية". كان صوتها خالياً من أي تعبير على نحو مثير للفضول. "لقد قتلت نفسها. أنت تعرف ذلك".

انحنى بارين إلى الأمام على إطار المشي، هازئاً رأسه بأسى.

"أعرف ذلك يا راشيل، أعرف ذلك، ولكنني حاولت..."

"قتلت نفسها لأنها اكتشفت الحقيقة. لأنني أخبرتها بما حدث".

مجدداً، تصلّبت ملامح الرجل المُسنّ للحظات. لقد دام ذلك لمدة أطول هذه المرة.

"بات ذلك من الماضي يا راشيل. لا يُفترض بنا إطالة التفكير بالأمر. فما يهمّ

هو الحاضر، والمستقبل. مستقبل عائلتنا. لهذا السبب، حان الوقت لوضع حدّ لكل هذه..."

وحرّك ذراعه بشكل مستدير.

"عودي إلى المنزل. لقد منحْتُك حرّيتك وسمحتُ لك بإخراج هذا الأمر

من حساباتك. لقد حان الوقت الآن للعودة إلى حيث تنتمين، وللاضطلاع بمسؤولياتك".

حدّق بما للحظات، ومن ثم أنزل رأسه بعد نوبة من السعال مزّقت صدره.

قتلّمس قناع الأكسجين، وثبّته بقوة على فمه. ومرّ القليل من الوقت قبل أن يتمكن من استعادة عافيته.

"والدك ليس بصحة جيدة، يا راشيل"، قال بصوت أجشّ، وعينه تنفخان

فوق حافة القناع، وصوته مكتوم بسبب القطعة البلاستيكية الشفافة. "الأطباء

منحوني ستة أشهر؛ اثني عشر شهراً على الأكثر. عليّ التفكير بموضوع من

سيخلفني في إدارة الشركة، من سيقود العائلة ويدير الأعمال. وليام..."

لقد تسبب ذكر الاسم بنوبة سعال متجددة، فاهتزّ جسده بأكمله، وانتفحت عيناه بقوة لدرجة أنهما بدتا كما لو أنهما ستخرجان من محجريهما كما تخرج الفليّنة من القنينة.

"وليام... حسناً، كلنا نعلم ما هو حال شقيقك. إنه متسوهم أفسدته المخدرات، ويتجر بالمومسات، ويعيش في عالم أحلام لعين. يعتقد أنه الرجل الكبير، ويعتقد أنه سيتسلم زمام الأمور ويستولي على كل شيء بطريقة عدائية بواسطة انقلاب. إنه هنا! كل شيء موجود هنا".

وربّت أطراف أصابعه بقوة واستهزاء على جانب رأسه.
"إنه قزم. كان كذلك على الدوام وسيبقى كذلك. لقد عرفته لحظة رؤيتي إياه. لا قوة، لا ذكاء. أما أنت...".

وأنزل القناع، وكان صدره يتحرك بقوة صعوداً ونزولاً تحت سترة التويد.

"أنت يا راشيل أمر حقيقي. أنت بارين حقيقية. فلديك شجاعة وتصميم وذكاء أكثر مما سيحصل عليه شقيقك ذاك في حياته كلها. كل شيء لك يا راشيل، وأنا الآن بحاجة إليك للشروع بتولي زمام الأمور. أحتاج إلى عودتك إلى المنزل لتقومي بما وُلدت للقيام به".

ومدّ يده نحوها مجدداً. فحدّقت بها هازةً رأسها، وتلوّى وجهها، وفتحت فمها غير مصدّقة.

"أنت مجنون"، تمت. ومن ثم قالت بصوت أكثر ارتفاعاً: "أنت مجنون".

وانتفخ صدر الرجل المُسنّ كثعبان كوبرا يستعد للهجوم.

"أعرف أنك تتألمين يا راشيل...".

فانفجرت غضباً.

"أنت مجنون لعين!". فجأةً، تدفّق الانفعال من صوتها. "أعود إلى المنزل! بعد ما فعلته بي! بعد ما فعلته بالتحديد! ما الذي حملني في المقام الأول على الخروج من المنزل برأيك؟ وعلى الابتعاد قدر استطاع، وعلى تغيير اسمي، وهويتي، وقضاء كل ساعة أكون فيها مستيقظة لمواجهة أشخاص مثلك؟ ما الذي حملني على بذل قصارى جهدي لقهر بارين؟ كما قهرت...".

"راشيل...".

وانتفض رأسها إلى الوراء.

"كنت طفلة أيها الحيوان اللعين!". كانت تصيح غاضبة، والألم بادٍ في عينيها، مُطلقة قطرات من اللعاب من فمها. "كنت في العاشرة من عمري! كل ليلة! سرنا الصغير! حب الوالد الخاص! لأظهر فقط مدى اهتمامي. لا تقلقي إذا ألمك ذلك قليلاً! إنه أمر طبيعي، طبيعي تماماً! أيها الكريه، الكريه...".

"كفى يا راشيل!".

"أعود إلى المنزل وأتسلم زمام الأمور! بعد ما حصل مع ريفكا؟ بعد الليلة؟ أيها المجنون اللعين المضلل...".

كان صوتها يخرج بشكل متقطع، والكلمات تعلق في حلقها، ونفسها يخرج في لهات قصير يائس.

"لن أعود أبداً! هل تفهمني؟ أبداً. أبداً. لن أتورط في ذلك أبداً. ولن أعمل أبداً لصالح بارين. ولن أكون أبداً جزءاً من حياتك المقيتة المنحرفة...".

كانت يدها اليسرى قد بدأت تحدش فروة رأسها، على غرار ما اعتادت القيام به عندما كانت صغيرة في السن، عندما كان يغتصبها فتشد شعرها بقوة كما لو أنها تحاول بلا أمل سحب نفسها بعيداً عنه.

وبالحركة نفسها، رفعت يدها الأخرى الغلوك وصوبته على رأسه. هذا ما جاءت للقيام به هنا في المقام الأول؛ هذا ما كان يُفترض بها القيام به منذ زمن بعيد، وما كانت تخطط له طوال السنوات الإحدى عشرة الأخيرة في أثناء كل المسيرات والاحتجاجات وأعمال الشغب وأفعال نيميسيس؛ مُرجئة، ومستعيضة - مهما كانت تسمية الأمر - ومتجنبة ما هو حتمي.

وحان الوقت الآن، كما قال والدها.

حان وقت الحقيقة، وقت العقوبة.

أمامها، تبت بارين القناع على وجهه بقوة، وسحب سلسلة أنفاس بطيئة صافرة، مثبتاً نظره عليها، وظهرت على القناع البلاستيكي حول فمه غشاوة في أثناء سحبه الأكسجين عبر الأنبوب من الخزّان في الأسفل. وبعد ذلك، أنزل القناع ببطء.

"آه، يا راشيلي"، قال. "يا حبيبي، يا راشيل الحبيبة".

لم يكن هناك أي شعور بالذنب في صوته، علماً أنهما ما كانتا لتتوقع ذلك، فوالدها ليس رجلاً يلوم نفسه، ولا يحسب للأخلاق أي حساب. ولم يكن يشعر بالخوف أيضاً، بالرغم من وجود مسدس مصوّب إلى عينيه مباشرةً. وبدلاً من ذلك، كان هناك نوع من التسامح المرعب والتأنيبي. كما لو أنه والد طفلٍ أساء التصرف، ولكنه يحب ذلك الطفل كثيراً ولا ينزعج كثيراً مما يقوم به. وشعرت بالغثيان.

"أعرف مدى صعوبة ذلك عليك يا راشيل، وأعرف العبء الملقى علي عاتقك. إنه الواجب، القدر. طالما كنتِ روحاً حرة. لن يكون الأمر سهلاً أبداً. ولكن، عليك أن تفهمي أن قيادة العائلة والشركة أمرٌ مقدّرٌ لك. لا يمكنك الفرار من قدرك بعد الآن، كما لا يمكن للدم الفرار من أوردتك. أنت من عائلة بارين سواء أَعْجَبَك ذلك أم لا. أنت جزء من العائلة. هذا ما أنت عليه. أما بالنسبة إلى العمل لصالحنا..."

وابتسم.

"حسناً، أنتِ تقومين بذلك مسبقاً، ولن يكون الأمر مختلفاً كثيراً".

ارتعشت عيناها، غير واثقة مما يعنيه. ومدّ عنقه في اتجاهها فوق إطار المشي، وعيناها تلمعان. وبعد أن صمت لفترة قصيرة تابع:

"وصلت الرسالة"، قال برفق، "العرض مقبول. نقاتل معاً".

فبدا وجهها الشاحب كما لو أنه يكتسي شحوباً أشبه بشحوب الموت. وتحركَ فمها للحظات قبل أن تتمكن من إخراج أي كلمة. "ماذا تقول؟ كيف فعلت...؟".

"آه يا راشيل! ألم تفهمي؟".

إنها نيرة تسامح تأنيبي مرة ثانية.

"نحن نؤسس أجندا. نحن شركة بارين. نحن الذين نديرها".

وساد الصمت لفترة وجيزة تغمره الرهبة. وبعد ذلك، شعرت بأن ساقها تضعفان، وتعثرت إلى الورا، وتردد صدى أين وحشجة اختناق من فمها. "لا"، همست. "أنت تكذب. أنت تكذب".

علماً أنّها كانت ترى في عيّنه أنه لا يكذب، وترى الابتسامة العريضة، والقسوة المنتصرة؛ تماماً كما كان عندما اعتاد دخول غرفتها ليلاً، وسحب أغطيّتها، و... ببراعة تامة.

"آه يا الله! لا"، همست. "آه، أرجوك يا الله، لا".

ومدّ يديه. إنّهما يدان مبقّعتان، قاسيتا الجلد، ضخمتان كقفازيّ بيسبول. "نحن نملكها كلها يا راشيل. نحن نتحكم بها، وبكل شيء. هذا ما هو عليه حال بارين؛ التحكّم".
"آه يا الله! لا".

"لم أتخيل قطّ ولو للحظة واحدة بأنّها ستصبح بهذا الحجم. كان من المفترض أن تبقى صغيرة. عمَل مرة واحدة لا يتكرر. مناورة صغيرة مأكرة للتخلص من بعض منافسينا. لقد اقترح أحد الأشخاص في الشركة إنشاء موقع على شبكة المعلومات الدولية، والبحث عن بعض القذارات ونشرها على الموقع، وحمل العالم على الاعتقاد بأن الموقع تابع لإحدى المجموعات المناهضة للرأسمالية".
وهز رأسه.

"لقد انطلق الأمر برمّته مذاك الحين، معتمدين روح العصر على نحو غير معقول. لدينا شخصان متفوّقان ينسّقان الأمر برمّته في هيوستن، وشبكة دولية من الناشطين الذين يزودوننا بالمعلومات، معتقدين خطأً أنّهم يساعدوننا بطريقة ما على إسقاط النظام. ويتعيّن علينا دفع ثروة طائلة لمساعدتنا كي يُبقوا أفواههم مُطبّقة. ولكن، صدّقيني، إن الأمر جدير بذلك فعلاً. بواسطة نِمِيسيس، يمكننا تشويه سمعة أي منافس بكبسة زر، كاصطياد سمكة في برميل. إنه أمر لعين لا يصدّق!".

وكانت هناك هزة رأس أخرى.

"من الواضح أنه يتعيّن علينا التزام الحذر؛ ليس من المنافسين المستهدفين فقط، وذلك لأن ما نقوم به قد يفضح أمرنا. لذلك، قمنا باستهداف أنفسنا مرات قليلة. لم تكن هجمات كبيرة، بل ما يكفي لتضليل الآخرين. والمثير للسخرية أن نِمِيسيس قد تطورت لتغدو معياراً مشوّهاً لنزاهة الشركات. فلم يعد أحد يثق بمنظّمي الأعمال الأذكياء بل بنِمِيسيس أحنذا؛ فما تقوله هذه المجموعة صحيح بدون شك.

ولم تجد أجندا أي مساوئ ارتكبتها بارين. لم أع قطّ كم يمكن للإنترنت أن تكون قوة للخير!".

وأطلق ضحكة أشبه بالنعيق. كان رأسها يهتزّ، وعلى وجهها أمارات الانسحاق.

"وماذا حدث بعد ذلك؟ وردت رسالة بشكل غير متوقّع إلى موقع نِمْسِيس من ابنتي الصغيرة، أميرتي راشيل، تسأل عما إذا كان بإمكانها الانضمام إلى القوة، والعمل لصالح أجندا. ما كان الأمر ليكون أكثر إتقاناً حتى لو قمتُ بكتابة السيناريو بنفسي، السيناريو الحُلُم. عليك إطلاق بعض البخار، والقيام بمغامراتك الصغيرة، وخوض معركة الخير، في حين أنك كنت تعملين لصالح الشركة. أي إنك عدت إلى حظيرة الخراف مجدداً، عدت إلى حيث تنتمين".

كانت ترتعد وقد أصبح وجهها بلون الرماد، والغلوك متدلّ إلى جانبها كما لو أنها لم تعد تملك القوة لحمله. لقد بدا الأمر كما لو أنها عادت إلى المنزل الفخم مجدداً، وكما لو أنها مستلقية على السرير وقد التفتّ حول نفسها صغيرة، وضعيفة، وعاجزة، ووالدها يعتدي عليها مع استحالة المقاومة.

"وتبقى حقيقة أنه أيّما يكن ما أحببت أن تفكري فيه، فأنت لم تخرجي من الحظيرة قطّ". تابع محرّكاً إطار المشي إلى الأمام نصف خطوة، والدولاب يصرّ في أثناء دورانه. "في الحقيقة، كنا نراقبك على الدوام، يا راشيل. فمنذ لحظة مغادرتك المنزل، لم تمر لحظة واحدة من دون أن أعرف بالتحديد مكانك وما تفعلينه ومن الذي تتحدثين إليه أيضاً. في كل تلك المجموعات التي انضمت إليها، وتلك المسيرات التي شاركت فيها، كان هناك أشخاص يراقبونك عن كثب. وفي مغامراتك الصغيرة في نِمْسِيس، كان هناك على الدوام خبراء على أتم الاستعداد للتدخل عندما تسوء الأمور. ملاذك في النقب زرع بالميكروفونات والكاميرات السريّة من الأعلى إلى الأسفل. هكذا اكتشفنا أمر ريفكا كلينبرغ. ليس هناك شيئاً قلّته أو فعلته لم أسمعته أو أراه. لقد سمعتُ ورأيتُ كل شيء يا راشيل. كل شيء. أنت...".

وتحرك صدره صعوداً ونزولاً، وبدا الأمر كما لو أن أهدابه تحفق.

"يا الله! كم أنت جميلة! أنت جميلة جداً يا حبيبي. لا فكرة لديك عن مدى رغبتني في...".

فانحنت وتقيّأت على الأرض الفولاذية لسطح السفينة. وهمّ بجر قدميه إلى الأمام مرة أخرى، ولكنها رفعت المسدس وصوّبته نحوه. "لا تقترب!" صاحت. "لا تقترب، أيها اللعين الكريه...".

وتقيّأت مجدداً.

"دعيني أساعدك، يا راشيل، رجاءً".

"لا تقترب".

وهز رأسه في ما يشبه معارضة والدٍ متألم.

"أعرف أن الأمر صعب يا حبيبي. ولكنه واقع الأمور. كما قلتُ، نحن نملك كل شيء، ونراقب كل شيء. لا فائدة من مواجهة الأمر. لا فائدة من المقاومة. إنه قدرك. لا يمكنك الفرار من قدرك. ستعودين إلى المنزل يا راشيل. رجاءً، لا تصعّبي الأمر على نفسك. اقبلي واقعك. عانقيه".

فانتصبت أمامه، ماسحةً فمها بكمّها. وللحظات، وقف الاثنان وجهاً لوجه، بارين يتسم بلطف، وابنته محطّمة ووجهها شاحب. وبعد ذلك، وبإيماءة بالرأس، رفعت المسدس وسدّدت وأطلقت النار.

وحدث انفجار معدني مع تحطّم قفل الحاوية.
"ما...".

شرع بارين بالاستدارة وهو يجرّ قدميه، محاولاً التحقق مما حدث. فصدارت حوله، ودنت من الحاوية، ونزعت القفل المحطّم وفتحت البابين. أمامها، كان بن - روي وخليفة واقفين جنباً إلى جنب، مُربكين.
"اخرجوا!". أمرت.

فتردداً، غير واثقين مما يتعيّن عليهما القيام به.
"اخرجوا!".

فأذعنا.

"راشيل، ماذا...؟".

وسُمع وقع خطوات راكضة مع قدوم الحارسين من وراء برج منصة ربّان السفينة، بعد سماعهما صوت الطلقة النارية. فوقفت جانباً، وصوّبت عليهما، ثم أطلقت النار بدقة متناهية في أثناء خروجهما من الضباب، فتلقى أحدهما

رصاصه في جبينه والآخر في عينه، وسقطا جثتين هامدتين. توجهت إليهما، وانتزعت مدفعي هيكلر الرشاشين من أيديهما، ورمتهما للتحريين. وسمعت صيحات في الأسفل، ووقع خطى رجال ينتعلون جزمات ويركضون في اتجاه المعبر الجسري.

"غادرا المكان، من ذلك الاتجاه. فليس هناك حراس".
وأومات بيدها في اتجاه مقدّمة السفينة. تردد التحريان مجدداً، فكررت الأمر للمرة الثانية.

"تعالى معنا"، صاح بن - روي.

"اذهب، أيها المعتوه اللعين!".

أمسكت قميصه وسحبته عبر سطح السفينة، وتبعهما خليفة. وفي أثناء مرور هذا الأخير بجانب بارين، صوّب الهيكلر على الرجل المُسنّ. ودخل نزاعاً مع نفسه، محاولاً اتخاذ قرار بشأن إطلاق النار عليه مع وجود فرصة سانحة. فعرفت ما يدور في ذهنه ودفعت الفوهة بعيداً.

"دعه لي"، قالت. "اذهبا. الآن".

والتقت نظراتهما لجزء من الثانية. ومن ثم، وبإيماءة بالرأس تتم: "شكراً لك".
وانطلق وراء الإسرائيلي. استمرت بمراقبتها حتى ابتلعهما الضباب، وعادت بعد ذلك إلى والدها.

"راشيل، لم يكن يُفترض بك في الواقع...".

"اخرس".

اقتربت منه شاهرةً سلاحها. كان وَقَع الأقدام المُسرّعة يقترب، غير أن هذا الأمر لم يكن يعني أي شيء لها. إنها في غرفة مع الوحش، وكل شيء آخر في الخارج، وهذا حالها عندما كانت فتاة صغيرة. دنت منه مباشرةً، ووضعت فوهة الغلوك على جبينه، فوقف هناك فحسب، منحنياً على إطار المشي، ومُميلاً رأسه قليلاً، وعلى وجهه مسحة كهو وليس الخوف.

"آه يا راشيل، يا راشيل! هل هذا ما تريدني حقاً؟".

إنه ذلك الصوت الرقيق المهدئ نفسه الذي اعتاد استخدامه في أثناء اعتدائه عليها. إنه صوتُ إساءة المعاملة.

"هل هذا ما تريدني يا راشيل؟ إذا، رجاءً، تابعي إذا كان هذا الأمر سيسعرك بالتحسن يا حبيبي. اختلقي كل أنواع الخطايا التي تعتقدين أنني ربما أكون قد ارتكبتها. لا أبا لي بذلك. لا أبا لي البتة. فكما قلتُ لك، العائلة هي ما يهمني. ومعك، أعرف أن العائلة ستكون بين يدين أمينتين. أفضل الأيدي. إذا، تابعي يا راشيل. أريح قلبك المتألم. اطردي شياطينك. وبالنسبة إليّ، سأموت سعيداً لمعرفتي أنني أورت بارين من خلالك مستقبلاً زاهراً. يا الله! أنت تجعليني أفتخر بك".

ونظر إليها بوجه مُشرق.

كان هناك توقف قصير عملت خلاله على تقوية عزيمتها، وتقبّل واقع أن لا سبيل آخر لديها للخروج من هذا الوضع، وأنه يتعيّن عليها القيام بذلك إذا كانت تريد التحرر من الشبكة العنكبوتية التي حاكها حولها. وبعد ذلك، نظرت إليه بوجه مُشرق؛ على نحو غير متوقّع.

كان هناك ظل من الشك في عينيه.

"راشيل، ما...؟".

"وداعاً يا أبي العزيز".

لقد بدا مُربكاً للحظات. ومن ثم، اتسعت عيناه فجأةً من فرط الذعر عندما رفعت السلاح عن جبينه، وطوت ذراعها، ودسّت فوهة المسدس في فمها.

"آه، يا الله! راشيل، لا تجرّوي...".

ودوى انفجار مُصمّ للأذان، وتلوّث وجه الرجل بكسر العظام والدماء، فيما سقط جسدها بعيداً عنه؛ مُحدثاً صوتاً مكتوماً على سطح السفينة.

* * *

كان خليفة وبن - روي في منتصف المسافة التي تفصلهما عن آخر السفينة، ويلفهما الضباب، عندما دوى الطلق الناري وراءهما. وسُمع الهتاف العالي "راشيل!"، تلتها صرخة عميقة تعبّر عن الألم؛ كما لو أنها زئير حيوان مُصاب بجراح مميتة.

فتوقفا وتبادلا النظرات، غير متأكّدين مما حدث. وسُمعت صرخة عميقة أخرى، ومن ثم نداء تردّدت أصداؤه في الأرجاء كما لو أنه يُطلق عبر مكبّر صوت: "اعثروا عليهما! اعثروا على الحيوانين القاتلين!".

وشرعا بالركض.

وحين بلغا مقدّمة السفينة، تلمّسا طريقهما في اتجاه المعبر الجسري. وما كادا يسلكانه حتى سمعا صيحات في الأسفل ووقع أقدام. لقد أرشدتهما المرأة إلى مكان غير مناسب للهرب. كان هناك عدد كبير من الحراس الذين بدأوا يصعدون من الأسفل.

تراجعا، منسحبين إلى المثلث على سطح السفينة المؤلف من مقدّماتها والكُؤات الأرضية لمستودعات الحمولات. كانت الرؤية في الضباب لا تتعدّى بضعة أمتار قليلة، ولكنهما لم يكونا بحاجة للتحقق من أنهما قد وقعا في شرك. وسُمِعَت صيحات ووقع خُطى إلى يسارهما. وكانت هناك أصوات مماثلة أمامهما تقترب على امتداد جانبي السفينة. "اعثروا عليهما! اذبحوهما!"

نظرا إلى بعضهما، ومن ثم انفصلا تلقائياً من دون قول أي شيء. فتوجّه بن - روي إلى اليسار مغطياً أعلى المعبر الجسري والقناة الضيقة على سطح السفينة بين الدرازين الجانبي للسفينة وعنابر الحمولات المفتوحة. وتولّى خليفة مهمة مراقبة القناة القائمة بجانب الميناء.

حدّقا بالظلمة وقد شهر كل منهما مدفع هيكler الرشاش، مُميلين رأسيهما إلى الأعلى، ومُصغّين. مرّت عشرون ثانية مكدّرة من التوتر، دنت خلالها أصوات خطوات الرجال منهما أكثر فأكثر، فيما ضاق الخناق حولهما بلا رحمة. وبعد ذلك، لاح شخصان فجأة في أعلى المعبر الجسري، فأطلق بن - روي النار عليهما من مسافة قريبة جداً وأرداهما. ورأى خليفة حركة أيضاً وأطلق رَشْقاً من الطلقات. فاستعر إطلاق النار حولهما، وكان الجوّ يتذبذب بأزيز الطلقات النارية وصليلها لدى اصطدامها بالمعدن، فيما شقّت شُهْبٌ بيضاء ناجمة عن فرقعات عابرة حجاب الضباب. فاحتسّى التحريّان وراء الجدار الفولاذي الوقائي والكُؤات الأرضية لمستودعات الحمولات، وكانا يمدّان رأسيهما لإطلاق النار ثم يحتميان مجدداً. وتقدّم رجال بارين على امتداد جانبي السفينة وعلى المعبر الجسري فقط، تمكّن الاثنان من الاحتفاظ بموقعيهما بالرغم من أن المهاجمين يفوقنهما عدداً إلى حد كبير. باستطاعتهم القيام بذلك ما دامت الذخائر متوفرة لديهم، ولكنها تتناقص بسرعة.

"غطني!" صاح بن - روي.

مُطْلِقاً رَشَقاً أخيراً على امتداد جانبه من السفينة، انتقل خليفة إلى جانب بن - روي وواصل إطلاق النار، فيما ركع الإسرائيلي، وتدحرج على سطح السفينة وصولاً إلى أعلى المَعْبَرِ الجسري، وتمسك بإحدى الجثث الممددة هناك وسحبها ووضعها وراء الكوة الأرضية. وكرر العملية مع الجثة الثانية، فيما الطلقات النارية تصلصل في الأرجاء. وتدحرج خليفة ليغطي القناة القائمة إلى الجانب الأيمن، وربّت بن - روي على الجثتين. كان كل من الرجلين المقتولين يحمل أم بيبي 5 مع قِراب مسدس، وسلاحاً يدوياً من طراز سيغ سوير، إضافةً إلى مِمَشْطَي بندقية هيكلر موضوعين في جيوب سُرْتَيْهِمَا الواقيتين، يتسع كل منهما لثلاثين رصاصة. إنها ترسانة قليلة جداً. رمى مدفع هيكلر الرشاش نحو خليفة مع مِمَشْطَي ذخائر، واحتفظ بمماشط احتياطية لنفسه، ثم أطلق رَشَقاً آخر من الطلقات.

باستطاعتها الصمود في الوقت الحاضر على الأقل، وسيحاولان في هذه الأثناء وضع تصوّر لكيفية الخروج من السفينة. تواصل تبادل إطلاق النار لدقائق إضافية قليلة، والتحريان في مآزق حرج، ورجال بارين عاجزون عن الاقتراب منهما. وبعد ذلك، سُمع صوت أقدام منسحبة، وساد صمت مخيف.

"ماذا سيفعلون؟" همس خليفة.

لم يكن بن - روي يملك أي فكرة.

"لن يسمحوا لنا بالمغادرة، إنه أمر مؤكّد".

وضعا أذنيهما على معدن الكوآت الأرضية، وقلباهما ينبضان بسرعة، وهما يحاولان بيأس وضع خطة.

"هل يمكننا القفز برأيك؟" سأل بن - روي.

"هل أنت مجنون؟ إن القفز عن ارتفاع أربعين متراً فيه الكثير من الخطورة. فالرصيف في أحد الجانبين، والصخور في الجانب الآخر، فيما زورق القطر إلى الأمام. سنكون محظوظين إذا كسرنا ظهرنا فقط".

لم يتكبّد بن - روي عناء مناقشة الأمر.

"نحن في مأزق"، كان ذاك تخمينه الوحيد.

واستمر الصمت عشر دقائق تقريباً في أثناء قيام متعقييهما بدراسة خياراتهم كما هو مُفترَض. ومن ثم، تردد فجأةً صدى ذلك الصوت الغاضب عبر سطح السفينة. إنه صوت بارين.

"لا أبالي. أريدكما مقتولين الآن! الآن، هل تسمع؟ قُم بذلك! اقتلتهما! الآن! اقتلتهما! إنه أمر!".

تبادل الاثنان النظرات، غير واثقين مما يعنيه. وجاء الجواب على الفور. إذ سرعان ما شعرا باهتزاز عميق يُنذر بالسوء، وبدأ فولاذ سطح السفينة بالتذبذب تحت أقدامهما مع تشغيل محركات السفينة. وفي الوقت نفسه تقريباً، هدرت الرافعة، وبدأت صناديق الشحن التي تحميها بالانخفاض على غرار كل صناديق الشحن الأخرى على امتداد سطح السفينة، وانطوت فوق العنابر كصف من أحجار الدومينو الساقطة. تراجع الاثنان، وجثما وراء صاري الملاحاة بالأقمار الاصطناعية عند مقدمة السفينة تماماً، الذي يوفر لهما القليل من الحماية. وبينهما وبين برج منصة الربّان، حيث تجمّع رجال بارين، مساحتان فارغتان بطول ملعب كرة قدم، لا يحجبهما أي شيء سوى الضباب.

"إنهم يتوجهون إلى عرض البحر"، قال بن - روي. "وعندما تتوضح الرؤية سنصبح هدفين سهلين. سينالون منا من حيث يقفون على منصة الربّان. ستكون مباراة في الرماية على الديوك الرومية الحية. علينا المجازفة! علينا النزول على الدَرَجات!".

وشرع بالاقتراب من درابزين الميمنة. وفي تلك الأثناء، سمع صيحات بالإضافة إلى هدير المحرك على الرصيف في الأسفل، ومن ثم سُمع صوت اصطدام مُصمّم للآذان وصرير معدن منحرف. شيء ما - من المستحيل معرفة ماهيته بالتحديد - انتزع المعبر المتحرك من جانب السفينة، قاطعاً عليهما طريق الفرار الوحيد. "قُضي علينا". قال بن - روي.

ازداد صوت المحركات ارتفاعاً، كما ازداد اهتزاز سطح السفينة تحت أقدامهما، وازدادت أيضاً سماكة الضباب، ولم يُدركا أنهم يتحركون فعلاً إلا عندما بدأت أنوار مصابيح الرصيف تخبو شيئاً فشيئاً، منزلّقين بعيداً عن المرسى في اتجاه

البحر. وعندما تجدد إطلاق النار، وانهمر وابل متواصل وعشوائي من الرصاص على امتداد سطح السفينة، التزم الاثنان مكانيهما في مخبئهما الضيق وراء صاري الملاحظة.

"إلى أي مدى يمتد الضباب برأيك؟" سأل بن - روي.

"كيف لي أن أعرف؟!".

أطلق خليفة وابلين من الطلقات النارية من الهيكلمر. كان باستطاعتهم الشعور بأن السفينة بدأت تتموج، وأنبأتهما الرفعات التي لا تلاحظ بسهولة بأنهما يتعدان عن الشاطئ في اتجاه أمواج أكبر حجماً. فبالاعتماد على صوت المحركات، كانت سرعتهم في ازدياد، والسفينة تجري في الاتجاه المعاكس؛ لن يضيّع رجال بارين الوقت في تحويل مسار السفينة. كانت أمامهما دقائق قليلة ربما، أو أقل.

"علينا أن نقفز"، قال بن - روي.

لم يُجب خليفة، بل كان يراقب غرفة التحكم بالسفينة بواسطة الهيكلمر.

"علينا أن نقفز"، كرر الإسرائيلي. "إنها فرصتنا الوحيدة".

"إنها قفزة من ارتفاع أربعين متراً! سوف نُقتل!".

"سوف نُقتل إذا بقينا هنا! علينا القيام بذلك".

"مستحيل! سنحسم الأمر بالقتال!".

"لا يمكننا حسم المسألة أيها الغبيّ العين! هناك عدد كبير منهم. لديهم قوة

نارية كبيرة جداً. علينا أن نقفز قبل أن نخرج من الضباب. هيا بنا!".

وأمسك سترة خليفة، ولكن المصري أبعد يده.

"اقفز إذا كنت تريد ذلك، أما أنا فسأجازف هنا".

"خليفة!".

"لن أقفز!".

"علينا القيام بذلك!".

"لا!".

"لم نبتعد ميلاً واحداً عن الشاطئ بعد. سوف...".

"لا! لا!".

"باستطاعتنا أن نسيح...".

"تَبَّ، لا أُجيد السباحة! هل تسمعي؟ لا أُجيد السباحة. وأنا أخاف الماء".
ورمق بن - روي بنظرة ذليلة غاضبة، ومن ثم استدار وأفرغ محتويات مِمِشَط الهيكَلر.

"اذهب أنت، أما أنا فسأبقى"، تتم مُخرجاً مِمِشَط البندقية الفارغ وواضعاً مِمِشَطاً مليئاً. "لا تقلق في شأني. هيا، اذهب".
حدّق به بن - روي للحظات. وبعد ذلك، انتزع الهيكَلر من قبضته ورماه جانباً.

"ماذا تفعل بحق الله!؟".

أمسك الإسرائيلي سترته بإحكام، وقرّب وجهه من المصري.
"سنقفز يا خليفة. هل تفهم؟ أنا سبّاح جيد. قُم بما أطلب منك القيام به، وسنكون بخير. إذا بقينا هنا فسيقضى علينا بالتأكيد. على الأقل، لدينا فرصة للنضال في البحر".

فتح خليفة فمه، مستعداً للاعتراض، وسرعان ما أطبقه مجدداً. وارتدّت رصاصة على صاري المِلاحة على بُعد سنتيمتر واحد من رأسه. ومَرّت ثوانٍ عديدة، ومن ثم سأل خليفة:
"هل سُمِسك بي؟".
"بالتأكيد".

فرمقه خليفة بنظرة غير متحمسة. وبعد ثوانٍ قليلة، مدّ يده إلى داخل سترته، وأخرج دفتر مدوّنات سامويل بينسكر الذي كان يضعه طوال الوقت في جيبه الداخلي.

"خذ هذا. ربما لن أتمكن من... تعرف... إنه يُشير إلى مكان...".
فأخذ بن - روي دفتر المدوّنات، وأعادته إلى داخل ستره خليفة.
"سوف نحيا يا خليفة. ثِق بي. سنعود معاً إلى منزلينا. الآن، عندما نصطدم بالماء لا تقاوم، اتفقنا؟ استرخ فحسب ودعني أوجّهك. اخلع حذاءك".
خلعا حذاءيهما. وهذا إطلاق النار بشكل مفاجئ من الجانب الآخر للسفينة. مستفيدين من ذلك، وقفا وتسلّقا درابزين مقدّمة السفينة. تحتهما، كان هناك فراغ من الضباب مع هدير مياه مُزبدة.

ألقى بن - روي الهيكل من يده، وأمسك سترة خليفة.
"سأعدّ إلى الرقم ثلاثة. اقفز إلى أبعد مسافة ممكنة. هل اتفقنا؟".
"تقريباً".

"واحد...".

"الله أكبر!".

"اثنان".

وتحدّد إطلاق النار.

"ثلاثة!".

واقفزا. في أثناء ابتعادهما عن سطح السفينة، شعر بن - روي بضربة حادة وحارقة في الناحية الخلفية لساقه اليسرى، بين أربيته والناحية الداخلية لردفه. وفي لحظة من الإرباك، ظنّ أنها لسعة حشرة كبيرة. لم يكن يملك الوقت الكافي للتحقق من ذلك لأهمّما كانا يهويان في الظلمة في اتجاه البحر تحتهما. وفي أثناء سقوطهما، تخيّل خليفة أنه لا يزال في المنجم، وأنه لم ينجح في القفزة ويندفع بسرعة إلى أسفل الفتحة، وأن كل شيء وكل ما حدث مذكّك الحين مجرد حلم؛ الرصيف، السفينة، المرأة المنتمة إلى نيمسيس، بارين. وكان هناك تشوش أخير في مخيلته قبل أن يصطدم بأسفل فتحة التهوّة وتنطفئ أضواؤه إلى الأبد.

وبالنسبة إلى بن - روي، لم تجد الفكرة الوقت لتتجدّر. فقد كانت هناك فترة مرحلية من التشوش الكامل، وبدأ كل شيء - الضباب، المياه المُرْبِدة، هدير المحرّكات، فرقة الطلقات النارية، الريح في وجهيهما - مشوشاً مع أي شيء آخر؛ لدرجة أنه استحال عليه جمع الخيوط المنفصلة.

ومن ثم، في أثناء صرير عظامهما، وترنّج معدّتيهما، اصطدما بالماء وغطسا. لقد فصلتهما قوة الاصطدام عن بعضهما، دافعة بن - روي في اتجاه، وخليفة في اتجاه آخر. وللحظات وجيزة ومشوشة، سمح المصري للبحر بجرفه، وكان جسده يغوص في ما شعر بأنه عمق هائل، فيما كانت المياه تغمره وتغطي وجهه وفمه وعينيّه، وتُحرّك شعره كدوّامة، وتبدو كما لو أنها تدفعه وتسحبه في آن. بعد ذلك، وبالرغم مما قاله بن - روي له، استيقظت الرغبة في الحياة لديه، وشرع بالنضال، فلوّح بذراعَيْه وساقَيْه، راکلاً المياه، ومحاولاً بجّاج إبعادها عنه، وسحب

نفسه إلى الأعلى في اتجاه سطح الماء. كانت انفقايع تندفق من فمه، ورثناه تعملان بجهد، ودبّ فيه الدُعر. كان باستطاعته سماع نفسه وهو يصرخ - صراخ مكبوت ملاً أُذنيه ورأسه - والشعور بنفاد قوته لدى تحريكه أطرافه لدرجة أن حركاته بدأت تتباطأ ما إن شرع بالنضال. واستمر بالنضال، محاولاً التشبّث بالفراغ، ومتحرّكاً بشكل لولبي، ومنعطفاً حتى فقد كل قدرة لديه على تحديد الطريقة المناسبة التي ترفعه ليصل إلى الهواء. خارت قواه أخيراً، وساد هدوء غير عادي. فتدفقت مياه البحر إلى داخل حلّقه، وأصبح ذهنه ضبابياً، وامتلاّت عيناه بخليط من الألوان، وشعر بيديه وقدميه تنجرف بعيداً عنه كما لو أنه يتحلل ببطء.

"هذا ما حدث لعلي"، وجد نفسه يفكر. "فما مرّ به ابني أخّيره الآن. أنا ذاهب إلى فتاي الصغير. سنكون معاً مجدداً".

لقد منحته الفكرة شعوراً غريباً بالاكتفاء، فاستسلم لقدره، وغرق في ملاذ عقله بينما كان يغرق في أعماق البحر، وعندها شعر بشيء ما يمسك ياقته. وكانت هناك عملية جَذْب كما لو أنه يُنتزع من نوم مريح. وفجأة، خرج رأسه من تحت الماء، وسعل وغصّ في أثناء محاولته تنشقّ الهواء.

"لا تقاومني يا خليفة!". وبدا صوت بن - روي بعيداً على نحو غريب كما لو أنه صادر من مكان ناء. "استرخ. استرخ فحسب. أنت بخير. لقد أمسكت بك". وبطريقة ما، وضع الإسرائيلي ذراعه تحته، وجعله يعم، مُبقياً رأسه فوق سطح الماء في أثناء لهاته ونضاله للتمكن من التنفس، وإخراج الماء من فمه ومنخريه.

"برفق. دَعني أحملك. ثِق بي. أنا أُمسك بك. أنت في أمان". وبدا الصوت أكثر قُرباً الآن. كان لا يزال يسعى للتنفس، ولاستعادة وعيه الكامل.

"أُمسك بي يا بن - روي. رجاءً، أُمسك بي!". وتمسك الإسرائيلي، غير آبه بمدى ظهوره بمظهر مثير للشفقة. كان يائساً كي لا يعود إلى تحت الماء مرة أخرى.

"استرخ بحق الجحيم! رجاءً، عليك أن تسترخي وتساعدني وإلا لن أتمكن من القيام بالأمر بمفردي. استلقِ على ظهرك برفق. أنا أُمسك بك. أنت في أمان".

قالاً إياه، وضع بن - روي ذراعه تحت حلق خليفة، وطفأ الاثنان على سطح الماء، وساقا الإسرائيلي تتحركان تحته. هناك شيء مطمئن في الحجم الكبير للرجل وقوته، وبدأ خليفة يهدأ، ساحماً لبن - روي بالإمساك به وتوجيهه. "جيد. استرخ فحسب. واصل التنفس".

كان لا يزال باستطاعتهم سماع هدير محرك السفينة وفرقة الطلقات النارية من حين لآخر. كانت الأصوات تزداد بُعداً شيئاً فشيئاً، وبن - روي يتحرك في الاتجاه المعاكس. كانت المياه غير باردة كثيراً، وتلاطم الأمواج عالياً من دون أن يكون البحر هائجاً. لقد ساعدهما الضباب. ولو تمكن خليفة من رؤية الأضواء على الشاطئ ومدى بُعدهما عنها لأصيب بالدُّعر. ولكن مدى الرؤية لم يكن يتخطى أمتاراً قليلة في مختلف الاتجاهات، فهدأ نفسه متوهماً أن برّ الأمان ليس بعيداً جداً. "أعتقد أنه قد يكون باستطاعتنا القيام بالأمر"، قال.

"باستطاعتنا القيام بذلك بالتأكيد. أنت وأنا. فريق النُجبة".

"أمل ألا تعود السفينة وتمرّ فوقنا".

"فلنعالج مشكلة تِلَوّ الأخرى".

جذّف بن - روي برفق لدقائق قليلة، ومن ثمّ أبطأ وتوقف، محرّكاً قدميه في الماء، ومناضلاً لإبقاء خليفة طافياً.

"هل أنت بخير؟". سأل المصري.

"أنا ألتقط أنفاسي قليلاً. إذا كان باستطاعتك تحريك ساقيك قليلاً، فإن ذلك

قد يساعدني".

حاول خليفة الركل بقدميه، فانتهى به الأمر متخبّطاً في الماء، وجاراً بن -

روي معه تحت سطح الماء.

"لا تقلق"، سئل بن - روي وهو يعود إلى سطح الماء. "ربما يكون من

الأسهل لو تركت لي مهمة القيام بذلك".

وواصل التجذيف برفق، ساحباً خليفة معه، وساقاه تركلان، علماً أنه بدا

لخليفة أن إحدى ساقيه تتحرك بصعوبة أكثر من الأخرى. انقضت دقائق قليلة

أخرى، وبعد ذلك أبطأ الإسرائيلي وتوقف مجدداً وهو يلهث.

"ما الأمر يا بن - روي؟".

"أعتقد أنني أصبت برصاصة عندما قفزنا. لا شيء يدعو للقلق. إنها تسبب لي القليل من الألم. لو كان باستطاعتي التقدم ببطء..."

وتمايل للحظات مهمهما، ومناضلاً لإبقاء نفسه وخليفة فوق سطح الماء، ثم واصل التحذيف مجدداً. هذه المرة، تمكّن من الصمود لمدة دقيقة واحدة فقط قبل أن تخور قواه.

"آسف، يا خليفة، أحتاج فقط إلى..."

ونزل رأسه تحت الماء، ثم ظهر مجدداً. حاول خليفة مساعدته، وركل بساقيه، ولكنه كان يزيد الأمور سوءاً. لقد سعلًا وغمغما، وعادا للتمدد على ظهريهما مجدداً بطريقة ما، وأحدثا رذاذاً لمدة ثلاثين ثانية أخرى قبل أن يتوقف بن - روي مرة أخرى. كان يناضل بشكل سيئ.

"دعك مني"، قال خليفة. "انجُ بنفسك. دعك مني فحسب".
"لا تكن سخيّاً".

"لا تسير الأمور بشكل جيد يا بن - روي. نحن بعيدان جداً. أنقذ نفسك على الأقل".

"أنا بخير، لو كان باستطاعتك فقط..."

وشرع خليفة بدفعه، محاولاً إرغامه على الذهاب بمفرده، ولكن بن - روي لم يسمح له بذلك. وناضلاً للحظات، وكانت الأمواج المتلاطمة تبتلعهما تارة وتلفظهما طوراً، وهما يلهثان ويتخبطان. وبعد ذلك، تسمّر بن - روي في مكانه فجأةً.

"ما هذا؟!"

كان هناك شيء ما يلوح خارج الضباب؛ شيء ما كبير وداكن، كبير جداً، ينساب في اتجاههما على سطح الماء. فطن خليفة مذعوراً، أنه قرش أو حوت، ومذّب ساقيه إلى الأمام لركله. وفي أثناء قيامه بذلك، ارتفع ذاك الشيء على إحدى الموجات وتوجّه نحوهما مباشرةً.

"ورد النيل!". صاح، وتحول خوفه إلى سعادة. "الحمد لله، ورد النيل!"

لم يكن بن - روي يملك أي فكرة عما يعنيه ذلك، ولم يأت به. فكل ما يهّمه هو أنه بساط كبير عائم من النباتات ظهر بأعجوبة من العدم؛ تشابك كثر من

الجدور والأوراق بدا قابلاً للوعوم على سطح الماء عندما ضربه بيده. إنه أشبه بطوف. متنهّداً ومتخبّطاً ولاهثاً، ويشعر بنوبات من الألم في ساقه المصابة، تمكّن بطريقة ما من رفع خليفته في اتجاهه، وبذل المصري قُصارى جهده لوضع جسده بأكمله حتى ركبتيه على الطوف. ثم شقّ بن - روي طريقه إلى الجانب الآخر، ورفع نفسه في اتجاه الطوف، متمسكاً به ومتسلّقاً إيّاه بصعوبة إلى أن خرج من الماء حتى مستوى خصره.

"الحمد لله".

لقد استلقيا هناك للحظات، ملتقطين أنفاسهما، والنباتات تتماوج برفق تحتها كما لو أنّها فرشاة لايلو كبيرة، وهدير السفينة لا يزال مسموعاً وبعيداً؛ علماً أن الطلقات النارية توقفت كما يبدو. وبعد ذلك، بذل بن - روي جهداً للاستدارة، وتحسس الناحية الخلفية لفخذه. كان هناك ثقب في سروال الجينز، وشعر بتدفق الدماء. لم تكن إصابته بالغة، وقد أراحه ذلك. لم يستطع إيجاد أي جرح آخر يشير إلى خروج الرصاصة.

"هل أنت بخير؟". سأل خليفته.

"أفضل بكثير الآن بعد انتهاء درس السباحة".

"لقد أُصبت بالتأكيد. أليس كذلك؟".

فأكد له بن - روي ذلك، ولكن الإصابة لم تكن بالغة جداً.

"أعتقد أن الرصاصة ما زالت في الداخل، ولكنني لا أفقد الكثير من الدماء، ولا أشعر بألم قويّ كما في السابق. باستطاعتي وضع مِرْقاة* حولها...".

متلمساً بيده، غرق وجهه في بسات الأوراق، وتمكّن من انتزاع جِزْامه ولَفّفه حول الناحية العلوية لفخذه. عاد بالذاكرة إلى الورا للحوادث عندما ظنّ أن موتهما محتوم. أما الآن، فها قد خرجا من الماء - جزئياً - وشعر باطمئنان أكبر. لا يمكن أن يكونا بعيدين جداً عن الشاطئ، وعندما تنقش الرؤية فباستطاعتها الركض معاً وشق طريقهما على متن الطوف، وإلا فسينتظران ليتمّ انتشالهما. كان قلقه الوحيد أن تعود السفينة وتمرّ فوقهما، ولكنه بحر فسيح وسيكونان بخير كما

* شريط مطاطي يلفّ بإحكام حول موضع الإصابة لوقف سيلان الدم.

يُؤمل. فكما سبق له أن قال لخليفة، فلنعالج مشكلةً تَلَو الأخرى. إنّه بأمان في الوقت الحاضر، وشعر باسترخاء غير عادي، وبأنه مُستنزف القوى، ولكنه مسترخ ومبتهج تقريباً. وشدّ الحِزام بإحكام.

"كانت نِمْسِيس أجندا تلك منبهاً لنا إلى حد ما، أليس كذلك؟" همهم رابطاً الحِزام. "لقد أخطأتُ التقدير، ولا أعتبر ذلك تزكيةً لتدريس أصول التحقيق المتقدم!".

لم يكن خليفة يعرف ما يتكلم عنه بن - روي، ولم يتكبد عناء الاستفهام، بل استلقى على بطنه، ومدّ يده وأمسك يد الإسرائيلي.

"شكراً لك لإنقاذك حياتي مرةً أخرى".

فلوّح بن - روي بيده.

"القاتورة في مركز الشرطة".

تمايلا لفترة وجيزة، مشبوكي اليدين، والضباب يلفهما كبطانية، ولم يسمعا سوى صوت الماء في أثناء قيامهما بالتجذيف. ومن ثم:

"قلتُ بعض الأمور يا بن - روي، عبر الهاتف. بعض الأمور السيئة. رجاءً...".

"كلانا قلنا بعض الأمور السيئة. لننسَ ذلك".

وبعد لحظات:

"مُحِب للنساء".

"وغد".

وضحكا، وقهقهها كزميلين قديمين. كانت ساق بن - روي قد بدأت تنبض بالألم مجدداً، وبقوة، ولكنه لم يبدُ مهتماً. كان يشعر بالسعادة. ما هذا الجنون؟

"سأقوم بكل ما يلزم للمساعدة"، قال بن - روي. "في شأن بارين وزوسير. ستمكن منهما معاً. أعدك. لأجل علي".

واشتدت قبضة المصري على يد بن - روي.

"شكراً لك، يا آري. أنت صديق مُخلص".

"وأنت أيضاً، يا يوسف. إنك الأفضل".

فطوال مدة معرفتهما ببعضهما التي امتدت أربع سنوات، كانت تلك هي المرة الأولى التي يستخدمان فيها اسميهما الأولين؛ حتى إنهما لم يلاحظا ذلك.

وساد صمت طويل آخر، وهبت ريح خفيفة بدّدت الضباب. ومن ثم، رفع بن - روي رأسه بعد أن تبادرت إلى ذهنه فكرة فجائية.

"اسمع، ربما ليس هذا هو الوقت المناسب لذلك، ولكنني كنت أريد أن أطلب منك أمراً ما، معروفاً صغيراً لأجل الطفل. لا أعرف إذا كنت تريد أن...". ولم يُنه الجملة. فقربه كان هناك صوت شخير منخفض، والمصري نائم.

"تَبّاً"، تتمم بن - روي.

وهزّ رأسه، ووجّه صفة لعوب لرفيقه على خدّه، ومن ثم تلوّى واستلقى على ظهره، وساقاه متدلّيتان في الماء، وذراعا ممدودتان في اتجاه اليمين واليسار. لقد شعر بأن التّزف يزداد قوة حتى بوجود المرقأة، ولكنه لم يكثرث. لماذا القلق؟ إنه على الطّوف، وصديقه بجانبه، وكلاهما حيّان، والمياه ليست باردة جداً، وحركة البحر تبدو جيدة تحتها.

مرّت دقائق إضافية أو ربما ساعات، لا فكرة لديه، ولم يهتم. وهبّت الريح مرة أخرى، أكثر قوة هذه المرة، فضحك بصوت مرتفع لأن فجوة فُتحت في الضباب فوقه مباشرةً وتمكن من رؤية النجوم. عناقيد سحرية مُفرحة من نجوم زرقاء متألّفة شبيهة بذبابات سراج الليل. إنه أجمل شيء رآه يوماً. ورفع يده في اتجاهها.

"سأكون هناك"، همس. "أعدك. كنت موجوداً على الدوام لأجلك، يا فتاي الصغير، أو يا فتاتي الصغيرة. لن أخذلك أبداً. أعدك".

وابتسم مع انقشاع الرؤية، وظهور المزيد من النجوم في كبد السماء وامضة ومتألّفة؛ درب من الأضواء يدعوه للعودة إلى الوطن حيث الذين يحبهم. وبدأ يدندن.

في وقت متأخر من صباح اليوم التالي، تمكّن خليفة أخيراً من العودة إلى الأقصر.

كان بن - روي قد طار إلى هيوستن مباشرةً لتحريك الأمور ضد بارين. ولكن خليفة أراد أن يكون مع عائلته، فأبلغ الإسرائيلي بأنه سيكون على متن رحلة جويّة تُقلع في وقت متأخر.

وحالما رأى زينب واقفة خارج مجمّعهم السكني، علم أن أمراً ما حدث في غيابه. فحاول أن يسألها عما يجري، ولكنها أسكتته ولوّحت له في اتجاه الأعلى.

"تعال بسرعة"، قالت. "عليك أن ترى".

تبعها إلى داخل الشقة. كان دي في دي ماري بوبينز الخاص بعلي مُشغلاً بأعلى صوته في غرفة الجلوس على أغنية لنذهب ونطير طائرة ورقية بكلمات الترجمة المصرية: سنرسل طائرنا الورقية إلى السماء. وشرع يطلب منها تخفيض الصوت كي لا تُزعج المرأة في الطابق السفلي، ولكنها أسكتته مجدداً. "عليك أن ترى"، كررت. "لن تصدّق ذلك".

ودنوا من باب الحمام، وسمع صوت مياه جارئة في الداخل. "هيا، يا زينب، كفى عبثاً. ما...".

وعلقت الكلمات في فمه في أثناء قيامها بفتح الباب. كان صنبور الدُش مفتوحاً، ورذاذ الماء يتطاير على الأرض. وتحت الدُش اندفع رأسه المبتل إلى الوراء ضاحكاً...

"علي"، غصّ خليفة، واستند إلى إطار الباب. "ابني! ابني!".

وقف هناك للحظات. ومن ثم صرخ صرخة عميقة وجائحة ومبتهجة، وهرع إلى داخل الغرفة، وقفز إلى تحت الدُش بملابسه، ضاماً ابنه في عناق ملؤه الغبطة، مُجهشاً بالبكاء من شدة الفرح. وسقطت المياه كالشلال على شعره ووجهه، مبلّلة إياه تماماً، وداحلة إلى عينيّه وأنفه وفمه، وجاعلة إياه يسعل ويغرغر، من دون أن يأبه بذلك.

"علي!". صاح. "علي! علي!".

واستيقظ.

إنه الفجر. كان في فمه مذاق الملح، وملابسه مُشبعة بالماء، وحوله بحر أزرق مائل للخضرة ممتد في كل اتجاه. استلقى للحظات مربكاً. ومن ثم، وبعد أن استفاق جيداً، بدّل وضعته ومدّ رأسه. وفي أثناء قيامه بذلك، ارتفع ورد النيل على الأمواج المتلاطمة، ورأى خطأً ساحلياً أصفر على بُعد كيلومتر واحد، وربما أكثر قرباً. لم يرَ أي أثر للسفينة ولا حتى للرصيف. لا بد أنهما انجرفا على امتداد الشاطئ في الليل، علماً أنه لم يكن يملك أي فكرة عن المكان الذي يتواجدان فيه. "آري".

واستدار نحو الإسرائيلي، غير أنه لم يكن هناك.

"آري؟"

لا جواب.

مُفترضاً أن صديقه قد علق في مكان ما داخل أوراق ورد النيل، كما علق علي، رفع نفسه بضع بوصات، مُلقياً نظرة على امتداد طُوف النباتات جيئةً وذهاباً.

لا أثر له. فشعر برعدة ذعر.

"آري! بن - روي!"

لا شيء.

حاول رفع نفسه أكثر فأكثر، ولكنه أضاف وزناً على الطُوف واندفعت ذراعاه عبر نسيج جذوع النباتات، وسقط على وجهه وامتلأ فمه بالماء. ربما سبح الإسرائيلي في اتجاه الشاطئ؟ لقد ذهب لإحضار مساعدة بعد تبدُّد الضباب. أجل، لا بد أن يكون هذا واقع الحال. لقد تركه نائماً وسبح نحو الشاطئ. يا للغبي المجنون! وحاول مجدداً رفع نفسه، فاندفعت ذراعاه مجدداً عبر الطُوف إلى مياه البحر تحته. وفي الوقت نفسه، ارتفع ورد النيل ورأى شيئاً ما إلى يمينه على بُعد عشرين متراً تقريباً. في البداية، لم يتمكن من التحقق من ماهيته، ولم يعرف جينز بن - روي وسترته إلا بعد أن رفعته دفعةً أخرى من الأمواج المتلاطمة. كان طافياً هناك، ذراعاه مفتوحتان إلى الجانبين، ووجهه إلى الأسفل، يحدّق في الأعماق.

لا بد أن خليفة لم يكن مستيقظاً تماماً لأن الفكرة الأولى التي تبادرت إلى ذهنه هي أن الإسرائيلي يبحث عن السمك. لقد تطلّبه الأمر بضع ثوانٍ ليدرك أن الفجر قد بزغ. حينئذٍ، أطلق هتافاً يائساً.

"آه يا الله! لا، أرجوك يا الله، لا! آري! آري!"

وحاول الركل بساقيه والتجذيف بإحدى ذراعيه لدفع ورد النيل في اتجاه بن - روي، ولكن بدون جدوى. وكل ما كان باستطاعته القيام به هو الاستلقاء هناك مراقباً جثة صديقه وهي تتحرك صعوداً ونزولاً، فيراها تارةً وتغيب عن ناظره طَوَراً، منادياً اسمه مراراً وتكراراً.

"آري! آري!"

ونادى ابنه أيضاً. فكلاهما يتماوجان معاً ويسببان له حزناً لا يُحتمل.

"آري! علي! آري! علي!"

وظلّ على هذه الحال لمدة ساعة تقريباً، منادياً بصوت أحشّ. وبعد ذلك، كان هناك تلاطم أمواج مرتفعة بصفة خاصة، واقتربت جثة بن - روي منه فجأةً، وباتت على بُعد بضعة أمتار. طفت هناك للحظات، وبدأت إحدى ذراعَيْه ممتدة في اتجاه خليفة - "كما لو أنه يُلقي عليّ تحية الوداع"، كما وصف المصري في وقت لاحق - قبل أن ينزلق صديقه ببطء وسلام تحت الأمواج ويختفي إلى الأبد.

"آري! علي! آري! علي!"

* * *

لقد تمّ انتشاله بعد ثماني ساعات، وفي وقت مبكر من بعد الظهر، من قَبَل مركب صيد خرج من روزيتا. لقد طرح عليه الصيادون الكثير من الأسئلة عما يفعله على جزيرة من ورد النيل. وإجابةً عن أسئلتهم، أخرج محفظته المنتقعة بالماء وشهر بطاقة الشرطة.

فأعطوه بعض الملابس الجافة وتركوه بمفرده.

كان التيار قد دفعه إلى الغرب، وتطلّبهم الأمر ساعة تقريباً ليبلغوا مصبّ النيل. فجلس على كومة من الشباك، يدخّن سجائر حصل عليها من الصيادين واحدةً تلو الأخرى، محدّقاً بخط الساحل، وواضعاً في حوضه دفتر مدوّنات سامويل بينسكر الذي أتلفته الماء وتحولّت أوراقه إلى كتلة عجينية لا تُقرأ بسبب مياه البحر. كان يُفترض به الشعور بالذنب بسبب ذلك. كان يُفترض به الشعور بالكثير من الأمور، ولكنه لم يشعر بشيء.

لقد بقي شيء واحد فقط؛ يقين تام لا يتزعزع بما يتعيّن عليه القيام به.

أنا أذكرك كيف تجري الأمور في هذا البلد، يا خليفة. هناك أشخاص لا يجوز لك المساس بهم سواء أحدثت ثورة أم لا.

سيهتمّ بذلك.

بلغوا مصب النيل، واستداروا جنوباً متجهين إلى وسط النهر. كان رصيف زوسير مرئياً بوضوح على الشاطئ الغربي. لا أثر لسفينة الشحن، بل هناك صندلا نيل راسيان على امتداد الواجهة الأمامية لرصيف المرفأ، وتقوم الرافعات

العملاقة بتحميلهما بالبراميل ببطء. راقب للحظات، غير آبه بالأمر برمته على نحو غير عادي؛ الأقصر هو المكان الذي يحتاج إلى أن يكون فيه. فاستعار أحد هواتف الطاقم الخلوية وأجرى ثلاثة اتصالات.

لقد اتصل أولاً بزينب وأبلغها أنه بخير. وبدأ في صوئها غضباً بسبب الطريقة التي عاملها بها، وارتياحاً لأنه سالم. لم يكن باستطاعته تحديد الشعور الذي يطغى على الآخر، ولم يتكبد عناء اكتشاف ذلك. فأخبرها أنه سيعود إلى المنزل في وقت متأخر من ذلك المساء، وأنهى المكالمة.

أجرى الاتصال الثاني بالسفارة الإسرائيلية من دون ذكر اسمه. أبلغهم بوفاة أحد مواطنيهم في حادث، شرطي يدعى آري بن - روي، من القدس. ولم يُضيف أي شيء، وقال إنه سيتصل في وقت لاحق لتوفير المزيد من التفاصيل.

وكان الاتصال الثالث والأخير بالعريف أحمد ميهي في حقل الرماية التابع لمركز شرطة الأقصر. شرح له ما يحتاج إليه، وقال إنه سيمرّ به عند الساعة مساءً إذا تمكّن من ذلك. وقال له إنه إذا كان باستطاعته تأمين حقيبة نقل، فسيكون ذلك أفضل.

وبعد ذلك، جلس صامتاً وهو يقلّب الأمور في رأسه، محاولاً تصوّر الخرائط التي عرضها الرئيس الحسني عليهم في الأسابيع القليلة الأخيرة، وعمليات الانتشار بالضبط. هناك ثغرة، وكان واثقاً من ذلك، قرب تحتمس الثالث، إضافةً إلى طريق تمتد من الجانب الجنوبي للكتلة الجبلية. من الممكن إحكام القبضة في الدقيقة الأخيرة، وإغلاق الثغرة، ولكن عليه المجازفة.

القانون لا يطال شركات مثل بارين، أو زوسير. لا يطال أيّاً منها. والطريقة الوحيدة للتغلب عليها هي اتباع أساليبها، وتوجيه الضربة.

رسوا في روزيتا قبل الثالثة من بعد الظهر بقليل. مُحفظاً بالحذاء الذي أعطوه إيّاه، استبدل ملابسه المقترضة بملابسه القديمة غير الجافة، ونزل إلى الشاطئ، غير متكبدٍ عناء شكر الطاقم. سار كملاح آلي، واشترى علب دخان كليوباترا من بائع متحوّل، ودخل وسط البلدة سيراً على الأقدام، واستقلّ سيارة أجرة إلى الإسكندرية. وصل إلى المطار بعد ساعة. وبعد ثلاث ساعات، أُعيدت له تذكرة العودة إلى الأقصر.

كان يفكر طوال الوقت بعلي، وبين - روي، والمنجم المليء بالنفائيات السامة، وبالثغرة الموجودة قرب تحتمس الثالث، وبالمحور الذي يحقق التوازن لكل عالمه.

وصل إلى حقل الرماية التابع للشرطة عند الساعة وعشرين دقيقة.
"لا يُفترض بهذا الشيء مغادرة المكان من دون تفويض رسمي"، حذر العريف ميهتي، مُسلماً إياه حقيقة خيش كبيرة. "ولكن، بما أنك من...".
فقبل خليفة الحقيبة، ودسّ دفتر مدونات بينسكر في أحد جيوبها المزوّدة بسحّابات، ووقع على استمارات التسلم. لم يقدّم أي شرح، ولم يطلب منه ميهتي ذلك. فهما يعرفان بعضهما منذ مدة طويلة، وكان العريف يثق به. وأمل خليفة ألاّ يُقحم الشرطي القديم في المتاعب، ولكن إذا حدث ذلك... حسناً، لا يمكن إصلاح الأمر. لا يمكن إصلاح أي شيء بعد الآن. ولا شيء يهّم بعد الآن، باستثناء الثغرة. أرجوك يا الله لا تدعهم يُحكّمون الطّوق.

حمل الحقيبة، واستقلّ سيارة أجرة حتى النهر، ومن ثم ركب زورقاً آلياً في اتجاه الضفة الغربية، وبعد ذلك استقل سيارة أجرة أخرى إلى أسفل التلال الطيبيّة. وفي الجانب البعيد لتلك التلال يقع وادي الملوك في الكتلة الجبلية كما لو أن شركة ضخمة قد استُخدمت لحفره. وبسبب افتتاح المتحف الليلة بحضور شخصيات هامة، سيكون كل درب في الوادي مضاءً بأنوار كشافة ومليئاً برجال الشرطة. ولكن، بالاتجاه جنوباً على امتداد السلسلة الجبلية، مروراً بمدينة هابو، وحقل ملقاطا حيث الأنقاض والخزفيات المبعثرة، ودير دير المهرّب بقبه المماثلة لخليّة النحل وجدران المبنية بأجر طيني، افترض أنه سيكون قادراً على المرور بجانب النّطاق. وهكذا كان. لقد سلك درباً غير معروف في اتجاه الناحية الخلفية للتلال، ودار حولها، وشقّ طريقه نحو الجُرُوف عند رأس الوادي، والشّقّ الذي يتوارى في داخله مدفن تحتمس الثالث. وإلى يسار ذلك الشقّ، تتأ من الجُرُوف قائمة فيل ضخمة تخطو، وأرض مرتفعة ومسطّحة تُشرف على منظر مباشر لا يعيقه عائق، ويمتد من الوادي حتى وسط المتحف. إنها نقطة الضعف؛ الثغرة. إنه المكان الذي لم يقلق أحد بشأنه لأن أحداً لا يمكنه الوصول إليه بسبب تغطية كل الدروب القائمة فوق التلال. ولكنه وصل إليه، وسيقوم باستخدامه.

تمهّل للحظات، معائناً المنحدرات، ومتأكداً من عدم قيام أحدهم بمراقبة الأرض المرتفعة الناتئة، ومن ثم واصل سيره. وصل إلى جدار صخري منخفض يمتد حول حافة الأرض المتقوّسة؛ مصدّاً للريح يعود تاريخه إلى ثلاثة آلاف عام استخدمه حراس الوادي الأقدمون. فحثم وراءه. وأمامه، على بُعد أقل من ثلاثئة متر، كان صفّاً من الأنوار الكشّافة يُضيء الواجهة الزجاجية والحجرية للمتحف الجديد. إنه متحف بارين في نكروبوليس الطيبية.

وأمام المتحف، ظهرت بوضوح المنصة الخشبية التي تجمّع عليها الوجهاء لمشاهدة احتفال افتتاح المبنى.

وفي مكان ما وسط أولئك الوجهاء...

أخفض رأسه، وفتح سحاب الحقيبة، وأخرج البندقية بهدوء. إنها بندقية قنّاص من طراز دراغونوف أس في دي 7.62 ملم، من تصميم روسي وصناعة مصرية، مداها الفعلي 1300 متر، أي أكثر مما يحتاج إليه بألف متر. فوضع المِشط الذي يتّسع لعشر طلقات - أكثر مما يحتاج إليه بتسع طلقات - ورفع رأسه مجدداً، وتمركز، واضعاً ذراعه اليسرى على أعلى الجدار، ومثبتاً المقبض الخشبي على كتفه اليمنى. لافاً إصبعه على الزناد، وضع عينه على منظار التصويب. فجأة، زالت المسافة الفاصلة، ووجد نفسه هناك مع الوجهاء على المنصة.

فالرئيس الحسني هو أول شخص رآه. كان شبيهاً بالثور ومتعرّقاً، ويجلس على مقعد في الناحية الخلفية للمنصة، وعُنقه ينتأ خارج ياقة قميص بيضاء ضيقة جداً. وبمهمة خالية من أي حسّ بالفكاهة، تساءل عما إذا كان يُفترض به إرداءه أيضاً سيّما وأن الفرصة متاحة له. ووجّه البندقية إلى اليمين، معائناً المنصة. لقد عرف وجوهاً قليلة من مصلحة التُّحف الفنية القديمة: مصطفى أمين؛ رئيس المجلس الأعلى للتُّحف الفنية القديمة، الدكتور مصري المصري؛ مدير مصلحة التُّحف الفنية القديمة في الجبال الطيبية الغربية، والذي يشغل منصبه هذا منذ مدة طويلة، إضافةً إلى عدد قليل من المسؤولين الحكوميين المحليين. فالصف الأمامي هو ما أثار اهتمامه في الواقع، وقد ثبت منظار التصويب عليه، متبّعاً خط الوجوه. وزير الداخلية، الحاكم الإقليمي، رئيس بلدية الأقصر، زاهي حواس، شخصان أجنبيان، أحدهما السفير الأميركي كما اعتقد.

وفي وسط الصف ناتانيل بارين الجسيم والمتجهّم والذي يرتدي بذلة تويد ثقيلة بالرغم من حرارة المساء، وقناع الأكسجين مثبت كالبطليّنوس على وجهه. كان قد خشي من قيام بارين بالامتناع عن حضور الاحتفال بسبب أحداث المساء السابق، ولكنه موجود ويهيمن على المشهد كتمثال فرعوني ضخّم متأمل أهكته عوامل الطبيعة.

واضعاً الرأس الأشيب ضمن بؤرة منظار التصوير، شدّ خليفة إصبعه، وعاد الزناد إلى الوراء.

سيتم القبض عليه بدون شك. فلحظة إطلاقه العيار الناري، ستُحكم حلقة من أربعمئة شرطي الخناق عليه كأنشطة جلاّد. وإذا لم يُطلقوا النار عليه لدى رؤيتهم إياه، فسيُجرّ بعيداً ويُعدّم رمياً بالرصاص أو شنقاً في وقت لاحق. وإذا لم يتم إعدامه، فسيصدر بحقه حكم بالسجن مدى الحياة وبتخطيط الصخور في مقالع طرّة، وهو أشبه بحكم الإعدام. وستحمل عائلته أيضاً - زينب، بطّاح، يوسف الصغير - وزر عمله. سيُطردون من شقتهم، ويُنبذون نظراً إلى كونهم أنساب مجرم شهير.

لم يكن يُبالي، حتى إنه لم يكن يفكر في ذلك. فكل ما يفكر فيه هو قتل الرجل الذي قتل ابنه، وصديقه، وقتله أيضاً بطريقة ما. الرجل الذي يُعتبر رمزاً لكل أمثاله الأثرياء كثيري النسيان؛ الأشخاص الفاسدين الذين لا يجوز المساس بهم، مسيئي المعاملة المتمتعين بامتيازات، مسبّي المآسي. فعلى غرار مُدمن مخدرات يتحرّق لتناول جرعة التالية، لم يكن احتمال فقدانه المال يعني له شيئاً، حتى إن ذلك لم يُحدث أي انطباع في نفسه. فكل تركيزه منصبّ على عملية الإطلاق؛ الضغط على الزناد، ثقب الإبرة، لحظة زوال السواد وعودة كل شيء في العالم إلى الطريق القويم مجدداً.

أرى ذلك في عينيك يا يوسف. إنه نابع من الغضب، والكراهة، والألم، ولا يمكن إلا أن يؤدّي إلى مزيد من الألم.

ولكن، قد لا يعود هناك المزيد من الألم. لقد عانى الكثير، متاهة من الألم، وهذا هو المخرج الوحيد.

... استخدام الوسائل القذرة التي يستخدمونها.

وضغط إصبعه نصف درجة إضافية، مُعيداً الزنبرك إلى الوراء، وبؤرة منظار التصويب مركزة على وسط رأس بارين الأكبر حجماً من المعتاد. كان باستطاعته سماع عزف الموسيقى، بلادي، بلادي، بلادي، النشيد الوطني المصري. وفي الناحية الأمامية للمنصة، كان أحدهم يُلقي خطبة يُطري فيها على شركة بارين، ممتدحاً فضائل الشركة، وشاكراً لها سخاءها الرائع مع شعب مصر.

الله سيكون قاضي هؤلاء الأشخاص. فهو، سبحانه وتعالى من سيعاقبهم، وليس أنت.

إن القانون عاجز بالتأكيد في وجه هؤلاء. فالأولوية لأمثال بارين في هذا العالم الذين يدوسون على أمثال خليفة، وبين - روي، وريفكا كليبرغ - وعطية، وحلمي، وسامويل بينسكر، وإيمان البدري - بدون أن يلتفتوا أو يكثرثوا. هل هناك وسيلة أخرى يمكنه أتباعها؟ كيف يصوب الأمور بطريقة أخرى؟

سأقاتل إذا اضطررت لذلك. ربما أكون فقيراً، ولكنني لا أزال رجلاً.

وطرف عينيه لإبعاد قطرة عرق، وسحب الزناد مقدار ربع مليمتراً إضافي وصولاً إلى حافة إطلاق النار. لقد بدا الأمر كما لو أنه يقف أمام جدار من الزجاج الرقيق برقّة الورقة قد يتمزق مع أخف نسمة.

وقف بارين محرّكاً نفسه على ساقين منتفختين، وهو يجرّ خطاه في اتجاه الناحية الأمامية للمنصة بمساعدة إطار المشي. وكان هناك تصفيق وتنحّج أجشّ وسعال مع إنزال الرجل المسنّ قناع الأكسجين، وزعيق تشويش في أثناء ضبط الميكروفون. وشرع بالكلام.

ولكنه لم يكن يتكلم، أو على الأقل، إن ما سمعه خليفة ليس صوت بارين. راکعاً هناك والبندقية مثبتة على كتفه، وإصبعه ملتفة بإحكام حول الزناد، وكل عالمه مركّز في مسافة الأمتار الثلاثة التي تفصل بين البندقية والهدف، وعلى بُعد جزء من اللحظة من إطلاقه الرصاصة، رنّ فجأة في أذنيه صوت آخر، وبوضوح.

التقططني يا أبي! ارمني إلى الأعلى والتقططني!

أغمض عينيه وفتحهما مجدداً.

أدبرني! أدبرني!

وهز رأسه، محاولاً التخلص من الصوت والمحافظة على تركيزه.

سأكون حارس المرمى يا أبي. اركن.

لم يتمكن من إسكات الصوت.

رجاءً، هل يمكننا الذهاب إلى ماكدونالدز! رجاءً! رجاءً!

انحنى رأسه إلى الأمام، وأرخيت إصبعه. ومنح نفسه لحظات، والعرق يلسع عينيه، وقلبه يخفق بقوة، ونفسه يندفع بسرعة. وبعد ذلك، رفع نظره مجدداً، وسدد، لافاً إصبعه حول الزناد.

فزتُ بجائزة في المدرسة!

وتشنج جسمه.

أنت أفضل تحرّ في مصر، يا أبي!

كان هناك شيء ما في صدره وحلقه، صوتٌ نابع من عمق داخله. ليس نشيجاً أو غصة، بل شيئاً أكثر عمقاً نابعاً من عمق أعماقه. وناضل لقمعه، وسحب رأسه إلى الأعلى، وصوّب على بارين مجدداً. ولكن أصواتاً أخرى ظهرت. كانت تملأ رأسه وتناديه.

لم أعد أعرفك. عشرون عاماً، وفجأة لم أعد أعرف زوجي.

حماية عائلتي وأطفالي. إنه أعظم واجبات الرجل.

أنت الأفضل يا أبي.

يا حبي، يا نوري، يا حياتي.

التقطني!

أفضل رجل في العالم.

أدرني!

ما تقوم به نابع من الصلاح في قلبك.

لا أستطيع تناول شطيرتي ماكس كبيرتين!

ومن ثم، انطلق الصوت الأعلى بوضوح وسط تلك الأصوات:

إنه يرقد بسلام. هناك نور ذهبي، وعلي يرقد بسلام داخله. لا تنسَ ذلك

أبداً.

وتمايل شيء ما داخله. أهو ذلك الصوت مجدداً؟ باستثناء أنه ليس صوتاً فحسب، بل أكثر من ذلك... إنه بخار، سواد حالك بمقدار السواد داخل المتاهة

يتموّر داخله. ورفع جسده، وفتح فمه كما لو أنه يريد التقيؤ، علماً أن شيئاً ملموساً لم يخرج. في الوقت نفسه، شعر كما لو أن كل شيء يخرج، واحداً تلو الآخر، وهناك المزيد، دَفَقَ من السواد الكالح لا يمكن إيقافه يتدفق من داخله كتدفق النفط من البئر.

وبعد ذلك، انتهى كل شيء كما بدأ. كان راکعاً هناك والبندقية في يده، وإصبعه حول الزناد، وبؤرة منظار التصويب مصوبة إلى وسط رأس بارين الشبيه بجلمود، كما كان الحال في السابق، وفي الوقت نفسه، بخلاف كل ما كان في السابق. لقد استنزف شيء ما. رافعاً إصبعه عن الزناد، أدار البندقية بتأنٍ ووضعها على الأرض، وطرف عينيه بسرعة كما لو أنه قد استيقظ للتوّ من حلم جليّ، غير واثق من حدوث ما ظنّ أنه حدث.

ركع هناك للحظات عدة، وزجرة صوت بارين المشوشة والمكبّرة تنحرف صعوداً من الوادي، ويبدو القمر في توازن على قمة القرن في الأعلى. ومن ثم، فكّ منظار التصويب ببطء، وأخرج المشط وأعادته مع البندقية إلى حقيبة الخيش. وأقفل السحاب، ووقف.

لقد حدثت جرائم مروّعة، ولن تتحقق العدالة أبداً على الأرجح ما لم يُخرج الله شيئاً ما مدهشاً من القُبعة. فالعالم مكان مُظلم أكثر من أي وقت مضى. وعلى غرار طوف ورد النيل الذي ظهر من العدم لينقذ حياته - وليس حياة صديقه العزيز - فوجئ بوجود قَبَسٍ من نور، وأمل؛ منارة تُرشده في ظلمة الليل. كان يعرف أيضاً المكان الذي يبحث عنه فيه. معلّقاً الحقيبة على كتفه، أدار ظهره للوادي وانطلق في رحلته الطويلة إلى المنزل.

القدس

انحنى جويل ريغيف إلى الأمام عندما عرض البرنامج كلمة المرور التي يحتاج إليها: مينوراه3. لم تكن كلمة مرور بسيطة، ومع ذلك تمكّن البرنامج من كشفها في أقل من خمس دقائق. ربما تعتقدون أن الشرطي يعي هذه الأمور، ولكن ريغيف

لم يكن يهتم بها. لم يكن مهتماً بأي من هذه الأمور. كان يقوم بهذه المهمة لأن دوف التمس منه القيام بذلك، قائلاً إن الأمر هام. أدخل كلمة المرور، وضغط على زر المتابعة.

"لديك عمل"، نادى عندما ظهرت الشاشة.

فقدم زيسكي من المطبخ حيث كان يُعِدُّ القهوة، وأخلى ريغيف الكرسي له.

"لا حاجة لي لأقول لك إن التسلل إلى ملفات الكمبيوتر التابعة للشرطة عمل غير قانوني كلياً".

"لدفائق قليلة فقط. أحتاج إلى التحقق من أمر ما".

"حسناً، تحقق منه بسرعة. لقد تمكنتُ من تأخير عملية تعقبنا، ولكنني لا أزال غير راغب في المجازفة".

فرفع زيسكي إهامه وانحنى في اتجاه الشاشة، ونظَّارته ذات العدستين المستديرتين تنوَّهَج في الضوء المحيط. وتركه ريغيف لعمله.

لقد مات بن - روي. تلك هي الأنباء التي كانت قد وردت إلى المركز في وقت متأخر من بعد الظهر. لم يكن هناك تأكيد مُطلَق أو تفاصيل باستثناء اتصال مجهول الهوية تم تلقيه من شخص ما في مصر. لم يكن زيسكي بحاجة إلى تفاصيل. فالأمر متعلق بقضية كلينبرغ بدون شك، القضية التي تناولتها الصحف المصرية وطففت على واجهة الأحداث، وعلى نحو غامض، بعد ظهر اليوم السابق. لم يكن أحد يعرف السبب، ولكن كان باستطاعته وضع تخمين شخص مثقف. لقد بلغه سرَّيان شائعة عن قيام بن - روي بتوجيه بريد إلكتروني أزعج البعض مما أدَّى إلى إيقاف التحقيق في القضية.

كان بحاجة إلى رؤية البريد الإلكتروني. لهذا السبب، قام باستدراج جويل ليقوم باستخدام مهاراته في ميدان أمن شبكات الكمبيوتر بهدف ولوج حساب بن - روي. محرَّكاً الفأرة بشكل دائري، ضغط على أيقونة البريد الإلكتروني، ومن ثم على أيقونة البريد المُرسَل. كانت أولى الرسائل المُدرَّجة وآخر رسالة هي تلك التي وجهها بن - روي لليه شاليف، كما أرسل نسخة عنها للرئيس غال والضابط المسؤول يوم، وتحمل عنوان: حُلَّت القضية.

مزيلاً المشابك التي تثبت قبعته، وهي القبعة التي يعتمرها الرجال اليهود، أسند ظهره وقرأ.

لقد جُرحت مشاعره بسبب طريقة تكلم بن - روي معه في لقائهما الأخير - "عليك أن تتوجه لي بقلب يا سيدي!" - ولكن ذلك لم يقلل من إعجابه بالرجل بأي حال. ففي قوة شرطة معظم أفرادها من المتعصبين والأغبياء، أثبت بن - روي أنه من الأشخاص الصالحين، لا بل الأفضل. ولهذا السبب، شعر بالانزعاج بسبب عدم قيام بن - روي بإشراكه في التحقيقات في الأيام العشرة الأخيرة ("ولكن، ليس بذلك المعنى!" كان باستطاعته سماع صوت بن - روي تقريباً وهو يقول ذلك).

ولهذا السبب أيضاً، كان لديه شعور غريب بأن بن - روي يوافق على ما يقوم به الآن، ويحضه بطريقة ما ومن مكان ما. فعلى غراره، كان الرجل الجسيم يضطلع بالأمور على طريقته الخاصة. لقد شكلاً فريقاً جيداً، وكان بإمكانهما تشكيل فريق رائع.

قرأ التقرير حتى النهاية، وكان اندهاشه يزداد مع كل صفحة. وأعجب أيضاً بطريقة بن - روي في ربط كل الأمور ببعضها. وبعد ذلك، مدّ يده وتحسس بأصابعه البندول الفضّي الذي يحمل عبارة ماغن دافيد والمتدلي من سلسلة يضعها حول عنقه، وحاول تبيان ما يتعين عليه القيام به لأنه يجب عليه القيام بأمر ما. لم يكن يستطيع تناسي الأمر. فهو يدين بذلك لبن - روي، ولوالدته أيضاً.

"سأكون شرطياً جيداً"، كان قد وعدّها في تلك المرة الأخيرة في المستشفى، ممسكاً بيدها، وممرراً يده بنعومة على رأسها الذي صّلع قبل الأوان. "حاول على الدوام القيام بالأمر الصائب، وتقديم فاعلي السوء للعدالة".

فكر لدقائق قليلة، لاهياً بالقلادة. ومن ثم، أوماً برأسه وابتسم، وبحث عن اسمين في محرك البحث غوغل. ضاغطاً على زر في اتجاه الأمام الخاص بالبريد الإلكتروني، نسخ العنواين المتعلّقين بموضوع البحث: natan-tirat@haaretz.co.il و mordechaiyaron@gmail.com. وكتب كلمة سكوب في خانة الموضوع، وضغط على كلمة أرسل، وانتظر حتى تأكد من إرسال البريد، ومن ثم أطفأ الجهاز ودخل المطبخ، متسائلاً عن نوع القنبلة التي فجّرها. "هل تريد كوباً من الشراب؟".

الأقصر

كان ناتانيل بارين واقفاً على شرفة جناحه في فندق وينتر بالاس، حانياً جسمه الضخم المصاب بمرض الاستسقاء على الدرازين الحجري، ومحدقاً بالنيل في اتجاه التلال الطيبية الحدباء.

كان قد قام بما يلزم في وادي الملوك، وعاد إلى الفندق، وتناول العشاء بمفرده. لن تعرفوا أبداً من ملامح وجهه إذا كان حزيناً أم لا. وحدهما يداه ثلُمِحَان إلى انزعاج عميق وإلى مناجاة أكثر عَصْفاً. كان قد كَوَّر قبضتي يديه، فيما أظفاره المصفرة تُخدش جدار الشرفة المنخفض كما لو أنها خُطافات جزَّار تنغرس في ذبيحة.

وقف لمدة ثلاثين دقيقة تقريباً، مهدداً إلى الأمام والوراء، وأبواق السيارات تلعلع من دون توقف في الأسفل، إضافةً إلى ثُرثرات العائلات المتنزهة على امتداد الكورنيش. وبعد ذلك، تنهَّد وعاد إلى داخل الغرفة، جاراً قدميه. "سآوي إلى الفراش الآن يا ستيفن".

خرج الخادم من الظلال، وبعد إيماءة مُدعنة بالرأس، شرع بإعداد سيده للاستلقاء على السرير. فساعده على خلع ملابسه وارتداء ثياب النوم، وأمسك ذراعه في أثناء تثبيتته جسده الضخم على الفراش، وحمل له صينية الدواء؛ صفّاً من الحبوب المختلفة الملونة الموضوعة بترتيب، والتي يتناولها واحدةً تلو الأخرى مع حليب قليل السخونة. وبعد تناولها، أبعد الصينية، وساعد الخادم بارين على إلقاء ظهره على كومة من الوسادات، وسحب الأغطية حتى وسط صدره، وسلّمه قناع الأكسجين، وتفحص الخزان للتأكد من سلامة تدفق الأكسجين. وبعد إطفاء كل الأضواء باستثناء المصباح الموضوع على الطاولة بجانب السرير، تمّنّى لسيدة ليلة هائلة وانسحب.

عندما أصبح بمفرده، حدّق بارين بالسقف. كان صدره يتحرك صعوداً ونزولاً كمنفاخ حدّاد، والغرفة تردد صدى غرغرة تنفّسه الأَجَش. مرت دقيقة، وبدأت عيناه تغمضان، وانزلق جفناه ببطء فوق قُرْحِيَّتِي عَيْنَيْهِ. وعندما لم يتبقَّ سوى خط أبيض رفيع، أمسكت يداه فجأةً قماش الأغطية

بإحكام وهمس شيئاً ما، كلمة واحدة كتمها قناع الأكسجين. لقد بدت كما لو أنها "عنصري".
ومن ثم أغمضت عيناه ونام.

* * *

ها أنا أنتظر نصف ساعة قبل العودة إلى الجناح. وكما توقعتُ، لقد نام نوماً عميقاً. لم يكن العقار المهدئ الذي أضفّته إلى الحليب ضرورياً على الأرجح - فوممه عميق على الدوام - ولكن في هذه الحالة، عليّ أن أكون أكثر احتراساً من العادة. لم أطق فكرة استيقاظه وقد تمّ تطهيره جزئياً، ليرمقني بإحدى نظراته تلك؛ إذ سيكون الأمر مُحرجاً للغاية. ما كنت لأقوم بذلك قطّ.

لازمت الغرفة لمراقبته لفترة قصيرة. أنا أختبر شعوراً لا يرقى إلى مستوى الخوف. لقد أدّيتُ خدمتي لدى العائلة لمدة ثلاثين سنة، كما فعل والدي قبلي. ربما تظنون أن هذا الرّدح الطويل من الزمن - نصف حياتي تقريباً - يولّد شعوراً أكبر. ولكنني أكاد لا أشعر بشيء. فكل عذابسي قد انتهى، وأصبحت الشكوك ورائي. وها أنا أفأف الآن في النفق، نفق الضوء، وكل ما يشغلني هو عملية التطهير والقيام بعلمي باذلاً أقصى قدراتي.

عبرت الغرفة نحو خزانة الملابس، وأخرجت إحدى الوسادات الاحتياطية الجميلة، والقاسية. وبعد ذلك، توجّهت إلى السرير، ورفعت قناع الأكسجين ووضعتّه جانباً، وأمسكت جانبيّ الوسادة بإحكام من دون جلبة، ووضعتها على وجهه ممارساً ضغطاً كافياً ليختنق من دون ترك علامات محسوسة.

لقد استخدمتنا العائلة على الدوام للقيام بأعمال تطهير خاصة، تلك التي تتطلب دقة وحصافة وتحمل معنى خاصاً لخير العائلة (هذه العملية تحمل معنى أكبر!). قيل لي إن والدي كان يتمتع بمهارة عالية في التطهير. وأنا على غرارهِ أيضاً، ولكن بطريقي الخاصة. لقد نسيْتُ عدد المرات التي استدعيتُ فيها لإزالة حالةٍ ما من الفوضى من شأنها أن تُحدث ضرراً.

لديّ عمل صغير آخر لك يا ستيفن. التفاصيل في المغلف.

في الواقع، لم أنسَ عدد العمليات قَطْ. فالحصيلة تبلغ اثنتَين وثلاثين عملية، وتصبح ثلاثاً وثلاثين إذا احتسبتم عملية الليلة. وهذا ما سأقوم به بالطبع. فمصلحة العائلة هي مصلحة العائلة أيّاً يكن من يُصدر الأمر.

ناضل أقل مما تصوّرتُ. إنه يكاد لا يناضل في الواقع: محاولة لتقويس الظهر، ومقدار قليل من الارتعادات، ولكنه همد بعد عشرين ثانية. واصلت الضغط، غير راغب في المجازفة، عادداً حتى المتّين، لضمان تنفيذ العملية فحسب. ومن ثم رفعت الوسادة. هناك دهشة على وجهه تبلغ حد الغيظ، ويعود سبب ذلك على الأرجح إلى فتحه عينيه وفمه. أرخيت جفنيه وأغلقت فمه فتبدّل تعبير وجهه. إنه ينعم بالراحة الآن، لا بل إنه هادئ؛ كما تتوقعون تماماً من رجل سيئ يموت بسلام في أثناء نومه.

لا أشعر بأي نوع من الأسى، أو الندم، أو الحزن. لقد انتقلت عصا البدل، وانتقل معها ولائي. يبدو أن لا حاجة للأنسجة.

وضعت قناع الأكسجين مكانه، وملّست الوسادات تحت رأسه، ونفضت وسادة التطهير وأعدتها إلى الخزانة. وتحققت للمرة الأخيرة، ثم التقطت الهاتف المحمول، وطلبت الرقم ونقلت النبأ السارّ.

كنت أرى شيئاً ما على الدوام في السيد وليام، شيئاً ما تعمّد والده تجاهلّه كما يبدو. الموهبة. القدرة. كانت السيدة راشيل امرأة جيدة على طريقتها، ولكنها لم تكن لتصبح المستقبل قَطْ. برأيي، كان السيد وليام الطريق الوحيد المضمون للمضي قدماً.

لهذا السبب، عندما دنا مني وشرح لي أن الوقت قد حان لبدء فصل جديد، وطلب مساعدتي، لم يكن القرار صعباً. فالعائلة، كما ترون، كل شيء بالنسبة إليّ، وأهمّ من مجموع أفرادها. هذا ما علّمني إياه والدي. وهذه هي العقيدة التي عشتُ حياتي في ظلها. فبسبب مرض السيد ناتانيل، كان يجب ضمان الخلافة، وحماية مستقبل العائلة. والسيد وليام هو المستقبل.

ليس القرار صعباً أبداً.

وعندما أخبرته أن الأمر قد تمّ، أفرط السيد - السيد الجديد - في كيل المديح لي. لا يُفترض بي التّوق إلى ذلك - إنه عملي بالرغم من كل شيء - ولكنني لا

أتمالك نفسي عن الشعور بنشوة الرضى. وها هو يقترح أن أعتبر نفسي في إجازة، وأذهب حيثما أشاء، فكل النفقات سيتم تسديدها. ولكن، لماذا أرغب في القيام بذلك؟ فمكاني هو مع العائلة، في قلب العائلة، أخدم بأي طريقة ممكنة.

ألقيت نظرة أخيرة على المكان - لا يسعكم إلا الاحتراس حيث تجري عمليات التطهير - ومن ثم انسحبتُ إلى غرفتي. لستُ شخصاً مُسرفاً، ولكنني أعتقد أنني قد أطلب شيئاً من جناح خدمة الغرف في هذه المناسبة، كوب شاي لذيذاً ربما، مع قطعة بسكويت تساعدني على ابتلاع الشاي.

فالمستقبل يبدو مُشرقاً، كما أعتقد.

الخاتمة

بعد ثلاثة أشهر

وفي كبير التحرين آري بن - روي في مركز شرطة القدس بوعده.
لن يعرف أحدٌ كيف وصل إلى هناك. لا بد أن التيارات في تلك الناحية من
المتوسط قد سحبت في اتجاه معاكس تماماً. ربما حملته موجة غربية. ربما علق في
شبكة مركب صيد. ربما - وهذا ما اختار خليفة أن يصدّقه - ساعد الله ذاك
الرجل الجسيم لأنه كان يملك قلب شخص صالح، ومستقيم؛ بالرغم من شخصيته
المغيظة، وهو أحد أفضل أصدقاء خليفة الذين حظي بهم يوماً. فالله يرى كل شيء.
الله يرى كل شيء.

أيّاً تكن الحقيقة - موجة، شبكة صيد... - قرابة الساعة السادسة والنصف من
صباح دافئ واضح الرؤية، وبينما كان الزعيق يعلو في جناح الولادة في مستشفى
هداسا في القدس، رأى شخص يسير مع كلبه على الشاطئ، جنوب بات يام، شيئاً
طافياً في الماء. فاقترب من حدود حركة المدّ والجزر، وشاهد الأمواج تدفعه في اتجاه
الساحل. لقد اقترب شيئاً فشيئاً، وعلا الزعيق أكثر فأكثر، حتى أطلقت صيحة ارتياح
جشَاء ومُرَهقة، ووُلد طفل صحيح الجسم، مُعافى، وأخذ أول نفس في اللحظة نفسها
بالتحديد التي رفعت فيها الموجة الجثة ووضعتها برفق على الرمال. كان جسده محفوظاً
تماماً بالرغم من وجوده في الماء لمدة طويلة، وترسم على وجهه ابتسامة واسعة.

عاد آري بن - روي إلى الوطن.

كان خليفة يعرف كل ذلك لأنه تلقى بشكل مفاجئ اتصالاً من سارة. كانا
على تواصل في الأشهر السابقة، وقد وجّه لها خليفة رسالة شرح فيها ظروف وفاة
بن - روي. في هذه الحالة، وبوجود طفل عليها الاعتناء به، لم تتحدّث لمدة
طويلة، بل زوّدته بآخر التطورات، وطلبت منه خدمتين. أن يكون حاضراً في
جنازة بن - روي. وأن يكون عزّاب ابنتهما حديث الولادة.

بالطبع، أجاب خليفة. يُشرّفه أن يُبَيّ النصّين.

لذلك، تم حجز مقاعد على متن الرحلات الجوية وأماكن في الفنادق بسرعة (بالرغم من اعتراضات خليفة لأنه لم يُسمح له بتسديد أي نفقات).

ووقف وعائلته على سفح تلة مُشرّفة على المدينة القديمة للقدس، في حين تمّ إنزال نَعش خشبي بسيط إلى داخل الأرض، وترتّم حاخام عميق الصوت ببطء ترنيمة كاديّش الجنازية اليهودية.

بيسغادال فييسكاداش شَمِي رابوه.

وفي أثناء إصغائه، مطأطئ الرأس، أمسك بإحدى يديه يد زينب، ولفّ باليد الأخرى بطّاح ويوسف بطريقة وقائية. وجد خليفة نفسه يفكر في كل ما حدث في الأشهر الثلاثة الأخيرة، وفي كل ما تغيّر.

لقد تناولت الصحافة قصة بارين/طمر النفايات السامة، بدءاً بإسرائيل، وانتشرت بسرعة على الصفحات الأمامية في مختلف أنحاء العالم. وبخلاف ما يكون عليه الوضع في هذه القضايا، لم تكن هناك أي محاولة للنفي أو التهرّب من المسؤولية، بل بالعكس. فقد نشر الرئيس الجديد للشركة، وليام بارين، إدانة علنية، وقَدّم اعتذاراً بسبب طريقة والده الراحل في إدارة الشركة. لقد وعد بأن الأمور ستكون مختلفة في ظل قيادته، بدءاً بتأسيس صندوق مالي لإزالة الفوضى التي خلّفها والده، ونقل البراميل، وتنظيف المَكمَن المائي، والتعويض على كل أولئك الذين عانوا بسبب التلوث بمبالغ كبيرة. لم يكن خليفة يملك أي فكرة عما إذا كان ذلك حقيقياً أم مجرد خطوة ساخرة لتحسين سمعة الشركة المشوّهة. فما يعرفه بالفعل هو أن عائلة عطية لن يتوجب عليها القلق في شأن المال لمدة من الزمن.

أما بالنسبة إلى زوسير فريت، فقد غُرِّمت بمبلغ مالي كبير، وأُخضع كل أعضاء مجلس إدارتها للتحقيق الجنائي، بمن فيهم شقيق وزير الداخلية. لم يتمكن خليفة قطّ من التأكد مما إذا كان الصنّدل الذي قتل ابنه أحد تلك الصنّادل التي كانت تنقل النفايات السامة، ولكنه شعر بقليل من العزاء عندما تبيّن من أن إخضاع شركة كبيرة تتمتع بالنفوذ مثل زوسير للقانون بشير ولادة مصر جديدة.

كان وزينب لا يزالان يشعران بالأسى لموت ابنهما، وسيبقيان كذلك على الدوام. وفي الوقت نفسه - ويصعب شرح ذلك لمن لم يختبر ما عانيه - انفتحت حياتهما بطريقة ما في هذه الأشهر القليلة الأخيرة. وبقي حزنها شديداً، ولكن

الأمر بدا كما لو أن دائرة تتسع حوله - ستمرر كمكان تتجذر فيه أمور أخرى وتزدهر. لم يعد الألم مهيمناً، ودار حديث حول محاولة إنجاب طفل آخر، علماً أنه لا دلالة على الحمل بعد. سيحين الوقت إن شاء الله.

كانت إحدى أولوياته بعد الليلة التي قضاها على متن السفينة إعادة دفتر المدونات التالف العائد لسامويل بينسكر. لذا، توجه جنوباً لزيارة إيمان البدري في أول فرصة سنحت له. لقد قام بذلك بقلب مُثَقَل بالأسى لأنه لم يفر بوعده لها. ولدى وصوله، أُبلغ بأن المرأة المُسنّة قد توفيت بسلام في أثناء نومها قبل أسبوع، أي ليلة قدومه لرؤيتها، كما لو أنها انتظرت طويلاً بما يكفي للقيام بتلك المهمة الأخيرة المتمثلة بمشاطرة أحدهم دفتر المدونات، ومن ثم سمحت لنفسها بالاستراحة. لقد زار قبرها، وأحدث حفرة صغيرة في التراب من دون أن يراه أحد، ووضع دفتر المدونات فيها. وبعد أسبوع، اقتفى آثار مدفن سامويل بينسكر في القاهرة حيث أفرغ منديلاً مليئاً بالتراب حصل عليه من قبر إيمان البدري. إنها بادرة صغيرة ولكنه أمل أن تعني لهما شيئاً. لم تكفّ زينب عن تذكيره بمدى لطفه. أُلغي بهدوء عرض الأسعار المتعلق بحقل الغاز الصحراوي الذي كانت بارين تسعى للحصول عليه، واختفت صفحة الويب التابعة لنمسيس أجندا بطريقة مُبهمة، ومن دون وجود أي سبب وجيه. لقد ظهرت تخمينات في غرف تبادل أطراف الحديث على الإنترنت تشير إلى تورط السي آي أيه، والموساد، ووجود مؤامرة رأسمالية دولية. ولم يتمّ التثبت من صحة أيٍّ من هذه الادعاءات التي فقدت أهميتها على المدى البعيد. كانت أجندا منارة ألهبت مخيلة كل أولئك الذين وثقوا بعالم أكثر عدالة. ولكن مجموعات أخرى ستواصل عملها، وستتمّ محاسبة المسيئين. في ما يتعلق بقصة راشيل بارين المأساوية، لم يتم الكشف عن أي شيء بطريقة علنية، أم إن شيئاً لم يبلغ مسمعي خليفة على الأقل في هذا الشأن. لقد أُمِل ودعا لكي تكون في سلام حيثما وجدت.

وتلقى خليفة رسالتين عبر البريد الإلكتروني يفصل بينهما يوم واحد، إحداها من صديق الطفولة محمد عبد الله الذي أصبح على درجة كبيرة من الأهمية في ميدان صناعة الإنترنت، والأخرى من كاثرين تايلر، وهي روائية أميركية ثرية ربطته بها صداقة عابرة قبل سنوات قليلة عندما كانت تُجري أبحاثاً في الأقصر لأجل كتاب جديد. كان قد نسي تماماً رسالتي البريد الإلكتروني اللتين وجهتهما لهما، لذلك بدا

الأمر بمثابة مفاجأة سارة بالنسبة إليه عندما أعربا عن سرورهما بالمساعدة على تمويل ملجأ الأطفال التابع لديمانا بركات. وذهب محمد عبد الله أبعد من ذلك، عارضاً دفع النفقات الكاملة لرحلة يقوم بها الأطفال إلى القاهرة لزيارة حديقة الأحلام، ومسرح الدُّمى، وقرية الدكتور رَجَب الفرعونية. طالما وجد خليفة القرية عديمة الذوق، ولكنه اعتبر أنه من الحفاظة قول ذلك في الظروف الراهنة.

أما ريفكا كلينبرغ، فمقتلها مسألة إسرائيلية، والمعلومات المتوافرة لدى خليفة حول هذه المسألة مُستقاة من الإنترنت. وفي حين يبدو تورط بارين في مقتلها أمراً لا نزاع فيه، لم يكن الإسرائيليون قرييين من الإمساك بالقاتل الفعلي. فعندما دخل الموقع في المرة الأخيرة، كان التحقيق يركّز على خيط جديد مرتبط بقاتل تركي محترف. وانتظر التطورات باهتمام.

وأشارت متممة/أومين إلى انتهاء المراسم، وأُخرج من حُلُم اليقظة. أمامه، انتظم رجال العائلة في صف، وتقدّموا واحداً تلو الآخر لإفراغ ملء مجرفة من التراب في القبر. ونظراً إلى كونه مسلماً، لم يكن خليفة واثقاً مما إذا كان يُفترض به المشاركة. ولكن، كان هناك كاهن في الصف - رجل قصير ممتلئ الجسم يرتدي رداء أسود، ويضع خاتماً أرجوانياً في إصبعه، ورمز النصارى الديني الفضي يتدلى من قلادة يضعها حول عنقه - لذلك قرر أنه لا بأس بذلك. انضم إلى الصف، ووقف وراء شاب نحيل يضع نظارة ذات عدستين مستديرتين ويعتمر قلنسوة زرقاء مُحَاكة.

"مع السلامة يا صاحبي"، همس في أثناء إفراغه مجرفته.

ومع انتهاء الجنازة وشروع الحشد بالتفرّق - حشد كبير جداً - دنت من عائلة خليفة امرأة تحمل طفلاً، وعرّفت بنفسها. كانت رحلتها الجوية قد أُرجئت فوصلاً إلى المقبرة في الوقت المحدّد تماماً، وهكذا، كانت تلك هي المرة الأولى التي يتحدث فيها إلى سارة.

"قل مرحباً لعرباك"، قالت مسلّمة إياه الطفل. فتجمّعت زيّب، وبطّاح، ويوسف حولهما في أثناء هدهدته الطفل.

"إنه وسيم"، قال.

كان ذلك صحيحاً. فهناك نعومة في قسّمات وجهه، وبريق في عينيّه، مما يوحي بأنه ورث من والدته أكثر مما ورثه من والده. وكان بن - روي سيقّر بنفسه لو كان موجوداً أن هذا ليس أمراً سيئاً.

"حتى إنني لا أعرف اسمه".

"لقد أطلقنا عليه اسم إيلي". قالت ساره. "إيلي بن - روي".

فشعر خليفة بغصة في حلقه.

"إنها مصادفة رائعة! ابني... لقد فقدنا ابننا... اسمه علي. إيلي، علي. إنهما الاسم نفسه تقريباً".

وابتسمت سارة ووضعت يدها على رِسه في إيماءة تريد بها القول: "لم يكن الأمر مصادفة".

فطرف خليفة عينيه، وكان عليه الإشاحة بنظره. ساد الصمت، ومن ثم انحت زينب وهمست في أذنه. "بالطبع، بالطبع".

متحكماً بمشاعره، قبل جبين الطفل وأعاد له لوالدته. ومن ثم، وضع يده في جيبه وأخرج علبة بلاستيكية صغيرة.

"منذ سنوات قليلة، عندما التقيتُ آري للمرة الأولى، أعطاني هذه"، قال. "لقد احتفظتُ بها منذ الحين. والآن، أعتقد أن هناك مكاناً أفضل لها".

وفتح العلبة. في الداخل، وعلى قطعة من القماش، كانت هناك مينورا فضيَّة صغيرة تتدلى من سلسلة. إنها المينورا التي اعتاد آري بن - روي نفسه وضعها. مُخرجاً إياها، مرَّرها خليفة برفق من فوق رأس الطفل. "أرأيت، مثل والده تماماً".

وشرع الطفل بالبكاء.

"مثل والده تماماً"، قالت سارة.

وقفوا للحظات في أثناء قيامها بتهدئة الطفل. وبعد ذلك، شاعرين بأنها بحاجة إلى الانفراد للحظات بطفلها وبذكرياتها مع بن - روي، استأذنوا وغادروا. كانت هناك طريق تمرّ بجانب المقبرة، فقرروا سلوكها وصولاً إلى أعلى التلة التي تُشرف على المدينة القديمة وتطلّ على منظر مُدهش. توقفت بطّاح ويوسف للتحديق بحديقة في الأسفل تحتوي على قفص كبير مليء بعصافير مرفرفة. وواصل خليفة وزينب السير قبل أن يجلسا على جدار. أمامهما، كانت قبة الصخرة تشتعل تحت شمس الصباح، وتطوّقها جدران المدينة الحجرية العملاقة، إضافةً إلى سطوح وقب وأبراج، وتقوم أشجار السرو بجانب بعضها بإحكام، حيث إنه يستحيل معرفة

مكان انتهاء إحداها وبدء الشجرة المجاورة.

هناك توتر في الأسفل، كان خليفة يعرف ذلك. غضب وامتعاض ومرارة وكره. كانت لديه آراؤه في الأمور الصائبة والخاطئة المرتبطة بالوضع. ولكن كل شيء يبدو هادئاً ومسالماً من الأعلى.

وأياً تكن الأمور الصائبة والخاطئة، كان بن - روي صديقاً، صديقاً مقرباً. هناك عبرة في ذلك، وأمل أيضاً.

جلسا هناك بصمت لدقائق عدة، سيقانهما متدليّ، وهما يراقبان مجموعة أشخاص يرتدون معاطف سوداء وهم ينحنون إلى الأمام والوراء أمام مدفن. وبعد ذلك، لفّ خليفة ذراعه حول خصر زوجته وقرّبها منه.

"أنا أفقده"، قال بهدوء. "علي. لقد أحببته كثيراً".

"أحبه كثيراً"، صحّحت له زينب وهي تستكين على صدره. "إنه هنا. سيكون هنا على الدوام".

فأوما خليفة برأسه، وقرّبها منه أكثر فأكثر.

"نحن بخير، أليس كذلك؟".

"بالطبع نحن كذلك. نحن فريق خليفة".

وابتسم لما قالت واستدار ليقبّلها، ولكنه قوطع بحركة وراءهما مع اقتراب بطّاح ويوسف. فاكفنى بالهمس في أذن زينب. وانضمّ الابن والابنة إليهما، وشبكوا أيديهم ببعضها. وساد صمت آخر، ولم يكن أحد يشعر بالحاجة إلى التكلم، بل كانوا سعداء جميعاً لوجودهم مع بعضهم. ومن ثم، رفع يوسف يده وأوماً.

"انظر يا أبي. هناك من يطير طائرة ورقية".

في المدينة القديمة، كان هناك مثلث أحمر صغير يخفق ويتحرك فوق مزيج متنوّع من السطوح. راقبوه لفترة قصيرة، ومن ثم شرعوا بالغناء معاً بصوت واحد.

تُطلق طائرتنا في السماء،

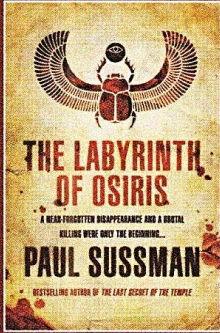
ونجعلها ترتفع عالياً.

كانت ترجمة ارتجالية غير بارعة. وبعد أن ترجموا نصف بيت من الشعر، انفجر الأربعة في نوبات من الضحك.

نبذة عن المؤلف

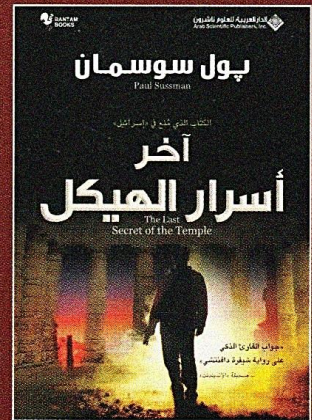
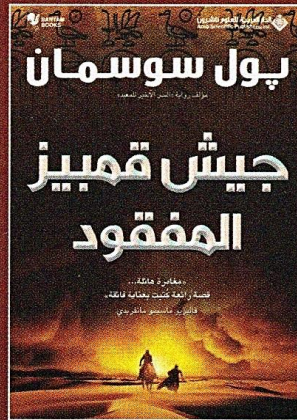
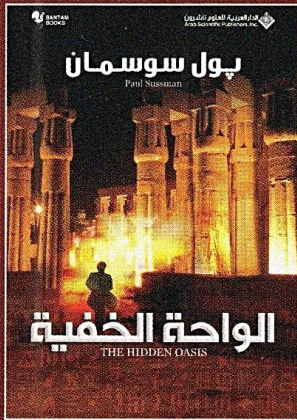
صحافي وعالم آثار ميداني سابق، يُقيم بول سوسمان في لندن مع زوجته وابنتيه. شهدت رواياته الثلاث رواجاً كبيراً على الصعيد الدولي، وُترجمت إلى أكثر من ثلاثين لغة.

تُقتل صحافية إسرائيلية معروفة باستقامتها في ظروف غامضة، ويتمّ العثور على جثّتها في دار عبادة أرمنية. يقود البحث والتحقيق التحريّ بن - روي إلى سلسلة معقّدة من الحوادث التي تعود به في الزمن إلى السوراء؛ إلى ماضي مصر العريق، وإلى الاتّجار بالجنس، وإلى مؤامرات حيكت بمهارة. وعندها، يُضطر إلى الاستعانة بصديقه المصري خليفة للكشف عن ملابسات تلك الجريمة.



في عالم تختلط به أحداث الماضي بالحاضر، نسج بول سوسمان خيوط روايته الأخيرة التي انتهت بحادثة مأساوية أسدلت الستارة على سلسلة روايات رائعة، وعلى حياة مؤلّف خصب الخيال؛ حثّنا على التفكير، وعلى دخول متاهات نضيع فيها في عالم غامض، وننتقل معها إلى الزمن الماضي.

صدر للمؤلف أيضاً:



علي مولا

ISBN 978-614-01-0639-0



9 786140 106390

جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات. كوم
www.nwf.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

